مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

كشف الأسرار وهتك الأستار

جمال الدين يوسف بن هلال بن أبي البركات الصفدي
(ت. ٦٩٦هـ/١٢٩٦م)

تحقيق
أ.د. بهاء الدين دارتما

مراجعة
أ.د. بكر طوپال أوغلي

المجلد الثاني

نشريات وقف الديانة التركي

نشريات وقف الديانة التركي
رقم النشر ٧٦٦-١
نشريات إسام ٢٢٧
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٣٧

كشف الأسرار وهتك الأستار
يوسف بن هلال الصفدي

المجلد الثاني

تحقيق أ.د. بَهاء الدّين دَارْتَما

المراجعة أ.د. بَكر طُوبَالْ أُوغْلِي

لقد تم إعداد كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق بمركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.
İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سُعَادْ مَرْتْ أُوغْلُو
إشراف الطبع أردال جَسار
تحرير قسم التحقيق أوقَانْ قَدير يِلْماز، أورْخان أَنْجَقار
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَمِيرْآي
التصحيح (العربي) أورْخان أَنْجَقار، أوقَانْ قَدير يِلْماز
(التركي) عيسى قايا أَلْبْ، إسماعيل أَزِيلْكِين
التصميم علي حيدر أُولُوصُويْ، حسن حسين جان (غلاف)،
رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر سماء دوغان

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام / İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجاي باش أُوغْلُو

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
رقم ٢٠١٨/١٨ وتاريخ ٢٠١٨/١٢/٢١.

الطبعة الأولى: إستانبول - بيروت، آذار ٢٠١٩م / ١٤٤٠هـ
الطبعة الثالثة: أنقرة، أغسطس ٢٠٢٣م / ١٤٤٥هـ
ISBN 978-625-7672-69-6 (مجموعة)
978-625-7672-71-9 (المجلد الثاني)

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr

يوسف بن هلال الصفدي
كشف الأسرار وهتك الأستار / يوسف بن هلال الصفدي؛ التحقيق: بَهاء الدّين دَارْتَما. الطبعة الثالثة – إستانبول؛ أنقرة: مركز البحوث الإسلامية (إسام)؛ وقف الديانة التركي، ٢٠٢٣.
المجلد الثاني، ٥٩٦ صفحة؛ ٢٤ سم. – (نشريات وقف الديانة التركي؛ ٧٦٦-١. نشريات إسام؛ ٢٢٧. سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٣٧)
يحتوي على الفهارس والمصادر
ISBN 978-625-7672-69-6 (مجموعة) 978-625-7672-71-9 (المجلد الثاني)

فهرس المحتويات

سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾

قوله تعالى: يٰأيها الذين ءامنوا أوفوا بالعقود، العقد ضد الحَلّ، والكلام مطلق. ولما كان العقد بالحَلِف أو باليد أو بغير ذلك مما يعتقده الإنسان، أو يعقده على نفسه باطنا أو ظاهرا في غير معصية، أو عَقَده عليه الله تعالى ومن تجب طاعته، كل ذلك يقال له: عَقْدٌ. جاء الكلام مطلقا ليعم. والعهود معناها قريب من العقود غير أن العقد أولى بأن يقال فيما فيه[1] حَجْر ومنع، كالشيء المعقود الذي لا يُحَلُّ إلا على شرط أو في زمن. وقيل: العهد لا يكون إلا من اثنين، والعقد يكون من واحد على نفسه. والمراد من هذا الأمر بالوفاء ههنا هو عقد الإحرام، أي أوفوا بأحكام العقود. والعقود[2] مضاف إلى أن الله تعالى أمر المؤمنين أن يُوفوا بعقود الله التي أوجبها عليهم وعقدها وحَكَم بها. ولهذا قال: إن الله يحكم ما يريد، كما ستعلمه. ويتناول هذا الأمر ما قدمناه من الخصوص والعموم. ولهذا قدمه أولا على جملة الكلام ليُفهم منه العموم، ثم خصصه بعد ذلك.

وقوله: أحلت لكم بهيمة الأنعٰم؛ يقال لما لا[3] يُميِّز بهيمةٌ، لأنه أُبهم عليه ذلك الأمر، ومنه الليل البهيم، وهو ما لا يتبين فيه المتضادّات لظلمته. والأنعام تُذكَّر وتؤنث، ويشار بها في كثير من المواضع إلى الإبل خاصة، وتشتمل[4] على المال، أعني الأموال الراعيَة خاصة. وقوله: أحلت، إنما يكون ذلك من مُحْرِم. فقال: أحلت لكم بهيمة الأنعٰم، حيث تكونوا، غيرَ محلِّي الصيدِ، أي غير محللين الاصطيادَ، أي وذلك وأنتم / حُرُم. فصار ما أحله الله تعالى من هذه إنما أحله عندما حَرّم الصيد، فلزم تحليله في غير ذلك الوقت[5] أيضا. و"غير" منصوبة على الحال، والاستثناء في قوله: [١٣١ظ]

---

[1] ك ن: فيما في.

[2] ش: العقود.

[3] ن – لا.

[4] ن: ويشتمل.

[5] ك ن: والوقت.

إلا ما يتلىٰ عليكم، سيأتي بعد. واعلم أن الاستثناء "إلّا"[1] لها معانٍ مختلفاتٌ باختلاف مواضعها، كما تقول: أطلقت لك اللحم إلا نَيْئا[2] تقديره إن لا نيئا، أي إن لم يكن نيئا. وتأتي بمعنى لكن وغيرِ ذلك مثل سوى، كقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[3] أي سوى ما شاء الله من أزمنة بعد السماوات والأرض. ولما كان قوله: **أحلت لكم بهيمة الأنعٰم**، يتناول سائر البهائم من الأنعام لهذا[4] قال: **بهيمةُ**، ليعم. ثم بعض البهائم من الأنعام قد حرّمها في مواضعَ أُخَرَ [فـ]وجب أن يستثني ما حرم. وأتبعه بما حرم من الصيد عند إطلاق القول فيما حلّل وإن لم يكن ما حرمه من غير الصيد تاليا لما حلله في المكان بعينه. فافهم حكمة هذا اللفظ وترتيبَه وحَرْزَ[5] العبارة. وقوله: **غيرَ محلِّي الصيد وأنتم حرم**. لمّا كان هذا الحكم بالتحريم له حكمة خفيةٌ لا يدركها كثير من الناس قال تعالى: **إن الله يحكم ما يريد**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾

ثم أضاف إلى ما زاده[6] ههنا أشياءَ مجملةً قد ذكرها في مواضعها مفصلة، فكررها تأكيدا وتنبيها لنا أن ما حرمه ههنا من الصيد هو في التحريم مثلُها، أعني مثل الميتة وما ذُكر بعدها،[7] فهذا من فوائد التكرار، فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا لا تحلوا شعٰئر الله**، الشعائر المَعالِم؛ واشتقاقها من قولك: شَعَر فلان بالأمر إذا علم به. ويشير إلى ما أشعر[8] الله فيه بأمر أو نهي. والمشاعر بالصورة الأماكنُ، كقوله: ﴿عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾.[9]

[1] جميع النسخ: لكن.

[2] ناءَ الشيءُ واللحمُ يَنِيءُ نَيْئاً، وأَنَأْتُه أنا إِناءة إذا لم تُنْضِجْه. والنُّيُوء وهو بَيِّنُ النُّيُوءِ والنُّيُوءة لم يَنْضَجْ. ولحم نِيءٌ بالكسر لم تَمَسَّه نار هذا هو الأصل (لسان العرب، «نيأ»).

[3] ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ (سورة هود، ١١/١٠٦-١٠٨).

[4] جميع النسخ: ولهذا.

[5] جميع النسخ: وحرر. | حرَز الشيء: بالغ في حفظه (المعجم الوسيط، «حرز»).

[6] جميع النسخ: أزاده.

[7] يشير المؤلف رحمه الله إلى الآية التالية.

[8] ك ن: إلى ما شعر.

[9] ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٩٨).

وأما الشعائر فتنطلق على الأماكنُ وغيرها، كقوله: وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ.[١] وواحدة شعائر شعيرة. وقد علمت قوله تعالى: إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ.[٢] فمعنى الكلام ههنا لا تُحلّوا ما حرّم الله في شعائر الله. والإشارة إلى جميع الشعائر. وهو نهي للمؤمنين أن يفعلوا ذلك مع الكفار، لأن الكفار كانوا يفعلون ذلك مع كفرهم مع المؤمنين فلا يجوز للمؤمنين مثلُه. فافهم هذا. ولهذا بعده: **ولا يَجْرِمَنّكم**، أي يُكْسِبَنّكم[٣] جرما. وقوله: **ولا الشهرَ الحرام**، أي ولا ما حرمنا في الشهر الحرام وهو القتال. **ولا الهَدْىَ**، أي ولا تُحلوا ما في أيدي الكفار من الهدي فتأخذونه منهم بل يُهدَى إلى الكعبة. **ولا القلٰئد**، وهي جمع قلادة، وكانوا يقلِّدون الهدي فلا بد من حُلِيّ وغيره، فنهى المؤمنين عن أخذ القلائد من الكفار. **ولا ءامّين**، قاصدين، **البيتَ الحرام**، وهم ههنا كفار، ويلزم الإطلاق أيضا، وهو منصوب على المفعول. **يبتغون فضلا من ربهم ورضوٰنا**، يعني الحجاج من الكفار تأليفا لقلوبهم، فكيف إذا كانوا مؤمنين. فجَمَع ذلك وأضافه إلى تحريم الصيد: وَأَنتُمْ حُرُمٌ،[٤] ليكون في التحريم بمنزلة واحدة. فلا يجوز أن تُحِلّ[٥] ما حرمه الله في شيء منها. ولما تقدم قوله: أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ، وحرّم الصيد، وَأَنتُمْ حُرُمٌ،[٦] قال: **وإذا حللتم فاصطادوا**، إذا حللتم العقد، تقول: حَلَلْتُ العقد أحُلُّه حَلًّا إذا فتحته. ولما كان قد تقدم تحريمُ الصيد مع العقد[٧] ذكر تحليله مع الحَلّ. ولا يشتبهْ عليك "حللتم"، فتظنَّه من الحلول بالمنزل،[٨] فإنه لا يخلو إما أنه إذا حل بالمنزل حل به وهو مُحرم، أو أنه قد فرغ من الإحرام. فإن كان محرِما فقد قال تعالى: **غير محلى الصيد وأنتم حرم**، وإن كان غير محرِم فقد حل العقد.

ولا يَجْرِمَنّكم، مشتق من الجريمة، وهي الذنب وحمل الإثم، يقال: جَرَمْتُ، أي كسبت ذنبا، وجارِم: كاسبٌ. وقوله: لَا جَرَمَ،[٩] هي في الكلام بمنزلة "لا بد" و"حقّا" و"لا بد وحقا"، ولا أحسب الذنب جرما إلا من هذا، لأنه كسب واقتراف. والمعنى أن الكفار لما كانوا يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام في بدء الإسلام نهى الله تعالى

---

[١] سورة الحج، ٣٦/٢٢.

[٢] سورة البقرة، ١٥٨/٢.

[٣] ن + معا.

[٤] من الآية السابقة.

[٥] ك: أن نحل.

[٦] من الآية السابقة.

[٧] ن: مع العقدة.

[٨] ن: بالمنزلة.

[٩] وردت هذه العبارة في مواضع عديدة، منها ما ذُكر في سورة هود، ٢٢/١١؛ وسورة النحل، ٢٣/١٦، ٦٢، ١٠٩.

[١٣٢و] المؤمنين عن أن يصدوا الكفارَ إذا جاءوا قاصدين البيتَ، أو / أن يفعلوا معهم شيئا مما كان يفعله الكفار. فقال ما معناه: ولا يُكسبنّكم ذنبا، شَنَـٰٔانُ، بُغْضُ، قومٍ، لكم، أن صدوكم، أي بسبب أنهم صدوكم، عن المسجد الحرام أن تعتدوا، أي لا يوجبوا لكم بشنآنهم لكم وصدِّهم المتقدمِ أنكم تَعتَدُون على ما نهيناكم عنه من القتال وغيره، فتفعلوا بهم كما فعلوا بكم من قبل. وتعاونوا على البر والتقوىٰ، فعل المكارم وما أمرْنا به واجتناب المآثم وما نهينا عنه. ثم قال ضدَّه: ولا تعاونوا على الإثم والعدوٰن. واتقوا الله إن الله شديد العقاب، لمن أحل ما حرمه الله. ولما كان الإثم والعدوان قُبالةَ البر والتقوى فهمْنا أن مِن الإثم تركَ العملِ بما أُمرْنا به، ومن العدوان فعلُ ما نُهينا عنه. ويحتمل العكس، أعني من الإثم فعل ما نهينا عنه. ومن العدوان تركُ ما أمرْنا به. وسيأتيك الفرق في الموضع الأليق به.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾

ثم أخذ يتمم القول فيما استثنى[١] من بهيمة الأنعام بقوله: إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ،[٢] فقال: حرمت عليكم الميتة، أي أكلُها، لأن إهابها[٣] يُطهَّر بالدباغ، والدمُ ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به. بيّنا في البقرة الفرق بين تقديم "به" وتأخيرها[٤] وبينا لفظة "أهل"، ومعناها من الظهور. وقوله، والمنخنقة، أي المنخنقة بنفسها، وهي غير المخنوقة لأن من المخنوقة ما يجوز أكله إذا كان الجارح المعلَّم خنقها، وأما المختنقة ففي الماء ومثلِه. وأراد بالمنخنقة كلَّ صورة يحصل منها الانخناق، إما بخُناقها أو بمرض ومثله. والموقوذة، التي قُتلت بالخشب، وذلك مِن وَقَذه يَقِذُهُ إذا ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت ثم مات. والمتردية، من الرَّدْي بأي نوع كان، مِن وَقْع كما قيل

---

١ ش ك: فيما استثنا.
٢ الآية ١ من هذه السورة.
٣ الإهابُ الجِلْد من البَقَر والغنم والوحش ما لم يُدْبَغ (لسان العرب، «أهب»).
٤ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ (سورة البقرة، ١٧٣/٢).

أو غير ذلك. والنطيحة، المنطوحة. وما أكل السَّبُع، أي منه، لأن ما أكله ليس بموجود. والسبع اسم لِما يفترس كالذئب وغيره. وقوله: إلا ما ذَكَّيتم، أي من ذلك كله. والتذكية في اللغة الذبح لكنه كما نقول: ولما كان الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به قد حرمه في غير هذا الموضع[١] علمنا ههنا من كونه أضاف إليه مضافا آخر أن الاستثناء في قوله: إلا ما ذكيتم، يشير به إلى المضاف، لأنه لمّا ذكر الأول أفرده عن الثاني. ولما أضاف إليه الآن ما يعرّفنا بالإضافة أنه في التحريم مثل ما قبله استثنى بقوله "إلا".

فإن قيل: ما الوجه فيما عدده من المنخنقة والموقوذة وبقية ما سماه والجميع ميتة، وقد أغنى [عنه] قوله تعالى في أول الآية: حرمت عليكم الميتة؟ فالجواب أن العرب كانوا يأكلون الميتة ويأكلون المنخنقة والموقوذة وجميعَ ما وصفه في الآية بعد موت ذلك الحيوان بأحد الأسباب المذكورة. ولو لم يعدد ذلك بعد تحريم الميتة لظنوا الميتة[٢] ما مات حتْفَ أنفِه[٣] بأحد[٤] هذه الأسباب المذكورة. فكانوا حرموا الميتة بحتف الأنف فقط. ولهذا لما بين الله تعالى أسبابا مخصوصة ربما وهموا فيها قدّم ذكْرَ الميتة مطلقا ثم تلاه بغيره. ولهذا لم يحتج إلى ذكر هذه الأسباب التي بها أيضا صارت الميتةُ ميتةً في بقية المواضع كقوله تعالى: قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا،[٥] الآية.[٦] فلم يذكر سوى الميتة فقط لاشتمالها في نفس الأمر على جميع ما قاله. لكنه ههنا فصّل لهم تفصيلا ينفي به[٧] عنهم الاشتباه. ويدلك على ذلك أيضا[٨] أن المذبوحة[٩] ميتة لكنها ميتة بذبح، فهي حلال لكونها ماتت بكسب منا مقيَّد بالأمر من الله سبحانه. وما مات بغير سبب معلومٍ عندنا مقيدٌ بالأمر، أو ما مات بأحد الأسباب المذكورة ههنا فهو حرام إلا ما سيُحلّه في الصيد. ولو قال: إلا ما ذبحتم لكان الإشكال عندهم واقعا من جهة جواز أنهم يذبحونها بعد موتها تقيدا بما يحتمل ظاهر اللفظ

---

١ انظر لذلك: سورة الأنعام، ١٤٥/٦؛ وسورة النحل، ١١٥/١٦.

٢ ن – لظنوا الميتة.

٣ ك ن + بغير.

٤ ك ن: أحد.

٥ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام، ١٤٥/٦).

٦ ن + فلم.

٧ ك ن: فيه.

٨ ك ن – أيضا.

٩ ك ن + أيضا.

عند من لم يخطر بباله تحريمُ الميتة. فقال: إلا ما ذكيتم، ليشير إلى ذبح مّا فيه حياةٌ [١٣٢ظ] مستقرة على ما سنوضح من الفرق / بين التذكية والذبح وإن كانا واحدا، لكن التذكية أعم. فالتذكية للدابة على ما نقله أرباب اللغة إن يُدركها وهي تضطرب فتَشخَب أوداجُها.[١] وأما الذبح فقد لا يفني[٢] الأوداج فيموت الحيوان بعد زمان طويل وعذاب بسبب مضاف إلى الذبح كما يكون ذلك في المنخنقة وغيرها. فأشار سبحانه إلى أننا متى أدركناه وفيه حياة يضطرب بها كأنه قد ذُبح وتَقطَّع أوداجه، فأشخبنا أوداجه دما فقد حلّ. فإنه ربما لو ذبحناه فلم يخرج له دم لكونه ميتا نظنه حيا ونعتقد أنه حِلّ بالذِّباحة وليس كذلك. فعبّر بهذه العبارة التي تدل على ذبح مع وجود حياة واضطراب وخروج دم ليكون موت الحيوان مِن فعلِنا وبكسبنا. فالحد هو أن يصح في عقولنا أنه بطريقنا ومن جهتنا فارقت هذا المذبوحَ روحُه ولو لم نَعْجَل[٣] عليه لسبق الموت إليه لَكِنّا نحن سبقنا، فإن شككنا فحرام. وذكاة الأرض يبسها،[٤] وذكاء الحس ممدود،[٥] وليس من هذا المعنى الذي لفظه مقصود، لكنه يرجع إليه وإن تميز عليه، لأن حقيقة لفظة الذكاة تمام الشيء. فقوله: ذكيتم، أي تَمّمتم، لأنه كان الحيوان يريد أن يموت بأحد الأسباب المذكورة، فهو في موت ناقص لا يتم إلا بعد مدة أو بسبب فأدركتموه فتممتم أنتم موتَه[٦] بالتذكية المشروحة دون الذبح فقط. والذكي الرابحة هو التام[٧] في بابه كالمسك الذكي. والذكي من الناس هو الذي ذهنُه تام صحيح لا نقْصَ فيه، فيعود معنى "ذكيتم" تمّمتم. والمذبوح استُخرج منه دم، قبل[٨] أنْ [كان] بطريقة فسدت الميتة سريعا ولم يفسد المذبوح في ذلك القدر من الزمن.

وأما من قال: لو كان معنى "ما ذكيتم" ما ذبحتم لَمَا احتاج أن يعدد ما عدده؛ فإنه لو قال: حُرِّمت عليكم كلُّ ميتة إلا ما ذبحتم أو مثل ذلك مما يعلم منه تحريم

---

١ شَخَبَ أوداجَه دَمًا فانشَخَبَت: قطَعَها فسالت، ووَدَجٌ شَخِيبٌ: قُطِعَ فانْشَخَبَ دَمُه (لسان العرب، «شخب»).

٢ ش ك: لا يغري.

٣ ش: لم تعجل.

٤ وفي حديث محمد بن علي: ذكاةُ الأرض يُبْسُها يريد طهارتَها من النجاسة جَعَل يُبْسَها من النجاسة الرَّطْبة في التَّطْهير بمَنْزِلة تَذْكِيَةِ الشاة في الإحلال، لأن الذبح يطهرها ويحلِّل أكلَها. وأصل الذكاة في اللغة كُلِّها إتمامُ الشيء، فمن ذلك الذَّكاءُ في السِّنِّ والفَهْم وهو تمام السنّ (لسان العرب، «ذكا»).

٥ والذكاءُ ممدُودٌ: حِدَّةُ الفؤاد، والذكاءُ: سرعة الفطنة (لسان العرب، «ذكا»).

٦ ن – موته.

٧ ن: هو التمام.

٨ ش ك: قيل.

ما سوى المذبوح صحيحا كان أو مريضا لأغنى. قلنا: لو قال ذلك لَمَا فهمنا المراد بلفظ التذكية كما تقدم، ولكان داخلا في ذلك تحريمُ ما خنقه الجارحُ عند الاصطياد وتحريمُ السمك والجراد. وإنما أشار إلى أشياءَ مخصَّصة فحرّمها كما حرم الميتة إلا ما ذكيتم. وأقول: إن ترك هذه المعدودات مع التذكية أولى عقلا وإن كان حلالا شرعا؛ فإنّ مرضا أَرْدَى الجَمَل[١] بحيث إن لم تلحقه بالتذكية إماتةُ المريض ربما بقي في لحمه كيفيةٌ من مرضه، كما سمعنا أن كثيرا أكل مثْلَ ذلك فمرِض بمثل ذلك المرَض. ولكن الله تعالى أزال الحرج شرعا، والصحة فينا غالبة والسلامة غالبة على ما قد يقع من ذلك.

وأما أثمان جلود الميتة ولحمِ الخنزير وسائرِ ما يُنتفَع به من المحرَّمات أكلا كما قد يوجد من ذلك في ثغور[٢] الكفار عند فتحها، فقد قيل: إذا أبيع ذلك على الكفار في زمن الحرب فليس الأثمان بحرام، لأنه إقطاع مال من الكفار، ولنا أن نقتطع من أموالهم في الحرب لا في السِّلم والمعاهدة بالميثاق مهما أمكن. ولأن في رَمْيه بلا ثمن إهلاكَ جزء يمكن أن يصير من أموال المسلمين، وإن[٣] نُقل في لعن اليهود، وأنهم حُرِّمت عليهم الميتةُ فباعوها وأكلوا أثمانها.[٤] وما نقل عن قوله عليه السلام: «إنما حرم الله عز وجل من الميتة أَكْلَها»،[٥] فكلُّ ما لم يأتِ في الكتاب تحريمُه ولا إباحته فالاتباع فيه لما صح في السنة. وما جاء فيه نص الكتاب مصادما للحديث فالحديث مؤوَّل. والمفهوم من الكتاب هو الأكل بدليل ما بعده: وما ذبح على النُّصُب، جمع نصيب بمعنى منصوب، وهو ما يُنصب ليُعبَد مثل نَجيب ونُجُب وأنجاب، ومنه الأنصاب، والنُّصُب جمع[٦] نصيب أيضا وهو القِسْم. ويحتمل أن يؤوَّل بمعنى "وما ذُبِح على القِسم المخصوص بآلهتهم"، كقولهم: وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا.[٧]

---

١. أي لو كان مرض من الأمراض أهلك الجمل.

٢ الثّغر والثغرة كل فرجة في جبل، أو بطن واد، أو طريق مسلوك. الثغر ما يلي دار الحرب، والثغر موضع المخافة من فروج البلدان (لسان العرب، «ثغر»).

٣ ك ن: وما.

٤ وفي التوراة: «وكل إنسان يأكل ميتة أو فريسة، وطنيا كان أو غريبا، يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويبقى نجسا إلى المساء ثم يكون طاهرا. وإن لم يغسل ولم يرحض جسده يحمل ذنبه» (اللاويين ١٧/١٥-١٦)

٥ انظر نحوه في صحيح البخاري، الزكاة ٦١؛ وصحيح مسلم، الحيض ١٠٠، ١٠١.

٦ ك: جميع.

٧. ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٣٦).

وقيل: النصيب ههنا مُذكَّر نصيبة، أي الحجارة المنصوبة بين يدي الأصنام وهي المَذْبَح الذي يذبحون عليه الذبائح لأصنامهم. وَٱلْأَنصَابُ[1] هي[2] الأصنام المنصوبة للعبادة وهم الأوثان. فالصنم ما كان ذا صورة، والوَثَن يقع على الصورة، والحَجَر غير ذي الصورة.

[١٣٣و] **وأن تستقسموا بالأزلٰم**، جمع زَلَم مؤنثه زَلَمَة، ومثله قلم / وأقلام، وعَلَم وأعلام. وهو أيضا اسم للأصنام، لقوله تعالى: وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ.[3] ويقال في اللغة: أزلام الشيء إذا انتصب، وأزلام النهار إذا علا. والزَّلَمَة زيادة تعلو على الجلد، فهي فضلة في عنق التيس[4] عالية مُدْلَاة ليس لها حركة ولا له بها نفع.[5] وقوله: تستقسموا، قيل: تطلبوا علم ما قُسم لكم بالقِدْح.[6] وقيل: لا يريد به القسمة بل القَسَم وهو الحِلْف، تقول: استقسمتُه إذا جعلته يحلف بما أردتَ أن يحلف به. فنهاهم أن يستقسموا المشركين بالأزلام التي هي في مذهب المشركين مما يُقسم بها. **ذٰلكم**، أي كله، **فِسْقٌ**، خروج عن الحق.

ثم قال: **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم**، هذا كلام عام لكون اليهود يئسوا، إذ حلّل للمؤمنين ما حرم اليهود كما سيأتي في قوله: أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ.[7] والمشركون يئسوا، أي بتحريم ما قد حرمناه عليكم، لأنه لمّا تميز المؤمنون بتحريم ما تبيحه الكفار من المآكل[8] يئسوا من الإسلام، لأنهم ظنوا أن لا فرق بين الإسلام والكفر إلا في أمور تخفى. وقد كانوا ينافقون ويُظهرون الإسلام. فلمّا حصلت المباينة والمنافاة ظاهرا يئسوا من الدين[9] إذ لا يخفى حينئذ نفاقُهم. فلما حرم على المسلمين حلالا عند المشركين يئسوا، [و]لما حلل على المؤمنين حراما عند اليهود يئسوا. فلما عاد الجميع أعداء للمؤمنين قال تعالى لهم: **فلا تخشوهم واخشونِ**، باتباع أمري. وقد كانوا يأكلون كما تأكل بقيةُ العرب، فمِن حين التحريم وقع الامتناع ولزم التمييز، وكانوا في قلة، فلزم أن تَحصل عندهم خشيةٌ لقلتهم وتميُّزهم.

---

١ الآية ٩٠ من هذه السورة.
٢ ك ن: هم.
٣ الآية ٩٠ من هذه السورة.
٤ ن: البتس.
٥ انظر: لسان العرب، «زلم».
٦ القدح: السهم قبل أن يُنَصَّل ويُراش. وهو السهم الذي كانوا يستقسمون به (لسان العرب، «قدح»).
٧ من الآية التالية.
٨ ش ن: من المأكل.
٩ ك ن: من الذين.

اليوم أكملت لكم دينكم، بتحريم الحرام. وفيه دليل على نفي القياس، إذ لولا ذلك لَمَا كان الدين كاملا. وأتممت عليكم نعمتي، بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾[١] وتمامه، ورضيت لكم الإسلٰم دينا. والدليل على أن الإكمال هو بتحريم[٢] الحرام قوله: فمن اضطُرّ فى مخمصة، والمخمصة المجاعة التي يلتصق فيها جوفُ المرء بظهره. ومنه أخمصُ القدمِ[٣] وهو ما تجوّر[٤] من وسط أسفل القدم، فلم يساو بقية القدم في العلوّ. وقوله: فمن اضطر، أي لحقه الضر[٥] في المخمصة، غيرَ متجانفٍ، مشتق من الجَنَف وهو الميل، أي متمايل وهو أدنى الجنف، لإثم، بمعنى إلى إثم، فإن الله غفور رحيم.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾

يسئلونك ماذا أحل لهم، أي من هذه المحرَّمات، ولهذا قال: أحل، ليعرّفَنا أنه أحل مما حُرّم عليهم أو على بني إسرائيل، لأن الكلام مطلق. قل أحل لكم الطيبٰت، التي حرمت على بني إسرائيل[٦] من قوله: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾[٧] أي بمحمد صلى الله عليه وسلم كما بيناه في موضعه. ولهذا قال: أحل. فلو لم تكن محرَّمةً على غيرهم لَمَا قال: لكم. ويُفهَم من ذلك إطلاق القول في جميع الطيبات التي هي ضد الخبائث، كقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾.[٨] وما، معناها ههنا الذي. وليس المقصود أُحلّ الذي عَلّمتم[٩] من الجوارح فتعود الإشارة إلى تحليل الصائد لا المُصاد. وإنما هو كلام يريد أن يعيّن به ما أُحل مما نَظنُّه حراما فنضيفه إلى الطيب الحلال. وما عَلّمتم، يدل[١٠] على تعليمٍ تَقدم فلا يجوز[١١] لنا الأكل مِن مقتولٍ مِن صيد ما لم يعلِّمه الناس، من الجوارح، كل ما يَجرح مما يعلَّم طيرا كان أو غيره.

---

١ الآية ٥ من هذه السورة.

٢ ر: هو تحريم.

٣ ن: المقدم.

٤ أي انخفض (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «جور»).

٥ ر ن: الضرر.

٦ ك – لأن الكلام مطلق قل أحل لكم الطيبٰت التي حرمت على بني إسرائيل، صح هـ.

٧ سورة النساء، ١٦٠/٤.

٨ سورة الأعراف، ١٥٧/٧.

٩ ش: الذي علمتهم.

١٠ ك ن – يدل.

١١ ن: ولا يجوز.

وإنما سميت الجوارح لأنها تجرح بأظفارها وأنيابها. **مُكَلِّبِين**، التكليب اللزوم، ومنه الكُلّاب والكَلَاليب[1] هي التي تغوص في الشيء فتمسكه، ومنه الكَلْبَتَان[2] للحدّاد. وأما الكلب فهو مشتق من كَلَب يَكْلُب إذا أسرع في شدة العدو فهو كَلْب مثل قتل وأَكْل. وكل ما يكلّب الصِيدَ يرجع في المعنى إلى هذا. ويقال: كلّب الجارحَ مشددا إذا جعله يكلب الصيد، وهو المراد ههنا مع جواز ما تقدم. ولهذا أشار إلى تعليمٍ زائدٍ على ما يُعَلَّمه الجارح غيرُ المعلَّم فقال: **تعلّمونهن مما علمكم الله**، يعلّمها أنها تُمسك. فإن كانت تأكل الصيد فهي كغير المعلَّمة فيجب أن تُعلَّم.

وقوله: **فكلوا**، بعد قوله: **أحل لكم**، ثم قال: **مما**، ولم يقل: "ما" لجواز أن يُمسك ما لا يحل أكلُه كالخنزير وغيره من المحرَّم. وقوله: **أَمْسَكْن**، يريد بأي صورة / كان المَسْك سواء قتله وجرحه فقط أو خنقه. ولا يدل قوله: **أمسكن**، على أَكَلْنَ، [١٣٣ظ] لأنه يكون إنما أمسك له فلا فائدة في التعليم. فإن قيل: إنما المفهوم من لفظ الآية الإمساكُ فقط، ومتى لم نُذَكِّ المنخنقةَ[3] أو مثلَها في التحريم من الصيد الذي صِيد فقد خالفنا قوله: **إلا ما ذكيتم**، بدليل قوله ههنا بعد ذلك: **واذكروا اسم الله عليه**، ولم يقل: فكلوا مما أمسكن، [بل] واذكروا[4] اسم الله عليهن. قلنا: لو لم يكن قد أحل لنا ما قُتلن أو خُنقن لكنا نعلم أن ما سوى ذلك حلال مما قدّمه[5] من الآية التي جعلتَها[6] دليلا لك، ولِمَا كان لتعليم الجوارح فائدة، إذ لو أمسكها[7] السبعُ بل وأكل منها فذكيناها لكانت المصادَة بذلك حلالا. ثم ما فائدة قوله تعالى: **قل أحل لكم**، وما الذي أحله وهو حلال؟ ولم يعينه في المحرمات بل استثناه منها بقوله: **إلا ما ذكيتم**. ولكن يقال: لهذا ومثله قدّم قوله: إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ،[8] ليعرّفنا أنه حرم حلالا من الصيد مع الإحرام وأحل حراما من الصيد في بقية الأزمان. ويدلك قوله: [يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ] لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ،[9] على أن قتله مقام ذبحه. وذلك كما يرمي بالنُّشّاب[10] وغيره فيقتل فهو حلال[11] في غيره مدة الإحرام. وقوله: **[مما أمسكن] عليكم**،

---

[1] الكلاليب: المخاليب (لسان العرب، «كلب»).

[2] الكَلْبتانِ: الآلةُ التي تكون مع الحَدّادين (لسان العرب، «كلب»).

[3] ش: المختنقة؛ ك: المخنقة.

[4] ن: وذكروا.

[5] ك ن + من ما قدمه.

[6] ن: التي جعلها.

[7] ك ن: لو مسكها.

[8] الآية ١ من هذه السورة.

[9] الآية ٩٥ من هذه السورة.

[10] النُّشّاب: النِّبهام (لسان العرب، «نشب»).

[11] ن: فهو حلالا.

كقولك: أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ.[1] وفيه أيضا ما معناه مارّين عليكم. فبيّن بهذه اللفظة معاني، ولهذا لم يحذفها فيقول: ما أمسكن، فقط. فإنا لو وجدناه قد أمسك صيدا لم يمرّ علينا فقتله فإنا لا نأكل منه إذا كان الماسك له معلّما لجواز أنه وجده ميتا أو مات بسبب آخر عند إمساكه له كالوقوع وغيره. ثم قال: عليكم، يشتمل على الطائر والماشي.

واذكروا اسم الله عليه، الهاء في "عليه" تعود على "ما" وهي قوله: مما أمسكن، وتعود على، وما علَّمْتُمْ، وهو مراد الآية ههنا. ولهذا قدمه في الذكر ولم يقل: فاذكروا اسم الله عليهن، لأن قوله: وما، أعم. ولمّا كان ما يمسكه الجارحُ ينقسم إلى قسمين. أحدهما ما نلحقه وفيه الحياة، والآخر ما قتله الجارح وقد أباحنا سبحانه أكْلَ[2] ما قتله كان إعادة الهاء في قوله "عليه" إلى، ما عَلّمتم من الجوارِح، أولى، لأن ما سواه أعني ما نذبحه معلوم حكمُه عندنا فهو كيفية الذبائح غيرِ الصيد. فلو لم نُعد قوله "عليه" إلى قوله: وما علمتم، لم يبق لذكر التسمية ههنا فائدة، لأن الفائدة[3] إنما تكون فائدةً إذا بينت الحكم فيما هو غير بيّنٍ وهو ما قتله الجارح. وأما إذا لم تُبين إلا البيّن فقد عادت تكرارا وبقي غير البيّن على حاله. وأما قولنا في أن الهاء في "عليه" تعود على "ما أمسكن" أيضا فهو لما قدمناه من أن ما يمسكه الجارح ينقسم إلى قسمين، فأباح المقتول بقوله أولا: فكلوا، ثم أتبعه بالتسمية لتشتمل على المراد بقوله: وما، أولا،[4] وبقوله: مما، ثانيا. وتقديره: واذكروا اسم الله على ما عَلّمتم بحكم أن يكون الصيد مقتولا وعلى ما أمسكن الجوارحُ إن كان الصيد حيا. فدلت الهاء في قوله: عليه، على الثاني دلالة العموم والجواز، ودلت على الأول دلالةَ الخصوص والبيان. فافهم ما أحسن هذا الإيجازَ. والكلب غير المعلَّم سَبُعٌ مفترس. ثم لمّا[5] بيّن ما بيّنه وأمر بالتسمية على ما علَّمَناه من الجوارح عند الصيد به ليحل لنا أكلُ ما قتله وعلى الصيد إذا لحقناه حيا فذكّيناه قال: واتقوا الله إن الله سريع الحساب.

---

[1] ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٣٧).

[2] ن: أكله.

[3] ش ن – لأن الفائدة.

[4] ش – ثم أتبعه بالتسمية لتشتمل على المراد بقوله وما أولا.

[5] ن – لما.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾

ولما كان قد تقدم ذكرُ "اليوم" ووصفُه بقوله: ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ، عَطَف في المعنى على "اليوم" مبيّنا بعض صور الكمال وهو معنى [قوله:] وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي.[١] فقال: اليوم، منصوب على الظرف، أحل لكم الطيبٰت، مطلق ومخصِّصه ما حرّمه من الطيبات على أهل الكتاب. وطعام الذين أوتوا الكتٰب حل لكم. وقوله:[٢] وطعامكم حل لهم، فيه إشكال كثير، قد أوضحناه فيما يأتي.[٣] وذَكَر الطعامَ لأنه تستعمل[٤] فيه الذبائح فهو أعم. والطعام ما طَعِمَه الإنسان وهو ينقسم إلى قسمين: ما يُذبَح وما سوى ذلك. فما سوى ذلك ظاهرُ التحليل في سائر الأديان. فعادت الإشارة ههنا إلى الذبائح التي عيّن الله تعالى في الكتب المنزَّلة تحليلَها وتحريمها. / فلحم الخنزير وغيرِه مما حرمه [١٣٤و]
الله في القرآن[٥] لم يُبِحْه في التوراة،[٦] بل حرمه أيضا. فحرم عليهم قبلنا من الذبائح ما حرّمه علينا بعدهم، ولم يحرم علينا بعدهم كل ما حرمه عليهم قبلنا، بل أحل لنا كل ما أحله لهم من الطعام الذي هو الذبائح، وبعد ذلك فضّلنا بالطيبات. وإنما حرمها عليهم بظلمهم من بعد بنزولِ القرآن كما بيّنّا. وعبّر بهذه العبارة ليبيّن لنا فضله ونِعَمَه علينا، ولئلا نظن[٧] أن طعامنا حرام لكونه قد حُرّم في بعض الكتب المنزلة. فبيّن أن ذلك حل في نفسه، لأنه تعالى هو الذي يُحل ويحرّم. وإنما تعبّدهم[٨] بترك حلال فحرمه عليهم في وقت، كما حرم الأكل نهارا في زمن الصيام، ولم يتعبدنا بذلك.

فقوله: وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، أي كما هو حل لهم، ويريد ما هم الآن يستعملونه لا ما هم الآن يحرمونه مما أحله الله لنا. وقوله: وطعامكم حل لهم، يريد به جميعَ طعامنا إعلاما لنا أن مِن حين جاء النبي[٩] العربي صلى الله عليه وسلم

---

١ الآية ٣ من هذه السورة.
٢ ك ن – وقوله.
٣ ن: في يأتي.
٤ ش: لأنه يستعمل.
٥ وانظر أيضا: سورة البقرة، ١٧٣/٢؛ وسورة النحل، ١١٥/١٦.
٦ انظر مثلا: التوراة، اللّاويّين ١١/٧-٨، والتّثنِيَة ٨/١٤.
٧ ن: لئلا نظن.
٨ ك: وإنما نعبدهم.
٩ ش: نبي.

الذي يحل لهم الطيبات وجب اتباعه فقد عاد طعامنا حلا لهم كله، لكنهم أبوا فحرموا ما أحله لهم. ولهذا قال: **وطعامكم حل لهم**، ولم يقل: كان حلا لهم أو حلٌّ عندهم أي فيما يعتقدون، بل هو الآن حلٌّ. فمن حين جاءهم الرسول وأبوا أبقاهم الله على ما حرموه مما أحله لهم عقابا لهم. وهو معنى قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[1] أي في القرآن. وإلا فالتوراة لا شك أنه قد كان متبعوها على الحق. وليس الحجاج لأولئك لأنهم على الحق، بل لهؤلاء بعد مجيء محمد[2] صلى الله عليه وسلم. فافقه ذلك، فهو عجيب.

والمُحْصَنٰتُ، أي أحل لكم ذلك أيضا، **من المؤمنٰت**، أي حِصانة الأهل لا البعل. **والمحصنٰت من الذين أوتوا الكتٰب من قبلكم**، اليهود والنصارى. وأباحنا من قبلُ ما أباحهم من طعامهم فجعله طعاما لنا وفضّلَنا بالطيبات. وكذلك أباحنا من المحصنات منا ما أباحهم من المحصنات منهم، وفضّلَنا عليهم بالمحصنات منهم؛ **إذا ءاتيتموهن أجورهن محصنين غير مسٰفحين**، لهن. والمسافح والزاني بينهما فرقٌ، وهو أن الزنى وُلوج الإحليل، والسِّفاح يقال على ما يقع معه الولوج وعلى ما لم يقع،[3] بل سَفْح الماء. وأما[4] اتخاذ الخِدْن فهو الذي لا يزني لكنه أخذ في طريق الزنى بوجه المحبة والمصاحبة يستبيح ما لا يجوز كالنظرة والحديث دون الملاصقة بالأجسام. وكل ذلك من الحرام. وكرر ههنا ذكر السفاح وغيره لأنه هناك وصف لهن، لهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾.[5] وأما ههنا فهو وصف للرجال، لهذا قال: **غير مسٰفحين، ولا متخذى أخدان**.

ومن يكفر بالإيمٰن، الباء في قوله: **بالإيمٰن**، كالباء في قوله:[6] ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾.[7] ومثل ذلك كثير في الخطاب، فافهمه. وإنما قال في آخر الآية: **ومن يكفر بالإيمٰن**، لأنه بين في جميعها أحكام الإيمان. والأَولى أن معنى قوله: **ومن يكفر بالإيمٰن**، يريد به أهلَ الكتابين المقدم ذكرُهم لأنهم أهل الإيمان. ولا شك أنهم بنفس إيمانهم بموسى وعيسى دون النبي صلى الله عليه وسلم كفروا، لأن من كان إيمانُه بالنبي الأول

---

[1] سورة النساء، ٤/١٦٠.

[2] ن: مجيء الرسول.

[3] ك – معه الولوج وعلى ما لم يقع، صح هـ.

[4] ش – وأما، صح هـ.

[5] الآية ٢٥ من هذه السورة.

[6] ك – بالإيمٰن كالباء في قوله، صح هـ.

[7] ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (سورة النساء، ٤/١٣٦).

يَصدّه عن الإيمان بالنبي الثاني فلا شك أنه بنفس إيمانه كَفرَ. وتكون الباء للتعدية كقولك: ضربت بالعصا. لهذا بعده: **فقد حبط عمله**، أي من الخير كالرهبان والأحبار. ويحقق ما قلناه كون آخر هذه الآية كآخر آية المحكمة، وهي قوله تعالى: وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ.[1] فقال أيضا ههنا: **وهو فى الآخرة من الخسرين**، ولم يقل: فهو، لأنه يريد الإحباطَ في الدنيا والآخرة إن مات على ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾

ولهذا لمّا ذكر الخاسرين من أهل الكتابين أتبعه بما يوجب رِبحَ المؤمنين وهو فرض الصلاة وما يتعلق به، فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا إذا قمتم**، بمعنى إذا أردتم القيامَ، **إلى الصلوٰة**. هذه الآية / مشتملة على سبعة فصول كلُّها مَثْنى: على طهارتَين، وهما[2] [١٣٤ظ]
الوضوء والغُسل، ومطهِّرَين الماء والتراب، وحكمين الغَسل والمسح، وموجِبين الحدث والجنابة، ومبيحَين المرض والسفر، وكنايتين الغائط والملامسة، وكرامتين تطهير الذنوب وإتمام النعمة. **فاغسلوا وجوهكم**، يظهر من هذا الكلام استحبابُ الوضوء عند كل صلاة وإن لم يجب ذلك، لأن المغسول مغسول في الصلاة الأولى ولم يَحدُث ما يجب إعادةُ غَسله. ولهذا لم يقل: متى قمتم أو متى صليتم. ولهذا قيل: قمتم من نوم.[3] وقوله: **وأيديَكم إلى المرافق**. المِرفق هو ما يجمع بين عظمي الساعد والعَضُد، فهو كالرُّكْبَة، ولهذا دخل في الغَسل، لأنه حدٌّ لا نهايةٌ فدخل في المحدود، دون قوله: ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ،[4] لا يدخل الليل فيه لأنه[5] نهاية لا حدّ. ولو قال إلى المناكب

---

[1] سورة آل عمران، ٨٥/٣.

[2] ن: وهو.

[3] قال زيد بن أسلم والسدي: معنى الآية ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ من النوم. (الكشف والبيان للثعلبي، ٤١٣/٢؛ وزاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٣٠٠/٢).

[4] ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ (سورة البقرة، ١٨٧/٢).

[5] ش ر: بأنه.

لم يدخل المَنكِب في الغَسل لأنه ليس من اليد، خلافَ المِرْفق فإنه منها. ويجب أن يغسل اليد من الكف إلى المرفق بخلاف ما ذكره الطوسي[١] وأمثاله. فإنه قال: يجب عندنا غسل الأيدي من المرافق وغسل المرافق معها إلى رءوس الأصابع ولا يجوز غسلها من الأصابع إلى المرافق.[٢] هذا كلامه وهو بخلاف تتابعِ النص، فإن "إلى" لانتهاء[٣] الغاية لا لابتدائها. واعلم أنه لمّا كان الإنسان إذا رفع يديه إلى غسل وجهِه جرى الماء إلى مرفقيه،[٤] كان الأولى بعد غسل الوجه الذي هو أولى بالتقديم غَسْل اليدين إلى المرفقين. ولم يأمر بغسل اليدين أعني الكفين أولا لظهور[٥] ذلك في العقل ولزومه، إذ من المستحيل أن يكون بيده نجاسة أو وسخٌ وهو يريد أن يغسل بها وجهه إلا ويغسلها أولا. وأيضا لأن غسل الوجه باليدين هو غسل اليدين بالوجه.[٦] واليدان يتكرر عليهما الغسل عند غسل كل عضو. ومن رأس الكتف إلى رءوس الأصابع يقال له يد. ولهذا لم يقل: أيديكم والمرافق. ويقال: قطعت يد السارق من كتفه، أو من مِرفقه،[٧] أو قَطْع كفه. وفي التوراة أن هارون وبنيه يغسلون وجوههم وأيديهم عند دخولهم إلى خباء المحضر دائما.[٨]

وقوله: **وامسحوا برءوسكم**، أي مكانًا مّا برءوسكم، والأولى أن يكون مكانا يحتاج إلى مسح وتنظيف.[٩] فالباء ههنا للإباحة، لأنها أباحتنا أيّ مقدار كان في أي مكان من الرأس. وقوله: **وأرجلَكم إلى الكعبين**، فهو معطوف، بنصب اللام،[١٠]

١ لعله أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، مفسر، نعته السبكي بفقيه الشيعة ومصنفهم. انتقل من خراسان إلى بغداد سنة ٤٠٨هـ وأقام أربعين سنة. ورحل إلى الغري بالنجف فاستقر إلى أن توفي. أُحرقت كتبه عدة مرات بمحضر من الناس. من تصانيفه: الإيجاز في الفرائض، والجمل والعقود في العبادات، والغيبة، والتبيان الجامع لعلوم القرآن تفسير كبير، والاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار، والاقتصاد في العقائد والعبادات، والمبسوط أجزاء منه في الفقه وغير ذلك. توفي سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م (سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٨/٣٣٤-٣٣٥؛ والأعلام للزركلي، ٦/٨٤).

٢ لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.

٣ ن: إلى انتهاء.

٤ ش ك: إلى مرافقه.

٥ ك: لطهور.

٦ ش - هو غسل اليدين بالوجه، صح هـ.

٧ ن: ومن مرفقه.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «فيغسل هارون وبنوه أيديهم وأرجلهم منها عند دخولهم إلى خيمة الاجتماع يغسلون بماء لئلا يموتوا، أو عند اقترابهم إلى المذبح للخدمة ليوقدوا وقودا للرب. يغسلون أيديهم وأرجلهم لئلا يموتوا. ويكون لهم فريضة أبدية له ولنسله في أجيالهم» (الخُرُوج ٣٠/١٩-٢١).

٩ ك ن: وتنصيف.

١٠ قرأ نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب بنصب اللام عطفا على "أيديكم" فإن حكمها الغسل كالوجه، وعن الحسن بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي مغسولة. وعلى الأول يكون "وامسحوا" جملة معترضة بين المتعاطفين، وهو كثير في القرآن وكلام العرب، والباقون بالخفض عطفا على "رءوسكم" لفظا ومعنى (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٥١).

على الوجوه والأيدي. فإن الله تعالى إنما خاطب قوما يعقلون، ومن لا يعقل. إن الله تعالى لمَا أمر بغسل اليدين إلى المرافق قد لزم منه غسلُ الرجلين، فلعله لا يعقل أن يَغسل محلَّ النجاسة ولا يَمسحه لكون النص لم يصرِّح بذكره. ومن ليس له بصيرةٌ تدل على قوله تعالى: ولكن يريد ليطهركم، وقد عُلم أن المسح لا يطهِّر الرجلين فلا يجوز أن يخاطَب. ولمّا كان ذلك في العقل أظهر من أن يخفى لم يخصِّص بالذكر للزومه، أعني غسْلَ ما يجب غسلُه عقلا وإن لم يصرح به نصا. وإنما أمَر بمسح[1] شيء بالرأس لأمور؛ منها أنه ربما لحق ضررٌ بالغسل، ومنها أنه مستور في أكثر الأمر ومرفوع بضد الرجلين. وأما ما قيل: إن العطف على الرءوس لأنها موضع مفعول أقربَ؛ فما كل مفعول أقربَ في اللفظ من جهة مكانه -وهو أبعد في المعنى من جهة غايته- يلزم العطف عليه، إذ الكلام يقصد به المعاني لا مجرد الألفاظ، مع فساد المعاني أو ميلِها[2] عن الأحسن ولو إلى الحسن. وإذا رأينا الأقرب لفظا أبعد معنى عَدَلْنا إلى الأقرب معنى مع احتمال اللفظ له. ومثل ذلك قوله تعالى: وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ، ثم قال: وَتُسَبِّحُوهُ،[3] وكقوله: قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ، ثم قال: وَمَنْ ءَامَنَ،[4] وهذا بين. والتفصيل بقوله: إلى، وإلى دالٌّ لأن المرافق والكعبين حدود، وكثيرا ما يعبَّر النص عنه بمثل تلك العبارة المتقدمة بعينها إفهاما لمماثلة المعنى بمماثلة[5] اللفظ. ويُحتمل أن يقال: إنه تعالى أشار بالعطف على
[١٣٥و] الرءوس إلى المسح الذي على الخفين وأشار بالتحديد بقوله: إلى / الكعبين، إلى غسل اليدين إلى المرفقين إيجازا وتعريضا بما فيه غنى عن التصريح لفظا لظهوره عقلا واشتهاره عملا.

فإن قيل: إذا كان المراد غسْلَ الرجلين فما فائدة تأخير ذكرهما؟ فذلك لمعرفة الترتيب ليكون غسلُ الأول المذكورِ أوّلا أَولى ويتلوه ما بعده. ولو قدّرنا أن إنسانا وجد يسيرا من الماء لا يكفي جملة أعضاء الوضوء، ثم أراد أن يغسل به بعض الأعضاء لكان العقل يعطي أن يبدأ بالوجه قبل غيره واليدين قبل الرجلين.

---

١ ش: يمسح.

٢ ن: الألفاظ مع المعاني وميلها.

٣ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (سورة الفتح، ٤٨/٨-٩).

٤ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ (سورة هود، ١١/٤٠).

٥ ن: لمماثلة.

وقوله: **وإن كنتم جنبا فاطهروا، وإن كنتم مرضىٰ أو علىٰ سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا**، تقدم ذلك في سورة النساء.[١] وقوله: **فامسحوا بوجوهكم**، الباء ههنا كالباء في قوله: **برءوسكم**. ولو قال: وجوهكم لَشق مسحُ جميع الوجه بالصعيد. **وأيديكم**، إلى المرافق، منه. وبيّن لنا بتمام الآية غايةَ المراد بها مع زوال الحرج عنا. فلنجعل ذلك أصلا ونقول[٢] عليه ونرجع[٣] إليه. وأما وجه التكرار لِما جاء به في هذه الآية مما تقدم في النساء مثله فهو أن تلك الآية لبيان حكمِ الجنابة والحدث ورفعِهما بالماء أو التيمم في السفر، وهذه لبيان فرض الوضوء وترتيبه ورفعِ الحدث والجنابة بالماء أو بالتيمم في الحضر. ثم أضاف إلى كل آية ما تميزت به عن الأخرى كما نبين، فافقه متأنيا. وذلك أن الأُولى أراد بها تعظيمَ قدر الصلاة ولهذا بدأ بها، وتعظيمَ النهي عن السكر ولهذا قرنه بالجنابة فبدأ بلفظة لَا تَقْرَبُواْ. ثم عطف بقوله: وَلَا جُنُبًا... حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ. ثم ذكر تمام الآية[٤] ليبيح التيممَ الذي أقامه مقام الماء. فألحق بذكر الجنابة التي يرفعها التيممُ ذكْرَ ما يرفعه التيمم أيضا وإن لم تكن جنابةٌ، ولم يَفرِض الوضوء ولا بيّن ترتيبَه، بل جعل مراد الآية مع ما قدمناه بيانَ حكم[٥] الجنابة وإباحةِ التيمم في السفر. فبدأ بالنهي وختم بالعفو والمغفرة. وأما هذه الآية فإنه بدأ فيها بالأمر المشروط بزمن، ففرض الوضوء وبيّن الترتيب بقوله: **وجوهَكم وأيديكم**، وتمامه مما لم يذكره في تلك الآية. ثم تمم هذه بمثل ما ذكر في تلك ليقيم التيممَ مقامَ الماء في الوضوء هنا[٦] في الحضر كما أقام التيمم مقام الماء[٧] في الجنابة هناك في السفر. فتلك نهي وتحريم، وهذه أمر وتعليم، فهما في المعنى كقوله تعالى: لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ.[٨] فلو لم يحرّم ذلك لَمَا فهمنا التحريم من قوله: وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ،[٩] بل كنا نصطاد في الحل ولا نلتزم بالتحريم[١٠] في العقد.[١١] وإذا فهمت

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (سورة النساء، ٤/٤٣).

٢ ش ك: نقول.

٣ ك ن: وترجع.

٤ ن – تمام الآية.

٥ ك ن – حكم.

٦ ن: هذا.

٧ ش – في الوضوء هنا في الحضر كما أقام التيمم مقام الماء، صح هـ.

٨ الآية ٩٥ من هذه السورة.

٩ الآية ٢ من هذه السورة.

١٠ ن – بالتحريم.

١١ لعله يشير إلى الآية الأولى من هذه السورة.

ما بيناه في الآيتين تحققت من هذا الكلام ما يُدهش الأذهان ويقوّي الإيمانَ. فسبحان من فرّق بينهما[1] وجمع في المماثلة بين كلاميهما ليعم الجميعَ في الجنابة والحدث في السفر والحضر للمرضى والأَصِحّاء: إما للعذر بالمرض وعبورِ السبيل أو لعدم[2] الماء.

فلمّا جعل اليسر في العسر[3] وأزال الحرج وأثبت الطهر وتمم[4] النعمة ليظهر الشكر قال تعالى: **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولٰكن يريد ليطهركم.** اللام في قوله: **ليطهركم**، لام كي، وتقديره: ولكن يريد منكم ما أمركم به من هذه الأوامر لكي يطهِّركم. ولهذا كان النصب في هذه، **وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون.**

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾

وهذه الآية وإن كانت مخصَّصةً فإن العموم أيضا يُفهَم منها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾

يٰأيها الذين ءامنوا كونوا قوّٰمين لله شهداء بالقسط، العدل. **ولا يجرمنكم شنئان قوم**، عبّر بهذا الكلام لأنه قدم مثلَه بقوله: أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ،[5] إشارة إلى أن المشهود له، ولو كان من الكفار وقد صدّكم عن المسجد الحرام، فاشهدوا له بالقسط. ولا يحملنكم شنآنكم له على جُرم، وهو، **علىٰ ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ. واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون.**

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾

وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت لهم مغفرة وأجر عظيم، وفي سورة الفتح مِنۡهُم.[6]

---

١ أي في ترتيب المصحف.

٢ جميع النسخ: ولعدم.

٣ جميع النسخ: العسر في اليسر.

٤ ن: تمم.

٥ الآية ٢ من هذه السورة.

٦ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ (سورة الفتح، ٢٩/٤٨).

المعنى أن قوله "مِنهُمْ" في الفتح هي لتبيين الجنس، فافهمها، أي من كل شخص. ولو قلنا: إنها للتبعيض لجاز لأنه لم يذكر بعدها شيئا. / وأما ههنا فإنه لم يحتج فيه إلى [١٣٥ظ] قوله "مِنهُمْ"، لأن بعده: والذين كفروا وكذبوا بـٔايٰتنا أولٰئك أصحٰب الجحيم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

ولما تقدم ذكرُ أخذ ميثاق المؤمنين بمحمد[١] صلى الله عليه وسلم ذَكَر بعده ميثاق الذي أخذه على مَن قبل فقال: ولقد أخذ الله ميثٰق بنى إسرٰءيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا، هذا تفصيل ما أجمله بقوله: ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ [لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ].[٢] فكان من جملة المبعوثين اثنا عشر نقيبا. ولهذا قال: منهم، ولم يقل: فيهم أو إليهم، فافقه ذلك، فإنهم لم يُبْعَثوا إليهم فيكونوا رسلا بل بُعِثوا بعد الموت. وإنما كانوا اثني عشر نقيبا لأن بني إسرائيل كانوا اثني عشر سِبطا، لكل سبط نقيب. ولما اختار موسى من قومه سبعين رجلا[٣] لزم أن يكون نقباء القوم وساداتُهم منهم، أي من جملة المختارين الذين أخذتهم الرَّجْفَة والصَّعْقَة. ثم بعثهم الله من بعد موتهم. وقيل: سمي النقيب نقيبا من نَقِب يَنْقَب، لازمٌ، معناه من المَنْقَبَة وهي واحدة مناقب، وهي كالفضائل والخلال الحسنة مثل كريم ومَكارم ومَكْرَمَة وحميد ومَحامِد ومَحْمَدَة. وهذا الوزن يصلح فيه الفاعلية والمفعولية. فيحتمل أيضا أنه يعلم المناقب الحسنة.

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٧ من هذه السورة.

٢ سورة البقرة، ٥٦/٢.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ﴾ (سورة الأعراف، ١٥٥/٧).

وقال الله إني معكم، مع النقباء، والكلام معترض بين[1] الأول والميثاق. وتقديره ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل، لئن أقمتم الصلوٰة، وتمام الميثاق. ولهذا بعده: فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ،[2] فمن يكون الله معه ليس بملعون. وإنما اعترض هذا الكلام ليخرج النقباء، وكان اعتراضه في هذا المكان ليكون الشرط على الجميع. فالنقباء قاموا به، ومن قام به فالله معه. ويُفهم منه للجميع تخويف وتحذير، أي إني معكم أنظر أحوالكم وأعمالكم وأجازيكم[3] بما أراه من أعمالكم. ولهذا بعده: لئن أقمتم الصلوٰة وءاتيتم الزكوٰة وءامنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا، أي مهما كان مطلقا ويُخَصِّص ما تقدم من بذل المال في سبيل الله، لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر. والتعزير[4] النصر[5] ولا يقال عن المخطئ: إن الوالي عزره، بل عزّر به،[6] أي نصر الحق بما فعل به مِن الإذلال والإهانة.[7] وقوله: قرضا، ولم يقل: إقراضا يريد به الشيء الذي استعمل فيه الإقراض، وهو كقوله: وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا،[8] أي كالنبات، ولم يقل: إنباتا. فليس المراد اسم الفعل بل اسم المفعول. وهذا الكلام في هذه الآية وفي التي بعدها إخبار بما فعله بنو إسرائيل وبما عاقبهم به على فعلهم. والمقصود أن يحذر الغير مِن مثل فعلهم لئلا يحُلَّ به ما حَلَّ بهم. فمن كفر بعد ذٰلك منكم فقد ضل سواء السبيل.

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾

فبما نقضهم ميثٰقهم لعنٰهم وجعلنا قلوبهم قٰسية، ولم يقل: فجعلنا ليعرّفنا أن اللعن جاء بعد الجعلِ فهو عقاب في الدنيا. فهم، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا، نصيبا مما ذُكِّروا به، والذي ذُكِّروا به هو التوراة. والحظ هو الميثاق وهو الإيمان بالرسل. وعبر بالنسيان إشارة إلى عظمِ تركهم وهَجْرِهم لذلك حتى عاد عندهم مَنْسِيّا

---

[1] جميع النسخ: من، والمثبت من م.

[2] من الآية التالية.

[3] جميع النسخ: وأحاربكم، والمثبت من م.

[4] ش ك + هو التعزير.

[5] جميع النسخ: والنصر. م: واعلم أن التعزير لفظة عبرانية معناها النصر...

[6] ك ن - بل عزر به.

[7] جميع النسخ: والأهنة، والمثبت من م.

[8] سورة نوح، ١٧/٧١.

وإن كان متلوًا بالألسنة.[١] فالنسيان ههنا من كسبهم، ولهذا جاز أن[٢] يؤاخذهم به. **ولا تزال تطلع على خائنة منهم**، يُطلعه الله بما يوحي إليه من القرآن وإن جاز أن يطّلع هو بنفسه أيضا. ولمّا أَخفَوا عن قومهم ما بيّنه الله تعالى في التوراة مما يجب إظهاره كان / ذلك خيانة منهم. والاطلاع إنما يكون على مَخفِيّ. فأمر الله رسوله صلى الله [١٣٦و]
عليه وسلم أن يعفوَ ويَصفحَ عما يطّلع عليه. وأما إذا جاهروا وظهر منهم وبارزوا به المؤمنين فلا عفو حينئذ. والخائنة بيّنّاها عند قوله تعالى: لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ.[٣] وهذه الخيانة ههنا منهم إنما هي خيانة الله، إذ نقضوا العهد ونسوا مما ذكِّروا به وهو التوراة، حظا، وهو ميثاق الإيمان بالرسل. فهذه الكلمات غير منسوخة، لأن هذه الخيانة ليست للرسول ولا للمؤمنين. فلا يصح[٤] أن يقال: إنها من دون بقية الآية منسوخة بقوله: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ،[٥] ولا بغيرها؛ فإن عائد هذه الخيانة على أنفسهم، ولو كان عائدها على المؤمنين أو على الرسول لَمَا جاز العفو عنهم مطلقا ولَمَا كان لهم ذمة، ولهذا عبر بلفظ الاطّلاع. ومعناه ولا تزال دائما تطلع، أي إطلاعا بعد إطلاع، على خائنة بعد خائنة. ومتى كان الإطلاع مستمرا فقد لزم أن يكون العفو مستمرا. وقد علمت أنه عبّر ههنا بالخائنة وهناك بقوله: وَإِمَّا تَخَافَنَّ، فنسب إليه خوفا لم ينسبه إليه ههنا، ثم قال هناك: خِيَانَةً، أي لعهدِ بينكم. ولهذا قال هناك: فَٱنۢبِذْ. ولم يقيِّد الكلام ههنا كما قيده هناك بقوله: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا إلى قوله: فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ، ثم قال: حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ،[٦] وقد بيناه في موضعه. مع أن هذا الود لا يزال في أنفسهم وليس لنا أن نجاهدهم عليه، لأنا لا نعلم ما في أنفسهم؛ ولو علمناه لم نؤمر بجهاد[٧] أحد لما نعلم بل على ما يَعمل. ونحن نعلم أن في أنفسهم ما هو أعظم من ذلك من تكذيب الرسول والكتاب. وكل ذلك مما يمنع نسخ الآية.
وقوله: **إلا قليلا منهم**. لا بد في كل أمة من قوم ليس فيهم شرّ من جهةِ أن طباعهم تقودهم إلى المسالمة والخيرية. ففيهم تقوى الطبع لا تقوى الشرع. وليس مراد الآية العفوَ عن هؤلاء، لأنه إن كان المراد منه عليه السلام أن يعفو عن القليل فلا يخلو

---

١ ن: بالألسن.
٢ ك + يطلع.
٣ سورة الواقعة، ٥٦/٢.
٤ ن – فلا يصح.
٥ سورة الأنفال، ٨/٥٨.
٦ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٠٩).
٧ ن: بجاهد.

إما أن ذلك القليل اطّلع الرسول على خائنة منهم أم لا، فإن لم يَطلع فالعفو عماذا؟ وإن اطلع فلا معنى للاستثناء. فلزم أن يكون العفو عمن لا يزال يَطلع على خائنة منهم. فاعف عنهم واصفح، وبيّن أن هذا العفو والصفح إحسان من الرسول لا استحقاق لهم. فقال: إن الله يحب المحسنين، فلا يجوز نسخ ما يحب الله عليه. فإن قيل هذا كقوله: فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ. فالجواب أن ذلك تخصيص بمدة وليس بنسخ وإن جاز أن يسمى نسخا كما بيناه في البقرة،[1] وذلك لا تنفيه.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾

ولما قدم ههنا قوله: وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ،[2] أي في التوارة[3] وقال: وَنَسُواْ حَظّٗا،[4] قال بعده في النصارى مِثلَه. وذلك ما أخذه من الميثاق في الإنجيل. وقال أيضا ولكن بالفاء: فنسوا حظا، أي نصيبا؛ تقول: هذا حظك، أي نصيبك. وقوله: مما ذكروا به، أي نسوا الميثاق الذي هو الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو الحظ مما ذكروا به، وهو الإنجيل، فافهمه، وافهم ما قبله. فلهذا قال: ومن الذين قالوا إنا نصٰرىٰ أخذنا ميثٰقهم. والدليل على أن الله أخذ الميثاق من الأنبياء ومن الأمم بألسنة الأنبياء قولُه في سورة آل عمران كما شرحناه: وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ،[5] وتمامه. وإذا لزم سائرَ الأنبياء أن يؤمنوا بكل رسول يأتي فقد لزم ذلك لسائر الأمم من تُباعهم، لأن الأنبياء أعم من الرسل فتدخل الرسلُ فيهم، فافهم جيدا. وانظر إلى قوله: قالوا إنا نصٰرىٰ، أي ليس[6] ذلك بالحقيقة، لأن الأوائل كانوا على حق وهم الحواريون وتُباعهم إلى أن حدث في الدين ما لم يكن فيه من دعوى الإلٰهية في عيسى. وقال المدَّعون: إنا نصٰرىٰ... فنسوا حظا مما ذكروا به. فأغرينا،

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية التي مرت آنفا.

[2] الآية ١٢ من هذه السورة.

[3] انظر مثلا: التكوين ٩/١١-١٧؛ واللاويين ٢٦/١٥-١٧.

[4] من الآية السابقة.

[5] ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٨١/٣).

[6] ش: أي وليس.

مشتق من الغَرا[١] الذي يلصق به، بينهم، جميعا، العداوة والبغضاء، عقابا لهم ولأمثالهم من تُبّاعهم، إلىٰ يوم القيٰمة. وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون. فالكلام في العفو غير منسوخ،[٢] أعني العفو عن الفريقين اليهود والنصارى.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾

ولهذا / قال بعده مناديا للفريقين: **يٰأهل الكتٰب**، وهو اسم الجنس، **قد جاءكم رسولنا يبين لكم**، أي بالقرآن، **كثيرا مما كنتم تخفون من الكتٰب**، الإنجيلِ والتوراة. [١٣٦ظ]
وقوله فيما بعدَ، **يبين لكم**، عَلىٰ فَتۡرَةٖ،[٣] أي يبين القرآن بلسانه[٤] العربي، فالمراد بالبيان ههنا أي يبين بالقرآن لهم. ولهذا بعده: **قد جاءكم من الله نور وكتٰب**، والاسمان للقرآن. ولهذا قال أيضا: **مبين**. والمراد بالآية الأخرى بيان الرسول لهم، لهذا بعده: جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ.[٥] وقوله: **مما كنتم تخفون**، أي كنتم قبل البيان، ولم يقل: تخفونه، لأنه لا يريد بقوله: **مما**، تبعيضا بل تبيينَ[٦] الجنس، إذ المراد وصفُهم بإخفاء الكثير لا وصفه ببيانِ[٧] أكثرِ ما يخفونه لئلا يعود العفو عن بقية ما يخفونه مما لم يبينه، وليس كذلك وإن كان اللفظ محتملا له. لٰكنا إذا نظرنا إلى الأحسن كان العفو عن جملة ما بيّنه وعن غيره فهو يبين شيئا ويعفو عنه، إذ ذلك هو الأبلغ كما إذا فكّرت. ولم يقل: ويعفو عنه بل، **ويعفوا عن كثير**، إشارةً إلى أنه عليه السلام يعفو عن كثير من جهتكم ومن جهة غيركم بيّنه أو لم يبينه، فهو وصف للرسول صلى الله عليه وسلم بالعفو مطلقا، أو يدخل[٨] فيه العفو عما يبين لهم، وإنه كثير لا قليل. فلهذا قال: **ويعفوا عن كثير**، فلا يجوز أن يُنسَخ هذا العفو فإنه صفة للرسول صلى الله عليه وسلم. ودليله قوله مطلقا: خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ.[٩]

١ الغِراءُ الذي يُلصَق به الشيءُ. "إذا قلتُ: أَسْلُو غارتِ العينُ بالبكا غِراءً ومَدّتْها مَدامِعُ حُفَّلُ". قال: وهو فاعلْت من قولك: غَرِيت به وغَرِيَ به غَراةً فهو غَرِيٌّ لَزِقَ به ولَزِمه (لسان العرب، «غرا»).
٢ يشير المؤلف إلى الآية السابقة.
٣ الآية ١٩ من هذه السورة.
٤ ك ن: بلسان.
٥ الآية ١٩ من هذه السورة.
٦ ن: بل تبين.
٧ ن: وبيان.
٨ ن: ويدخل.
٩ سورة الأعراف، ١٩٩/٧.

واعلم أن اليهود والنصارى أخفوا كثيرا مما يجب عليهم إظهارُه لقومهم، فكتمه[1] أحبارهم ورهبانهم عن الباقين[2] وخانوهم. وأطلع الله تعالى بالقرآن رسولَه على ما كتموه فبيّن ذلك وعفا عن الجميع لقوله: **فاعف عنهم واصفح**، كما تقدم قبل هاتين الآيتين. فافهم ذلك الذي قيل: إنه منسوخ. **قد جاءكم من الله نور كتٰب مبين**، مع هذا الرسول.

﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾

يهدى به، بالنور، **الله من اتبع رضوٰنه سبل السلٰم**، السلامة، أي في الدنيا لأن السبل الكثيرة[3] في الدنيا. **ويخرجهم من الظلمٰت إلى النور بإذنه**، إخراجهم من الظلمات أي التي كسبوها، فطبع على قلوبهم بذنوبهم فهم ليسوا بخارجين منها إلا بإذنه وقدرته سبحانه. وقوله: **بإذنه**، عائد على من اتبع بإذنه سبحانه ولم يقل: من اتبع بإذنه[4] لئلا يفهم منه بإذن المتّبع[5] والمراد بإذن الهادي المخرِج، فأخر لفظة الإذن ليزول الاشتباه الممكن عن الجائز المحتمَل. ومحكم هذه الآية قوله في سورة يونس: وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ[6] وقد بيناه هناك. ولهذا لم يقل ههنا: ويهديهم بإذنه بل، **ويهديهم إلى صرٰط مستقيم**، أي يهدي من اتبع بإذن الله إلى صراط مستقيم. وعائد ذكر الهدى الأول إلى ما يتعلق بالدنيا، كقوله تعالى: وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا، وعائد الهدى الثاني إلى ما يتعلق بالآخرة، كقوله: وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ،[7] وكقوله: فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم.[8]

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾

١ ش: فكتموا.
٢ ش: من الباقين.
٣ جميع النسخ: الكبيرة.
٤ ش – سبحانه ولم يقل من اتبع بإذنه، صح هـ.
٥ ن: المنع.
٦ سورة يونس، ١٠/١٠٠.
٧ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٢٧).
٨ ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٩٧).

ولما ذكر النصارى[١] قال:[٢] لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. -كقوله: إن الكريم هو زيد إشارة إلى أن حقيقة الكرم فيه-.[٣] قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا. ولله، ولم يقل: فلله لأنها واو الحال، أي والحالة هذه، لأن من له، ملك السمٰوٰت والأرض وما بينهما، فلا يملك من أمره أحدٌ شيئا. ولا شك أنه، يخلق ما يشاء. والله علىٰ كل شيء قدير، فخَلَق عيسى بقدرته سبحانه.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

وقالت اليهود والنصٰرىٰ نحن أبنٰؤا الله وأحبّٰؤه، يقال لمن يُعزّه المَلِك: هذا ولد الملك، أي هو في الرتبة والمنزلة منه كرتبة ولد الملك ومنزلته، وإن لم يكن للملك ولد. وأما قول النصارى في عيسى فهو مدفوع عقلا، إذ لو فرضنا عدم الأب لَمَا وُجد الابن، ولو فرضنا عدم الابن لم يتعين على الأب عدمٌ بوجه، ولم يتغير في ذاته. وقد علمت استحالة أن يكون الاثنان واحدا، لأنهما إن كانا موجودين ما اتحدا، أو معدومَين فالواحد غيرهما، أو أحدهما موجود فالآخر / معدوم فانتفى الاتحاد من الاثنين. قل، [١٣٧و]
خطاب للفئتين: فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم، المعنى لِم عذب آباءكم وهو المسخ والجَلاء وغيره، إذ لا يكون الاحتجاج عليهم بما لم يكن يُعَدُّ[٤] صحيحا عندهم، بل دعوًى لكن بما عرفوه، وقد كان. بل أنتم بشر ممن خلق. يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. ولله ملك السمٰوٰت والأرض وما بينهما. وإليه المصير، التكرير إخبار والأول[٥] حال.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

ثم نادى الفريقين بقوله: يٰأهل الكتٰب قد جاءكم رسولنا يبين لكم علىٰ فترة من الرسل، الفترة يشير بها إلى مدة الانقطاع بين المرسَلين، وقد كانت الأنبياء والرسل

١ أي في الآية السابقة برقم ١٤.
٢ جميع النسخ - قال، والمثبت من م.
٣ أي: في الآية تأكيد كقوله: إن الكريم هو زيد...
٤ جميع النسخ: يعد، والمثبت من م.
٥ ما في الآية السابقة من: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

تَتْرَى وتتابعَ.[١] ثـم من بعد عيسى إلى محمد عليهما السلام لم يرسِل الله رسولا. فكان ذلك الزمان فترة. يقال: فَتَر في عمله إذا سكن. وقوله: أن، أي حذرًا، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. فقد جاءكم بشير ونذير. والله علىٰ كل شيء قدير.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾

وإذ قال موسىٰ لقومه يٰقوم، وفي سورة إبراهيم حذف "يٰقوم". والمعنى أن تسمية المنادَى المخاطَب مع الإقبال عليه يفيد التنبيه له واللوم والحثَّ على التدبر والنظر في أمره، كما تقول: يا فلان اقبل نصحي، وهو الذي جاء ههنا. وفي إبراهيم كان الكلام عن قضية جرَتْ، فقال: إِذْ أَنجَىٰكُم،[٢] وههنا: اذكروا نعمة الله عليكم إذ، قد، جعل فيكم أنبياء، يريد النبوة. وهذا أيضا يبين معنى قوله في البقرة: وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ.[٣] وقوله: وجعلكم ملوكا، كانوا عبيدا لفرعون فصاروا أحرارا، والحر يملك نفسَه. فإذا كان لا يحتاج إلى غيره وليس عليه حكم فهو مَلِك. وءاتىٰكم ما لم يؤت أحدا من العٰلمين، قبلكم، ومن آتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين[٤] جاز أن يقال: إن الله تعالى جعله مَلِكا. وهذا الكلام قاله موسى عليه السلام قبل دخولهم الأرضَ المقدسة. ولهذا بعده:[٥] يٰقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا علىٰ أدباركم فتنقلبوا خٰسرين.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢﴾

قالوا يٰموسىٰ إن فيها قوما جبارين، يُجبرون الغير على مرادهم منه. وإنا لن، نقدر أن، ندخلها حتىٰ يخرجوا منها، فهو امتناع جبنٍ لا كفر. ولو قالوا: لا ندخلها، لَسمّاهم كافرين.

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٤٤).

٢ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٦).

٣ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٤٧).

٤ ش – قبلكم ومن آتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين، صح هـ.

٥ ك ن: ولهذا قال.

فلهذا قال: فلا تأس على القوم الفٰسقين، ولو كان كفرا أو عصيانا[١] لَمَا قالوا: فإنا دٰخلون، ومثله لَن تَرَىٰنِي، أي لا تقدر أن تراني[٢] بدليل قوله: وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ،[٣] وتمامُه شرطٌ، كقوله: فإن يخرجوا منها فإنا دٰخلون.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قال رجلان من الذين يخافون، أي من بني إسرائيل الذين يخافون الجبارين، وأخرجهما من خوف الجبارين بقوله: أنعم الله عليهما، فهم يخافون الله تعالى دون الجبارين فلا يخالفون الرسول قالا للباقين:[٤] ادخلوا عليهم الباب. فإذا دخلتموه فإنكم غٰلبون. وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. وقوله: أنعم الله عليهما، أي أنعم بالعقل الذي أمرهم باتباع الرسل فأطاعوه؛ والباقون أنعم أيضا عليهم بالعقل فعصوه ولم يتبعوا الرسول فعاقبهم بعد أن هداهم بالعقول وعصوا العقل بأن أبقاهم على حالهم في الضلالة. فَتَاهُوا عن العقل باطنا وبالتِّيهِ ظاهرا، فكان الظاهر عنوان الباطن فهم في تيه الفسق لا تيه الكفر. ولهذا لم يستحقوا الاستئصال.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

إذ، قالوا يٰموسىٰ إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقٰتلا إنا هٰهنا قٰعدون.

قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، أي كذلك لا يملك إلا نفسه. فافرق، أي فاحكم، بيننا وبين القوم الفٰسقين، ويريد: احكم بالحق على سبيل الدعاء. فأجابه الله تعالى:

---

١ ش ن: وعصيانا.

٢ ش – أي لا تقدر أن تراني، صح هـ.

٣ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٤٣/٧).

٤ ش – فلا يخالفون الرسول قالا للباقين، صح هـ.

قال فإنها محرمة عليهم، وعلى نسلهم من الآن، أربعين سنة يتيهون فى الأرض، التيه ما يتيه الإنسان به فيضل عن قصده. فلا تأس، بمعنى تَأَسَ، على القوم الفسقين.[1]

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فلما فرغت هذه القصة قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واتل عليهم نبأ ابنى ءادم بالحق، أي وأنت مُحِقّ صادق لا بطريق الافتراء عليهم، لأن ذلك في التوراة فيعلمون[2] أنه حق ووحي. إذ قربا قربانا. القربان من القرب على وزن فُعلان وفُرقان من الفرق وعُدوان من العَدْو. فتُقُبِّل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. قال لأقتلنك، قال إنما يتقبل الله من المتقين، يدل على أن الطاعات لا تُقبَل إلا ممن يتقي الله بترك معاصيه.

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ثم قال له ما يدل صدْقَ دعواه في الاتقاء: لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا ببْسط يدى إليك لأقتلك، إشارة إلى أنه ربما بسط يده[3] إليه لغير القتل كمن يَذبّ عن نفسه.[4] / وأما ليقتل فلا، لأن ذلك ما يفعله من يخاف الله، ونبّه على قدرته على أن يقتله، لكنه قال: إنى أخاف الله رب العٰلمين. [١٣٧ظ]

﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

إنى أريد أن تبوأ، ترجع، بإثمى وإثمك فتكون من أصحٰب النار. المعنى أني أريد بترك بسط يَدَيَّ إليك بالقتل إن قتلتني أن تبوء يوم المعاد. وليس ذلك إثمَ القتل بل القاتل يَحمل ذنوبَ المقتول السالفةَ جميعَها إذا قتله ظلما، لهذا قال: وذٰلك جزٰؤا الظٰلمين.

---

[1] ش - ويريد احكم بالحق على سبيل الدعاء فأجابه الله تعالى قال فإنها محرمة عليهم وعلى نسلهم من الآن... التيه ما يتيه الإنسان به فيضل عن قصده فلا تأس بمعنى تأس على القوم الفسقين، صح هـ.

[2] ك ن: ليعلمون.

[3] جميع النسخ: يداه، والمثبت من م.

[4] انظر لذلك: التوراة، التكوين ٤/٨-١٦، ٢٥.

وقوله: وإثمِك، أي الذي معك أن يُتَقَبَّل منك قربانك. وقوله: بإثمي، اعتراف بأن له إثما، والغرض تخويفه لئلا يَفعل وإنذارُه، فلا تكون هذه الإرادة من هابيل نقصا. ولم يكن قصد المظلوم ههنا بقوله: أريد، إلا أن يَتَخَلَّص هو[1] من آثامه لا أن يُوقِع أخاه فيها. ويدل على ذلك قوله: فتكونَ، أي إن فعلت. ولو كان المقتول يريد القاتل أن يقتله لأجل أن يبوء بإثمه لكان دل عليه بأن قال: لتكون من أصحاب النار. ولهذا قال: فتكون، على وجه الإخبار والتخويف، فعاد المعنى ما تقديره: إني أريد بترك[2] بسط يدي إليك لأقتلك أن أتخلص من إثمي ومن مثل إثمك الذي هو القتل. فلما كان القتل يرجع بهما عرّفَنا وعرّفَه لنَخاف ويَخاف.[3] فافهم جيدا متأنيا لتعلم أنه لم يرد السوء لأخيه، وإنما أراد التخلص من إثمه القديم الماضي إن قُتل ظلما، ومن الإثم الحاضر بترك مثل فعل أخيه به. وفي هذه الواقعة إخبارٌ بأن الحسد يؤدي إلى القتل حتى بَيْن[4] الأَخَوين وفي أمر هو مع الله لأجل الإخوة، فكيف بيْن الأجانبِ لأجل الدنيا، وأن هذا إنما هو من قِبَلِ النفس بدليل قوله: **فطوّعت له نفسُه**، يقال: استطاع الشيء إذا أطاقه، وتطوع إذا تكلف طاعةً لله. والطوع ضد الكَرْه. فنفسه جعلت له، قَتْلَ أخيه، طوعا، أي نفسه الأمّارة بالسوء هي التي طوعت. **فقتله فأصبح من الخٰسرين**.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾

ولعظم هذا الأمر من النفس ورد التحذيرُ منه بحكاية ما وقع فعلا في أول واقعة وقعت من أول موقعٍ لها من بني آدم. ثم كرر النهي قولا في آخر كتاب هو آخر الكتب المنزَّلة على آخر الرسل،[5] فافهم واحذره منك[6] قبل أن تحذره من أخيك.

[1] ن – هو.

[2] ش – بترك، صح هـ.

[3] ش: ليخاف ونخاف.

[4] ش: حتى تبين.

[5] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم حِجّة الوداع: «يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا، فأَحِلّوا حلالها وحرّموا حرامها» (الكشف والبيان للثعلبي، ٢/٣٩٦).

[6] ش ك: فيك.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾

وقوله: **من أجل ذٰلك**، هو حسن أن يعود على آخر الآية التي[١] تقدمت وعلى أول ما بعده، لكنه أولى بما يتلوه لأن المعنى من أجل ذلك القتل الذي جرى في ذلك الزمان، **كتبنا علىٰ بنى إسرٰءيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض**. وهذا يدل على جواز قتل المفسد وإن لم يكن قاتلا وسنوضح أي المفسد يستحق القتلَ بفساده. وهذا الكلام كله لبني إسرائيل وإن كان مطلقا. ولكنه لما قدّم قوله: يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا،[٢] كان ذلك أولى بهم. ولهذا تلاه بقوله: وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ،[٣] تحذيرا لهم من الفساد في الأرض وقتلِ الأنبياء. ثم تلا ذلك بما يستحقونه بقوله: إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ،[٤] كما سيأتي. ومن أراد قتْلَ واحد إذا تَخيل أنه كأنما قتل الناس جميعا كَفّ عن القتل، هذا مع أن الناس من واحد. لهذا قال: **فكأنما**، ولم يقل: فإنما، **قتل الناس جميعا**، ومثله: مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ،[٥] أي عند الله. وذلك أنه يشير هناك إلى قدرته سبحانه. وإذا كان الأمر منه في خلق العالم بأسره كالأمر في خلق الواحد من العالم فقاتِلُ الواحد قد خالف الأمر الإلٰهي الذي هو بعينه تقوم به سائر الخليقة. فأشار ههنا إلى أنه عند الله كأنما، **قتل الناس جميعا**. ولا تفهم "فَقَدْ" موضعَ، **فكأنما**، فيقع الإشكال وتضطر[٦] إلى كثرة التأويلات وإلى اعتقاد جزاء من دية أو نار أو ما قيل. ولما خلق الله الناس من آدم جاز أن يخلق من أحد بنيه كما خلق منه، وعكسه يلزم من لزوم القتل، وهو قوله: **ومن أحياها فكأنما / أحيا الناس جميعا**، هذا يبطل قول المجبرة إبطالا تاما. [١٣٨و]
ومعناه من كان سببا لإحيائها كالعفو في القَوَد[٧] إذا ملك القتل أو مثل ذلك بأي صورة كانت توجب الإحياء من هلاك. ولو قيل: إن الولد لما كان أبوه سبب حياته هو من هذا القبيل؟ قلنا: إنما المراد إحياءٌ من هلاك، وإنما أن إحياء ابنه أو غيره بحياة الإيمان

---

١ ن – التي.
٢ الآية ١٥ و١٩ من هذه السورة.
٣ الآية ٢٧ من هذه السورة.
٤ من الآية التالية.
٥ سورة لقمان، ٢٨/٣١.
٦ ن: تضطر.
٧ القَوَدُ: القصاص وقَتلُ القاتلِ بدل القتيل (لسان العرب، «قود»).

فذلك أولى ما حُمل عليه باطن اللفظ بعد صحة ظاهره.[١] ولهذا بعده: **ولقد جاءتهم رسلنا بالبينٰت**، أي التي تكون بها الحياة الباقية. ومنه قوله: إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ،[٢] وإن كان المراد هناك هو الجهاد،[٣] لكنه يفهم من احتمال مطلق اللفظ الذي يصح في العقل. وهذا الإخبار فيه نفعٌ لسائر الناس وإن كان حكاية عن قوم بأعيانهم. **ثم إن كثيرا منهم بعد ذٰلك فى الأرض لمسرفون**، على أنفسهم، والمراد بقتل الأنبياء[٤] وإن كان عامّا والمراد هنا[٥] لِما كان في أصلهم من حين آدم فساد. وقيل: كما أخبرتُ الملائكةَ حذرناهم فيما كتبنا عليهم، ثم إنهم بعد التحذير يقتلون بل يُسرفون في القتل والفساد.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

لهذا قال: **إنما جزٰؤا الذين يحاربون الله ورسوله**، أي جزاؤهم في الدنيا، **ويسعون**، يفهم منه أو يسعون، **فى الأرض فسادا**، لقوله من قبل: مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ،[٦] وإنما لم يَذكر "أو" ههنا لأنه وصفٌ وصفَ به أهل الكتاب فهم جُمعوا بين ذلك، والتشريع يُعلم من هذا الوصف وهو، **أن يُقَتّلُوا أو يُصَلّبُوا أو تُقَطّع أيديهم وأرجلهم من خلٰف أو يُنْفَوا من الأرض**، وهذا الإطلاق هو بحسب ما يراه الحاكم مما يستحقه المحكوم عليه؛ والنفي لا يريد به الحبس، ولو كان كذلك لقال: أو يُسْجَنُوا. ولقد رأيتُ بعض الوُلَاة وكان لبيبا إذا أراد نفيَ مفسد من أرضه بعد مَسْكه يتنوع في تعذيبه وتهديده وإخافته قولا وفعلا من غير ما يوجب له الموت. ثم يُجيعه في حبسه ويخرجه إلى المشنقة[٧] ويعيده إلى أن يفنى صبره. ثم إما يأمر سرا بالتراخي في أمره ليهرب وإما أن يأمر من يشفع فيه على أنه يتوب ولا يَقرُب أرضه. ثم يُطلقه وبعقب[٨] إطلاقه يُسَيِّرُ[ه]

١ ن: ظاهرة.

٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (سورة الأنفال، ٢٤/٨).

٣ ك: للجهاد.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة النساء، ١٥٥/٤).

٥ جميع النسخ + والمراد أنه.

٦ من الآية السابقة.

٧ ر ش: إلى المشقة؛ ن: إلى المشتقة.

٨ ش: ويعقب.

إلى أطراف بلاده وغلمانه ونُوّاب الطرقات يأمرهم بمَسْكه ويحرِّض على الاجتهاد في ذلك. ويجعل لمن يحضره منهم إطلاقا فتَشيع الأخبارُ من كل جانب بطلبه فيضطره ذلك إلى أن لا يظهر في تلك الأرض أبدا لِما ذاق أولا من العذاب. فيكون كأنه قد وُكِّل بنفي نفسه ويضطره ذلك إلى الخمول والتستر بإظهار الخير والتوبة وإن لم يَنْطَوِ باطنه على ذلك. وأما من قال: إنه تعالى أراد بنفيه، أي من سائر الأرض فليس كذلك بل من الأرض التي أفسد فيها فقط. ومن الجائز أن يتوب ويرجع، ولعله إن فعل في موضع آخر فسادا فعل معه فيه ما يستحقه أيضا. ومفهوم الآية هو كقوله: ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ.[1] ولو نُفي إلى أرض الكفار كان ذلك مُعِينا له على الكفر أو الاستعانة بالكفار على المسلمين. وأما السجن فهو دون النفي. ولهذا قال: إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ.[2] **ذٰلك لهم**، مبتدأ، خبره، **خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم**، ويدلك قوله: **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم. فاعلموا أن الله غفور رحيم**، وهذا يعم السارق وغيرَه. ومن بعض علائم التائب ردّ المظالم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥﴾

ولمّا عرّف العاصي سبيل العفو عنه من جهة الخلق عرّفه بطريق التضمن سبيل العفو عنه من جهة الحق. ولهذا جاءت هذه الآيات الثلاث في وسط الكلام عن المفسدين فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة**، أي التقربَ إليه بالوسيلة؛ فالوسيلة ما يُتقرَّب به إلى الله سبحانه من أقوال أو أفعال أو نيات. **وجٰهدوا**، مطلقا أي أنفسكم وأعداءكم، **فى سبيله لعلكم تفلحون**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٣٦﴾

إن الذين كفروا، أي وماتوا على كفرهم، **لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله**
[١٣٨ظ] / **معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيٰمة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم**.

١ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۝ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٥٤-٥٥).

٢ ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٢٥).

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾

يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها. ولهم عذاب مقيم، أي لا ينتقل عنهم.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾

ولما بين ما يتعلق بالكفار متضمنا لذكر المفسدين عطف بالواو إشعارا بأن المعطوف مع المعطوف عليه، وتصريحا بعطف حكم على حكم آخر تقدم فقال: **والسارق والسارقة**. قدم ذكر "السارق" على "السارقة" لأن السَّرِقَة[1] أكثر ما توجد في الرجال. وقدم ذكر الزانية على الزاني،[2] لأن أكثر ما يوجد ذلك من النساء. وقوله: **فاقطعوا أيديهما**. ليس القطع في مقابلة مقدار السرقة؛ ولو كان لَمَا جاز إلا بأن يكون[3] على مقدار دية اليد، بل هو في مقابلة مخالفة الأمر. لهذا لم يقل: **جزاءً**، بما أخذا[4] بل، **بما كسبا**. ومفهوم هذا اللفظ يُعطي من جهة العقل قطْعَ اليد الباطشة يمينا كان أو شمالا، فإنها يمين الأعسر.[5] وإنما لم يعيّن لجواز الرفق وقال: أيدي، ولم يقل: يديهما لئلا تُقطَع اليمينُ والشمال في مرة، وليُفهَم من ذلك جوازُ قطع اليدين كلِّ يدٍ في مرة. **وأيديهما**، جمع الذكور والإناث، كأنه قال:[6] اقطعوا الأيدي من كل سارق ومن كل سارقة. فأما ما قيل: إنه لا يجب القطع إلا على سارق مخصوص من مكان مخصوص مقدارا مخصوصا فالآية لا تُنبئ عن تلك الشروط، بل تدل على قطع السارق. فإذا كان الحديث غيرَ مخالف للكتاب وإن لم يكن في صريحه لكن ليس فيه ضدُّه بصريح أو لازمٍ فهو واجب، وحكمه حكمُ تفصيل الصلاة.[7] واعلم أن القطع للسارق هو جزاؤه في الدنيا، وأما المغفرة فلا تكون إلا بالتوبة. ولهذا ذكر الآياتِ الثلاثَ بين ذكر المفسد والسارق كما قدمنا. وقوله: **نكٰلا** -تقدم في البقرة شرحه-[8] **من الله**،

---

١ ك – السرقة، صح هـ.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (سورة النور، ٢/٢٤).

٣ جميع النسخ + إلا.

٤ جميع النسخ: أخذ.

٥ أي اليد الباطشة هي قوة الفعل الأعسر.

٦ ن – قال.

٧ أي حكم بيان كيفية إقامة الصلاة من القيام والركوع والسجود وغيرها الثابتة بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٦٦/٢).

والله عزيز حكيم، ذكرُ هذين الاسمين مناسبة لما تقدم، لأنه عز فحكم فقطع. وعن ابن عباس رضي الله عنه: لَحَدٌّ يقام في الأرض خيرٌ للناس من أن يُمْطَروا أربعين عاما.[١]

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾

ولمّا بيّن الحكم جعل التوبة تمحو ذلك، وقيده من بعدُ بهذه الآية، ومن قبلُ بقوله فيما تقدم: إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ،[٢] لأن ذلك عام وهذا فساد خاص وهو داخل في العام؛ فلما كان السارق مُفسِدا أيضا عيَّن له قصاصا خاصا به. ثم قال: **فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح**، ومعناه من قبل أن تقدروا عليه أيضا. **فإن الله يتوب عليه**، ففَتح له باب التوبة، وعَفا عنه وعن مؤاخذته بالقطع، لعله يرتدع من نفسه فتسلم له[٣] يده وإلا فباب التوبة مفتوح له متى تاب. ولهذا قال: **إن الله غفور رحيم**. وقوله: **وأصلح**، يشعر بردِّ ما سَرَقَه أو عِوَضه، فإن لم يكن له إلى ذلك سبيل **فإن الله غفور رحيم** في الدنيا عن قطعه وفي الآخرة عن تعذيبه. ويبقى حكمُ ما في ذمته حكمَ الدَّين الذي عجز عن قضائه بشرط الإقرار به لمالكه إن وُجد. ويحتمل أن الله تعالى يرضي عنه الخصومَ في الآخرة.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤٠﴾

ولهذا لمّا كان هذا الموضع يُشعر بمسامحة وإن لم يصرح به قال بعده: **ألم تعلم أن الله له ملك السمٰوٰت والأرض**، يشير إلى أن أموال العباد كلَّها له سبحانه. وإذا كان كذلك، **يعذب من يشاء**، ممن استحق العذاب بكسبه، أي وله أن يعفو. ولهذا قال بعده: **ويغفر لمن يشاء**، أي وإن لم يكن مستحقا لذلك. وهذا من أبلغ ما فتح باب الرجاء وأطمع في سعة الرحمة. وقدم المغفرة على العذاب في سائر القرآن إلا في هذه السورة قدّم ذكر العذاب، لأنه في حق السارق وعذابه في الدنيا بالقطع. ثم قال: **والله علىٰ كل شيء قدير**، فهو سبحانه يُرضي الخصوم من سعته بقدرته إن شاء لمن يشاء. والدليل على سقوط القطع عن التائب من السرقة تقديمُ ذكرِ العذاب على المغفرة بعد قوله: فَمَن تَابَ.[٤]

١ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٣٤/١١.
٢ الآية ٣٤ من هذه السورة.
٣ ن: فتسلم به.
٤ من الآية السابقة.

فكأن الآية الثانية مؤكدة لمعنى الأُولى وشارحة لها. فالإشارة بقوله: **يعذب**، عائدة على القطع.[١] ثم قال: **ويغفر**، أي لمن تاب عن الظلم قبل القطع. وأما بعده فلازم مع التوبة، والله أعلم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾

ولما / كان الخطاب ههنا بقوله: أَلَمۡ تَعۡلَمۡ،[٢] عائدا على الرسول صلى الله عليه [١٣٩و] وسلم قال تعالى: **يٰأيها الرسول لا يحزنك الذين يسْرعون فى الكفر**، هذا كقوله:[٣] يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ،[٤] أي في عملها. ويقال:[٥] أسرع فيه الشيبُ، أي وقع فيه سريعا. ولم يقل: "إلى الكفر" ليعرّفَنا أنهم لم يخرجوا عنه ويلزم أن المسارعة فيه إليه أيضا. وبيّنه بقوله عنهم: **من الذين**، أي من القوم الذين، **قالوا ءامنا بأفوٰههم ولم تؤمن قلوبهم**، وذلك كالمنافقين أظهروا الإسلام وبعد ذلك يسارعون إلى موالاة المشركين والكفار. فنفاقهم كفر وموالاتهم كفر، فهم يسارعون في الكفر. وهذا كقوله عن مثلهم: فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ،[٦] فافهمه. وقوله: **ومن الذين هادوا**، ولا يحزنك ذلك ومن، **الذين هادوا**،[٧] أيضا. فعرّفَنا أن من أشار إليهم أولا ليسوا هودا حين عطف عليهم بقوله: **ومن الذين هادوا**. وعرّفَنا أن مِن الذين هادوا من يقول كقول[٨] المشركين، أعنى، **ءامنا بأفوٰههم ولم تؤمن قلوبهم**، فاعرف هؤلاء لِتَحُلَّ بمعرفتهم في المستقبل مشكلا.

---

١ جميع النسخ: عن القطع.
٢ من الآية السابقة.
٣ جميع النسخ + مثله، والمثبت من م.
٤ وهذه العبارة وردت في آيات عديدة، منها ما ذكر في سورة آل عمران، ١١٤/٣؛ وسورة الأنبياء، ٩٠/٢١.
٥ ن: يقال.
٦ الآية ٥٢ من هذه السورة.
٧ ك – ولا يحزنك ذلك ومن الذين هادوا، صح هـ.
٨ ك ن: كمقالة.

ثم أخذ يصف صفةَ الذين هادوا فقال: **سمّٰعون للكذب**، ولم يقل: سامعون، أي هذه صفتهم مطلقا. ثم خصص من ذلك كذبا يسمعونه من علمائهم فقال: **سمّٰعون لقوم ءاخرين لم يأتوك**، والقوم الآخرون لم يأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدل على أن الأوائل أتوا إليه وقالوا: آمنا بأفواههم. ثم أخذ يصف صفاتِ الآخرين الذين لم يأتوا فقال: **يحرفون الكلم**، أي في التوراة كما ستعلم، ولم يقل: يبدلون إشارة إلى معنى الكلم. وقوله: **من بعد مواضعه**، أي من بعد وَضِعْنا له، فهو يعود إلى مدح الحق كقوله: مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ.[1] وقوله: عَن مَّوَاضِعِهِۦ،[2] أي يحرِّفون الكَلِمَ عما وُضع له من المعنى. فوصفهم بأنهم يحرفون الكلم عن المعنى الذي وُضع الكلم على ذلك الوضع من أجله، وإن ذلك التحريف منهم ليس عن ضلالة بل عن عمدٍ، فتأولوه على صورةٍ تهدي. فقوله: عَن [مَّوَاضِعِهِۦ]، دل على تحريفهم الكلِمَ عن معناه إلى أهوائهم. وقوله: **مِنۢ بَعۡدِ**، دل على مثل ذلك، لكن بعد علمهم بمدلول الوضع. ولهذا بيّنه ههنا بقوله بغير واو: **يقولون**، بعد التحريف للسمّاعين: **إن أوتيتم هٰذا**، أي الذي قد قررناه من أنه هو معنى اللفظ، **فخذوه**، أي عن محمد صلى الله عليه وسلم بمعنى اقْبَلُوه. وهو[3] عبارة عن حصولِ مأخوذ، سواء كان ذلك الباطن أو الظاهرَ، كقوله: خذ عني أن الأمر كيت وكيت. **وإن لم تُؤْتَوْه فاحذروا**، أي فاحذروا أن تأخذوا غيره. فهذا كلام العلماء المستكبرين من اليهود، وهم الذين لم يأتوا إلى الرسول. والذين جاءوا إليه هم السمّاعون لهؤلاء وللكَذِب[4] من غير هؤلاء. ثم قال: **ومن يُرِد الله فتنته**، أي معاقِبا له بظلمه، **فلن تملك له من الله شيئا. أولٰئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم. لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.**

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٤٢ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٣﴾

---

١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٥٩).

٢ الآية ١٣ من هذه السورة.

٣ أي الأخذ.

٤ ش: والكذب.

وقوله بعد ذلك: **سمّٰعون للكذب أكّٰلون للسحت**، يشير إلى الذين لم يأتوا. فهم يُسمعون غيرَهم ما حرّفوه. وقد قلدوا مَن قبلهم في كَذِبٍ آخرَ غيرَ ما كَذَبوا هم فيما حرفوه ليأكلوا به السحتَ. فليست هذه الألفاظ مكررة، أعني، **سمّٰعون**، لأن الأُولى عن الذين أوتَوْا فهم سمّاعون من كل ذي كذب. ثم وصفهم في الثانية أنهم سماعون لقوم آخرين. وأما الثالثة فهي عن الذين لم يأتوا. والسحت[١] من قوله: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾،[٢] وهي في العبرانية "يشخيثخم"، وتفسيرها[٣] يُهْلِكُكم. ولمّا كان البِرْطِيل[٤] مُهلِكا سمي سحتا. **فإن جاءوك**، أي الذين لم يأتوك، **فاحكم بينهم أو أعرض عنهم**، فإنهم لا يأتون إلا نفاقا وعداوة. **وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا. وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط**،[٥] الذي أنزله الله إليك. **إن الله يحب المقسطين**.

ولهذا بعده: **وكيف يحكّمونك وعندهم التورٰة فيها حكم الله**، وقوله: **ثم يتولون من بعد ذٰلك**، أي عن التوراة / إلى الطاغوت ليتحاكموا إليه. ومن جملة الكذب[٦] الذي [١٣٩ظ]
هم سماعون له ما يسمعونه في توليهم[٧] عن التوراة من الطاغوت سواء كان استماعهم باطنا من الشياطين، أو ظاهرا من أولياء الشياطين،[٨] وهم الذين لم يأتوا، وكذلك وصف الذين أوتوا، ثم قال عن الفريقين: **وما أولٰئك بالمؤمنين**، بالتوراة على ما يدّعونه.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم علل ذلك بقوله: **إنا أنزلنا التورٰة فيها هدى ونور**، فمن لم يحكم بها منهم فليس بمؤمن. وبيّن ذلك بقوله: **يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استُحْفِظوا**، أي جُعِلوا حَفَظَة فهو محفوظ، **من كتٰب الله**، التوراة والمعنى في ذلك الزمان. وقوله: **وكانوا عليه شهداء**، أي يشهدون أنه من عند الله ويعلمون ذلك

---

١ ك ن: السحت.

٢ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ (سورة طه، ٦١/٢٠).

٣ ش: وتفسيره.

٤ البِرطيل في الأساس الرشوة (لسان العرب، «برطل»).

٥ ن + أي.

٦ ن – الكذب.

٧ ش: في قولهم.

٨ ش – أو ظاهرا من أولياء الشياطين.

عن بينة تَصح بها شهادةُ الشاهد، فليسوا بمقلدين بل على بصيرة. وقوله: **فلا تخشوا الناس واخشونِ ولا تشتروا بئايٰتى ثمنا قليلا**، هو خطاب للأنبياء والربانيين والأحبار الذين هم سادات القوم وعلماؤهم، أي وأمرناهم بذلك، والجميع حكاية عمن مضى. **ومن**، أي وقلنا لهم: **من لم يحكم بما أنزل الله**، أي في التوراة لأهلها، **فأولٰئك هم الكٰفرون**.

﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥﴾

ويدلك على أن جميع الكلام هو حكاية عمن مضى قوله بعده: **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص**، ورتَّب ذلك في الذكر بحسب الأشرف، وقدّم النفس. وقوله: **فمن تصدق به**، أي بما وجب له، **فهو كفارة له**. وقوله: **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولٰئك هم الظٰلمون**، من حُكّام اليهود. وإنما قال أولا: هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ،[1] لأنهم تولوا إلى الطاغوت عن التوراة، وههنا، هم الظٰلمون، إذ لم يحكموا في القصاص بما أمرهم في التوراة. فمن لم يحكم فقد ظلم المحكومَ له أو عليه، فهم ههنا أَولى باسم الظلم. ويدلك على أن الكلام إخبار عن الماضين لا أمر للحاضرين،[2] منهم قوله بعده:[3]

﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾

قوله بعده: **وقفينا علىٰ ءاثٰرهم**، معطوف على قوله: يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ.[4] لهذا قال: **بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التورٰة، وءاتينٰه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التورٰة**؛ التصديق الأول يشير به إلى عيسى، والثاني إلى الإنجيل.

---

[1] من الآية السابقة.
[2] جميع النسخ: عن الماضين إخبارا ل الحاضرين أمرا، والمثبت من م.
[3] جميع النسخ – منهم قوله بعده، والمثبت من م.
[4] الآية ٤٤ من هذه السورة.

وقوله أولا: **هدًى ونورٌ**، أي عامّا لكل مُتَّبِع.[١] وقوله ثانيا: **وهدًى وموعظةً**، أي خاصا، **للمتقين**، من تُبّاع عيسى عليه السلام.

﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾

وليحكم، أي وأمرْنا أهل الإنجيل بما فيه كما أمرْنا أهل التوراة بما فيها، ولهذا لم يقل: فليحكم، **أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه. ومن لم يحكم**، منهم، **بما أنزل الله فأولٰئك هم الفٰسقون**، الخارجون عن أمر الله الذي أُمِروا به في زمنهم. وأواخر هذه الآيات الثلاث يعطي أن مَن لم يحكم بما أنزل الله فهو إما كافر، أو ظالم، أو فاسق. ولا يشتبه عليك فتظنَّ أن المراد اليوم هو أن يحكموا بما في الكتابَيْن[٢] فيلزم استمرارهم على ذلك، وإنما هذا جميعُه حكاية عما مضى. والذي يلزمهم الآن اتّباعُ القرآن لا غير. وظاهرٌ في العقل أن قوله: وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَا،[٣] هو إخبار لا فرض على المسلمين، وهو غير قوله: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى.[٤]

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾

وفرقٌ بين الإخبار عن اليهود وبين الفرض على المؤمنين، ولهذا قال بعده ههنا: **وأنزلنا إليك الكتٰب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتٰب**، اسم الجنس، **ومهيمنا عليه**، أي شاهدا. **فاحكم بينهم**، جميعِهم من الآن، **بما أنزل الله**، أي إليك. ولهذا بعده: **ولا تتبع أهواءهم**. وقوله: **عما جاءك من الحق**، يعطي أنه لا يجوز الحكم في القصاص بما جاء في التوراة، لأن مِن جملة أهوائهم أنه يحكم بما يحكمون به في التوراة.[٥]

---

١ ك ن: متتبع.

٢ ن: في الكاتبين.

٣ الآية ٤٥ من هذه السورة.

٤ سورة البقرة، ٢/١٧٨.

٥ ش – لأن من جملة أهوائهم أنه يحكم بما يحكمون به في التوراة، صح هـ.

وقوله: لكل جعلنا منكم شرعة، طريقة، ومنه الشارع وهو الطريق. والشريعة فعيلة بمعنى مفعولة. ومنه شرعت في عمل كذا، أي دخلت. وذلك ما أوجب الله على المكلَّفين الشروعَ فيه. ومنهاجا، مشتق من النهيج، وهو كثرة التنفس. ولما كان سالكُ
[١٤٠و] السبيل يعرض له ذلك في أكثر الأمر سمي السبيلُ الواضحُ المنهاجَ باسم / ما يعتري سالكَه فيه، ويُستعمل حقيقةً على السبيل المسلوكة بالأجسام، ومجازا واستعارةً على السبيل المسلوكة بالعقول.

ولو شاء الله لجعلكم أمة وٰحدة، أي من أول الأمر، أو متى يشاء سبحانه. وهذا هو إخبار عن قدرته على إجبارهم. ثم بيّن حكمة ذلك بقوله: ولٰكن، لم يجبركم، ليبلوكم فى ما ءاتىٰكم، من الشرائع في كل زمن وزمن. فاستبقوا الخيرٰتِ، أي إلى فعل الخيرات. ولما كانت شريعة الإسلام جامعةً للخيرات عادت الإشارة بقوله: فاستبقوا، إليها. إلى الله مرجعكم جميعا. وبين الاختلاف من حيثهم لا من حيثه فقال ما يدل على الجزاء بقوله: فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون. وليس لقائل أن يقول: إذا كان الله قد جعل لكلٍّ شرعةً ومنهاجا، ولو شاء الله لجمعهم وجعلهم أمة واحدة، فأيّ ذنب لهم؟ لأنه تعالى قال بعده: ولكن ليبلوكم، ولا يصح الابتلاء إلا لقادر. ولهذا أمرهم بقوله: فاستبقوا، بتاء الاختيار. ولأن كل شريعة من الشريعتين المتقدمتين تأمر باتباع هذه الأخيرة، فاتباع الأخيرة هو اتباع ما قبلها ولا ينعكس. وقد بينا من مِثْلِ هذا في عدة مواضع لفرط الضرورة إلى فهمه.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وقوله: وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، كرره، لأن الأول[١] عن اليهود والثاني عن النصارى، إذ لأولئك أهواء ولهؤلاء أهواء. ويحتمل أنه كرره ليضيف إليه قولَه:[٢] واحذرهم أن يفتنوك، يُضلّوك، عن بعض ما أنزل الله إليك.

---

١ أي ما في الآية السابقة.
٢ ش – وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم كرره لأن الأول عن اليهود والثاني عن النصارى إذ لأولئك أهواء ولهؤلاء أهواء ويحتمل أنه كرره ليضيف إليه قوله، صح هـ.

وهذا يعطي أن الخطأ والنسيان جائز على الرسل ولم يبق إلا التعمدُ، وإن كان المراد الأمة لكنّ ظاهره يقتضي ذلك. **فإن تولوا**، عام عن أهل الكتاب وأمثالهم، **فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم**. وهذه الإصابة قد تكون بنفس التولي كقوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾،[1] وقوله:[2] ﴿أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.[3] فالطبع هو الإصابة. فافهمه متدبرا جملةَ تلك الآية. **وإن كثيرا من الناس**، بعد اليهود والنصارى، **لفٰسقون**.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٠﴾

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾

ثم تمم الكلام عن اليهود والنصارى بمثله، وهو قوله تعالى: **يٰأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصٰرى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم. إن الله لا يهدى القوم الظٰلمين**.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾

فترى الذين فى قلوبهم مرض يسٰرعون فيهم، أي في موالاتهم. **يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة**، أي من دوائر الزمان ونوائبه التي تدور فتَطْحَن كما تدور الرّحا، أي فيكون هؤلاء لنا أولى من أن يكونوا علينا. وهذه خدعة من خُدَع الشيطان. فقال الله تعالى لمثل[4] هؤلاء: **فعسى الله أن يأتى بالفتح**، أي فتح بلاد الكفار بأيدي المسلمين، **أو أمرٍ من عنده**، كخَسْف، أو إهلاك لا بيدِ المؤمنين. والمراد أن لا يكون للناس فيه مشاركةٌ. **فيصبحوا**، هؤلاء الذين يسارعون فيهم، **علىٰ ما أسرُّوا فى أنفسهم نٰدمين**، يدل على أن قولهم: **نخشى أن تصيبا دائرة**، إنما كان سرا وأن سبب ذلك النفاق والكفر.

---

[1] ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ (سورة النساء، ١١٥/٤).

[2] ش: وكقوله.

[3] ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٠٠/٧).

[4] ش- لمثل.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ويقول الذين ءامنوا، أي إذا جاء أمرٌ من عند الله يظهر به نفاق المنافقين يقول المؤمنون[1] بعضُهم لبعض عن المنافقين الذين ظهر نفاقُهم لمّا غلب أولياؤهم[2] من الكفار: أهٰؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمٰنهم إنهم لمعكم. ثم قال تعالى مخبرا عنهم: حبطت أعمٰلهم فأصبحوا خٰسرين، في الدنيا والآخرة. وذلك لأن أعمالهم التي كانت مع المسلمين لم تنفعهم لظهور أنهم كانوا منافقين. وموالاتهم الكفارَ لم تنفعهم أيضا لِما جاء أمر الله بنصر دون فتح أو بفتح؛ فحبطت أعمالهم التي عملوها مع المؤمنين والتي عملوها مع الكفار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

ثم أتبع القولَ بما يدل على أن مَن والى اليهودَ والنصارى والمشركين فقد ارتد عن دينه، فصرح من قبل بقوله: وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ،[3] ثم أعقبهم مؤكِّدا في القضية نفسِها وإن كان الكلام مطلقا فقال: يٰأيها الذين ءامنوا من يرتد منكم عن دينه، تقديره لن يضروا الله شيئا، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه. المحبة من الحق لا تكون إلا بما يصدر من العبد مما يستحق به المحبةَ وإلا فهي ميل بالهوى لا بالحق.
[١٤٠ظ] وقد غلط كثير من الناس، إذ ظنوا أن / المحبة إن لم تتقدم من الحق أولا لم تكن من الخلق أخيرا. وبنوا ذلك على أمرين. أحدهما تقديم ذكرِ محبة الحق أولا في الآية، والثاني اعتقادهم أن المحبة من الله تابعة للمشيئة لا عن مقتضى الحكمة. وهذه قاعدة الجبر. والحق أن محبته تعالى مبنية على امتثال الأمر، وهي خطاب بالمعهود المعلوم ترغيبا في اتباع الأمر. لهذا جعلها الله تعالى لقوم قابَلَ بها المرتد عن دينه، فافهم هذا جيدا. وبهذا جاء الحديث «لا يزال عبدٌ يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبه»،[4]

---

[1] ن: المؤمنين.

[2] ن: أولياءهم.

[3] الآية ٥١ من هذه السورة.

[4] «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سَمْعَه الذي يَسمع به وبصره الذي يُبصر به ويده التي يَبطش بها ورِجلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأُعطينّه ولئن استعاذني لأُعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَساءته» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٥٦/٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

ولا تكون النوافل إلا بعد الفرائض. فالمحبة وإن بدأت من الرب فقد تقدم سببُها من العبد. والذي كتبه تعالى في الأزل هو ما علمه أن يكون من طاعة العبد التي بها يستحق منه محبة الحق له، فعادت محبةُ الحق مبنيةً على الجزاء لا على الهوى. تعالى الله عن ذلك.

قال الأنصاري[1] في كتاب منازل السائرين: المحبة أول أَوْدِيَة الفناء والعَقَبَةُ التي ينحدر منها على منازل المحو. وهي آخر منزل تلتقي فيه مقدمة العامة وساقة الخاصة، وما دونها أغراض لأعواض. وهي على ثلاث درجات. الأُولى تَقطع الوسواسَ وتُلِذّ الخدمة وتُسلي عن المصائب. وهي[2] محبة [تنبت] من مطالعة المنة، وتَثْبت باتباع السنة وتنمو على الإجابة للفاقة. والدرجة الثانية محبة تبعث على إيثار الحق على غيره وتُلْهِجُ اللسانَ بذكره وتُقْلِق القلبَ بشهوده. وهي محبة تَظهر من مطالعة الصفات والنظرِ في الآيات والارتياض بالمقامات. والدرجة الثالثة محبة خاطفة تقطع العبارة وتدفع الإشارة ولا تنتهي بالنعوت. وهذه [المحبة هي] قطب [هذا] اللسان وما دونها مَحَابٌّ[3] نادت عليها الألسنُ وادَّعتْها الخليقة وأوجبتها العقولُ.[4] وقال الجنيد:[5] هي دخول صفات المحبوب على البذل من صفات المُحِبّ. وذلك قوله: كنت له سمعا وبصرا ويدا.[6]

١ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، شيخ خراسان في عصره. من كبار الحنابلة. من ذرية أبي أيوب الأنصاري. كان بارعا في اللغة، حافظا للحديث، عارفا بالتاريخ والأنساب، مظهرا للسنة داعيا إليها. من كتبه ذم الكلام وأهله، والفاروق في الصفات، وكتاب الاربعين في التوحيد، والأربعين في السنة، ومنازل السائرين. توفي سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٩م (الأعلام للزركلي، ١٢٢/٤).

٢ ن + من

٣ ن: حجاب.

٤ منازل السائرين للهروي، ص ٣٤.

٥ أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، صوفي، من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. أصل أبيه من نهاوند، وكان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير. وعرف الجنيد بالخزاز لأنه كان يعمل الخَزّ. وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد. وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوف، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، ولكونه مصونا من العقائد الذميمة، محمي الأساس من شبه الغلاة، سالما من كل ما يوجب اعتراض الشرع. له رسائل، ودواء الأرواح. توفي سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م (الأعلام للزركلي، ١٤١/٢).

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به ويده التي يَبطش بها ورِجلَه التي يمشي بها وإن سألني لأُعطينّه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٥٦/٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

وقوله: **أَذِلَّةٍ على المؤمنين**،[1] لَيّني الجانب كقوله[2] ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾،[3] والمعنى: في حكمهم على المؤمنين، والمراد ذلّ الخضوعِ لا ذل الهوان، **أعزة على الكٰفرين. يجٰهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله وٰسع عليم**. والدليل على أن المراد بالارتداد عن الدين في هذا المكان هو الموالاة قوله بعد ذلك:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

ومن يتول الله ورسوله والذين ءامنوا، تقديره يغلب، لأنه من حزب الله. **فإن حزب الله هم الغٰلبون**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

ولمّا قدم النهي عن موالاة اليهود والنصارى نهى عن موالاة الكفار من بقية الناس، وجعل الجميع في محل واحد من الوصف المذموم فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتٰب من قبلكم والكفار**، غير منصوبة لفقدان الخافض، بل لأنها[4] مفعول للاتخاذ، أي ولا تتخذوا سائرَ الكفار وإن لم يتخذوا[5] دينكم هزوا ولعبا. إنما كرر ذكر[6] "الذين أوتوا الكتاب" في هذه الآية بعد ما تقدم[7] ليعرّفنا أن جُلّ الكلام هو في المنافقين. ولهذا لم يقل: لا تتخذوا الكفار. ولهذا قال: **الذين [اتخذوا دينكم هزوا ولعبا] من الذين**،[8] على تقدير أن تكون "من" للتبعيض؛ والأعم أنها ههنا لتبيين الجنس ليدخل المنافق وغيره منهم فيه. والمنافقون ينقسمون إلى قسمين. أحدهما من يُظهر دينه من اليهودية وغيرها،

---

١ ن + أي.

٢ ش ر – كقوله، والمثبت من م.

٣ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ (سورة يٰس، ٣٦/٧١-٧٢).

٤ ن: بل لأنهما.

٥ ن – سائر الكفار وإن لم يتخذوا.

٦ ن – ذكر.

٧ أي في الآية السابقة برقم ٥١.

٨ ن – من الذين.

وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا،[1] والآخر من[2] يُظهر الإسلام ويُسرّ دينَه أو كفره بالأديان كلها. فنهى الله عن موالاة المنافقين مطلقا، وأكد لئلا يغلَط المؤمن فيتخذَهم أولياء فقال: واتقوا الله، أي مخالفتَه في هذا الأمر، إن كنتم مؤمنين.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾

وإذا ناديتم / إلى الصلوٰة اتخذوها هزوا ولعبا، وعيّن الصلاة لأنها أخص ما في الدين، [١٤١و] فهم يستهزءون حتى بالصلاة. ذٰلك بأنهم قوم لا يعقلون، أي لا يعقلون مع العقل فيما[3] يحكمون به، وليس المراد أنهم ليس لهم عقول، فلو كان كذلك لسقط عنهم اللوم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾

قل يٰأهل الكتٰب هل تنقمون منا، أي تكرهون، وهو مشتق من النقمة وهي ضد النعمة، إذ النقمة[4] عقاب بمكروه، إلا أن ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل. وقوله: وأن أكثركم فٰسقون، أي يُعتقد ذلك فيكم، فإن اليهود يَكرهون من المسلمين الإيمانَ بعيسى مثلا، ويَكرهون اعتقادَ المسلمين فيهم أن أكثرهم فاسقون.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾

ثم قال تعالى: قل هل أنبئكم بشرّ من ذٰلك، الذي تكرهونه منا، بمعنى بشرّ مما نعتقده فيكم، أي بأعظمَ من ذلك شرا. وقوله: مثوبةً عند الله، أي جزاءً، وتقديره في المعنى مِن أثابه مثوبة، وهي من ثاب يثوب مثل قال يقول مقولة. وتقديره: هو، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطٰغوت، والمعنى ومَن[5] عبد الطاغوت، ولم يذكر "مَن" لئلا ينفرد الوصف بغير الموصوف الأول، بل من لعنه الله وغضب عليه هو عبد الطاغوتَ، وهذا كله ثوابُ عمله الفاسد. أولٰئك، أي عند الله، شر مكانا، أي مما هم عندنا. وأضل عن سواء السبيل. ولا يكون المفهوم أن مَن لعنه الله

---

١ سورة البقرة، ٢/١٤، ٧٦.
٢ ن – من.
٣ ش: فيها.
٤ ش – إذ النقمة، صح هـ.
٥ ش: من.

وتمامَ الوصف شر من الذين آمنوا، بل المعنى ما تقديره: فإن كرهتم منا ما نعتقده فيكم فأنتم عند الله شر مما أنتم عندنا. واليهود عند الله شر من المسلمين عند اليهود وشر مما في أنفس المسلمين منهم.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

وإذا جاءوكم قالوا ءامنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، لو أسقط "هم" أعني لو قال: وخرجوا به لم يتم المعنى المقصود. والمقصود "وهم من قبل ذلك الدخول قد خرجوا به"، أي هم بأعيانهم، فدل على دخولٍ آخرَ تقدّم. ولو لم يقل: وهم، لدل على دخول واحد وخروج واحد بعد ذلك الدخول؛ فقوله: وهم، دل على تكرار دخول وخروج بالكفر. **والله أعلم بما كانوا يكتمون.** ولهذا لم يسقط "كانوا"، فافهم.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

وترى كثيرا منهم، من المذكورين، **يسٰرعون فى الإثم،** أي في كسبه مع دعواهم الإيمانَ، فأقوالهم ضدّ أفعالهم، **والعدوٰنِ وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون.**

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

لولا، هلّا، **ينهٰهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت. لبئس ما كانوا يصنعون،** الربانيون والأحبار إذ لم ينهوا هؤلاء.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾

وقالت اليهود يد الله مغلولة. قد علمت أن الله تعالى خاطب عباده على قدر عقولهم،[١] وأنه تعالى ضرب لهم الأمثالَ وأن القرآن العظيم هو كتاب الأمثال، إذ قد ضرب الله للناس من كل مثل،[٢] إذ لا سبيل أن نفهم عن الله تعالى أو نعبر إلا بعبارة النسبة والتمثيل. ولما كان ما نَبطش نحن به ونُنفق[٣] إنما هو اليد ضرب الله تعالى مثلا بهذا الكلام ليعرّفَنا ما تعتقده اليهود فيما سنذكره مما يلزم عنه أن يكونوا في كل آن قائلين ذلك. فافهمه. وبيانه أنك قد فهمت فيما سبق من الكلام كثرةَ ما أخبر الله تعالى عنهم من[٤] مثل دعواهم أن الجنة خالصة لهم من دون الناس،[٥] وأن مَن سواهم من الأمم كلهم لم ينزل الله لهم كتابا، وهم إلى الآن يعتقدون أن الله تعالى لم يُنزِل غير التوراة ولا ينزل في المستقبل أبدا. وقد كذبهم الله تعالى في عدة مواضع وكذبهم الوجود والعقولُ السليمة. ففي القرآن كقوله تعالى: مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ، ثم قال: وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ،[٦] وكقوله: بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ / بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ،[٧] وأمثال ذلك كثير. وهذا يدل على أنهم منعوا بدعواهم أن الله يرسل رسولا إلى غيرهم. وقد علمت أن الله تعالى سمى إرسالَ الرسول والرسالة فضلا. وقال في مثل ذلك: وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا.[٨] فاليهود ألزموا الله بدعواهم عقائدهم أنه لا يُنزل كتابا ولا يُرسل رسولا إلى غيرهم من سائر الخلق حتى كأنه في عقائدهم كالذي يده مغلولة، لو أراد أن يُنفق على غيرهم لم يستطع. ولهذا لعنهم وكذّبهم فقال: **غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء**، كما قال تعالى: وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ.[٩] فالإنفاق هو الصدقة، [١٤١ظ]

---

١ راجع لذلك المعنى فيما روي عن ابن عباس: «أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» (كنز العمال لعلاء الدين الهندي، ٢٤٢/١٠؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ١٩٦/١). وانظر أيضا: عمدة القاري للعيني، ٤٠٣/٣. ولكني لم أجد هذا الحديث حديثا مرفوعا فيما بين يدي من كتب الحديث المعتبرة.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ (سورة الروم، ٥٨/٣٠؛ وسورة الزمر، ٢٧/٣٩).

٣ جميع النسخ: وينفق، والمثبت من م.

٤ ك ن – من.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٩٤/٢).

٦ سورة البقرة، ١٠٥/٢.

٧ سورة البقرة، ٩٠/٢.

٨ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (سورة النساء، ١١٣/٤).

٩ سورة البقرة، ١٠٥/٢.

وهو استعارة يريد بها إرسالَ الرسل وإنزال الكتب، وهو الفضل. وهل جميع ذلك إلا مِن فضله وكرمه؟ ولا كرم من قادر يريد المتكلم أن يضرب له مثلا بأظهرَ من هذا الكلام الذي يدل على غاية الكرم مع عظم القدرة: لو كان في بشر مَثَلًا أن يديه دائما مبسوطتان أبدا بالعطية وإن لم يسأل سائل بل هو ينفق كيف يشاء. ولمّا كان هذا الوصف لا ينبغي إلا لله وصف الله به نفسه، إذ فضلُ المخلوق يَنفد وفضل الله لا ينفد،[١] وهو ما أنزله من البينات والهدى رحمة منه تعالى، كقوله تعالى: وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ، ثم قال: إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ.[٢] فقد علمت معنى قول اليهود في كل زمن وإن لم يكن بالأفواه، فهم دائما يقولون: يد الله مغلولة. وهذا كما يقال: هذا قول الصابئة، أي عقيدتهم ومذهبهم، ولكنه عبّر بلفظة "قالوا" ليعرّفنا أنهم بالأفواه أيضا يقولون ما يدل على ذلك ويلزم عنه. وقد أوضحنا ذلك عند قوله: فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ،[٣] وعند قوله: مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ.[٤] فجاء اللفظ بصورة الاستعارة ليُشعر معناه. وذو الرُّمّة[٥] استعار في شعره للشمال يدا وللقِرّة[٦] زِماما، فقال:[٧]

إذ أصبحتْ بيد الشمال زِمامُها.[٨]

فليس للشمال يد ولا للقِرّة زمام على نوع الحقيقة، بل لما[٩] كانت الشمال تَهُبّ فتشتد القِرّة بهبوبها شبّه القرة بالبعير المنقاد في يد صاحبه. ويدلك على صحة ما شرحناه وأن المراد بقوله: يد الله مغلولة، هو أنه لا يؤتي فضلَه من يشاء من عباده

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ (سورة النحل، ٩٦/١٦).

٢ سورة القصص، ٨٦/٢٨.

٣ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ (سورة الأنعام، ٨٩/٦).

٤ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ (سورة الأنعام، ٩١/٦).

٥ أبو الحارث ذو الرمة غيلان بن عقبة بن نُهَيْس بن مسعود العدوي، من مضر، شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فُتح الشعر بامرئ القيس وخُتم بذي الرمة. وكان شديد القصر، دميما، يضرب لونه إلى السواد. وكان مقيما بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيرا. وامتاز بإجادة التشبيه. توفي سنة ١١٧هـ/٧٣٥م (الأعلام للزركلي، ١٢٤/٥).

٦ ش: وللقوة. | القُرُّ البردُ عامةً بالضم. وقال بعضهم: القُرّ في الشتاء والبرد في الشتاء والصيف، يقال: هذا يومٌ ذو قُرٍّ أي ذو بَرْدٍ. والقِرّةُ ما أصاب الإنسانَ وغيره من القُرِّ والقِرّةُ أيضاً البرد (لسان العرب، «قرر»).

٧ ن + شعر.

٨ تمام البيت:

وغداةِ ريحٍ قد وزعتُ وقِرّةٍ
إذ أصبحتْ بيد الشمال زمامُها.

انظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ص ٦٧؛ والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ٥٣٥/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٢٧/٧، ٢٥٩/١٢.

٩ ن – لما.

ولا يُرسل رسولا إلى أمة غيرهم. قوله تمام الكلام: **وليزيدن كثيرا منهم**، الكثير هو المراد يزيده، **ما أُنزل إليك من ربك**، وهو الفضل الذي بسط الله به يديه على عباده زاد كثيرا منهم، **طغيٰنا وكفرا**. ولم يقل: كلَّهم، لأن البعض هُدي به، والأكثرون زادهم القرآن طغيانا وكفرا إلى كفرهم.

وألقينا بينهم العدٰوة والبغضاء إلىٰ يوم القيٰمة، فلا تأتلف لهم قلوب. لهذا قال بعده: **كلما أوقدوا نارا للحرب**، مع المؤمنين أو غيرهم، **أطفأها الله**، وهذه استعارة في آخر الآية كما استعار في أولها بقوله: **يد الله**. والمعنى كلما تَجمَّعوا وقويت شوكتُهم وعملت أفكارهم في انتصار بالمحاربة أطفأ الله ما مثَّله منهم بالنار فلا يحاربون. ومن لا يُمكن أن يحارب كيف ينتصر، فمنعهم الله ما به يكون الانتصار. وهذا الإخبار عنهم هو من جملة معجزات القرآن وصدقِه وصدق الآتي به، إذ الأمر كذلك. فلا يزالون في ذلّ ولا يكون لهم سلطان أبدا بل سلبهم الله عِزَّهم ومنعهم ما يجوز أن يَعتزّوا به من المؤمنين وهو الموالاة بعد ما أطفأ نار الحرب. وأزال الائتلاف بوقوع العداوة فعادوا أَذِلَّاءَ عبرةً بين الأمم ولا يزالون كذلك إلى يوم القيامة. **ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين**، فلا تجد أحدا منهم يصفو قلبه حتى ولا لأخيه، أو لولده وأبيه، / بل كلٌّ[1] واحد منهم عنده من سوء الظن ما يوجب له أن [١٤٢و]
يكون كالعدوّ لأقرب الناس إليه. وذلك لكونهم مع الدنيا فقط، ولأن كل واحد من الناس إنما يظن بالناس كظنه بنفسه. وكلٌّ منهم يَعلم من نفسه شرا إلا قليلا منهم كما قال تعالى: هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ[2] إلى الإسلام في كل زمن. وهذا الحال المذكور عنهم من سوء الظن ومما قدمناه هو عقاب من الله لهم بما قدموه لأنفسهم من السوء والكفر. ولهذا قال بعده:

ولو أن أهل الكتٰب، اسم الجنس بدليل ما سيأتي، **ءامنوا**، بمحمد صلى الله عليه وسلم. **واتقوا**، مخالفته، **لكفّرنا عنهم سيـٔاتهم ولأدخلنٰهم جنّٰت النعيم**.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

---

١ ك ن: بل كان.

٢ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٥٧/٢).

ولو أنهم أقاموا التورىٰة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، وهو القرآن، والدليل على ذلك قولُه أولا: ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ،[1] ووعدهم بالجنة، وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ.[2] ومتى أقاموا القرآن فقد أقاموا التوراة والإنجيل. فإن ادّعوا إقامتَهما دون القرآن فقد ادعوا باطلا، لأن الأمر لهم في الكتابين صريحٌ باتباعِ محمد صلى الله عليه وسلم.[3] وقوله: **لأكلوا من فوقهم**، يعني الأشجار المثمِرة، **ومن تحت أرجلهم**، نبات الأرض غير الأشجار، يشير إلى أنهم لو رضي الله عنهم لبارك في ثمارهم وزروعهم. وهذا المعنى بعينه في التوراة وهو قوله: إن قبلتم وصاياىَ وفعلتم رسومي[4] وسلكتم طُرُقي، فعلت معكم ذلك.[5] وقوله: **منهم أمة مقتصدة**، أي على قصد السبيل وهو وسطه، ومنه وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ،[6] والمعنى "معتدلة في العمل". ولمّا كان الوسط معتدلا بين الطرفين كان قصدُ السبيل وسطَه. وأصل المقتصد من القاصد، لأن من عرف مقصوده قصده[7] على الطريق المستقيم من غير انحراف. أما من لا يعرف مقصوده فإنه يكون مضطربا حائرا تارة يذهب يمينا وأخرى شمالا. والقصد يقال على أمور منها العدل، والاقتصاد وسطٌ بين الإسراف والإقتار. ويعود الجميع إلى أصل واحد كما قدمنا. وهذه الأمة المقتصدة هي التي اتبعتِ التوراةَ قبل نزول الإنجيل. وكذلك من اتبع الإنجيل عند وجوب اتباعه. وكلُّ مَن منهما أسلم فهو من هذه الأمة وهو الأقل. **وكثير منهم ساء ما يعملون**، ولم يقل: كانوا ههنا،[8] لأنه يريد أنهم اليوم على سوء العمل، ولئلا يَتطرق الظن إلى أن الكثير هو من الأمة المتقدمة.

---

١ من الآية السابقة.

٢ سورة آل عمران، ٨٥/٣.

٣ انظر لذلك مثلا: التوراة، التَّثْنِية ١٨/١٥؛ والإنجيل، يُحَنَّا ٦/٢٧-٢٩.

٤ ن: رسوفي. | الرَّسْمُ الأَثَرُ والعلامة (لسان العرب، «رسم»). لعل المؤلف يقصد فرائض الدين وإجراء أحكامها.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «إذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها أُعطي مطركم في حينه، وتعطي الأرضُ غَلّتها، وتعطي أشجار الحقل أثمارها... لكن إن لم تسمعوا لي ولم تعملوا كل هذه الوصايا، وإن رفضتم فرائضي وكرهت أنفسكم أحكامي فما عملتم كل وصاياي، بل نكثتم ميثاقي، فإني أعمل هذه بكم: أسلّط عليكم رُعْبا وسُلًا وحُمّى تُفني العينين وتتلف النفس. وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم. وأجعل وجهي ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم، ويتسلط عليكم مبغضوكم، وتهربون وليس من يطردكم» (اللّاوِيّين ٢٦/٣-٤، ١٤-١٧).

٦ سورة لقمان، ١٩/٣١.

٧ ن: وقصده.

٨ أي كانوا كذلك في الماضي.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يٰأيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، "فعل" يعبّر به عن جميع الأقوال والأفعال. ومنه قوله: لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟،[١] أي فإن لم تأتوا؛ وقوله: لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ، ثم قال: وَمَن يَفْعَلْ.[٢] ومثل ذلك في النحل: وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟، وبعده: كَذَٰلِكَ فَعَلَ،[٣] غيّر العبارة، والمعنى: كذلك قال. وهذا لأن لفظ الفعل عام فعبّر بالعام عن الخاص ولا يجوز العكس. واعلم أن الأمر له عليه السلام بالبلاغ المراد به ههنا هو قوله: قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ،[٤] وتمامُه. فيكون المعنى بلِّغْ مهما أُنزل إليك من الآن، لأنه قد كان عليه السلام يؤخِّر البلاغ حتى يُؤمَر ويتّبع الرُّكْبانَ ويدخل على الأكابر في أنديتهم ويقول: مَن فيكم ينصرني حتى أُبلِّغ رسالات ربي، نقله الطبري في تاريخه.[٥] وقد علمت أنه لو جاز أن لا يصح النقل فمفهوم[٦] اللفظ يحتمل أنه إذا أمره بالبلاغ بلّغ، ولكن بعد حينٍ وحيث يمكنه ذلك. ولو قال: وإن لم تُبلِّغ لغَمَض المعنى المراد، فكأنه قال: بلِّغْ وافعلْ ذلك من الآن. ولهذا بعده: **وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**، أي على وجهها وفي وقتها،[٧] فيكون حينئذ ما بلّغها وإن بلّغها، وهذا صحيح بلا شك. وخصص هذا الكلام بعينه ههنا لِما فيه من الخطر العظيم، لأنه موجب لعداوة اليهود والنصارى بأجمعهم وثَوَرانِ المشركين الذين يطلبون بطلان دينه وإظهارَ صورة تدل على تكذيبه وبذلَ الاجتهاد في إهلاكه / بأيّ صورة أمكن. ولهذا [١٤٢ظ]
بعده: **والله يعصمك من الناس**، أي كافة. وهذه دعوى عظيمة لا أبلغَ منها، وليس لبشر أن يصل إليها إلا بالأمر الإلٰهي. **إن الله لا يهدى القوم الكٰفرين**، أي إلى التسليط عليك وإن كان مطلقا.

١ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٣-٢٤).

٢ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ (سورة المنافقون، ٦٣/٩).

٣ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (سورة النحل، ١٦/٣٥).

٤ من الآية التالية.

٥ لم أعثر عليه بهذا اللفظ. انظر لمعرفة المزيد في ذلك: تاريخ الطبري، ١/٥٥٥ وما بعدها.

٦ ك: ففهوم.

٧ ك: أو في وقتها.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

ثم ذكر ما خصصناه في هذا الموضع بأنه هو المراد بالبلاغ وهو قوله: **قل يٰأهل الكتٰب لستم علىٰ شيء حتىٰ تقيموا التورىٰة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم**، وهو خاص بالقرآن. ويُفهَم منه ما قبل القرآن على ألسنة سائر الأنبياء عليهم الصلاة السلام وهو الدين، فهو كقوله: لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ،[1] وتمامه. وقد علمت أنه من قال مثل هذه المقالة، أعني: **لستم علىٰ شيء**، للطائفتين فقد أظهر من العداوة ما لا خفاء به. فإن ادعى مع ذلك أنه معصوم من سائر الناس فقد عادت دعواه موجبة لأعدائه بذْلَ جهدِهم في نصرة أنفسهم بهلاكه. وقوله: **وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيٰنا وكفرا**، أي وما كفى أنهم لا يؤمنون بما أُنزل إليك بل يزيدهم ذلك مما هم عليه، فنفى عنهم الإيمان بإثبات الزيادة من الكفر. وتكرار هذه الكلمات يريد بها النصارى، والأولى يريد به اليهود بدليل قوله أولا: وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ،[2] وبعدها ذكر الإنجيل. وقوله: **فلا تأس على القوم الكٰفرين**، يشمل كلَّ كافر ومنهم الفئتان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

إن الذين ءامنوا، أي بمحمد صلى الله عليه وسلم، يريد أنهم هم وغيرهم بمنزلة واحدة إذا أسلم الغيرُ، سواء كان من أصحاب الكتب المنزلة أو خارجا عنهم من بقية العالم، وهم، **الصٰبئون**[3] من كل كافر ومؤمن بالرسل من قبل. ولهذا[4] كرر أخيرا فقال: **من ءامن**، أي مع محمد صلى الله عليه وسلم من الآن، **فلا خوف عليهم**. وأما الآية التي مثل هذه فهي إخبار عن تُبّاع الرسل في أزمنتهم قبل التوراة، ثم عمن آمن بالتوراة والإنجيل. وقوله فيها: وَٱلصَّٰبِـِٔينَ، إشارة إلى الخارجين عن الفئتين المذكورتين،

---

1 ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٨١).

٢ الآية ٦٤ من هذه السورة.

٣ ك: الصائبون.

٤ ن: لهذا.

أعني اليهود والنصارى من كل كافر ومؤمن. وإنما أَشكلت لفظة "الصابئين"، لأنهم فهموا منها ما معناه مَن آمن بالله وهو صابئ، أي خارج عن متابعة نبي وليس كذلك، بل افهم أن الإيمان بالله من أول إيجاد العالَم إلى القيامة لا يكون إلا بمتابعة نبي. فمن آمن بنبيه في وقته أو اتبعه[١] إلى أن وجب اتباعُ من جاء بعده، سواء كان المتبِع ممن آمن قبل التوراة، أو يهوديا، أو نصرانيا، أو صابئا، أو خارجا عن المذكورين كالمشرك والكافر فهُديَ متى اتبع النبيَّ، فلا خوفٌ عليه. فلا تفهم[٢] أنه لا خوف عليه وهو على ما هو عليه من الكفر بالنبي وأن من[٣] آمن بالله واليوم الآخر بزعمه، فما آمن بالله من كذّب رُسلَه، وقد بيناه في البقرة.[٤] وتقديره هناك: من كان قد آمن، أي مِن أول الزمان إلى حين بعثةِ محمد صلى الله عليه وسلم لئلا يُظَنّ أن سائر أولئك كانوا من أهل النار. وأما قوله ههنا فهو من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة.

وقوله: **والذين هادوا**، هو في موضع رفع، ولهذا بعده: **والصٰبئون والنصٰرى**، في موضع رفع أيضا. وتقديره: هم والذين هادوا، وهذا بخلاف إعراب ما جاء في البقرة. فلما بدأ ههنا بقوله: **إن الذين ءامنوا**، رفع ما بعدها لِيَفْصُلَه عن المنصوب بإنّ، وعطف بالواو إعلاما أن العطف في بعض الأمر لا[٥] في كله، لأن الذين آمنوا هنا[٦] هم المؤمنون بالقرآن. والآية ههنا[٧] هم من باب ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾،[٨] فلزوم[٩] هذه الآية هو من حين جاء القرآن، وأما[١٠] قوله في البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالمراد به مَن آمن بالأنبياء قبل التوراة كما بيّناه. ولم يحتج إلى ذكر الأجر في هذه[١١] الآية كما ذكره في البقرة، لأن الأجر إنما يكون على العمل ولم يُرِدْ ههنا بيانَ العمل الماضي للفِرَق المذكورة بل أراد بذكرهم عمومَ الدعوة منه للجميع. فقال: **من ءامن بالله واليوم الآخر وعمل صٰلحا**، أي من الآن إشارة إلى أن المؤمن من الفِرق لا ينفعه إيمانُه إلا بمتابعة / محمد صلى الله عليه وسلم، والكافرَ لا يضرّه كفرُه الماضي إذا اتبع بمحمد صلى الله عليه وسلم. [١٤٣و]

---

١ ش ك: أو تبعه.

٢ ش ك: ولا تفهم.

٣ ك – من، صح هـ.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٦٢).

٥ ش ك – لا.

٦ ش ك: ههنا.

٧ أي في سورة البقرة، ٢/٦٢.

٨ سورة الأعراف، ٧/١٥٨.

٩ ن: فلزم.

١٠ ش: فأما.

١١ ش – الأجر في هذه، صح هـ.

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولهذا قدم قبل هذه الآية قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ،[1] الآية، لأنهم إذا أقاموا القرآن فقد أقاموا التوراة والإنجيل، لأنهم أُمروا باتباعه فيهما ولا ينعكس. فقال بعده ههنا ما معناه: من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من الآن فلا خوف عليه، ومن لم يؤمن به فهو يخاف ويحزن وإن كان ممن قلنا من قبل: إن له أجرا وإنه لا يخاف ولا يحزن. فافهم جميع ذلك لئلا يشتبه أو يتكرر في ذهنك لغير فائدة.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ولما ذكر لزومَ الإيمان من الآن بهذا النبي صلى الله عليه وسلم ذكر ما أوجبه سبحانه من قبل على بني إسرائيل من اتباعِ كل نبي يأتي منه سبحانه، فقال: **لقد أخذنا ميثٰق بنى إسرٰءيل**، يشير إلى قوله: لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ،[2] وتمامه، لأن النبيين أخذوا من أممهم هذا الميثاقَ لله سبحانه، لهذا قال: **وأرسلنا إليهم رسلا**، أي ليقوموا بالميثاق، فنقضوه فعادوا: **كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون.**

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

وحسبوا ألا تكون فتنة، أي اختبارٌ منا لهم كما سنبين. **فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا**، ففي الأُولى كلُّهم، وفي الثانية، **كثير منهم والله بصير بما يعملون.** وهذه الآية يُفْهَم بقوله تعالى: وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ،[3] وتمامه. فإن كل مرة عموا وصموا بالفتنة، **ثم تاب الله عليهم**، وأمدهم بأموال وبنين، **ثم عموا وصموا**، بالفتنة التي كان يجب أن تكون هادية لهم، لأنها إنما يفعلها الله تعالى بالمفتون بها ليري الواجبَ ويُسمع الحقَّ، كقوله: وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ،[4] [وكقوله]: وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ،[5] أي إلينا بما نبهناهم به من الفتنة.

---

١ من الآية السابقة.

٢ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ (سورة آل عمران، ٨١/٣).

٣ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (سورة الإسراء، ٤/١٧).

٤ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٩٤/٧).

٥ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الزخرف، ٤٨/٤٣).

ويُحتمل أن يكون المراد أنهم عموا وصموا بعد موسى فتاب الله عليهم بإرسال عيسى. ثم عموا وصموا كثيرٌ منهم لقوله: وَكَفَرَت طَّآيِفَةٌ.[١]

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾

ثم بين أن التي آمنت ليست هي من يدعي اليوم من النصارى أنه مؤمن بعيسى بل هؤلاء كفار، فقال: لقد كفر الذين قالوا، تقديره من بني إسرائيل: إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال، بمعنى وقد قال: المسيح يٰبني إسرٰءيل، فحَذَف أولا ذكرهم[٢] لكونه بيَّنه بعدُ، اعبدوا الله ربي وربكم، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأوٰه النار وما للظٰلمين من أنصار.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلٰثة، وما من إلٰه إلا إلٰه وٰحد. وإن لم ينتهوا عما يقولون، لما كان الأول يشتبه بأن مرادهم التوحيدُ بيّن في الثاني مرادهم بالأول، ولهذا بعده: ليمسن الذين كفروا منهم، أي من بني إسرائيل، عذاب أليم، لكفرهم بعد النهي. ويحتمل أن قوله ههنا: منهم، لا يريد بها التبعيض بل تبيين الجنس، كقوله: فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ،[٣] أي من سائر الأوثان. والمعنى ليمسن الذين كفروا في المستقبل من بعد النهي إلى يوم القيامة. ولو قال: ليمسَّنَّهم لعاد الكلام كأنه على قوم بأعيانهم قبل النهي لا على الجنس لقوله بلفظ الماضي: لقد كفر. ومثل هذه في سورة الفتح، أعني، منهم،[٤]

---

١ ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ (سورة الصف، ١٤/٦١).

٢ أي بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ...﴾ ولم يقل: لقد كفر بنو إسرائيل.

٣ ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ (سورة الحج، ٣٠/٢٢).

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (سورة الفتح، ٢٥/٤٨).

ويريد بها الجنس، والأَولى أنها ههنا للتبعيض. ومما يوضح ذلك هو أن تَعلم أن الذين قالوا هذه المقالة قبل النهي قد كفروا، ثم جاءهم النهي، فمن كفر من هؤلاء الكفار بعد النهي يمسه العذاب. وقد علمت قوله تعالى: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ،[1] وتكون "منهم" بهذه الصورة للتبعيض إن لم تكن عن بني إسرائيل. ولهذا ذكر لفظ النهي ولم يقل: فمن لم يؤمن منهم، فافهمه جيدا؛ ودليله قوله بعده: **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه، والله غفور رحيم.**

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

ما المسيح ابن مريم إلا رسول، قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام. بين أنهما مقهوران بالجوع والغائط اللازم عن الأكل، ومن كان كذلك فلا يكون إلٰها. لهذا قال بعده: **انظر كيف نبين / لهم الآيٰت ثم انظر أنىٰ يؤفكون.** والإفك الكذب، [١٤٣ظ]
وأصله انقلاب الشيء. ولمّا كان الكذب هو مقلوبَ الصدق سمي الأفك كذبا والكذبُ إفكا. وأما المؤتفكة فهي المُدُن التي قلّبها الله بقوم لوط. وائتفاك الرياح انقلابها واختلافها. و أنىٰ، ههنا بمعنى كيف. والمراد بقوله ههنا: **يؤفكون،** أي يُقْلبون[2] من الصدق المطلوب[3] لهم من علمائهم ظاهرا إلى الكذب المطلوب لعلمائهم منهم باطنا. فإن علماءهم ورهبانَهم كَذَبُوهم، لأنهم اختلقوا غير ما قال الله تعالى فقلّدوهم فهم مكذوبون.[4]

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

قل يٰأهل الكتٰب، ويشير إلى النصارى، **لا تغلوا فى دينكم غير الحق،** أي بغير الحق يعني لا تجاوزوا الحدَّ. ويقال: غَلَت القِدْرُ غَلَيانا وأغليتُها أنا ولا يقال: غَلِيتْ بكسر اللام. ويقال: غلا السعرُ يغلو غُلُوّا، وغالَيْت في الشيء إذا اشتريتُه بثمن غالٍ.

---

[1] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (سورة الأنفال، ٣٨/٨).

[2] ن: أي ينقلبون.

[3] ن: والمطلوب.

[4] ن: مكذبون.

ومعنى الجميع من الغلوّ والارتفاع. **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل**، وهم رؤساء اليهود، فإنهم[١] ضلوا بعد أن هداهم بموسى قبل مجيء عيسى عليهما السلام. **وأضلوا كثيرا**، بعد مجيء عيسى. **وضلوا عن سواء السبيل**، وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، على أن الوصف لهم بسائر ما ذمهم به موجودٌ دائما.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾

ولما أشار بالقوم إلى بني إسرائيل قال بعده: **لعن الذين كفروا من بنى إسرٰءيل علىٰ لسان داوۥد وعيسى ابن مريم. ذٰلك بما عصوا وكانوا يعتدون**، لُعن الذي عصى وتعدّى في زمن دواد وفي زمن عيسى عليهما السلام.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾

كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، بئس الفعلُ ترك الإنكار. ولهذا لم يقل: ولبئس. وهؤلاء في الصفة هم كالذين قال عنهم: وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ [وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦ].[٢]

﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠﴾

ثم قال: **ترىٰ كثيرا منهم**، من اليهود والنصارى، **يتولون الذين كفروا**، يتولون بقية اليهود. وإذا فهمت قوله: لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ[٣] انحلّ لك أكثرُ هذه الآيات، لأنها مبنية على ذلك. **لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم**، أي قدّمت لهم ما جزاؤه أن سخط الله عليهم في الدنيا. **وفى العذاب هم خٰلدون**.

﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾

---

١ جميع النسخ: وانهم، والمثبت من م.

٢ الآية ٦١ من هذه السورة.

٣ ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة آل عمران، ١٧٦/٣).

ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى، الذي في زمانهم، ولهذا بعده: وما أنزل إليه. ويلزم أن يكون المراد بالنبي في زمن القرآن محمدا[1] عليه السلام. ما اتخذوهم أولياء ولٰكن كثيرا منهم فٰسقون. قوله ههنا: منهم، أي من اليهود، هو عائد على قوله: تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ،[2] فكرره بعينه، فافهمه، كأنه قال: ولكنهم فاسقون، وإن لم نُعد "منهم" على اليهود وإلا لزم أن يكون بعض الذين يتولون الذين كفروا غيرَ فاسق، فافهم.

﴿۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

لتجدن أشد الناس عدٰوة للذين ءامنوا اليهود والذين أشركوا، إشارةٌ إلى بُعْد إمكان إسلامهم، وبضدهم النصارى وهو قوله: ولتجدن أقربهم مودة للذين ءامنوا الذين قالوا إنا نصٰرى ذٰلك بأن منهم قسيسين ورهبانا، وصفهم بترك الدنيا وهم بضد اليهود في حب الحياة الدنيا. ويقال: رجل قَسّاس إذا كان يُشيع العلم، وأنهم لا يستكبرون. والمقصود أنه تعالى وصفهم بصفات ليست في اليهود، فإن اليهود ليس منهم قسيسون ولا رهبان. ثم وصفهم بأن منهم أقواما إذا هم سمعوا القرآنَ رَقّتْ قلوبهم وفاضت دموعُهم وأسلموا مع محمد صلى الله عليه وسلم[3] وليس هم[4] في قساوة القلب كاليهود. فقال مخبرا عن قوم من النصارى لا عن الكل كما سنبين لك عند قوله أخيرا: وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ،[5] أي منهم وإن كان عامّا. وأما الوصف فهو لمن أسلم، فهو خاص بقوم في ذلك الزمن وإخبار عن قوم سيسْلمون من النصارى في مستقبل الزمن. وتقدير الكلام: ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأن منهم من إذا سمعوا، وهو في موضع نصب بحرف "أنّ" -وهذا كقوله في آخر آل عمران: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ-[6] وعائد الكلام على قوله: لتجدَنّ، وهو مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ومن كان في زمنه منهم، وإن كان عامّا أيضا؛ فعاد الوصف بجميع النصارى بسبب أن منهم من يسلم، والذي كفر فهو من أصحاب الجحيم. وأما / اليهود وإن كان منهم من أسلم أيضا، [١٤٤و]

---

[1] جميع النسخ: محمد.

[2] من الآية السابقة.

[3] يشير المؤلف إلى الآية التالية.

[4] ك: هو.

[5] الآية ٨٦ من هذه السورة.

[6] ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (سورة آل عمران، ١٩٩/٣).

لكن ليس[١] منهم قوم هم[٢] في رِقَّة القلب وقربِ المودة مثل مَن في النصارى.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾

فوصف بعضهم فقال: **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع**، إشارة إلى امتلائها وأنها تدوم مدة فائضةً لِعِظَم المُمِدّ لها. وهذه صفة ذي الخشية العارف. ولهذا بعده: **مما عرفوا من الحق**، أي الذي صدَّقه الإنجيلُ فيُسلمون. دليله قوله: **يقولون ربنا ءامنا فاكتبنا مع الشّٰهدين**، أي مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ.[٣]

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥﴾

وما لنا، سؤال إنكار بمعنى وأيّ عذر لنا؟ **لا نؤمن بالله وما**، الذي، **جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصّٰلحين.**

فأثٰبهم الله بما قالوا جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها. وذٰلك جزاء المحسنين، والذي قالوا: رَبَّنَآ ءَامَنَّا،[٤] ويشير إلى القول والفعل؛ ولو كان إلى مجرد القول فقط لكانوا من الذين يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ.[٥] وهذا الكلام جميعُه وصفٌ لمن هو من النصارى بهذه المثابة، وهو وصفٌ لبقية النصارى بقرب المودة، إذ منهم مثلُ هؤلاء.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٨٦﴾

ولما كان بعض النصارى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبعضُهم بقي أو يبقى نصرانيا وأخبر عن المؤمنين منهم بما تقدم أخبر عمن لم يؤمن منهم بقوله:

---

١ ش – منهم من أسلم أيضا، لكن ليس.

٢ ك ن – هم.

٣ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (سورة الحج، ٧٨/٢٢).

٤ من الآية ٨٣ من هذه السورة.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ (سورة آل عمران، ١٦٧/٣).

والذين كفروا وكذبوا بـٔايٰتنا أولٰئك أصحٰب الجحيم. فاقرأ وتدبرِ الكلام من أوله إلى آخره في اليهود والنصارى لئلا يختلف عليك أو يتناقض أو يتكررَ. فإنما أَدُلُّك بألفاظ يسيرة إلى المعاني المقصودة. فإن لم يكن في قلبك نورٌ ترى به من كلام الله ما نبّهتُك عليه لم تَنتفع بما قلتُه فضلا عن أن تَفهم به مِثلَه. وهذا النور لا يَحجُبه إلا ظلمةُ الهوى وصَدَى التقليد. ولكل مطلوب اجتهادٌ بحسبه، فلا تَظلِمْ نفسَك بترك ما مُكِّنْتَ من تحصيله؛ فإن الله تعالى يَغارُ على ظلمِ عالَم الطبيعة، فكيف لا يغار على ظلم المرء[1] لنفسه في عالَمِ معرفة الله فيه طبيعة أهله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا لا تحرموا طيبٰت ما أحل الله لكم، يشير إلى المسلمين الذين أسلموا من اليهود أن لا يتبعوا اليهود في تحريم الطيبات التي أحلّها الله للمؤمنين بعد أن كانت حراما على بني إسرائيل. فإن التحليل يدل على أنها كانت حراما على غير المؤمنين ويعم ما كانت العرب[2] تُحرّمه، كقوله: وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ،[3] وتمامِه. ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. ولهذا بعده: وكلوا مما رزقكم الله حلٰلا طيبا. واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

ولما ذكر التحليل والتحريم وكان الإنسان قد يُحرّم على نفسه حلالا باليمين ذَكَر صورة الفتوى في ذلك، فقال: لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمٰنكم. المؤاخذة بوزن المفاعلة،

---

١ ك ن + نفسه.

٢ ك ن + ما.

٣ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة الأنعام، ١١٩/٦).

وهي مِن أخذ يأخذ. فالمؤاخذة من الله للعبد أن يأخذه بالعقاب بسبب ما أخذه العبد من الذنب. فجاء اللفظ بوزن المفاعلة لأن كُلًّا أخذ. والباء في قوله: **باللغو**، باء السبب. والمعنى لا يأخذكم الله بالعقاب بسبب ما أخذتم من اللغو في اليمين. واللغو هو الباطل، ومنه اليمين على الشيء يظنه كذلك وليس كما ظن. واللغو أيضا هو الباطل، ومنه الغلط، لأنه ليس بحق كما إذا كان الإنسان غافلا أو جاهلا أو معتقدا غير ما هو الأمر عليه فيحلف وهو يبني على اعتقاده فيظهر له أن الأمر بخلاف ما كان في نفسه. فتلك اليمين لغوٌ بلا شك، لأن الذي حلف عليه ليس ذلك، ولِما كان العقد الذي هو ضد الحَلّ -سواءٌ كان جسمانيا أو معنويا- إنما يعقده العاقدُ لأمر مقصود له معلومٍ عنده. ومنه العقيدة بالقلب إذ هي مشتقة[١] من العقد. فما كان لغوا لا يؤاخذ الله عليه فلا تَلزم عنه كفارةٌ، إذ لو لزمت لكان ذلك أخذا من الله للكفارة. وقد تقدم قوله: **لا يؤاخذكم الله**، فهذا قِسم، ثم قال: **ولٰكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمٰن**. زيَّف أبو حنيفة[٢] القراءةَ بالتشديد[٣] لأن القراءة بما لا / اشتباه فيه أَولى. والقراءة بالتشديد تُعطي [١٤٤ظ] معنى آخر وهو أدل على سعة عفوِ الله، إذ لا يؤاخذنا بما عَقَدنا بل بما عقَّدْنا بالتشديد، فافهم ذلك. والمعنى بسبب ما عقّدتم من اليمين بقلوبكم ثم حَنثتم. ولهذا قال في البقرة: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.[٤] ووجه التكرار أنه في البقرة لم يذكر الكفارةَ بل ذكر تركَ المؤاخذة إلا بما كسبت القلوب. وههنا بيّن لنا أن الذي كسبت القلوب[٥] هو ما عقّدنا عليه الأيمانَ، ثم بين الكفارة.

واعلم أن الحالف إما يبدو منه بغير تَعمّدِ ما يُبطل اليمينَ، وإما أن يتعمد إبطالها ليفعل الذي هو خير، وهو الواجب. وعلى التقديرين تَجب الكفارة. فقد صار اللغو في الأيمان ما لا يعتقد عليه بالقلب فلا يكون كسبا للقلب. وأما القسم الآخر هو كسب القلب، **فكفٰرته إطعام عشرة مسٰكين من أوسط ما تطعمون أهليكم**. وهذا الكلام لا يدل على تخصيص لشيء معلوم من خبز وزيت، أو خُبز وسَمْن، أو غير ذلك من سائر ما قيل. بل مفهوم اللفظ يدل على أن كل إنسان لمّا كان تارة يُطعم أهلَه أعلى ما يقدر عليه،

---

١ ن: مشتق.

٢ لم أعثر على قول أبي حنيفة فيما بين يدي من المصادر.

٣ قرأ ابن ذكوان بالألف وتخفيف القاف، وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بالقصر والتخفيف، وافقهم الأعمش، وقرأ الباقون بالقصر والتشديد (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٥٦).

٤ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٢٥).

٥ ش ك – القلوب، والمثبت من م.

وتارة يطعمهم أدنى، وتارة أوسطَ بحسب قدرته صار لكل إنسان مقدارٌ بحَسَبه. فأمر الله تعالى كلَّ واحد أن يُطعم في كفارة يمينه عشرةَ مساكين من أوسطِ ما جرت عادته أن يُطعم منه أهله، ولم يكلِّفه سبحانه أن يشق[1] على نفسه. ولكلٍّ من الناس طعامٌ عالٍ ووسطٌ ودون ذلك، وإن كان أدنى طعام الأمير كأخص طعام الفقير. والناس مختلفون في ذلك بحسب العادات والأنفس والأموال وغير ذلك، فأمرهم الله تعالى بالتوسط في الإطعام[2] رفقا بهم عن تكليف الأعلى ورفقا بالمسكين عن إطعامه الأدنى. فهذا هو مفهوم اللفظ ومعقوله. وقوله: أو كسوتهم، يجب أن تكون[3] من أوسط ما نكسو أهلينا، أو تحريرُ رقبة، مؤمنة، لأن التحرير هو للمؤمن[4] خاصة، وتكون الرقبة من أوسط ما نقدر عليه ثمنا.

ويجب أن تعلم السبب في كونه تعالى رتَّب هذا الترتيب في اللفظ وهو قوله أولا: إطعام، ثم: كسوة، ثم: تحرير، ثم قال: فمن لم يجد. يظن الظانّ أنه لو بدأ بالعتق، ثم الكسوة، ثم الإطعام، وقال: فمن لم يجد لكان ذلك أولى، لأنه لا يحسن أن يقال: فمن لم يجد تحريرَ رقبةٍ فليصم. فاعلم أنه تعالى أراد ذلك كذلك ليعود قوله: فمن لم يجد، عامًا على الجميع كأنه قال: فمن لم يجد تحريرَ رقبة فكسوةٌ، فمن لم يجد كسوةً فإطعامٌ، فمن لم يجد شيئا من ذلك، فصيام ثلٰثة أيام. هذا مفهوم اللفظ لمن يُحسن النظرَ وينظر الأحسن. ومعنى فمن لم يجد، أي لم يجد قدرة على المال بدليلِ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ[5] كما بيناه لا كما قيل غيره. فلا تفهم ههنا فإن لم يوجَد شيءٌ من ذلك، بل فمن لم يجد قدرةً على شيء من ذلك. وليس "أو" ههنا للتخيير بل الواجب أبدا هو التحرير. فمن لم يجد فما دونه بحسب التيسير.

ذٰلك كفّٰرة أيمٰنكم إذا حلفتم، ولما لم يقل: إذا حلَفتم وحَنِثتم دل على[6] أن من الكفارة ما يجب أن تكون قبل فسخ اليمين، كقوله: مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا.[7] ولهذا كرر ذكْرَ الكفارة فنسبها أولا إلى ما تقع عليه المؤاخذة بقوله: فكفّٰرته، ونسبها أخيرا إلى الأيمان. فافقه فائدة التكرار. وإيضاحه أن اليمين تنقسم إلى قسمين. أحدهما يمين فيما يجوز،

---

[1] ش: أن يثق.

[2] ن: في الطعام.

[3] ش ن: أن نكون.

[4] ش ن + من.

[5] ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (سورة النور، ٢٤/٣٣).

[6] ش ك - على، والمثبت من م.

[7] ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ (سورة المجادلة، ٥٨/٣).

كمن حلف أنه يسافر أو لا يسافر[1] فلا تجب عليه الكفارة إلا بعد الحنث، وإليه الإشارة أولا بقوله: فكفّرته، أي إذا وجبت بالحنث. والقسم الثاني يمين فيما لا يجوز كمن حلف أنه لا يَبَرُّ والديه أو أن يعصيَ فتجب الكفارةُ قبلُ،[2] وإليه الإشارة بقوله ثانيا: إذا حلفتم؛ ففيه إشعار بأن هذه[3] اليمين يجب أن تُكَفَّر ولا بد، إذ لا جائزٌ أن يُعمل بها، لأن صاحبها إذا لم يَحْنَث كان آثما[4] متعديا. والمنقول عن أبي حنيفة أن الكفارة بعد الحنث في الجميع سوى ما خصصه النص؛ وعن الشافعي أنها قبل الحنث في الجميع.[5] والواجب هو التفصيل،[6] ولم أسمع به لأحد. وتعليله أن الكفارة تَجب[7] ههنا على من قال زُورا، فاليمين فيما لا يجوز زورٌ فوجبت الكفارة بنفس / وقوعِ هذه [١٤٥و] اليمين، فهي كقوله في الظهار: وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا.[8] واليمين فيما يجوز ليست بزور إلا إذا وقع الحنثُ فقد عادت زورا، فالكفارة على قول الزور باليمين، فافقه ذلك. وهذه[9] الكفارة لمن يريد أن يَفعل الذي هو خير لا لمن يَحلف أنه لا يشرب الخمرَ مثلا ثم يشربه، فتلك لا تُكفِّر قبله بل تجب الكفارة بعد. وإثم اليمين بعد الكفارة باقٍ ما بقي الذنب حتى تَجُبّه التوبة النصوح. وأما قول مَن قال في الكفارة بالأشقّ على النفس، كالمَلِك فإنه يشقّ عليه الصوم ولا يَشُق عليه العِتقُ، فمرادُ الله ضدُّ ذلك: يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ.[10] ولا شك أن النفع المتعدي أبلغ، ولهذا بدأ الله[11] بذكره. وأي نفع يحصل للغير إذا صام الملك؟ بل ليته كلَّ يوم يكفِر ألف يمين بعتق ألف رقبة. ودليل ما قلناه أن الصوم لا يكون كفارة إلا إذا لم يجد، والملك لا يكون غير واحد فلا صوم عليه في كفارة أبدا.

فإن قيل: ما وجه تقديم ذكر الإطعام ويجب مما قلتَه أن يكون مؤخرا؟ فالجواب أنه تعالى تكلم[12] بالأَولى والأعمّ. وذلك لأن الأكثر من الناس هم الفقراء،

---

١ ك: ولا يسافر؛ ن – أو لا يسافر.

٢ ش: قيل.

٣ ن: بأن هذا.

٤ ش: إثما.

٥ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٩٣/٣؛ وأحكام القرآن لابن العربي، ١٥٥/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥٠٤/٧.

٦ ش: هو التفضيل.

٧ ن: يجب.

٨ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ (سورة المجادلة، ٢/٥٨).

٩ ن: فهذه.

١٠ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة، ١٨٥/٢).

١١ ك ن – الله.

١٢ ك ن: كلم.

فبدأ بالحكم الذي يقع على الأكثر، ثم انتهى إلى الذي يقع على الأقل من الناس. وكذلك أيضا بدأ بالأخفّ،[1] ثم انتهى إلى الأثقل. وأيضا إنه لو عكس الترتيب فبدأ بالتحرير، ثم الكسوة، ثمْ الإطعام لكان قوله: **فمن لم يجد**، عائدا على الإطعام فقط. وكان المفهوم مِن "أو" ليس إلا التخيير. فلما رتب هذا الترتيب لزم أن يكون قوله: **فمن لم يجد**، عائدا على الجميع وأن تكون لفظة "أو" للتقسيم.

فإن قيل: ما الدليل على أن لفظة "أو" ههنا للتقسيم لا للتخيير والإباحة، وأنت معترفٌ بمثلها في قوله: أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ؟[2] فالجواب أنه[3] لو كان كذلك لسقط مراد الآية بتعيين ما ذُكر، إذ المراد ليس هو الثوابَ بل الكفارة. وإذا حصلت الكفارة بالإطعام فلا حاجة إلى العتق أبدا. وكل عاقل[4] يَعلم أنه إذا حصل مراده بدرهم فلا جائز أن يأخذه بدرهمين خصوصا أربابَ الدنيا لتهافتهم عليها.

فإن قلت: بل المقتدر على الرقبة لا يجوز أن يساوي بالعاجز فقد عُدت لما قلناه. وأما لفظة "أو" فلا تخرج عن مفهومها ولا ينتقض ما قلناه، لأنها هناك بمعنى الواو بدليل أن المرأة تظهر للكل جملة، وهناك بمعنى "إما" بدليل أن الواحد لا يجب عليه الكل جملة، والله أعلم.

واحفظوا أيمٰنكم، هذا كقوله في البقرة: وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ.[5] وفيه إشارة إلى أن الإنسان لا يجوز له أن يَحلف معتمدا على أن يحنث ويكفِّرَ. فهذا لم يحفظ اليمين، فإن المحفوظ مصان[6] إلى وقت الضرورة إليه. وأيضا إن الإنسان يجب عليه حفظُ يمينه حتى يدري ما عاهد الله عليه، ولا يَحلف وينسى أنه قد حلف فيحنث وهو لا يعلم. ولمّا خفف بقوله في أول الآية: **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمٰنكم**، وخفف وأيّ تخفيف فيما فصّله من الكفارة وبيّن ههنا ما لم يبين لنا في البقرة وجب أن يقول ههنا في آخر الآية: **كذٰلك يبين الله لكم ءايٰته لعلكم تشكرون**، فله الشكر على ما بين وخفف وكفّر من السيئات.

---

[1] ن: الأخف.

[2] ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ (سورة النور، ٢٤/٣١).

[3] ن: إن.

[4] ن: وكل ما قل.

[5] سورة البقرة، ٢/٢٢٤.

[6] ن: يصان.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾

ثم أعقب الحديثَ في اليمين واللغو بما قد تقع بسببه اليمينُ في أكثر الأمر لغوا وتأثيما، فحذّر منه بقوله:[١] **يٰأيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلٰم رجس من عمل الشيطٰن فاجتنبوه**، الاجتناب يعود على الرجس أو الشيطان، **لعلكم تفلحون**، وإذا كان الاجتناب فلاحا فالارتكاب ضده.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

إنما يريد الشيطٰن أن يوقع بينكم العدٰوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوٰة. كل ما صَدَّ عن ذلك فهو شيطان كائنا ما كان. وليس لقائل أن يقول: أنا أستعمل الخمر وأذكر الله وأصلي إذا كان ذلك[٢] الشيء من شأنه أن يصد به الشيطانُ. وكثيرا ما يصد اللّعِب بالنَّرْد والشِّطْرَنْج عن الصلاة. وأما عن ذكر الله فذلك ظاهر، إذ الخاطر يكون مشغولا به والعقل مصروفا إليه مُكِبًّا عليه. ومع ذلك فهو لهْو ولَعِب، وما كان كذلك فهو شاغل صادٌّ عن الذكر. وقوله: **فهل أنتم منتهون**، يُفهَم منه تواعدٌ كما تتواعد / عبْدَك، أي هل أنتم منتهون أو نفعل بكم ما تستحقونه؟ ولفظ [١٤٥ظ]
الاجتناب يخاطَب به مَن هو على الحالة المحذورة، ولغيره الذي يجوز أن يكون يقترفها في المستقبل. وأما لفظ الانتهاء من "النهى" يدل على من هو فاعل مقيم على الشيء، واشتقاقه من "النُّهَى" وهو العقل، فإنه يَنهى صاحبَه عما لا يجوز. ومعنى الانتهاء هو مأخوذ من نهاية الشيء وهو حده وآخره الذي لا مَزيدَ بعد ذلك فيه، يقال: انتهى إلى الشيء إذا بلغ آخرَه، وعن الشيء إذا صار عن أوله في نهاية البُعْد الممكن، فافهم.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

وعطف على قوله: فَاجْتَنِبُوهُ،[٣] بقوله: **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا**، أن تتولوا. **فإن توليتم فاعلموا أنما علىٰ رسولنا البلٰغ المبين**.

---

[١] ن: منه قوله.
[٢] ك ن – ذلك.
[٣] الآية ٩٠ من هذه السورة.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٣﴾

ولما قدّم الكلام في الخمر والميسر وحذّر وأمر بالطاعة وحذّر من التولي عنها عرّفنا حكْمَ مَن تولى عن الطاعة في بعض الأمر فقال: **ليس على الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت جناح فيما طعموا**، أشار إلى شرب الخمر، لقوله: وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ،[1] وهو مشروب لا مأكول. **إذا ما اتقوا وءامنوا وعملوا الصٰلحٰت ثم اتقوا وءامنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين**. اعلم أن هذه الآية اختُلِف في تفسيرها كثيرا ولا سمعتُ ولا وقفت[2] على شرح ينشرح به صدري وأتحققُ منه المراد بلفظ الآية؛ بل ربما وقفتُ وخطر لي ما يحتمل ولم يَثلُج به صدري وإن كان غير مخالف للعقل والكتاب. وكنت أريد ما يجب بحسب اللفظ لا ما يحتمل مع جواز احتمال غيره معه، فبقيت متوقفا إذ لا مرجِّح مُكِبًا على النظر، بعد أن كنت من قبل في عدة سنين أسأل وأفكِّر إلى أن تَرَجّح عندي ما قد أثبته فأقول والله أعلم: الكلام مطلقٌ فيما يَطعمه المؤمن والمشار إليه بالتخصيص الخمر، لكونه تقدم ذكره. وقوله أولا: **إذا ما اتقوا**، شرْبَها، وقوله بعدها: **ثم اتقوا**، يلزم أنهم كانوا قد نقضوا الاتقاءَ بشربها، ثم اتقوا بعد ذلك، لهذا قال: **وءامنوا**، وتقديره "وعملوا الصالحات"، لكنه حذفه لكونه تقدم. وقوله ثالثا:[3] **ثم اتقوا**، يدل على أنهم كذلك نقضوا الاتقاء، ثم اتقوا، ولهذا قال أخيرا: **وأحسنوا**، أي أحسنوا الاتقاءَ، لأنهم لو أحسنوا الاتقاء أولا لَما عادوا بعد هذه الثلاث مرات عليهم جناح من جهة الله. وهذا من جنس قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا،[4] لا تكون زيادة الكفر بعد المرتين إلا بعد زيادة إيمان بعد المرتين، فذلك في الكفر وهذا في المعصية، وعلى كلٍّ جزاءٌ بحَسَبِه. وكذلك المخطئ في الصيد مع الإحرام إنما جاء بمعصية فأتبع القصة بالقصة، وذكر العقاب عن الثانية دون الأُولى.[5] فلزم جناح[6]

---

[1] ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ (سورة البقرة، ٢٤٩/٢).

[2] ن: ولا قفت.

[3] ن + ثم.

[4] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ (سورة النساء، ١٣٧/٤).

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآيات التاليات.

[6] ش ك – جناح، والمثبت من م.

في الأولى من قوله: ليس [على الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت] جناح،[١] بهذا الشرط. فلما عُدم الشرط بعد ثلاث لزم الجناح. ونقول: إن فائدة هذه العبارة التي كأنها لغزٌ إنما هي ليَعلم ذلك العلماءُ ولا يحيطَ بعلمه كلُّ أحد فيطمعَ.[٢] والله أعلم. فهذا أحسن ما رَجَح في فهمي، والله أعلم وأدرى[٣] بكتابه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾

يٰأيها الذين ءامنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب، أي بما غاب عنهم من حكمةِ ما أُمروا به في هذا الأمر. **فمن اعتدىٰ بعد ذٰلك**، التحريم، **فله عذاب أليم**، وقوله أخيرا: **ومن عاد**، أي إلى الاعتداء. واعلم أنه ذكر الحكم مجملا في هذه الآية ثم فصّله فيما بعدها، وهذا يفهم من قوله تعالى ههنا: **بعد ذٰلك**. ولو أسقط قوله: **بعد ذٰلك**،[٤] لم يكن قد ذكر جملة الحكم. ولهذا توهم بعضُهم أن الكلام تام مع سقوطها. وفهمنا بقوله:[٥] **ليذوق وبال أمره**، أن العذاب هو الصيام أو غيره من الكفارة. ولا نفهم من قوله: **عفا الله عنه عما سلف**، أنه أراد قبل التحريم. فذلك معفوٌّ عنه بلا شك، وعما بعد التحريم أيضا إن لم يكن تعمدا. فافهم ذلك وكرره جيدا متأملا.

ولهذا فصّله بقوله: **يٰأيها الذين ءامنوا لا تقتلوا الصيد / وأنتم حرم**، حرّم الاصطيادَ [١٤٦و]
أولا، وهنا حرّم قتلَ المصاد وإن لم ينتفع به. وقوله: **وأنتم حرم**،[٦] أي حال كونكم محرِمين. **ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل**، مبتدأ، **من النعم**، خبره. وقوله "مثل"

١ جميع النسخ: ليس عليهم جناح.
٢ أي يجب أن يعلم كل أحد من العلماء أنه لا يمكن لأحد أن يحيط بعلم الله ولا يجوز لأحد منهم أن يطمع هذا.
٣ ش: والله أدرى.
٤ ش – ولو أسقط قوله بعد ذٰلك، صح هـ.
٥ ن: بقول.
٦ ش – حرم الاصطياد أولا وهنا حرم قتل المصاد وإن لم ينتفع به وقوله وأنتم حرم، صح هـ.

كما يقال: هذا قيمة المثل، أي فجزاء المثل هو من النعم، **يحكم به ذوا عدل منكم**، عليكم ليكون الإنسان محكوما عليه فيما وجب عليه. وقوله: **هَدْيًا**، أي من هدي، **بٰلِغَ الكعبة**، واصلا إليه. وهذا الهدْيُ ههنا مقام التحرير في كفارة اليمين، لأنه ذكر الإطعام والصيام ههنا وجعل كلَّ واحد منهما عوضا عن الهدْيِ الذي هو المقصود. وكذلك التحرير هو المقصود. والطعام، أو الصيام عِوضٌ عنه لمن لم يجده. وقوله: **أو كفّٰرة**، أي للجزاء الذي هو الهدي، **طعام مسْكينَ**، أي عدْل الهدْي، أي بقيمة الهدْي، لأن تعيين[1] ذلك وغيرِه هو إلى ذَوَيْ عدل. ولما قال: مسْكين، لزم لا أقلَّ من ثلاثة. وقوله: **أو عَدْلُ ذٰلك**، أي ذلك الطعام، **صياما**، كما إذا كان الطعام بالتقدير يَكفي صائما خمسةَ أيام مثلا أو أكثر أو أقل نَفرض[2] عليه من الصيام ما يعادل الطعامَ الذي يعادل قيمةَ الهدي الذي هو يعادل قيمةَ مثلِ المقتول لأن المقتول[3] في ذلك الوقت ليس له قيمة، لأنه حرام. فلهذا قال: **مثلُ ما قَتل**. وهذه الكفارة جاءت مبيِّنةً لكفارة اليمين، أعني كَوْنه ذَكَر "أو" للتقسيم لا للتخيير، وجعل الصيام أخيرا عوضا عن الطعام الذي هو عوض عما قبله كما قدمنا. فافهم ذلك بهذا. وقد عاد الجميع إلى حكمِ ذَوَيْ عَدْلٍ منا. ولمّا عيّن ذِكْرهما أولا في الأكثر لزم في الأقل. ولهذا لم يعيِّن المساكين بعدة ولا الصيامَ بأيامٍ. ولأن المقتول تختلف قيمةُ مثله لاختلافه. فالجزاء هو من النَّعَم، فإن لم يجد فطعامٌ، فإن لم يجد[4] فصيامٌ، **ليذوق وبال أمره**، إعلام أن الذي فرضه الله عليه من الجزاء والكفارة عقاب له على مخالفة الأمر ولو كان الحيوان المقتول صغيرا. فإذا فعل ذلك، **عفا الله عما سلف**، منه، أي بالكفارة حصل العفو. وقوله: **ومن عاد**، أي إلى الاعتداء على أمرِنا بعد التوبة والكفارة؛ لأن الكفارة ههنا يريدها مرةً واحدة، ولهذا قال أولا: **فمن اعتدىٰ بعد ذٰلك**، التحريم. ثم قال: **ومن عاد**، أي بعد الاعتداء وبعد الكفارة التي عفا الله بها عما سلف. ومثْلَ هذا بيَّن في الربا.[5] فافهمه جيدا وتأمله. والمعنى من بدأ فليكفّر ومن كفّر عفا الله عنه، ومن عاد، **فينتقم الله منه**. فتأمله جيدا إلى أن تفهمه

---

[1] ش ك – تعين، والمثبت من م.

[2] ن: تعرض.

[3] ش ك – لأن المقتول، والمثبت من م.

[4] ك – فطعام فإن لم يجد، صح هـ.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٧٥).

كما في الربا. فصارت المخالفة تارة سهوا معفوّاً[١] عنها، وتارة تعمدا اعتداءً بعد التحريم، وعنها كفارة، وتارة عودةً إلى الاعتداء الذي هو عمد، فينتقم الله منه، وهذا الحكم في المرّات كحكم ما بينا قبله. فافهمها من جهة العدّة فهي كالعدة. والانتقام ههنا مبيّن للجُناح الذي هناك يلزم عنه[٢] الانتقام. فافقه ذلك. ولهذا في الموضعين[٣] لم يبيّنه الله ولم يردّ الأمر فيه إلى العباد،[٤] بل تولى الأمر بنفسه في الموضعين. **والله عزيز ذو انتقام.**

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

أحل لكم صيد البحر وطعامه، أيضا وَأَنتُمْ حُرُمٌ،[٥] أي أُحِلَّ لكم الاصطياد من البحر إن كنتم رُكّابا فيه أو على جانبه. وأُحِلَّ لكم طعامُ البحر كما لو وجدنا به سمكة ميتة، أو قديدا. وقوله: **متٰعا لكم وللسيارة**، أي بمنزلة واحدة من الحل، إذ السيارة إن كانوا محرِمين فهم نحن، فدل على الإباحة للمحرم وغيره، أي إباحةِ صيدِ البحر وطعام البحر للمحرم ولغيره، سواء كان أحدهم في البحر أو البر. **وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما**، لمّا حرّم الصيد لزم تحريم أكله، لأنه لا يمكن أن يؤكل دون أن يصاد. فإن كان قد صيد وذُبح، أو قُتل قبل الإحرام فحلال. والله أعلم بكلامه. ولم يقل: أُحِلَّ لكم الصيد في البحر لئلا يجوزَ[٦] الاصطيادُ من صيد البر ونحن في البحر. والذي قاله تعالى نَفهم منه إن كنا رُكّابا في البحر أو لم نكن وأن لا يكون الصيد إلا مما في البحر، وهو ما لا يختنق بالماء. والدليل على أن المراد بالصيد الاصطيادُ قوله تعالى: مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ،[٧] وقولُه بعد ذلك: وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟.[٨] والدليل / على أنه أراد [١٤٦ظ] أيضا بالصيد المصادَ قولُه: لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ،[٩] فحرَّم اصطيادَه وقتْله ولم يصرح بتحريم أكله لئلا يلزم تحريم ما كان قديدا، أو تحريمُ ما هو غير داخل في قوله: لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ،[١٠] فافهم ذلك. ثم قال: **واتقوا الله الذى إليه تُحشرون.**

---

١ جميع النسخ: معفو.
٢ ك ن: يلزم عن.
٣ أي في مسألة الربا والاصطياد.
٤ ك ن: إلى العباديل.
٥ من الآية السابقة.
٦ ش: لئلا تجوز.
٧ الآية ١ من هذه السورة.
٨ الآية ٢ من هذه السورة.
٩ من الآية السابقة.
١٠ الآية ٩٤ من هذه السورة.

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

ولما فرغ ما فرضه عرّفنا أن تحريم الصيد لِما علمه الله سبحانه من النفع الذي عائده علينا، وأن الكعبة والشهر الحرام وما سيذكره قد جعله الله سبحانه قياما للناس كما سنبين ذلك فقال: **جعل الله الكعبة البيت الحرام**، "جعل" قد تأتي صلةً في الكلام، تقول: جعل يضربه، ومثلها طَفِقَ. وإنما جعل كعبة المسلمين، هي البيت الحرامُ، قيْما للناس. والكعبة مشتقة من الكَعْب، وكأنها مؤنثة كعب. وقيل: سميت بذلك لأن الطائفين بها يقومون على كِعَابهم، كما يقال: ضربت بالكعب إلى المكان الفلاني، وسمي الكعب كعبا لبروزه. ومنه الجارية الكاعب، وهي التي برز نَهْداها.[1] ولمّا كان أول بيت وُضع في الوجود للناس برسم العبادة هو الذي ببكة[2] كان هذا البيت لبروزه كعبا. والمُرَبَّع يقال له: مُكَعَّب أيضا. فقال تعالى: **جعل الله الكعبة**، أي هذه الكعبة جعلها البيتَ الحرام كي تكون قياما للناس. ولم يقل: جعل الله الكعبة بيتا حراما، لأن اللفظ كذلك يدل على بيوت هذا واحد منها، ولا بيتٌ حرامٌ سوى هذا، فلزم أن يَدخل الألف واللام لأجل التعريف. ولو قال: جعل الله البيت الحرام كعبة لدل على أنه كان بيتا أولا ثم جعله كعبة، وليس كذلك، بل كان كعبة أولا أعني قبل[3] أن يَظهر بنيانُه في زمن إبراهيم عليه السلام. والله أعلم بكلامه.

وقوله: **والشهر الحرام والهدى والقلئد**، أي ذلك كلّه جعله قياما للناس. ودليله قوله أولا: لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ.[4] فمتى لم يُحلُّوا ما حرم الله في هذه ظهر النفع فعادت قياما، كأنه جعل هذه من أموال الأغنياء تقوم بالفقراء قياما، كقوله في سورة النساء: وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا،[5] وأراد بذلك أن تقوموا بها قياما بالقسط للأيتام. ومعنى هذه ههنا أنه تعالى جعل الكعبة هي البيت الحرام ليقوم الناس ببعضهم بعضا قياما بالقسط في معائشهم ومكاسبهم وغير ذلك من منافعهم.

---

[1] النَّهْد: الثَّدْي (لسان العرب، «نهد»).

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٩٦/٣).

[3] ن – قبل.

[4] الآية ٢ من هذه السورة.

[5] سورة النساء، ٥/٤.

وأما الشهر الحرام فإنه لا يَقتل بعضهم بعضا به. وأما الهَدْي والقلائد فهي صدقة منه سبحانه عليهم، جعل ذلك قياما يقوم بضعفائهم من أغنيائهم، لأنهم[1] كان لهم رحلتان في الشتاء والصيف.[2] فأغناهم الله بجعله الكعبةَ البيت، فافهمه. ثم قال: **ذٰلك**، كلُّه، أي المذكور في هذه الآية، **لتعلموا أن الله يعلم ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم**، لأن الذي علِم مصالح عباده فهيأها لهم قبل إيجادهم يعلم كل شيء سبحانه. وإذا فكّرنا في قدرةِ فاعلٍ قادر أَمَر فامتُثِل أمرُه في حج بيت جَعَله أمنا من القتال الذي يُبطل مصالحَ العباد، وجعل من أموال الأغنياء ما يعود على الفقراء، ومن أعمال الفقراء ما يعود على الأغنياء ظاهرا وباطنا دل[3] على فعل قادرٍ عالم بمصالح عباده ومنافعهم. وكذلك ما فصله سبحانه فيما يجب في الأشهر الحرم وما لا يجب، وما فصّله في الهدي وجعله كفارة للعبد. والعالِم بهذا كله سبحانه إذا تأمل المُحقِّق منا قدرتَه عز وجل على ما ذكره علم أنه تعالى يعلم ما في السماوات والأرض فتعالى الله عز وجل في مفهومه بهذا الاعتبار وبرؤية هذه الأدلة، وذلك هو المراد. ولهذا بعد هذا الكلام خوّفهم من مخالفته وأطمعهم في مغفرته، فقال: **اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم** لمن تاب.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قل لا يستوى الخبيث والطيب، التخصيص المرادُ بالخبيث ههنا هو المنهيّ عنه من الصيد. وجاء الكلام مطلقا متأخرا / ليُفهَم منه الاطلاق أيضا. ونظمُ[4] هذه الآية بما [١٤٧و]
قبلها يَرجع إلى ما قلناه لتعود[5] منسوقة بقوله: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ... وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ. ولهذا أخر تلك الآية وَٱتَّقُوا۟،[6] وأخر هذه، **فاتقوا**. فكثير يأتي مثل ذلك، أعني يتلو لفظا بمثله لِيَنْسُق المعنى على مِثلِه. وقوله: **ولو أعجبك كثرة الخبيث**.

١ ن: لأن.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ (سورة قريش، ١٠٦/١-٢).

٣ جواب "وإذا فكرنا".

٤ ن: وانظر.

٥ ش: ليقود.

٦ الآية ٩٦ من هذه السورة.

الخبيث ههنا هو ما قدمناه. ولفظ الخبيث يقال على الرديّ، والطيب ما ليس بخبيث. وقد يكون أيضا طيبا ولا بد أن يكون حلالا، فإن الحرام خبيث لقوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾.[1] وإنما ذكر الخبيث ههنا لعمومه، فإنه يعم الحرامَ والحلال المُؤذي فهو غير طيب من كل وجه، وإن طاب من وجه أو وجوه فهو غير خبيث من كل وجه. ولمّا كانت معرفة الخبيث ومعرفة الطيب يتوقف على ذي لبٍّ وقد تقدم مما حرّمه ما بيّنّاه قال أخيرا: **فاتقوا الله يأولى الألبب لعلكم تفلحون.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١﴾

ثم قال: **يأيها الذين ءامنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسئلوا عنها حين ينزل القرءان تبد لكم عفا الله عنها**، هذا كلام يدل على تخصيص لأشخاصٍ ووقائعَ. وفي أول الآية تأديب عام، وباقيها مخصص.[2] وقد عفا الله فلا حاجة إلى البحث عنه، وقد أخبرنا بعفوه سبحانه. **والله غفور حليم.**

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ۝١٠٢﴾

قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كٰفرين، أي بسببها، لأنهم علموا ما ساءهم، إذ سألوا أنبياءهم فكفروا بسبب ذلك. ولهذا نهى الله سبحانه المؤمنين عن مثل ذلك.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٣﴾

ثم أضاف إلى ما نهاهم عنه إخبارا بما تضمنته هذه الآيةُ ليُشعرنا أن من جملة ما كان في أنفسهم أن يسألوا عنه ما ذكره فيها مما كانت العربُ تفعله فقال: **ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام.** هذه أسماء لِما جعلته العرب سنةً بينهم يتعبدون به وهو كَذِب. و"الجعل" فيما يكون قولا وحكما وفيما يكون عملا وصنعا؛

[1] ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الأعراف، ١٥٧/٧).

[2] ش: مختص.

ويكون تارة بمعنى صار فلا يتعدى كقولك:[١] جعل يقول كذا؛ وتارة بمعنى صيّر ويتعدى إلى مفعولين كقولك: جعل الطين خزَفا، وجعلتُ زيدا عدلا، أي حكمت بذلك. والذي قيل في البحيرة: إنها هي التي شُقَّتْ أذُنُها، وتلك علامة عُلمت بها من أجل أنها للأصنام، ومنه "البحر"[٢] وهو الشق. والسائبة المسيَّبة.[٣] والوصيلة التي قد وُلدت مع أختها في بطن واحد. والحامي ما حُمي ظهرُه فأوْلَد عشرة. وكانوا يحرّمون ركوبَ هذه المسميات من الإبل، يريدون أن ذلك دين، وهو افتراء لأن الله لم يجعل ذلك. **ولٰكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون**، فهم يتبعون سُنَنَ الآباء فيما لم يجعله الله لهم من الدين. والذي جعله الله هو الذي تقدم من جعله البيتَ الحرام والشهر والهدي والقلائد ومثلَ ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٠٤﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٠٥﴾

يٰأيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم، أي بأنفسكم، يعني[٤] بإصلاحها. **لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون.**

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ١٠٦﴾

يٰأيها الذين ءءامنوا شهٰدة بينكم، مشتق من البيْن الذي هو الفراق، قال الشاعر:

---

١ ن: كقوله.

٢ البحر في كلام العرب الشَّق (لسان العرب، «بحر»).

٣ سيب الشيء: تركه. وسيب الدابة: تركه يَسيب حيث شاء. والسائبة: البعير يدرك نتاج نتاجه فيسيب ولا يُركب ولا يُحمل عليه. والسائبة التي في القرآن العزيز في قوله تعالى ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد أو برئ من علة أو نجّته دابةٌ من مشقة أو حرب قال: ناقتي سائبةٌ أي تسيَّب فلا يُنتفَع بظهرها ولا تُحلأُ عن ماء ولا تُمنَع من كلإ ولا تُركَب (لسان العرب، «سيب»).

٤ ش: أي.

قـد عـلَّـم الـبـيـنُ مـنـا الـبـيـنَ أجـفـانـا.[1]

ولذلك أضاف الشهادة إليه لأنها شهادة مخصوصة. والشهداء الذين يشهدون في شهادة البَيْن إذا لم نجد العدلين لا تجوز[2] شهادتهم إلا فيما عيّنه الله تعالى وهو، إذا حضر أحدكم الموت، ليعرّفنا أن ذلك ليس في كل بين، بل بينٌ حضر فيه الموت لأحدنا. وقوله: حين الوصية، عرّفنا أن هذه الوصية لا تكون إلا مع هذه الصورة المخصوصة. وقوله: اثنان، مرفوع بالخبرية، لأنه موضع خبر قوله: شَهْدَةُ بينِكم. وقوله: ذوا عدل منكم، لئلا نتخذ[3] من اتفق وقد أمكن اتخاذ مَن هو أولى. وقوله: أو ءاخران من غيركم، تقديره إن لم تجدوا منكم. ولما قال: أو ءاخران من غيركم، لم يقل: ذَوَا عدلٍ. فكون النص سكت عن تعديلهما بعد عطفهما على ذَوَيْ عدل منا أفهمَنا معنيين. أحدهما أنه[4] ليس بعدل عند المؤمنين من هو من غير المؤمنين. والثاني استحباب أن يكونا عدلين / عند قومهما كما كان الأولان المندوب إلى اتخاذ شهادتهما [١٤٧ظ] منا عدلين. وفيه فائدة ثالثة وهي كونه لم يعيّن عدالتهما[5] عند قومهما بل سكت عن ذلك لنعلم أنه إذا لم نجد عدلين من غيرنا عند قومهما فليكونا[6] آخَرَين فقط، فكأنه قال: اثنان ذوا عدل منكم أو غيرُ ذَوَيْ عدل منكم، أو اثنان ذوي[7] عدل من غيركم، أو غير ذوي عدل عند قومهم. ولهذا قال: أو ءاخران، هذا هو مقتضى هذه العبارة لكونها جاءت حاصرةً لأفضل الشهداء منا وأقل الشهداء من غيرنا. فما بين ذلك لازم عند من تدبر. وقوله: إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصٰبتكم مصيبة الموت، بيّن[8] لما قلناه أولا أن هذه الصورة من الشهادة لا تُقبَل من هؤلاء إلا في مثل هذا الموضع لمثل هذه الحالة في وصية[9] عند حضور الموت. وكرر ذكْرَ[10] الموت لأن الشاهدين منا في الحضر ومن غيرِنا في السفر ليزول الحرجُ. فلهذا قال: أو ءاخران من غيركم،

---

[1] البيت للمتنبي. وتمامه:
قـد عـلّـم الـبـيـنُ مـنـا الـبـيـنَ أجفانا
تَـدْمَـى وَأَلْـفُ فـي ذَا الـقَـلْـبِ أحزانَـا.
يقول: إن فراق الأحبة علّم أجفاننا الدامية -من طول البكاء- أن يبتعد بعضها عن بعض. كنى به عن إرادة السهر (شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي، ٤/٤٤٥). انظر: المثل السائر لضياء الدين بن الأثير، ٢٦١/١.

[2] ك ن: لا يجوز.

[3] ش ن: لئلا تتخذ.

[4] ن - أنه.

[5] ش - بل سكت عن ذلك لنعلم أنه إذا لم نجد عدلين من غيرنا عند قومهما فليكونا؛ ن: عدالتها.

[6] ن: ليكونا.

[7] ك - ذوي، صح هـ.

[8] ك ن: مبين.

[9] ن: وفي وصية.

[10] ن: وكرر ذلك.

لكن الآخران، **إن أنتم ضربتم فى الأرض**. وقوله: **تحبسونهما من بعد الصلوٰة فيقسمان بالله**، هذا على[1] شرط وهو، **إنِ ارْتَبْتُمْ**، في شهادتهما. والرِّيبة قد تكون بما يخطر في بال الشخص من الشك في صدق الشاهدَين وقد تكون بما يَقدح فيهما قادح. وقوله: **تحبسونهما**، حبسه عن المُضِيّ إذا منعه، وليس المراد به تحبسونهما في السجن. وقوله: **من بعد الصلوٰة**، يحتمل أنه يريد عقيبَ الصلاة المختصة بالشاهدَين إن كانا منا أو من غيرنا. وفيه أشارة إلى أننا يجب أن نُشهد من المصلين. وإنما لم يقل: من بعد صلاتهما لئلا يَلزم أن يكونا من المصلين ولا بد، فقال قولا يدل على المراد الأول أنه يجب أن يكونا من المصلين، ولم يُلزمنا ذلك ويَفرضه علينا لجواز تعذُّرِ وجود المصلين في ذلك الوقت منا أو من غيرنا. وقوله: **من بعد الصلوة**، ولم يقل: من بعد صلاة منكَّرا بل معرَّفا لنفهم من ذلك أنه لا يجوز التمادي في ذلك الأمر، فنحبسهما[2] من بعد صلاة، أعني أيَّ صلاة كانت، بل لا نصبر عن تحقيق الحق وإمضاءِ وصية الميت أكثر من أداء فرض الله.

فإن قيل: لو أراد بذلك التعجيل والمبادرةَ لقال ما يدل على ذلك بلفظٍ أبلغ وأبْيَنَ مما قد قاله. قلنا: ذلك صحيح لو كانت جملةُ المقصود هي التعجيلَ فقط. وإنما قصد مع ما قلناه من هذا[3] المعنى ما قلناه من قبل من المعاني من أنهما يكونان من المصلين وغير ذلك، مثلَ أنه عقيبَ الصلاة وقتٌ تَرِقُّ فيه القلوبُ بذكر الله تعالى فهو أبعد[4] عن شهادةِ زُورٍ، وأولى بنا نحن أيضا ليكون الوقت منبسطا من بعد الصلاة إلى وقت صلاة أخرى، وأولى بمن باشر أمرا فيه اختلاف ورِيبة ولا بد من مباشرته أن يباشره من بعد الصلاة لا وقت الصلاة ولا قبلها. وقد قيل: أراد صلاة الجمعة، ولهذا عرّفَها. وهذا وجه قوي من جهة حضور جماعة من المسلمين يَعْسَر جمعُهم في غير يوم الجمعة. ويحتمل أن يكون المعنى أننا نأمرهم[5] أن يصلوا ركعتين قبل أداء الشهادة ليكون ذلك أعونَ لهم على الصدق. وكذلك يجب عند كل يمين، أعني من جهة الأولى. والله أعلم.

وقوله: **فيقسمان بالله**، إشارة إلى أننا لا يجوز لنا أن نستقسمهم بغير الله تعالى إن كان في دينهما أنهما يُقسمان بغيره كالأزلام وغير ذلك من كل ما دون الله تعالى،

---

[1] ن: على هذا.
[2] ش: فتحبسهما.
[3] جميع النسخ - هذا، والمثبت من م.
[4] ن: بعد.
[5] ك ن: يأمرهم.

بل بالله تعالى. وقوله: **لا نشترى به ثمنا**. اعلم أن البائع قد اشترى بِسِلْعته الثمن في نفس الأمر، ولأجل ذلك قيل: شهدتُ على المتبايعين، إذ كل واحد منهما بائع. ويلزم أيضا أن يكون كلُّ واحد منهما مشتريًا. ومن ههنا فسّر بعضُهم "اشترى" بمعنى باع، فنَقَل عنه بعضُ جامعي كتب اللغة. وهذا وإن جاز في الاستعمال لكنه ليس على الأصل، والقرآن إنما جاء على الأصل الذي لا اشتباهَ فيه. ولما كان المشتري بالثمن هو الراغبَ في السلعة، واليهودُ بهذه المثابة في هذا الأمر فلشدة رغبتهم في الثمن كرغبة المشتري في السِّلْعة قال الله مخبرا عنهم: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾،[1] ولا يكون
[١٤٨و] ذلك باعوا بآيات الله. ولهذا لم يقل: آيات الله، / بل بِآيَاتِ اللّٰهِ لئلا تكون الآيات مقبوضة لهم، وليس كذلك. وفي كل موضع يكون هذا المعنى أو مِثْلُه تجد ما يدل على زهدهم فيما خرج عنهم ورغبتِهم في الذي أخذوه حتى صار الثمن[2] موضعَ السِّلْعة المرغوب فيها، وما بذلوه هو الثمنَ لها وهو الآيات. وتقدير الكلام لا نشتري بقسَم الله ثمنا. **ولو كان**، المشهود عليه، **ذا قربى**، أي لنا، فهذا قول الشهداء. وتمامه: **ولا نكتم شهٰدة الله**، أضافها إليه تعظيما لها -كقول العرب: يا سارق الليلة أهل الدار- لأن الله أوجب عليهم ذلك، فهي شهادةٌ له سبحانه. وتقديره: شهادةٌ لله يجب علينا أداؤها لا نكتمها، وإن كتمناها، **إنا إذا لمن الآثمين**.

﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧﴾

وقوله: **فإن عثر**، قد ذكرنا[3] لفظة عثر[4] في الكهف.[5] وقوله: "عثر"[6] ما لم يُسمَّ فاعلُه مثل هُجم من هَجَم يَهْجُم، ويقال: عَثَر يَعثُر في ثوبه[7] أو بحجر ومثله في الماضي والمستقبل. عَثَر، أي اطّلع وأعثره غيره، وعَثَرَ الماضي بوزن طلَب وجلب وسلب. لكن مصدر الأول عِثارا. وإذا كان من الاطّلاع فمصدره عَثْرا وعُثورا. وعُثِر ههنا بضم العين

١ سورة التوبة، ٩/٩.
٢ ش – حتى صار الثمن، صح هـ.
٣ ش ك: ذكرت، والمثبت من م.
٤ ش ك – لفظة عثر، والمثبت من م.
٥ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ (سورة الكهف، ٢١/١٨).
٦ ش ك – وقوله عثر، والمثبت من م.
٧ عَثَر يعثِرُ ويَعْثُرُ عَثْرا وعِثَارا: كَبا. وأرى اللحياني حكى عَثِرَ في ثوبه يعْثَرُ عِثَارا (لسان العرب، «عثر»).

كقوله بعده: استُحق، بضم التاء.[١] وقوله: علىٰ أنهما استحقا إثما، أي عقاب إثم بما افترياه من الكذب في الشهادة. وأما إن ظن وارتاب فليس له سوى أن يستحلفهما كما تقدم. فإن عُثِر بعد اليمين على إثمهما[٢] فكَذَبا في اليمين التي دلت على كذبٍ تقدم في الشهادة عرّفَنا أنهما يستحقان عقابَ الإثم من الله تعالى. ولما لم يكن[٣] ههنا تبيينُ ما وجب عليهما من العقاب ذكر ذلك مُجمَلا ههنا ليُعلَم. وأما العلم[٤] به فمِن غير هذا الموضع كما فصّل في سورة النور.[٥] ثم تمم الكلام ههنا بقوله: فآخران، أي فشاهدان آخران. ويُفهَم من هذا أن الآخَرين قد نعثر على أنهما استحقا إثما فآخران أيضا، يقومان مقامهما، ولو تكرر ذلك مرارا. وقوله: مِن الذين استَحقّ عليهم، أي علم بوجهِ حق لا ظنٍّ. فلهذا رفع تاء "استحق".[٦] وقوله: الأولَيٰن، تقديره يقومان الأوليان. وقراءة من قرأ "عليهم" أولى وأبين من قراءة من قرأ عليهما.[٧] وقوله: من الذِين، ولم يقل: اللذَين بالتثنية بل بكسر الذال الذي يدل على الجمع تعريفا لنا أن الآخرَيْن قد يَكْذِبان، وقد يكذب من يأتي بعدهما. فوجب أن يَشهد مِن كلهم الأَوْليان. ولهذا أخّر "الأولَيْن" بعد ذكر، الذين استحق عليهم، الإثم من سائر الشهود، وقال: من الذين، بكسر الذال. فلفظة "من" ههنا هي للتبعيض وليست للبدل كقولك: هذا خير من هذا، بل كقولك: هذا من القوم. وتقديره كما قدمنا: يقومان الأَوْليان اللذان هما من جملة كل شاهدَين استحق عليهما الإثم. وفي هذا التفصيل منافع. منها أن الأوَلَيْن إن كانا مؤمنَيْن فلا يقوم مقامَهما كافران ولا نكذبهما[٨] بالكافرين لأولوية المؤمنَين. وإن كانا كافرَيْن، أعني الأوَلَيْن، فلا يخلو إما أن الأوَلَيْن أيضا كافران[٩] أو مؤمنان. وقد ألزم النص بأنهما

---

١ قرأ حفص بفتح التاء والحاء وإذا ابتدأ كسر الهمزة، والباقون بضم التاء وكسر الحاء، وإذا ابتدءوا ضموا الهمزة (البدور الزاهرة، للقاضي عبد الفتاح، ص ٩٧).

٢ ش ك: على أنهما.

٣ ش: لم تكن.

٤ ش: وأما العمل.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآيات: سورة النور، ٢٤/٦-٩، ١٣.

٦ قرأ حفص بفتح التاء والحاء وإذا ابتدأ كسر الهمزة، والباقون بضم التاء وكسر الحاء، وإذا ابتدءوا ضموا الهمزة (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٩٧).

٧ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ لا يخفى حكم الهاء والميم للقراء العشرة. وأما لفظ "الأوليان" فقرأه حمزة وخلف وشعبة ويعقوب بتشديد الواو وفتحها وكسر اللام وبعدها ياء ساكنة وفتح النون، والباقون بإسكان الواو وفتح اللام والياء وألف بعدها وكسر النون (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٩٨).

٨ ش: ولا يكذبهما؛ ن: ولا تكذبهما.

٩ ك – ولا تكذبهما بالكافرين لأولوية المؤمنين وإن كانا كافرين أعني الأولين فلا يخلو إما أن الأولين أيضا كافران، صح هـ.

إن كانا كافرين أقمناهما مقامَ الأوّلَيْن، فلزم إن كانا مؤمنين فذلك أولى. فافهم هذا[1] القول[2] جيدا. فلو أخذ المتذهّن يَذكر من حكم الكلام ما يَعلمه في مثل هذه الآية لَطال. وإنما يجب التنبيه على بعض الحِكَم وذكر الأحكام على التمام. وقوله: **فيُقسمان بالله**، أي الأَوْلَيان من الشهداء: **لشهٰدتنا أحق من شهٰدتهما وما اعتدينا إنا إذًا لمن الظٰلمين.**

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

ذٰلك، أي الذي أمرْناكم به من إقامة الشاهدَين الأولَيْن مقامَ الذين استحق عليهما الإثم واستحلافهما ذلك الفعل، **أدنىٰ**، أي أقرب إلى، **أن يأتوا بالشهٰدة علىٰ وجهها.** وقوله: **يأتوا**، إشارة إلى الشهداء كلهم، أعني الأولَيْن واللذَين بعدهما وما يمكن من بعدهما أيضا، لأن الأولَيْن متى علما أن بعدهما مَن ربما يأتي وإذا شهد وحلف أجنباه خَشِيا إن كذبا أن يفتضحا، وكذلك اللذان بعدهما. وقوله: **أو يخافوا**، إشارة إلى المذكورين / كلهم أيضا. فقوله في الآية المتقدمة: مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ،[3] هو إشارة [١٤٨ظ] إلى جمعٍ من الشهداء كما قال ههنا: **يأتوا**. وقوله: **أنْ تُرَدّ أيمٰن بعد أيمٰنهم**، معنى "ترد" تكرّر، لأنه كما كُرِّرت أيمان الأوْلَيَيْن بعد أيمان الأولَيْن كذلك يجوز أن تُرَدَّ أيمان آخَرَيْن بعد أيمان الأوليين.[4] فهذه الصور يخافها الأوّلان ويخافها الأوْليان دائما ممن عسى أن يأتي بعدهما. فلهذا قال: **أو يخافوا**، ولم يقل: يخافا فإنه لا يخلو إما أن يكون الشهداء مُحِقِّين فذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، أو مُبطلين فهم يخافون أنْ تكرر أيمانٌ بعد أيمانهم، فيأتون بالشهادة على وجهها لخوفهم، وفي الأول لأنهم أرباب حقٍّ لا عن خوف مِن رد الأيمان. فافهم جملة ما قلتُه وتفكر فيه جيدا ولا تتعب في غيره، بل افهمْه أولا ثم قِفْ على ما قيل. ولا تقَلِّدْني فيما قلته بل انظر الأحسنَ المفهوم عن النص الموافِق له، وقف معه واحذر أن تُقدِّر في كتاب الله مُقدَّرا محذوفا فتأتيَ من عندك بمقدَّر تُمشي به النصَّ وإن لم يكن ذلك هو المرادَ.

فإن قلت كيف أَعلمُ المقدَّرَ المحذوف فأتحقق أنه هو المراد لا غيره وأعني بذلك معنى وإن اختلفتِ العبارة لفظا؟ فاعلم أن الوصية معك أولا هي أن تأخذ الأحسنَ

---

١ ك – فافهم هذا.
٢ ش: أولى نع القول.
٣ من الآية السابقة.
٤ ن: الأولين.

في اللفظ اللائق بالأحسن من المعنى المقصود، فتُوافق أحسنَه بأحسنه لا حَسنَه بحَسنه وأحسنه بحسن الآخر بل الأحسنِ لفظا. ومعنى هذه الصورة يجب أن تكون[١] بين عينيك أبدا. والثاني وهو الأصل في المقدَّر المحذوف، وهو أن تَستدلَّ[٢] بلفظ القرآن الموجود على معنى اللفظ المفقود، فتُقدِّر أنت بعد ذلك لفظا يليق بما فهمته أولا من كتاب الله تعالى. وإياك أن تَعكس فتقدّر أنت بعد ذلك[٣] من عندك لفظا تَفهم به معنى اللفظ الموجود في القرآن. فذلك خطرٌ عظيم حرامٌ فاحذره. وإن وجدتَ لفظ القرآن يحتمل معنيين فافهم جيدا، أيُّ المعنيين هو المقصود بذلك اللفظ المحتمِل، ويَبين لك ذلك من سياق الكلام وسباقه، فحقِّقْه جيدا لئلا يشتبه عليك كما في هذا الموضع، وهو قوله: **أو يخافوا أن تُرَدَّ أيمٰنٌ بعد أيمٰنهم**. فلا تفهم من لفظة الرد رد الغلط على الغالط بل افهمْ منها رد اليمين كَرَّة أخرى. وإن كان اللفظ محتملا غير ذلك، لكنّ أحد المعنيين تتم به جملةُ الكلام دون الآخر، فاعرف مثل ذلك في موضعه. وهذه الجملة مفتاح عظيم في فهم المعاني، والله الهادي بفضله.

واتقوا الله واسمعوا، أي اقبلوا. **والله لا يهدى القوم الفٰسقين**، إلى طريقه المستقيم إلا بعد توبة عن الفسق. وفيه إشارة من طريق التضمن[٤] إلى[٥] أن الفاسق لا يهدى إلى فهم المعاني من الآيات، فيجب أن يتقي الله تعالى ويَتبرأَ من أنواع الفسوق ليهديه الله إلى معاني كلامه بكلامه، فيطابقَ بين حقائق المباني وبين ما اشتملت عليه من[٦] لطائف المعاني مع حصرِ صورِ المحتمَلات اللفظية وتخصيص المراد منها بالبراهين العقلية.

﴿ ۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩ ﴾

ولما ذكر التقوى ذكر الجزاء مخوِّفا لتَتأكّد أسبابُ التقوى فقال: **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا**، أي لا علم لنا[٧] دونك فنسألَ عنه، بمعنى لا علم لنا وهو يخفى عنك. **إنك أنت**، أي لا غيرك، **علّٰم الغيوب**.

١ ش: أن نكون.
٢ ن: أن نستدل.
٣ ك ن - أنت بعد ذلك.
٤ م - من طريق التضمن.
٥ ش ك - إلى، والمثبت من م.
٦ ن - من.
٧ ك ن - لنا.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

وقوله: **إذ قال الله**، أي في ذلك اليوم: **يٰعيسىٰ ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلىٰ وٰلدتك**، أي اذكر لقومك وكَذِّبهم فيما ادّعوا فيك من الإلٰهية، لأن المنعَم عليه لا يكون إلٰها، ولهذا سيأتي بعده: ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ.[1] فقال ههنا: اذكر الحجة عليهم التي أرسلتُك بها إليهم. **إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا**، بالسواء.[2] وقد ذكر في آل عمران.[3] **وإذ علمتك الكتٰب والحكمة والتورىٰة والإنجيل**، دل على أن "الكتاب" ههنا الكتابة. **وإذ تخلق من الطين**، أي تُصوِّر، / **كهيئة الطير بإذنى. فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرئ الأكمه**، الذي خُلق أعمى، **والأبرص**، مثل أصفر، **بإذنى وإذ تخرج الموتىٰ**، من القبر أحياءً، **بإذنى. وإذ كففت بنى إسرٰءيل عنك إذ جئتهم بالبينٰت فقال الذين كفروا منهم إن هٰذا إلا سحر مبين.** [١٤٩و]

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

وإذ أوحيت، أي بلسانك، **إلى الحواريين أن ءامنوا بى وبرسولى قالوا**، لك: **ءامنا واشهد**، يا عيسى، **بأننا مسلمون.**

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

إذ قال الحواريون يٰعيسىٰ ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء.

---

[1] الآية ١١٦ من هذه السورة.

[2] ك: بالسوء.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٤٦).

وهذا الكلام منهم لا يدل على أنه تعالى ربما[1] لا يَقدر، بل ربما لا يَفعل مع قدرته. وهذا كما تستنجز صاحبك وتَحثه على فعل ما تختاره منه فتقول: تَقدر أن تُعطيَني درهما؟ مع علمك بقدرته على إعطاء أمثاله. وإذا عُدْت إلى حقيقة الأمر وجدت[2] أنهم إنما أرادوا أن يَعلموا هل يستطيع عيسى ذلك. ولكنه عليه السلام لمّا كان من عادته أنه لا يفعل شيئا من المعجزات إلا ويَنسِبه لربه خاطبوه بما عادتُه أن يخاطبهم به. ولهذا قالوا: ربُّك، ولم يقولوا: ربنا، ودليله: وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا.[3] **قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين.** وينبغي أن تَعلم أن القوم كانوا جِيَاعا.

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾

ولهذا قدموا قولهم: **قالوا نريد أن نأكل منها**، فهذا كان المقصود أولا. **وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا.** والطمأنينة تكون مطلوبة مع وجود الإيمان، كقوله: أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.[4] وقوله: **ونكونَ عليها من الشّٰهدين**، أي عند إنزالها. والمائدة هي المتحركة من ماد يميد [كما في قوله]: وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ.[5]

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾

قال عيسى ابن مريم اللّهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا، ولفظة "عيد" ما لم يُسمَّ فاعلُه من عاد يعود، والمعنى تعود كما نزلت فلا يَفرُغ ما عليها من الطعام، ولهذا قال: **لأولنا وآخرنا**. وهذا يدل على كثرتهم؛ والجميع أكلوا منها لكن متفرقين، ولهذا لم يقل: لجميعنا. فكان القوم كلما أكلوا ما عليها عاد كما بدأ ليأكل منه الآخرون كما أكل الأولون، فطعامها عِيدَ عليها[6] مرة. ولهذا قال: **وءايةً منك**، إذ ذلك آية بعد إنزال المائدة. وقوله: **وارزقنا**، أي ارزقنا الآن **وأنت خير الرٰزقين.**

[1] ن: ربنا.

[2] ك: وحدت.

[3] من الآية التالية.

[4] ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦٠).

[5] ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٥).

[6] ن – عليها.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾

قال الله إنى منزلها عليكم، كما طلبتم. فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العٰلمين. وهذا يدل على تعجيل الهلاك واستحقاق الاستئصال لمن يرى المعجزة ثم يكفر. وذلك مما يدل على أن الرسول محمدا[1] صلى الله عليه وسلم رحمة، إذ لم يأت بآية كما أُرسل الأولون. ويُحتمل أن الحواريين طلبوا من عيسى عليه السلام ما طلبه بقيةُ القوم، فكان الحواريون لسان حال الباقين لكي يؤمنوا بعيسى عليه السلام.

﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾

وإذ قال الله يٰعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس. فرقٌ بين الاستفهام والاستخبار؛ فالأول عما لا يكون للسائل به علمٌ، والثاني كما ههنا طلبُ أن يخبر بما عنده وإن كان السائل عالما به. وقوله: اِتَّخذونى وأمِّىَ إلٰهين من دون الله، أما الأم فلمّا عظّموها دون سائر البشر وأطلقوا القولَ على فرعها التي هي أصله بأنه إلٰه لزمهم من ذلك أنها إلٰه[2] أيضا، إذ لا يَلِدُ المولودَ إلا مِثْلُه وشِبْهُه كما لا يلد الفرس فِيلًا والإنسانُ فرسا. فذلك مستخرَج من قصدهم ولازم من دعواهم وإن لم يكن من صريح قولهم بلفظهم. وهذا كقوله: وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ[3] وكقوله: ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ.[4] قال سبحٰنك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته، هذا مبالغة في الأدب وإظهارِ الذلة والمسكنة وتفويضِ الأمور بالكلية إليه سبحانه، إذ لم يقل: ما قلت أو مثلَ ذلك. وقوله ما بعده فهو مخاطبة بالمفهوم المعتاد وهو قوله: تعلم ما فى نفسى ولا أعلم / ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب. [١٤٩ظ]

١ جميع النسخ: محمد، والمثبت من م.

٢ ك ن: إلها.

٣ ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ (سورة التوبة، ٩/٣٠).

٤ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٣١).

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾

ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم. وقوله: **فلما توفيتنى**، دل على أنه تعالى تَوفّاه، فحين لم يكن فيهم توفاه الله. ومن قبل التوفي، كان عيسى شهيدا عليهم. وأما بعد التوفي، **كنت أنت الرقيب عليهم وأنت علىٰ كل شيء شهيد.**

واعلم أن قوله: **ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربّكم**، هذا نص الإنجيل.[1] ومثله أيضا في الفصل الرابع من إنجيل لوقا،[2] قال المسيح: مكتوبٌ أنِ اسجدْ لله ربِّك وإياه وحدَه فاعبد.[3] هذا لفظه[4] إلى الآن وهو صريح التوحيد. ثم[5] حقت الحجة على الناس المشارِ إليهم بقوله في ذلك اليوم: ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ،[6] يعني هؤلاء.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

فكان عيسى عليه السلام لما قال عنهم ما قاله أدركتْه الرقةُ لهم والرحمةُ عليهم طمعا في سَعَة حلم البارئ تعالى لا لأنهم يستحقون ذلك. فقال كالمستشفع لهم: **إن تعذبهم فإنهم عبادك**، أي ليس لأحد أن يمنع عنهم ذلك. **وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**، أي إن المغفرة وتزكَ عقابك لهم بما يستحقونه لا يغير[7] ما أنت عليه من العزة والحُكم. فإن عذبتَ فليس لهم إلٰهٌ غيرك يلتجئون إليه، وإن غفرتَ فأنت الذي لم تنقص المغفرةُ لهم من عزتك ولا من حكمك.[8] وكان المعنى يعطي الحالين معا لكل شرط. وتقدير الكلام: إن تعذبهم، أو إن تغفر[9] لهم فإنهم عبادك، وإنك أنت العزيز الحكيم. ثم أخّر لفظ المغفرة، ففهمنا كيف يجب أن تكون الشفاعة والسؤال مع التعظيم والإجلال. وهذا مفهوم من الأُولى بباطن الترتيب أعني الأخفى.[10]

---

١ لم أعثر عليه فيما بين يدي من الإنجيل بهذا اللفظ.
٢ إنجيل لوقا: ثالث الأناجيل الأربعة. موضوعه المسيح. ومن المعتقد أنه وُضع في الفترة الممتدة من العام ٦٣ إلى العام ٧٠ للميلاد (المورد لمنير البعلبكي، «لوقا»).
٣ الإنجيل، لوقا ٨/٤.
٤ ك: هذا لفظة.
٥ ش ك + لما.
٦ من الآية السابقة.
٧ ن: لا بغير.
٨ ن: من حلمك.
٩ ن: وإن تغفر.
١٠ ش ك: بالأخفى.

وأما ظاهر[1] الترتيب [فإنه] يقتضي: إن تُعذِّبهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وإن تغفر لهم فإنهم عبادك. فقدم ذكْرَ العذاب ليختم بالمغفرة وأخّر العزيز الحكيم للوزان.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾

قال الله هٰذا يومُ، مرفوع بالخبرية مضافا إلى قوله: **ينفع الصٰدقين صدقهم**. ومن قرأ "يوم" بالفتح أراد الظرف،[2] أي هذا يجري في يومِ ينفع الصادقين صدقُهم.[3] **لهم جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر**. "مِن" يستعمل أحيانا لابتداء الغاية كأنه قال: من تحتها يكون ابتداءُ الجريان إلى بقية المواضع. ولمّا أسقط "من" في براءة أشار إلى جنات تختص بالسابقين الأولين من المهاجرين، وقال: تَجْرِى تَحْتَهَا،[4] فيكون أول الجَرْية من جنات الأنبياء من تحت الأشجار، ثم يصل ذلك فيجري تحت أشجار جنات المهاجرين. فافهم ذلك. **خٰلدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذٰلك الفوز العظيم**.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

ثم قال تعالى مخبرا لنا عن قدرته على ذلك وغيره: **لله ملك السمٰوٰت والأرض وما فيهن**، من عيسى وغيره. **وهو علىٰ كل شىء قدير**.

تمت سورة المائدة. وقيل: إنها آخر ما نزل. والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

١ ن: وما ظاهر.

٢ قرأ نافع بالنصب على الظرف، والباقون بالرفع على المبتدأ والخبر، أي هذا اليوم يوم ينفع (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٥٨).

٣ ن – صدقهم.

٤ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ (سورة التوبة، ١٠٠/٩).

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

قيل: إنها نزلت جملةً على رسول الله صلى الله عليه وسلم.[١]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾

الحمد لله الذى خلق السمٰوٰت والأرض وجعل الظلمٰت والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، يجعلون له عِدْلا، أي عديلا فيُشركون به مَن لا يَخلق سماواتٍ ولا أرضا ولا غيرَ ذلك. فهم يرون هذا من قدرته ثم يعدلون به غيرَه. وفيه معنًى يَحسن أيضا بعد المقصود، وهو أن الذين كفروا بربهم يعدلون عن سبيله وعن الاعتبار برؤية مصنوعاته وعجائب مخلوقاته[٢] من السماوات والأرض، أي يميلون؛ من قولهم: عَدَل عن الجادّة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ②﴾

هو الذى خلقكم من طين ثم قضىٰ أجلا، مشروطا بكسب الإنسان فيؤخِّر الله الإنسان إلى الأجل المسمى إذا قام بالشرط. وقد قضى الله أن يكون الشرط إلى الإنسان، وما قضاه فقد أمضاه. فمن لم يؤمن بذلك لم يؤمن بالقضاء والقدر. وانظر[٣] إلى قوله بعده بالرفع: **وأجلٌ مسمًّى عنده**، وإليه يؤخَّر المؤمن.

[مسألة الأجل]

فياذا القلب الواعي! / إذا سمعتَ قوله تعالى في سورة نوح: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، هل ذلك الوعد من الله تعالى إلا زيادةٌ في العمر، أي في[٤] عمر المطيع في الدنيا، وليس الزيادة إلا التأخير إلى الأجل المسمى. وإن لم يكن كذلك فبأيّ شيء مَنَّ علينا وليس ذلك إلينا. وقد علمنا [١٥٠و]

---

١ ن – قيل إنها نزلت جملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢ ن: مخلوقات.

٣ ن: والنظر.

٤ ش – في، صح هـ.

قوله عليه السلام: «الصدقة وصِلة الرَّحِم تزيدان[1] في العمر».[2] وقد علمت قوله تعالى بعد قوله: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾.[3] وهذا يعطي أن الأجل المسمَّى هو الذي لا يؤخِّر الإنسانُ بعده، وغير المسمى يؤخِّر الإنسان بعده[4] بالشرط إلى المسمى. ولهذا نسبه سبحانه إليه بقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾. فغير المسمى عائده إلى العبد فهو يتغير، والعبد بكسبه[5] عنه يؤخَّر.[6] والمسمى عائده إلى الرب فهو لا يتغير. وكلا الأجلين بقضاء الله وقدره. وقد أخبر الله تعالى عن نفسه أنه كذا قضى. وقد علمتَ عقلا أن المقتول ومِثلَه جائزٌ في العقل أنه لو لم يُقتل لكان عاش أكثرَ من ذلك. وبعد هذا فإن الأمر في العقول السليمة أظهر من أن يحتاج إلى دليل أو برهان[7] على صحة قول القائل: إن للإنسان في الدنيا أجلَين، الأول غير مسمى، والثاني مسمًّى، وهو مقضيٌّ، وغير المسمى معلق بشرط. والإنسان يؤخَّر بعدَ الأول إن قام بالشرط ولا يؤخَّر بعد المسمى. ولهذا قال: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ﴾، ولم يقل: ويؤخر أجلكم. وقد علمت أن الإنسان لا يموت بأجلين بل بأحدهما: فإما أجل مقضيٌّ به من جهة كسبه، وإما أجل مسمًّى له من جهة ربه. وقد علمت أنه لا معنى لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾[8] إلا الإشارة إلى عِدّة هي اسم الأجل. فإن استدان[9] الإنسان ولم يتقيد بعدة فهو أجل غير مسمى يمكن أن يطالبه ربّ الدَّين به متى شاء. ولنضرب المثل بمَلِكٍ له خراج مُسْتَحَقٌّ على بلد. فجعل في نفسه إن أطاعه أهلُ البلد أخرهم عن المطالبة بالخراج إلى أجل مسمى عنده بعامين مثلا أو بما شاء وأخفى الأجل لحكمة. ثم أرسل إليهم، إن أطعتم أمري أخرتُكم عن المطالبة إلى أجل مسمى عندي. فقد دل كلامُه هذا لهم على أنهم إذا لم يطيعوا أمْرَه فله أن يطالبهم في أيّ أجل شاء قبل المسمى. فإذا كانت الأرواح ههنا مكان الأموال فقد عاد هذا الاعتماد من الملك بهذه الصورة من اللفظ من[10] أبلغ بلاغٍ مخوِّفٍ عن المعصية وأكبر موجب من موجبات الطاعة بلا شك.

١ جميع النسخ: يزيدان.

٢ لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. فنحوه: «إن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بها في العمر، ويدفع الله بها ميتة السوء، ويدفع الله بها المكروه والمحذور» (مسند أبي يعلى، ١٣٩/٧؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٢٢/٢).

٣ سورة نوح، ٣/٧١-٤.

٤ ك – وغير المسمى يؤخر الإنسان بعده، صح هـ.

٥ ش: يكسبه.

٦ ك – يؤخر، صح هـ.

٧ ن: وبرهان.

٨ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ (سورة البقرة، ٢٨٢/٢).

٩ استَدان: استَقْرض وأخذ بدين (لسان العرب، «دين»).

١٠ ن – من.

وهذا لب الشرائع، لأن الإنسان مجبول[١] على حب الحياة والحذر من الموت. وإذا علم أن عمله يَدفع عنه المحذور بادر إليه، كما إذا علم أن له أجلا لا بد أن يصل إليه لم يبالِ بالحذر مما أوقعه بغيره أو وقع من غيره عليه. ولو لم يكن كذلك وإلا أيّ فائدة لقوله تعالى: وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ.[٢] ومثل ذلك كثير في عدة مواضع. وإذا لم يكن الأجل الأول مشروطا في القتال بفعل من أفعال الإنسان فلا فائدة في الحذر والأمر به.

وإذا فكرتَ في نفسك بعقلك ونظرت إلى كلام لا يناقضه النصُّ ويسوغ في العقل وقد صدقه الوجود وحديث الرسول وفيه إعانة للمؤمن على فعل الواجب المأمور علمت أن الانتقال عنه إلى تأويلات بعيدة يقع بها[٣] الاختلاف في جميع ما ذكرناه غير حسن. وأما قوله تعالى: وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا،[٤] أي لا يؤخرها إجبارا بغير استحقاق بل إن قامت بالشرط أخّرها كما وعد إلى المسمى. وأما المسمى[٥] فلا يؤخَّر ولا يؤخِّرها عنه، ولهذا قال في تلك الآية: أَجَلُهَا، لأنه بكسبها،[٦] وقال عن المسمى: إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ.[٧] وافهم كيف غيّر العبارة فقال عن أجل الله: إنه لا يؤخَّر، ولم يقل عن أجل النفس: إنه يؤخَّر بل هي لا تؤخَّر عنه.[٨] فافقه هذا لئلا تَغْلَط ولا يعارضَ قولُه تعالى: وَيُؤَخِّرْكُمْ لقوله: وَلَن يُؤَخِّرَ ولا لقوله: إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ. وذلك لأن الأجلين لا يؤخَّران. وإنما / النفس تؤخَّر بعد أحدهما بالشرط ولا تؤخَّر بعد الآخر بوجه. والله لا يؤخِّر إجبارا. فافهم ذلك وكرره مرارا إلى أن يتّضح. فقد كررتُه لك مرارا لئلا يشتبه. [١٥٠ظ]

[الأجل والقضاء والقدر]

واعلم أن القضاء إنما هو الحكم من الله تعالى. والحكم منه سبحانه ينقسم إلى قسمين: حكم مُبرَم لا بد من وقوعه، وحكم مُعلَّق بالعباد. فهو كما يقضي القاضي بأمرٍ بيّنٍ فيه وجه المصلحة وما وجب فعله، وقد يَقبله المحكومُ عليه وقد لا يقبله، ومن ذلك

---

١ أي مخلوق.

٢ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ (سورة النساء، ١٠٢/٤).

٣ ن: يقع فيها.

٤ سورة المنافقون، ١١/٦٣.

٥ ن – وأما المسمى.

٦ ن: لأنه يكسبها.

٧ ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ (سورة نوح، ٤/٧١).

٨ أي بل النفس لا تؤخر عن الأجل.

قوله تعالى: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ.[1] فلو كان هذا من القضاء المبرم ولا بد من وقوع جميع ما قضى لَمَا عبد أحد غيره. فتأمل هذا جيدا لتعلم أن من الأمور ما ليس بِمُعلَّق بشرط[2] فلا بد مِن كِيَانِه.[3] ومنها ما هو مشروط فهو معلق بشرطه، وشرطه ههنا بأمر الله سبحانه وإرادته إلى الإنسان المُمَكَّنِ من فعلِ شيء وضده في كسبه. وإذًا كان الأجلان بقضائه وقَدَره وأمره وإرادته. وقد قدّر وقضى أن أحد الأجلين وهو الأول يؤخِّرنا عنه إلى الأجل الثاني المسمى عنده إذا عَبدْنا الله واتَّقَيْناه وأطعْنا رسولَه. فدعوى المدعي بعد ذلك أن الإنسان لا يمكنه أن يؤخَّر في أجله بعمله إبطالٌ لما قاله تعالى وكفرٌ بما قضاه وقدره، أو جهلٌ لا شك فيه. فإن أردتَ برهانا من كتاب الله بذلك على أن الأجل المسمى هو في الدنيا وليس هو كما قيل تحت الأرض إلى يوم القيامة فاقرأ قوله تعالى في سورة الحج: وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا.[4] فخروج الجنين قبل الأجل المسمى هو كالمتوفى في الدنيا قبل الأجل المسمى. ولهذا قال في غافر: وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ.[5] وهذا يدل على التوفي قبل الخروج من الرحم، وهو قبل الأجل المسمى لخروجه تماما، ويدل على التوفي قبل الأجل المسمى لموته في الدنيا. وقد علمتَ أن قوم نوح لما لم يفعلوا ما أُمروا به أُغرقوا ولم يموتوا بالأجل المسمى بل بالأجل الذي هو بكسبهم وخطاياهم. وقد صرح النص بقوله: مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ.[6] فأي حاجة للمعاند في مخالفة الله تعالى بعد ما قد تحقق الحق ويمتري كما قال تعالى: **ثم أنتم تمترون.**

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾

وقوله: **وهو الله فى السمٰوٰت وفى الأرض**، كقوله: وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ،[7] فافهمه. ولمّا وَصف هذا الاسمَ بجميع الصفات كقوله: هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ،[8] لم يقل ههنا: وهو الخالق في السماوات والأرض، بل قال ما يدل على جميع الصفات. **يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون.**

١ سورة الإسراء، ٢٣/١٧.

٢ ك - بشرط، صح هـ.

٣ ك ن: من كناية.

٤ سورة الحج، ٥/٢٢.

٥ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة المؤمن، ٦٧/٤٠).

٦ سورة نوح، ٢٥/٧١.

٧ سورة الزخرف، ٨٤/٤٣.

٨ سورة الحشر، ٢٤/٥٩.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾

وما تأتيهم من ءاية من ءايٰت ربهم. "من" الأُولى لاستغراق الجنس، والثانية للتبعيض، إلا كانوا عنها معرضين.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾

فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم. وفي الشعر: أفسيأتيكم.[1]

والمعنى أنّ "سوف" يدل على البعد. ويحتمل أن تكون الإشارة بها إلى الآخرة. و"السين" تدل على القرب. ويحتمل أن تكون الإشارة بها إلى عذاب الدنيا. [فسوف يأتيهم] أنبٰؤا ما كانوا به يستهزءون.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾

ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنٰهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء، من السماء، عليهم مدرارا، كقولك:[2] امرأة مِذْكار إذا كانت كثيرة الوَلادة للذَّكَر، وكذلك مِينَاثٌ في الإناث؛ وهو مفعال من الدَّرّ. وجعلنا الأنهٰر تجرى من تحتهم، فكفروا، فأهلكنٰهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا ءاخرين. والقرن مشتق من الاقتران. وأهل كل عصر قُرَناء،[3] فهُم قَرْن وأهل قرن. وذو القرنين ذُكِر في الكهف.[4]

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

وقوله: ولو نزلنا عليك كتٰبا، كتابة بمعنى المصدر.[5] ولهذا بعده: فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هٰذا إلا سحر مبين.

---

[1] لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.

[2] ن: كقوله.

[3] ش: قرنا.

[4] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ (سورة الكهف، ٨٣/١٨). وانظر أيضا: ٨٦.

[5] جميع النسخ: الصدر، والمثبت من م.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾

وقالوا لولا أنزل عليه ملك، أي: فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا.[1] **ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر**، بموتهم واستئصالهم، لهذا بعده: **ثم لا ينظرون**.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ١٠﴾

ولو جعلنٰه ملكا، أي لو جعلنا الرسول ملكا، **لجعلنٰه**، أي لجعلنا الملك، **رجلا**، من جنسهم، لأن الجنس إلى الجنس / أميل وعنه أفهم.[2] ولو كان الرسول مَلَكا لم [١٥١و]
يكن إعجازٌ، لأنهم كانوا يقولون: لو كنا ملائكة لفعلنا مِثلَه. وقيل: لما أراد الحكيم تعليمَ البَبَّغَاء حبسها في قفص، ثم قابلها بوجهه، وقال: قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ،[3] فاضطربتْ إذ سمعتْ كلاما من غير جنسها؛ فحينئذ غطّى وجهه بعباءة، وأخذ مرآة[4] بيده،[5] وقابل بها الببغاء ثم قال من وراء العباءة: قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ، فحاكته الببغاء ظنا منها أنها سمعتْ ذلك من جنسها. ففي هذا المثال ما يُفصح عن الحال. **وللبسنا عليهم ما يلبسون**، مشتق من اللَّبْس، نقيضه الإيضاح وهو بفتح اللام، ومعناه الاشتباه والالتباس[6] وهو أمور يشتبه[7] بعضها ببعض. وقوله: **ما يلبسون**، أي ما يلبسون[8] الآن، أي وللبسنا عليهم بعد إرساله ما يَلبَسون الآن على أنفسهم؛ أي[9] جزيناهم على فعلهم بمثله إذا لم يؤمنوا، كقوله: وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ.[10] ولهذا بعده: **ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون**، وهو العذاب. وحاق وحق متقاربان في المعنى، لكنه يقال: حق عليهم بمعنى وجب بحق، وحاق بهم بمعنى أحاط[11] ولزم واشتمل.[12]

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾

---

١ ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان، ٧/٢٥).
٢ ن + ولهذا.
٣ سورة الإخلاص، ١/١١٢.
٤ ش: مراية.
٥ ش – بيده.
٦ ش: الالتباس والاشتباه.
٧ ك ن – يشتبه.
٨ ن – أي ما يلبسون.
٩ ن – أي.
١٠ الآية ١١٠ من هذه السورة.
١١ جميع النسخ: حاط؛ م: أي وجب.
١٢ ن: اشتمل؛ م: واشتمل العذاب ولزم.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾

قل لمن ما فى السموٰت والأرض، فإذا قالوا: لله، **قل لله**، وهذا المقدر[1] المحذوف دليله: وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ،[2] أي إذا اعترفوا أن الكل لله، **قل لله. كتب علىٰ نفسه الرحمة**، أي الرحمة لِما في السماوات والأرض. ولمّا ذكر ذلك مجملا ذكر مَن يجمع من ذلك ويجازي فقال: **ليجمعنكم**، لأن الذي له ما في السماوات وما في الأرض هو قادر على جمعِ من يشاء[3] مما فيهما. وقوله: **ليجمعنكم**، أي في القبور، **إلىٰ يوم القيٰمة**، بدليلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ.[4] **لا ريب فيه**، أي لا شك في ذلك اليوم. وقوله: **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**، متصل بما قبله وهو: بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ، فتمامه: **الذين خسروا**، وأخر لأجل الوزان. ولما كان قبله[5] قوله: بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ، ثم قال: مِنۡهُم،[6] بيّن أنهم هم بأعيانهم الذين خسروا،[7] ومثلَ هذا بعينه قال بعد آيات معرِّفا: إن المذكَّرين هم من بني إسرائيل. ولهذا قال أيضا: **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**.[8] فكرر اللفظ بعينه وهو الوصف مع ذكر الموصوفين فيما سيأتي إعلاما أن الموصوفين به قوم بأعيانهم.

ومثلَ هذا الاتصال والنسق تتصل الآية التي تأتي وهي قوله: **وله ما سكن**، فيما قبل[9] وهي قوله: **قل لله**. تقديره: **وله ما سكن فى اليل والنهار**، وهو من السكون الذي هو ضد الحركة، وعَيَّن الساكن لأنه أكثر من المتحرك. ولا بد للمتحرك[10] من سكون ما في الليل والنهار ولا ينعكس، وهذا عام، والخاص منه أنه يريد بالسكون[11] النوم، ودليله قوله: قَدۡ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ،[12] وقد قال: وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ.[13] **وهو السميع العليم**.

---

١ ك: للمقدر.

٢ سورة لقمان، ٢٥/٣١.

٣ جميع النسخ: نشاء.

٤ سورة الحج، ٧/٢٢.

٥ ك: قبل.

٦ ن: إنهم. | الآية ١٠ من هذه السورة.

٧ ك – وأخر لأجل الوزان ولما كان قبله قوله الذين خسروا ثم قال منهم بين أنهم هم بأعيانهم الذين خسروا، صح هـ.

٨ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (الآية ٢٠ من هذه السورة).

٩ ش ك: بما قبل.

١٠ ن: ولا بد من المتحرك.

١١ ش ن: يريد من سكون.

١٢ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ (سورة يونس، ٦٧/١٠؛ وسورة المؤمن، ٦١/٤٠).

١٣ سورة الروم، ٢٣/٣٠.

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾

قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السمٰوٰت والأرض وهو يطعم ولا يطعم، والفَطْر الشق. وقوله: قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم، من هذه الأمة. ولا تكونن من المشركين.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾
﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾

من يصرف عنه، العذاب، يومئذ فقد رحمه، ربي، وذٰلك الفوز المبين.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾

وإن يمسسك الله بضر، هذه ههنا إخبار. وقد أوضحنا معنى تكرار ما فيها في موضعه من يونس،[١] فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو علىٰ كل شيء قدير.

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾

وهو القاهر فوق عباده، كون الفوق أشرف الجهات وأليَق بكمال الصمدية خُوطِبْنا به. ولهذا تعلقت القلوب بالسماء، ورُفعت الأيدي إليها بالدعاء، ودلت عليها إشارات الخَرْسَاء، وإليها كان معراج سيد الأنبياء. وكذلك فافهم في سائر الأسماء، إذ كل[٢] اسم له ضد، والله تعالى لا ضد له من حيثه، فأسماؤه من حيثنا؛ وكل ما تَصوره العقلُ [١٥١ظ] فهو غيره، / لأنه لا تَحصره المحدَثات ولا تعلُّقَ لها بالذات. ويجوز أن يقال: هو داخل العالم بمعنى القدرة، وخارج العالم بمعنى التقديس. وأما الحقيقة فوراءَ الأقوال والتصورات التي لا تقال. وليس لقائل أن يقول: يحتمل أن يكون قبل العالم عالم أو عوالم وكذلك بعده وإن جاز في الذهن أو الوهم، إذ الكل عالَمٌ له أول[٣] وآخر، فما قبل العالم إلا الله ولا بعده إلا الله قبليةَ الإبداع لا قبلية الذات، كما أن ما فوقه إلا مبدعه فوقيةَ العظمة لا فوقيةَ الذات والمكان. وهو الحكيم الخبير.

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ (سورة يونس، ١٠/١٠٧).
٢ ن: إذ وكل.
٣ ش ك - أول، والمثبت من م.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ١٩﴾

قل أيّ شيء أكبر شهٰدة، أي من شهادة الله، **قل الله شهيد بيني وبينكم**. وقوله: **وأوحي إليّ هٰذا القرءان**، بمعنى[1] وقد أوحي، وهو منسوق بقوله: **قل أيّ شيء أكبر شهٰدة**، أي وقد أوحي إليّ هذا. وقوله: **قل الله**، منسوق بقوله **قل: أئنكم لتشهدون**. ولكنه قدم ذكر الموحي على ذكر الموحى ترتيبا وتنبيها على أحسن الكلام. **لأنذركم به ومن بلغ**، أي وأُنذر مَن بلغ الوحي،[2] لأنه عليه السلام نذير لكل بالغ، ولكن من البالغين من لم تَصله الدعوة وإن كان أهلا لها فلا يكون مؤاخَذا. **أئنكم لتشهدون أن مع الله ءالهة أخرىٰ. قل لا أشهد قل إنما هو إلٰه وٰحد وإنني بريء مما تشركون.**

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠﴾

وقوله: **الذين ءاتينٰهم الكتٰب**، التوراة، **يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**، يعرفون القرآن، أي لا يشكّون في صحته. وهو المذكور في الآية التي قبلها، فعطف عليه بقوله: **يعرفونه**. ويريد بذلك علماءَ اليهود. ولهذا قال فيما سيأتي: وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ،[3] يشير إلى القرآن. وأما ما جاء في البقرة[4] مِن مِثلِ هذه الآية فالإشارةُ بها إلى الحق، والمراد[5] به اتباع القبلة، وههنا إلى القرآن الذي جحده بعد المعرفة علماءُ اليهود. وعرّفَنا أن ٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟[6] كما بيّناه هم ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟.[7] وأوضحَ[8] ذلك بقوله: **الذين ءاتينٰهم الكتٰب**. وقال بعد[9] ما تقدم مثلُه بلفظه ليتحقق المقصود به هو قوله ثانيا: **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**، بل يكتمون الحق وهم يعلمون.

---

[1] ش: يعني.

[2] جميع النسخ: الحكم.

[3] الآية ٢٥ من هذه السورة.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٤٦/٢).

[5] ن: المراد.

[6] الآية ١٠ من هذه السورة.

[7] الآية ١٢ من هذه السورة.

[8] ك ن: خسروا وصح.

[9] ش: بعده.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

ولهذا قال بعده: ومن أظلم، وتمام الآية، وتقدير الكلام وقل: من أظلم، فجاءت بالواو، لأنها من كلامٍ أمر أن يقوله،[1] وهو معطوف على قوله أولا: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ،[2] وقل: من أظلم. وأما في الموضع الذي وردت بالفاء[3] فهي بصورة الاحتجاج، أي إذا كان كذا فمن يكون أظلم، ممن افترىٰ على الله كذبا أو كذب بـٔايٰته، أي بعد ما قد عرفها كما يعرف ولده، فلا يشك في معرفته له. إنه لا يفلح الظّٰلمون.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

ويوم نحشرهم، كلَّ مكذِّب ومفترٍ، جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون. وهذا الكلام وما بعده يدل على أن بعض الناس وإن لم يكن ظاهرا مع المشركين هو منهم وهو يحسب أنه من المهتدين، لكن يلزم عن أفعاله ذلك. ودليل ذلك قوله: ثم لم تكن فتنتهم، أي التي فتناهم بها عقابا على كفرهم وشرْكِهم في الدنيا، إلا أن قالوا، في الآخرة: واللهِ ربّنا ما كنا مشركين، إشارة إلى أنهم في الدنيا كانوا يعتقدون أنهم غير مشركين، كما قال: وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ.[4] وقوله: فتنتهم،[5] منصوبة بخبر كان. والمعنى لم تكن ضلالتهم التي أضللناهم بها في الدنيا إلا اعتقادَ هذا القول الذي قالوه يوم السؤال. فافهم هذه الجملة، فإن المجبرة والجهّال ضلوا بها.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

انظر كيف كذبوا علىٰ أنفسهم، في نفس الأمر وهم يظنون أنهم صادقون، لأنهم كانوا معاقَبين على ذنوبهم بالفتنة المشارِ إليها، فكَذَبوا على أنفسهم في الدنيا،

---

١ ك ن: أن يقول.

٢ الآية ١٩ من هذه السورة.

٣ انظر مثلا: سورة الأنعام، ١٤٠/٦؛ وسورة الأعراف، ٣٧/٧؛ وسورة يونس، ١٧/١٠.

٤ ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٠/٧). وانظر أيضا: سورة الزخرف، ٣٧/٤٣.

٥ اختلف في ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾، قرأ نافع وأبو عمرو وشعبة من غير طريق العليمي وأبو جعفر وخلف في اختياره بتاء التأنيث بالنصب خبر مقدم، و﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ اسم مؤخر. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص بالتأنيث والرفع على أن ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ اسم تكن ولذا أنث الفعل و﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ خبرها، وافقهم ابن محيصن. وقرأ أبو بكر من طريق العليمي وحمزة والكسائي ويعقوب بالتذكير والنصب وهي أفصح، وافقهم المطوعي (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٦١).

وضل عنهم، في الأخرى،[١] ما كانوا يفترون. ومثله أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ،[٢] قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا.[٣] وإذا ضل مَن به يكون الهدى فكيف بالهدى.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ومنهم من يستمع إليك، أي يَقصد[٤] أن يَسمع لا ليَتقبل بل ليعارِض، و"مَن" تصلح للفِراد والجمع، فهي بمنزلة الذي والذين، فهنا جاءت، مع[٥] "يستمع" دالةً على الفِراد، وفي يونس مع قوله: يَسْتَمِعُونَ[٦] دالةً على الجمع. **وجعلنا على قلوبهم أكنة**، من الكِنّ عقابا لهم كراهةً ومنعًا، **أن يفقهوه وفى ءاذانهم وقرا**، عن سماعه كما يجب. **وإن** / **يروا** [١٥٢و]
كل ءاية لا يؤمنوا بها. حتىٰ إذا جاءوك يجٰدلونك يقول الذين كفروا إن هٰذا إلا أسٰطير الأولين، جمع أسْطار، وأسطار جمع سُطور، وسطور جمع سَطْر من الخط. وغيّر اللفظ لتغير المعنى المقصود به، لأنه بوزن أكاذِيب جمع أُكْذُوبَة مثل أَحَادِيث جمع أُحْدُوثَة. والذي ظهر لي أنها في اللفظ والمعنى مِثلُ أقاصيص أي قِصصهم وأخبارهم، ودليله: وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ،[٧] فليس المراد الكذب، يقولون ذلك، **وهم ينهون عنه**، قولا، **وينأون عنه**، فعلا، أي يبعدون. **وإن يُهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون**.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ولو ترىٰ إذ وقفوا، وَقَف من الوقوف لازمٌ، و"وقف المدرسةَ" متعدٍّ، **وقفوا على النار**. هذا من أعجب النظم، لأن ترىٰ، فعلُ مستقبَلٍ، وإذ، موضوعة للماضي، كما أن[٨] "إذا"

---

١ ن: في الآخرة.
٢ الآية ٢٢ من هذه السورة.
٣ ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٧/٧).
٤ جميع النسخ: يقتصد..
٥ ن: جاءت من.
٦ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة يونس، ٤٢/١٠).
٧ ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (سورة الفرقان، ٥/٢٥).
٨ ش – أن.

موضوعة للمستأنَف، وقوله: وُقِفوا، فعلٌ واجب، وإنما جاز هذا لأن كل ما هو كائن مما لم يكن بعدُ فكأنه عند الله[1] تعالى قد كان ذلك لِسبقِ علمه به، فأخبر به قبلُ كالإخبار[2] بعدُ تنبيها على تحقيق كونه هكذا ولا بد. فقالوا يٰليتنا نرد ولا نكذب بـٔايٰت ربنا ونكون من المؤمنين، أي في هذه الكرَّة.

﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾

قال الله تعالى: ليس كما قالوا، بل بدا لهم، جزاءً، ما كانوا يخفون من قبل، مما استحقوا به النارَ فقالوا هذا القول. ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكٰذبون.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾

ولو ترىٰ إذ وقفوا علىٰ ربهم، أي على عذاب ربهم. لهذا بعده: قال أليس هٰذا، العذاب، بالحق؟ قالوا بلىٰ وربنا. قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، فحَذَف العذاب أولا إذ ذكره أخيرا.

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾

قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتىٰ إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يٰحسرتنا علىٰ ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم علىٰ ظهورهم. المقصود شديد الوعيد على سبيل التمثيل والتصوير، أي يأتي بصورة لا يمكن إخفاؤها، ولأن ما يُحمل على الظَّهر يكون ثقيلا. ألا ساء ما يزرون.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾

ثم قال بواو الحال: وما الحيوٰة الدنيا إلا لعب ولهو، لأنه لا حقيقة لها بعد انقضائها بل ينقضي اللهو واللعب. وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون.

---

[1] ن - الله.

[2] ك ن: قبل الإخبار.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾

قد نعلم، قد تقدم مثلها، إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولٰكن الظٰلمين بـٔايٰت الله يجحدون.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾

ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا علىٰ ما كذبوا وأوذوا حتىٰ أتٰهم نصرنا ولا مبدل لكلمٰت الله، وهذا من جملة المعجز لكل نبي. ولقد جاءك من نبإ المرسلين، في هذا القرآن ما يدلك على ذلك.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾

وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء، وهو مشتق من السلامة. والمعنى تَصْعَد به في السماء أي السموّ. ولهذا لم يقل: "إلى"، لأنه لا يُصعَد إليها بسلَّم بل فيها، وهو ضربُ مَثَل. فتأتيهم بئاية، كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ،[1] بتلك الآيات فافعل. ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، أي إجبارا وكرها ولا يثابون إلا إذا اهتدوا طوعا، فإن الكره ينافي غرضَ التكليف. فلا تكونن من الجٰهلين.

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٣٦﴾

وقوله: إنما يستجيب الذين يسمعون، أي يَتقبَلون. والموتىٰ يبعثهم الله ثم إليه يرجعون، فيجازيهم. وفيه إشارة إلى أن الموتى ههنا هم الأحياء الذين لا يستجيبون في الدنيا. فضرب بالموتى مثلا للكفار، وبيّن للنبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يقدر على أن يهدي الكفار، كما لا يقدر[2] على أن يبعث الموتى. فلهذا قال: يبعثهم الله، لا غيره.

[1] ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٥).

[2] ك – على أن يهدي الكفار كما لا يقدر. صح هـ

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧﴾

وقالوا لولا نزل عليه ءاية من ربه قل إن الله قادر علىٰ أن ينزل ءاية، كما اقترحتم. **ولٰكن أكثرهم لا يعلمون**، لِم لا يُنزّل آية. ومن ذلك أنه تعالى لولا أنزلها كان كما قال:[1] إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ.[2] ولو فعل تعالى ذلك لم يكن لهم أجر. وإنما أراد أن يبلوهم أيهم أحسن عملا. وأيضا لو نزّل آية فلم يؤمنوا لقُضِي الأمرُ باستئصالهم، ثم لا يُنظَرون،[3] بل كان يُهلكهم عاجلا بتكذيبهم، وتلك سنة الله تعالى.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾

ولما قال تعالى: إنه قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً[4] ذكر من أفعاله سبحانه التي هي مشهودة[5]
[١٥٢ظ] لكل رَاءٍ[6] ما فيه آية بل / آيات فقال: **وما من دابة فى الأرض ولا طٰئر يطير**. وقوله: **بجناحيه**، ليَفصله عن المخلوقات غير الحيوان كالريش وغيره مما يكون منه شبه الطيران وإن لم يكن بجناحين. **إلا أمم أمثٰلكم**، ذكرناه في مواضع[7] أخر.[8] **ما فرطنا فى الكتٰب من شيء**، يشير بالكتاب ههنا إلى قوله تعالى في الأنعام [بمعنى] كل في كتاب مبين،[9] وهو أيضا ما أشار إليه بقوله:[10] فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا.[11] وقد بيّنا أنه العلم السابق بما يُحدثه الله تعالى فيكون المحدَث أيضا كتابا مَا.[12] لهذا لما ذكر الدواب والطائر قال: **ما فرطنا فى الكتٰب**، إشارةً إلى هذا العالَم، والله أعلم؛ فإنه كتاب الوجود الذي كتبه الله بالأمر،

---

[1] ن – قال.

[2] سورة الشعراء، ٤/٢٦.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٨ من هذه السورة.

[4] من الآية السابقة.

[5] ك ن: مشهورة.

[6] ك: داء.

[7] ش ك: في موضع.

[8] انظر مثلا: سورة هود، ٤٨/١١؛ وسورة النحل، ٤٩/١٦، ٦١؛ وسورة النور، ٤٥/٢٤؛ وسورة فاطر، ٤٥/٣٥.

[9] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٥٩ من هذه السورة.

[10] ش – كل في كتاب مبين وهو أيضا ما أشار إليه بقوله، صح هـ.

[11] ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (سورة الحديد، ٢٢/٥٧).

[12] ش ك: كتاب تاما.

وهو الكتاب المبين فعلا والقرآن هو الكتاب المبين قولا. ولما كان كتاب القول مستوعِبا سائرَ ما في كتاب الفعل جاز أن تعاد الإشارة إلى أحدهما في الواحد، وإلى الآخر في الآخر؛[١] كلاهما في العلم الأزلي الذي هو الإمام في القول والعمل. وبيان الحجة فيما قلناه من أن الكتاب قد يريد به الوجودَ قوله في مثل هذه الآية: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا، إلى قوله: كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ.[٢] فإنك إن أشرتَ إلى الدواب وجودا ففي العالَم، وقولا ففي القرآن، وعلما ففي الأزل، والله أعلم. ثم إلىٰ ربهم يحشرون، ولم يذكر لهم جزاء، والله أعلم بخلقه. وأيّ آية أعظم من هذه الآية الدالة على عظم القدرة والعلمِ لو علموا. ولهذا قال: وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.[٣] فالمعنى ما قدمناه، أي لا يَعلمون أن مَن يَقدر على إيجاد هذا العالَم كلِّه على ما هو عليه من الأحكام هو بلا شك يقدر[٤] على أن يُنزّل آية تجمعهم قهرا على الهدى. ولو اعتبروا مصنوعاتِ البارئ سبحانه وقدرتَه لكان لهم في ذلك ما يهديهم بالتفكر والاعتبار. فهم لا يعلمون أن الآيات من الله قد جاءتهم وأن مَن قدَر على ما فعله يَقدر على ما يشاء.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

ولمّا بيّن ما بيّنه بقوله: وَمَا مِن دَآبَّةٍ،[٥] وتمامِه الذي غَفَل عن رؤيته بعين التعقل أكثرُ الناس أتبعه بقوله: والذين كذبوا بـٔايٰتنا صم وبكم فى الظلمٰت، أي لا يرون ما خلقنا ولا يسمعون ولا يفقهون ما أرسلنا به الرسلَ، بل هم مع وجود نور الهدى منا في ظلمات الضلال منهم. وقوله: من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله علىٰ صرٰط مستقيم، إخبار عن حالهم الذي هو جزاء أعمالهم، وأعمالهم هي المذكورة أولا بقوله: والذين كذبوا.

[الهَدْيُ والإضلال]

وقد ضربتُ لك مثلا يَفهمه من ضَعُف استعداده عن قبول ما بيّنتُه في مثل هذه الآية، فافهمه. وهو افرُض أن مَلِكا استأجر أجيرين،[٦] وجعل لهما عملا يَعْمَلانِه،

---

[١] ن + في الآخر.
[٢] ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة هود، ٦/١١).
[٣] من الآية السابقة.
[٤] ن: بقدر.
[٥] من الآية السابقة.
[٦] ن: أجيريه.

وفرض لهما بعد رزقهما أجرةً على عملهما. وسجنهما في دار فيها من المنافع سائرُ ما يحتاج إليه مَن دخلها، وشرط لهما وعليهما شرطا فقال: إن أصلحتما عملَكما جزيتُكما بصلاحِ مثلِه، وآتيتُ كلَّ واحد منكما دينارا مثلا، وإن أفسدتما عملكما جزيتكما بعملكما فسادا كذلك وضربت كل واحد منكما سوطا. فاعملا ما شئتما، فمهما عَمِلتما جُزِيتما به. فأصلح أحدهما وأفسد الآخر فيما عملاه. فأما المصلِح فإن الملك ادّخر له الدينار عنده لاستغنائه عنه في تلك الدار، ثم عجّل له مكان الأجرة -إن استعمله في عمل يستحق عليه- عشرةَ دنانير. فلما عمله فعل معه كالأول وادخر له العشرة عنده واستعمله فيما أجْرُه مائةٌ. ثم كرر ذلك الفعل معه إلى أن أخرجه من تلك الدار، فجعله أميرا وآتاه من الإنعام بعد ما أوصل إليه ما استحقه بعمله ما لا يمكن أن يَنفد طولَ أيام حياته.

وأما المفسد فإن المَلِك عكس له الأمر وفعل معه كذلك، فادخر له ضرب سوط واحد واستعمله فيما إن عمله استحق عليه ضربا مقدار عشرة[1] سياطٍ.[2] فلما أفسد عملَه ثانية كرر ذلك عليه واستعمله فيما يستحق من أجله مائةَ سوطٍ. وفي كل مرة يمهله وينهاه ويعده ويتواعده. وقد كان أخبره بما سيفعله معه من قبل. ثم لمّا استمر المفسدُ في فساده بعد ثلاث مرات عاقبه المَلِك بأن أبقاه على حاله، وأمدّه عقابا بما يُعِينه على الفساد وشغلِه على رؤية الفساد بحيث لا يُمكنه إصلاحُه. فلم يزل كذلك إلى أجل لا
بد أن يَخرج فيه من تلك الدار فأخرجه ووضعه في / مكان ضيقٍ وأغلالٍ وعذاب في [١٥٣و]
فقرٍ دائم لا ينقضي أبدا. وضربه ما كان قد استحقه في تلك الدار حين أمهله، فلم يزده الإمهالُ إلا فسادا فيها إلى أن خرج منها.

فدارُ العملِ هي الدنيا، وموضع الجزاء هي الآخرة، والمَلِك هو الله سبحانه، والمستأجَرون هم عباده. فالذي عمل خيرا جعل الله ثواب عمله في الدنيا عملا آخر يستحق به ثوابا أضعافَ الثواب الأول. وكرر له ذلك بأن جعل ثواب الأعمال من الخير. وكذلك جعل للآخَر عقابَ الأعمال أعمالا من السوء. وكرر له ذلك وأعماه عن رؤيته عقابا له فهو من الصُمّ البُكْم، إذ شاء الله أن يعاقبه بالإضلال وأن يَمده في طغيانه. فنظر الجاهلُ إليه فرأى أن الله تعالى قد أضلّه وقد أخبر عن نفسه سبحانه بذلك.

---

[1] جميع النسخ: عشر، والمثبت من م.
[2] ن: سوط.

فلم يَعلم الجاهل أن ذلك الإضلال جزاءٌ ولم يَفقه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[١] فغلط واعتقد أن ذلك أراده[٢] الله به أولا بغير ذنب، ولم يتدبر قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾،[٣] فنسي الشرط الأول الذي أوجب العقابَ وعمي عن قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.[٤] فضلّ فيما فهم وأضل بما غَلِط، وانطوى باطنُه على عقيدة غير صالحة في ربه سبحانه؛ فهو يَنسِبه إلى العدل بلسانه وإلى الظلم بقلبه لنفور العقول بجبلّتها عن استحسان الظلم. وربما استنبط من المغالطات ما يردّ به بعض الجهال وإن كانت سريرته تنفر من تقوّله الذي أظهره، والله ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾.[٥]

[اختلاف الفِرَق الإسلامية]

ولما اختلفت الفِرَق خالف بعضهم بعضا بغيا بينهم وكراهةَ بيانٍ أن يُنسَب أحد من فرقة إلى آخرين من فرقة أخرى. فإذا سمع الذي ينتسب إلى السنة كلاما يُنسب إلى الشيعة[٦] نفر منه تقليدا حتى صار ذلك النفور طبعا وعادة من غير تأمل، وكذلك الآخر الذي يُنسَب إلى فرقة أخرى من كل فرقة وفرقة. وكفّر[٧] بعضهم بعضا حتى صار بعضهم عند بعض في أكثر الأمر كاليهود والنصارى. وأكثر الخلق وراء النقل لا العقل. فاستمر ذلك الضلال حتى صار أمرا[٨] مألوفا ودينا معروفا. ونُبذت العقولُ واتُّبِعَ المنقولُ المخالف للمعقول. فإن ساقهم سائقٌ حينا مّا بنصّ أو عقلٍ إلى ضد ما هم عليه نفروا بالطبع والإلف نفورا إلى ما جُبلت عليه طباعهم، وكفّروا ذلك[٩] الداعي لهم إلى الحق وعملوا على إتلافه إن لم يَتَلافَهم[١٠] بأن[١١] يزيدهم مما هم فيه

[١] سورة محمد، ١/٤٧.

[٢] ك ن: أرادة.

[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢٦/٢).

[٤] الآية ١١٠ من هذه السورة.

[٥] ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ (سورة طه، ٧/٢٠).

[٦] الشيعة: أشياع الإمام علي بن أبي طالب وآل بيته. قالوا بأن عليا أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان، ومن هنا فإن الخلافة بين الشيعة وأهل السنة خلاف سياسي في الأصل. وفي ما عدا ذلك لا يختلف الشيعة عن السنة إلا في مسائل قليلة تتصل بالاجتهاد، وفروع العبادات والمعاملات وتفسير بعض الآيات القرآنية. والشيعة أنفسهم ينقسمون إلى فرق، أهمها الشيعة الإمامية أو الإثنا عشرية، والشيعة الإسماعيلية أو السبعية، والشيعة الزيدية (المورد لمنير البعلبكي، «الشيعة»).

[٧] ش – وكفر، صح هـ.

[٨] ك ن: صار طبعا.

[٩] ك ن – ذلك.

[١٠] جميع النسخ: لم يتلافاهم.

[١١] ن: فإن.

حتى عادوا مما هم فيه[1] من هذه الصورة بعينها، كما قال تعالى: فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ،[2] وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا،[3] وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ،[4] وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ.[5] ومن جملة البلية أنهم اعتقدوا أن لا كسب للإنسان كأنهم ما قرءوا: لَهَا مَا كَسَبَتْ[6] وأمثالها.[7] ومنهم من يقول بالكسب ولكنه يئول إلى الجبر. وما هذا إلا نظر مَن قَلَبَ الله نظره وفؤادَه فصار يُبصر مقلوبا ويَفهم بفؤاده مقلوبا،[8] كما قال تعالى: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ،[9] وكقوله:[10] مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا.[11] وصدق فيهم قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَن قبلكم شِبْرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جُحرَ ضَبّ تتبعونه»، قيل: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟».[12] فصدق الله وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم. فاحترز أنت وَأَصْغِ، يا سامعَ القول، إلى الفعل منك في كل حال إن ترى مِثْلَهم بحال فتعمى وترى غيره من الأحوال. واحذرِ الجزء فهو كلّ لمن ظل[13] بجزَّة يجره[14] المتوالي.[15] فأْتَئِدْ[16] واجتهد وجاهد تُشاهِدْ في جميع الأقوال والأفعال. وزِنْ الكلَّ بالكتاب وخُذْ نصحي ودَعْ عنك كلَّ قيل.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وقال: قل أرءيتكم، تقول العرب: أرأيتَك يا فلان، بمعنى أرأيت نفسك، فالتاء في أرأيتك والكاف لمخاطب واحد، ويقال أرأيتُكم، والمعنى أرأيتُموكم. وإنما جاء

---

١ ش – حتى عادوا مما هم فيه، صح هـ.

٢ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ١٢٥/٩).

٣ سورة المائدة، ٦٤/٥، ٦٨.

٤ الآية ١١٠ من هذه السورة.

٥ سورة الأعراف، ٣٠/٧؛ وسورة الزخرف، ٣٧/٤٣.

٦ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ (سورة البقرة، ١٣٤/٢، ١٤١).

٧ انظر: سورة البقرة، ٢٨٦/٢.

٨ ش – ويفهم بفؤاده مقلوبا، صح هـ.

٩ الآية ١١٠ من هذه السورة.

١٠ ن – وكقوله.

١١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (سورة النساء، ٤٧/٤).

١٢ صحيح البخاري، الأنبياء ٥٠، والاعتصام ١٤؛ وصحيح مسلم، العلم ٦.

١٣ ك – لمن ظل، صح هـ.

١٤ ن – يجره.

١٥ أي احذر الخطأ ولو كان جزءا قليلا، فإن الجزء يكون كلّا للذي تجره الأخطاء المتوالية.

١٦ أي تَرَزَّنْ وتأنَّ وتَمَهَّلْ.

/ بصورة مَن كأنه قال: أَرَأَى[1] كلُّ واحد منكم إياكم. قال الكرماني: هي كلمة استفهام [١٥٣ظ] وتعجبٍ ليس لها نظير؛ فالكاف فيها حرف خطاب لا محلَّ له من الإعراب، والتاء قبلها ضمير الفاعل لزم طريقة واحدة استثقالا للجمع بين علامتي خطاب. ومعناه تَنَبَّهْ وتفكرْ.[2] **إن أتىٰكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون**، اخبروني، **إن كنتم صٰدقين**، في الإخبار.

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

ليس تدعون سواه، بل، **إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه**، أي متضرعين إليه سبحانه، **إن شاء**، أي لأنه إنما يكشف بحسب ما تقتضيه الحكمة، فتارة بالعدل وتارة بالعفو والفضل لا بمجرد الدعاء منكم، وقد حق القول. فهذا معنى قوله: **إن شاء وتنسون ما تشركون**، به تعالى.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ولقد أرسلنا إلىٰ أمم من قبلك، فكذبوا، **فأخذنٰهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون**، تائبين إلينا مؤمنين برسلنا.[3]

﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

فلولا، فهلا، **إذ**، حين، **جاءهم بأسنا تضرعوا**، راجعين إلينا عن أعمالهم. **ولٰكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطٰن ما كانوا يعملون**، من السوء. فقد بيّن سبحانه أن أخْذَه لهم بالبأساء والضراء إنما هو رحمةٌ لهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾.[4] فافهم هذا المعنى ولا تغفلْ عنه في أمورك كلها. وتضرع إلى الله تائبا عند كل بأساء وضراء، واقرأ هذه الآية وافهم جيدا ما المراد بها منك، واجتهدْ أن تشهد وقوعَ البأساء عند وقوع موجِبِها من فعلك حتى كأنها قد وقعت بك. فإن سبقتَ بالتوبة والرجوع إلى الله عفا الله عنك ورفع عنك السوء،

---

[1] ش: أراء.

[2] البرهان للكرماني، ص ١٧١.

[3] ن: برسلك.

[4] من الآية السابقة.

لأن وقوعه بك لأمر قد سبقت به. وهذا مستنبَط من قوله تعالى: إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ.[١] وهذا أمر مُجرَّب، لا شك فيه. فمن أهمل التوبة عند الذنب وتناسى ذكرَ البأساء لعله يتضرع.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

فإن أبى ذلك وقسا قلبه كان مستدرَجا مع الذين قال الله تعالى في حقهم: فلما نسوا ما ذكروا به، أي من البأساء التي أصبناهم بها لعلهم يتضرعون. والمعنى أن يذكروا الله بالتضرع إليه ويذكروا العذابَ الأكبر بالعذاب الأدنى،[٢] فإذا لم يفعلوا، فتحنا عليهم أبوٰب كل شيء، يفرحون به من الدنيا. وانظر إلى قوله: فتحنا، الذي يدل على[٣] فتح منه وعملٍ منهم على ما فتح لهم بابَه ليَشغلهم به عن ذكره عقابا لهم في الدنيا بما يستحقون عليه عذاب الأخرى. ولهذا بعده: حتىٰ إذا فرحوا بما أوتوا، ولم يقل ههنا: بما آتيناهم[٤] وإن كان هو المؤتي سبحانه لكنه نبّه على أن هذا الإيتاء ههنا هو إيتاءُ شرٍّ لا خير، فهو من قِبَل أنفسهم وبسوء أعمالهم، أخذنٰهم بغتة، أي بالعذاب لتكون مصيبتهم أشد بسبب مفارقتهم ما فرحوا به. قال عليه السلام: «إذا رأيت الله يعطي العباد ما يسألون على معاصيهم فاعلم أن ذلك استدراج منه».[٥] وإذا أراد الله بقوم بقاءً ونماء رزقهم القصد والعَفاف. وقوله: فإذا هم مبلسون، قيل: الإبلاس فرط الحزن والكآبة مع الصَّمْت، وقيل: أصله من البلاس.[٦]

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله: فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العٰلمين. دابر، أي آخر ما بقي منهم، ودابرة الإنسان عُرْقُوبُه.[٧] والحمد بعد القطع إنما هو ممن بقي فهو غير ظالم. ولا شك أن من أجلّ النِّعَم استئصال أعداء الله عن آخرهم، فحمدوه لهذه النعمة.

١ سورة المائدة، ٥/٣٤.
٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (سورة السجدة، ٣٢/٢١).
٣ ك ن – على.
٤ ن – بما آتيناهم.
٥ جامع البيان للطبري، ٩/٢٤٩.
٦ البلاس: المسح، وهو الكساء من شعر (لسان العرب، «بلس»).
٧ العُرْقوب: عَصَبٌ مُوَتَّر خلفَ الكعبَيْن (لسان العرب، «عرقب»؛ وتاج العروس للزبيدي، «عرقب»).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قل أرءيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصٰركم وختم علىٰ قلوبكم من إلٰه غير الله يأتيكم به، أي بما أخذ. انظر كيف نصرف الآيٰت. التصريف للشيء إرادة على الوجوه المختلفة المتكاثرة بحيث يكون كلُّ واحد منها يُقوّي ما قبله في الاتصال إلى المطلوب. ثم هم يصدفون، أي يُعرضون، لكنه مبالغة في الإعراض، كما تَصدِف الصَّدَفة[1] شيئا فتَحجُبه عما فيها أبلغَ حَجْبٍ بحيث لا يصل إلى داخلها شيءٌ منه. وكذلك بواطن هؤلاء لا يصل إليها من آيات الله شيءٌ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قل أرءيتكم إن أتىٰكم عذاب الله بغتة أو جهرة، الجهرة ما يجيء مع سبق علامةٍ، فيأتي وقد / عرفوه، فهو غير خفي عنهم حتى لو أمكنهم الاحترازُ لاحترزوا.[2] والبغتة [١٥٤و]
هو ما يأتي من غير سبقِ علامة. هل يهلك إلا القوم الظّٰلمون.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

والذين كذبوا بـٔايٰتنا، وهو قول عام لأي إنسان، كذَّب بأيّ صورة في كل زمن. يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون. وهذه الآية نصيب اليهود منها أوفرُ مِن نصيب النصارى، لأن تكذيبهم أشد وهم يعلمون الحق ويكتمونه.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك،

---

[1] الصدفة: غلاف اللؤلؤ ونحوه (لسان العرب، «صدف»).

[2] ك ن - لاحترزوا.

هو من المَلْكَة[1] وجاء للمبالغة بوزن الفعل الماضي، كقولك: رجل صَنَعٌ مبالغة في كثرة صنائعه. ولهذا قيل: إن التسبيح من الملائكة يجري مجرى التنفس من بني آدم. ودليله قوله تعالى: يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ.[2] وأصل المَلاك من مَألُك. والمَألَكَة في اللغة الرسالة[3] فتكون الملائكة رسلا، جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا.[4] والأول هو الأصل. إن أتبع إلا ما يوحىٰ إلىّ قل هل يستوى الأعمىٰ، عن سبيل الهدى، والبصير أفلا تتفكرون.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

وأنذر به، الضمير عائد على قوله: يُوحَىٰٓ إِلَىَّ.[5] والمعنى قل وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم ليس لهم من دونه ولىّ ولا شفيع لعلهم يتقون.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوٰة والعشى يريدون وجهه. قال الجرجاني في كتابه المعروف بنظم القرآن،[6] وله فيه حجج بالغة في ترك الإجماع، قال: إن من النظم أن يذكر مبتدأين مختلفين في المعنى مجموعا بينهما، ثم يُرصِد لهما جوابين مختلفين في المعنى مجموعا بينهما، فيردّ بالعبرة إلى كل مبتدأ حقَّه من الخبر الذي[7] تقتضيه،[8] كقوله تعالى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوٰة والعشى يريدون وجهه، هذا نهي مبتدأ خبره، فتكون من الظٰلمين، لأنه مطابق له. وبعده قوله: ما عليك من حسابهم من شيء، هذا نفي خبره، فتطردهم، ولهذا كان منصوبا، وتقديره فلِمَ تَطردهم إذا كان كذلك. فكأنه قال: ما عليك من حسابهم من شيء حتى أنت تَطردهم من أجل ذلك.

---

١ ك ن: من الملائكة.

٢ سورة الأنبياء، ٢١/٢٠.

٣ انظر: لسان العرب، «ملك».

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ (سورة فاطر، ٣٥/١).

٥ من الآية السابقة.

٦ لم أجد هذا الكتاب.

٧ ن: التي.

٨ ك: تقتضيه.

فأخّر لأجل الوِزان. وأقول: إنه[١] جمع ذلك ومثله لحكمة فبين[٢] لها مثالا هو قوله تعالى: وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ، ثم قال: لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ.[٣] يريد بالأول الليل وبالثاني النهار، فجمع لمشاركة[٤] تقع بين الليل والنهار في صفتيهما وإن كان الأغلب على كل واحد صفةً. فافهم ذلك. ودليله قوله: وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ، ثم قال: وَٱلنَّهَارِ، وقوله: وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ،[٥] أي فيهما. واعلم أن هذه الآية مطلقة ويَدخل فيها ما ذُكر في أسباب النزول[٦] من جميع الوجوه وإن اختلفت الروايات وتعددت الأشخاص. وإنما سماهم الله بهذ الإسم مدحا لهم، وليعرّفنا وصْفَهم ووصْف مَن لا يجوز أن يُطرَد ولو سَخَر به أهل الباطل والجهال.

وقوله: **ما عليك من حسابهم من شيء،** أي حتى تَطردهم لأجل ذلك، **وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظّٰلمين،** لأن هؤلاء قد آمنوا لكنهم عند الكفار من الأراذل. ومثل هذا المعنى قوله: قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ، قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، أي من قبل الإيمان؛ وذكر الحساب كما ذكره ههنا فقال: إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ. ثم ذكر لفظ الطرد هناك كما ذكره ههنا فقال: وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.[٧]

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وقوله: **وكذٰلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا،** [اللام] لام العاقبة والصيرورة، أي ليقول المَفتونون عن المؤمنين المستهزَءِ بهم: **أهٰؤلاء منّ الله عليهم،** بالإيمان، **من بيننا،** لِما عندنا ولنا من العقل والعلم والمال والنسب وغير ذلك؟ وكان الجواب عن قولهم[٨] محذوف تقديره: نَعَمْ منّ الله عليهم. ثم وصفهم أخيرا كما وصفهم أولا فقال: **أليس الله بأعلمَ بالشٰكرين،** أي بمن إذا أنعم عليهم شكروا. والفتنة ههنا الاختبار لا العقاب.

١ أي الله تعالى.
٢ ك: نبين.
٣ سورة القصص، ٧٣/٢٨.
٤ ك ن: المشاركة.
٥ سورة الروم، ٢٣/٣٠.
٦ انظر مثلا: جامع البيان للطبري، ٢٥٨/٩-٢٦٤؛ وأسباب نزول القرآن للواحدي، ص ٢١٩-٢٢١.
٧ سورة الشعراء، ١١١/٢٦-١١٤.
٨ ن: من قولهم.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

ولمّا نهى الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم عن طرد المؤمنين أمَره بأمر ساوى فيه بينهم وبين بقية المؤمنين ممن هو مثلهم أو دونهم أو فوقَهم، فقال مطلقا: **وإذا جاءك الذين يؤمنون بئايٰتنا**، فالإشارة وإن كانت تختص / بهؤلاء فهي مُنبِّهة على المساواة. [١٥٤ظ] وأمره فيها بضد ما كان قد أراده الكفار منه فقال له: **فقل سلٰم عليكم**، وأصل السلام من السلامة، فافهمه في مواضعه، كقوله: لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ[1] أي السلامة من سائر الآفات، فافهمها. **كتب ربكم علىٰ نفسه الرحمة**، وهذا هو المكتوب أزلا لم يزل وهو أن تكون المغفرة من الله تَتْبَع التوبة من العبد، ومن أجل هذا ذكر الحساب فيما تقدم، وهو قوله: **أنه من عمل منكم سوءًا بجهٰلة**، اِفْهَمْ قوله: **بجهٰلة**، يا عاقل، **ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم**. ولما كان أكثرُ الخلق يَصْعُب عليهم فهمُ ما كُتب لهم في الأزل بيّن أن الأمر في المغفرة منه يرجع إلى العمل منهم، وأنه كذا كتب[2] على نفسه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

ثم قال: **وكذٰلك نفصل الآيٰت**. ثم عطف على قوله من قبل: لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ،[3] [قوله:] **ولتستبين سبيل المجرمين**. تقديره: من سبيل الكافرين، وأخّره للوِزان، ودل عليه بالواو العاطفة وبقوله في آخر الآيتين: **وكذٰلك**. وفي تأخيره فائدةٌ أخرى وهو أن الإنسان إذا لم يتب[4] ويُصلِح فقد استبانت له سبيلُه وعُلم أنه سلك مسلك المجرمين، وليس له أن يقول: كتب الله عليّ في الأزل هذا العملَ. فقد كذّبه الله وبيّن له ما الذي كتب وأنه رحمة. وإنما اشتبه على الجاهل ذلك لكونه سبحانه علم من العبد ما يعمل. وفرقٌ بيْن قول القائل: إن الله عَلم ما يَعمل العبد وبين قوله: إن الله عمل ما يعمل العبد، وهذا ظاهر.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، "من" ههنا لابتداء الغاية.

---

١ الآية ١٢٧ من هذه السورة.
٢ ك – كتب، صح هـ.
٣ الآية ٥٣ من هذه السورة.
٤ ك ن: لم يثبت.

ومعنى ابتداء الغاية أن يكون الكلام في أوله "من" وفي آخره غاية. قل لا أتّبع أهواءكم، إن اتبعتُها، قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، بعد ذلك أبدا.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ٥٧﴾

قل إني علىٰ بينة من ربي، أنه واحد وأنه أوحى إليّ هذا القرآنَ. والبينة[1] دلالة ظاهرة يبتغى بها ضدها ويَستقِرّ في الصدر من نور حقيقتها ما يُرفع به ظلمةُ التشكيك. وكذبتم به، أي بالله، ولهذا قبله: إِنِّى نُهِيتُ، وبعده: وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ.[2] ما عندى ما تستعجلون به؛ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ [ٱلْعَذَابُ].[3] إن الحكم إلا لله. يقص الحق، أي بالحق بيني وبينكم. وهو خير الفٰصلين.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ٥٨﴾

قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم، ولكنه عند الله. والله أعلم بالظٰلمين.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ٥٩﴾

وعنده مفاتح الغيب، جمع مِفْتَح بكسر الميم وهو المعروف، أو جمع مَفتح بفتحها وهو الخِزانة. ولفظ "المفاتح" يحتمل الأمرين والأولى أنها خزائن الغيب، لا يعلمها إلا هو، وهذا منسوق بقوله: وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ،[4] وهو دليل قوله: وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦ،[5] كما بيناه. ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها. وليس المقصود يَعلم حين سقوطها بل يَعلمها من كل وجه بكل اعتبار، ويشير إلى ورق الشجر وغيره مما له ورق. وقيل: العلم بالعلة علّةٌ للعلم بالمعلول. وهو سبحانه علةُ الكل فهو يعلم الكلَّ،[6]

---

١ ن: ولبنية.

٢ الآية ٥٩ من هذه السورة..

٣ سورة العنكبوت، ٢٩/٥٣.

٤ الآية ٥٠ من هذه السورة.

٥ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٥).

٦ ك - فهو يعلم الكل، صح هـ.

لأنه يعلم ذاته. وذكر الورق لأنه أعلى ما في النبات. ثم ذكر ضدَّه في الطرف الآخر وهو أسفل فقال: **ولا حَبَّةٍ فى ظلمٰت الأرض ولا رطب ولا يابس**، وهذا جامع لكل شيء من الحيوان والنبات والمعدِن وما يتألف من ذلك من كل جسم وعنصر. **إلا فى كتٰب مبين**، وهو العلم الأزلي.[1]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٦٠﴾

وهو الذى يتوفٰكم باليل، جعل التوفي بالليل والبعثَ بالنهار ليُذكِّرنا في كل يوم وفي كل ليلة بصحة الموت وصحة البعث. وجعل ما يراه النائم من المنام الصادق دليلا على صحة النبوة ووجودِ عالَمٍ آخر هو عالَم الغيب الذي تُشاهد به النفسُ ما تشاهده من ألم ولذة، والبدن مُلقًى كالميت.[2] فانتبه لِما أنت به. **ويعلم ما جرحتم بالنهار**، كسبت جوارحُكم. والذي يعلم لا شك أنه يجازي فليحذرِ العامل من شهادة جوارحه عليه بين يدي العالم. **ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم**، وذَكَر المسمى لأنه لا يمكن أن يؤخَّر. **ثم ينبئكم بما كنتم / تعملون**. [١٥٥و]

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾

وهو القاهر فوق عباده، فوقيّةَ العظمة لا المكان. **ويرسل عليكم حفظة**، ملائكة، وليس هم الذين يتوفَّوْن العبدَ، ولم يقل: لكم بل، **عليكم**، يحفظون الحسنات والسيئات، كقوله تعالى: وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ،[3] الآية. فافهم مثاني المعاني من الألفاظ، ومعاني المثاني من الحروف. **حتىٰ إذا جاء أحدَكم الموتُ توفته رسلنا**، أي رسلٌ من الملائكة آخَرون غير الحَفَظَة. ولهذا لم يقل: تَوفَّوه بل قال: رسلنا. ثم قال عن الحفظة:

---

١ ن: الأول.

٢ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا اقترب الزمان لم تكَدْ رؤيا المسلم تكْذِب، وأصْدَقُكم رؤيا أصدقكم حديثا. ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة. والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه...» (صحيح مسلم، الرؤيا ٦؛ وسنن الترمذي، الرؤيا ١). وانظر أيضا: كشف الخفاء للعجلوني، ١/٤٣٠.

٣ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ (سورة الانفطار، ٨٢/١٠-١٢).

وهم لا يُفرّطون، ولهذا زاد قوله: وهم، ولم يقل: ولا يفرّطون، أي بما هم عليه حافظون من أعمال الإنسان. فافهم أنهم لا يفرطون بشيء بدليل ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾[1] الآية. وهذا التأخير وإن كان للوِزان فهو أيضا لاشتراك[2] بين الحفظة والرسل الذين يتوفون العبد من أنهم لا يفرطون بشيء من الأمر. فافهم مثل هذه في مواضعها.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾

قل من ينجيكم من ظلمٰت البر والبحر، أي الشدائد التي يَحير فيها الإنسان فلا يهتدي إلى سبيل النجاة كما يَحير في الظلمات. ولهذا لم يقل: من يهديكم في، بل، من ينجيكم. فافهم مثل هذه وتدبر. وقوله: تدعونه تضرعا، وهو يدل على الجهر، وخُفية. لئن أنجىٰنا من هٰذه لنكونن من الشٰكرين.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قل هو القادر علىٰ أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم، لا يدل على منع المطر أو إرسالِ[3] حجارة من سجيل فقط، بل على كل عذاب يأتي من فوقُ ولو أنه حرُّ الشمس. أو من تحت أرجلكم، لا يدل على منع النبات أو الخسف وغيره فقط، بل ذلك منه. أو يلبسكم، وهو من اللَّبس الذي أصله من الالتباس كما بيّنا.[4] والمعنى ههنا، والله أعلم، أن كل قوم منهم يلتبس حالهم على أنفسهم فيظنون أن الحق معهم فيعودون[5] شيعة تقاتل الأخرى. ويحتمل، يَلْبِسَكم، على بعضكم بعضا، ولهذا استغنى بقوله: يلبسكم، لاحتمالها للمعنيين. وقوله: شيعا، أي فِرَقا يخالف بعضها بعضا. ويذيقَ بعضكم بأس بعض. انظر كيف نصرف الآيٰت لعلهم يفقهون.

---

[1] ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (سورة ق، ١٨/٥٠).
[2] ك: لاغتراك.
[3] ش ن: وإرسال.
[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ٩ من هذه السورة.
[5] أي فيصيرون.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ۝٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٦٧﴾

وكذب به، بالقرآن، وسوف يأتي فهو النبأ، كقوله تعالى: قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ،[١] **قومك وهو الحق. قل لست عليكم بوكيل.**

لكل نبإ مستقر، يَستقرّ فيه ذلك الخبرُ إما على حق أو باطل. وقيل: هو بمعنى المصدر، أي استقرارٌ إلا أن يكون المراد زَمَنَ أو حينَ يَستقر فيه. تقول: استقر في ذهن فلان كيت وكيت، أي تَحقق فلا يَتغير، وهذا هو الأَولى بدليل قوله بعده: **وسوف تعلمون،** أنه حق، لأن الباطل يذهب.[٢]

﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾

وإذا رأيت الذين يخوضون فى ءايٰتنا، أي بالباطل،[٣] **فأعرض عنهم حتىٰ يخوضوا فى حديث غيره. وإما ينسينك الشيطٰن فلا تقعد بعد الذكرىٰ مع القوم الظٰلمين.** وهذا الأمر له عليه السلام والمراد الأمة، لقوله: **وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولٰكن ذكرىٰ،** للذين يخوضون، **لعلهم يتقون.** وبيّن المراد بالخوض، وذكَره في الآية المماثلة لهذه، وهي قوله: وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ، وتمامُه إلى قوله: إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ.[٤]

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٧٠﴾

---

١ سورة ص، ٣٨/٦٧.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٨١).

٣ ن: أي الباطل.

٤ ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ (سورة النساء، ٤/١٤٠).

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا. وفي الأعراف[١] قدَّم اللهوَ، وفي العنكبوت[٢] أيضا، وجاء في الحديد[٣] كما في الأنعام. المعنى أن اللعب للصبيان واللهوَ للرجال. فههنا ذكر أنهم تَرَبَّوا في اللعب فاتخذوا دينهم من حال الصبي لَعِبا، ثم انقلبوا إلى الكِبَر فصار لهوا، وفي الأعراف كانوا كبارا. ثم قال: ولعبا، أي كما يلعب الصبيان، والباقي يُعلَم من هذا. وغرتهم الحيوٰة الدنيا. وقوله: ذَرْ، أي اتركْ وهو من بابِ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.[٤] وذكّر به، أي بالقرآن. وقوله: أن تُبْسَلَ، أي قبل أن تُسلَم، نفس بما كسبت. ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع. وإن تعدل / كلّ عدل لا يؤخذ منها أولٰئك الذين [١٥٥ظ] أبسلوا، أُسلموا إلى العذاب، بما كسبوا؛ تقول: أبسلته، أي أسلمته إلى الهَلَكَة. وهي من أبسل يبسل متعدّ. لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد علىٰ أعقابنا بعد إذ هدىٰنا الله كالذى استهوته، ميَّلَتْه، الشيٰطين، إلى هواه عن اتباع أمر الله، فهو، فى الأرض حيرانَ، أي بقي في الأرض حيرانَ. وإن قيل: أصله من هوى يهوي بمعنى سقط، فجائزٌ. وقوله: له أصحٰبٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا، ذكر "الأرض" على طريق التمثيل بالضالّ عن السبيل، لأن السبيل في الأرض. والأصحاب ههنا هم من الكفار، لأن من استهوته الشياطين لا يكون له أصحابٌ إلا كذلك. وقوله: إلى الهدىٰ، أي بزعمهم. والحيران يريد به أنه لا يَعرف الهدى من الضلال ولا يُفرِّق بينهما فهو على شك من السبيلين، وأصحابه يدعونه إلى أحدهما وهو ما هم عليه. فقال الله تعالى ما معناه: ليس كما يزعمون، بل، قل إن هدى الله هو الهدىٰ، لا ما دعوتم إليه بقولكم: ائتنا.

[١] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ (سورة الأعراف، ٥١/٧).

[٢] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ (سورة العنكبوت، ٦٤/٢٩).

[٣] ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ (سورة الحديد، ٢٠/٥٧).

[٤] الآية ١١٢ من هذه السورة.

ولهذا لم يقولوا: إئت الهدى بل، ائتنا. وقوله: وأُمِرْنا لِنُسلم، اللام للتعليل، أعني تعليل الأمر، لرب العٰلمين. ثم عطف على [قوله:] وأمرنا، [قوله:] وأن أقيموا الصلوٰة واتقوه. وهو الذى إليه تحشرون.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

وهو الذى خلق السمٰوٰت والأرض بالحق، أي بدأ الخلق. وقوله: بالحق، أي لم يَخلقْهم عبثا ولا باطلا بل بسبب حق، فهي حسنة أن تكون باء السبب. ولا يقال: إن كان السبب قديما فلزم قِدَمُ المسبَّبِ. وإن كان المسبب مُحدَثا يلزم حدوثُ السبب، فتكون ذاته تعالى محل الحوادث. ولا يجاب عن هذا بأنه كان في العلم الأزلي أن يُحدث هذا في هذا الآن، بل يجاب بما بيّناه عند قوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[1] فإن قوله تعالى: بالحق، هو كقوله تعالى: مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ، ثم قال: وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ،[2] فدل على أن الأقل يَعلم. فاعلم أن كل ما سوى الله تعالى يُعلَم.[3] وإنما قَطع الناسَ عن معرفة هذه المسألة وأمثالها أنهم لمّا وصلوا إليها تَعرّضوا من أجلها إلى ما يتعلق بذات البارئ تعالى. والعقول إنما تتكلم[4] فيما يحاط به، ولو كان الحق تعالى مما يحاط به لأدركه العقل. فامتناع إدراك العقل له سبحانه ليس من جهة العقل بل من جهة أنه سبحانه وتعالى[5] تعالى عما أوجَد. ولا شك أن العقول محدَثة فليس في قوتها أن تُدرِك ما ليس في قوتها. فهي إذا سارت في أزلٍ ليس له أول تَكِلّ[6] فتنقلب حينئذ خاسئةً ساجدة في ذُلّ الحدث لعِزّ القِدَم الأزلي منتظرةً ما في قوتها أن تُقبِل وهو الكتاب المنزل. فإن تَعلمه وتعمَل تَرِد المنهلَ وتصل بعد المفارقة إلى ما ليس قبلها إليه يوصَل. فسبحان من دعا العقول بسائر مبدَعاته إليه حتى جعل قصورها عنه دليلا لها عليه. وهذا المتعالي البعيد هو أقرب من حبل الوريد.[7]

---

١ سورة الذاريات، ٥١/٥٦.
٢ سورة الدخان، ٤٤/٣٩.
٣ أي يمكن أن يعلم.
٤ ش ك: إنما تتكلم.
٥ ش: أنه تعالى.
٦ ن: نكل.
٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (سورة ق، ٥٠/١٦).

ويوم، ظرف، يقول كن فيكون، ما يقول له: كن. قوله الحق، إشارة إلى أنه يعيد الخلق بحق كما بدأه بحق. وهذا يعطي نفيَ الظلم والهوى فله الملك، لأنه بدأ فخلق وله الملك يومَ النفخ. فافهم الجملة من القرآن بكلامي لا من كلامي. ومعنى وله الملك، أي لا لغيره. يومَ، ظرف، يُنفخ فى الصور، قيل: يُنفخ في الصور فتَذهب الأرواح، ثم ينفخ في الصور فتعود. وذلك إشارة إلى سرعة الأمر وعظم القدرة بنفخة واحدة. عٰلمُ الغيب والشهٰدة وهو الحكيم الخبير.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

وإذ قال إبرٰهيم لأبيه ءازر، وكان اسمه بالعبرانية تَارَخ. ولفظة "ءازر" مشتقة من الموازرة بمعنى فَاعَلَ. وحقيقتها من مثل قولك: عاون. وقيل: إنه كان وزير الملك ومعاونا له. فكان اسمه عاون، كما يسمى بعض الناس عونا. و"ءازر" بوزن آدم. وإنما جاءت هذه القصة ههنا، لأن المتقدم عليها من الكلام هو احتجاج بالعقل، علّمه الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يحتج به على قومه فتلاه بمثله[1] من قصة نبي احتج بالعقل على قومه المشركين. فتأمل أولا قوله / لمحمد صلى الله عليه وسلم: قُل لَّآ [١٥٦و]
أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ،[2] قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ... مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ،[3] قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ،[4] قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ... قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ.[5] ثم قال: وإذ قال، أي وقل: إذ قال. فافهم الجملة جيدا ولا تغفل بل إلى آخر القصة. أتتخذ أصنٰما ءالهة إنى أرىٰك وقومك فى ضلٰل مبين.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾

ثم عطف على قوله: وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ،[6] فقال عاطفا:[7] وكذٰلك، أي[8] وكذلك بالحق جزينا إبراهيم، لأنه لمّا دعا أباه إلى الله ما يزيد يقينه أي فبالحق أريناه وبالحق جزيناه ليكون موقنا،

[1] ش: باسمه.
[2] الآية ٥٦ من هذه السورة.
[3] الآية ٥٧ من هذه السورة.
[4] الآية ٦٦ من هذه السورة.
[5] الآية ٧١ من هذه السورة.
[6] الآية ٧٣ من هذه السورة.
[7] ن: عطفا.
[8] ك ن – أي.

فقال: وكذٰلك نُرى إبرٰهيم ملكوت السمٰوٰت والأرض وليكون من الموقنين، أيضا بعد الإيمان، وسأزيدك إيضاحا. ومَلَكُوت مُلْكٌ وهو عظائم الملك مثل رَهَبُوت ويزيد التعظيم بمثل هذه الصورة من التصريف. ويشير بذلك[١] إلى[٢] أنه سبحانه أراه ما تفكر به، واهتدى بالصنعة إلى الصانع معاينةً ليعود بالعِيان إلى رتبة الإيقان. وذكر صورة الترقي ونبّه على ما لا يسعه كتابٌ مِن تَدرُّجٍ في المرئيات[٣] من الكوكب إلى القمر إلى الشمس إلى الذي فطر السماوات والأرض. فمثل هذا يجب أن يُذكِّر المُذَكِّرُ به. لهذا قال أولا: وَذَكِّرْ بِهِۦ.[٤] وقوله: نرى، بلفظ الاستقبال ليدل مِن قدرته على من يشاء في المستقبل كما دل في الماضي بما فعل. ولأرباب الذوق في هذه الآيات مناسبات ومقال، ولقلوبهم حال ومجال. والصَّمْت عما تَخُطّه[٥] العبارات أولى وأنفع لأرباب الآخرة والأُولى، ولهذا قال: وليكون من الموقنين، لأن ذلك لا يُنال بالسمع. والمراد هو اليقين بصحة وجود الصانع من مشاهدة المصنوع من الملكوت. وبيّن ذلك بقوله:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

فلما جن، ستر، عليه اليل رءا كوكبا قال هٰذا ربِّي، لم يقل ذلك إثباتا، إذ لو قاله إثباتا[٦] واعترافا للزمه أن يَعبد[٧] ما اعتقد. وقد قال الله سبحانه في حقه: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ.[٨] وإن قيل: إنما قال: هٰذا ربِّي، مستفهِما باحثا بمعنى هذا ربي للزم أنه كان متشكِكا،[٩] ولكنه قاله على وجه الحجة وتقرير الإلزام وهو أن يَفرِض الأمر الواجبَ على أمر لا يمكن به الممكنُ، وقد يفرض المتكلم ما لا يمكن ثم يبطله فيجب ببطلانه ضدُّه أو غيره. ولهذا جاء بعد قوله: هٰذا ربِّي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين. وكان عليه السلام قد أراه الله ملكوت السماوات وملكوت الأرض. والملكوت ما يُدرَك بالقلب مما تُدركه العين ومما لا تدركه عين. فافهم. فلم يَشغله شيءٌ من ذلك كلِّه عن صانعه، بل اتخذ ذلك كلَّه حجةً على قومه. فتنبهْ لما أريدُ منك بتلاوة هذه القصة عليك.

---

١ ن: ذلك.
٢ ك ن – إلى.
٣ ن: في المرتبات.
٤ الآية ٧٠ من هذه السورة.
٥ ش ن: عما تحطه.
٦ ش – إذ لو قاله إثباتا، صح هـ.
٧ ش: أن يعيد.
٨ سورة الأنبياء، ٥١/٢١.
٩ جميع النسخ: مشككا.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾

فلما رءا القمر بازغا قال هٰذا ربي. ويُفهَم أيضا من هذه العبارة ما يدل على الاستخفاف والاستسخار[١] بمعبوداتهم التي هي ههنا الكواكب وأن لا هُدى إلا من الرب سبحانه. ولهذا بعده: فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي، أي لا ما يزعمون، لأكونن من القوم الضالين.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾

وبعد هذا الاعتقاد لم يترك[٢] الاجتهاد فيقولَ: إذا كان ربي هو الهاديَ فلا حاجة لي باجتهادي، بل استمر على اجتهاده في كسبه وبحثه عما يجب عليه، ويتعلق به مع ثقته بربه. فلما رءا الشمس بازغة، طالعة؛ والبزوغ أول الطلوع إما من أفق المشرق، أو من تحت الغيم، أو من خلف الجبل العالي، لأن[٣] الناظر إلى الشمس إنما يتمكن من النظر إليها ويحقق مقدارها في رأي العين في أول طلوعها. وبهذا الاعتبار يُحتمَل أن ذلك كلّه كان في ليلة واحدة كالليلة الثانيةَ عشرَ من الشهر؛ وخصوصا إن كان الرائي في وادٍ فإنه يغيب عن بصره القمرُ، ثم بعده تَبزُغ لعينه الشمسُ، قال هٰذا ربي. فقد علمتَ أن إبراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام بلفظهم وعبارتهم وزَعْمهم واعتقادهم حتى يرجع إليه فيُبطله كما قال: لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ.[٤] ولهذا بدأ من الأصغر وهو النجم، ثم انتهى إلى الأكبر [وهي الشمس]، وهذا أولى وأحسن وأشد مطابقة للفظ، / أعني أنه بين لهم أن الأكبر [١٥٦ظ]
أولى من الأصغر، وأن الانتقال عن الأصغر واجب عقلا، وأن الآفلين غير آلهة. فأبطل دعواهم بما تشاهده أبصارُهم، وأثبتَ دعواه بما تَشهده بصائرُهم ويصح في عقولهم؛ فاحتج عليهم بهم حتى قامت حجته عليهم بألسنتهم، إذ قالوا: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ.[٥] وإذا بيّن لهم ذلك في السماويات فهو لازم فيما دونها من سائر المعبودات الأرضيات. فلمّا بين لهم تعليلَ تركِها وظهرت حجتُه عليهم تبرأ مما يشركون. فافهم هذا جيدا. ثم انظر إلى قوله: هٰذا أكبر، الذي يدل على وجوب اتباع الأفضل.

---

[١] ش - والاستسخار، صح هـ؛ ن: الاستنجاز.

[٢] ش: لم يكن.

[٣] ك ن: ولأن.

[٤] الآية ٧٦ من هذه السورة.

[٥] ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٦٥).

وهنا معانٍ لأصحابها ليس نحن بصدد إثباتها، لأنها ليست من غرض الكتاب، والله أكبر. ومن ذلك ما ذكره بعض المتصوفة من مناسبات احتمالات الألفاظ ومدلولاتها أنه فَهِمَ من النجم ما نجم من الأرض والسماء وهو كلُّ ما بدا للبصر من ظلمة العدم، ومن القمر كل ما بدا[1] للبصيرة اقتباسا من النفس واستنباطا واستنارة بنورها العاقل، ومن الشمس خاصة النفس. وهذه ثلاثة[2] حُجُبٍ مفطورةٍ: الأولُ حجاب النفس بما بدا لها بصرا، والثاني حجابها بما بدا[3] منها بصيرة، والثالث حجابها بها وهو أشد الحجب وأكبرها وهو آخر الحُجُب.

ولا يصح التبري من الشرك إلا برؤية أفولها. فلما ظهر لإبراهيم الحقُّ أظلمت له الشمسُ. **فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون**، وهذا يدل على أنه كان في قومه مَن يشرك بهم أعني بالكواكب؛ ومثله قوله تعالى: لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ.[4] واعلم أنني إنما أذكر مِثلَ هذه الكلمات لتَعلم أن أمثالها هو من المحمول على اللفظ لا أنه هو المقصود به. ولا شك أن الواجب هو بيان المقصود.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

ولمّا تبرأ إبراهيم عما حُجب به قومُه وانفرد عنهم قال مشاهدا ومعلما: **إنى وجهت وجهى للذى فطر السمٰوٰت والأرض**، وهذا كلام عارفٍ أثبت القِدَم لله لما سواه.[5] وفيه تعليم وتنبيه على معرفة الصانع بالمصنوع. ومن جملة المصنوع النفسُ. وأما العقل فهو آلة من آلاتها وميزانٌ لها. وإذا خلصت من قيْده احتجبت بها[6] ولا تُفتح لها السبلُ إلا باتباع الرسل. وأول ذلك التقوى والإيمان بالغيب، ثم الزهد في الدنيا، والإيمان بسائر الكتب المنزلة والأنبياءِ واليومِ الآخر. وهذه الجملة هي معنى ما في أول سورة البقرة.[7] وقوله: **حنيفا**، أي مائلا إلى الله عما سواه. ولما كان مِن قومه[8] مَن يميل إلى الله ويميلُ معه إلى غيره قال: **وما أنا من المشركين**. فكان عليه السلام

---

١ ش ن: كلما بدأ.

٢ جميع النسخ: ثلاث.

٣ ش: بما بدأ.

٤ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (سورة فصلت، ٣٧/٤١).

٥ أي بمشاهدة ما سواه.

٦ أي وإذا خلصت النفس من قيد العقل استرت في حدودها.

٧ سورة البقرة، ٢/٢-٤.

٨ ن: من قوله.

قد كسر بباطنه الأصنامَ السماوية وتبرأ منها أولا؛ وبعد ذلك كسر بظاهره الأصنام الأرضية الجامدة وحاجّ بها قومه ثانيا. ومن كان بهذه المثابة فقد آمن. ولهذا قال لقومه فيما سيأتي ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾[1] يَحِقّ لمن أنت معبوده بأن لا يخاف وأن يأمن.[2]

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾

وحاجه قومه، وإذا نظرت في النص متأملا علمت أن إبراهيم عليه السلام من قبل تكسير الأصنام ناظر قومه بالعقل أولا، فأراه الله الملكوت حجة عليهم. ولهذا أخّر الكلامَ ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[3] أي بما اجتهد فيه واهتدى إليه بعقله، فرأى ببصيرته دلائل التوحيد. وكذلك أراه الله[4] ببصره. ولهذا جاءت القصة مرتَّبة. فذكر أولا لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا﴾[5] فكانت محاجَتُه[6] لأبيه[7] وقومِه في الأصنام، ومحاجَتُهم[8] له في الله ثانيا. فلهذا بعد ذلك، **قال أتحٰجونى فى الله وقد هدٰنِ**. المعنى والدليل على أنه هو الحق أنه قد هدان. **ولا أخاف**، أي وإني لا أخاف، **ما تشركون به**. وأيّ صبي يقول منفردا لما شاء الله من العلم: لا أخاف ممن[9] تخافونه، ويلزم عن ذلك ولا أخافكم، **إلا أن يشاء ربى شيئا، وسع ربى كل شىء علما. أفلا تتذكرون**. لمّا كانوا مقرّين بالصانع، ومن ضرورات العقل أن الصانع لا بد أن يكون علمُه متقدما على عمله، ومن أشرك ما لا يعلم بمن يعلم فحكمه حكمُ من نسي، فلهذا قال: **أفلا تتذكرون**، أي أفلا تتذكرون[10] أن مَن لا يعلم لا يكون كمن يعلم. / وهذا كقوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.[11] [١٥٧و]
فجاء بلفظ التذكر الذي يجب على الناسي، فافهمه.

﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١﴾

وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطٰنا،

---

[1] من الآية التالية.
[2] جميع النسخ: وأن يأمنا.
[3] الآية ٧٥ من هذه السورة.
[4] ك ن – الله.
[5] الآية ٧٤ من هذه السورة.
[6] ش ك: محاججته.
[7] ك: ولأبيه.
[8] ش ن: محاججتهم.
[9] ش: لا أخاف ما؛ ك: لا أخاف من.
[10] ش – أي أفلا تتذكرون، صح هـ.
[11] سورة النحل، ١٦/١٧.

ثم ردهم إلى العقول بحِجاجه. فقال:[1] فأيّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ وهذا من أوضح دليل على فساد التقليد.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾

ثم قال عليه السلام: الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمٰنهم بظلم، الظلم ههنا وإن كان مطلقا فمخصِّصه الشرك[2] لقوله:[3] إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.[4] أولٰئك لهم الأمن وهم مهتدون، وهذا كان حال إبراهيم، والأمر كذلك أبدا.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣﴾

قال تعالى: وتلك حجتنا، على المشركين في كل زمن، ءاتينٰها إبرٰهيم علىٰ قومه، ولم يقل: على نفسه لأنه كان قد أوتي رشدَه من قبل. نرفع درجٰت من نشاء. إن ربك حكيم عليم. ولما كان الاحتجاج ههنا بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من قومه ضرب المثلَ وحكى قصةَ إبراهيم عليه السلام. فحجة النبي محمد صلى الله عليه وسلم على قومه حجة إبراهيم على قومه. وتكون هذه الحجة أيضا على سائر الناس ممن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم. فإن من آمن بإبراهيم ولم يتبعْ دينَه فإبراهيم حجة الله عليه، وإنما كان حجة بما آتاه الله من الحجة على قومه وعلى أمثالهم إلى يوم القيامة. ولما قال: نرفع درجٰت من نشاء، قال بعدها: إن ربك حكيم عليم، أي ذلك الرفع بمقتضى الحكمة والعلم لينتفيَ من العقول ما قد يقع من لفظ المشيئة مما يعتقده المجبرة. فافهمْهُ ومثِّلْهُ جيّدا.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٦ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾

---

[1] ك ن: بحجاجه ثم قال.

[2] ش ك ر - الشرك.

[3] جميع النسخ - لقوله، والمثبت من م.

[4] ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة لقمان، ١٣/٣١).

ووهبنا له إسحٰق ويعقوب، بشره الله بذلك في عدة مواضع،[١] أعني بذكر إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب إعلاما أن إسحاق يحيا ويلد نبيا لينتفي أنه كان الذبيحَ. ولهذا قال عن إسحاق ويعقوب: **كلا هدينا. ونوحا هدينا من قبل**. وقوله: **ومن ذريته**، أي ذرية نوح، **داوۥدَ وسليمٰن وأيوب ويوسف وموسىٰ وهٰرونَ**، وهم من ذرية إبراهيم. وتخصيصه بالآباء والأبناء للإشراف[٢] حسبا ونسبا، لهذا ذكر نوحا. ونصبُ الجميع بقوله: **هدينا. وكذٰلك نجزى المحسنين**، إخبار عن الماضين ووعدٌ للآتين. **وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كلٌّ من الصٰلحين. وإسمٰعيلَ واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العٰلمين.**

وقد علمت[٣] أن الإنسان قد يكون أفضلَ من غيره في فَنٍّ ولا يلزم أن يكون في كل فن، بل قد يكون الأفضلَ في شيء مفضولا في غيره ولو كان في فنه أفضل العالَم. فهؤلاء كانوا أفضلَ أهلِ زمانهم في معرفة الله تعالى، إذ هذا هو المراد من الأنبياء. وكان لوطٌ ابنَ أخت إبراهيم، وقيل: ابن أخيه، ولم يزل معه إلى أن وصلا[٤] مغارة عِفْرُون الحي وهي الآن مغارة الخليل[٥] عليه السلام. فافترقا لمّا كثرت النعمة عليهما وضاقت الأرض بالماشية، فذهب لوط عليه السلام إلى سَدُوم[٦] وغمُرّو[٧] المقلوبة. وأما إبراهيم فذهب إلى القدس.

فذكر أولا المهتدين ثم المحسنين مع الهداية، لأنهم كانوا أُولي ثروة، ثم الصالحين ثم المفضَّلين وإن كان كل وصف يعود على الجميع. ثم قال: **ومن ءابائهم وذريٰتهم وإخوٰنهم**، قوم آتيناهم مِثلَهم وهو عائد على جميع من تقدم من عهد نوح عليه السلام. **واجتبينٰهم وهدينٰهم إلىٰ صرٰط مستقيم.**

---

١ انظر مثلا: سورة مريم، ١٩/٤٩؛ وسورة الأنبياء، ٢١/٧٢؛ وسورة العنكبوت، ٢٩/٢٧.

٢ ش ك: الإشراف؛ ن: والإشراف.

٣ ش ك: قد علمت.

٤ ن – أن وصلا.

٥ الخليل: اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس، بينهما مسيرة يوم فيه قبر الخليل إبراهيم عليه السلام في مغارة تحت الأرض. وهناك مشهد وزُوّار وقُوّام في الموضع وضيافة للزوار. وبالخليل سمي الموضع واسمه الأصلي حبرون، وقيل: حبرى. وفي التوراة أن الخليل اشترى من عِفْرُون بن صُوحَار الحيثي موضعا بأَرْبعمِائَةِ درهمٍ فضةً ودفن فيه سارة. وقد نسب إليه قوم من أصحاب الحديث وهو موضع طيّب نَزِه رَوْحٌ أثر البركة ظاهر عليه. ويقال إن حصنه من عمارة سليمان بن داود عليه السلام (معجم البلدان لياقوت الحموي، «الخليل»).

٦ سدوم: قصبة قرى قوم لوط. وهي بين الحجاز والشام. كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياهاً وأشجاراً وحبوباً وثماراً، والآن عبرة للناظرين. وتسمى الأرض المقلوبة لا زرع بها ولا ضرع ولا حشيش، وبقيت بقعة سوداء فرشت فيها حجارة (آثار البلاد لزكريا القزويني، «سدوم»). وانظر أيضا: الروض المِعطار للحِمْيري، «سدوم».

٧ غمُرّو (عاموراء): من قرى قوم لوط (معجم البلدان لياقوت الحموي، «عاموراء»؛ ودائرة المعارف للأعلمي الحائري، «عاموراء»).

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٨٨﴾

ذٰلك هدى الله، امتداح، **يهدى به من يشاء من عباده. ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**، أي الفضلُ الذي آتيناهم لا تعلق له بأعمالهم بل هو من عندنا. فلو بدا[١] منهم شركٌ لعاد محبطا لعملهم[٢] لا لما آتيناهم، إذ ذلك حق في نفسه لا يتغير بتغيرهم. وفيه إشارة إلى أنهم لا ينفعهم الوحيُ منا إذا عملوا سوءً[٣] ولا يدفع عنهم الحبوط بل يُحبط عملَهم من السوء لعملهم من الخير ولو كانوا أنبياء. فافهم ما أبلغ هذا التخويفَ ليَعلم العالِم أنه لا يُجزى بعلمه بل بعمله في دنياه وآخرته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾

أولٰئك الذين ءاتينٰهم الكتٰب والحكم والنبوة، وإيتاء الكتاب لا يُلزم أن يكون لكلهم وحيا، فالمراد علمه لا / وحيه، وكذلك النبوة، لأن من أوتي النبوةَ فقد أوتي ما [١٥٧ظ]
عداها في أكثر الأمر. وفضّلهم بما آتاهم على الناس في وقتهم، وفضّل بعضهم على بعض. وقوله: **فإن يكفر بها هٰؤلاء**، أي اليهود والذين من الذريات، لأنه مدح قوما من الذريات فأراد تمييزَ مَن كفر منهم. وقوله: بها، أي بالنبوة، لأنه يلزم عنه الكفرُ بالأنبياء، ويلزمُ مَنْ كَفَرَ بأحد الأنبياء الكفرُ بالنبوة كما سنبين، فافهمه جيدا. **فقد وكّلنا بها قوما ليسوا بها بكٰفرين**، ولم يقل: مؤمنِين لجواز أن يحدث لهم ارتدادٌ فنفى عنهم الكفرَ في الحال والاستقبال، وهو إشارة إلى كل من يؤمن بالنبوة إلى يوم القيامة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾

أولٰئك، الأنبياء هم،[٤] **الذين هدى الله فبهدٰهم اقتده**، تقديره اقتد، والهاء يشير بها إلى الهدى المخصوص بهم كأنه قال: فبهداهم يجب الاقتداء فاقتد هداهم، كما تقول عن شيء: إِقْتَفِهْ واشترِهْ. **قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرىٰ للعٰلمين.**

---

١ ش: فلو بدأ.
٢ جميع النسخ + هم.
٣ ش: سواء.
٤ ن – هم.

واعلم أن من فصيحِ الكلام وفصاحةِ المتكلم أن تُلزم خصمك مِن لازم كلامِه بقولِ[١] ما لم يقلهِ بلسانه فتدّعي أنه قاله وإن لم يقله لفظا بل قال ما يلزم عنه ذلك فتحجُّه به. ومن هذا القبيل قولُه تعالى: وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ،[٢] أي زعمت ذلك، وكذلك قولهم: عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ،[٣] وكذلك في هذا الموضع. بيانه أن اليهود كفروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وادّعوا أنهم آمنوا بنبوة موسى عليه السلام؛ وقد ألزمهم الإيمانُ بنبوة موسى أن يؤمنوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فالكفر بصحة نبوته كفرٌ بصحة نبوة موسى. وهم لا يؤمنون بغير كتاب موسى ونبوته. فإذا كفروا بها فقد قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ،[٤] وذلك يلازم قولهم ما أنزل الله على محمد من شيء. فحَجّهم الله بأبلغِ حُجة. ولهذا قال:[٥] فإن يكفر بها هٰؤلاء، يشير إلى الحاضرين في زمن محمد صلى الله عليه وسلم ويعم مَن بعدهم مِن اليهود. فافهم ذلك ومثله في المخاطبات لينحلَّ لك الإشكال به في المتشابهات. فلما جهل اليهودُ وأمثالُهم تأويلَ هذه الآيات ادّعَوا أن هذا ليس بكلام الله لكونهم لم يقولوا ذلك، وآمن المؤمنون به تسليما لِما جاء عن الله من غير أن يفقهوا كيفيةَ القول. وجاء بعض العلماء فأوّل الكلام بأن خصَّصه بقوم من اليهود كانوا وماتوا. ونظر[٦] المستنبط من العلماء فجزم بأن سائر اليهود يقولون ما قال الله عنهم، إنهم يقولونه ولكن على ما بينا، فافهمه. فلما قدَّم ههنا قوله: فإن يكفر بها هٰؤلاء، وهم من اليهود قال عنهم ما تقديره: هديناهم واجتبيناهم ومع هذا كفروا بالنبوة.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

وما قدروا الله حق قدره، وقدرُ الشيء عُلوُّه وعِظمُه، يقال: فلان ذو قدر عند الملك، أي ذو عظمة. وقدروا، ههنا ليست من التقدير بل هي مشتقة من القَدْر الذي قدَّمنا ذكرَه، كأنه قال: ما عظَّموه حقَّ عظمتِه، أي ما جعلوا له من القَدْر كحق قدره.

---

[١] ك ن: يقول.

[٢] سورة المائدة، ٥/٦٤.

[٣] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٣٠).

[٤] من الآية التالية.

[٥] ش ك - قال، والمثبت من م.

[٦] ن: وانظر.

وإنما قال: حقَّ قدره، بمعنى حق ما أوجب عليهم من تعظيمِ قدره عندهم. وأما في نفس الأمر فلا هؤلاء ولا الملائكة ولا مخلوقٌ من العقلاء إلا وهو معترف أنه ما قدروا الله حق قدره أبدا. وإنما لما كان سبحانه لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا،[1] من القدرة، كقوله: لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.[2] فوسعهم وطاقتُهم[3] هو المطلوب منهم لا غير، فإذًا هم قصّروا عن وسعهم من تعظيم الله تعالى فما قدروا كما أراد منهم. إذ قالوا، بنص اعتقادهم وفحوى كلامهم ولازم عقائدهم ومذاهبهم: **ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء**. فإن قيل: كيف[4] يصح أن يكونوا بهذه المقالة ما قدروا الله حق قدره؟ فالمعنى أن هؤلاء الجاحدين لصحة النبوة ما قدروا الله حق قدره، لأن الذي خلق هو الذي يهدي، كما قال تعالى: إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ.[5] فجحدُهم للنبوة جحدٌ لِما يجب وقوعُه [١٥٨و] / من الرب لتقوم حجته على خلقه وينتفي عنه الظلم. فافهمه جيدا. واعلم أن هذه هي مقالة اليهود والنصارى كما تقدم. ولكنه أيضا احتجاج على المشركين وعلى من لم يعتقد صحة النبوة. فكذبهم الله بوجود أمة جاءها نبيّ[6] من قبل هذا النبي صلى الله عليه وسلم وصدّقه ما شاء الله واتّبعه، فالحجة عليهم بتلك الأمة وذلك النبيّ وإن كان المراد هم أهلَ الكتاب.

قل من أنزل الكتٰب الذى جاء به موسىٰ نورا وهدى للناس. فهو استشهاد واحتجاج عليهم خاصة وعلى من جحد النبوة بمن أقر بها عامةً وإن كان المُقر غير الجاحد، وهذا من طريق الجواز. وإنما الخطاب لأهل الكتاب لقوله: **تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا**. والقرطاس ما ليس فيه كتابة إلا أن يُعيَّن ذلك بالذكر والإخفاء لِما تضمنته مثلَ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما ذم اليهود ههنا لئلا يلزم من قوله: **قل من أنزل الكتٰب الذى جاء به موسىٰ**، وجوبُ اتباع ما هم عليه اليومَ اليهودُ المعتقدون بزَعْمهم أنهم على ما جاء موسى. فعرَّف الكفار بالنبوة من اليهود في ضمن ما عرّفهم من صحة النبوة ما يوجب لهم اتباعَ التوراة لا اتباعَ اليهود الذين أَخفوا ما فيها وأبدَوا ما حكمه حكمُ القراطيس. ومن اتبع التوراة لزمه اتباعُ محمد صلى الله عليه وسلم لا محالة. وقوله: **وعُلِّمْتم**، أي وقد علمتم، **ما لم تعلموا**. وقوله: **أنتم**،

[1] سورة الطلاق، ٧/٦٥.
[2] سورة البقرة، ٢٨٦/٢.
[3] ن: وطاعتهم.
[4] ن – كيف.
[5] سورة الليل، ١٢/٩٢.
[6] ك ن: النبي.

يدل على أنه علَّم الأنبياء والآباء وإن لم يكونوا من لدن آدم بل من حين التعليم وهو نزول التوراة. ولهذا جاء بما لم يُسمَّ فاعله يريد أن الآباء والمعلِّمين عَلَّموا الأبناء وقد يتوهم أنهم ههنا غير اليهود، لقوله: ولا ءاباؤكم، بدليل لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ،[١] وليس كذلك، وإنما قال: أنتم، ليزيل الاشتباه. فقوله: أنتم، هو لتأكيد الضمير المستتر ليُعطَف عليه، وذلك كقوله: مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ؛[٢] فالمراد أن قومه أيضا عُلِّمُوا، فكذلك ههنا. ثم قال مجاوبا لقوله: قل من أنزل الكتٰب، قل الله، أي الله أنزل وعلَّم؛ كما إذا حاجج المحقُّ خصمَه بما يُفحِمُهُ فإنه هو يسأل ويجيب.[٣] فافهم ذلك مما تعرفه وتَعْهَده في الخطاب. وافهم ما قلته لك في هذه الآيات. ثم ذَرْهُمْ فى خوضهم يلعبون، بصورة التواعد، أي فسوف يعلمون.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾

ثم عطف في المعنى على قوله: مَنْ أَنزَلَ الْكِتٰبَ،[٤] فقال: وهٰذا كتٰب أنزلنٰه، أي كالذي أنزل على موسى، مبارك مصدق الذى، تقدم، بين يديه، من الكتب والرسل. ولتنذر، ولكي تنذر به، أُمَّ القرىٰ، أي مَن في أكبر القرى. ولهذا قال: ومَن حولها، لأنه حذف "مَن" في[٥] قوله: لتنذر أم القرىٰ، فأثبت "من" بعد ذلك ليعلَم[٦] بما أثبته ما حذفه. وأم القرىٰ، هي ههنا مكة لأنّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ،[٧] فهي أولى بأن تكون[٨] أمًّا لتقدمها وتقدمِ هذا البيت على سائر بيوت العبادات. وقال: أمّ، ولم يقل: مكة لفوائد. منها لنعلم أنها أم للقرى؛[٩] ومنها أنها أكبر ما حولها؛ ومنها ليُعلَم كيف يجب الإنذار، والله أعلم. والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به، يلزم عنه أن الذين يكفرون به لا يؤمنون بالآخرة فيكونوا كُفّارا بالنبوة لزوما ومن حيث إن الأمر كذلك. فاعلم أن الخطاب لليهود. وذلك أنه لمّا مدح الأنبياء ومَن بعدهم وذكر الذريات فقال: ومن ذُرِّيَّتِهِمۡ،[١٠]

---

[١] سورة يٰس، ٦/٣٦.

[٢] ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ (سورة هود، ٤٩/١١).

[٣] ش – فإنه هو يسأل ويجيب.

[٤] من الآية السابقة.

[٥] ش – في، صح هـ.

[٦] ك ن: لتعلم.

[٧] ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٩٦/٣).

[٨] ك: بأن يكون.

[٩] ن: القرى.

[١٠] انظر: الآية ٨٧ من هذه السورة.

كان هذا لليهود[1] كالحجة. فأتبعه بذكرهم فقال ما معناه: إنا فعلنا هذا كلّه معهم، وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ، أي حين قالوا: مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ،[2] بلازم لفظهم في موسى، لأن هذه عقيدتهم في عيسى ومحمد عليهما السلام، أعني ما أنزل عليهم كتابا وأن لا مُنزَّلَ إلا التوراة، فحسن أن يَحُجَّهم بها حين قالوا كما سنبين ههنا أيضا[3] فيما يأتي. ولمّا كانوا قد أخفوا من التوراة ما يدل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ذمَّهم أيضا في تمام الآية بما فعلوه. والأولى أن تقرأ تُبْدُونَهَا، بالتاء،[4] لقوله لهم بعدها: وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ،[5] أي إلا من جهته سبحانه. وهذا لا يليق / بالمشركين وإن شملهم لأنهم لم يعلموا. وأما قوله: فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ،[6] [١٥٨ظ]
فكما أن إيمانهم بنبوة موسى يُلزمهم الإيمانَ بنبوة محمد عليهما السلام، كذلك الكفر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم يُلزمهم الكفرَ بنبوة موسى. فيكونون قد كفروا بالنبوة مطلقا، فكأنهم، قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ،[7] إذ تكذيبهم لمن صدقه موسى تكذيبٌ لموسى ولو ادعوا تصديقه. فافهم هذا جيدا مضافا إلى ما قدمناه. ولهذا قال: **والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم علىٰ صلاتهم يحافظون**، هو من أخص علامات الإيمان. ثم قال تعالى نافيا عن نبيه ما نسبوه إليه بقولهم: مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ.[8]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

ومن أظلم ممن افترىٰ على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله. ولو ترىٰ إذ الظّٰلمون فى غمرٰت الموت. الغمرات ما يَغمُر

[1] ن: اليهود.
[2] من الآية السابقة.
[3] ك ن + في تمام الآية.
[4] قرأ المكي والبصري بياء الغيب في الأفعال الثلاثة، والباقون بتاء الخطاب (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٠٦).
[5] من الآية السابقة.
[6] الآية ٨٩ من هذه السورة.
[7] من الآية السابقة.
[8] من الآية السابقة.

كما يغمر الماء الكثير.[١] وقوله: والملٰئكة باسطوا أيديهم، أي بالضرب والعذاب عند التوفي، كقوله: ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾.[٢] أخرجوا أنفسكم. اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن ءايٰته تستكبرون. والهون بضم الهاء من الهَوان وبفتحها من الرفق والدَّعَة، [كما في قوله]: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ[٣] يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾.[٤] وقوله: اليومَ، إشارة إلى أنهم يعذَّبون بعد الموت في القبور.

ولهذا قال بالواو بعد ذلك: ولقد جئتمونا فرٰدىٰ كما خلقنٰكم أول مرة، أي ويقال لهم يوم البعث: لقد جئتمونا، والمعنى أنهم يأتون وليس لهم مُعين ولا ناصر من شركائهم ولا مما خوَّلهم به، فيقال لهم: وتركتم ما خَوَّلنٰكم وراءَ ظهوركم. وما نرىٰ معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركٰؤا، مع الله عز وجل. لقد تقطّع، اليوم، بَيْنَكم، ما هو صلة "بينكم"، جاء مرفوعا[٥] إشارة إلى جملة البين الذي اتخذوه صلة بينهم وبين آلهتهم. وضل عنكم ما كنتم تزعمون، أنه شريك أو مُقرِّب إلى الله.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

ولما ذكر البعث ضرب له مثلا مشهودا هو بعثٌ معايَن فقال: إن الله فالق الحب والنوىٰ، كنوى التمر الذي مع ما فيه من الصلابة يعود ليّنا يُخرج الورق الأخضر. والفالق هو الفاطر وهو من الشق، ويريد به شقًا يُظهر منه شيئا. فالنواة مَيْتة يَخرج منها النخلة النامية. فكأنه فسّر قولَه: فالق الحب والنوىٰ، بقوله: يخرج الحى من الميت. والمعنى أن فالق الحب هو يُخرج الحي، فهذا غير مكرّر بما في الروم[٦] وآل[٧] عمران،[٨] فهو ههنا مثال، أي فاعل هذا هو فاعلُ مثلِه ويَقدر على ذلك. ولهذا بعده بالميم:

---

١ غَمُر الماءُ يَغْمُر غَمَارَةً وغُمُورَةً: كثر حتى ستر مقره (المعجم الوسيط، «غمر»).

٢ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٥٠). وانظر أيضا: سورة محمد، ٤٧/٢٧.

٣ ش ك – وعباد الرحمن الذين، والمثبت من م.

٤ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٦٣).

٥ اختلف في ﴿بَيْنَكُمْ﴾، فنافع وحفص والكسائي وأبو جعفر بنصب النون، وافقهم الحسن؛ والباقون بالرفع (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٦٩).

٦ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (سورة الروم، ٣٠/١٩).

٧ ش ن: أو آل.

٨ ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٢٧).

ومُخرجُ الميتِ من الحى، وههنا يدل على فاعل وهناك يدل على فعلِ فاعل، لأن ههنا: مُخْرِج، وهناك: يخرج، وفرقٌ بينهما. ولهذا أتبعه هناك[1] بقوله: وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ، وههنا أتبعه بقوله:[2] ذٰلكم الله، أي لا ما تشركون به وتدعُون من دونه. فأنى تؤفكون.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

فالق الإصباح، معطوف على قوله: فَالِقُ ٱلْحَبِّ،[3] هو فالق الإصباح، وهو مصدر أَصْبَحْنا إصباحا، والمراد صبح كل يوم. فهي بكسر الألف كالإسرار، بالفتح جمع سرّ وبالكسر ضد الإعلان، ومثله الإصباح والإفهام. وجعل اليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، أي بحسبان،[4] وهي مشتقة من حَسَب يَحسُب حِسابا وحُسبانا. والمعنى أنه تعالى خالقهم بحِساب معلوم مقدر. ولهذا بعده: ذٰلك تقدير العزيز العليم، أي لِتَعْلَمُواْ بهما عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ.[5] فبالشمس عدد السنين وبالقمر عدد أيام السنين، فهو حساب السنين أياما وإن كان حسابا لها أيضا أعواما. ولهذا قال هناك: وَٱلْحِسَابَ مطلقا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

وهو الذى جعل لكم النجوم، على ما جعلها عليه من النور والحركات والمواضع وغير ذلك، لتهتدوا بها فى ظلمٰت البر والبحر. وفي هذه الآية إشعار بجواز[6] الاهتداء بها في أحكام وقعت في الوجود بالتجرِبة، مثل كتاب دَانِيَال عليه السلام وما ذكره من ظهور الكواكب وعلاماتها ودلائلها وما شاكل ذلك. ولهذا قال: قد فصلنا الآيٰت لقوم يعلمون، دون من يجهل، وليس ذلك بكفر ولا مثلِه. وإنما الخطر أن يعتقد
[١٥٩و] أن الكواكب هي المؤثِرة / من دون الله، كما اعتقد فيها مَن سجد لها وعبدها من دون الله أو أشركها معه سبحانه. وأما إذا علمنا أن الشمس تُسَخِّن بإذن الله، والقمرَ يغيِّر الأجسام إلى الرطوبة ويعفِّنها بإذن الله فما الشمس والقمر إلا مخلوقاتٌ لله،

[1] ش – هناك، صح هـ.
[2] ش – وكذلك تخرجون وههنا أتبعه بقوله، صح هـ.
[3] من الآية السابقة.
[4] ن: حسبان.
[5] سورة يونس، ١٠/٥؛ وسورة الإسراء، ١٢/١٧.
[6] ك ن: يجوز.

وفعلُهما في الموجودات كفعل عيسى عليه السلام الذي كان يُحيي الموتى بإذن الله،[١] فهو المحيي بما أذن الله له وهو مخلوق، والكواكب كذلك. وأما الأحكام النجومية كما يُعلَم من التثليث والتربيع وغير ذلك مما يُحكَم بحسبه فذلك ليس من أفعال الكواكب، بل جُعلتِ الكواكب وحركاتُها علاماتٍ إذا تحركت الحركة الفلانية تدل على كيت وكيت يَحدث في الأرض مثلا كالخَصْب والجَدْب[٢] وغيره من مراد الله في العالم، أو من بعض أهل الأرض في بعض. فالحركات ليست هي الفواعلَ أو الموجباتِ لوقوع الواقع في الأرض أو في الأنفس. مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ.[٣] بل الحركات كحركة النبض التي تدل الطبيبَ على وجود الحُمَّى أو غلبةِ الحرارة أو البرودةِ أو مثلِ ذلك، لا أن النبض في نفسهِ أو العروق والشرايين[٤] خَلقَت الحمى ولا الطبيبُ يعتقد في ذلك. ولا يعود على الطبيب مدح ولا ذم ولا كفرٌ ولا إيمان، بل استدل بأنواع تلك الحركات على أنواع أمراض معلومة تَحدث في بدن المريض تتقدمها هذه العلامات في غالب[٥] الأمر. وذلك كذلك. فافهمه لنفسك، والسلام. فإن الله عليم بذات الصدور.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

وهو الذى أنشأكم من نفس وٰحدة فمستقر، بفتح القاف للمكان وبكسرها للمتمكن في الأصلاب،[٦] ومستودَع، في الأرحام. قد فصلنا الآيٰت، العلامات الدالات على الصانع، يريد ما ذكره في هذه الآية، لقوم يفقهون.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (سورة آل عمران، ٤٩/٣).

٢ ش ك: والجذب.

٣ سورة الحديد، ٢٢/٥٧.

٤ ن: والشرائين. | الشِّرْيان واحد الشَّرايين وهي العُروق النابضة (لسان العرب، «شرن»).

٥ ن: إلى غالب.

٦ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح بكسر القاف، والباقون بفتحها (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٠٧).

وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء، المعنى كل شيء هو نبات. فأخرجنا منه خضرا، أي ما فيه خُضْرة قَلَّت أم كثُرت. وقوله: منه، بعد أن قال: به، يريد بقوله: به، أي بالماء. وقوله: منه، أي من النبات. و"مِن" ههنا للتبعيض، أي من بعض النبات. نخرج منه، أي من الخضر، حبا متراكبا، يَركب بعضه بعضا كالسُّنْبُل والعنب والتمر. ولهذا بعده: ومن النخل، أي ويُخرج بالماء نخلا، ودل على ذلك بقوله: متراكبا. ثم ذكر "من" لتبيين الجنس وغيره. وتقديره: ومن شجر النخل، من طلعها، ما له، قنوانٌ دانية، أي[1] إلى جهة القاطف. والقِنْو عُنقود الثمر من الثمر. وجنّٰتٍ، مفعول "فأخرجنا به"، وهو ما يَجِنّ، أي يستر، ويشير إلى ذوات الظل الدوالي،[2] من أعناب والزيتونَ والرمان مشتبها، كما يشتبه الزيتون بالزيتون والرمان الحُلْوُ بالرمان الحامض، وهو غيرُه طَعْما أو مِثلُه طعما وصورة، وغير متشٰبه، كما لا تَشابُهَ بين الزيتون والرمان. ثم بين ذلك بقوله: انظروا إلىٰ ثمره إذا أثمر، ولم يقل: ثمرهما لننظر إلى ثمر كلِّ واحد بمفرده من كل مشتبه وغير متشابه. والزيتون والرمان، من جملة ذلك، لأن المعنى يعود إلى ما أُخرِج بالماء. وتقديره فأخرجنا بالماء نباتَ كلِّ شيء من مشتبه ومن غير متشابه. ويحتمل أنه نَصَب "مشتبها" ونصب "غير" بقوله: فأخرجنا. ولم يقل: وغير مُشْتَبه وغير متشابه، لأن التشابه يسير، أي[3] لا يشتبه بوجه ما. وقوله: ويَنْعِه، أي يَنْعِ الثمر[4] يزيد نضجُه، وهاء الثمر عائدة إلى ما أُخرِج بالماء من نبات كل شيء. إن فى ذٰلكم لآيٰت لقوم يؤمنون، يصدِّقون بالصانع. وأراد المؤمنين من المخاطبين ومِن غيرهم إلى يوم القيامة. ثم قال ما تقديره: كل هذا خَلَقه الله لهم وجعله آيات.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾

وجعلوا لله، بعد رؤيتهم ذلك، شركاء الجنَّ، وخلقهم، أي وقد خَلق الجن فكيف يشركون المخلوق بالخالق. وخرقوا له، التخرق لغةٌ في التخلق، وهو من الاختلاق والكَذِب، بَنين وبنٰتٍ بغير علم، يدل على قولهم: سبحٰنه وتعٰلىٰ عما يصفون.

---

[1] ش ك – أي.

[2] أي المتنقل من مكان إلى مكان.

[3] ش – يسير أي، صح هـ.

[4] يَنَعَ الثمرُ يَيْنَع يَنْعًا: أدرك وطاب وحان قطافه (المعجم الوسيط، «ينع»). الينع: جمع يانع، وهو المدرك البالغ (المفردات للراغب الإصفهاني، «ينع»).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١٠١﴾

بديع / السمٰوٰت والأرض، أي من هو قبل الإبداع والمبدَع. أنىٰ يكون له ولد [١٥٩ظ]
ولم تكن له صٰحبةٌ وخلق كل شيء. فالصاحبة مخلوقة ولا يكون المخلوق صاحبا للخالق، بل بعده، وهو بكل شيء عليم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٠٣﴾

﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ۝١٠٤﴾

وقوله: قد جاءكم بصٰئر، قيل: المراد بالبصائر القرآن، وهو جمع بصيرة، لأنه يُبصِر بمراضي الله. وقيل: البصائر الحجج، لأنه لولا البصيرة لَمَا قامت الحجة، ومنه قوله: بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ،[١] أي حجة. والأولى أن يؤخذ على ظاهره، لأن المراد بصيرة القلب التي يُفهم بها الشيء. لكنه لما كان النور به يكون الإبصار، والقرآن نور، ولو وجد المبصِر والمبصَر[٢] بغير نور لما حصل الإبصار جاز أن يعاد ذلك إلى القرآن، ولزم أن لا يَنتفع بالنور إلا ذو بصيرة. وفي هذا الكلام إشعار بأن الله تعالى يدرَك بالبصائر من صفاته بحسب المدرِك. ولهذا لما قدم قوله: لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ،[٣] قال بعده: قد جاءكم بصٰئر من ربكم. فمن أبصر، بالبصائر، فلنفسه ومن عمى فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ، أي بحافظٍ على الإبصار ولا عنه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝١٠٥﴾

وكذٰلك نصرف الآيٰت، تقديره ههنا فتنةً لهم وعقابا ليجحدوا، وليقولوا درست، أي دارستَ أهلَ الكتاب وكثيرا[٤] من العلماء حتى عرفت هذا التصريف. وهو إثبات منهم لا استفهام، أي فإذا اعتقدوا ذلك كان التصريف الهادي للمؤمنين هو بعينه مضلا للكافرين. ولهذا قال: ولنبينه، أي ولكي نبينه بالتصريف أيضا، لقوم يعلمون.

١ سورة القيامة، ١٤/٧٥.
٢ ن – والمبصر.
٣ من الآية السابقة.
٤ ن: وكثير.

فهذه الكلمة، أعني دارست هي من دراسة[1] العلم، كقوله في هذه السورة[2] أيضا: وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ،[3] أي دراستهم في الكتاب الذي أنزل عليهم؛ وكقوله في الأعراف: وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ.[4] ولفظة "دارس" من المفاعلة. فافهم كيف عطف قوله: وليقولوا درست، على مقدر محذوف. وبرهان ما قلناه فيه سيأتي، وهو قوله: وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ،[5] أي وليقولوا درست[6] ولتصغى،[7] فافهم ذلك ومثله جيدا. واعلم أن من جملة[8] البيان الذي وعد به الرحمن بقوله ههنا: ولنبينه، بيانَ هذا العطف مع بعده عن المكان ولولا الإيمان لم يَبِنْ ولا بان.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

ولو شاء الله ما أشركوا، إنباء عن قدرته تعالى أنه لو شاء أن لا يشركوا لَمَا أشركوا، لكنه لو فعل ذلك لم يكن ابتلاءٌ.

[مشيئة الله ومشيئة الناس]

فلمّا كان قد خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملا[9] وجب أن لا يشاء أن يشركوا ولا يشاء أن لا يشركوا، بل يشاء أن يشاءوا فيما كُلّفوه فقط. فلهم بمشيئته مشيئة كيف شاءوا. ولا تفهم من المشيئة التي صارت لنا أنها عادت إلزاما بشيء دون غيره، فذلك إلزام منه لا مشيئة لنا بل له سبحانه فقط. فلا تنظر إلى السواد والبياض، فهما فعل الله وخلقُه. وإنما انظر التسويد والتبييض[10] فهما من فعل العبد المسوِّد أو المبيض[11] بما جعله الله له من القدرة على ذلك ومكّنه من الاختيار لما يختاره العبد لنفسه من السواد أو البياض. ولو شاء الله لما سوَّد مُسوِّد لأنه تعالى قادر على منعه. فافهم هذا. وهنا نكتة في قوله تعالى: وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ،[12] فهي زيادة على الأصل المشروح في سورة الإنسان.

---

١ ش: من دارست.

٢ ن: الصورة.

٣ الآية ١٥٦ من هذه السورة.

٤ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ (سورة الأعراف، ١٦٩/٧).

٥ الآية ١١٣ من هذه السورة.

٦ ش: دارست.

٧ ن: وليصغى.

٨ ك - جملة.

٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الكهف، ٧/١٨).

١٠ ك ن: والتبيض.

١١ ك: والمبيض.

١٢ سورة الإنسان، ٣٠/٧٦. وانظر أيضا: سورة التكوير، ٢٩/٨١.

وذلك أنه سبحانه بيّن لنا أن المشيئة التي وَهَبَنا إياها لِنَشاء بها ليست مشيئة مطلقة نشاء بها مهما شئنا في كل شيء، بل نشاء بها مهما شئنا[١] فيما شاء أن نشاءَ به فقط من أمور مخصوصة يمكننا فيها أن نَفعل شيئا وضده ولا يمكننا ذلك في غيرها إلا أن يشاء الله سبحانه. فافهم ذلك. فإنه يَحُلّ لك من مشكلات الكتاب والحديث والغوامض ما شاء الله سبحانه، فهو مستلزَم من اللفظ ولا يغيِّر معناه المقصود به. واحذر أن يخفى عليك قولُه: أَن يَشَآءَ،[٢] فتظنَّ أن المعنى وما تشاءون إلا ما يشاء[٣] الله. فالفرق بين "أن" و"ما" ظاهر كما بيناه.

ولمّا كان سبحانه قد أنبأ عن قدرته / على منعهم، لكنه لم يمنع لأجل قضية[٤] التكليف [١٦٠و] نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يروم منهم مثل ذلك. وأنبأه أنه لم يرسله مجبرا لهم على كفر أو إيمان، وإنما هو رسول[٥] فقط فقال ما معناه وتقديره: ولو شاء الله ما أشركوا، لأنه قادر على منعهم، ولكنه جعل أمرهم إليهم. وما جعلنٰك عليهم حفيظا، أيضا لتمنعهم[٦] من الشرك بل وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ.[٧] وما أنت عليهم بوكيل، فلا تؤمَر[٨] إلا بالبلاغ. وما عليك أن يؤمنوا لأنه لو شاء الله ذلك بهم لكان قادرا، ولا أن يكفروا لأنه لو شاء الله ذلك بهم لكان قادرا. لكنه لم يفعل، إذ لو فعل ذلك أو ضده لم يكن لهم ثوابٌ ولا عقاب على فعل الله بهم. وإنما الثواب والعقاب على فعلهم هم بأنفسهم. فلهذا لم نفعل ولا جعلناك. فافهم هذا جيدا. وإنما كررناه ههنا وفي مواضع لعل أن يُفقَه.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٠٨﴾

ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم، أي إن الكافر إذا قال له المؤمن: تبًا[٩] لما تَعبده، قال له الكافر كذلك. ولا يعارَض[١٠] هذا بقول إبراهيم: أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ،[١١] لأن إبراهيم إنما قال ذلك[١٢] بعد بيان الحق وقيام الحجة

---

[١] ش – في كل شيء بل نشاء بها مهما شئنا، صح، هـ.
[٢] الآية ١١١ من هذه السورة.
[٣] ن: ما شاء.
[٤] ش: فضيلة.
[٥] ك ن: وإنما رسولا.
[٦] ن: فتمنعهم.
[٧] سورة الإسراء، ١٣/١٧.
[٨] ش: فلا يؤمر.
[٩] التب: الهلاك (لسان العرب، «تبب»).
[١٠] ك ن: ولا يعارضه.
[١١] ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٦٧/٢١).
[١٢] ن – ذلك.

وبعد أن رجعوا على أنفسهم فقالوا: إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ.[1] فلم يكن لهم بعد ذلك أن يسبوا الله. فلو فرضنا وقوعَ مثلِ ما وقع من قوم إبراهيم من الاعتراف لجاز وقوع مثل ما وقع من إبراهيم من القول. والله أعلم بكلامه.[2] وقول إبراهيم يجوز مثلُه لمن لم يَطبع اللهُ على قلبه بكفره، وأما من طبع الله على قلبه فلا، لأنه داخل في قوله: كذٰلك زينا لكل أمة عملهم، أي عقابا لهم بكفرهم؛ كما قال تعالى في محكم هذه الآية: إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ.[3] فإن قيل: هذا لا يعلمه إلا الأنبياء. قلنا: فلهذا جاز[4] لإبراهيم ولم يَجُزْ لنا. ثم إلىٰ ربهم مرجعهم. فينبئهم بما كانوا يعملون.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

وأقسموا بالله جهد أيمٰنهم لئن جاءتهم ءاية، كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ،[5] ليؤمنن بها، أي بسببها. قل إنما الآيٰت عند الله، وما، استفهام، يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، بالله، لأن الكلام تقدمه: وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ،[6] أي من الآلهة، وأول الكلام: ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ.[7] فيحتمل أيضا أن يعود على ما أوحى. ولما كان من كفر بالله بما أوحى وبالعكس جاء الكلام ههنا محتملا للصورتين ليعم المشركَ والكافر، وإنما هو أخص بالمشركين.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

ثم وصفهم ما يعاقبهم به إذا جاءتهم الآية ولم يؤمنوا فقال: ونقلب أفئدتهم وأبصٰرهم، في الدنيا عقابا لهم، كما لم يؤمنوا به أولَ، في أول، مرة، جاءت الآية المعجزة. وهذا التقليب من الانقلاب. وإنما أراد انقلابا بعد انقلاب، فهي مضاعفة لفظة[8] "قلب" -بتخفيف اللام ونصبها- "يَقْلِب الإناءَ" -بكسرها في المستقبل- أي كبّه على رأسه،

١ سورة الأنبياء، ٦٤/٢١-٦٥.

٢ ش - بكلامه.

٣ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة النمل، ٤/٢٧).

٤ ك ن: أجاز.

٥ ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٥/٢١).

٦ من الآية السابقة.

٧ الآية ١٠٦ من هذه السورة.

٨ ش: لفظه.

و"قلب الثوب" -بتخفيف اللام- إذا جعل باطنَه ظاهرَه. فإذا أردت المبالغة قلت: "قلّب الشيء" -بتشديد اللام- تريد قلبا بعد قلب. ويريد [الله] بقلب[١] أفئدتهم أنهم يعودون يفقهون الحق مقلوبا ويُبصرون مقلوبا. ونذرهم فى طغيٰنهم يعمهون.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

ثم أخبر عن حالهم بعد تقليب الأفئدة والأبصار، وأنهم يَبْقَوْن بهذه المثابة أبدا لا سبيل إلى الإيمان فقال: ولو أننا نزلنا إليهم الملٰئكة، أي فأخبروهم خبر السماوات وما يكون في المستقبل. وكلّمهم الموتىٰ، أي أحيينا لهم الموتى بحيث إنهم كلموهم بحديث الآخرة وما شاهدوه بعد الموت. وحشرنا عليهم، ولم يقل: لديهم، كل شىء، الحشرَ يريد[٢] به ههنا الجمع. ولما ذكر سكان السماء وهم الملائكة وسكان بطنِ الأرض وهم الأموات ذكر كلَّ شيء بين الملائكة والموتى. وقوله: قُبُلًا، أي قبيلا قبيلا، فافهمها. والمعنى لو أننا أحيينا كلَّ شيء ميت كما نحيي يوم الحشر فحشرناهم مجتمعين عليهم وهم ينظرون، ما كانوا ليؤمنوا، إذا عاقبناهم بالإضلال، إلا أن يشاء الله، إيمانَهم إجبارا. ولهذا قال: ما كانوا، وأتبعها بلام الجحود، ثم حَذَف ما تقديره: / فلو علموا ما [١٦٠ظ] طلبوا[٣] طلبوا آية ولا أقسموا.[٤] ولٰكن أكثرهم يجهلون، حكمةَ منع الآية.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾

ولما كان هؤلاء إذا لم يؤمنوا قد صاروا أعداء للنبي عليه السلام عرّفه الله تعالى أنه كذلك جعل لغيره [من الأنبياء] أعداء عقابا لهم،[٥] فهو عاقبهم بهذا الجعل، لأنه معطوف في المعنى على قوله من قبل: وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ.[٦] ثم ذكر حالهم بعد ما يتركهم في طغيانهم. ثم مثّل بعقابهم الذي[٧] هو إضلال منه تعالى لهم جزاء على ما تقدم منهم فقال: وكذٰلك، أي مثل ذلك العقاب عاقبنا أعداءَ الأنبياء من شياطين الجن والإنس.

---

[١] جميع النسخ: تقلب، والمثبت من م.
[٢] جميع النسخ - يريد، والمثبت من م.
[٣] ك - ما طلبوا، صح هـ.
[٤] يشير المؤلف رحمه الله إلى الآية ١٠٩ من هذه السورة.
[٥] أي للمنكرين.
[٦] الآية ١١٠ من هذه السورة.
[٧] ك - الذي، صح هـ.

ولهذا بعده: وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ، أي إلى القول الموحى أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ.[1] فذلك أيضا عقاب لهم. وقيل: معطوف على [قوله:] كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا،[2] وكذٰلك جعلنا. ولا يتغير المعنى لأنه عقاب أيضا. ومثله كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ،[3] وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ.[4] والجميع عقاب. فقال: وكذٰلك جعلنا لكل نبى عدوا شيٰطين الإنس والجن، يريد الجملة، والجنُّ يُذكَرون في سورة الجن. يوحى بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول، بما يَغُرّ، غرورا. ولو شاء ربك ما فعلوه، أي لأنه قادر. وقد تقدم مثله. والمعنى لم يكن سبحانه مقهورا بفعلهم، لأنه قادر على منعه. فَذَرۡهُم وما يفترون، يحتمل، فذرهم: وذَرْ ما يفترونه. ويحتمل أن يكون[5] واو "وما" واو المعية، أي ذرهم مع ما يفترون، قد عاقبناهم بذلك.

﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾

ولتصغى إليه، أي إلى ما يفترون مما يوحي بعضهم إلى بعض. والمعنى عاقبنا كلا من شياطين الإنس بما يوحي شياطينُ الجن إليه، وعاقبنا الذي لا يؤمن من بقية الناس بالإصغاء إليه، أي إلى الموحى، أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه، لام كي، وليقترفوا، الذين لا يؤمنون بالآخرة، ما هم مقترفون، الشياطينُ الموحي إليهم من جهة الجن. والاقتراف اكتساب الإثم. ويحتمل وليقترفوا، ما هم مقترفوه، أي دائما أبدا كقوله: وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ.[6]

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤﴾

ثم قال تعالى ما تقديره: قل: أفغير الله أبتغى حكما، أي والحالة هذه، وهو الذى أنزل إليكم الكتٰب مفصلا. والذين ءاتينٰهم الكتٰب، التوراة، أي فَهْمَها، يعلمون أنه، أن القرآن، منزَّل من ربك بالحق فلا تكونَنّ من الممترين، الشاكّين في أنهم يعلمون ولا من الممترين أنه حق. فالكلام يحتمل المعنيين، وعلماء بني إسرائيل يعلمون ذلك بلا شك.

---

١ من الآية التالية.
٢ الآية ١٠٨ من هذه السورة.
٣ الآية ١٢٢ من هذه السورة.
٤ الآية ١٢٣ من هذه السورة.
٥ ك - أن يكون، صح هـ.
٦ الآية ١١٠ من هذه السورة.

فمنهم من بقي على دينه فهم يكتمون الحق وهم يعلمون، ومنهم من أسلم فهو حجة على مَن سواه.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا، كما تقول واصفا للكلام: تكلمتَ صدقا. **لا مبدل لكلمٰته**، أي مصونة عن التبديل الذي صار في التوراة والإنجيل، وهو كقوله: وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ.[1] وفيه دليل على أن هذا القرآن لا ناسخ له ولا مبدِّلَ له بكتاب آخر، ولا بحديث ولا إجماعٍ. فلا مبدل لكلماته سبحانه بوجه. **وهو السميع العليم**. فافهم هذه الآية وتنبه لحكمة اللفظ وما هو الأولى به من المعنى الذي يلزم، أو يجوز أن يفهم عنه أو منه، ولا تقنعْ بتقليد فيما يُمكنك تحقيقُه.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

من قوله: قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ،[2] وهو الحَزْر[3] والكَذِب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

ولما كانت العرب تُحرم ما حرمته افتراء على الله، وكذلك يَدخل اليهود في مثل الكلام. وقد علمت أنه من حرم ما أحله الله،[4] أو أحل ما حرمه[5] فقد ضل. وأتبع قوله: **إن ربك هو أعلم من يضل**، بقوله بالفاء أي وإذا كان الأمر كذلك، **فكلوا مما ذُكر اسم الله عليه إن كنتم بـاٰيٰته مؤمنين**.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

وما لكم، سؤال من منكِر، ولو فهمتَ منه النفي أيضا لكان حسنا كأنه قال:

---

[1] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (سورة الحجر، ٩/١٥).

[2] سورة الذاريات، ١٠/٥١.

[3] الحزر: التقدير والخَرْص (لسان العرب، «حزر»).

[4] ك ن – الله.

[5] ش + الله.

وليس لكم، ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم، في القرآن، ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه. وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم. / ولمّا كان الأمر[1] [١٦١و]
ههنا من إطلاق لفظ الضلال تخصيصَ من حرّم ما أحله الله ونهيَ المؤمنين عن اتباعه لئلا يضلوا كما ضل بهواه ذكر الضلال من قبل ومن بعد. إن ربك هو أعلم بالمعتدين.

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾

وذروا ظَهر الإثم وباطنه، باطن الإثم، قيل: هو ما بطن عن فاعله أنه إثم فهو شك عنده، وضده ظاهر الإثم؛ كما تقول عن شيء باطل: هذا ظاهر البطلان، أي بطلانه ظاهر لمن يتأمل. وقيل: إن باطن الإثم هو مثل ما يفتي المرابي[2] نفسَه بالبيع فيبيع سلعةً قيمتُها درهمان بمائة درهم. فهذا البيع ظاهره صحيح وباطنه قبيح وإثم. والكلام وإن كان مطلقا فإنه يختص بما تقدم من أكل الميتة[3] وما لم يُذْكَر[4] اسم الله عليه.[5] ويطلق على جليّ الإثم وخفيّه، أي ما يتحقق منه وما يتوهم. والأولى أنه أراد ما يتوهمه الغيرُ أنه إثم وإن كان في نفس الأمر غير إثم، كما لو شرب ما يشبه الخمر في قدح بصورة يظن من يراه أنه خمر، فنهى الله أن نقف في مواضع التهم. فمن وقف في مواضع التهم[6] لا يلومنّ من أساء به الظنَّ، فهذا هو ظاهر الإثم. وباطنه بضده وهو أن يظهر حلالا ويأتي حراما. إن الذين يكسبون الإثم سيُجْزَون بما كانوا يقترفون.

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾

ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه، وإن الأكل منه، لفسق، فليست واوَ الحال، أعني حال كونه فسقا، بل المقصود إثبات أنه فسق.[7] وليس المراد أن من ذبح ونسي أن يسمّي حرُم أكلُ ذلك المذبوح، بل المراد بقوله: مما لم يذكر اسم الله عليه،

---

١ ش – الأمر.

٢ ش: المرائي.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ...﴾ (سورة المائدة، ٣/٥).

٤ ك: لم تذكر.

٥ سيجيء في الآية التالية.

٦ ش – فمن وقف في مواضع التهم، صح هـ.

٧ ش – فسق، صح هـ.

تقديره بل ذُكر عليه اسمُ غير الله، وهو ما جُعل للأصنام وذُبح على النُّصُب. فلا تفهم من هذا الكلام ما معناه: ولا تأكلوا مما لم يُذكَر عليه اسمٌ، أعني لم يُذكَر عليه شيء فإن أحدا لا يعتمد ذلك. وإنما فهمنا وجوب التسمية بالله فيحل الأكلُ، ولا يَحرُم مع عدمها بل [يحرم] مع تسمية غير الله. فتأنَّ لتفهم أن من ذَبح ونسي التسمية أو تعمَّد أن لا يسمي فقد خالف الأمرَ مع جواز أكلِ المذبوح. إنما يحسن إن تعمد أن يحرم عليه دون غيره. واعلم أنه لو قال: ولا تأكلوا إلا ما ذُكر اسمُ الله عليه لزم تحريمُ ما عدا ذلك. ولهذا لم يقل بالفاء: فإنه لفسق، فافهم، إذ المراد أن هذا الفعل منكم فسق. وأما مَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ[1] فهو فسق أيضا. وإن الشيٰطين ليوحون إلىٰ أوليائهم ليجٰدلوكم، ليجادلوكم الأولياءُ. والمراد ههنا شياطين الإنس كقوله: وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ.[2] لأن فعلهم معهم الإضلال كفعل شياطين الجن فهم يوحون إلى المنافقين ليجادلوا المؤمنين بالباطل. وإن أطعتموهم إنكم لمشركون، مثلهم.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾

أومن كان ميتا فأحيينٰه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس، افهم قوله: فى الناس، فهو كقوله: وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ،[3] وهذا في الدنيا. وأما في القيامة: نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ.[4] كمن مثله فى الظلمٰت ليس بخارج منها، أبدا بوجه لأنه يعتقد أنه على صريح الحق. كذٰلك زين للكٰفرين ما كانوا يعملون، عقابا لهم بكفرهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣﴾

وكذٰلك، أيضا، جعلنا فى كل قرية أكٰبر مجرميها، تقديره حُكّاما، والمعنى زيّنا لأكابر مجرمي كلِّ قرية ظلمت عملَهم عقابا لهم، فصاروا في ظلمات لا يَخرجون منها كصفة من تقدم في الآية. وقوله: ليمكروا فيها، اللام لام كي. وما يمكرون، بالله،

---

[1] سورة المائدة، ٣/٥، وسورة النحل، ١٦/١١٥.

[2] ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٤).

[3] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ (سورة الحديد، ٥٧/٢٨).

[4] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ (سورة التحريم، ٦٦/٨).

إلا بأنفسهم وما يشعرون، فلو شَعَروا ربما تركوا المكرَ، ولكن من جملة العقاب أنهم لا يشعرون. والمكر هو الاحتيال والخديعة.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

ثم أخبر أيضا عنهم بقوله: **وإذا جاءتهم ءاية قالوا لن نؤمن حتىٰ نؤتىٰ مثل ما أوتى رسل الله**، من الكتاب والحُكم والنبوة فيعودوا رسلا. **الله أعلم حيث يجعل رسالته. سيصيب الذين أجرموا صغار**، ذلٌّ يصغِّر إلى الإنسان نفسه، يقال: صَغُر يَصغُر صَغارا وصَغْرا، طلبوا العز بغير حق، فأصابهم الذلُّ بحق،[1] فعاقبهم الله عنده في الآخرة بالصغار، لأنهم كانوا يتكبرون في الدنيا، **عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون.**

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

[١٦١ظ] ثم بين سبحانه صورة / أفعاله في عقاب من كفر فلم يؤمن، فقال موضحا لِما تقدم به القول وموضحا لسنة الله في فعله مع مَن لم يؤمن: **فمن يرد الله أن يهديه**، جزاءً على إيمانه، كقوله في محكم هذه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾،[2] **يشرح صدره للإسلٰم**، وهذا إنما يكون عند تقدمه إلى الإسلام، أي في أول الأمر لا في سائر الأحوال والأوقات. وكذلك قوله: **ومن يرد أن يضله**، عقابا له على كفره، **يجعلْ صدره ضيّقا حرجا**، الضّيق أخص بالأجسام ويستعمل في المعاني، والحرج أخص بالمعاني ويستعمل في الأجسام استعارة. واجتماع اللفظين مبالغة، لأن الضِّيق هو الحرج، وقرئ بفتح الراء.[3] والمعنى يجعل صدره ضيقا في سائر أموره وأحواله، وذلك من الحرج الذي في قلبه عن كفره. وتقديره فإذا عُرض عليه الإيمان، **كأنما يصّعّد فى السماء.**

١ ن – فأصابهم الذل بحق.

٢ سورة التغابن، ١١/٦٤.

٣ قرأ نافع وأبو بكر وأبو جعفر بكسر الراء، وافقهم ابن محيصن والحسن، والباقون بفتحها (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٧٣).

ثم قال مبيّنا لِما شرحناه: كذٰلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون، عقابا لهم. وشرحُ الصدر اتساعه، وهو كالبسط الذي ضده القبض من الانقباض. فهذا إنما يفعله الله بما سبق من سوء اختيار العبد للكفر، لا أنه سبحانه أراد به ذلك من غير استحقاق لعقاب، لأن الله تعالى أنزل القرآن حجة له على عباده، لا لهم عليه عز وجل خصوصا. وقد قدم من قبل: فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا.[١]

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

وأتبع هذه الآيةَ بقوله: وهٰذا صرٰط ربك مستقيما، منصوبا على الحال المؤكدة، لأن سراط الله لا يكون إلا مستقيما بخلاف الحال المنتقلة في نحو "جاء زيد راكبا" لجواز أن يأتي غير راكب. ثم قال ليزيل الإشكالَ: قد فصّلنا الآيٰت لقوم يذّكّرون، بهذا الذكر الذي هو السراط المستقيم.

﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

فإذا تذكروا به، لهم دار السلٰم، من السلامة من سائر الآلام والمخاوف. وقيل: سميت بذلك لأن، ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم،[٢] وكقوله: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا،[٣] عند ربهم. وهو وليهم بما كانوا يعملون.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

ويوم نحشرهم جميعا، كلَّ إنسان وشيطانه الذي يجري منه مجرى الدم في العروق،[٤] وهو عائد على قوله: سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ،[٥] فهذا من جملة الصغار والعذاب.

---

١ الآية ١٠٤ من هذه السورة.

٢ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (سورة الرعد، ١٣/٢٣-٢٤).

٣ سورة مريم، ١٩/٦٢.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءًا» (صحيح البخاري، بدء الخلق ١١؛ وسنن ابن ماجه، الصيام ٦٥).

٥ الآية ١٢٤ من هذه السورة.

ثم أخذ يفصّل بعد قوله: **جميعا**. وتقديره فيقال لهم: **يٰمعشر**؛ كلُّ جماعةٍ يَحصُل بينهم عِشْرَةٌ يقال لهم: معشر، **الجن قد استكثرتم من الإنس**، يعني أضللتم وأخذتم وراءكم كثيرا.

[ماهية الجن]

واعلم أن ذوات الجن ليست هي المحذورةَ ولا ذوات الإنس، بل المحذور صفات مُنكَرةٌ عقلا منهيٌّ عنها شرعا، إذ في الجن مؤمن وكافر. وكذلك يكون الإنسان متصفا بصفة هو بها من أهل النار، فيُسلم ويتوب عن تلك الصفة فيرجع في وقته من أهل الجنة. وقد علمت أن الإنسان يُخلَق من أقواله وأفعاله ملائكة وشياطينُ يُحشَرون معه وهم الآن معه وإن لم يَرَهُم. وقد رأيتَ بعض الأغذية كيف تتولد عنه صور في الخيال تُرى في النوم وتارة في اليقظة. فكذلك تُولد الأعمال والعقائد حتى تبقى عند رائيها[1] بمنزلة الحقائقِ الظاهرة، بل ترجع حقائق ظاهرةً ولا يلزم أن يراها غير صاحبها. فهذا كله من قبيل الجن لأنه مستجنّ في الإنسان. ولهذا قال بعضهم: إن الجن لهم وجود في وجود الإنسان، فإذ لا إنسانَ لا جنَّ. وإنما تضرب الأمثال للصفات بذوات تتصف بالصفات لتُعقَل في الأذهان وإن كان المقصود هو الصفاتِ دون الذوات. هذا كلامه. وهو صحيح في نفسه بعد ما يجب أن تَعلم أن الجن ذوات[2] مخلوقة[3] من قَبْل خلقِ الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾.[4] فهذه الآية يفهم منها جميع ما قد ذكرناه. وينضاف إلى ذلك / جن الإنس وهم الذين يستترون[5] ويُخفُون ما هم عليه، [١٦٢و]
وهم الشياطين، فكما هم شياطين من الإنس، كذلك هم جن من الإنس. ولهذا جعلهم الله مَعْشَرا واحدا. فقوله ههنا: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾،[6] يحتمل أيضا أنه يشير إلى ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾.[7] وهم الذين حشرهم الله مع أوليائهم في النار، لأن الشياطين الباطنة إذا قويت فهي بعينها شياطين الإنس إذا فهمت.

وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض، هذا قول الإنس عن جن الإنس وعن كل مُضلٍّ مما ذكرناه أو لم نذكره، وكلٌّ منهما وليّ للآخر. والاستمتاع منهم

---

١ ن: عند رائها.
٢ ن – ذوات.
٣ ن: مخلوق.
٤ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ (سورة الحجر، ٢٧/١٥).
٥ ن: يسترون.
٦ الآية ١٢١ من هذه السورة.
٧ الآية ١١٢ من هذه السورة.

موالات بعضهم لبعض، إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ.[١] ويحتمل أن يكون الاستمتاع ما يدعوه الشيطان للإنسان إلى اللذات والشهوات فيجيبه. فإجابة الإنسان للشيطان تمتّعٌ للشيطان. ولا شك أن الإنسان قد يتمتع بالمرأة الفاجرة وهي شيطان؛ مضافا إلى أن الشيطان الذي في الإنسان يأكل بأكله ويشرب بشربه كما قيل:

شياطيننا[٢] فينا ونحن نطيعهم ‏ هم الجن فيما استمتع البعض بالبعض.[٣]

والعبادة هي الطاعة. ولا فرقَ بين طاعة[٤] الإنسان لِما يدعوه من نفسه أو من غيره إذا كان الداعي إلى محرَّم، فمطيع أخيه في محرم إنسي أطاع جنيا. فهؤلاء كأنهم يقولون: ذلك قول مَن لا يرى أنه فعل ذنبا وينكر ما حل به من العقاب، إذ يقولون: **ربنا استمتع بعضنا ببعض وبَلَغْنا أجلَنا الذى أَجَّلْتَ لنا**. ويحتمل أن يكون هذا القول منهم بصورة الاعتراف. فلم يجاوبهم على ما قالوه إلا بأن، **قال النار مثوٰكم خٰلدين فيها**، والمثوى هو المسكن والمأوَى الذي يقيم به الثاوي. وقوله: **إلا ما شاء الله**، ليست مستثنى من قوله: **ويوم نحشرهم جميعا**، إلا ما شاء الله، كما قيل، ولا أنّ لفظة "ما" بمعنى مَن بل بمعنى الذي، أي خالدين فيها بأبلغِ نهاية تدخل في أفهامهم من الخلود سوى الذي شاء الله بعد ذلك. وهذا قد بيّنه في موضع آخر عند ذكر السماوات والأرض وما معناه خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض سوى ما شاء الله[٥] من خلود بعد انقضاء السماوات والأرض وزوالِ دوامِ خلودهما، لأنه مَثَّل لهم بأطولِ مدة يعرفونها، ثم قال: هذا غير ما شاء الله من دوام، فافهمه. ولما بيّنه هناك حذف ههنا ذكْرَ السماوات والأرض لدلالة الخلود على ذلك. **إن ربك حكيم**، في أفعاله،[٦] **عليم**، بما يستحقه[٧] كل من خلقه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٢٩﴾

وكذٰلك نولى بعض الظّٰلمين بعضا، أي كما أنهم اتخذوا الظالمين أولياء، كذلك نعاقبهم[٨] بأن نجعلهم يتخذون الظالمين أولياء دائما، فيعود عقابهم على ما فعلوه

---

١ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٠/٧).

٢ ن: شيطاننا.

٣ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

٤ ن: بين عبادة.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (سورة هود، ١٠٦/١١-١٠٨).

٦ ك ن - في أفعاله.

٧ ن + في أفعاله؛ ك + في أفعاله، صح هـ.

٨ ن: يعاقبهم.

أنْ يُبقيهم على ما فعلوه، لكن ذلك الإبقاء هو عقاب لو أرادوا الخروج منه لم يُمكنهم بعد ذلك، وقد كان ممكنا لهم قبل العقاب. فبين سبحانه أن ذلك من فعله بهم، بما كانوا يكسبون. ويجب أن تَعلم أن كل ما هو ضرر في الدين فهو عقاب سواء كان[1] صلاحا في الدنيا[2] أو فسادا، وكل ما هو نفْعٌ في الدين فهو امتحان إذا كان فسادا في الدنيا. فافهم هذا، فهو باب حل المشكلات.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾

ويجب أن تَعلم أن الله تعالى لم يُخبِرْنا من أحوال الجن إلا بما في إخباره منه لنا فائدةٌ تعود على الإنس. وإذا نطق الكتاب بوجود عالم لم نَرَهُ، ومنهم مؤمن وكافر ولهم كسبٌ، فما المانع أن نؤمن بهذا، وله أن يخلق ما يشاء كما خلقَنا. ولعله خلق أو سيخلق ما لا يُحصيه ولا يعلمه إلا هو من عوالمَ لم تخطر ولا تخطر في بالِ أحد منا. ولا فائدة لنا في ذكرهم ولا في العلم بوجودهم. ولو كان لنا في ذلك نفعٌ لأخبرَنا به سبحانه. لكنه تعالى أخبرَنا أن الإنسان إنما يُحشر مع من عَمِل مثْلَ عمله ولو كان من غير نوعه أو جنسه أو أصله. فيخاطب الفريقين بخطاب واحد كقوله هنا: **يٰمعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم**. يريد بقوله: منكم، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ
[١٦٢ظ] إِلَىٰ / قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.[3] ولهذا لم يقل: ألم نرسل، بل قال: ألم يأتكم. وقال: **يقصّون عليكم ءايٰتى وينذرونكم لقاء يومكم هٰذا. قالوا شهدنا علىٰ أنفسنا. وغرتهم الحيوٰة الدنيا**، في الدنيا. **وشهدوا علىٰ أنفسهم**، في الأخرى، **أنهم كانوا**،[4] في الدنيا، **كٰفرين**، ولا يناقض قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾،[5] لأنهم كانوا معاقَبين بأنهم يحسبون أنهم مهتدون،[6] ولأنهم نفوا الشركَ وأقروا بالكفر بالرسل.

---

١ ك - كان، صح هـ.

٢ ك: في الدين.

٣ ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (سورة الأحقاف، ٢٩/٤٦).

٤ ك - في الدنيا وشهدوا علىٰ أنفسهم في الأخرى، أنهم كانوا، صح هـ.

٥ ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۞ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ الآية ٢٢ و٢٣ من هذه السورة.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٠/٧).

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾

ولهذا جاء بعده: **ذٰلك أن لم يكن ربك مهلك القرىٰ بظلم**، يحتمل أن المعنى بظلم منه بل بعدل جزاءً على كسبهم. ويحتمل -وهو الأولى[١] بدليل ما تقدم- أن معنى قوله: **بظلم**، أي بسبب ظلمِ ظَلَمَةِ[٢] أهلها، **وأهلها غٰفلون**، أي بل بعد معرفتهم واعترافهم بالذنب وشهادتهم على أنفسهم بالكفر. وهذا الإهلاك يريد به الاستئصالَ لمن كذّب بالمعجزة، كقوله: وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا،[٣] الآية. فهو آخر عهدهم بالعذاب في الدنيا، وأول استقبال ما تَواعدهم[٤] به من عذاب الله لهم في الآخرة بدليل ما بعده وما قبله، فافهمه. وفي هذه الآية ما يدل على أنه لا يجوز العقاب لغير المعترِف أو بغير بينة لئلا يكون المعاقِب عند المعاقَب ظالما وإن كان المعاقِب عادلا في نفسه بعقاب المعاقَب.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٣٢﴾

وقوله تعالى: **ولكل**، أي من الجن والإنس، ويحتمل من المؤمنين والكفار. والأولى أنه يريد من الكفار فقط، لأنه يشير إلى أهل القرى المعاقَبين المذكورين. والمراد "ولكل واحد درجةٌ من عمله". فلمّا جمع بقوله: **مما عملوا**، قال: **ولكل**، بمعنى ولكلهم، **درجٰت مما عملوا**، فنفس أعمالهم درجات لهم. فكلٌّ منهم مقيم في درجة من عمله، فليعمل العامل[٥] ما أحب الإقامة فيه. **وما ربك بغٰفل عما يعملون.**

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ١٣٤﴾

تالله، **إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين**، الله عن مجازاتكم، إنما تستحقونه[٦] بأعمالكم.

---

[١] ن + به.

[٢] ش: ظلمه.

[٣] ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٤).

[٤] ن: ما تواعهم.

[٥] ك ن: المعامل.

[٦] ن: إنما يستحقونه.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾

قل يٰقوم اعملوا علىٰ مكانتكم، المكانة من التمكن، وهو يدل على العلوّ والقدرة، وتقديره على قدر مكانتكم، **إني عامل**، كذلك. **فسوف تعلمون من تكون له عٰقبة الدار**، في الدنيا. وهو علىٰ صورة التهديد والإخبار بالغيب. **إنه لا يفلح الظٰلمون**، اسم جامع للشرك والكفر، لقوله:[1] وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ،[2] وقوله: إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ.[3]

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾

وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعٰم نصيبا، أي ولشركائهم نصيبا. وقوله: ذرأ، من الذَّرْءة[4] لقوله تعالى: يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ.[5] **والحرث**، ههنا من قوله: نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ.[6] **فقالوا هٰذا لله بزعمهم وهٰذا لشركائنا**، إشارة إلى أنهم يزعمون ذلك لا أنهم يفعلونه، أعني قولهم: هٰذا لله، بل يزعمونه ثم يفعلون ضده، وهو قوله: **فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلىٰ شركائهم**. فأما قوله: **فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله**،[7] لأنه تعالى لا يقبل ما لغيره. وأما ما كان بزعمهم لله فإنهم لمّا كانوا يتقربون بشركائهم إلى الله، كقوله عنهم: مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ،[8] عادوا يجعلون مما هو بزعمهم لله للشركاء فيوصلون إليهم ما جعلوه لله، فعاد الجميع للشركاء، فينذرون لهم مما في بطون النساء ومما في بطون الأنعام. وكانوا يذبحون البكر على صورة أنهم يعبدون الله بذلك. وقيل: كانوا يفعلونه اتباعا لإبراهيم عليه السلام، وذلك بعيد منهم. وأما الوَأْد[9] وقتلُ البنات وقتل الأولاد من إملاق[10] فهو من التزيين الذي سيذكره.

---

١ ن: بقوله.

٢ سورة البقرة، ٢/٢٥٤.

٣ سورة لقمان، ٣١/١٣.

٤ ك: من الذرية.

٥ ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/١١).

٦ سورة البقرة، ٢/٢٢٣.

٧ ش – وما كان لله فهو يصل إلىٰ شركائهم فأما قوله فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، صح هـ.

٨ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٣).

٩ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ (سورة التكوير، ٨١/٨-٩).

١٠ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٣١).

ساء ما يحكمون، ومنهم من اتخذ الشركاء من بني آدم فكان يوصل إليهم نصيبَهم ويوصل إليهم أيضا ما يكون قد جعله بزَعْمه نصيبا[١] لله، فيأكلون الجميع. وهذا مأخوذ من قوله: وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ، أي من الجن وَخَلَقَهُمْ،[٢] أي والشركاء مخلوقون له سبحانه. والجنُّ ههنا يجوز أن يكونوا جنا، ويجوز أن يكونوا جنَّ الإنس وشياطينَ الإنس، لقّبهم بذلك لِما كانت أفعالهم وأحوالهم كذلك في غالب الأمر. / والذي [١٦٣و]
يرجِّح أن هؤلاء الشركاءَ المذكورين هم من الإنس لا من الجن ولا من الحجارة.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ١٣٧﴾

قوله تعالى: **وكذٰلك زين لكثير من المشركين قتل أولٰدهم شركاؤهم ليردوهم**، من الرَّدَى، **وليلبسوا عليهم دينهم**. لبِستُ الثوب بكسر الباء ألبَسُه بفتحها، ولبَستُ عليهم الأمرَ بفتح الباء، ألبِسه بكسرها من الالتباس وهو الشك. **ولو شاء الله**، أن لا يفعلوا ذلك، **ما فعلوه**. يشير إلى الشركاء وإلى المشركين، لأنه قادر سبحانه فلا يُعصى قهرا، لكنه أراد الاختبار[٣] بذلك أو العقاب لهم بما كسبوه من قبل. **فذَرْهم**، ذَرِ المشركين، **وما يفترون**، لهم الشركاءَ من التزيين لهم. فإن قيل: بل زيَّن الشركاءُ لهم مع كون الشركاء من الجن لا الإنس، لقوله: إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ.[٤] فجائز ذلك مع جواز الأول، لأن الالتباس في الدين من شيمةِ[٥] شياطين الإنس.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ١٣٨﴾

ولما ذكر صورةَ جعلِهم للحرث[٦] وهو قتل الأولاد ذَكَر بعده صورةَ جعلهم[٧] للأنعام

١ ن: نصبا.
٢ الآية ١٠٠ من هذه السورة.
٣ ن: الاختيار.
٤ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (سورة الأعراف، ٢٧/٧).
٥ شِيمةُ الإنسان: خُلُقه (كتاب العين للخليل بن أحمد، «شيم»).
٦ ك: الحرث.
٧ ش – الحرث وهو قتل الأولاد ذكر بعده صورة جلعهم، صح

فقال بواو العطف: وقالوا هٰذه أنعٰم وحرث حجر، من الاحتجار،[1] أي هذه الأنعام لهؤلاء بالحَرْث كما قال: خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا.[2] وقوله: لا يَطعمها، أي الأنعام، يدل على أنه لا يأكلها، أو [لا] يأكل ما في بطونها، أو [لا] يشرب من ألبانها، يُفهَم الجميع من قوله: لا يَطْعمها إلا من نشاء بزَعْمهم، أنها لله، أي هذه نصيب لله نُطعِمه من نشاء نحن فيَطعمه، أي فيأكله. ولهذا قال: بزعمهم، لأنه قد ذكر في الآية المتقدمة، هٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ،[3] فذكر ههنا "بِزَعْمِهِمْ" لنعلم أن الإشارة فيه إلى الله سبحانه، وأسقط ذكر الله عز وجل من الكلام، لأن ما أثبته من زعمهم يدل عليه. فكأن الأولى إسقاط ذكره عز وجل من هذا الكلام لأنه إخبار عنهم بأنهم لم يفعلوا ذلك لله. فأثبت زعمهم الذي به يفعلون فقط، وليس ذلك الفعل لله بالحقيقة. وأنْعٰمٌ حُرِّمت ظهورها وأنعٰمٌ لا يذكرون اسم الله عليها، بل أسماء الأصنام ويدّعون أنها لله، كل ذلك، افتراءً عليه، سيجزيهم بما كانوا يفترون، ما يستحقونه.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩﴾

وقالوا ما فى بطون هٰذه الأنعٰم خالصة، يقال عن الحامل: خَلَصت إذا جاءت بالولد حيّا. فقوله: خالصة، بالرفع يعود على الأنعام، ويدل على حياة ما كان في بطونها، لذكورنا، أي لا يَطعمها إلا ذكورُنا. وإليه الإشارة بقوله: لَا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ.[4] ولهذا ذكر لفظَ الطعام ولم يقل: هي لذكورنا، بل، لَا يَطۡعَمُهَا. ثم قال: ومحرّم علىٰ أزوٰجنا، ولم يقل: محرَّمة، لأن الإشارة إلى ما في البطون. وإن يكن، ما في البطون، ميتةً، ولم يقل: ميّتا إشارة إلى أنه كان قد مات من مدة فصار ميتة. فهم، كلهم، فيه شركٰؤا، أي في أكله. وهذا[5] يحتمل أن يكون من تمام قولهم، ويحتمل أن يكون إخبارا من كلام الله تعالى عن فعلهم. فإن كان من تمام قولهم فهو عن الأبناء والأزواج، وإن كان من إخبار الله –وهو الأولى– فقد أضاف إليهم الآباء. ويُحتَمَل أن يكون قوله: وأنعٰم لا يذكرون اسم الله عليها، إشارة[6] إلى هذه الميتة، وإنهم يأكلونها ميتة بغير ذبح،

---

١ حجر عليه الأمر واحتجر: منعه منه (المعجم الوسيط، «حجر»).

٢ من الآية التالية.

٣ الآية ١٣٦ من هذه السورة.

٤ من الآية السابقة.

٥ ن: في كله هذا.

٦ ن – إشارة.

بل إذا وُلدت ميتة كالسِّقْط[١] استجازوا أكْلَها. والمراد بتعريفنا هذه الأمورَ كلَّها لنعلم ما كان عليه أولئك ونجتنبَ مثْلَ فعلِ الجاهلية. وهذه الآيات يجب على من أراد فهْمَ جميعِها منتظِما أن يقف ويكرّر الآياتِ متأنيا متأملا ليَفهم من نفسه ما أثبته له تنبيها على مراد الآيات، وإلا فلا يقدر أن يَفهم المقصودَ كلَّه من كلامي فقط، بل يكون كلامي دليلا على المقصود لئلا[٢] يتعب في محتمَلات اللفظ. والفَطِن يَفهم ببعض الكلام كله في كثير من المواضع بحسب فطرته وإيمانه واجتهاده. **سيجزيهم وصفهم**، أي بوصفهم. **إنه حكيم عليم**، هو بأن يذرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ،[٣] فيكون قد جازاهم على وصفهم الذي وصفهم به،[٤] لكن الثاني عقاب، وبكونه[٥] عقابا فلا يقدرون على الخلاص / منه، بل زيّن لهم سوءُ عملهم، وهذا وصفهم أبدا في الدنيا وعليه يُقدمون [١٦٣ظ]
في الأخرى، فيتحقق لهم سوء ما كانوا عليه من الوصف المذموم، ولا خلاص لهم منه، فصار الجزاء لهم بوصفهم مطلقا في الدنيا والآخرة.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝١٤٠﴾

قد خسر الذين قتلوا أولٰدهم سفها، جهلا، **بغير علم**، من الله تعبّدهم، به.[٦] **وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله**، إذ اتخذوا ذلك التحريم دِينا. وشرَح قولَه: **افتراء على الله**، بقوله: قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ،[٧] لأنهم ذكروا على ما رزقهم الله اسمَ غير الله بصورة النذر، وحرّموه على أنفسهم، وجعلوا ذلك عبادةً، واتخذوه دينا افتراء على الله سبحانه فصار حراما. ويدخل في ضمن ذلك من المذكورين ما حرّمتْه الطائفة اليهودية ونسبتْه إلى أن الله حرّمه فكذَبوا. **قد ضلّوا وما كانوا مهتدين**، قبل ذلك.

ووجه النظم بين هذه الآية وبين ما بعدها أن المراد بهذه هو قتل الأولاد من إملاق وإن تضمن قتْلَ البنات وقتل أبكار الذكور قربانا، كقوله تعالى فيما سيأتي:[٨]

---

[١] السقط: الولد الذي يسقط من بطن أمه قبل تمامه (لسان العرب، «سقط»).

[٢] ش - على المقصود لئلا.

[٣] ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٦/٧).

[٤] جميع النسخ + بوصفهم.

[٥] جميع النسخ: وكونه.

[٦] أي بغير علم به من الله.

[٧] الآية ١٤٣ من هذه السورة.

[٨] لعل المؤلف يشير إلى الآية ١٤٣ من هذه السورة.

[وقال أيضا]: وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ.[1] فالمعنى ههنا كيف يقتلون أولادهم من الإملاق والله هو الرزّاق، وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ،[2] وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً.[3] ولما كان هذا القاتل قد خسر ولدَه في الدنيا وحمل إثمه فخسر في الأخرى أطلق ذكْرَ الخسران ليعم فلم يقيّده. ولما كان الولد من جملة الرزق ومن حرّم على نفسه حلالا فقد خسره أضاف التحريم إلى القتل ههنا كما أضاف إلى القتل[4] التحريم فيما سيأتي بقوله: قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ.[5] ولما صار المحرِّم كالقاتل والقاتل كالمحرم عاد مَن جمع بين الفعلين خاسرا بلا شك. ولهذا قدم ذكْرَ الخسران. ولمّا كان القتل أو التحريم لا يُفعَل إلا إما سفها أو بعلم جاء من الله بيّن أن هؤلاء إنما فعلوا ذلك سفها بغير علم جاءهم من الله. ولما اتخذوا هذا الفعلَ دِينا لهم كان ذلك منهم افتراءً على الله. ولمّا كان القاتل والمحرِّم والمفتري ضالا عن سبيل الحق في جميع ذلك قال عنهم: قد ضلوا. ولمّا كان الضلال لا يكون إلا باتباع العقول فيما خالف الرسلَ وكان من الجائز أن بعض الناس يَضل من وجه ويهتدي من وجه، أعني في الشيء الواحد بيّن أن هؤلاء ضلوا من كلِّ وجه ولم يهتدوا من وجه لا هُدَى وحيٍ ولا هدى عقل. فافهم كلَّ آية في القرآن كما قد أفهمتُك في هذه تكن مِن حَمَلَتِه.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

ولمّا خسروا بالأعمال وضلوا بالبصائر ولم يهتدوا بالإبصار ذكر ما يتعلق بالأبصار، فقال بواو الحال عاطفا على قوله: وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ:[6] وهو الذى أنشأ جنّٰت، أي لا ما اتخذوه شركاء وحرموا على أنفسهم من أجله حلالا وهو لا ينشئ، والله هو المنشئ، معروشٰتٍ وغيرَ معروشٰت والنخل والزرع مختلفا أُكله، أي طعامه، والزيتونَ والرمان متشٰبها، أي من كل متشابه، وغيرَ، ومن غير، متشٰبه.

---

١ الآية ١٣٧ من هذه السورة.
٢ من الآية التالية.
٣ الآية ١٤٢ من هذه السورة.
٤ ك ن + في.
٥ الآية ١٥١ من هذه السورة.
٦ من الآية السابقة.

كُلُوا مِن ثمره، ثمر الأكل، أباح الأكل منه من حين يُثمر، وليس على المأكول منه حق. وقال من قبل: ٱنظُرُوٓاْ [إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ]،[١] لأن النظر يكون قبل الأكل، فأمرهم بالاستدلال على الصانع بالصنعة -بما هو أول- أولا؛ **إذا أثمر وءاتوا حقه يوم حصاده**، أي الذي يجب في يومِ حصاده. لا يلزم أن يُخرَج في ذلك اليوم، وإنما عيَّنه مقيَّدا بذلك اليوم لأمور. منها أنه قد يُسرف[٢] منه فيما بعدُ، أو يُفسد، أو يَنقص، أو غير ذلك. ففي يوم حصاده وجب عليهم حقُّه، فهذا معنى. وأيضا إن المراد أن يعلمَنا أنه قبل الحصاد لم يجب علينا حقٌّ بل يؤكل منه بغير إسراف إلى أن يجب لئلا يحرم علينا قبل. ولهذا تقدم قوله: **كُلُوا**، فهذا هو الوجه الأَولى. ثم قال: **ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**، والإشارة بالحق إلى الزكاة، وليس في الزكاة إسراف وإنما الإسراف عائد على الأكل. وأخّر للوِزان. ولمّا لم يَفهم ما قلناه من اعتقد أن هذه الآية هي منسوخة بفرض الزكاة[٣] اضطر / إلى نسخها، ولا نسخ ههنا لمن [١٦٤و]
قرأ وتدبر.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢﴾

ومن الأنْعٰم حمولة وفرشا، منصوب على قوله: وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ،[٤] **ومن الأنْعٰم حمولة**، وهي التي تحمل في بطونها، **وفرشا**، وهي التي تحمل على ظهورها،[٥] جعلها كالفراش. وإنما قال: **وفَرْشا**، لأن ذلك أبلغ في صور الراحة من كل ما يحمل من بقية الدواب، إذ الأنعام يَفرِش على ظهورها[٦] ويَنام عليها راكبها بخلاف غيرها. وقيل: الفراش الضأن والمعز سميت فَرْشًا لقربها من الأرض، والحمولة هي التي تَحمل على ظهورها. **كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوٰت الشيطٰن**، فيما حرمته العرب من البَحِيرة وغيرها.[٧] **إنه لكم عدو مبين.**

---

١ الآية ٩٩ من هذه السورة.

٢ ك ن: قد يشرق.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (سورة التوبة، ٩/٦٠).

٤ من الآية السابقة.

٥ ن: في ظهورها.

٦ ش: على ظهرها.

٧ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ (سورة المائدة، ١٠٣/٥).

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

وقوله: ثمٰنية أزوٰج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين، نصب "ثمانية" على البدل مما في قوله: وَحَرَّمُواْ [مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ]،[1] والمعنى ثمانية أفراد، لأن كل واحد من الزوجين يقال له زوج. وقصده[2] في هذه الآية أنْ يبيِّن لنا الأنعام وما حرموه منها افتراء على الله، لأن التحريم إنما يقع على شيء معيَّن ليسلك الناس كذلك في مثله من ذلك النوع. فقال: من الضأن اثنين، ذكر وأنثى، ومن المعز اثنين. والدليل على أن النصب في "ثمانية" كما قلناه قولُه بعده: قل ءَآلذَّكَرَيْنِ حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين. ولا شك أنهم مرة كانوا يحرِّمون الذكرَ، ومرة يحرمون الأنثى، ومرة ما اشتملت عليه أرحامُ الأنثى. فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يَحُجَّهم بهذا الكلام. ثم قال: نبئونى بعلم إن كنتم صٰدقين، لأنه إن كان حرَّم الذكرين لزم تحريمُ الذكور جميعا، أو الأنثيين لزم تحريم الإناث جميعا، أو ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين لزم تحريم الذكور والإناث جميعا.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

ثم تمم[3] ذكْرَ الأنعام بقوله: ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصٰكم الله بهٰذا، أي سمعتم هذا فعندكم منه علم أم شهدتم[4] وصيةَ الله به، لأن ذلك إنما ينقسم إلى قسمين: إما إخبار أو شهادة. فإذا لم يكن أحدهما، فمَن أظلمُ، لنفسه ولغيره، ممن افترىٰ على الله كذبا ليضل الناس بغير علم، عقلا أو وحيا من الله. إن الله لا يهدى القوم الظٰلمين.

١ الآية ١٤٠ من هذه السورة.
٢ ش ك: وقصد.
٣ ش – تمم؛ ن: عمم.
٤ ن: علم وشهدتم.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

ولمّا بين ما كذبوا به على الله من تحريم الحلال قال بعده: **قل لا أجد في ما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما.** وقوله: **مسفوحا،** ليميز مائية اللحم واليسيرَ الملتصق باللحم إذا انشوى وما شاكل ذلك بحيث يكون مثل ما يُسفح، **أو لحمَ خنزيرٍ فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به. فمن اضطُرَّ غيرَ،** نصب على الحال، **باغٍ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم.**

اعلم أن هذه الآية قد جُمع فيها سائرُ المحرَّمات، لأن قوله مفصلا في جميع ما فصله في غير هذه الآية لا بد أن يَذكر عنه في التفصيل إما أنه رجس أو أنه فسق. وفي هذه الآية قد حرم الرجس والفسق. فكل ما ذُكر عليه الفسق فهو حرام لقوله: وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ.[١] وكل ما ذكر عنه الرجس حرام كقوله: إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ.[٢] فافهم ذلك لتفهم جميعَ ما حرم الله تعالى بنص الكتاب دون لازمه الذي يوجب تحريمَ ما حرّمه الرسولُ، وأنه لا يَحْرم على المسلم بهذا الشرط غيرُ ذلك بل على غيره، كما قال تعالى: **وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر. ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا،** هي المصارين[٣] التي تحوي ما فيها، ويريد بهذه ما كان عليه شحمٌ. واعلم أن حوايا جمع حاوية، ومثله رَاوِية ورَوَايا التي هي من أروى يروي، وعُدل عن رَوَى يَرْوِي لئلا يشتبه بالرواية. **أو ما اختلط بعظم.** وعرّفنا بقوله: **ذٰلك جزينٰهم،** أنه من حين جاءهم الرسول به[٤] الذي يُحِل لهم الطيباتِ[٥] وبغوا على أنفسهم، إذ لم يؤمنوا به بل اختلفوا عنه بغيا بينهم

[١] الآية ١٢١ من هذه السورة.

[٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة المائدة، ٥/٩٠).

[٣] المصير: المِعَى، والجمع أَمْصِرَة ومُصْران، ومَصارين جمع الجمع (لسان العرب، «مصر»).

[٤] ش – به.

[٥] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٥٧).

جزيناهم، ببغيهم وإنا لصٰدقون. فالمؤمن غير العالم لا يَعلم صدْقَ هذه الدعوى وإن آمن بها. وأما من علم صدْقَ ما قلناه فهو يتحقق صدقَ قوله تعالى: وإنا لصٰدقون،
[١٦٤ظ] لأن / اليهود لا يعتقدون ذلك. وعرّفَنا الله في هذه الآية أن جميع ما ذكره ليس بحرام في نفسه ولا بمحرَّم علينا بل حرّمه على بني إسرائيل أولا تشريعا. فلمّا أحله القرآنُ وحرموه بغيا حرمه الله عليهم جزاءً ببغيهم لا من كتاب ولا عن رسول، بل سلط عليهم أهلَ الضلال فأضلوهم. فكان بهذا التسليط هو الذي حرم، فافهم ذلك.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة وٰسعة. الوجه في هذا الكلام أن ذا الرحمة الواسعة لا يُضيّق على عباده[١] دينَهم بغير ذنب يستحقونه. والمعنى أنه لولا سعة رحمته لأهلككم في ساعة التكذيب فهو يُمهل عليكم. ولا يُرَدّ بأسه عن القوم المجرمين.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

ولما ذكر ما حرمه المشركون أولا ذكر ما حرمته اليهود. ثم عاد إلى ذكر المشركين لنعْرِف[٢] أن مَن قال مقالتهم فهو معهم، وأن هذا فيما سيكون إلى يوم القيامة. لهذا قال في غير هذا الموضع: وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟،[٣] إنباء عن الماضي. وقال ههنا: سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا ءاباؤنا ولا حرمنا من شيء، هذا كلام المحاجِجين يريدون[٤] أن الله تعالى من حيث إنه قادر على أنه لو شاء أن لا نشرك لَمَا أشركنا، ولو شاء أن لا نحرِّم لَمَا حرّمْنا من شيء لم يَبْقَ علينا إثمٌ ولا عقاب، إذ نحن في مشيئته ذاهبون وبمراده عاملون. فأخبر الله سبحانه عن هؤلاء أنهم كَذَبوا فيما ادَّعَوْه وجهلوا فيما اعتقدوه وغلطوا فيما ظنوه، وأنهم ومن يقول مقالتَهم لم يَتَّبعوا برهانا ولا عِلما بل ظنّا وحَزْرا.[٥] وذلك أنهم استلزموا من كونه تعالى قادرا على منعهم

---

١ ن ك: على عبادة.

٢ ن: لتعرف.

٣ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (سورة النحل، ١٦/٣٥).

٤ ن: يريد.

٥ ن: وحزر. | الحَزْرُ: التقدير والخَرْص (لسان العرب، «حزر»؛ وتاج العروس للزبيدي، «حزر»).

وأنه لو شاء أن لا يشركوا لَمَا أشركوا، استلزموا أنه شاء أن يشركوا، فكذّبوا رسله في دعواهم إليه من توحيده، وأشركوا وقالوا ما قالوا في هذه الآية، وليس ذلك لازما. فتواعدهم الله سبحانه وقال: كذٰلك كذب، بتشديد الذال ليعم كلَّ مكذِّب إلى هؤلاء. و"مِن" لابتداء الغاية، أي من حين نبوة آدم. ولهذا قال: الذين من قبلهم حتىٰ ذاقوا بأسنا، عقابنا، أي وسيذوق هؤلاء وأمثالهم ما ذاقه أولئك. ثم قال تعالى: قل هل عندكم من علم، يصح عقلا، فتخرجوه لنا، لنتبع العلم. إن تتبعون إلا الظن. وإن أنتم إلا تَخْرُصون.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

قل فلله الحجة البٰلغة، أي إذا لم يكن الله شاء أن تشركوا ولا يرضى لعباده الكفرَ،[1] ولا يغفر أن يُشرَكَ به،[2] وقد أشركتم وليس عندكم شيء من علم تتبعونه[3] وتخرجوه لنا يتضمن صحةَ ما استلزمتم عن ما قلتم بل تتبعون الظن والخَرْص فللّٰه الحجة البالغة عليكم. ثم ذكر الحجة بقوله: فلو شاء، أي شرْكَكم كما استلزمتم إجبارا، لهدىٰكم أجمعين، إجبارا.

[مشيئة الله تعالى]

فانظر كيف نسبوا إليه الضلال إجبارا فنفاه بتكذيبه لهم. ثم نفى عن نفسه أن يُجبر على الهدى مع قدرته عليه فكيف يُجبر على الضلال لقدرته عليه. فتأمل ذلك لتَنظر حكمة المتكلم سبحانه؛ فإنه سبحانه ما شاء أن يشركوا ولا شاء أن لا يشركوا، إذ لو شاء أحدَهما لكان ذلك منهم اتباعا لمشيئته ولَمَا أمكن أن لا يكون إذ ما شاء الله كان. فالحق الذي تنتفي به سائر المناقضات طبعا ووضعا وشرعا هو أنه تعالى شاء أن يشاءوا ما شاءوا[4] مِن كفر وإيمان. وذلك لأنه لا يكون المكلف مكلَّفا بغير هذه الصورة. فلما شاء الله أن تكون لعباده مشيئةٌ كان ذلك بدليل مخاطبته لهم بالأمر[5] والنهي والمشيئة، كقوله: فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ،[6] وبدليل مخاطبة بعضهم لبعض بمثل ذلك. فجاحدُ هذا مختَلُّ المزاج محتاج إلى العلاج.

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (سورة الزمر، ٧/٣٩).

[2] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (سورة النساء، ٤٨/٤، ١١٦).

[3] ك ن: يتبعونه.

[4] ك ن - ما شاءوا.

[5] ن: لهم الأمر.

[6] ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (سورة الكهف، ٢٩/١٨).

ولما كانوا بهذه المثابة من المشيئة التي من أجلها جاز أن يؤمَروا لزم أن يعرِّفهم مصالحَهم ويأمرهم بها ويَعِدهم على فعلها ويتواعدَهم على تركها. وهذا هو زبدة هذا الكتاب العزيز والمرادُ من كل كتاب قبله. ومن ظن غير ذلك فقد أبطل جملة ما جاء من الأمر والنهي في كل كتاب أنزله الله وقد قال بفعله وعقيدته ولازم علمه: ما أنزل الله على بشر من شيء، فهو من الذين ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.[1] وقد[2] لزمه أن العُصاةَ لا يعاقَبون لأنهم إنما فعلوا ما شاء الله أن يفعلوه، وأن المطيعين لا يُثابون إذ ليس لهم في مقدورهم أثر فعل،[3] فهم لا يؤاخَذون ولا يحاسبون ولا يُجزَوْن بخلاف العقول[4] والنصوص. / ويلزمه أيضا أن الله عز وجل له أن يعاقِب على الإيمان ويثيب[5] [١٦٥و] على الكفر فهو شاء الإيمان وشاء العقاب عليه. ومعتقِدُ هذا لا ينتفع بالفقهاء وإنما قد ينتفع بالأطباء، لأنه يعتقد أنه لا ينبغي أن ينكر عليه أحد فيما يعتقد ولا ينبغي أن ينكر هو على أحد ما يعتقد، لأن كلا إنما اعتقد ما شاء الله. ويؤدي هذا من الفساد إلى هلاك العباد وسوءِ المعاد لِما يترتب على ذلك من إقحام الرسل ونبذ الكُتب ومخالفةِ العقول والطبائع فيما ينهى المرء[6] عنه ولدَه وزوجته وعبده من غَشَيان المنكرات، إذ ذلك جميعه شاءه[7] الله إجبارا وجاء بضده أمرا. ومن انغمس عقلُه في هذه الظلمات فلا نفْعَ له في سماع الآيات ولا رؤيةِ المعجزات فضلا عن الانتفاع بهذه الكلمات.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هٰذا. فإن شهدوا فلا تشهد معهم، فإنهم إنما شهدوا بالهوى. ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآيٰتنا. وقوله: فلا تشهد، بمعنى لا تُصدِّقْهم. ولهذا ذكر تكذيب الآيات بعده، لأن من كذّب الآيات فقد كَذَب، فهو أولى بأن يكذِّب في الشهادات. ومن ههنا لا تُقبَل شهادةُ غير المؤمن لتحققه بالكذب

---

[1] الآية ٩١ من هذه السورة.
[2] ك – وقد.
[3] ك ن – فعل.
[4] ش ك: المعقول.
[5] ن: ويثبت.
[6] جميع النسخ – المرء، والمثبت من م.
[7] ن: شاء.

في تكذيب الآيات وجواز الكذب عليه في الشهادات. وهذا نهي لكل مؤمن أن يَتَّبِع أهواء غير المؤمنين أو يَشهدَ معهم. والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون.

﴿۞قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، أي على اليهود والنصارى والمشركين والناس أجمعين من قبل أن تُنزَّل التوراةُ،[1] وذلك من لدن آدم. ولهذا بعد تمام التحريم يقول: ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ.[2] والذي حرمه الله، **ألا تشركوا به شيئا وبالوٰلدين إحسٰنا**، هذا أمرٌ حُرِّم ضده، فأفهَمَنا النهي بالأمر لعظم الاهتمام به. **ولا تقتلوا أولٰدكم من إملٰق نحن نرزقكم وإياهم**. الإملاق الإفلاس. قال عليه السلام: «إذا أملَقتم فتاجِرُوا إلى الله بالصدقة».[3] والفرق بين قوله في مثل هذه الآية في سورة بني إسرائيل: نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ،[4] أن هذه ههنا تدل على أن الإملاق موجود لهم، أي للآباء فقال: **نحن نرزقكم**، ثم عطف فقال: **وإياهم**، إذ الآباء في هذه الصورة مُملِقُون،[5] ومعنى الموضع الآخر أن الإملاق غير موجود، وإنما هم يَقتلون الأولاد خشيةَ وقوعِه على الأولاد أنفسَهم، أي لئلا يَمسَّهم من الإملاق ما يكون الموت خيرا منه. ومثاله: أكرمتك وإياه، فإنه ليس كقولك: أكرمته وإياك، فالمقدَّم لفظا هو[6] الذي وقع الاهتمام به إكراما، والثاني مضاف إليه وقد يكون من أجل المقدَّم. فهنا قتلُ الأولاد هو[7] لأجل الآباء من أجل إملاق واقع. وهناك قتلُ الأولاد[8] من أجل الأولاد خشيةَ أن يقع بهم شيءٌ من إملاق متوقَّع، ولهذا في تلك الآية خشيةَ إملاقٍ.

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٩٣).

٢ الآية ١٥٤ من هذه السورة.

٣ صيد الخاطر لأبي الفرج ابن الجوزي، ص ٣٧. | أي عاملوه لزيادة الأرباح العاجلة (نفس المرجع، ص ٣٧).

٤ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٣١).

٥ المُملق: الفقير الذي لا شيء له (لسان العرب، «ملق»).

٦ ن - هو.

٧ ن - وهو.

٨ ش - هو لأجل الآباء من أجل إملاق واقع وهناك قتل الأولاد، صح، هـ.

ولا تقربوا الفوٰحش ما ظهر منها، للعقل فليترك بالعقل، وما بطن، عن العقل فليترك بالشرع إيمانا وتسليما. ويلزم من ذلك ما ظهر للناس وما بطن عنهم، ولهذا جاء الكلام غير مقيَّدٍ. ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق. ذٰلكم وصىٰكم به لعلكم تعقلون. ذكر العقل أولا ثم أتبعه بالتذكر ثم بالتقوى،[1] لأنه إذا لم يكن عقلٌ لم يكن تذكرٌ، وإذا لم يكن تذكرٌ فلا تقوى.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتىٰ يبلغ أشده، فلا يبقى يتيما إذا بلغ. وأوفوا الكيل، إذا كِلتُم. ثم قال: والميزانَ بالقسط، أي ليس عليكم ما أمزناكم به في الكيل عند الوزن بل القسطُ. لا نكلف نفسا إلا وسعها. وإذا قلتم فاعدلوا، فرضٌ عام يلزم العملُ به عند كل قول. فليس للباحث أن يَبحث وقصدُه قهر الخصم كيف أمكن، بل إذا وجد الحقَّ لم يَمِلْ عنه بوجه ليكون عادلا في القول، ولو كان، المقول في حقه، ذا قربىٰ، للقائل. وبعهد الله أوفوا، أيَّ عهدٍ كان على شرط[2] أن يكون لله. ذٰلكم وصىٰكم به لعلكم تذكرون.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

[١٦٥ظ] وأن هٰذا صرٰطى مستقيما، وهو القرآن ويُخَصِّص / هذه الأوامر المذكورة ههنا، وقد تقدم الكلام على النَّصب.[3] فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق، أي تتفرق، بكم عن سبيله. فقد عرفت أن الحق واحد، وما ثَم قولان إلا في نظر المجتهد لا في نفس الأمر. وهذا بيِّنٌ عقلا وإن[4] لم يأت نصا. ذٰلكم وصىٰكم به لعلكم تتقون، اتباعَ غير سبيله.

---

[1] ذكر الله تعالى العقلَ قد حصل بآخر هذه الآية، وإتباعه بالتذكر قد حصل بالآية التالية، وإتباعه تعالى بالتقوى قد حصل بعد هذه الآية.

[2] ك ن – شرط.

[3] أي نصب كلمة "مستقيما". | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾، الآية ١٢٦ من هذه السورة.

[4] ك ن: ولو.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

ولما قال: قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ،[١] وقال بعده: ثم ءاتينا موسى الكتٰب، فهمْنا أنه تعالى حرَّم المحرماتِ المذكورةَ من قبل موسى على الذين تقدموه. وقد علمت أن إبراهيم ونوحا وغيرهما كلٌّ منهم أُرسل إلى قومه قبل موسى. فعرَفْنا ما حرّمه سبحانه مطلقا من قبل موسى بلزومه من الأوامر ومن الوصايا، إذ جميع ذلك الذي عدّده بيّنٌ ظاهرٌ في العقل حسنُه وصحته ووجوب الأمر به والعدولُ عن ضده. وكل نبي جاء فهو محرِّم لذلك. فأخبر الله أهل الكتاب والمشركين أن ما حرمه عليهم مما ذكره ههنا قد حرّمه من قبل موسى. وذلك بدليل قوله: ثم ءاتينا موسى الكتٰب، أي فكلُّ ما لم يكن في هذه المحرمات ولا في كتاب موسى فهو افتراءٌ وكَذِبٌ على الله. واعلم أن قوله: ثم ءاتينا موسى الكتٰب تماما، ولم يقل: تامًا، يُفهَم منه: "أننا حرمنا ما[٢] ذكرناه قبل موسى". ثم ءاتينا موسى الكتٰب تماما، لما بدأنا به من النعمة والوحي والنبوة مفرَّقا بألسنة الأنبياء من آدم إلى موسى. ولم يقل: متمِّما، لأنه كان يدل على أن كتاب موسى لم يَخْوِ ما تَقدم بل جاء فيه ما تمَّم فقط، وليس كذلك بل جاء فيه ما تقدم وزيادة. وكذلك يلزم فيما جاء به كلُّ مرسَلٍ إلى أن تختم الرسالةُ كما خُتمت بقوله: ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى.[٣] فهذا خطاب، وإن كان خاصا لكنه يلزم عنه العمومُ لكل من أُرسل إليه محمدٌ صلى الله عليه وسلم. وقوله: على الذى أحسن، بيناه في الآية التي تأتي،[٤] وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون.

وهٰذا كتٰب أنزلنٰه مبارك. اعلم أنه لمّا جاء في أوائل هذه السورة وَهٰذَا كِتٰبٌ،[٥] وجاء ههنا، وهٰذا كتٰب،[٦] دل على أن قوله: ثم ءاتينا موسى الكتٰب، منسوق بما قبل قوله أولا في هذه السورة: وهٰذا كتٰب، فيكون قوله: ثم ءاتينا موسى الكتٰب،[٧] منسوقا[٨] بقوله:

---

[١] الآية ١٥١ من هذه السورة.

[٢] ن – ما.

[٣] سورة المائدة، ٣/٥.

[٤] ك ن: يأتي.

[٥] الآية ٩٢ من هذه السورة.

[٦] ك – وجاء ههنا وهٰذا كتٰب، صح هـ.

[٧] ش – منسوق بما قبل قوله أولا في هذه السورة وهٰذا كتٰب فيكون قوله ثم ءاتينا موسى الكتٰب، صح هـ.

[٨] ك ن: منسوق.

وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ.[1] وذكر من ذكره من الأنبياء من ذرية إبراهيم[2] وذرية الذرية. وكأنه قال هناك: ثم ءاتينا موسى الكتٰب تماما، لأن كل واحد من هؤلاء لم يأتِ بكتاب تامّ بل إما بصحيفة أو بوصايا.[3] وكل واحد منهم أحسن فيما جاء به من ربه، وأحسن إلى نفسه وقومه وإن لم يكن بكتاب تام. فقال سبحانه: ثم ءاتينا موسى الكتٰب، بعد هؤلاء تماما على الذى أحسن، من هؤلاء فيما جاء به، وتفصيلا لكل شىء، ولم يفصله من قبله. وهدى ورحمة لعلهم، أي المرسَل إليهم الرسول، بلقاء ربهم يؤمنون. ثم كرر قوله ههنا: وهٰذا كتٰب، ليدلنا بنفس اللفظ المذكور المكرَّر بعينه أن قوله: ثم ءاتينا موسى، هو منسوق على ما قبل قوله أولا: وَهَٰذَا كِتَٰبٌ. وإنما قاله هناك لتمام الاحتجاج عليهم. وكرره ههنا لمعنيين. أحدهما ليدل على أن قوله: ثم ءاتينا موسى الكتٰب، منسوق بما قبل قوله أولا: وَهَٰذَا كِتَٰبٌ. والثاني ليعطف على قوله ههنا: وهٰذا كتٰب أنزلنٰه مبارك، ما جاء بعده وهو قوله: فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

وإنما أنزلنا عليكم هذا الكتاب حذرا، أن تقولوا إنما أنزل الكتٰب علىٰ طائفتين من قبلنا وإن كنا، أي وإنا كنا،[4] عن دراستهم، الكتابَ المنزَّل عليهم، لغٰفلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتٰب لكنا أهدىٰ منهم. فقد جاءكم بينة، يريد جملة الكتاب، من ربكم وهدى ورحمة. فمن أظلم ممن كذّب بئايٰت الله وصدف عنها، بنفسه أو بغيره.[5] سنجزى الذين يصدفون عن ءايٰتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

١ الآية ٨٤ من هذه السورة.
٢ ش – وذكر من ذكره من الأنبياء من ذرية إبراهيم.
٣ ش ك: أو وصايا.
٤ ك – أي وإنا كنا، صح هـ.
٥ ك ن: أو غيره.

هل ينظرون، ينتظرون، إلا أن تأتيهم الملٰئكة، أي لقبض أرواحهم، أو يأتى ربك، بالأمر الذي فيه هلاكهم واستئصالهم، فلا يُنظَرون بعد ذلك، وهو كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾، / ويريد به أمرَ الله أي العذاب[1] لهم قبل أن تتوفاهم [١٦٦و]
الملائكة بالأجل. ولهذا قال[2] بعده: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.[3] أو يأتى بعض ءايٰت ربك. يوم يأتى بعض ءايٰت ربك لا ينفع نفسا إيمٰنها لم تكن ءامنت من قبلُ أو كسبت فى إيمٰنها خيرا، إشارة إلى أن من آمن إيمانا فقط ولم يلحق أن يعمل خيرا إذ عاجله الموت. وهذا هو النفع الأقل وإن أُنجي من النار. وأما الأكثر فهو ما قال تعالى: أو كسبت فى إيمٰنها خيرا، أي مع الإيمان، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾،[4] الآية. ولما تقدم، هل ينظرون، قال بعده: قل انتظروا إنا منتظرون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء، يفيد، أي فلا تعتمد عليهم. ويحتمل لست أنت منهم ولاهم منك في حالة من الأحوال فيعودَ عليك شيءٌ مِن كفرهم. إنما أمرُهم إلى الله، فهم سيرجعون إليه. ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون، ويجازيهم به.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

ثم ذكر الجزاء في ذلك اليوم فقال: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، لا ينقص عن ذلك وقد يزيد: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾،[5] كقوله:[6] ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾،[7] وكقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.[8] وذلك لأن الفعل الواحد يختلف[9] الجزاءُ عليه باختلاف إيمان الفاعل. ومن جاء بالسيئة فلا يُجزَى إلا مثلَها وهم لا يُظلَمون، شيئا، والله يغفر لمن يشاء

---

[1] جميع النسخ: بالعذاب.

[2] جميع النسخ – قال، والمثبت من م.

[3] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢١٠).

[4] ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (سورة طه، ٢٠/١١٢).

[5] ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦١).

[6] ش + أيضا.

[7] ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٤٥).

[8] سورة البقرة، ٢/٢٦١.

[9] ش: مختلف.

بعد ذلك كله. فافهم هذا التقسيم الذي بان فيه الكرمُ الجَمّ، وانفتح بمعرفته بابُ الشكر الأعم والرجاءِ الأتمّ.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

قل إننى هدىٰنى ربى إلىٰ صرٰط مستقيم دينا قيما، تقديره إلى دين قَيّم، ملةَ إبرٰهيم، أي شريعة. وقيل بأن الملة مشتقة من الإملاء، أي مما يملي على قومه من[١] الهدى، وهو بعيد على أصل اللغة. حنيفا وما كان من المشركين.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

قل إن صلاتى ونسكى، بيّنّا النسكَ عند قوله: جَعَلْنَا مَنسَكًا،[٢] ومحيايَ ومماتى لله رب العٰلمين. لا شريك له وبذٰلك أمرت وأنا أول المسلمين، من أمتي.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء، ثم قال بواو الحال:[٣] كيف أبغي ربا غيره؟ ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ، نفسٌ حاملة وزرا لا يزر[٤] عنها غيرُها وزرَها. ثم إلىٰ ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

ثم عطف على قوله: قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا،[٥] [قوله:] وهو الذى جعلكم خلٰئف الأرض، ذُكرت خلائف في البقرة.[٦] والمعنى يَخلُف أهلُ كل عصرٍ عصرا قبلهم،

---

١ جميع النسخ – من، والمثبت من م.

٢ انظر: سورة الحج، ٣٤/٢٢.

٣ أي واو "وهو رب".

٤ ك: لا تزر؛ ن: لا نزر.

٥ من الآية السابقة.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ٣٠/٢).

وكلٌّ منهم خليفةُ الله. وقوله: **ورفع بعضكم فوق بعضٍ درجٰتٍ**، منصوب بتقدير حذف حرف الجر، أي "على"، أو "في"، أو "إلى"، أو بدرجات. وهذا من حيث الخِلْقة والعطاءُ. وإنما فعل ذلك كذلك، **ليبلوكم فى ما ءاتىٰكم**. فالابتلاء واحد والجزاء على الأعمال. والأعمال فيما رَفع ووضع من الدرجات لها جزاء واحد، لا أن ذا الدرجة الرفيعةِ يكسب أجرا أكثر من ذي الدرجة الوضيعة، بل الكل في الابتلاء واحد. فإن المائة من صدقة ذي الأَلْفِ كالدرهم من صدقة ذي العَشَرة. والأعمال بقدر التمكين. والعطية الباطنة كالعطية الظاهرة. والسؤال عما قد كان يُمكن العاملَ أن يعمله فلم يعمل فقد عاد المراد بذلَ الاجتهاد. فَلْيَكُ[1] ذلك من كل إنسان بأي زمان وبأي مكان، أو من إنسان واحد في حالين أو زمانين جميع ذلك واحد، لأن بكل تمكنٍ يجب تكليفٌ. فمن نقص فعليه والأمر إليه. فانظر إلى هذا العدل الأعم والتساوي فيما خص وعَمّ. **إن ربك سريع العقاب**، لمن أصرّ. **وإنه لغفور رحيم**، لمن تاب. وأراد بالسرعة القدرة، وجعل ذكْرَ الرحمة أخيرا ليطمع العبادُ، إذ عرّفَهم أنه مع السرعة في العقاب غفران ورحمةٌ. ولو علم مَن تفكر لوجد النار من جملة رحمته، فهي للمؤمن من جملة النِّعَم، وإن كان إيجادها للكافرين من أجل النِّقَم. لكن لمّا كان كسبُ النفوس عائدا عليها وقد اختُبِرت بكل ما بيْن يديها كانت الرهبة من الجحيم أنفعَ لها من الرغبة في النعيم.

والحمد لله الذي تمت نعمته وعمّت رحمتُه. والصلاة والسلام / على سيدنا محمد [١٦٦ظ] الذي كمُلت هدايتُه ووجبت طاعته صلاةً متصلة بلا انفصال في كل آن وحال.

[1] ن: الاجتهاد قليل.

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

اعلم أن الترتيب إذا لم يكن مفهَما فقد نبّه على فضيلة التركيب فقط. فكأنه يقول: إن جميع الحروف وترتيبَها هو الذي أبرز عن قصد مِن الناطق بها ما هو في غيب ذاته إلى غيب ذات السامع، فشهد المعنى بنفس التركيب من بسائط الحروف. فلولا الاجتماع على النحو المقصود لم نعلم[1] تعيّنه[2] التي لأجلها ظهرتِ الحركة، فالبَساطة[3] حجاب. ولهذا نطق بالحروف مقطَّعاتٍ وبالتركيب الذي هو سِتْر على الحقائق، يَرتفع ذلك الحجاب إذا كان التركيب[4] مفهَما. فأما ما ليس بمفهم فهو منبه على فضيلة التركيب كأنه قال: إنّ بسائط من الحروف تركبت فهي كتاب.

فقوله: **الٓمٓصٓ**، مبتدأ خبره، **كتٰب أنزل إليك**. ولمّا كان أول التعليم هو بسائط الحروف، ثم تركيبَها، ثم الإفهام بها وبالتركيب، وكان هذا الكتاب كاملا لأنه آخر الكتب جاء مستوعبا لأول كل شيء؛ وهو بسائط الحروف نطقا، ثم تركيبها وضعا، ثم الإفهامُ بها جمعا. **فلا يكن فى صدرك حرج منه**، أي من أجله، **لتنذر به وذكرىٰ للمؤمنين**، أي أُنزل لتنذر به الكفارَ وأُنزل ذكرى للمؤمنين.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

اتبعوا، الفرق بين أتْبع مخففةَ التاء وبين المشددة أن[5] المشددة[6] تنصب مفعولا واحدا، والمخففة تنصب مفعولين؛ تقول: اِتّبعتُ زيدا وأَتبعتُ زيدا عمروا. **ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون**.

---

[1] ش ك: لم تعلم.
[2] ش ك: عينه.
[3] ش: فالبسائط.
[4] ش – إذا كان التركيب، صح هـ.
[5] ش: لأن.
[6] ك: المشدة أن المشدة.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤﴾

وكم من قرية أهلكنٰها، بعذاب الاستئصال إذ كذّبت بعد رؤية الآيات. ثم فسر وذكر صورة الإهلاك بقوله: فجاءها بأسنا بيٰتا أو هم قائلون، تقديره أو وهم قائلون، وهو من القَيْلولة في نصف النهار. وأصله الراحة، أقلتُه البيع:[1] أرحته منه، فكأنه قال: نصفَ الليل أو نصف النهار، أي حين ما يكون السكون والراحة والأمن والغفلة في غالب الأمر. وفهم الوقت من الليل من تعيينه للنهار، وإنما لم يُعيّنه لأن الليل كله محل السكون.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥﴾

فما كان دعوٰهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظٰلمين، اعترفوا إذ لا يفيدهم الاعتراف.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾

فلنسئلن الذين أرسل إليهم، كقوله: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ.[2] ولنسئلن المرسلين، كقوله: مَاذَا أَجَبْتُمْ.[3] ولا يناقض قوله تعالى: فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ،[4] فإن ذلك بعد أن حق عليهم القول كما سنبينه في موضعه.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧﴾

فلنقصن عليهم، ما عملوه، بعلم، عندنا لا يُغلَم من جهة أعمالهم. لهذا قال: وما كنا غائبين، عنهم عند العمل[5] أيضا. والمعنى أنا علمنا ما سيكون منهم قبل العمل وشهدنا ذلك بعينه حين العمل، لأنه ذكر العلم أولا.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾

---

[1] أَقَلْتُه البيعَ إقالةً، وهو فسخُه، قال: وربما قالوا: قِلْتُه البيعَ فأقالني إياه (لسان العرب، «قيل»).

[2] ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ (سورة الزمر، ٧١/٣٩).

[3] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة القصص، ٦٥/٢٨).

[4] سورة الرحمٰن، ٣٩/٥٥.

[5] ن: عند العلم.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

ومن خفت موٰزينه فأولٰئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بـٔايٰتنا يظلمون، أي بتكذيب آياتنا يظلمون أنفسهم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

ولقد مكنّٰكم. اعلم أنه فرقٌ بين من يُمنع عن الفعل الذي هو قادر عليه وبين من يُلزَم به. فالعبد مُمكَّن من فعل الشيء وضده في قوله وفعله بدليلِ، **ولقد مكنّٰكم**، ومثلِه، ولكنه ممنوع. ولهذا وجب عليه الاستثناء.[١] فإذا رُفع عنه المنع لا يَلزم الجبر بل بقي على التمكين. فافهم هذا جيدا متأنيا ولا تغلَطْ في نفي ما يرِد عليه. فالغرض نفي الجبر، والغلط هو أن تظن أن المنع جبر على أن لا يفعل، وأنّ زواله أيضا إجبار على أن يفعل. وليس زوال المنع إلزاما بالفعل وإن كان وجود المنع إلزاما بتركه. فيجب أن تعتقد التمكينَ فيما أُمِرتَ به ونُهيتَ عنه محقِّقا، ولا تظنّه لك في كل شيء مطلقا. ولهذا قال: **ولقد مكنّٰكم فى الأرض**، أي فهلا دلّكم تمكينُنا لكم في الأرض على تمكيننا لكم من تأدية الفرض. وكذلك قوله: **وجعلنا لكم فيها معٰيش**، تكتسبون للحياة الفانية فهلا تكتسبون كذلك للحياة الباقية. ولما كان التمكين أجلَّ النِّعَم عابهم بقلة الشكر عليه،
فقال [في] تمام الآية: / **قليلا ما تشكرون**، وليست "ما" زائدةً، بل المعنى: قليلا الشكرُ [١٦٧و]
الذي تشكرون الله تعالى ولو كان ما كان[٢] بالنسبة إلى كثرة نِعَمه عليكم وأجلّها التمكينَ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

ولما ذكر التمكين أتبعه بذكر آدمَ وإبليسَ، لأنهما أول من مُكِّنا من الطاعة فأتيا بالمعصية، فيكون الإخبار عن إبليس وآدم زاجرًا لسائر الخلق. فلهذا قال: **ولقد خلقنٰكم**. الخلق من الله هو الإيجاد والإبداع الأول كإبداع ما لم يكن. ويريد به ههنا آدم، كقوله: وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ،[٣] وهو آدم سُلَّ منه النطفةُ بدليلِ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ.[٤] وقوله ههنا: **ولقد خلقنٰكم**، في الأصلاب، **ثم صورنٰكم**، أي في الأرحام،

---

[١] أي التفريق بين الحالتين.
[٢] أي من الشكر.
[٣] سورة المؤمنون، ١٢/٢٣.
[٤] سورة المرسلات، ٢٠/٧٧.

ثم قلنا للملٰئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، لم يكن من السٰجدين. فالملائكة ساجدون بأمر الله تعالى إلى يوم القيامة، وإبليسُ غير ساجد أبدا وهو المتكبر أبدا. فاعرفه فيك أوّلا ثم في غيرك، فأنت مَظهره الأعظم.[1] وفي مثل ذلك غَلط مَن ظن أن المراد بأكثر القرآن هو الإشارة إلى العالم الأصغر وهو الإنسان، واعتقد أن الملائكة هي القوى، وجعل الشمس بمنزلة العقل وغير ذلك. ومن هذا القبيل طائفة البصيرية،[2] وهم يكفرون بالرحمن. وإنما هذه ألفاظ وأمثال. ولتلك الألفاظ معانٍ، ويتفق لتلك المعاني مماثلاتٌ من أحوال الإنسان أو أعضائه.[3] فيتفق هناك مطابقة من[4] وجه أو وجوه. فلا يجوز للعاقل أن يعتقد أن الإشارة بلفظ القرآن هو إلى ما خطر بباله من المناسبات خاصة. وإنما إذا استحسن شيئا فنبّه عليه بمثله، وعرف المقصود الحقيقي من المماثل المعنوي فقال إما منبها أو واعظا، كقولنا: إن إبليس هو المستكبر فيك، إذ الاستكبار مضاف إليه؛ والسجود ليس[5] من صفته بل من صفة الملائكة، فجائز ذلك، فافهمه وتفقه[6] في مثله.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

مثلُه: قال ما منعك، فجعلك، ألا، أن لا، أي أنك، لا تسجد، فليست "لا" زائدةً ولا كما قيل. والمعنى ما منعك أن تأتمر[7] بأمري، إذ، حين، أمرتك. ولم يقل: لِم لا سجدتَ بلفظ الماضي بل بلفظ المستقبل الذي هو وإن دل على الماضي ههنا دال أيضا على الحال والاستقبال إنباءً لنا أنه لا يسجد أبدا. قال أنا خير منه، لو كان السؤال لِم لا سجدت، كان الجواب: كنتُ خيرا منه. فقوله: أنا خير، دل على أنه كان بزعمه فيما مضى مع دلالته على الحال والاستقبال. وذكر السبب فقال: خلقتنى من نار وخلقته من طين. تكلم إبليس بحجة[8] صحيحة عنده في زعمه أنها أصل، ولم يعلَم أن الخير في الثمرة، وأن الثمرة في الفرع، وأن امتثال الأمر ثمرة الخلق. ولم يَفضُل آدمُ على إبليس إلا بالتوبة، لأن كُلًّا منهما عصى.[9] فافهم هذا جيدا.

---

[1] ن – الأعظم.
[2] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر التي أمكنني الوقوف عليها.
[3] ن: وأعضائه.
[4] ك ن – من.
[5] ن: وليس.
[6] ك ن – وتفقه.
[7] ن: أن تأمر.
[8] ك: بحجية.
[9] ك: مضى.

واعلم أن الله تعالى عرّفنا بهذه القصة أحوال متبعي إبليس وأنهم يحاجّون بحق عندهم ويجهلون[١] الحق في نفسه. فإبليس جهل فضيلة العلم الذي لم يكن السجود لآدم إلا بعد حصولها. ومن فكّر في هذه الكلمات الإلهية وما يتعلق بها ناظرا إلى حاله رأى من نفسه عجبا. واعلم أنه يجب أن تفهم هذه الجملة: وذلك أنه تعالى إنما تلا قصة آدم وإبليس لكونه قدّم ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾،[٢] لأنهما[٣] مُكِّنا من امتثال الأمر ومِن مخالفة الأمر، وكُلِّفا الأمرَ[٤] فبنى القصة على ذلك. ولهذا أول القصة ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾.[٥] وقوله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، أي في المخالفة والإصرار. لهذا بعده: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾،[٦] أي من تبعه في غير ذلك ليس حكمه كذلك، ومن تبعه في ذلك ولم يُصِرّ لم يكن تابعا له في التوبة بل لآدم.

وأما حكمة بيان السبب الذي منع إبليس أن يسجد فعظيمة. وذلك هو ميل إبليس عن الأمر إلى العقل. فبين الله سبحانه أن الشرع هو الأمر منه سبحانه. فمهما[٧] لم يسجد العقلُ[٨] معترفا بقصوره عن إدراك حكمة الأمر، فهو تابع لإبليس في كونه لم يسجد طاعةً للأمر. وإذا كان هذا في معرفة الأمر فكيف حالُ من طمع في معرفة رب الأمر بالعقل. وأما قوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾،[٩] فهي صفة الجبري الذي إذا وقع في المعصية نسبها إلى ربه، وهؤلاء حزب إبليس. ولهذا قال عن الفاحشة: ﴿وَٱللَّهُ / أَمَرَنَا بِهَا﴾.[١٠] [١٦٧ظ]

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾

والله سبحانه قد بيّن أنه إنما أغواه تكبُّره، وذلك بقوله تعالى: **قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصّغرين**، هذا يدل على أنها لا يدخلها المتكبرون فحيث كان التكبر ولو طرفةَ عينٍ لا يكون صاحبه حين[١١] التكبر في الجنة. وكيف يدخل إليها بسبب هو بعينه أُخرِجَ منها مَن بها؟

[١] ش: وتجهلون.
[٢] الآية ١٠ من هذه السورة.
[٣] ك – ولقد مكنّكم فى الأرض لأنهما، صح هـ.
[٤] جميع النسخ: وكلتا الامتثال، والمثبت من م.
[٥] الآية ٣ من هذه السورة.
[٦] من الآية التالية برقم ١٨.
[٧] جميع النسخ: فهمنا، والمثبت من م.
[٨] ش – فبين الله سبحانه أن الشرع هو الأمر منه سبحانه فهمنا لم يسجد العقل، صح هـ.
[٩] الآية ١٦ من هذه السورة.
[١٠] الآية ٢٨ من هذه السورة.
[١١] ن – حين.

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ١٥﴾

يا هذا! انظر إلى إبليس، إذ هو مسخوط عليه مطرود ملعون كيف لم يَصرِفه ارتكابُه للخطيئة وإصراره على المعصية عن أن يسأل ربَّه طامعا في الإجابة غيرَ آيِسٍ من بلوغ ما سأل. وإنما سأل الإنظار ليأخذ بالثأر. فصرف الله كيده عن المؤمنين من عباده وبلّغه من الكفار نهاية مراده. فآدم غوى بما عصى لكنه تلقّى من ربه كلماتٍ فتاب عليه[1] وهدى. وإبليس غوى بما عصى فأصرَّ على ما جنى. فأغواه على غيّه بما غوى، كما قال: فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا،[2] وكقوله: فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ،[3] الثاني عقاب على الأول. والإغواء من الله لإبليس عقاب على إصراره وتكبُّرِه بعد الأمر.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾

ولمّا قال الله لآدم وحواء: أَلَمْ أَنْهَكُمَا؟... قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا.[4] ولما قَالَ لإبليس: مَا مَنَعَكَ... قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ.[5] فأغواه بإصراره وتكبُّرِه، ثم طرده عن جنته ولجهله بذنبه. قال فبما أغويتني، يقال: غَوَى يَغْوِي إذا جهِل، فهو بفتح واو الماضي وكسرها في المستقبل، والمصدر غيّا وغواية فهو غاوٍ وغوٍ، وأغواه غيره فهو غَوِيّ على فعيل. وليس معنى "غوى" ضل بل جهل، قال تعالى: مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ.[6] فلا يحسن أن يكون ما ضل وما ضل. فالإغواء من الله لإبليس إنما كان بعد المخالفة عقابا، والذنب باقٍ فالعقاب باقٍ. وإنما أخبر الله أن اللعنة عليه إلى يوم الدين،[7] لِما علم منه أنه لا يعود إلى التوبة. فغلط أخيرا بقوله: أغويتني، كما غلط أولا بترك الأمر. وإلا فإبليس قد أبان أن ذلك من كسبه بعقله وجادل عن نفسه بقوله: أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ، وهذا حاجز عقلي قياسي وقع فيه الغلط أولا بقوله: أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ، وأخبر بقوله: أغويتني، أي جعلتني جاهلا. وكذلك قوله: قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا؛[8] والمعنى فيخالفوك كما خالفتُ، فكان جوابه:

---

١ يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (سورة البقرة، ٣٧/٢).

٢ سورة البقرة، ١٠/٢.

٣ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ١٢٥/٩).

٤ الآية ٢٢ و٢٣ من هذه السورة.

٥ الآية ١٢ من هذه السورة..

٦ سورة النجم، ٢/٥٣.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (سورة الحجر، ٣٥/١٥).

٨ سورة الإسراء، ٦٢/١٧.

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ.[١] فقد لزم أن[٢] العقاب عل مخالفة الأمر مع الاستطاعة. فلما غوى إبليس بمخالفة الأمر مع الاستطاعة عاقبه الله بأن أغواه، أي أبقاه على غوايته؛ وآدم لما غوى تاب. وقوله ههنا: **لأقعدن لهم صرٰطك**، أي للذرية في صراطك المستقيم. وإنما قعد على الصراط لأن الذي لم يأت إلى الصراط قد كفى إبليسُ همَّه، وإنما يعاند من يأتي فيضله.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾

وقوله: **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمٰنهم وعن شمائلهم**. هذه هي الجهات التي يأتي منها العدوُّ وخَطَرُها. وأما مِن فوق ومن تحتُ فذلك من أمر الله تعالى، كقوله: [هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ] أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ.[٣] **ولا تجد أكثرهم شٰكرين**، أي لا يشكرون على ما أنعمت عليهم به. وهذا دليل على أن ترك الشكر متابعة لإبليس، فافهم. قال الله تعالى: وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ؛[٤] وقال تعالى: وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ، ثم قال: وَمَن كَفَرَ.[٥] فإذا لم يكونوا شاكرين فهم كافرون. كأنه قال: ولا تجد أكثرَهم شاكرين بل كافرين. وذلك بترك الشكر الواجب عليهم وإن لم يكونوا كفارا بالله ولا برسوله بل كفار النِّعَم.

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾

قال اخرج منها مذءوما مدحورا، مدفوعا. والذَّأم العيب يُهْمَز ولا يهمز، يقال: ذامه يَذْأَمُه إذا حقره وعابه مثل دأبه. وأما الذم فهو نقيض المدح. **لَمَن تبعك منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين**.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾

---

١ سورة الحجر، ٤٣/١٥.

٢ ن: لزم أنه.

٣ سورة الأنعام، ٦٥/٦.

٤ سورة البقرة، ١٥٢/٢.

٥ ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ (سورة النمل، ٤٠/٢٧).

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ولما خرج إبليس من الجنة وأسكن الله آدم وحواء فيها لم يكن إبليس يصل إليهما إلا بطريق[1] الوسوسة، **فوسوس لهما الشيطٰن**. ومن ههنا ذَكر أربابُ العمل أنه إنما [١٦٨و] / يجب أن يُقهر الشيطانُ عند أول توليده الوسواسَ. وأما إذا صغت القلوبُ فقد تمكن وحصلت الإجابة، فافهم واحذر، فهذه الوصية رأسُ الأمر. وهو الموسوس دائما، **ليبدى لهما ما ووری عنهما من سوءٰتهما**. السَّوْآت كانت باديةً، ولكن كان قد وُورِي عنهما حالةٌ تتعلق بالسوآت. ولهذا لم يقل: ليبدي لهما سوآتهما. وفي الموضع الآخر حذف ذكر المواراة لِما بيّنه ههنا.[2] والطفل سوآته باديةٌ له، ولكنه لا يعرف حالة تتعلق بها، وكلما عرف سَتر. والسَّوْأة مشتقة من السُّوء، ومنه السيئة ضد الحسنة، ساء يسوء سَوْءًا وسَوْءة، مثل لام يلوم لوما ولومة. فلغلبة هذا الوصف على الموصوف به أسقط الموصوف به في الذكر، وسمِّي باسم الصفة مبالغةً وحقَّ ذلك؛ لأن هذا أوّلُ سُوءٍ ظهر إلى الكون من أول مخلوق من البشر، وأول فتنة[3] ظهر بها إبليسُ. فهو بِكْرُ معصيته للأمر ولم يكن إلا بالوسوسة فوسوس، **وقال ما نهٰكما ربكما عن هٰذه الشجرة إلا**، حذرا، **أن تكونا ملكين**، بكسر اللام[4] لقوله: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ،[5] **أو تكونا من الخٰلدين**.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

عرّفنا الله تعالى بعد مضمون هذه القصة وجوبَ الحذر من العدوّ وأنه إن دل على ما يقتضيه العقلُ واستحلفناه وحلف لنا وظَنَنّا[6] أنه من الناصحين لا يجوز بعد ذلك كلِّه أن نقبل منه كما لم يَجُزِ القبولُ من إبليس، إذ كان الحسد سابقا والعداوةُ[7] متقدمة. وأفادت هذه الجملة أنه لو كان يصح لأحدنا الخلدُ ومُلكٌ لا يبلى[8] بأكلة واحدة

---

١ ش - بطريق، صح هـ.

٢ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية ٢٢ من هذه السورة.

٣ ن: وقته.

٤ عن السدي قال: كان ابن عباس يقرأ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلِكَيْنِ﴾ بكسر اللام (جامع البيان للطبري، ١٠٨/١٠).

٥ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (سورة طه، ١٢٠/٢٠).

٦ ن: وظنناه.

٧ ك + أو.

٨ سبق آنفا.

مما نهى الله عنه لا جائز له ذلك لِما قد أعد الله له مما لا يصل إليه إلا بطاعته. وفهِمْنا أيضا أن الحذر واجب على سائر بني آدم من الذَّكر والأنثى.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

ولو كان أحدنا قد بلغ إلى درجة النبوة مثلا حتى كان حَالًا في الجنة فإنه يُخاف عليه من إبليس، لقوله: **فدلىٰهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءٰتهما وطفقا.** طفق إلى الشيء بادر مسرِعا. **يخصفان عليهما من ورق الجنة. ونادىٰهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطٰن لكما عدو مبين.**

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

لم يقتصر آدم على هذا القول والاستغفار والاعتراف فقط، بل الإشارة إلى هذا وما شاكله.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قال اهبطوا، ولم يقل: منها جميعا، والخطاب لإبليس معهما ولذرية إبليس ولذرية آدم. قوله: **اهبطوا**، خطاب لجمع. ولما كان قد تقدَّم الأمرُ لإبليس بالبهوط -أعني في موضع آخر[1]- وأمر ههنا لآدم وحواء بمثل ذلك ذكر ما يدل على الجمع لاجتماعهم في صفة واحدة وإن اختلفت أوقاتُ الهبوط، لأن آدم لم يكن هبوطه بذنب بل على حكم الابتلاء، لأنه تاب قبل ذلك.[2] وعرَّفنا من هذه القصة أن البلية واحدة وهي مخالفة الأمر. ثم ذكر بعد الهبوط حالةً هم عليها أبدا فقال: **بعضكم لبعض عدو**، خطاب لجَمْعهم المشارِ إليهم بقوله: لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ،[3]

---

[1] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الآية ١٣ من هذه السورة.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٧-٣٨).

[3] الآية ١٦ من هذه السورة.

ومثله لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ.[1] والجمع الآخر قبيلُ إبليس، لقوله تعالى: إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ.[2] ولكم فى الأرض مستقر ومتٰع إلىٰ حين، تقديره: فلما هَبَطوا إليها، قال فيها تَحْيَون وفيها تموتون ومنها تُخرَجون، إلى البعث.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وبعد ذلك عرّفنا زبدة هذه القصة فقال: يٰبنِى ءادم قد أنزلنا عليكم لباسا يوٰرى سوءٰتكم وريشا، ذكره مع اللباس، يريد به ما يَحسُن من ملابس الإنسان كما يحسن من ريش الطائر الذي هو لباسه كالطاووس؛[3] ويشير إلى ما نفعُه وزَينُه لنا كنفع الريش وزينته للطائر مضافا إلى ما معناه وريشا يكون فيه لباس أيضا. ولما كان اللباس من النبات والنبات من المطر جاز أن يعبر عنه بالإنزال. والريش للإنسان استعارة تشبيها بما يَحسُن من ريش الطائر. وكذلك قوله: ولباس التقوى، استعارة أيضا، كقوله: لِبَاسَ ٱلْجُوعِ.[4] وقوله: ذٰلك، أي الذي كان على آدم فأغناه عن ملابس الدنيا خير. ذٰلك من ءايٰت الله لعلهم يذّكّرون، ما جرى لأبيهم آدم مع إبليس / فيجتنبوه. [١٦٨ظ]

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وغرض الحكاية كما قدمناه هو قوله: يٰبنى ءادم لا يفتننكم الشيطٰن، هو دعاؤه إلى الخطيئة بوجه خفي كما تشتهيه[5] النفسُ، كما أخرج أبويكم من الجنة. لما كان سببا للإخراج عبر عنه بأنه أخرج كما قال: ينزع عنهما لباسهما، من التقوى، ليريهما سوءٰتهما، يرى أحدهما سوءة الآخر بعين الفحشاء. إنه يرىٰكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، دليل على أن الجن لا يُمكنهم أن يتصوروا بصُوَر الأجسام بحيث يراهم الناس.

---

١ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ٦٢/١٧).

٢ الآية ٢٧ من هذه السورة.

٣ ش ك: كالطاوس.

٤ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النحل، ١١٢/١٦).

٥ ك: كما تشهيه.

وكذلك لا يمكنهم أن يؤذوا بني آدم بشيء سوى الوسوسة والدعاء، ودليله ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾.[١] فمن أجاب فهو الذي مكّن وسلّط على نفسه. **إنا جعلنا الشيٰطين أولياء للذين لا يؤمنون**، عقابا لكونهم[٢] لم يؤمنوا. وقد تقدم في البقرة بيانُ هاتين الآيتين.[٣]

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وإذا فعلوا فٰحشة، أي الذين لا يؤمنون، **قالوا وجدنا عليها ءاباءنا والله أمرنا بها. قل إن الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله ما لا تعلمون.**

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله: **فريقا هدىٰ**، أي فاتخذوا الله وليّا، ومعنى "هدىٰ" أي هداهم بالكتاب والرسول. ولا تفهم أنه هداه إجبارا، فلمّا هداهم واهتدوا حَقّ عليهم الهدى. وبين ذلك بقوله: **وفريقا حق عليهم الضلٰلة**، أي وجب بحقٍ أن نُضلّهم. وفسره وأزال الإشكال بقوله بعده: **إنهم اتخذوا الشيٰطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون**، والمعنى بسبب أنهم اتخذوا. ولمّا ذَكر أحد السببين مما فعله أحدُ الفاعلين عُلم الآخر بطريق اللزوم، وبيّن لهم ما هو منهم وهو الضلال. فلم ينسبه إليه لأنه جزاء، فهو من عند أنفسهم أصلا.

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

يٰبني ءادم خذوا زينتكم عند كل مسجد، يريد جميع ما يَزين في العبادة خاصة كالوضوء واللباس، والأدب في المشي والقولِ والفعل، وغير ذلك. **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**، في شيء.

---

[١] ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (سورة إبراهيم، ٢٢/١٤).

[٢] ك ن: لكونكم.

[٣] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآيتين من سورة البقرة، ٣٥/٢-٣٦.

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾

ثم نسق عليه تمامه وهو قوله: **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبٰت من الرزق**، يدل على كل[1] ما يتزيَّن به وسائرِ الطيبات من كل ما يرزقه الإنسانَ إلا المحرَّم. **قل هى للذين ءامنوا فى الحيوٰة الدنيا خالصةً يوم القيٰمة**. تقديره قل من حرّم [زينة الله] في الدنيا، ولو قال كذلك لاحتاج إلى[2] أن يكررها في موضعها أيضا، فأخرها وذكرها بعد، فاستغنى عن ذكرها قبل، لأن المعنى قل: هي خالصة يوم القيامة للذين آمنوا في الحياة الدنيا. ولا تَفهم من الطيباتِ الشهواتِ المَنهِيَّ عنها. **كذٰلك نفصل الآيٰت لقوم يعلمون**. وهذا الإنكار هو لكونهم حرَّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله. فافهمه مخصَّصا وإن احتمل العموم. وأراد أن يوم القيامة لا يشارك المؤمنين في الزينة والطيبات أحدٌ، وفي الدنيا يشاركهم غيرُهم، فأنبأ بالإباحة[3] لهم في هذه الآية وخصَّصهم في الآخرة بما أباح لهم في الدنيا وفي الآية التي بعدها بيّن ما حرم فقال:

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾

ثم قال بواو الحال: **ولكل أمة أجل**، تتجدد[4] بعد أمة أخرى كأمة موسى وأمة عيسى، كقوله: تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ.[5] **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**. وانقضاءُ أجلِ الأمة هو إلى أن يأتي الرسول الثاني. ولهذا لا ينقضي أجلُ أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة. ويقال لأهل كل عصر: أمة، فيكون في كل ملة أممٌ. ويقال: إِسْتَقْدِمْ بمعنى الأمر، أي تَقَدَّمْ. فيكون المعنى فلا يتقدمون. والدليل على أن الكلام ههنا

---

[1] ك ن – كل.

[2] ن – إلى.

[3] ن: الإباحة.

[4] ن: تتجد.

[5] ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٣٤، ١٤١).

هو في الأمم والرسل كما قدَّمنا قوله بعده: يٰبني ءادم إما يأتينكم رسل منكم يقصون
عليكم ءايٰتى. / فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. [١٦٩و]

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾

فمن أظلم ممن افترىٰ على الله كذبا، من الرسل، **أو كذب بـٔايٰته**، من الأمم. **أولٰئك ينالهم نصيبهم من الكتٰب**، الذي كتبنا لهم من رزق وأجلٍ. **حتىٰ إذا جاءتهم رسلُنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله**، أي لِم لَم يدرءوا عنكم العذابَ والموت؟ **قالوا ضلوا عنا وشهدوا**، القائلون، **علىٰ أنفسهم أنهم كانوا كٰفرين.**

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾

قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار. كلما دخلت أمة لعنت أختها حتىٰ إذا ادّاركوا فيها جميعا، أي أدرك بعضهم بعضا، وأُدغمتِ التاء في الدال، ومعناه اللحوق، **قالت أخرىٰهم لأولىٰهم**، هذا هو مفهوم من قوله من قبل: وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا.[١] ففي الدين الواحد أممٌ بعضهم أضلَّ بعضا، لهذا، **قالت أخرىٰهم لأولىٰهم ربنا هٰؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولٰكن لا تعلمون.** قوله: لكل، أي من المضِلّين. فالخطاب ههنا للضالين إعلاما لهم بحال المضلين، أي لكل منهم ضِعْفٌ كما قد طلبتم. ودليل ما قلناه قوله تعالى: لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ،[٢] أي ويحملون من أوزار الذين يضلونهم مثلها. فتكون "من" ههنا لتبيين الجنس لا للتبعيض. فافهم هذا جيدا لتعلم أن كل مضلٍّ ضالٌّ ولا ينعكس. فكل مضل يحمل وزره كاملا،

[١] الآية ٢٨ من هذه السورة.
[٢] سورة النحل، ٢٥/١٦.

ويحمل المُضلُّ أيضا وزرا آخر وأوزارا مثل وزر الواحد أو الجماعة الذين أضلَّهم هذا المضل، ولا ينقص عذاب الضالّ، لهذا قال: وَمِنْ أَوْزَارِ، ولم يقل: وأوزار. ولهذا لا تقع المعارضة بقوله: وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ.[1] فيكون حينئذ المضلُّ حاملا مِن عذاب مَن أضله مثلَه لا بعضه، وعذاب الضال لا ينقص عنه، فافهم. وأما قوله: يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ،[2] فالمعنى أن كلا يضاعف له نوعٌ يختص به من العذاب كما يستحقه هو. فسُمِّي التكرار المستمرّ مضاعفةً وإلا للزم المساواة، فافهم ذلك. وليس قوله: لكلٍّ، أي لكل واحد منكم ومنهم، ضِعْفٌ، بل كما بينا، لأنه لا جائز أن يكون المعاقب لا يعلم حالَ نفسه، لأنه لا يكون حينئذ في عذاب. بل المراد لا يعلم حال غيره لاشتغاله بنفسه. فقد علمت ما يزيل إشكال من أشكل، فقال: كيف يكون لمن ضل ضعفٌ ولمن أضل كذلك؟ فإنه يلزم أن يكون لمن أضل أكثرُ ممن ضل فقط. وقد زال الإشكال من جهة قوله: ولٰكن لا تعلمون؛ ومن جهة نفس المضاعفة، لأنه يريد بها التكرار، كقوله: كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا.[3] ولا يريد بها الزيادة المستمرة، وذلك لقوله: فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا.[4] وأما الحسنة فهي لهم جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ[5] لا ضِعف الجزاء. وجزاء الضعف لا يريد به أن الواحد يصير اثنين بل بمعنى أحد، اثنان، أربعة، ثمانية، ستةَ عشرَ إلى ما لا نهاية له. والمراد بهذه الصورة فرطُ المبالغة في تعظيم ما إليه الإشارة من الجزاء، والله أعلم. وأما قوله في الأحزاب: ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ، فهو كقوله هنا: فئاتهم عذابا ضعفا، لأنه تقدم هناك: رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا، وهم[6] العلماء، وَكُبَرَآءَنَا، أي في العمر، فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ،[7] أي لكل منهما ضعف. ولهذا قال: ءَاتِهِمْ، ولم يقل: آت كُلًّا منهما.

---

[1] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ١٢/٢٩).

[2] ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ (سورة هود، ٢٠/١١).

[3] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ (سورة النساء، ٥٦/٤).

[4] سورة الأنعام، ١٦٠/٦؛ وسورة المؤمن، ٤٠/٤٠.

[5] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾ (سورة سبأ، ٣٧/٣٤).

[6] ن: وهو.

[7] ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (سورة الأحزاب، ٦٧/٣٣-٦٨).

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٣٩﴾

ولمّا كان المضل ضالا كان له من جهة ضلاله عذابٌ، ومن جهة إضلاله آخَرُ مثلُه فهو معه ضعفُه. أخبر سبحانه عنهما بقوله: **وقالت أولٰهم**، وهي المتبوعة، لأنها سبقت إلى جهنم، فقالت: **لأخرٰهم**، التابعةِ: **فما كان لكم علينا من فضل**، لا يريد به الإحسان ههنا، أعني من التفضل بل الفضيلة، وهو كقوله: يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ،[1] لأن الأولى دَعَتْ والأخيرة استجابت. فليست الثانية / المجيبةُ إلى الشرك [١٦٩ظ] بأفضل من الأولى الداعيةِ إليه. وقد يقال: إن الأُولى أسوأ حالا من الأخيرة، فليس ههنا أفضلَ بل أرذل. فإنه لا يقال لطويلين[2] غير متساويين في الطول: هذا أقصر من هذا؛ بل هذا أطول من هذا. ولا يقال لقصيرين[3] غير متساويين في القصر: هذا أطول من هذا، بل هذا أقصر وإن كان الأقصر يلزم عن الأطول وبالضد. لكن هذه العبارة أَولى وأشد إيضاحا، لأنها بعد ما عُرفت صفةُ الواحد عرفت أيضا صفة الآخر، فذلك قول الفئتين: **فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون**، هو تمام[4] كلام أُولاهم، ولهذا لم يقل: قال بل بالفاء، أي ليس ذلك من جهتنا بل بكسبكم، فهذا من جملة الخصام المحاجِجَة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠﴾

إن الذين كذبوا بـاٰيٰتنا واستكبروا عنها، أي إعراضا عنها، **لا تفتح**[5] **لهم أبوٰب السماء ولا يدخلون الجنة**. لو كانت الجنة في السماء لقال: "فلا"، لأنه نفى أن تُفتّح الأبواب، فلا يكون دخول إلا إن قيل: لا تُفتَّح لهم حين يموتون ولا يدخلون حين يُبْعَثون، **حتىٰ يلج الجمل فى سم الخياط**، هو خَرْم[6] الإبرة. عَلّق دخولهم بمستحيل فهو مستحيل. والسُّم القاتل، سمي سمّا لأنه يَنفُذ بلطفه في مَسامّ البدن حتى يصل إلى القلب،

[1] ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٢٤).

[2] جميع النسخ: الطويلين، والمثبت من م.

[3] ن: القصيرين؛ ش ك: للقصيرين؛ والمثبت من م.

[4] ك ن - تمام.

[5] جميع النسخ: واستكبروا عنها لا تفتح أي إعراضا، والمثبت من م.

[6] ش ن: هو حزم. | الخرم: أَصل الخَرْم الثقب والشقّ (لسان العرب، «خرم»).

وكل ثقبٍ في البدن لطيفٍ سمّ، بفتح السين وضمها، والفتح أشبه بثقب الإبرة، قال الشاعر:

ولو أن ما بِيَ من جَوًى وصَبابةٍ   على جَمَلٍ لم يبق في النار خالدُ.[1]

إشارةً إلى أن جملا لو حمل ما بي من الجوى[2] لَسَقِمَ حتى يدخل في سم الخياط فلا يبقى في النار حينئذ[3] إلا ويدخل الجنة. وعرّفنا الله أن هذا ليس مما كتبه عليهم في الأزل إجبارا بل كتبه جزاء لما علمه من أعمالهم. فلهذا قال: **وكذٰلك نجزى المجرمين**، مطلقا، ولهذا قال بالواو، ولم يقل: "كذلك". فلا تغترَّ بقول من لا يعلم. ولقائل أن يقول: ليس بمسلم من أصرَّ على كبيرة إلا أن يتوب، فالعذاب وإن كان لمن تسمى بالإسلام فهو للكفار[4] حينئذ. فنقول: العذاب في الدنيا لا يكون إلا للكفار، لقوله تعالى: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.[5] وأما نصيب المؤمن في الدنيا فهو تمحيص وتكفير[6] ولا يكون هذا للكافر. فأما عذاب الآخرة فهو للكافر. ولا يكون للمؤمن إلا بالكبائر إذا مات مصِرًّا ويَخلد بها في النار. والله يعفو عمن يشاء من المؤمنين دون الكفار. وفي الكبائر أيضا تفصيلٌ ذُكر في موضعه[7] كالربا، فقد صرّح النص بأن آكله[8] خالد في النار.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم، منها أيضا، **غواشٍ**، تَغْشاهم.[9] **وكذٰلك نجزى الظٰلمين**، مِن كل مَن ظلم فهو مطلق إلا من تاب وآمن. لهذا بعده: **والذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت**، لما كان الإيمان والعمل الصالح لا نهاية له ولا حدَّ ذَكر له غايةً لا يُطلَب من المؤمن غيرُها، فمن أتى بها فقد أتى بالكل، وذلك قوله: **لا نكلف نفسا إلا وسعها أولٰئك أصحٰب الجنة هم فيها خٰلدون.**

---

[1] البرهان للزركشي، ١/٤٨٤، ٣/٤٧.

[2] الجَوَى: الهَوَى الباطن، والحُرْقَةُ وشِدّةُ الوَجْد من عِشْق أو حُزْن (تاج العروس للزبيدي، «جوى»).

[3] جميع النسخ + في النار؛ م + خالد فيها.

[4] ك ن: الكفار.

[5] سورة السجدة، ٣٢/٢١.

[6] أي وتكفير لذنوبه.

[7] لعل المؤلف رحمه الله تعالى يشير إلى تفسير قوله تعالى في سورة النساء، ٤/١٨. وانظر لذلك أيضا: تفسير الآية ٣١ من نفس السورة.

[8] ن: بأن كله.

[9] جميع النسخ: تغشيهم.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهر. وقالوا الحمد لله الذى هدىٰنا لهٰذا، أي لِما كان عاقبتُنا فيه هذا الجزاءَ. ثم اعترفوا بالنعمة الأولى العامة فقالوا: **وما كنا لنهتدى**، من جهة أنفسنا، **لولا أن هدىٰنا الله**، بالرسل والعقول. ولا تَفهمْ أنه هدانا إجبارا بل[1] بالرسل. **لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكمُ الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**، وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ،[2] وهو الرؤية في الجنة.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ونادىٰ أصحٰب الجنة أصحٰب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد [ربكم]، ولم يقل: ما وعدكم لئلا يتخصَّص الوعدُ بالمشار إليهم بل ليعُمَّ، أي ما وعد لمن خالف الأمر. فانظر إلى هذا التحرير في العبارة الذي يدل أنه وعدَ لا لقوم مخصوصين بأعيانهم بل لمن عمل. فذلك ضد فَهْمِ مَن فَهِم[3] أنه تعالى قضى[4] عليهم في الأزل من قبل الذَّرء[5] بقضاءٍ حتمٍ إلزاما لهم بالمعاصي والكفر، وأنه خلقهم لأجل النار، ولم يفهم قوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[6] وهذا لا يناقض قولنا: / عَلِمَ في الأزل ما سيكون منهم. فافهم قوله: **ما وعد ربكم حقا؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظّٰلمين**، ولم يقل: على الكافرين، لأن المراد هو أن يعمَّ المسلم الذي ظلم نفسه وغرَّته الحياة الدنيا فحُشِر أعمى لكونه جاءته آياتُ ربه فعَمِيَ عنها[7] والكافرَ أيضا. [١٧٠و]

١ ن - بل.
٢ ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (سورة قٓ، ٣٥/٥٠).
٣ ك - من فهم، صح هـ.
٤ جميع النسخ: أقضى، والمثبت من م.
٥ أي من قبل أن خلقهم.
٦ سورة الذاريات، ٥٦/٥١.
٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (سورة طه، ١٢٤/٢٠-١٢٦).

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾

وقوله: الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كٰفرون، هو تمام الأذان، ولهذا لم يقل: الذين كانوا يصدون. ولا تظن أن مَن آمن بالقول وكذَّب بالفعل مؤمنٌ، «فما آمن بالقرآن من استحل محارمه»،[1] إلا من تاب وآمن.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾

وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال، الأعراف الأماكن العالية، وهو جمع عُرْف، ومنه عُرْفُ[2] الديك لعلوه، ومَعْرَفَةُ الفرس[3] لعلوها على الرقبة منها. وسمي عُرفُ الديك عرفا لأنه يُعرَف به. والعَرف بفتح العين وهو الطّيب لأنه يعلو، والمَعْرِفَة لعلو العارف على غيره. ولهذا قال: يَعرفون كلا بسيمٰهم. ونادَوا، رجال الأعراف، أصحٰب الجنة، تقديره: الذين لم يدخلوها وهم يَطمعون: أن سلٰم عليكم. وأخّر لأجل الوِزان قوله: لم يدخلوها وهم يطمعون، أي يطمعون في رحمة الله أن يدخلوها بالرحمة، لأن أعمالهم لا تفي[4] بالنجاة من النار، فكيف يطمعون أن يدخلوا بها إلى الجنة. وأصحاب الأعراف رجال وُصِفوا بعلو المكان على طريق التمثيل الدال على علو المكانة، إذ لا أعلى من المعرفة. فلهم علو المكان[5] بضرب المثل ظاهرا، وعلوُّ المكانة بمحض الحقيقة باطنا. فهم من الجنة في عليين، لأنهم الشاهدون المقرَّبون. وهذا الكلام منهم إنما هو في الموقف قبل دخول أهل الجنة إليها، وقبل دخول أهل النار إليها، وقبل دخول رجال الأعراف. فلو كان أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار فأي حاجة كان لهم إلى المعرفة بالسيما، إذ غير العارف يعرف ذلك. ولهذا لم يقل عند ذكر الحجاب: وعليه رجال، وكان يجب أن يقول: وعليه، إذ لا مكان غير الجنة والنار إلا هو. فلهذا قال: وعلى الأعراف، فافهم ذلك. وقوله: ونادوا أصحٰب الجنة أن سلٰم عليكم، هو بِشارة من العارفين بَشّروا أهل الجنة بالسلامة من النار، إذ عَرَفوهم بسيماهم، وهم الذين،

---

[1] سنن الترمذي، فضائل القرآن ٢٠.

[2] ك – ومنه عرف، صح هـ.

[3] المَعْرَفَة: مَنْبِت عُرْف الفرس من الناصية إلى المِنْسَج (لسان العرب، «عرف»).

[4] ك: لا يفيء.

[5] ش + على طريق التمثيل الدال على علو المكانة إذ لا أعلى من المعرفة فلهم علو المكان.

لم يدخلوها وهم يطمعون، لأنهم في الموقف كما يظهر لك بعد، إذ يقول لهم أصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة، لأنهم قبل ذلك لم يدخلوها وهم يطمعون. وأما أهل النار فهم كقوله تعالى: وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا.[١] فرحم الله مَن كشف لنا هذا بعد الجهد مِنّا في فهم هذه الآية. والسيما العلامة، وهي من الوَسْم والسِّمَة. ومن سيما أهلِ الجنة والنار قولُه تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ،[٢] الآية، وكقوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ،[٣] وتمامه.

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

وإذا صرفت أبصٰرهم، في الموقف، تلقاء أصحٰب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظٰلمين.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ونادىٰ أصحٰب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيمٰهم، أنهم من أهل النار، **قالوا**، لهم: **ما أغنىٰ عنكم جمعكم**، أي ما جمعتموه من المال والرجال لتدفعوا به عنكم السوءَ. **وما**، والذي،[٤] **كنتم تستكبرون**، أي واستكباركم على المؤمنين.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أهٰؤلاء الذين أقسمتم، في الدنيا أنهم، **لا ينالهم الله برحمة**. هذا كلام أصحاب الأعراف لأهل النار المعروفين بسيماهم عن أهل الجنة المعروفين بسيماهم، وهم الذين سلّم عليهم أهل الأعراف من قبل، والجميع في الموقف. وكان أهل النار في الدنيا يسخرون منهم.[٥] فقال لهم رجال الأعراف بعد السلام عليهم: ادخلوا الجنة

---

١ ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٥٣).

٢ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (سورة القيامة، ٧٥/٢٢-٢٥).

٣ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ (سورة عبس، ٨٠/٣٨-٤٢).

٤ ش: الذي.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى مثل قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢١٢).

لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. فلزم أن القول الأول: سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ،[1] كان لهؤلاء. فافهمه جيدا ولا تظن الأمر كما قيل: إن أصحاب الأعراف تساوت حسناتهم وسيئاتهم. فقد وعد الله الكريم بقوله: إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا،[2] فلا بد من المدخل، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار.
[١٧٠ظ] والكبيرة ما لها مساوٍ من الحسنات، فإن تاب صاحبها فلا كبيرة، فالتساوي / بماذا، والدليل الأكبر: فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ،[3] لا غير ذلك. فافهمه.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾

وناديٰ أصحٰب النار أصحٰب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. قال الكرماني: أفادنا هذا الكلامُ معنيين. أحدهما أن الإنسان حيث كان لا يستغني عن الأكل والشرب. والثاني أن السؤال من أخلاق أهل النار.[4] قالوا إن الله حرمهما على الكٰفرين. الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحيوٰة الدنيا، هذه حكاية عن قول أصحاب الجنة لأصحاب النار. ثم قال تعالى: فاليوم ننسٰهم كما نسوا لقاء يومهم هٰذا وما كانوا بـٔايٰتنا يجحدون.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٥٣﴾

هل ينظرون، الناظر والمنتظر كالكاسب والمكتسب. فالمعنى ههنا هل ينتظرون[5] هؤلاء الكفار، إلا تأويلَه، أي تأويل ما تواعدْناهم به في هذا الكتاب، وهو ما يئول إليه

---

[1] الآية ٤٦ من هذه السورة.

[2] سورة النساء، ٣١/٤.

[3] ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ (سورة هود، ١٠٥/١١-١٠٨).

[4] غرائب التفسير للكرماني، ٤٠٥/١.

[5] ش ن: هل ينظرون.

أمرُ الكفار من العذاب اللازم لمن خالف. يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبلُ قد جاءت رسل ربنا بالحق. فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرَدُّ فنعملَ غير الذى كنا نعمل. قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون، من الآلهة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

إن ربكم الله الذى خلق السمٰوٰت والأرض فى ستة أيام ثم استوىٰ على العرش، ذكر الاستواء في سبعة مواضع: في هذه ويونس[1] والرعد[2] وطه[3] والفرقان[4] والسجدة[5] والحديد.[6] يغشى اليل النهار، منصوب لفقدان الخافض، وتقديره بالنهار والنهارَ بالليل، يَطلبه حثيثا، كل واحد منهما يطلب الآخر، والحثيث هو الذي ليس فيه تَوانٍ؛ والشمسَ، خلق السماواتِ الأرضَ، والشمس والقمر والنجومَ مسخرٰت، أي من حين الإبداع خَلَقها مسخراتٍ على ما أراد من وجوه التسخير تَفْعل وتنفعل، بأمره ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العٰلمين.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾

ادعوا ربكم، نادُوه تضرعا، يريد بالتضرع في أكثر الأماكن العلانيةَ، لهذا قال بالواو: وخفية. وقد علمت أن المضطرّ إذا استغاث من شدة أو هولٍ لا يقتصر على صوتٍ خفيّ بل بأعلى صوته. وتقديره: ولا تعتدوا على عباده ولا على أنفسكم، إنه لا يحب المعتدين، فالدعاء مع الاعتداء لا يُقبَل.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

---

١ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (سورة يونس، ٣/١٠).

٢ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (سورة الرعد، ٢/١٣).

٣ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (سورة طه، ٥/٢٠).

٤ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (سورة الفرقان، ٥٩/٢٥).

٥ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (سورة السجدة، ٤/٣٢).

٦ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (سورة الحديد، ٤/٥٧).

ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلٰحها، ببعثة الرسل وإنزال الكتب، لأن في مخالفتهم هو الفساد. وادعوه خوفا، من ناره،[1] وطمعا، في رحمته. إن رحمت الله قريب؛ لم يقل: قريبةٌ، لأنك تقول: هذه المرأة قريبتي، أي ذات قرابتي. فالقريب من معنى المسافة يُذكَّر ويؤنّث، وفي معنى النسب يؤنث بلا اختلاف عن القراء.[2] فانظر إلى هذا التحرير كيف استعمل من أحد الجائزين لغة ما يزيل الاشتباهَ في المعنى. ويقال: قَرِبتُه[3] بكسر الراء أَقْرَبُه،[4] بفتحها قُرْبانا، أي دنوت منه، ومُقارِب وسط بين الجيّد والرديّ. وذو القربى القرابة في الرَّحِم. وقوله: قريب من المحسنين، عرّفَنا كيف يستجيب[5] الدعاءَ منا. فاعرف ما انطوى عليه مفهوم هذه الآيات من قدرته ورحمته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وهو الذى يرسل الريٰح بشرا بين يدى رحمته، أي ناشراتٍ، كما قال: فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا[6] في سورة الزخرف. حتىٰ إذا أقلّت، حَملت، سحابا، ينسحب،[7] فما خَفَّ[8] بخار يتحلل وما ثقل فهطّال[9] يتسلسل. فقوله: ثقالا، أي بالماء، سقنٰه لبلد، إلى بلد، ميّت فأنزلنا به، بالبلد، الماءَ فأخرجنا به، بالماء، من كل الثمرٰت. كذٰلك نخرج الموتىٰ لعلكم تذكرون، البعثَ.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

والبلد الطيب يخرج نباته، طيبا سهلا مُيسَّرا، بإذن ربه، والذى خبث، من البلاد، لا يخرج، نباته، إلا نكدا، مشتق من النَّكَد، وهو ما يسوء فيما يَسُرّ، أي ذلك النبت

---

[1] ش – من ناره، صح هـ.

[2] انظر: معاني القرآن للفراء، ١/٢٥٥-٢٥٦.

[3] ك: قربه.

[4] ن: قربة.

[5] ك ن: كيف تستجيب.

[6] ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/١١).

[7] ك: ينحسب.

[8] ن: فما أخف.

[9] الهَطْل/الهطّال: المطر الضعيف الدائم، وقيل: هو الدائم (لسان العرب، «هطل»).

كأنه رجل نكد يسوء ولا يَسُرّ. والمعنى أنه ضرب مثلا للقرآن بالماء، ولقلوب المؤمنين والكفار بالبلاد. لهذا قال: **كذٰلك نصرف الآيٰت لقوم يشكرون.**

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾

ثم قال بغير واو عطف: لقد، وفي هود[1] والمؤمنين:[2] وَلَقَدْ، لأنه ههنا إخبار منقطع عما قبله، وهناك بصورة الاحتجاج متصل بما قبله. فلهذا قال ههنا: **لقد أرسلنا نوحا إلىٰ قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره. إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.** فذكر مثل الماء ومثل / البلد. [١٧١و]

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾

قال الملأ من قومه إنا لنرٰىك، من رؤية القلب، **فى ضلٰل مبين**، كقولهم: وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ.[3]

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾

فكذبوه فأنجينٰه، يريد من قومه. وقوله في يونس: فَنَجَّيْنَٰهُ،[4] أي من الغَرَق بعد النجاة من قومه، فلهذا جاءت مشددة. وذكرُ الفلك ههنا تعريفٌ للذين نجوا معه. وفي يونس ذكرُ الفلك إخبارٌ عن صورة النجاة بماذا فقال: **فى الفلك**. فتكون لفظة "الفلك" ههنا متصلة بما قبلها، وفي يونس منفصلةً، فافهم فهو دقيق. وقوله: **والذين معه**،

---

[1] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة هود، ٢٥/١١).

[2] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٢٣).

[3] الآية ٦٦ من هذه السورة.

[4] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ (سورة يونس، ٧٣/١٠).

ولم يقل: آمنوا، في الفلك، ليعم من كل زوجين اثنين.[1] وأغرقنا الذين كذبوا بـَٔايٰتنا إنهم كانوا قوما عمين، أي عُمْيِين بمعنى عُمْيان، وعدل به للوِزان.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنرٰىك في سفاهة، أي منغمسا فيها، وإنا لنظنك، أي الغالب على ظننا أنك، من الكٰذبين.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم علىٰ رجل منكم لينذركم. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة، كانوا قد خُلِقوا أنبل منا جُثثا كما نجد فينا اليوم أناسا كبار الجُثث طِوالا. ولا دليل على أنه كان طولُ أحدهم سبعين ذراعا وأكثر، لأن القليل يزاد على الكثير؛ فقوله: وزادكم، يدل على مقدارٍ أقلَّ مِن الحاصل لغيرهم من المقدار قبل الزيادة. فاذكروا ءالاء الله، نِعَمَه،[2] لعلكم تفلحون.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

---

[1] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ (سورة هود، ١١/٤٠).

[2] ك: نعمة.

قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجٰدلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم ما نزل الله بها من سلطٰن فانتظروا، ما وعدتكم به من انتقام الله منكم. إنى معكم من المنتظرين.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

فأنجينٰه والذين معه، أي مما أخذنا به المكذِّبين، برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بـٔايٰتنا وما كانوا، بمعنى ولم يكونوا بعد التكذيب، مؤمنين، إذ لو آمنوا بعد التكذيب لغفرنا لهم.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

وإلىٰ ثمود أخاهم صٰلحا قال يٰقوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هٰذه ناقة الله لكم ءايةً، منصوبة على الحال، أي جعلها لكم علامةً تدل على وقوع العذاب إذا مَسَسْتُموها بالسوء. فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم، وفي هود: عَذَابٌ قَرِيبٌ، لأن بعده: تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ.[1] فهذا سبب ذكر القريب ولا ينافي الأليم؛ وفي الشعراء عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ.[2] والجميع في قصة صالح، وإذا كان أليما قريبا فهو عظيم، وفي كل مكان عبّر بالأولى[3] فيه.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا

---

١ ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (سورة هود، ١١/٦٤-٦٥).

٢ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/١٥٦).

٣ ن: الأولى.

وتنحتون الجبال بيوتا، جاء مثله.[1] المعنى تجعلون[2] الصعبَ في السهلِ والسهلَ في الصعب بما أَنعم عليكم به. فاذكروا ءالاء الله ولا تعثوا، تقدم[3] فى الأرض مفسدين.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن، لكلِّ مَن، ءامن منهم، ولم يقل: "ممن آمن منهم" ليدل على أن الذين استُضْعِفوا هم المؤمنون. وقوله: منهم، من الملأ الكفار لا من الذين استُضعِفوا كما يدلك ما يأتي، وهو قوله: أتعلمون أن صٰلحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أُرسل به مؤمنون.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

قال الذين استكبروا، وهو دليل ما قلناه: إنا بالذى ءامنتم به كٰفرون.

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾

فعقروا الناقة وعتوا، والعتوّ المخالفة على وجه التهاون والاستكبار، / عن، اتباع، أمر ربهم، وقالوا يٰصٰلح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين. [١٧١ظ]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جٰثمين، جَثَم إذا برَك على رُكْبَتَيه.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفٰحشة، التي، ما سبقكم بها من أحد من العٰلمين،

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآيات التي هي في قوم صالح: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/١٤٦-١٤٩).

[2] ن: تجهلون.

[3] ن - تقدم. | انظر: سورة البقرة، ٢/٦٠.

مكان هذه في النمل: وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ.[١] المعنى أن الذي ههنا يعطي عِظَمَ الفاحشة، والذي في النمل وصَفَ فاعليها أنهم يُبصرون ولا يُنكرون. وفي هذه الآيات عدةُ أسئلة منها ما سنبينه لتَعلَمَ به مِثْلَه.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء، لستم على خير، **بل أنتم قوم مسرفون.**

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ولمّا كانت هذه القضية قد تَقدَّم ذكرُها عطف ههنا معيدا لها بالواو لكونه ذكرها مع بقية القِصص إذ اقتضى أن يضيفها إلى أمثالها، فقال: وما، وفي النمل: فَمَا.[٢] والمعنى أن "وما" ههنا حكاية لِما هناك. تقول: عذلتك[٣] فلم تسمع، وتُذكِّره بذلك في وقت آخر فتقول: ألم تكذب حين عذلتك ولم تسمع. وأما إضمار "آل لوط" هنا[٤] وإظهارها في النمل فإنه نزلت آيةُ الإظهار قبل آية الإضمار. فلما أعاد الحكاية استغنى إظهارا عما تأخر إضمارا إيجازا.[٥] **وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**، أي من الجنابة، فيكون من لم يتطهر منها عندهم نجِسا. وهذا جواب في المعنى لِما قال لهم لوط: هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ.[٦]

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغبرين. غَبَر بمعنى مضى وبمعنى بقي، وهي من الأضداد، بمعنى من الباقين في العذاب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

[١] ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٥٤).

[٢] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٥٦).

[٣] العذل: اللوْم (لسان العرب، «عذل»).

[٤] ش: ههنا.

[٥] بإظهار ما تقدم عما تأخر إيجازا.

[٦] ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (سورة هود، ١١/٧٨).

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

وإلىٰ مدين أخاهم شعيبا قال يٰقوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره قد جاءتكم بينة من ربكم، البينة هنا يريد بها ناقة صالح. ولهذا كرر صورة اللفظ[1] بعينه، وهذا حِذْو القرآن، فافهمه، لأنه يجعل المخاطبين واحدا وإن كان الحاضرون غيرَ من تقدمهم، وذلك لمشابهتهم لهم في الخلاف والكفر. وكذلك رتَّب قصة عاد على قصة نوح. ولهذا قال في قصة عاد: وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ.[2] فتأمل وافهم نظم الجُمَل بعد فهم مفرداتها.

فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلٰحها، يشير إلى كل نوع من أنواع الفساد في الأرض، ويعمّ الأرضَ[3] وما عليها. **ذٰلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين.**

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

ولا تقعدوا بكل صرٰط توعدون، معناه مأخوذ من قوله: لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ،[4] فليس المراد طريقا ظاهرا. وقوله: **توعدون**، يحتمل أنه من الوعيد بمعنى تَلْقَون إلى من تَضْدِفونه من سبيل الله ما يوقعه في وعيد الله، فتكون لفظة "توعدون" مثل تُوهَمون وتُوجَعون، أي تلقونه في وهم ووجع. ولهذا بعده بالواو: **وتصدون عن سبيل الله مَن ءامن به**، بالله، **وتبغونها**، تبغون السبيل، **عوجا. واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عٰقبة المفسدين**، أي واحذروا أن تكون عاقبةُ[5] أمركم إلى مثلها إن اتبعتموهم.

---

[1] جميع النسخ – اللفظ، والمثبت من م.
[2] انظر: الآيتين ٦٩ و٧٤ من هذه السورة.
[3] ن – ويعم الأرض.
[4] الآية ١٦ من هذه السورة.
[5] ك ن: العاقبة.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يٰشعيب والذين ءامنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أولو كنا كٰرهين، أي لا يكون في الدين إكراهٌ، لأنه من أعمال القلوب، فلا يصح بالجوارح دون شرح القلب.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجىٰنا الله منها، فإنهم متى عادوا إلى الكفر غيرَ كارهين لزم أن يكونوا قد كَذَبوا أولا، وإن عادوا كارهين لزم أن يكونوا قد كَذَّبوا ثانيا. وما، الواو فيها واو حال، لهذا لم يقل: فما، فهي وما بعدها إلى قوله: رَبُّنَا، تمام الكلام. **وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا**، إضلالَنا[١] عن سبيله عقابا لنا. وهذ يدل على فرط الخشية من شعيب عليه / السلام لربه. فلم يَأْمَن [١٧٢و]
على نفسه مع ما هو فيه. لهذا قال قولَ الملتجئ إلى الله المتقي له المتوكِّل عليه اللائذِ به: **وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا**. ثم قال بعد الفراغ من الكلام لهم داعيا: **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق**، الفتح ههنا [ما] يحكم الله به مما يظهر به الحق، ودليله قوله ههنا: فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا.[٢]

والفرق بين الحكم والفتح أن الحكم يكون من الحاكم بعد التماس المتحاكمَين ما يجب من الحق، وأكثرُ ما يكون قولا بَيْن مختلِفين، كقوله: فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.[٣] والفتح ما يكون ابتداؤه من الله تعالى فعلا، كقوله: حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ.[٤] فالفتح ما يبدأ به الحاكم من الحق، والحكم

---

[١] ن: إضلالا لنا.

[٢] الآية ٨٧ من هذه السورة.

[٣] سورة البقرة، ٢/١١٣.

[٤] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٧٧).

ما يُستدعى منه من الحق. ولهذا لما قال: افتح، وأنت خير الفٰتحين، جاء بعده:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٢﴾

الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها، أي في ديارهم، والمَغَاني المساكن، لأنها كانت بيوتا عجيبةَ البناء. ففي ليلة واحدة خلت كلُّها فأصبح سُكّانُها موتى جثِيّا على الرُّكَب سُجَّدا على الوجوه، لأنهم لمّا رأوا بأسَ الله آمنوا، فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ.[1] فهذا معنى كونهم[2] **جٰثمين. الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخٰسرين**، يحتمل أن يكون التكرار مخبِرا عن حالهم في الآخرة لئلا يكون الخسران عبارة عما جرى في الدنيا. وأما الأولى فليميزهم عن قومه المؤمنين، لأنه سماهم قومه. وفي التكرار معنى آخرُ أيضا وهو أن يُفهَم منه أنه سائرُ الذين كذّبوا شعيبا، كأنه قال: سائرُ المكذبين بأسرهم. وقوله: هم، أي ولا أحد[3] من قومه المؤمنين هلك معهم. ولمّا قالوا لنبيهم: لَنُخْرِجَنَّكَ،[4] عاقبهم الله بأن أخرجهم من بيوتهم بالموت.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٩٣﴾

فتولىٰ عنهم وقال يٰقوم لقد أبلغتكم رسٰلٰت ربي. دل على رسالة بعد أخرى في مرات، لأنه أمرهم بعدة أوامرَ وغيرُه مثلَ صالحٍ أَمَرَهم بأمر، أعني في مرة وإن كان الأمرُ بعدة فرائض. **ونصحت لكم**، فكفرتم، **فكيف ءاسىٰ علىٰ قوم كٰفرين**. ومن ههنا يجب أن لا نحزن على كافر وإن كان قرابة. ولهذا استغفر نوح عليه السلام حين سأل في ابنه، فأجيب بقوله تعالى: فَلَا تَسْـَٔلْنِ،[5] وتمامِه.

---

[1] ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٨٥).

[2] ن – كونهم.

[3] ش: ولا واحد.

[4] الآية ٨٨ من هذه السورة.

[5] ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (سورة هود، ١١/٤٦-٤٧).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾

وما أرسلنا فى قرية من نبىّ، أي وكُذِّب، إلا أخذنا أهلها بالبأساء، مِن "بئس الشيءُ"، والضراء، ما يضر، لعلهم يضرعون، ويتوبون، فلم يفعلوا.

﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾

ثم بدلنا مكان السيئةِ الحسنةَ، أي مكان الضرّاء سرّاء. وعبر بالسيئة لأن الضراء من الله جزاء السيئة منهم، كقوله: وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ[1] فهي الضراء، أي فبدلناها بالحسنة منا. والمعنى أخذناهم بالضراء ليرجعوا فما رجعوا، فبَدَّلنا مكانَها سراءَ مِنا ليرجعوا فما رجعوا. ووصف النعمة عليهم فقال: حتىٰ عفَوا، يقال: عفا الماء إذا لم يطأه شيءٌ يُكدِّره؛ ومنه يقال: صَفوٌ عَفوٌ؛ وعفا النَّبتُ بمعنى كَثُر. وقوله: قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ[2] يريد الفضل من المال الطيّب الحلال، أي الصافي عما يشوبه ظاهرا من الرَّذاءة وباطنا من الحرام. ودليله: أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ،[3] فجمع المعنيين. فهؤلاء عفوا،[4] وقالوا قد مس ءاباءنا الضراء والسراء، أي هذه عوائد الدهر فاصبروا على ما أنتم عليه، فلم يفقهوا أن ما أصابهم إنما هو لعلهم يضرعون سواء كان سيئة بما قدمت أيديهم أو حسنة من عند الله ابتداء. وهذا مما يجب أن يكون بين عيني كل عبد مؤمن إلى أن يخرج من الدنيا لئلا يكون ملحَقا بالحال بالمذكورين. فأخذنٰهم، أي بالعذاب من وسط السراء، بغتةً وهم لا يشعرون، أي حين الأخذ. وذلك أعظم بليّةً وأشد مصيبةً. وكذلك كونه أَخذَهم من السراء ليشتد تَحسُّرُهم عليها مضافا إلى المصيبة التي أُصِيبوا بغتة بها. وهذا جميعه لأجل كفرهم برسلهم.

---

[1] ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٦).

[2] ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢١٩).

[3] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦٧).

[4] قيل: جَمُوا وكثُروا؛ أي كشف عنهم ذلك [السراء] حتى كثروا (تأويلات القرآن للماتريدي، ٥/٤٣٢-٤٣٣).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

[١٧٢ظ] **ولو أن أهل القرىٰ**، المذكورة / المهلَكة، **ءامنوا واتقوا**. هذا يدل على فساد قول المجبرة،[1] وذلك أنهم لو فعلوا لم يفعل بهم سوءا،[2] بل لفعل خيرا، كما قال: **لفتحنا عليهم بركٰت من السماء والأرض**. انظر إلى لفظ الفتح كيف يستعمله في كثير من الأشياء التي يفتح بها سبحانه. وافهم أن هذا الفتح ههنا ليس هو جزاءَ الإيمان والتقوى لأن الجزاء في الآخرة؛ بل الإيمان والتقوى شرط إذا وقع منهم فَتَحَ الله عليهم بالبركات من عنده سبحانه. ولهذا عبّر بلفظ الفتح ونسبه إلى نفسه عز وجل. فافهم هذا ومثْلَه جيدا. ثم شرح جميع ما تقدم بقوله: **ولٰكن كذبوا فأخذنٰهم بما كانوا يكسبون**. والتكذيب بالحال والأعمال أبلغ من التكذيب بالأقوال. والمقصود هو أن تَعلم أن الإنسان دائما لا يخلو من أحد وصفين: إما أن يكون في سرّاءَ أو ضرّاءَ. فإن كان في سراء فالمراد منه الشكر والانقياد بها إلى الإيمان والتقوى. وإن كان في ضراء فالمراد منه الرد والرجوع بها إلى الإيمان والتقوى. لكن الضراء سوط يسوق المرء من خلفه كَرها والسراء قائد يقود المرء من قُدّامه طوعا؛ كالطفل الذي يريد مُؤدّبه منه مصلحتَه فتارة بما يسوءه وتارة[3] بما يَسُرُّهُ. والمراد واحد في الإيمان. والتقوى جِماع الخيرات، والسلامةُ من سائر الآفات في الماضي والحاضر والآتِي.[4]

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

ولمّا ذكر الله قصة المكذبين من الماضين حذّر من مثلها الآتين، فقال: **أفأمن أهل القرىٰ**، إذا كذبوا، **أن يأتيهم بأسنا بيٰتا وهم نائمون**.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

أفأمنوا مكر الله، تقديره إذا مُكروا به. **فلا يأمن مكر الله**، مع مخالفته، **إلا القوم الخٰسرون**.

---

[1] ك + به.
[2] ش: سواء.
[3] ك: يسوء أو تارة.
[4] جميع النسخ: والآت.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٠٠﴾

ولمّا قال تعالى: وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا،[1] [أي في] الزمان [الآتي]، الإنسان يجب أن لا يزال حَذِرا غير آمن حتى يلقى الله تعالى. ثم قال متمما لأهل القرى إلى يوم القيامة قوما بعد قوم: **أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبنٰهم بذنوبهم**، فنُضلّهم عقابا لهم على تكذيب المرسَل، **ونطبع علىٰ قلوبهم فهم لا يسمعون**. المعنى أولم يُبين للقوم الذين يرثون الأرض المُهْلَكَةَ من بعد هلاك أهلها ويُخبرْهم[2] اصطلامُنا[3] لمن أهلكناه قبلهم بكفره بعد ما أهلكهم الله بتكذيبهم. فكأنما أرثه لتلك الأرض هو الهادي له إلى أنه إن كَذَّب كما كذبوا جرى عليه كما جرى عليهم من أنهم لا يَقدرون على التوبة، فجاءهم الهلاك بغتة وهم على كفرهم. وتقديره أولم يَهْدِ توريثُنا الأرضَ للذين يرثون الأرض من بعد هلاك أهلها أننا لو نشاء أصبْنا هؤلاء بذنوبهم كما أصبْنا مَن قبلهم بذنوبهم[4] إلى أن يَبْغتَهم الموتُ على الكفر. والمعنى في قوله: **أصبنٰهم**، أي عاقبناهم على ذنوبهم بأن نُبقيَهم على ذنوبهم ونطبعَ على قلوبهم، أي نطبع بالطابع على القلوب فلا يخرج الكفر منها ولا يدخل الإيمان إليها. فلا يقدرون على العودة عن الذنوب فهم بعد ذلك لا يسمعون، أي لا يَقْبَلون مقالة الرسل حينئذ. ويحتمل أن السماع ههنا بمنزلة الفهم، أي لا يَفهمون ما المراد منهم بالمصائب، فلا يكون المصيبة المذكّرة منا لهم هاديةً لهم إلى الرجوع إلينا والتوبةِ، لقوله أولا: **أولم يهد**، وهذا هو أشد العقاب.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٠١﴾

ثم بيّنه فقال: **تلك القرىٰ نقص عليك من أنبائها. ولقد جاءتهم رسلهم بالبينٰت فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل**، ولم يقل ههنا: بما كذبوا به، وذلك[5] لأن الباء في "بما" باء السبب، أي إنا نحن جعلناهم كذلك بسبب ما كذبوا من قبل. ولهذا قال: **فما كانوا**،

---

[1] سورة لقمان، ٣٤/٣١.

[2] ن: ونجبرهم.

[3] اصطلمهم الدهر أو الموت أو العدو: استأصلهم وأبادهم (المعجم الوسيط، «صلم»).

[4] ن – بذنوبهم.

[5] ن: وكذلك.

وجاءت معها لام الجحود، ولم يقل: فما آمنوا. ويدلك على أن ذلك من جملة العقاب قولُه بعده: كذٰلك يطبع الله علىٰ قلوب الكٰفرين، ممن يرث الأرض من بعد أهلها.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾

وما وجدنا لأكثرهم من عهد، "من" ههنا لتبيين الجنس. وإن، بمعنى وإنا، وجدنا أكثرهم لفٰسقين، لأن منهم من أسلم وآمن بالرسل وهو الأقل. والعهد المراد هو
[١٧٣و] الإيمان بالرسل، وهو قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ / ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ،[1] الآية وأكثر ما يَذكر العهد والميثاق يشير به إلى ذلك، لأنه عهد عامٌّ من الله تعالى إلى سائر خلقه أن يؤمنوا برسله.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٠٣﴾

ثم بعثنا من بعدهم موسىٰ بـٔايٰتنا إلىٰ فرعون وملإيه فظلموا، أنفسهم لكفرهم، بها فانظر كيف كان عٰقبة المفسدين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾

وقال موسىٰ يٰفرعون إني رسول من رب العٰلمين. وقوله في الشعراء: رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ،[2] أي إليك. فالمِدْحة في الشعراء للمرسِل سبحانه، والمِدحة ههنا للرسول عليه السلام، ولهذا بعده: حقيق علىٰ أن لا أقول على الله إلا الحق، بمعنى واجبٌ عليّ. قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنِى إسرٰءيل. قال إن كنت جئت بـٔاية فأت بها إن كنت من الصٰدقين. فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين. سميت عصا، لأنها عصت عن أن تُنبت. ونزع يده فإذا هى بيضاء للنٰظرين، النزع هو إخراج الشيء جملة بسرعة.

١ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٨١/٣).

٢ ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة الشعراء، ١٦/٢٦).

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

قال الملأ من قوم فرعون، بصورة الاعتراف بما قاله لهم فرعونُ في موضع آخر: **إن هٰذا لسٰحر عليم**،[1] **يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون**، فيه.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

قالوا، أي الملأ لفرعون: **أرجه**، يقال بالهمز وترك الهمز بمعنى أخِّره، وأصله من الرجاء الذي هو بمعنى الأمل. ولما كان الراجي قد أُخِّر[2] عنه وعدُه فهو يأمل[3] نيلَه وينتظره فذلك كذلك. والإرجاء التأخيرُ المعلقُ بأملٍ منتظَرٍ كونُه. **وأخاه وأرسل فى المدائن حٰشرين، يأتوك بكل سٰحر عليم. فلما أرسلوا، وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغٰلبين**. وهذا دليل على عجزهم، لأن من يَقدر على قلب الأعيان يستغني عن مال السلطان. وقول فرعون لهم: **قال نعم وإنكم لمن المقربين**، دليل على عجزه وذلِّه أيضا مع دعواه الإلٰهية.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم، ولم يقل: وأرهبوهم، وهو من الرَّهْبَة، أعني الخوف. **وجاءو بسحر عظيم**.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

وأوحينا إلىٰ موسىٰ أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون، الإفك الكَذِب.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

فوقع الحق، في أنفس السَّحَرَة، تقول: وقع في نفسي أنه صادق مُحِقّ، **وبطل ما كانوا يعملون**.

---

[1] وانظر أيضا: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الشعراء، ٣٤/٢٦).

[2] ن: قد أخره.

[3] جميع النسخ: يؤمل.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾

فغلبوا هنالك وانقلبوا صٰغرين، بعد تَعَزُّزِهم بغير الله. وقوله: وانقلبوا، إشارة إلى سرعة ذلك، فكما أرادوا قلب الأعيان ظاهرا بغير حق انقلبوا بحق.

﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾

قال فرعون ءامنتم به، بالرب، قبل أن ءاذن لكم. إن هٰذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون، ما يجري عليكم مني. وهذا الكلام فيه تحريض للناس عليهم أيضا.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥﴾

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾

وما تنقم منا، تقدم،[1] إلا أن ءامنا بئايٰت ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾

وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسىٰ وقومه ليفسدوا فى الأرض، [اللام] لام العاقبة والصيرورة. ويذرك وءالهتك. قال سنقتل أبناءهم ونستحيِۦ نساءهم، أي نستمر على ما كنا نفعل معهم. وهذا التواعد ههنا لقوم موسى، وقومه ههنا هم السحرة الذين آمنوا معه مضافا إلى بني إسرائيل، لأن فرعون كان يَفعل ذلك ببني إسرائيل من قبل وجود موسى. ولهذا قال تعالى: فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ.[2] وقد بيّنا مثل هذا عند قوله:

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ (سورة المائدة، ٥/٥٩).

[2] ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٧).

ﭐقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ.[١] فقد صار بنو إسرائيل والذين آمنوا من السَّحَرَة مع موسىٰ الجميعُ هم قوم موسى. وقوله: وإنا فوقهم، أي في القوة والقدرة، قٰهرون، أي لهم، فنفعل حينئذ ما نشاء بهم.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾

قال موسىٰ لقومه، بني إسرائيل: **استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده**، في الدنيا، **والعٰقبة للمتقين**،[٢] في الدنيا والآخرة؛ أي العاقبة الصالحة، سميت[٣] عاقبة لأنها تَعْقُب الفعل من العباد. فإن كلَّ عمل لا بد له من أثر يبتدئ من حين مباشرة عامله[٤] له، فبعضه يَظهر وبعضه يخفى إلى أجله في / الدنيا أو[٥] في الآخرة. [١٧٣ظ] وقد بيَّنت السنة ذلك بقوله [عليه السلام]: «إذا أَذنب العبدُ نُكت في قلبه نكتة سوداء»[٦] وتمام الحديث. وكذلك في التقرب[٧] إلى الله بالنوافل[٨] التي لا تكون إلا بعد الفرائض حتى يعود القلب نورا.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾

قالوا، بنو إسرائيل: **أوذينا من قبل أن تأتينا**، أي بقتل الأبناء،[٩] **ومن بعد ما جئتنا**، بقتل الأبناء أيضا[١٠] أي فبأي شيء جئتَنا إذا كان الحال من بعدُ مثلَ ما كان من قبل. **قال**

---

١ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾ (سورة المؤمن، ٢٥/٤٠).

٢ ش – في الدنيا والعُقبة للمتقين، صح هـ.

٣ ش: وسميت.

٤ ن: عاملة.

٥ ش – أو.

٦ «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء. فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقِل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الرانُ الذي ذَكر الله: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (سورة المطففين، ١٤/٨٣)» (سنن الترمذي، تفسير القرآن ١/٨٣ (سورة المطففين ١).

٧ ش: في التقريب.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبه. فإذا أَحببته كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه. وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَساءته» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٥٦/٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

٩ ك ن: الأنبياء.

١٠ انظر لذلك: سورة البقرة، ٤٩/٢؛ وسورة إبراهيم، ٦/١٤.

عسىٰ ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض، ليس المراد أرضَ[1] مصر بل الأرض التي يستخلفكم[2] فيها، فينظر كيف تعملون.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ ،

ولقد أخذنا ءال فرعون بالسنين، أي كالسنينَ التي في زمن يوسف[3] وهي[4] سِنو[5] الخصبِ وبعدها الجدبُ.[6] لهذا قال: ونقص من الثمرٰت، وبين مراده بهذا الفعل بقوله: لعلهم يذكرون، وهذا هو معنى قوله من قبل: وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ[7] وتمام الآيات كما بيناه، فافهمه.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣١﴾

ودليله قوله: فإذا جاءتهم الحسنة، منا ابتلاءً لتشكروا، قالوا لنا هٰذه، أي نستحقها. والمعنى أنهم لا يشكرون الله على ذلك فلا يذكرون الله في اليُسْر، لأن الشاكر لا يشكر إلا على ما يصل إليه من خارج لا على ما هو له لا من غيره. وإن تصبهم سيئة، بما قدمت أيديهم ابتلاء لعلهم يرجعون، يطيروا بموسىٰ ومن معه، من المؤمنين. فالحسنة ههنا هي ما يحسن من السنينَ الحسنةِ ومن كل حسنة؛ والسيئة من كل ما يسوء كالنقص من الثمرات. والطِّيَرَة هو فال[8] السُّوء كالاستدلال بالواقعة على ما يحصل به السَّخَط[9] والشؤم. والفأل[10] هو ما يتفأل الإنسان به خيرا فيستدل به على خير. ولهذا قال عليه السلام: «أُحب الفأل وأَكره الطِّيرة».[11] والطيرة في اللغة مشتقة من الطائر الذي كان العرب يرون أنه إذا طار على صورة معلومة عندهم لا يذهبون في تلك الحاجة ويرون أنها غير ناجحة، كما لو طار يمينا رأوه خيرا، أو شمالا رأوه شرا. فقوله: يطيروا بموسىٰ، استعارة من الطائر إلى جهة المشأمة التي هي الشُّؤمَى[12] عندهم:

---

١ ن – أرض.

٢ ن: التي نستخلفكم.

٣ انظر: سورة يوسف، ١٢/٤٦-٤٩.

٤ ك ن: وهو.

٥ جميع النسخ: سني.

٦ ن: الجذب.

٧ الآيات ٩٤-٩٦ من هذه السورة.

٨ ن: هو قال.

٩ ك: به التخسط.

١٠ ن: السخط والسوم والقال.

١١ عن أبي هريرة قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن ويكره الطيرة" (مسند أحمد بن حنبل، ٢/٣٣٢). وانظر أيضا: النهاية لابن الأثير، «فأل».

١٢ الشؤمى من اليدين نقيض اليُمْنى (لسان العرب، «شأم»).

فلما جعلوا موسى ومن معه بمنزلة الطائر كانوا قد تطيروا به. فأصابتهم السيئة من الله بشؤم أعمالهم ليتذكروا، فنسبوها إلى موسى ومن معه فتطيروا. وفي هذه الآية ما دل على أن موسى عليه السلام بقي سنين يُنذِر فرعون وقومَه.

وقوله: **ألا إنما طٰئرهم عند الله**، يحتمل أن يكون المعنى من عند الله، أي ذلك الذي يتسخطّون به من ورود ما أصابهم من السيئة وينسبونه إلى موسى هو من عند الله أخذهم به لعلهم يَذّكرون. فنسبوا ذلك إلى موسى ولم يَذَّكَّروا في عُسْر ولا يسر. **ولٰكن أكثرهم لا يعلمون**، أنه بما كسبت أيديهم وأن ذلك هو من عند الله جزاءً وتذكيرً[1] لعلهم يرجعون إلى الله وإلى أوامره.

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾

وقالوا مهما تأتنا به من ءاية لتسحرنا بها، باطل عندنا، **فما نحن لك بمؤمنين.**

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾

فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل، يريد القُمَّل، وكذلك جاء في التوراة،[2] **والضفادع والدم ءايٰت مفصَّلٰتٍ**. التفصيل ترداد الشيء وتكراره ليُعلَم من عِدَّة وجوه، وقد تقدم. والمراد أن كل آية بمفردها لو[3] جاءت إلى قوم لاقتضى أنهم يؤمنون. فهؤلاء رأوا الجميع ثم لم يؤمنوا ولم يروها[4] مجملا بل مفصلا. **فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين.**

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾

ولما وقع عليهم الرجز، هو في العربية رِغدَةٌ في رِجل الناقة لداء يلحقها. ولما كانت المصيبة على اختلاف أنواعها تَرْعَدُ لها قوائمُ المصاب[5] بها كان الرجز يَعرُض عند المصائب، وكذلك الخوف بحسب المصيبة، ولا يزول إلا بزوالها. والارتجاز

[1] ك ن: تذكيرا.
[2] انظر: الخُرُوج ٧/١٤-٢٥، ٨/١-٢٤، ٢٩-٣٢، ٩/١٧-٣٥، ١٠/٣-٦، ١٢-٢٠.
[3] ن – لو.
[4] ش ك: ولم يروه.
[5] ن: المصائب.

هو الاهتزاز والحركة المضطربة. قوله: **قالوا يٰموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك.** تقديره أن يؤتينا بما عهد عندك من الرحمة لمن آمن والعفوِ عمن تاب. **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرٰءيل.**

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

فلما كشفنا عنهم الرجز إلىٰ أجل هم بٰلغوه إذا هم ينكثون، العهد والتوبةَ.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

واليَم لفظة بتخفيف الميم / عبرانية وتفسيرها البحر. [١٧٤و]

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشْرق الأرض ومغْربها التى بٰركنا فيها، فهي أرض بيت المقدس. وقوله:[١] ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ،[٢] فالمراد الإعلام بأن البركة فيه وحولَه. وهذا هو معنى قول[٣] موسى: إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ،[٤] وإن كان مطلقا. والحد الذي تُحَدّ به الأرضُ المقدسة هو جميع ما مَلَكه[٥] بنو إسرائيل عند دخولهم إلى الشام قبل اتساع المُلْك، لأنه لا يلزم أنهم من كونهم ملكوا تلك الأرضَ أنهم لم يملكوا غيرها. واعلم أن البركة يريد بها وجودَ الأنبياء إذ هم البركة وبهم فلزم أن تكون[٦] حيث كانوا. وقد علمت اختصاصَ هذه الأرض بالأنبياء كإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ ويوسفَ وعيسى وزكريا وشعيبٍ ويونسَ وأنبياءِ بني إسرائيل في هذه الأرض دون الهند والصين ومصرَ والحبشة والترك والأعاجم وغيرهم.

وتمت كلمت ربك الحسنىٰ، صفة الكلمة، **علىٰ بنى إسرٰءيل بما صبروا. ودمرنا**، مشددة[٧] الميم مضاعفةُ دَمَر المخففة منها. والمعنى[٨] وأهلكنا، **ما كان يصنع فرعون وقومه**

---

[١] ر: قوله.

[٢] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ (سورة الإسراء، ١/١٧).

[٣] ش: قوله.

[٤] الآية ١٢٨ من هذه السورة.

[٥] ن: ما سلكه.

[٦] ش ن: أن نكون.

[٧] ك: مشدة.

[٨] ن – والمعنى.

وما كانوا يَعرِشون. يشير بالعروش إلى كل ما يَنطلق عليه هذا الإسم من المساكن، كقوله: نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا.[1] ويدخل في ذلك ما يعرشونه من الدوالي[2] وذوات العروش من النبات. ويُخَصّ[3] ما جاء في التوراة من أن فرعون عمل ستّمائةِ مَركبٍ للفُرْسان من المراكب المختارة، أي مراكب البحر. فهي التي كانوا يعرشونها كأنها عرش على الماء. فلما أغرق الله آل فرعون أهلك ما صنعوا ليقاتلوا به بني إسرائيل وما[4] كانوا يعرشونه من المراكب[5] ليمنعوهم به، أي يجاوزوا البحر.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝١٣٨﴾

وجُوزنا ببنِي إسرٰءيل البحر، ولم يقل: فجوّزنا بني إسرائيل، إذ المراد أنه تعالى لم يزل معهم فجاوزوا معه، وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ.[6] فجاوز البحرَ بهم إلى البر. **فأَتَوا**، في طريقهم في البر بعد المجاوزة **علىٰ قوم يعكفون**، أي يواظبون، **علىٰ**، عبادة، **أصنٰم لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلٰها كما لهم ءالهة. قال إنكم قوم تجهلون.**

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٣٩﴾

إن هٰؤلاء متبر، مُكسَّر؛ وقيل: التِّبْر هو الذهب قبل السَّبك قِطَعا صِغارا كالجسم المُكسَّر، ويقال: تبره إذا كسره. **ما هم فيه**، أي من عبادة الأصنام الآن. **وبٰطل**، يوم القيامة، **ما كانوا يعملون**، في الدنيا.

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٤٠﴾

قال أغير الله أبغيكم إلٰها وهو، لا غيره من الآلهة التي اتخذتموها وأمثالَها، **فضلكم على العٰلمين.**

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝١٤١﴾

---

[1] ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٤١-٤٢).

[2] أي المتنقل من مكان إلى مكان.

[3] ش: ويختص.

[4] ن: إسرائيل ما.

[5] ن: من الراكب.

[6] سورة الأنفال، ٨/١٩.

وإذ أنجينٰكم، وفي البقرة: نَجَّيۡنَٰكُم،[1] فهي هناك تدل على تكرار نجاة بعد نجاة من آل فرعون. وفي هذه الآية جاءت هذه الكلمة حكايةً عن كلام موسى لهم معطوفة على قوله قبل الآية: قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهًا. وفي غير هذا الموضع جاءت في ضمن كلام عدّد به النِّعَمَ منه تعالى على بني إسرائيل فجاءت مشددةً. واعلم أن كل آية جاءت إلى فرعون هي أيضا لبني إسرائيل آية. وبعد تلك الآيات، قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهًا،[2] فذكّرهم بقوله: وإذ أنجينٰكم من ءال فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم. وفى ذٰلكم بلٰؤا من ربكم عظيم.

﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾

ووٰعدنا موسىٰ ثلٰثين ليلة، وفي البقرة: وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ.[3] فالمواعدة من الله لموسى ومن موسى لله إنما كانت ثلاثين ليلة أولا، لأن موسى عليه السلام واعد بمعنى عاهد الله على ثلاثين ليلةً، وهي الدورة الصغرى، أعني دورة القمر. فموسى عليه السلام صبر ثلاثين لا يأكل ولا يشرب. وآتاه الله صبرا بعد صبره عشرةً أخرى كانت تماما لمدة لا يتم الأمر بدونها. ولهذا نسب الإتمام إليه سبحانه بقوله: وأتممنٰها بعشر، ثم قال: فتم ميقٰت ربه، ولم يقل: ميقاته، أربعين ليلة، ليُعلَم أيضا أن هذا ميقات الله. فافهمه لمّا شئت. ولم يقل: فأتمّ فكان الوقت الذي عَلِمه الله أربعين، والوقتُ الذي عزم عليه موسى ثلاثين. فواعد موسى ربه ثلاثين ووعده ربه بعد الثلاثين بعشرٍ متمِّمة، فتم ميقاتُ ربه ووعدُه سبحانه. وقد علمت أن الثلاثين هي من الأربعين فيصح أن تكون من الله مواعدةٌ أيضا لموسى. ولهذا قال: ووٰعدنا، بتسكين الدال. وقال موسىٰ
[١٧٤ظ] لأخيه هٰرون اخلفنى فى قومى، أي كُنْ عِوَضي. ومنه يُعلَم معنى [قوله:] إِنِّي / جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ.[4] وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين.

---

١ ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ (سورة البقرة، ٢/٤٩).

٢ الآية ١٣٨ من هذه السورة.

٣ ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٥١).

٤ ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٠).

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾

ولما جاء موسىٰ لميقٰتنا، بلغ تمام الأربعين، **وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك**، جاءت مجزومةً، أي إن أرأيتني أنت نظرتُ بإرائتك لَا بِي، فمنع الله ذلك لموسى إعلاما لغيره، وهذا مع قوة استعداد موسى وصبره. وهذا المنع يُفهَم منه أن العبد لا يقدر أن يرى الحق بحسب الحق؛ ولا تفهم منه أن العبد لا يرى الحق بحسب العبد. وفي التوراة أن موسى وهارون ونَادَاب وأَبِيهُو وسبعين من المشائخ رأوا إلٰهَ إسرائيل وتحت رجليه كصنعة[1] بياض الْمَهَا[2] وكذات السماء في الصفاء. ونظروا له وأكلوا وشربوا.[3] هذا مقلوب نصّها عبريا لا يفهمه إلا العلماء لا غير. وفي التوراة أن الله تعالى قال لموسى: لا يراني الإنسانُ فيحيى.[4] وهذا إعلام أنه لو تراءى[5] الحق له لم يثبت في بشريته، وأن مِثْلَ موسى في مثل ذلك الوقت لم يفارق البشرية فكيف غيره. فلهذا **قال لن ترٰنى**، وتقديره وإنك لا تعلم حال من تجلَّى[6] له، **ولٰكن انظر إلى الجبل**، أي مع ثباته وقوته وغير ذلك، **فإن استقر مكانَه فسوف ترٰنى. فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكّا وخر موسى صعقا. فلما أفاق قال سبحٰنك تبت إليك**، أي من سؤال الرؤية، إذ لا علم لي بحال مَن يراك. **وأنا أول المؤمنين**، من أمتي بما أخبرتَني به عن نفسك من قولك: **لن ترٰنى**.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

قال يٰموسىٰ إنى اصطفيتك على الناس، فيه بعد الإخبار إشعارٌ، معناه أنه لما آمنتَ

[1] ش: كصفة.

[2] المَهاة: بَقرةُ الوحش سُمِّيت بذلك لبياضها على التشبيه بالبِلَّورة والدُّرَّة، والجمع مَهًا ومَهَوَات (لسان العرب، «مها»).

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إلٰه إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا وشربوا» (الخُرُوج ٢٤/٩-١١).

[4] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وقال: لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش» (الخُرُوج ٣٣/٢٠).

[5] ك ن: أنه رأى.

[6] ش: من نجلا.

بما أخبرتُك به من عظمتي اصطفيتك برسْلاتي وبكلامي، أي فليس لك أن تُخبر عن ذاتي ولا أن تَطلب الرؤية[1] مني بإراءتي. **فخذ ما ءاتيتك**، مما أريد لا ما[2] تريد ولو كانت رؤيتي بإراءتي. **وكن من الشٰكرين**، أي لأن هذا عظيم. وقوله: **برسٰلٰتى**، أي لتكون رسولا برسالاتي ومتكلما بكلامي. ويحتمل أن تكون الباء للإلصاق أو التعدية، كقولك: ضربت بالسيف، وإن لم تقدر ذلك أو مِثلَه، وإلا كان قوله "لرسٰلٰتى" أبين وليس كذلك. ولا شك أن موسى عليه السلام لمّا نزل من الطور[3] ووجد قومه قد اتخذوا العجل ألقى[4] الألواحَ فتكسرت،[5] وجاء إلى قومه غضبان. ثم بعد ذلك طلع إلى الجبل مرة أخرى، وجاء بلوحين آخرين.[6] وهذا نص التوراة إلى الآن. ويحتمل أنه لما كان الغرض واحدا لم يعيّن القرآن ذلك، بل ذَكر الغرض المقصود.[7] وكانت الألواح منحوتةً من حجارة. واليهود يفسرون تلك اللفظة "جوهرا"، أعني الحجارة. وكانت مكتوبةً من الوجهين. فكان للّوحين أربعةُ وجوهٍ، وكل وجه يقال له لوح، فيجوز أن يجمع الألواح؛ على أن التثنية جمع بين فردين. واشتقاق الألواح مِن لاح يلوح لوحا، مثلَ صام يصوم صوما ودار يدور دورا.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

وكتبنا له فى الألوٰح من كل شىء، يوعظ به الإنسانُ فيهتدي به إلى الله. وقال بمعنى المصدر: **موعظة**، ولو قال: وموعظة من كل شيء لدل على موعظة واحدة، ولكن من كل شيء. وإنما أراد "مواعظ" وجَمَع بمعنى "وعظا"، **وتفصيلا لكل شىء**،

[1] جميع النسخ: الرؤيا.
[2] ن - أريد لا ما.
[3] ك - الطور، صح هـ.
[4] جميع النسخ: التي، والمثبت من م.
[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «ليس الخبر كالمعاينة إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكرست» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٧١/١). وانظر أيضا التوراة: «فنظرتُ وإذا أنتم قد أخطأتم إلى الرب إلٰهكم، وصنعتم لأنفسكم عجلا مسبوكا، وزُغتم سريعا عن الطريق التي أوصاكم بها الرب. فأخذتُ اللوحين وطرحتهما من يدي وكسرتهما أمام أعينكم» (التّثْنِيَة ١٦/٩-١٧)، و«وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص، فحمي غضب موسى، وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل. ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار، وطحنه حتى صار ناعما» (الخُرُوج ١٩/٣٢-٢٠).
[6] التوراة، الخُرُوج ١٢/٢٤، ١/٣٤، والتّثْنِيَة ٩/٩، ١/١٠-٣.
[7] انظر في هذا الموضوع: تفسير الآيات التالية من هذه السورة: ١٤٨-١٥٤.

يُحتاج إلى تفصيله مثل الحرام والحلال[١] والمباح والأحكام المفصَّلة. والموعظة ههنا ما يُنْتَفَع به من أمر ونهي. وفي التوراة أن العشر كلماتٍ كانت مكتوبة في الألواح، وهي: لا تُشركْ، ولا تَعبدْ غيري، لا تحلِفْ[٢] كاذبا، احفظْ السبت، عظِّمْ أبويك يَطُلْ عمرُك، لا تَقتلْ، لا تَزْنِ، لا تَسرِقْ، لا تشهدِ الزورَ ولا تَنظُرْ لإماء صاحبك.[٣] **فخذها**، خذِ[٤] الألواحَ، والأَولى خذِ الموعظة، **بقوة**، أي بقوة من الإيمان. **وأمر قومك يأخذوا**، أي أن[٥] يأخذوا، **بأحسنها**، مفهوما وتفسيرا أو تأويلا. فإن كل كلامٍ جامع يحتمل[٦] أن يقع فيه ما يدل على معنيين مختلفين، فإن أحدهما هو المراد وهو الأحسن لا الحسن. فكما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾.[٧] فأمر الله موسى أن يأمر قومَه بأن يأخذوا بأحسنها تأويلا. لهذا قال له: **فخذها**، ولم يقل: فخذْ أحسنَها؛ ولم يقل أيضا: وأمرْ قومَك يأخذوا أحسنها، لئلا تَظن أن بعضَها أحسن من بعض. **سأوريكم دار الفٰسقين**، في الآخرة وهي النار. وقيل: الإشارة إلى مصر وأهلها في ذلك الزمن. / والقول مطلق عام يدخل فيه الخاص. [١٧٥و]

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾

وكذلك ما بعده وهو: **سأصرف عن ءايٰتى**، أي[٨] عن الإيمان بآياتي. وفيه إشارة معناها عن فهمِ آياتي، لأن المتكبر معاقَب بعدم الفهم من الله، كما أنه يمتنع لتكبره أن يتواضع ليفهم من العلماء. فصرف الله الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق عقابا لهم. وتمام العقاب: **وإن يروا كل ءاية لا يؤمنوا بها**. لهذا قلنا: إن الصرف عن الآيات

---

١ ن: الحلال والحرام.

٢ ش ن: ولا تحلف.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلٰهك، لكي تطول أيامك، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلٰهك. لا تقتل، ولا تزن، ولا تسرق، ولا تشهد على قريبك شهادةَ زور، ولا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيت قريبك ولا حقلَه ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك. هذه الكلمات كلم بها الرب كلَّ جماعتكم في الجبل من وسط النار والسحاب والضباب، وصوت عظيم ولم يزد. وكتبها على لوحين من حجر وأعطاني إياها» (التَّثْنِيَة ١٦/٥-٢٢، والخُرُوج ١٢/٢٠-١٧).

٤ ك: أحذ.

٥ ش - أن.

٦ ش ك: محتمل.

٧ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ (سورة آل عمران، ٧/٣).

٨ ش - أي.

هو أن يبقَى حالُهم بعد الصرف هذا الحالَ [و]هو قوله: **وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا. ذٰلك**، العقاب، **بأنهم**، بسبب أنهم، **كذّبوا بـٔايٰتنا وكانوا عنها غٰفلين**. وهذا الكلام من قوله: **سأصرف**، هو إخبار من الله عما قاله لموسى حين قال له: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾،[1] والأمر مستمر أبدا عن جميع الآيات المنزَّلة في الكتب. وهذه إشارة إلى من يؤمن ببعض ويكفر ببعض[2] مع كونه يؤمن بالآخرة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾

ثم عطف على هؤلاء حديث مَن لا يؤمن بالآخرة ولا بشيء من الكتب كالمشركين وأمثالهم فقال: **والذين كذبوا بـٔايٰتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمٰلهم. هل يجزون إلا ما كانوا يعملون**. ويحتمل أن تكون الآيات الأُوَل ما أُنزل على موسى وهذه الأخيرة يشير بها إلى القرآن. ولهذا قال: **حبطت أعمٰلهم**، أي وإن كانوا قد آمنوا بموسى وعملوا أعمالا صالحة. فيكون الكلام راجعا على أهل الكتابين.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾

ولهذا أتم كلام بني إسرائيل بعده فقال: **واتخذ قوم موسىٰ من بعده من حُلِيّهم عجلا جسدا**، أي بلا روح. والمَعدِن يقال له الجسد، **له خُوار**، صوت كصوت البقر الذي هو الخوار. قيل: كان مصنوعا في رَصَدٍ لوقتٍ ففُتِنوا به. **ألم يروا أنه لا يكلمهم**، ليس المراد بكلام البقر بل بكلام الإلٰه، لهذا بعده: **ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظٰلمين**، لأنفسهم[3] باتخاذه.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾

---

[1] من الآية السابقة.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى وهو أيضا في حق اليهود: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ (سورة البقرة، ٢/٨٥).

[3] ن: لا لنفسهم.

ولما سُقط، يقال: هذا مِن سَقْطِ المتاع، أي رَدِيئه.[١] ولما كان الإنسان إذا احتوت يداه على شيء ثمّ[٢] بعد ذلك رآه من سَقْطِ المتاع ندم. قيل: إن قوله: سقط فى أيديهم، إشارة إلى ندمهم، و"سقط" ما لم يُسمَّ فاعلُه وسَقْطُ المتاع الذي هو رديئه، مشتق من سَقَط يَسقُط؛ أخذ الاسم من الفعل الماضي للمبالغة، كقولنا في[٣] حكم وصنع، كما تقدم. وسقط يسقط مثل حَلَب يَحْلُب وقتل يقتل، وسُقط مثل قُتل. والمعنى فيه عائد إلى رداءة الشيء. يقال: فلان سَقط من أغين الناس. فهذا العِجل سَقط في أيديهم من أعينهم وأنفسهم. ورأوا، من رؤية القلب بمعنى وعلموا لكنه بمنزلة رؤية العين، أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخٰسرين، أي من أهل النار.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

ولما رجع موسىٰ إلىٰ قومه غضبٰن أسفا، أصله من الأسَف، وهو رِقَّة تَحصل عند مَن فاته أمرٌ، وأصله من أسِف يأسَف. فإذا أردت المبالغة في الصفة اتخذت له اسمَ صفةٍ تُشبه الفعلَ الماضي، منه تقول: هذا رجل أسِفٌ،[٤] أي كثير التأسف. قال بئسما خلفتمونى، به، من بعدى، أعجِلتم أمر ربكم، أي بالعذاب. وألقى الألوٰح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه. قال، أخوه هارون: يا، ابنَ أُمَّ، قيل: العرب تقول كذلك استعطافا بالرَّحِم؛ ويَعضُد ذلك أنه مكتوب في التوراة أن موسى وهارون ومريم من ظهر عمران.[٥] إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى، أي لما خالفتهم فيما جاءوا به. فلا تُشمت بِىَ الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظٰلمين، أي لا تعتقد في ذلك.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

قال رب اغفر لى ولأخى. قوله: لى، فيه إشارة، أي:[٦] "مِن أجل ما فعلته مع أخي" والمقصود غيره، وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الرٰحمين، وفرغ كلام موسى.

---

[١] ش ك: ردئة.
[٢] ن - ثم.
[٣] ن - في.
[٤] ك: آسف.
[٥] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «واسم امرأة عمرام يوكابد بنت لاوي التي ولدت للاوي في مصر، فولدت لعمرام هارون وموسى ومريم أختهما» (العَدَد ٢٦/٥٩).
[٦] جميع النسخ - أي، والمثبت من م.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾

ثم قال الله تعالى مخبرا عن مستقبل يقع: **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحيوٰة الدنيا. وكذٰلك نجزى المفترين**، بعدهم إلى يوم القيامة. والقول مطلق يعم كل مفتر.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾

والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها، بعد السيئات لئلا تكون التوبة مع العمل أيضا، إن التوبة تكون من بعد العمل. و"من" لابتداء الغاية، وهو معنى [قوله:] ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ؛[1] / وءامنوا، بنبيّ وقتِهم. **إن ربك من بعدها**، بعد التوبة، **لغفور**، لما قبلها، **رحيم**، بالتائب. وهذه الآية خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم، جاء في جملة الحكاية عن موسى لمحمد عليهما السلام، وليست كبقية الكلام لموسى. وكذلك ما قبلها من قوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ. [١٧٥ظ]

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾

ولما سكت عن موسى الغضب، كأنه استعار للغضب كلاما، كما يقال: كلام[2] الرضا لا يخفى من كلام الغضب، وأيام السرور وسِنِي الجوعِ.[3] فقوله: "سكت الغضب" يُفهِم أن الكلام المتقدم [كان] كلامَ الغضب. والمعنى أنه لمّا دلّ الغضب على ما في النفس للمغضوب عليه فكأنه بمنزلة النطق. **أخذ الألوٰح**، يحتمل أنه أراد الألواح الثانية، بدليل قوله: **وفى نسختها**، لأنها نسخة [الألواح] الأولى. تقول: "هذه نسخة كتاب السلطان"، تريد أنك نسخت ما فيه في كتابٍ غيره. والأولى أنه أخذ الألواح مكسَّرةً فلم ينتفع بما فيها، ولهذا قال: **وفي نسختها**، ولم يقل: وفيها. فيطابق[4] ذلك لِما جاء في التوراة

---

١ ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ (سورة النساء، ١٧/٤).

٢ ك ن – كلام.

٣ أي وأيام السرور لا يخفى من سني الجوع.

٤ ش: ليطابق.

والله أعلم بكلامه. وإن لم يكن كذلك فقد زيد في التوراة[١] ما ليس منها، ويكون قوله: وفى نسختها، إشارة إلى ما نُسخ فيها. ولهذا لم يقل: وفيها، لئلا يكون المدح للألواح بل لما نُسخ فيها، هدًى ورحمةٌ للذين هم لربهم يرهبون. واللام في "لربهم" لنفي السوى، أي رهبتهم[٢] لربهم لا غيرِه، بخلاف ما لو قال: ربَّهم يرهبون، لجواز أن يرهبوا معه غيرَه. وبيانه في قوله تعالى: وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ.[٣]

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾

واختار موسىٰ قومه، أي من قومهٖ، سبعين رجلا لميقُتنا. يحتمل أن يكون هذا هو الميقاتَ الثاني ذكره الله بعد فراغ الميقات الأول حيث قال: فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى [فِى قَوْمِى].[٤] ثم ورد عليهم بعد الأربعين فوجد العِجْلَ وغضب وألقى الألواح، ثم بعد ذلك اختار سبعين[٥] وصعد كالأول. وهذا هو الأَولى، بدليل قوله: فلما أخذتهم الرجفة، استغفر لبني إسرائيل، قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيّٰيَ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، وهم عبّاد العِجل دون الباقين. إن هى إلا فتنتك، اختبارك وامتحانك؛ كقوله: وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ.[٦] وقوله: تضل بها من تشاء، أي من فَسَق[٧] تُضلُّه عقابا على فسقه، لقوله: وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ.[٨] فهذا محكم هذه الآية وأمثالها الذي إنما نَفهمه بردِّنا له إلى المحكم. والمعنى تُضل ممن استحق أن تعاقبه[٩] بالضلال من تشاء وتعفو عمن تشاء. فقابل لفظ الضلال بالهدى، لأن الكريم إذا عفا تفضّل، فلم يقل: وتعفو بل، وتهدى من تشاء، أي ممن استحق أن تضله بفسقه. وهذا هو باب الرحمة المفتوح للراجين. فانظر ما أتم هذا الكرمَ. وهل تكون هذه الصفة إلا لله.[١٠] فافهم ما قد أَشكل على الناس إلا قليلا.

---

[١] انظر هامش تفسير الآية ١٤٤ من هذه السورة.

[٢] ن: رهبهم.

[٣] ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٣٩).

[٤] الآية ١٤٢ من هذه السورة.

[٥] انظر: الآية ٥٥ من هذه السورة.

[٦] سورة العنكبوت، ٢٩/٣.

[٧] ش ك: أي ممن فسق.

[٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦).

[٩] ش: أن تعاقب؛ ن: أن يعاقبه.

[١٠] ك: إلا الله.

ولم يقل: وتهدي بها، لأنه يهدي بها وبغيرها ولا يُضل إلا بالفتنة عقابا للفاسقين. وتمام الاستغفار: أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغٰفرين.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

واكتب لنا فى هٰذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا، أي رجعنا، **إليك. قال عذابى أصيب به من أشاء**، أي ممن يستحقه، لأنه قد يشاء أن لا يُعذِّب بعض من يستحق العذاب. لهذا بعده: **ورحمتى وسعت كل شىء**، أي وسعت مَن يستحق العذاب[1] وغيرَه، إذ كل شيء إنما هو عليه من الخير والسلامة برحمة الله وكرمه. ومن ههنا فرغ الإخبارَ عن الخطاب لموسى.

ثم خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم وعرَّفنا[2] لمن يكتب الرحمة في تمام الكلام، وأن بني إسرائيل إذا وقعوا في الشدائد والبلاء فاتبعوا الرسول النبي الأمي يكتب لهم تلك الرحمة، وذلك بقوله: **فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوٰة**، ولم يكن فرض على بني إسرائيل صلاة ولا زكاة من التوراة. **والذين هم بـٔايٰتنا يؤمنون**، الآيات ههنا القرآن. وبرهان هذا -لو فطنوا- ظاهر وهو أن أحدهم يعصي أو يقتل فيسلم. وما هذا إلا لدخوله في رحمة الله باتباع رسوله عليه السلام.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه، لا تَفهمْ يجدون اسمَه، **مكتوبا**؛ فإن الاسم يشتبه بما شاء الله، وإنما هم يجدونه حقا بعلائمَ لا تشتبه بوجه من الوجوه أبدا.

---

[1] ش – لهذا بعده ورحمتي وسعت كل شيء أي وسعت من يستحق العذاب، صح هـ.

[2] ن: وعرفها.

فإن صفاتَه صلى الله عليه وسلم ونسبه وصفة كتابه وأرضه التي يَظهر فيها وغيرَ ذلك / بيّنٌ ظاهرٌ، **عندهم فى التورىٰة**، وفي غيرها من كلام أنبياء بني إسرائيل والزبور والإنجيل، [١٧٦و] لمن كشف الله عن بصره ونوّر بصيرته. وهذا البيان هو في الكتابين إلى الآن بعد ما بُدّل منهما وغُيّر كثير. وأبقى الله ما أبقاه حجةً عليهم[١] من كل من كفر ويكفر منهم، ومحجةً لمن استبصر فأبصر واتبع النبي[٢] الذي، **يأمرهم بالمعروف وينهٰهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبٰت ويحرّم عليهم الخبٰئث**. هذا نصّ[٣] صريح لا شبهة فيه بتحريم إتيان الذكور، لقوله تعالى: وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ.[٤] فافهمه وفهّمه. **ويضع عنهم إصرهم**. الإصر عَقد الشيء وحبْسُه بقهر، إشارة إلى العقود التي عقدوها على أنفسهم من تحريم ما لم يحرّمه الله، وقوله تعالى: وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي،[٥] أي عقدي بمعنى العهد. ولهذا قال ههنا: **إصرهم والأغلٰل التى كانت عليهم**. يشير إلى العوائد والمآلف التي سلكوها عن تقليد، فصارت لهم كالأغلال المانعة عن الالتفات إلى[٦] كلام الله تعالى. **فالذين ءامنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه أولٰئك هم المفلحون**.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

وقوله بعد هذا الكلام وما ذكره من الإيمان بهذا النبي محمد عليه الصلاة والسلام: **ومن قوم موسىٰ أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**. أشار إلى ما مضى[٧] من قوم كانوا في زمن موسى عليه السلام وإلى من تبعه بعدهم مثلهم من قبل أن تَظهر البِدَعُ.[٨] ولهذا قال بعده: وَقَطَّعْنَٰهُمُ،[٩] وتمامَه، فميزهم عن غيرهم، لأنه لمّا قال: وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ

---

[١] ش ن – عليهم.

[٢] ك + النبي.

[٣] ك ن: هذا من.

[٤] ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ (سورة الأنبياء، ٧٤/٢١).

[٥] ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ (سورة آل عمران، ٨١/٣).

[٦] ن: على.

[٧] ش ك: ما معنى.

[٨] ك ن: تظهر إليه.

[٩] من الآية التالية.

مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا[1] عرفنا أنه ليس جميع قومه اتخذوا العجل، فقال: ومن قوم موسىٰ أمة يهدون، الآية. فهذا خاصةً وإن احتمل مَن يأتي بعدهم على منهاجهم من الهدى.[2] ولهذا قال: أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا، ولهذا قال: تُضِلُّ بِهَا [مَن تَشَآءُ]،[3] أي من فَسَق فعبَد العجلَ.

فلا تظنَّ أن هذه الأمة المذكورة -كما قيل- هم قوم في الصين والهند، وأنهم مقيمون الآن يهدون إلى دين موسى الآن الذي تزْعم اليهود الآن أنه دين موسى، وحاشا موسى عليه السلام مما هم فيه الآن. وإنما قال لهم موسى عليه السلام: افعلوا ما أمرتُكم به من السبت وغيرِه إلى أن يقيم الله لكم نبيًا من إخوتكم مثلي، يجعل الله كلامه في فيه[4] ويتكلم إليكم بكل ما يوصيه الله. فمنه اسمعوا ومن لم يسمع منه فالله ينتقم منه.[5] فمذ جاء محمد صلى الله عليه وسلم فمن تبعه من اليهود فهو من قوم موسى بالحقيقة، ومن[6] لم يتبعه فما هو من قوم موسى ولا عيسى ولا محمد عليهم الصلاة والسلام، بل هم بريئون[7] منه[8] ولا يَهدي بل يُهدَى،[9] والسلام. فلا جائزٌ أن تكون الإشارة إلى من لم يُسلم وهو اليومَ باق من أمة تتوالد على ما قيل. وأما المذكورون ههنا فإنه خصَّصهم بأنهم كانوا يهدون غيرهم كما هدى موسى بالحق، وغيرهم ربما اهتدى وإن لم يُهْدَ.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

وبقية الآيات تُحقِّق لك ما قلناه إذا تأملتَ وهو قوله بعد ذلك: وقطعنٰهم اثنتى عشرة أسباطا أمما، كثيرة، لأنهم لما خرجوا من مصر كانوا ستِّمائةِ ألفٍ سوى الأطفال والنساء،

---

[1] الآية ١٤٨ من هذه السورة.

[2] ن - من الهدى.

[3] ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ (سورة الأعراف، ١٥٥/٧).

[4] أي فمه.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (التثنية ١٨/١٧-١٩).

[6] ك ن - من.

[7] ك: بل هم يرثون.

[8] أي من موسى عليه السلام.

[9] أي لا يهدي أحد منهم غيره إلا بعد أن يُهدَى هو.

وذلك مذكور في التوراة.[١] ويجب أن تَعلم أن كل ما لم يأت في كتاب الله تعالى لكنه أتى في الكتب المتقدمة أو في حديث أو إجماعٍ فلا يخلو إما أنه أتى في القرآن ضدُّه أو أنه وإن لم يأت هو بعينه فكذلك أيضا لم يأت ضده فذلك[٢] نؤمن به ونعمل. وأما إن أتى في الكتاب ضده فنعمل بما في القرآن ونتأول غيره إذا لم يمكن تركه عقلا أو نقلا. وهذا بعد فهم القرآن حق فهمه. وليس لنا أن نَدَّعِيَ / أن السنة أو الإجماع [١٧٦ظ] قد شرح ما جاء في القرآن مخالفا له، فهو الإمام. وهذه الوصية هي[٣] مما يتعلق بذي النظر المجتهد، فافهم ذلك. ثم إن بني إسرائيل كثروا بعد ذلك، **وأوحينا إلىٰ موسى إذ ستسقىٰه قومه أن اضرب بعصاك الحجر. فانبجست**، تقدم، **منه اثنتا عشرة عينا. قد علم كل أناس مشربهم. وظللنا عليهم الغمٰم وأنزلنا عليهم المن والسلوىٰ. كلوا من طيبٰت ما رزقنٰكم. وما ظلمونا ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمون.**

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾

وقوله: وَسَنَزِيدُ، في موضعه أضمر: وَ"قلنا" سَنَزِيدُ،[٤] فههنا قال ما قاله،[٥] وهناك حكى ما قال.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

وسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر، كقوله: حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ.[٦] **إذ يعدون،**

---

١ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت، نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد» (الخُروج ١٢/ ٣٧). وانظر أيضا: العَدَد ١١/ ٢١.

٢ ك - أيضا لم يأت ضده فذلك، صح هـ.

٣ ك ن - هي.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/ ٥٨).

٥ جميع النسخ - ما قاله، والمثبت من م.

٦ ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (سورة البقرة، ٢/ ١٩٦).

من العُدْوان، في السبت، فيصدّون، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يَسبتون لا تأتيهم. والشَّرّع، أي شارعاتٍ من غمرة الماء إلى الجُدّ،[1] وشرعتُ في الأمر خُضْت ودَخَلْت. كذٰلك نبلوهم، نختبرهم بما يَفتِن عقابا، بما، بسبب الذي، كانوا يفسقون. وتقديره:[2] ولعلهم يتقون، أي يتقون[3] عقابَ الفسق في الآخرة بما بلوناهم به في الدنيا فيكون الابتلاء سببا لتوبتهم. وأخّر هذه الكلمات إلى آخر الآية الثانية كما نبين.

واعلم أنه لا يطلق لفظ العقاب في الدنيا إلا عن الطبع، كقوله: فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقًا.[4] وإيضاح ذلك أن جميع ما يصيب المؤمنَ إما أن يكون جزاءً فهو ابتلاءُ تكفير وحكمةُ حُكمِ العقاب، أو أن يكون ابتداءً وهو ابتلاءُ[5] توفير لأنه يضاعف الثواب. فمن اكتسب السيئة ابتلاه الله بالأول تكفيرا، ومن كسب الحسنة ابتلاه الله بالثاني توفيرا. فافهم أن العقاب لا يكون للمؤمن بل يكون له الابتلاءُ للتكفير فهو كعقاب. وإنما يكون العقاب في الدنيا للكافر بما يؤدي إلى عقاب الآخرة. وأما قوله تعالى: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ، فهو من باب الابتلاء، لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ.[6] فلا يكون عقابٌ إلا في الآخرة، وإن كان في الدنيا فهو بالطبع على قلوب الكافرين.

﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾

وإذ قالت أمة منهم، للأمة التي كانت تهدي بالحق منهم: لِم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا. قالوا معذرة إلى ربكم. والكلام معترض بين قوله: نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ،[7] فنَسَق عليه: ولعلهم يتقون. ولهذا لم يقل: ولعلكم، فافهمه جيدا. ودليله ما تجده بعد هذه الآية وما جاء في آخرها من لفظ الفسق بصيغة واحدة ليُعلَم أن المخبَر عنهم قوم بأعيانهم. فلهذا قال بعده قوله: ولعلهم يتقون.

---

[1] الجُدُّ بالضم شاطئ النهر (لسان العرب، «جدد»).

[2] ك – وتقديره، صح هـ.

[3] ش – أي يتقون، صح هـ.

[4] ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ (سورة التوبة، ٧٧/٩).

[5] ش – تكفير وحكمة حكم العقاب أو أن يكون ابتداء وهو ابتلاء، صح هـ.

[6] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (سورة السجدة، ٢١/٣٢).

[7] من الآية السابقة.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

فلما نسوا ما ذكروا به، وهو ههنا الابتلاء بالحيتان، فخالفوا الأمر باصطيادها. **أنجينا الذين ينهون عن السوء**، وهم الذين يهدون بالحق. **وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس**. ثم قال كما قال في آخر الآية المتقدمة بعد قوله: كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ،[١] لنعلم أن الكلام عنهم.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

ثم أوضح ذلك بقوله عنهم: **فلما عتوا عن ما نهوا عنه**، عَتَوْا،[٢] من العتو والإصرار، وقد تقدم.[٣] والمعنى عتوا[٤] عن امتثال الأمر بترك المنهيّ عنه، وهو الاصطياد فاصطادوا. **قلنا لهم كونوا قردة خٰسئين**، فكان العقاب لأولئك بالصورة. وأما[٥] بقية اليهود اليوم[٦] فهم بالمعنى قردةٌ. ولهذا بعده: **وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلىٰ يوم القيٰمة من يسومهم سوء العذاب**. **تأذن**، مثل تكلم، ومعناها[٧] أخبر، ومنه ءَاذَنتُكُمْ، أخبرتكم، عَلَىٰ سَوَآءٍ.[٨] **إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم**، لمن يُسلم منهم.

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

ثم أخبر عنهم ما يدل على أن الجميع إخبار عن قوم في زمن موسى وما يليه فقال: **وقطعنٰهم فى الأرض أمما**. هذا التقطيع ههنا تقطيع ابتلاء، وليس كالأول الذي هو اثْنَتَي / عَشْرَةَ أسباطا. ولهذا قال ههنا: **منهم الصٰلحون ومنهم دون**، أي سوى، **ذٰلك**. [١٧٧و]

---

[١] الآية ١٦٣ من هذه السورة.

[٢] ك ن: عتو.

[٣] لعل المؤلف يشير إلى الآية ٧٧ من هذه السورة.

[٤] ش – من العتو والإصرار وقد تقدم والمعنى عتوا.

[٥] ن: فأما.

[٦] ن – اليوم.

[٧] ن: معناها.

[٨] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ١٠٩/٢١).

وهؤلاء كانوا قبل مجيء محمد صلى الله عليه وسلم وكان منهم الصالحون. وأما الآن فهم الخلف الذي سيذكره. والدليل على أن هذا التقطيع في هذه الآية تقطيع ابتلاء قولُه ههنا: وبلونٰهم بالحسنٰت والسيئات لعلهم يرجعون. فبين لنا قوله أولا: كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ،[1] أن معناه لعلهم يرجعون. وبين في هذه الآية الشيء وضدَّه وعلل ليُعلَم المراد بالابتلاء. ثم أخبر أن ذلك كله كان فيما مضى.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾

فخلف من بعدهم خلف، بتسكين اللام يريد ذمَّهم بذلك، لأن الخلف بتسكين اللام يريد به الذمَّ، كقوله: فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ.[2] وقوله: **ورثوا الكتٰب**، أي ولم يعملوا[3] به وهو التوراة. **يأخذون عرض هٰذا**، العالم، **الأدنىٰ**، أي الداني وهو الدنيا. ويحتمل أن يكون بمعنى الدَّنِيّ من الدناءة. **ويقولون سيغفر لنا**، وهذا يدل على اعترافهم بأنه ذنب، ولكنهم يحتقرونه. **وإن يأتهم**، أيضا، **عَرض مثله يأخذوه**. هذه الآية يُفهَم منها حالُ من يستحقر بذنبه ويظن المسامحة من الله به، فيؤديه هذا الاستحقار وظن المسامحة إلى غَشَيان مثله إلى أن تَعُود الصغائرُ كثيرةً والذنوبُ عادةً نعوذ بالله. وأما مراد الآية فهو يُفهَم من قوله تعالى: وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا،[4] وهو العرض. **ألم يؤخذ عليهم ميثٰق الكتٰب**، يشير إلى هذا الميثاق الذي أخذه عليهم في بيان الكتاب،[5] **أن لا يقولوا على الله إلا الحقَّ ودرسوا ما فيه**، أي فهموه ودرسوه.[6] لكنهم استمروا على ما هم فيه من أجل العرض واعتقادِ المغفرة مع كونهم على حالة موجِبة لهم أن لا يُغْفر لهم لإصرارهم وكتمانهم الحقَّ وكَذِبهم على الله وأخذِهم العرضَ ونقضِ الميثاق. **والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون**.

---

[1] الآية ١٦٣ من هذه السورة.
[2] ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ (سورة مريم، ٥٩/١٩).
[3] ش: ولم يعلموا.
[4] سورة آل عمران، ١٨٧/٣.
[5] ش - يشير إلى هذا الميثاق الذي أخذه عليهم في بيان الكتاب، صح هـ.
[6] جميع النسخ: ودرسوا.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ١٧٠﴾

والذين يمسكون، غيرهم من أهل الكتاب، **بالكتٰب**، التوراة، أي يأمرونهم بالعمل بما فيها، لأن بذلك يكون الإسلام. وأصله من مسّك مشددة[١] السين متعدٍ.[٢] وهؤلاء هم الذين يهدون بالحق، وهم المهتدون إلى الإسلام. ولهذا قال: **وأقاموا الصلوٰة إنا لا نضيع أجر المصلحين**.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧١﴾

وبعد ذكر القسمين منهم تمم[٣] الكلام عن المختارين من قوم موسى فقال: **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم**، كانوا في طرفه فهو من تحتهم، لأنهم عليه وهو أيضا من فوقهم كالظلة، وقد تقدم.[٤] ولهذا قال: **واقع بهم**، ولم يقل: عليهم ليدل على ما فوقهم وما تحتهم. **خذوا ما ءاتينٰكم بقوة**، أي وإلا أطبقناه عليكم، والمعنى خذوا لعلكم، واعترض بينهم: **واذكروا ما فيه**، **لعلكم تتقون**.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ١٧٣﴾

وإذ أخذ ربك من بنى ءادم، أي[٥] من جميع بني آدم،[٦] **من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم**، أشهد الآباء، **علىٰ أنفسهم**، أي أشهدهم من حال أبنائهم معهم حالُهم هم مع آبائهم، فإن الأبناء ذرية الآباء، والآباء ذرية الأجداد، والأجداد ذرية آباء الأجداد وهلم جرا إلى آدم. فأخذ الله ذرية كل إنسان من ظهره حتى إن أحدنا لو لم ير[٧] الطفل الصغير قد خرج من الرحم، ثم تربّى إلى أن صار رجلا لَمَا صدّق أحدُنا أنه كان في صُلب أبيه نطفةً

---

[١] ك: مشدة.

[٢] قرأ شعبة بسكون الميم وتخفيف السين، والباقون بفتح الميم وتشديد السين (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٢٥).

[٣] جميع النسخ: تم، والمثبت من م.

[٤] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة، ٦٣/٢).

[٥] ش – أي.

[٦] ش – من جميع بني آدم، صح هـ.

[٧] ش: لم يرى.

وانتقل إلى بطن أمه، ثم شُقّ سمْعه وصوِّرت أعضاؤه هناك. فلما رأينا ذلك شهدنا على أنفسنا أننا لم نصوِّر ذلك المولود في الرحم، وتحققنا يقينا أن الذي صوَّره صوَّرَنا أيضا لمّا كنا في بطون أمهاتنا، وأن الذي صوّرنا ليس أحدا منا، وأن ذلك المصوِّر هو الله تعالى بواسطة أو بغير[1] واسطة. فنفسُ وجود أخذِ ذريتي من صلبي أشهدني[2] ذلك [١٧٧ظ] الأخذُ على نفسي أن الله / ربي. وهذا لازم عند كل ذي عقل لا يُمكن أن يَجحده يوم القيامة إذا حَجّه الله به، لأنه في الدنيا قد أشهده على نفسه بقول فصيح يَشهده كلُّ عربي وُعجمي: ألست بربكم؟ قالوا بلىٰ شهدنا. وقوله: أن، أي حَذَرا أن، **تقولوا يوم القيٰمة إنا كنا عن هٰذا غٰفلين. أو تقولوا إنما أشرك ءاباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم،** فقد أشهد ذرية الذرية وآباء الذرية، فالكل ذرية لآدم، وكلهم بنو آدم. ولو كانت الذريةُ مخلوقةً من صلب آدم على التفصيل لَما كانت[3] مِن مَّآءٍ مَّهِينٍ،[4] وفي سورة الإنسان،[5] وسورة الطارق[6] الحجة وفي أمثالهما.[7] ولو بقَوا أحياءً كان محالا. وإن قيل: ماتوا، يبطله قولُه: وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ،[8] لأنها حياة، وأخرى في الدنيا وأخرى في البعث.

وقوله: **أفتهلكنا بما فعل المبطلون**، يكذِّب من ادعى من اليهود أن الله يؤاخذ الأبناء بذنوب الآباء. فلا يقدر المشرك أن يقول يوم القيامة: إنما اتبعتُ أبي وكنت ذرية من بعده، فإن الابن[9] صار أبا ورأى له ذرية، فشهد على نفسه أنه كان من قبلُ ذرية لأبيه كما صار ولده ذرية له. وكما أنه هو لم يخلق ولده كذلك لم يخلق نفسه ولا خَلقَه أبوه. فإذا أشرك بالله من لم يَخلق[10] بل يُخلَق فكيف يقول ذلك، أو يُقبَل منه هذا العذرُ، أو يدعي الغفلة عمن خَلقَه؟ ولو لم يكن كذلك لَمَا جاز في عدل الله سبحانه أن يعاقبه على ما فعله أبوه المبطِل. فتحقق أن هذا الكلام لجميع بني آدم، أخذهم الله من ظهور آبائهم نُطَفًا قرنا بعد قرن وأشهدهم على أنفسهم أنهم لم يَخلقوا أنفسهم.

---

١ ك ن: أو غير.

٢ ن: أشهد في.

٣ ن: لما كان.

٤ هذه العبارة وردت في موضعين من القرآن: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ (سورة السجدة، ٨/٣٢)؛ و﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ (سورة المرسلات، ٢٠/٧٧).

٥ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ (سورة الإنسان، ٢/٧٦).

٦ ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۞ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ (سورة الطارق، ٨٦/٥-٧).

٧ ك ن: وفي أمثالها.

٨ ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ (سورة المؤمن، ١١/٤٠).

٩ ن: فإن الأب.

١٠ ش – ولده كذلك لم يخلق نفسه ولا خلقه أبوه فإذا أشرك بالله من لم يَخلق، صح هـ.

وكما لم يمكن أن أَخلُق مثلي امتنع أن يخلقني مثلي. فعرف كل ذي عقل أن المصنوع لا بدّ له من صانع. فليس له يوم القيامة أن يقول: إني كنت عن هذا غافلا، ولا أن يقول المشرك: أنا لم أشرك بالله، وإنما أبي أشرك. فكل إنسان أشهده الله على نفسه عند ما صار له عقلٌ يَصلح للشهادة، فإن أحدنا لا يرى أن يُشهد شاهدا لا يعقل كالطفل وغيره. وقول زكريا: هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً،[١] يدلك[٢] على الذرية ههنا.

[معنى "ألست بربكم قالوا بلى شهدنا"]

وأما ما روي من أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه صغارا كالذَّرّ في الخارج وأنه خاطبهم وأشهدهم على أنفسهم وهم صُوَرٌ صغارٌ كالذَّرّ.[٣] فإذا صح هذا الحديث فهو حديث صحيح قائم بنفسه له تأويل يعلمه العلماء الراسخون، ولا يكون تفسيرا لهذه الآية ولا مناقضا لمعناها، فإن ذلك غير مطابق لما دلت عليه ألفاظ الآية وليس بجائز عقلا. وإني لأستحيي إذا تكلمت في إثبات ما يَنفي هذه الدعوى، لأني أجدني كمن يريد أن يثبت أن النهار مُبصِر:

وليس يصح في الأفهام شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل.[٤]

لكني لما وجدت الأعمى لا يدرك ذلك أخذت أن أبيّن له ما هو لغيره ظاهر. فأقول: إن الآية تدل على خلاف ما قالوه. وذلك أنه تعالى قال: **وإذ أخذ ربك**، ولم يقل بلفظ الحديث: وإذ أخرج ربك، وقال: **من بنى ءادم**، ولم يقل: من آدم؛ وقال: **من ظهورهم**، ولم يقل: من ظهره، وقال: **ذريتَهم** أو ذرياتهم، ولم يقل: ذريته. وقوله تعالى: **قالوا بلىٰ شهدنا**، لا يصح أن تكون هذه الشهادة من الذَّر لأنهم لا يعقلون.

فإن قيل: بل كانوا حين الشهادة يعقلون؟ قلنا: إن كانت تلك العقول غير عقولهم في المدة التي وجب عليهم امتثالُ الأمر والنهي بألسنة الأنبياء فلا حجة عليهم بذلك، وإن كانت هي بأعيانها لكنهم[٥] نسوا ذلك فلا حجة عليهم بما نسوه وليس من قصدهم النسيان له. فإن قيل: هم يؤمنون بما أخبرهم الله به عن أنفسهم من أنهم قالوا بلى؟ قلنا: هذا الاحتجاج لا تَعلُّق له بمن آمن بل هو مخصوص بمن كفر. وقوله: **إنما أشرك ءاباؤنا من قبل**،

---

[١] ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ (سورة آل عمران، ٣/٣٨).

[٢] ش ن: بذلك.

[٣] انظر لمعرفة المزيد: أضواء البيان للشنقيطي، ٢/٣٩٥-٣٩٦.

[٤] محاضرات الأدباء للراغب الإصبهاني، ١/٧٥.

[٥] ن – لكنهم.

وقيل: الذر لم يكن آباءً للذر وآدم لم يكن مشركا. وقوله: **وكنا ذرية من بعدهم**، يدل على قوم بعد قوم هم ذرية بعد ذرية. ثم بعد هذا جميعه تعليل الآية مفسدٌ لما قالوه، لأنه قال ما معناه: إنما فعلنا ذلك حذرا،[1] **أن تقولوا يوم القيٰمة إنا كنا عن هٰذا غٰفلين**. والعقلاء اليومَ في دار الدنيا عن ذلك غافلون. فإن قيل: سيذكرونه يوم القيامة؟ قلنا: لا فائدة لذكرهم له في ذلك اليوم إنما الفائدة أن يذكروا / ذلك حيث ينفع العملُ. والله [١٧٨و]
سبحانه لم يوبِّخهم على أنهم يوم القيامة غفلوا، بل لئلا يقولوا: كنا أي في دار الدنيا. ثم يلزمنا حينئذ مذهبُ التناسخ. وهو أن الله تعالى أوجد العالم ذرًّا في صفة مّا، ثم أعدمهم وأخرجهم في صوَرِهم هذه. وإن كان قد خاطبهم في علمه، أي في وجود علمه فلا علم لهم بذلك، إذ لا علم لهم بوجودهم قبل وجودهم في هذا الوجود. وقد شهد الله تعالى بقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾،[2] وكقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.[3] وإذا كانوا من هذا العهد القريب لا يعلمون شيئا فكيف حالهم في العهد البعيد وهو الذَّر من عهد آدم؟ فذلك أولى بأنهم لا يعلمون. ثم كيف[4] يوبِّخهم ويَجعل ذلك حجة عليهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤﴾

ثم بعد ذلك يقول ممتدحا مبينا: **وكذٰلك نفصل الآيٰت ولعلهم يرجعون**، أي عما هم عليه في الدنيا لا يوم القيامة. فهذا على رأيهم وتفسيرهم تفصيلٌ وتبيين أو إجمال وإعجام؟ تعالى الله عن ذلك. إنما كان يلزم في هذا الموضع من تفسيرهم أن يقول: وكذلك نُبهم الآيات لعلهم لا يرجعون. أعوذ بالله ممن لا يرى أن يبدل حرفا من كتاب الله وهو قد بدّل جملة المعنى المقصودِ بالكلمات التامات. وهذا من باب ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾.[5] فإذا نظرت إلى ما قالوه وما هُم الآن عليه من تفسير هذه الآية، ونظرت إلى ما سمعتَه يكفيك دليلا على جواز غلطهم في غير هذه الآية من حديث الناسخ والمنسوخ والفرائض والدماء وغيرها مما لا يجوز في بال ذي نظر أن يقع في مثله إن كان محقِّقا إلا أن يشاء الله. فلا تُخادعْ نفسك بعد هذه وتُقلِّدَ لئلا يعاقبك الله بأن يسدّ عليك سبيل الفهم ويصرفك عن آياته.

---

١ ن – حذرا.

٢ سورة الإنسان، ١/٧٦.

٣ سورة النحل، ٧٨/١٦.

٤ ن: فكيف.

٥ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ (سورة المائدة، ٤١/٥).

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾

واتل عليهم نبأ الذى ءاتينٰه، عِلْمَ آياتنا، قارونَ،[١] **فانسلخ منها**، أي لم يعمل بشيء من علمه. وإليه أشار بقوله: إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ،[٢] لأنه علم وما عمل. فظن أن ما آتاه الله من الكنوز إنما يستحقه على العلم، وهيهات، بل لو لم يعلم لكان جهله عذْرَه كما أنه لمّا علِمَه ثبتت حجة الله عليه. **فأتبعه الشيطٰن**، الغاوين، **فكان من الغاوين**،[٣] هذا مَثَلٌ لكل مَن آتاه الله عِلْم آياته فانسلخ من العمل بها كما ينسلخ جلد الشاة عنها فتنسلخ منه. وإن قيل: إن المراد به شخصٌ معلوم؟ قلنا: إن كانت الإشارة إلى شخص معلوم فقد ضرب بذلك الشخص مثلا لكل مَن ماثله، سواء كان[٤] ذلك بلعام بن باعورا، كما قيل، أو غيرَه. ومن حيث عُلم المقصود فلا بأس إذا يُعلَم الشخص.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾

وقوله: **ولو شئنا لرفعنٰه بها**، على صورة الإخبار إنباءٌ عن قدرته سبحانه. **ولٰكنه أخلد**، قيل: هي بمعنى أطرق، **إلى الأرض**، مفكِّرا، وهو من قول القائل: ما دار في خَلَدي كيت وكيت، أي رُوعي وقلبي. وقيل: هو بمعنى انحطّ إلى الأرض خالدا، وذلك على صورة المثل. **واتبع هوٰه**، بعد ما أخلد بخَلَده. ويكون قوله: أخلد، بوزن أطمع يُطمع إطماعا، ويقال: منه طامِعٌ مثل خالد. فهذا لمّا آتاه الله العلم وفهْم الآيات التي أُنزلت على موسى، وكان الواجب على من أُوتي ذلك أن يترقى بما أُوتي، فإذا لم يعمل بمقتضى العلم فقد انحط عن الترقي. فإن لم يرجع وبقي على حاله فقد بقي خالدا في الاستقبال المشار إليه بالأرض، فخرج عن الإنسانية وبقي في عديد الحيوان بل أخسّ الحيوان.[٥] وشبَّه كلامه في العلم بغير عمل بقوله: **فمثله كمثل الكلب**

---

١ ك: قادرون.

٢ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ﴾ (سورة القصص، ٧٨/٢٨).

٣ ن + فكان من الغاوين.

٤ ش + كان.

٥ ك – بل أخس الحيوان، صح هـ.

إن تحمل عليه يلهث، تشبيها لحاله في الجدل، أو تتركه يلهث. ثم قال: ذٰلك مثل القوم الذين كذبوا بـٔايٰتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

ساء مثلا القوم، فجعل قوله: القوم، مرفوعا بدلا من المثل،[1] الذين كذبوا بـٔايٰتنا، وهذا التكذيب ههنا بالفعل، لأن من علم ولم يعمل فقد كذّب / بفعله وإن صدق [١٧٨ظ]
بقوله، وأنفسهم كانوا يظلمون.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

ولما كان قارون وأمثاله قد انسلخوا من حكم آيات الله المنزلة على موسى عليه السلام واتخذوا سبيل هُدًى من عند أنفسهم لا هدى الله الذي هَدى به الناسَ قال تعالى: من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل، أي عقابا له بإبقائه على ما جاء به، فأولٰئك هم الخٰسرون.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

ولقد ذرأنا لجهنم، لامها لام العاقبة، كثيرا من الجن والإنس. لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم ءاذان لا يسمعون بها، أي لا يفعلون بهذه الآلات ما من أجله خُلقت لهم الآلات، لأن القلب إنما خُلق ليَفقَه ما جاء عن الله. فلما لم يفقهوا مع قدرتهم على أن يفقهوا عاقبهم الله على ذلك بأن أبقاهم عليه، وعلم منهم ذلك فذرأهم لجهنم. ولا يكون ظالما لهم، لأنه مكّنهم ولم يجبرهم ولم يعاقبهم إلا بعد استحقاقهم بعملهم لا بعلمه، بل كما في علمه. أولٰئك كالأنعٰم بل هم، في نوعهم، أضلُّ، من الأنعام في نوعها. ثم عرّفنا مَن هم فقال: أولٰئك هم الغٰفلون. فلا يُوهِمْك قولُه: ولقد ذرأنا لجهنم، فتظنَّ أن الله عز وجل قضى عليهم وأجبرهم على دخول النار وخلقهم لأجلها. فقد علمت قولَه تعالى: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[2]

---

[1] قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تقديره ساء المثلُ مثلًا مثلُ القوم الذين كذبوا، فحذف "المثل" المخصوص بالذم فارتفع القومُ لقيامه مقامه (إعراب القرآن للزجاج، ١/٦٨).

[2] سورة الذاريات، ٥١/٥٦.

وإنما هذه اللام التي في قوله: لجهنم، هي لام العاقبة، أي عاقبة كثير ممن ذرأنا من الناس، فغفل عن أمرنا أنه يصير وقودا لجهنم. ولو لم تكن هذه لامَ العاقبة كيف كان يستحق عليهم الشكرُ ويكون منعِما عليهم ويريد بهم اليسرَ؟ وكيف كان يصح قوله: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ،[١] وقوله: إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ.[٢] وإنما هذه اللام كما قيل: لِدُوا للموت وابْنُوا للخراب.[٣] ومثل هذه اللام: لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا،[٤] وإنما التقطوه ليكون لهم قرةَ عينٍ؛ ولِما كان قد بيّن مثل هذه المواضع وأوضحها. ومن الواضح في العقول السليمة أن نفهم المشكل بالواضح البيّن. وإذا لم نفهم هذا بذلك وقع الاختلاف والتناقض؛ فوجب حينئذ عند ذوي الأفهام التأني والبحث وحسن النظر والفحصُ عن حقيقة مفهوم الألفاظ من غير عدول عنها ليبين الحق ويتضح المقصود من غير إشكال ولا مِراءٍ. فقد بان لك أن الله تعالى لم يَخلقهم لذلك ولم يُجبرهم عليه. بل لمّا أعماهم الهوى عن رؤية آيات الله وأصمَّهم عن سماعها عادوا بلا شك قد أذهبوا فضيلةَ الأعضاء التي من أجلها خُلقت تلك الأعضاء لهم. ثم بعد هذا عاقبهم الله تعالى على ذلك بذلك، كقوله: وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ.[٥] وقد بيَّن ما قلناه في سورة الحج بقوله: أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ،[٦] الآية. والمراد أن نعلم أن القصد بهذه الآية ليس الأصنامَ بل عبادٌ أمثالنا إلا في بعض المواضع نجد اللفظَ محتملا للقسمين. فافهمه كذلك.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٨٠﴾

ولله الأسماء الحسنىٰ، وهي لتفخيم الأمر من حيثُنا لا لتعظيم القدر من حيثُه. ومن أحسن ما نُظم في ذلك قولُ مَن قال من بعض قصيدة:

---

[١] سورة يونس، ١٠/٤٤.

[٢] سورة الحج، ٢٢/٦٥.

[٣] البيت لأبي العتاهية، وتمامه:
لِدوا للموت وابنوا للخراب
فكلكم يصير إلى ذهاب.
انظر: ديوان أبي العتاهية، ص ٤٦. وانظر أيضا: خزانة الأدب لعبد القادر بن عمر البغدادي، ٩/٥٣١.

[٤] ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ (سورة القصص، ٢٨/٨).

[٥] ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/١١٠).

[٦] ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٤٦).

من حيثُنا ظهرت أسماؤه وله التـ   تَنْزِيهُ عنها فكلٌّ لا يجاوره،
ألا تراها حديثا قد تقدمها   إن القديم حديث لا يخامره،
وعن تعالى تعالى أن يقال له   من خلقه أبدا لولا أوامره.[1]

والحُسن ضد القبح.[2] فالأولى أن الإنسان يدعو الله تعالى من أسمائه الحسنى بحسب ما يقتضيه حاله. مثال ذلك إذا وجد الفقرَ يُكثِر من قوله: يا غنيّ، يا رزاق، يا فتّاح، يا وهّاب، يا كريم؛ وإذا وجد الضعف يا قويّ؛ وإذا وجد غلبة الشهوات يا مَلك يا قدير، لأن شفاء الأمراض في أضدادها. ويجب أن تعلم أن الدعاء بمنزلة البَذْر[3] الذي إنما يكون النبات من جنسه إذا سَلِم من الآفات. فكما أن البذر إلينا والإنبات إلى الله تعالى فكذلك / الدعاء. فإن النخلة في النواة سرّ يُظهره الله بأفعالنا. وقد جعل الله وضع النواة في الأرض إلينا. فإذا فعلنا ذلك كانت النخلة من وجهٍ جزاءً لعملنا، وهو بذر النواة، ومن وجه تكون بفضل الله وتدبيره ورحمته. فنقول: أكلنا التمر برحمة الله لا بعملنا، وهو صحيح؛ ونقول: أكلناه بعملنا وهو صحيح من وجه آخر، والدعاء غروس الجنة. [١٧٩و]

فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمٰئه سيجزون ما كانوا يعملون. ويجب أن تعلم أن الدعاء عبادة، والصلاة دعاء، والأعمال أدعية بالفعل؛ إذ الدعاء هو الطلب، فالداعي بالأسماء الحسنى يطلب من الله بالأقوال، والمتصف بالأسماء الحسنى يطلب من الله بالأفعال. وقوله: **فادعوه**، ولم يقل: فادعوا منه يفهم منه المعنيان. والله الهادي.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

ولما قدم قوله: وَمِن قَوْمِ مُوسىٰ[4] مخصِّصا أشار إلى بقية أمم الأنبياء جملة بقوله: **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق**، تقديره: الذي هديناهم به. **وبه يعدلون**، ويشير إلى القائمين بالكتاب أبدا في أزمنتهم. ولهذا قال بعده: **والذين كذبوا بـٔايٰتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**، عقابا لهم على تكذيبهم، أي سنستدرجهم فيما[5] هم فيه من المعاصي إلى النار. ولما كان الكلام أولا مطلقا عن كثير من الناس في الأزمنة المختلفة،

---

[1] لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.
[2] ك: القبحى.
[3] ن: البزر.
[4] الآية ١٥٩ من هذه السورة.
[5] ش: مما.

وذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾[١] أي[٢] في سائر الازمنة، قال: **وممن خلقنا**، أي في كل زمن، **أمةٌ يهدون بالحق**، لتكون حجةُ الله أبدا على خلقه. ثم قال: **والذين كذبوا**، أي في كل زمن، وجلّ ما تجده من مدح أهل الكتاب يشير به[٣] إلى مثل هؤلاء في ذلك الزمن؟ فافهمه جيدا.

وقوله: **وأملى لهم**، أي أُمهلهم بالعقوبة وأُمِدُّهم بما هم فيه. **إن كيدى متين**، أمتن من كيدهم. والمتن هو اللحم الغليظ الذي على جانب الصُّلب. والاستدراج أن توجب لغيرك أن يَدْرُج كما يدرج الطير مثلا. وأصل ذلك من الدَّرْج، ففي الخير إلى فوقٍ وفي الشر إلى أسفلَ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤﴾

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥﴾

أولم ينظروا، متفكرين معتبرين، **فى ملكوت السمٰوٰت والأرض وما خلق الله من شيء**، وأن ذلك ليس من عبث، **وأن عسىٰ أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون**.

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٨٦﴾

من يضلل الله، عقابا له، **فلا هادى له ويذرهم فى طغيٰنهم يعمهون**. اعلم أن الله سبحانه لمّا خلق الإنسان ذا عقل واختيار وقدرة على مُكْنَة[٤] منه وأمره به ونهاه عنه امتحنه في سائر حركاته وسكناته في المأكول والمشروب والملبوس والنوم واليقظة وغير ذلك. وامتحنه من نفسه وغيره بخواطره وبالصديق والعدو، والصحة والمرض، وبالمنافي[٥] والملائم، وبالقريب والبعيد، وشُغْلُه وبقاؤه في الدنيا لهذا الامتحان، فهو ممتَحَن بكل شيء في كل آن وعلى كل حال. فإن تجنب أن يفتتن سلم،[٦] وإن افتتن عاقبه بأن يتركه في طغيانه. وهذا الافتتان من العبد يقع مُتَفَنِّنًا لا يكاد أن يُحصى.

---

[١] الآية ١٧٩ من هذه السورة.
[٢] ك ن - أي.
[٣] ك ن - به.
[٤] ش ك: على مكنه.
[٥] ن: بالمنافي.
[٦] جميع النسخ - سلم، والمثبت من م.

فلهذا فُرضت عليه الصلاة ووجب الاستغفار والدعاء، وأمر بالحسنات لتَذهب السيئات، لأن الفتنة من الله له على الدوام، وهو معنى قوله: لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا،[1] وأمثاله. فيجب أن يتقي الفتنة على الدوام وأن يَعمل[2] بما يُذهب السيئات على الدوام عَلِم بها أولم يعلم. فإنه متى فُتن ولم يَحذر ويجتنب[3] وهو يعلم ذلك من نفسه إما مسامحة وفتوًى أو جرأة؛ ففي الأول هو مستدرَج، وفي الثاني هو معاقَب على الأول، فافهم.[4] فإن تاب فُتح له الباب[5] وإن تَمادى وأصرّ طُبع على قلبه بكسبه، فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا.[6] وفي الطرف الآخر قُبالةَ ذلك: وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ.[7] فافقه جملة ما شرحته فهو مقصود كل كتاب أُنزل ونبي أُرسل. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ / فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ،[8] فصوِّرْ هذا الكلام بين عينيك، [١٧٩ظ] ولا تقعُدْ بَطّالا فتُمدَّ رجلَيك، ولا تنتظر وقتا تعمل فيه. فوقتك عامل فيك، ولكل وقت له فيك عمل ولك فيه عمل؛ فاعمل فيه أبدا، واسأل الله الإعانة والهدى سرمدا. فهذه وصيتي إليك والله خليفتي عليك إن شاء الله تعالى.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧﴾

يسئلونك عن الساعة أيان، أيَّ آنٍ، **مرسٰها**، مأخوذ من قوله تعالى: وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ،[9] أي ما يُثبتها ويُسكّنها ومنه المُرْسَى. **قل إنما علمها عند ربى، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت فى السمٰوٰت والأرض**، أي على من فيهما. تقول: ثقل عليّ هذا الأمر، أي عظُم، وثقُل عليّ فلان، أي كلّفني مشقةً وصعوبة بكيت وكيت. **لا تأتيكم إلا بغتة. يسئلونك كأنك حفى**، الحفيّ هو العالم المستقصِي عن الشيء إلى[10] أقصى حده. وليس المراد "يسألونك عنها" لئلا يعود قوله: عنها، بعد قوله أولا: عن الساعة، زائدا.

---

[1] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الكهف، ٧/١٨).
[2] ن: وايعمل.
[3] ن: ويتجنب.
[4] ش ك + افهم.
[5] ن: له باب.
[6] سورة البقرة، ١٠/٢.
[7] سورة محمد، ١٧/٤٧.
[8] سورة النازعات، ٧٩/٤٠-٤١.
[9] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا﴾ (سورة الرعد، ٣/١٣).
[10] جميع النسخ: إلا، والمثبت من م.

بل المراد أن السؤال منهم عن الساعة وهو الحفيّ عنها، ولهذا أخر لفظة "عنها". ومن ذلك قوله تعالى: إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ[١] والمعنى فيُجْهِدْكم مستقصِيا، أي بأقصى السؤال لجميع المآل. فيكون المعنى ههنا كأنك قد عرفتها معرفة المستقصِي عنها البالغِ أقصى علمها. ولهذا بعده: **قل إنما علمها عند الله**، معناه كيفيتها وشرح هيئاتها[٢] وتفصيل ما فيها.

وقوله في أول الآية: **إنما علمها عند ربي**، يعني علم وقتِها، لأن السؤال أولا هو عن الآن الذي هو وقت قيامها. ولهذا قال بعده: **لا يجليها لوقتها إلا هو**، فلا يكون تكرارا. وفي تسميتها بالساعة معنًى عجيبٌ عند أرباب الذوق، لأن الكل ساعة وهي قائمة والجزاء واقع. **ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون**، يوهِم مَن لا يَعلم أن بعضهم يعلم، وقد تقدم. **لا يُجلّيها لوقتها إلا هو**، والمعنى لا يعلمون أن الله هو الذي يعلمها لا غيره. وقيل: الوجه فيه أن وقتها لا يعلمه إلا الله؛ وكونُها والإيمان بها والعلم بأن الساعة آتية فلا يعلمه أكثر الناس ولا يصدِّقون بل يمارون في الساعة.[٣]

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

قل لا أملك لنفسى نفعا، قدّم النفع ههنا وأخّره في يونس؛ لأن ههنا طلبوا منه علْم الغيب من أمر الساعة فقال ما معناه: إذا كنت لا أملك لنفسي نفعا فكيف أعلم الغيب من أمر الساعة، ولهذا بعده: **ولو كنت أعلم الغيب**. وفي يونس لمّا استعجله قومُه بالعذاب قال: إني لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا،[٤] أي فكيف أمْلِك لكم، وأضاف إلى كل واحد ضده فقال ههنا: **ولا ضَرًّا إلا ما شاء الله**، أنْ أَملِكه، ومتى شاء أن أملك شيئا مَلَكْتُه. فالإنسان حينئذ يملك ما شاء الله له أن يملكه فهو متصرف فيما يملكه، وعليه وقع الثواب والعقاب، لأن الله تعالى شاء له أن يملك ما به يصح التكليفُ.

---

١ سورة محمد، ٤٧/٣٧.

٢ ن: هيتها.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/١٧-١٨).

٤ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (سورة يونس، ١٠/٤٩).

[مشيئة الله ومشيئة الناس]

فاعرف ماذا يملكه الإنسان بتمليك الله سبحانه، فلو مَلَّكَه الله خيرا دون شر، أو شرا دون خير لكان ملَكا أو شيطانا. وقد يظن بعض الجَهَلَة أنه لو خلق الإنسان قادرا على الخير فقط لكان أفضلَ لتحقق السلامة، وهذا غلط لأنه يعطي نقص المصنوع ويفضي إلى نقص الصانع جل وعلا. أما المصنوع فإنه كلما كانت قدرته أوسع كان أشرف. وأيضا فإن المراد أن يصل إلى الكمال بالشيء وضدِّه أي بفعل الخير وبترك الشر[1] لا بأحدهما. وإذا لم يقدر على فعل الشر لم يقدر على تركه. وأما الصانع جَلّ وعلا فإن مراده التعرفُ إلى عباده بتنوع القدرة وبكمالها وإن أفضى أحد القسمَين إلى الآخر. فلو خلقَ الإنسانَ وحده دون كل شيء لم يَظهر تَنوُّعُ القدرة، ولو خلق كل شيء إلا الإنسانَ لم يَظهر كمالُ القدرة، لأن المصنوع إذا كان كاملَ القدرة على الشيء وضده لزم كمال الصانع. ولهذا دل على تنوعِ القدرة بقوله: سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ، ودل على كمال القدرة[2] بقوله: وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ.[3] فافهم ذلك. وأيضا إن الكريم المطلق لا يقتصر على التكرم بشيء وهو قادر على التكرم به وضده، وإنما المتكرم بهما[4] له إطلاق الكرم. ولما كان الإنسان هو المحلَّ دون بقية الخلق لإطلاق كرم الحق سخَّر له ما عداه، فليس فوقه بشرط كمال الإنسانية إلا الله. فقد بان لك أنه شاء / الله أن يشاء الإنسان مهما شاء الإنسان، [١٨٠و]
لكن إلى حدّ مخصوص وهو ما ملّكه الله إياه فقط. وليس للإنسان مشيئةٌ خارجة عن ذلك الحد، فما هو داخل الحد شاء الله أن يكون تحت مشيئة الإنسان، فوجب عليه العقاب أو الثواب. وفي ذلك وقع الامتحان فهو ممتحَن بالكل، والأمر إليه والعائد عليه. فكأنه قال: لا أملك إلا ما شاء الله أن أملِكَه من كسبي ولا أعلم ماذا أكسِب. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون.

﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾

---

١ ن: أي يفعل الخير ويترك الشر.

٢ ش – بقوله سنريهم ءايتنا فِى الآفاق ودل على كمال القدرة، صح هـ.

٣ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (سورة فصلت، ٥٣/٤١).

٤ ن: بها.

هو الذى خلقكم من نفس وٰحدة، آدمَ. **وجعل منها زوجها**، تقديره: وبثّ منهما[1] رجالا كثيرا ونساءً، وفي سورة النساء: وَخَلَقَ.[2] فعبر بالأعم لئلا يتكرر، لأنه ذكر الخلق أولا فأتبعه بالجعل. ولأن المراد ههنا إنما هو التعليل إعلاما أنه تعالى إنما خلق الكل، **من نفس وٰحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها**، كما يسكن إلى نفسه. وذلك أن الإنسان إنما يميل أولا إلى نفسه. فإذا كان قد أراد الله أن يجعل له مَن يَسكن إليه فالأَولى أن يخلق له ذلك من نفسه، إذ لا أقرب إليه من ذلك ولا أحبَّ. فقوله ههنا: **وجعل منها زوجها**، إلى ههنا أراد به آدم، وغيّر العبارة من ههنا بقوله: **وجعل**، ولم يقل: وخلق. ثم أخذ يذكر ما يعود على الكلام الأول كما قلناه، وهو قوله: **هو الذى خلقكم**، أي خلقكم كذلك ليسكن كلُّ واحد منكم إلى زوجته، إذ هما من نفس واحدة. **فلما تَغَشّٰها**، دل على غَشَيان مضاعَفٍ، والكلام عمن له زوجةٌ. والمعنى أن الله سبحانه عبر عن الجمع الكثير بلفظ الفراد[3] ليدل على كل واحد منهم بمفرده. وقال: **تغشّٰها**، لئلا يلزم أنه في غَشَيان واحد حَمَلت بل لما تغشاها ما شاء الله، **حملت**، في واحد من ذلك الغَشَيان، **حملا خفيفا**، لأنه في أول الأمر يكون خفيفا، **فمرت به**، غيرَ عالمة بذلك الحمل. **فلما أثقلت دعوا ٱللَّهَ ربهما**، يعني الرجل والمرأة. ويريد بقوله: **دَعَوا**، كقوله: وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ،[4] وهو من النداء. وهؤلاء لمّا وقع عليهما أمرٌ لا يفيد فيه إلا الله تعالى دعوا الله وحده دون الشركاء. وكان دعاؤهما ما معناه يدل[5] على الاعتراف بأن الله سبحانه هو الذي يأتي بما يشاء من صالح وطالح. **فقالا: لئن ءاتيتنا**، ولدا، **صٰلحا لنكونَنّ من الشّٰكرين**، إذ ليس لهما إلا الشكر. وهذه الآية والتي تليها هما منسوقتان في المعنى ومبيِّنتان للآية التي تقدم فيها الكلام. وهي قوله تعالى: وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ.[6] فتأنَّ وكَرِّرۡهُنَّ جيدا الآن، في هاتين الآيتين شرحُ ما غَمَض من تلك.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾

ولهذا قال: **فلما ءاتٰهما صٰلحا**، والإشارة إلى الذين أشركوا فقط، فكأنه[7] قال:

---

[1] ك ن: وبث منها.

[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ (سورة النساء، ٤/١).

[3] ن: الفرد.

[4] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٦٧).

[5] ش: ليدل.

[6] الآية ١٧٢ من هذه السورة.

[7] ش: كأنه.

والمشركون منكم، لما ءاتٰهما صٰلحا جعلا له شركاء فيما ءاتٰهما. وهذا جميعه شرحٌ ومَثَلٌ لصورةِ ما تقدم بقوله: وَإِذْ أَخَذَ، كما قلنا. ولهذا قال: فتعٰلى الله عما يشركون، ولم يقل: عما أشركا، لأن قوله: يشركون، وما بعده يدل على مقدَّر محذوف ليس إلا المشركون كما قلنا في موضعه.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾

أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم، أي الآلهة، يخلقون. ولا تستطيعون، الآلهة، لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

اعلم أن الله تعالى إذا خاطب الحاضرين ضرب لهم الأمثالَ بالغائبين. فذكر الله تعالى في هذه القصة ما ذكره عن الغائبين، وهو آدم وحواء، والمراد نسلهم، والمراد أيضا من نسلهم خطاب الحاضرين، والمراد من الحاضرين مَن أشرك من المشركين وأنه يعترف بالله عند الشدة وعند تصوير ولده في بطن زوجته. فإذا زال ذلك الأمر الذي لا يغني فيه ولا يَتصرف إلا الله تعالى عادوا إلى شركائهم الذين لا يَخلقون شيئا. وجميع هذا الكلام عائد على قوله: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ، وهو كالمثل المبيَّن له كما تقدم. وقد جاء في القرآن في عدة مواضع كلامٌ عن آدم وحواء ويريد به نسلهما، كقوله[1]
[١٨٠ظ] تعالى عن قول إبليس: لَأُغْوِيَنَّهُمْ / أَجْمَعِينَ.[2] وإنما كانت العداوة مع الأب فاستمرت مع الأولاد. ولكنّ فائدة ذكر آدم ليتنبّه على أنه من لدن آدم لم يزل الشركُ في الدنيا، وخصَّصه بالآباء[3] على هذا التفصيل من ذكر الحمل والتدرج في الخلقة للمولود ليعود قوله: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ[4] أمرًا مُحقَّقا. ورابطة الكلام هو ما قاله في أول الآية مخاطِبا للكل بقوله: هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم [مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ]،[5] أي والشركاءَ. ولهذا قال: أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ.[6]

١ ك ن: لقوله.
٢ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة ص، ٨٢/٣٨). وانظر أيضا: سورة الحجر، ٣٩/١٥.
٣ ك: وخصصه في الآباء.
٤ الآية ١٧٢ من هذه السورة.
٥ الآية ١٨٩ من هذه السورة.
٦ الآية ١٩١ من هذه السورة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾

وأتبعه بقوله: **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم**، أي مخلوقون. ويتضمن هذا الكلام الإشارة إلى القوم الذين من أجلهم عُبِدَتِ الأصنام، فإن الصنم لا بد من إنسان أقامه وحثّ الناس عليه. ففي باطن الأمر أن العابد إنما عبد وأطاع لواضع الصنم، وقد علمت قوله تعالى: ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ.[١] **فادعوهم**، أي في كشف الشدائد والانتصار على المؤمنين وردِّ ما يحل بكم من جهتهم وبأيديهم، بدليل قوله بعده: لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ.[٢] **فليستجيبوا لكم إن كنتم صٰدقين.**

﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾

ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم ءاذان يسمعون بها. قيل: الإشارة بهؤلاء إلى الأصنام لأن الناس لهم أرجل يمشون بها، ولهذا لم يذكر القلوب ههنا. وأقول: إنه لم يَذكر القلوب ههنا لأن المراد ما يتعلق بنصر الأولياء لا بهدى الشركاء. وأما في الآية المتقدمة فالمراد ما يتعلق[٣] بِهُدى الشركاء. فذكر أن لهم قلوبا، ولكن لا يفهمون بها.[٤] واستغنى ههنا عن ذكر القلوب بما ذكره عنهم أخيرا بقوله: وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ،[٥] ولا يكون ذلك إلا بالقلوب. وتلك الآية المتقدمة هي محكَمةُ هذه، ومثلها: فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ،[٦] الآية، وهذه الآية ههنا هي المتشابهة. وسباق الكلام وسياقه يعطي أن المراد ههنا بهؤلاء البشرُ، ولكنه لمّا قال: مِن دُونِ ٱللَّهِ،[٧] تضمن الأنام والأصنام، فجاز أن يحمل على كل منهما. لكنّ حمْله على البشر أولى، لأنه إذا انتفى انتصار المشركين بشركائهم من البشر فقد لزم انتفاءُ انتصارهم بشركائهم من الحجر. ويكون قوله ههنا: **ألهم أرجل يمشون بها،**

---

١ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ (سورة التوبة، ٣١/٩).

٢ الآية ١٩٧ من هذه السورة.

٣ ن - ما يتعلق.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ الآية ١٧٩ من هذه السورة.

٥ الآية ١٩٨ من هذه السورة.

٦ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، ٤٦/٢٢).

٧ من الآية السابقة.

أي[1] فينصرونكم بسعيهم بالأرجل وبطشهم بالأيدي وغير ذلك، لأن هذه الحواس إذا كانت للشركاء ولم ينتفع بها الأولياءُ في دفع الشر وجلب النصر فهي كالمعدومة من الشركاء فيما يتعلق بالأولياء وإن كانتْ موجودة للشركاء. ولولا أن المراد البشرُ للزم أن الأصنام لو كان لهم أرجل يمشون بها لكانوا آلهة، وليس كذلك. وإنما المراد ما قلناه. ولهذا قال فيما سيأتي: وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟؛ ومعلوم[2] عند المشركين أن الأصنام لا تدعو إلى هدى ولا تَسمع. ولهذا بعده أيضا: وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ.[3] والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقابل الأصنام بوجهه، ولا ينظر إليهم حتى يقال: إن النظر من الأصنام إليه صلى الله عليه وسلم بطريق التمثيل بمن ينظر من الناس. وإنما المراد أن هذه الحواس في الشركاء موجودة، ولكنها لا تنفع الأولياء في الانتصار ولا تنفع أصحابها في الهدى والاستبصار. فكرِّرْ الآيات كثيرا متأنيا تَفهمْ. ودليل ما قلناه ما تقدم محكَما في هذه السورة، وهو قوله: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ،[4] وتمامُه. فذكر أُو۟لَـٰٓئِكَ ههنا وأضاف إليهم الأرجل والأيديَ، لأن النصر إنما يكون بهما. ولهذا قدمهما في الذكر ههنا، فذكر الشركاء هناك من أجل أنفسهم، وذكرهم ههنا من أجل أوليائهم، ولهذا قال: قل ادعوا شركاءكم ثم كيدونِ فلا تُنظرونِ.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ١٩٦﴾

إن وَلِـِّۧىَ الله الذى نزل الكتٰب، اسم الجنس. وهو يتولى الصٰلحين.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾

والذين تدعون من دونه، كائنا مّا كان من جماد ومتحرِّك، والإشارة إلى الشركاء من البشر لقوله: لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ١٩٨ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ١٩٩﴾

وإن تدعوهم إلى الهدىٰ لا يسمعوا، من السمع بدليل قوله بعده: وترىٰهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، أي لا يُبصرون معتبرين متأمِّلين، أي لا تنفعهم أبصارُهم

---

١ ن - أي.

٢ شك: أو معلوم.

٣ الآية ١٩٨ من هذه السورة.

٤ الآية ١٧٩ من هذه السورة.

في سلوك سبيل الهدى وإن كانوا ينظرون / إلى سوى ذلك كما ينظرون إليك. ولهذا [١٨١و]
بعده عنهم: **خذ العفو**، أي سَجيّةً، **وأمر بالعرف**، وهو من المعروف، كما تقول: هذا عرف وعادة، لأن كل قلبٍ يطمئن إليه وكل نفس تعرفه. **وأعرض عن الجٰهلين**، يريد الصبر على سوء أخلاقهم. وهذا لا ينافي الأمرَ بالقتال.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾

وإما ينزغنك من الشيطٰن نزغ، سيأتي[١] شرحه،[٢] **فاستعذ بالله. إنه سميع عليم.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾

إن الذين اتقوا إذا مسهم طٰئف. اعلم أن الطيف ههنا هو أول النزغة[٣] كالنغزة[٤] اليسيرة،[٥] فمثل ما يَعرض من ذلك بالطيف الذي هو خيال يُرى في النوم لا حقيقةَ له، تُنسب إلى المحبوب بلا[٦] صورة مّا. فافهم هذا جيدا. فطيف الخيال هو الذي يطرق في النوم[٧]. فأشار أيضا من طريق التضمن أنهم لا يعصون حتى ولا في نوم. والمقصود هو ما قدمناه أولا يقظةً بطريق التمثيل بما يعرض نوما. وأما قولنا في النوم فهو من طريق المبالغة احتمالا كما قيل:

يَقَظاته ومنامه شِرَعٌ ... كلٌّ بكل منه مشتبه،
إن هَمّ في حُلْمٍ بفاحشة ... زَجَرَتْه عِفَّتُه فينتبه.[٨]

فهؤلاء، **إذا مسهم طٰئف من الشيطٰن تذكروا**، أي اقتدوا بالذكر. ولهذا لم يقل: ذكروا و[٩]لم يقل بعده: فإذا هم آمِنون أو معصومون، لأنه يريد أنهم رجعوا إلى القرآن وأحكامه فاستنارت بصائرُهم، لهذا قال: **فإذا هم مبصرون**. فأَبصِرْ جيدا. أي يُبصرون ما يجب تركه فيتركونه ولم يُعْمِهم هواهم. فإذا تركوه أمدّهم الله، بخلاف أولياء الشيطان فإنهم يصرّون على معاصيهم.

---

١ ن: تقدم.
٢ ش – سيأتي شرحه. | انظر لشرح "نزغ": تفسير سورة الإسراء، ٥٣/١٧؛ وسورة فصلت، ٣٦/٤١.
٣ ش ن + والنزغة. | النَّزْغَةُ: النخْسَة والطَّعْنَة (تاج العروس للزبيدي، «نزغ»).
٤ ك: كالنزة؛ ن: النزغة. | نَغَزَ بينهم: أَغْرَى وحَمَلَ بَعْضَهم على بعض، كَنَزَغَ (تاج العرس للزبيدي، «نغز»).
٥ ش ن: النزغة والنقرة اليسيرة.
٦ جميع النسخ: إلا.
٧ ش ك ر + لا حقيقة.
٨ البيت لأبي الحسن بن طباطبا. انظر: يتيمة الدهر للثعالبي، ٤٢٩/٢؛ وذم الهوى لابن الجوزي، ص ١٩١.
٩ ن – لم يقل ذكروا و.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

المعنى وإخوان الشياطين من الكفار والفجار يمدونهم -الشياطينُ- في الغي والجهل، ثم لا يُقصرون، -الإخوانُ- بل يُسرفون في الغي.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

ثم عطف على هؤلاء فقال: **وإذا لم تأتهم بئاية**، تقديره: قد، **قالوا**، لك عنها، **لولا**، هلا، **اجتبيتها**، أي طلبتها من ربك مقترِحا. وأصله من جَبَى يَجبِي وهي مثل افتعل. ويقال للذي يجمع الدراهم من الخراج الجابي، لأنه يقترح ويختار أن يأخذ مما على كل إنسان ما شاء. وأرادوا بالآية مِثلَ ما أُرسل الأولون[1] كآيات موسى[2] وناقة صالح.[3] فقال له الله تعالى: **قل إنما أتبع ما يوحىٰ إلىّ من ربى**، لا أقترح عليه آيةً من أجلكم ولا من أجل غيركم. والذي قد أوحاه. **هٰذا**، القرآن فيه، **بصٰئر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**، أي ففيه آية يتحقق برهانها عقلا.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

وقوله: **وإذا قرئ القرءان**، أمرٌ من الله تعالى للمؤمنين، وفيه معنى الإخبار التابع لقوله: قُلِ... هٰذَا بَصَائِرُ؛[4] وقل لهم: **إذا قرئ القرءان فاستمعوا له**، تجدوه بصائر. ولفظ[5] الاستماع يأتي في القرآن بمعنى استعمال السمع، ولفظ "اسْمَعُوا" بمعنى القبول، وهذه نسميها تاء الاختيار.[6] **وأنصتوا لعلكم ترحمون**، به وبما تضمن من الهدى.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

وقوله:[7] **واذكر ربك**، معطوف على قوله: قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ،[8] أي قل واذكر، فهو يخاطب

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٥/٢١).

٢ انظر مثلا: سورة البقرة، ٦٠/٢؛ وسورة الأعراف، ١٠٧/٧-١٠٨، ١١٧.

٣ انظر على سبيل المثال: الآية ٧٣ من هذه السورة؛ وسورة هود، ٦٤/١١.

٤ من الآية السابقة.

٥ ش: لفظ.

٦ ن: تاء الاختبار.

٧ ن - وقوله.

٨ الآية ٢٠٣ من هذه السورة.

النبي صلى الله عليه وسلم وهو أمرٌ لائق بالأمة. وإنما خصصه بالرسول لئلا يَشُقّ على الأمة وليكون الكلام مشعِرا لغيره منهم بما معناه. وتقديره: واذكر ربك يا أيها الذاكر. وقوله: فى نفسك، أي خلاصها ونجاتِها، ولهذا بعده: **تضرعا**، ولم يقل: وتضرعا. والمعنى تضرعا[1] في خلاصها. فأخّره للاهتمام بذكر النفس أولا وليعطف على قوله: **تضرعا**[2] قوله: **وخفيةً**.[3] والتضرع هو الطلب والابتهال مع التذلل. يقال: ضَرَع الرجل إذا ذلّ، وقرئ وَخِيفَةً،[4] **ودون الجهر من القول**. وقوله: **بالغدو والآصال**، تخصيص لهذه الأوقات بالذكر، ولِما خصصها. **ولا تكن من الغٰفلين**، أي في بقية الأوقات ولا حين الذكر، فافهم. والآصال واحدها أصيل[5] بتحريك الصاد والجمع أصائل وجمع الجمع آصال.[6] فالمعنى -الله أعلم- في قوله: **تضرعا**، يريد به الجهر، وسماه تضرعا لأن المتضرع من بلية لشدة ما به يُضْطَرّ إلى رفع الصوت بغير اختياره. وقوله: **وخفيةً**، ضده، **ودون الجهر**، توسّط. فلم تَبْقَ صورةٌ إلا أمر بالذكر فيها. وقال: **بالغدو والآصال ولا تكن من الغٰفلين**، / في غير هذه الأوقات، فعمّ كلَّ صورة من الذكر في كل آن من [١٨١ظ]
الزمن لتفهم[7] أن المراد تارة هذا وتارة هذا. ويعود معنى قوله: **فى نفسك**، كما قدمنا، أي في هدايتها ونجاتها. وقوله: **وخفيةً**، هو بخلاف ما إذا كان الدعاء في جماعة. ولا تعتقد أن قوله: **واذكر**، إشارة إلى الصلاة، فالصلاة لها مواضع تُذكَر فيها. وإنما أراد الذكر فقط دون الصلاة. والدليل على ذلك أنه عيَّن أوقاتا غير أوقات الصلاة بل هي أوقات ذكرٍ وتسبيح. والقول قاله الله تعالى مطلقا فلمْ تخصِّصه أنت وتُقيّده ليقع الإشكال. ولو كان لفظ الذكر يدل على الصلاة خاصة لَمَا قال تعالى: وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ثم قال وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ،[8] فافهم خصوصا. وقد علمت أن الأمر بما ذكره[9] في الصلاة ينافي الأمر الذي ذكره ههنا، لأنه قال: وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا،[10] وهنا عيّن صورا تعمّ.

---

[1] ن - أي خلاصها ونجاتها ولهذا بعده تضرعا ولم يقل وتضرعا والمعنى تضرعا.

[2] ك ن + على.

[3] "الخفية" قراءة بعضهم -بدون تعيين- وهي من الإخفاء كما قال الماتريدي في التأويلات، ٦/١٦٠.

[4] وهي قراءة عاصم. الخيفة: الحالة التي عليها الإنسان من الخوف (المفردات للراغب الإصفهاني، «خوف»).

[5] جميع النسخ: أصل.

[6] الأصيل: العشي، والجمع أُصُل وأُصْلان وآصال. وقال الزجاج: آصال: جمع أُصُل. ويجوز أن يكون أُصُل واحدا (لسان العرب، «أصل»).

[7] ك: لنفهم.

[8] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (سورة المائدة، ٥/٩١).

[9] ن: بما ذكر.

[10] ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١١٠).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

ثم لم يَكتفِ بهذا البيان حتى قال بعده: **إن الذين عند ربك**، أي من الملائكة، **لا يستكبرون عن عبادته**، أبدا في وقت مّا،[1] **ويسبحونه**، دائما في كل وقت، **وله يسجدون**، عند أوقات السجود له. والمعنى، له خاصةً لا لغيره. ولو قال: ويسجدون له، دل على كل وقت من كل ملك، لأنه كان يكون معطوفا على التسبيح. وإنما جاء كذلك لأجل الوِزان. وتقدير القول: فكن أنت كذلك تَذكره دائما وتَسجد له في الأوقات تَشَبُّهًا بالملائكة. فتأملْ هذا الكلام الصحيح وَافقَهِ المليح. والحمد لله وحده، وصلى الله على محمد وسلم.

[1] ن - في وقت ما.

سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾

يسئلونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول، هذا السؤال منهم سؤال معترض مُنْكِرٍ. ولهذا أتبعه بقوله: **فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**. ولا يقال: جمعُ نَفْل، ولم[1] يُستعمَل واحده ولا الفعل الخفيف منه، أعني نَفَل يَنفُل نَفْلا لحكمة يعلمها العربي. وتأنيث نَفَل نَفَلَة، ويستعملها الناس بكسر النون. والله تعالى استعملها بزيادة ألف فقال تعالى: نَافِلَةٗ لَّكَ،[2] وجمعها نوافل. و"نافلة" على وزن جائزة في قولك: أجزت فلانا جائزةً سنيّةً، وفلان في ضائقة، وأمثالها. فإذا أريد المبالغة في جمع هذا الاسم وغيره زيد ألفا،[3] فقيل: أنفال، كقولك: أشهاد وأنصار، فزيدت في أفعال كما زيدت في أفعل كقولك: هذا أحسن. وكذلك عَدَل عن قوله: شُهُودٌ[4] إلى وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ،[5] وعن قوله:[6] وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ[7] إلى قوله: مِنۡ أَنصَارٍ.[8] ويقول في الفعل الثقيل اللازم: تنفّل يتنفّل تنفّلا وفي المتعدي: نفّل ينفّل تنفيلا. والنافلة هي الزيادة على ما يجب.

وقوله تعالى: **قل الأنفال لله والرسول**، يعني ليس لأحد أن يتنفّل إلا مَن نَفّله الرسول. وإنما قال: **لله**، ليِنبّهَنا أن أمْر الرسول من أمر الله لأنه لم يأمر إلا بما أمره الله. ولهذا قال: **وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين**، ولأن الله تعالى إذا تنفل شخصا دون غيره[9]

---

[1] ش: ولا.

[2] ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٧٩).

[3] ك ن: الفاء.

[4] ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ (سورة البروج، ٨٥/٧).

[5] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٥١).

[6] ك ن: عن قوله.

[7] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٩١).

[8] ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٩٢).

[9] ك – دون غيره، صح هـ.

في أمر من الأمور فله الأمر سبحانه وتعالى كما نفّل الذكر على الأنثى في الميراث. وقوله: **ذات بينكم**، أي حقيقةَ ما بينكم. وفي غير هذا الموضع تكون "ذات" بمعنًى آخرَ، كقوله: ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ[1] أي صاحبة ألواح.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

ثم عرّفَنا بعد ذلك صفات المؤمنين عند ذكر الله لديهم وعند تلاوة آياته عليهم كيلا يكونوا كمن أنكر على الرسول صلى الله عليه وسلم تنفيلَه لبعض الناس فقال: **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**، والوجل الخوف، تقول منه وَجِل وَجَلا ومَوْجَلا بالفتح، وهذا مَوْجِلة بالكسر للموضع كما قلنا في وعد.[2] وفي لفظ المستقبل منه أربع لغات: يَوْجَلُ ويأجَل ويَيجَل ويِيجَل بالكسر. وكذلك ما أشبهه من باب المثال. **وإذا تُليت عليهم ءايٰته زادتهم إيمٰنا وعلىٰ ربهم يتوكلون**، أي فلا يلتفتون إلى كثرة المال وقلته، فيتوكلون على كثيره و[لا] يحسدون من نَفَّله الرسول. ثم أتبعه بقوله: **الذين يقيمون الصلوٰة ومما رزقنٰهم ينفقون**.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

[١٨٢و] **أولٰئك هم / المؤمنون حقا**، منصوبة على المصدرية، أي حَقَّهم هذا الحكم حقا، أو لِحَقّ حقا. **لهم درجٰت عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾

وقوله تعالى: **كما أخرجك ربك من بيتك**، أراد أن يعرّفَنا شدة إيمان الرسول بربه وبآياته وطاعتَه له حين أخرجه من بيته مهاجرا فقال ما معناه: إنما ينبغي أن يكون المؤمن مثلك حين أخرجك ربك من بيتك، فأطعته وَازْدَدْتَ بآياته إيمانا وعليه توكّلا، فهذا معنى التشبيه في قوله: **كما**. وقوله: **بالحق**، يعرّفنا[3] أنه إنما أخرجه بحق

---

١ ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ (سورة القمر، ١٣/٥٤).

٢ انظر: تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة، وتفسير الآية ١٧ من سورة هود، وتفسير الآية ٥٢ من سورة الحجر.

٣ ك: تعرفنا.

يعود نفعُ ذلك الخروج عليه وعلى المؤمنين. والله أعلم بسرّ ذلك. ومن سر كونه دُفن بالمدينة أن يكون القاصد بحج البيت قَصَدَه مخلصا لله تعالى. فلو كان الرسول عليه السلام في مكة لاشترك القصد للبيت وللرسول بجلالة قدره وعظمِ شأنه في النفوس. وأراد الله تعالى أن يكون قصدُهم مخلصا لله تعالى[١] لحج البيت. فمن أراد زيارة الرسول عليه السلام قَصَده فيضاعَف الأجر له بذلك، وتضاعفت حرمة الرسول إذا صار القصد له أيضا خالصا مخلصا. فافهم ذلك. وقوله تعالى: **وإن فريقا من المؤمنين لكٰرهون**، تنبيهٌ على أن ذلك الفريق من المؤمنين هم الذين كانوا يجادلونه دون بقية المؤمنين.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

فقال عنهم: **يجٰدلونك فى الحق بعدما تبين**، لهم أنه الحق وأن خروجَهم حق فكانوا مع ذلك كارهين، **كأنما يساقون إلى الموت**. وقوله: **وهم ينظرون**، تقديره: نَظَرَ المغشيّ عليه من الموت.[٢] ويحتمل -وهو الأولى- أنها من انتظار ما وعدتَهم به من النصر عن الله تعالى، لقوله بعده: **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**. العرب تقول: فلان ذو شوكة إذا كان له أصحاب وأشياع فيهم قوة وشِرَّةٌ يخشى منهم الناسُ. فعرَّفَنا الله تعالى أنه حرّك ذوي الشوكة ليُكْسِرهم المؤمنون. **ويريد الله أن يُحقّ الحق بكلمٰته**، وأوامره، **ويَقطع دابر الكٰفرين**، لقوله: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ.[٣] وإذا بان صدقه في سَتُغۡلَبُونَ لزم صدقُه في بقية الآية. **ودابرَ الكٰفرين**، آخرهم، مأخوذ من دُبُر الشيء وهو آخِرُه. ويعبّر به على الوارء لأن الوراء هو الآخر وهو الدُّبُر، كقوله تعالى: وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ،[٤] أي من وراء.

---

[١] ش + فلو كان الرسول؛ ك ن - لله تعالى.

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ (سورة محمد، ٢٠/٤٧).

[٣] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ﴾ (سورة آل عمران، ١٢/٣).

[٤] سورة يوسف، ٢٥/١٢.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

وتكرار قوله: **ليحق الحق**، فالأولى بكلماته، والثانية بقطع دابر الكافرين. وتقديره ويريد الله أن يحق الحق ويريد أن[1] يقطع دابر الكافرين بالمؤمنين. **ليحق الحق ويبطل البٰطل**، أي دائما بما يظهر من النصر وإقامة الدين إلى يوم القيامة، **ولو كره المجرمون**.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملٰئكة مردفين، هو لفظٌ متعدٍّ، واللازم منه رَدِفَ لَكُم.[2] فقوله: **مردفين**، لينبِّهَنا على أن الملائكة لم يَرْدَفوا للمؤمنين ولم يقاتلوا معهم. وإنما أوجبوا للمؤمنين المتأخرين أن يُردفوا مَن تقدمهم. وإذا عَلِمْنا أن الملائكة لم يقاتلوا تحققنا قدرةَ الله تعالى على أنه يكسر الجيش الكثير بالقليل. وإنما جعل ذلك كذلك بُشْرَى، كما قال: **وما جعله الله إلا بشرىٰ**، أي جعل الإمداد بالملائكة بشرى بالنصر. والجعل يأتي في لغة العرب مع القول وبالفعل، تقول:[3] جعل يقول كيت وكيت، وجعل يفعل. وههنا هو بشرى بالقول والفعل. **ولتطمئنَّ به قلوبُكم، وما النصر إلا من عند الله**، أي لا أنه موقوف على الملائكة. **إن الله عزيز حكيم**. فالملائكة أردفوا للمتأخرين من المؤمنين الضعيفي القلوبِ وراءَ المؤمنين المتقدمين. ولهذا غيّر قوله:[4] **مردفين**، ولم يقل: رادفين. وأما كون النصر ليس من عند الملائكة بل من عند الله فإن الله تعالى نفى عنهم ذلك لئلا تَضْعُف[5] قلوبُ المؤمنين في مَصَافِّ بُعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تحصر به الملائكة. ولهذا أتى بهذه الآيات المتأخِرة التي يَظن بها الغَفَلَة أن لا حكمة فيها، فهذه من جملة حكمتها.[6] وأما الاستغاثة فإنها كانت منهم لمَا رأوا من قلتهم وكثرة الكفار، فطلبوا النصر من الله إيمانا بقدرته وصدقِ وعده، وصبرا على ما ابتلاهم وامتثالا للأمر[7] منه لهم،

---

١ ش – بقطع دابر الكافرين وتقديره ويريد الله أن يحق الحق ويريد أن.

٢ يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (سورة النمل، ٢٧/ ٧٢).

٣ ش: يقول.

٤ ش: غير لقوله.

٥ ك ن: لئلا يضعف.

٦ ك – حكمتها، صح هـ.

٧ جميع النسخ: وامتثال الأمر.

بقوله: ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ / لَكُمۡ.[١] فاستجاب وأمدّهم وأوحى إلى رسوله ما أوحى مقوّيا [١٨٢ظ] لقلوبهم ومبشرا.

﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١﴾

وقوله:[٢] إذ يغشيكم النعاس أمنة منه، أي من الله.[٣] و أمنة، منصوب على الحال. وهذه الصيغة من التصريف يُؤتَى بها للمبالغة كقولك: خَوَنَة، فَعَلَة، صَنَعَة.[٤] وكذلك فعل مثل قولك: حكم. والإمداد بالملائكة إنما عُلم من الرسول عليه السلام بما أوحى الله إليه، وذكر علامة تدلهم على صدق الرسول فيما أخبرهم به وهي غَشَيان النعاس. وليس في النص ما يدل على أن المؤمنين رأوا الملائكة بل على ضد ذلك، وهو قوله: وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا،[٥] وهذا تصريح فيه كفايةٌ. فالملائكة يُنزلهم الله تعالى يحرِّكون قلوب المؤمنين من حيث لا يعلم المؤمنون. وإذا فهمت علمت أن أفعال البشر هي[٦] أفعال الملائكة أو شياطينَ من حيث لا يَعلم الفاعل وإن كان يَعلم أنه عاملٌ ما[٧] يعمله لكن لأمرٍ آخر هو في نفسه مقصود[٨] له بذلك الفعل. وبمثل ما قلناه يجوز أن يقال: إن أفعال الكل من الملائكة، ومَن دونَهم أفعال الله، وهذا يَعرفه أصحابُه. وقد أوضحناه في موضعه. وقوله: ويُنزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به، تنبيه لنا على احتياجهم إلى ماء ليطهِّرهم لا من نَجَس بل من حَدَثٍ ليزدادوا بالتطهر قوةً وليقوى سر النصر فيهم. ويُذْهِب عنكم رجز الشيطن. الرجز ههنا هو الأذى يقع على باطن الإنسان إذا لحقته الجنابةُ. فذلك ومثله يضيّق صدر مَن اعتاد الطهارة، فذلك ومثله من الرجز. وقد بيّناه لغةً وكفى به أنه يمنع عن الصلاة. وقوله: ماءً، ولم يقل: مطرا لجواز أن يكون المطر قليلا، فلا يحصل منه ما يُتَطَهَّر به. وليس المؤمن نجسا، إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ[٩]

---

[١] سورة المؤمن، ٦٠/٤٠.

[٢] ش – وقوله، صح هـ.

[٣] ش + وقوله.

[٤] ش ن: خونه فعله صنعه.

[٥] ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (سورة التوبة، ٢٥/٩-٢٦).

[٦] ش – هي، صح هـ.

[٧] ن: عامل بل.

[٨] ن: ومقصود.

[٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ (سورة التوبة، ٢٨/٩).

بفتح الجيم، وذلك غير ما بالكسر.[1] وقوله: **وليربط علىٰ قلوبكم**، أي بالصبر، كقوله: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾،[2] ولم يقل: "وَيَرْبِطَ" بغير لام كما قال قبلها: **ويذهب عنكم**، لينبّه على أن هذا الحكم غير منسوب إلى الماء كما نسب الذي قبله، بل هو مبتدأٌ آخرُ منسوبٌ إلى النعاس، فإنه يُنسي الإنسانَ الخوفَ والوسواس والفكر فيما يَشغل قلبه ولذلك كان أَمَنَةً منه تعالى. ولهذا أتبعه بقوله: **ويثبّت به الأقدام**. وأيضا لما قال: ليطهركم به، ولم يقل بعدها: وليُذْهب، علِمْنا أنه معطوفة عليها في الحكم. فلما قال: وليربط، باللام علِمْنا أنها ليست معطوفة على "ويذهب"، بل هي مبتدأ حكمٍ آخرَ قد عَطف عليه بقوله: **ويثبت به الأقدام**، بغير لام أيضا. وكذلك يقضي العقل بأن التطهر وذهابَ الرجز يتعلقان بالماء، وأن رباط القلوب وتثبيتَ الأقدام[3] يتعلقان بالنعاس خصوصا. والحروف الزائدة والناقصة على حكم ما ذكرنا.

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ۝١٢﴾

ثم ذكر بعد ذلك فضيلة في الملائكة أيضا وأنهم يُثبّتون القلوبَ بعد الأقدام، فقال:[4] **إذ يوحى ربك إلى الملٰئكة أنى معكم فثبتوا الذين ءامنوا**. ولهذا كرر[5] لفظ التثبيت، وهذا إعلام من الله ورسوله بما إذا سمعه المؤمنون آمنوا به وهو البشرى. وقوله: **إذ**، لينبّه أن الماء والنعاس كانا إذ أوحى الله إلى الملائكة. وقوله: **سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب**، الذي يوجب ضد التثبيت ليعرّفنا أن التثبيت كان كذلك أيضا ألقاه في قلوب المؤمنين، لكن بواسطة الملائكة رأفةً بهم؛ والرعب لم يُجعل بواسطة تعظيما له، لأن الملك إذا تولى عذابَ المذنب بنفسه كان ذلك أبلغ بأن يصل إليه بيد غيره، مع أن المفهوم أن الأمر كلّه لله لا للملائكة. فألقى في قلوب الذين كفروا الرعبَ بما لو أوقع فيه من وسواس الشياطين، وثبّت قلوب المؤمنين وأقدامهم بما طهّرهم وأذهب عنهم رجزَ الشيطان إلى أعدائهم؛ وإنما ثبتهم بملائكته في بواطنهم،

---

1 أي الثوب النجس مثلا.

2 ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (سورة القصص، ١٠/٢٨).

3 ش – بغير لام أيضا وكذلك يقضي العقل بأن التطهر وذهاب الرجز يتعلقان بالماء وأن رباط القلوب وتثبيت الأقدام، صح هـ.

4 ن – فقال.

5 جميع النسخ – كرر، والمثبت من م.

كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.[١] والذي أوحى الله بقوله للملائكة: أني معكم، الكلام فيه عن المؤمنين والملائكة، لأن الملائكة مع المؤمنين والله تعالى مع الجميع. وقوله: فثبتوا، فهو / وإن كان واجبا إلى الملائكة، فهو أمرٌ للمؤمنين أيضا، [١٨٣و] كقوله بعده: فاضربوا فوق الأعناق، وهذا الضرب هو بأيدي المؤمنين، والأمر من الله للملائكة بالتثبيت وللمؤمنين بالضرب لقوله أولا عن الجميع: أني معكم. وقوله: فوق الأعنٰق، أعم من قوله: على أعناق،[٢] أو الأعناق، لأن "فوق" يدل على العنق وعلى ما فوق العنق، وهو جملة الرأس، وذلك هو المقصود من هذه العبارة. وقوله: واضربوا منهم كل بنان، تعليم من الله لنا بأفضل القتال. وإن أفضل المضارب وأسهلها ما ذُكر، فإن "فوق الأعناق" يَقتل أو يَصرع،[٣] وضرب البنان يعطّل عن القتال في أكثر الأمر. وأيضا إنه قلّ ما يكون العنق والبنان مستورَين بعُدّة الحرب ولباسه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾

وقوله:[٤] ذٰلك، أي ذلك الجزاء لهم، بأنهم شاقّوا الله، أي شاققوا[٥] الله،[٦] ورسولَه، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب، لثبوته.[٧]

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

وقوله للكفار: ذٰلكم فذوقوه، أي في الدنيا. وأن للكٰفرين عذابَ النار، والإشارة إلى أنواع الكافرين، أي ذوقوا الرعبَ والضرب والقتل في الدنيا، وفي الآخرة النارَ. والميم في، ذٰلكم،[٨] تفخيم ذلك ويزاد في خطاب الجمع، وفي "تلكم" تفخيم "تلك"، كما سنبين في "أما" و"إنما".

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا، شرطٌ جوابه: فلا تولوهم الأدبار،

---

١ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ (سورة الفتح، ٤٨/٤).

٢ ش – أعم من قوله على أعناق.

٣ ن: بقتل أو بصرع.

٤ ن – وقوله.

٥ ش: أي شاقوا.

٦ ك – أي شاققوا الله، صح هـ.

٧ ك ن: لقوله.

٨ جميع النسخ: في ذلك، والمثبت من م.

وهي جمع دُبُر. وقيل: زحفا، منصوبة على الحال. وإنما جيء بها كذلك ليعلِّمَنا نكتةً في اللقاء، وذلك أنه لا ينفي لنا أن نلتقي[1] الأعداء إلا زحفا. والزحف هو عبارة عن مشي القليل الذي يُشبه مَن زَحَف على بطنه أو على رُكَبه، لأن حقيقة الزحف المشي بغير رجلين. والسر في ذلك هو أن الإنسان إذا لقي خصمه بعد العَدْوِ أو المشي[2] القوي فإنه يلقاه وهو متعوب، فربما غُلب لِتَعَبه. وإذا مشى متأنيا كما يمشي من يزحف فإنه يلقى خصمَه وهو مستريح فيوشك أن يَظفر بخصمه ويَغلبه.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦﴾

وقوله تعالى: **ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا**، والانحراف الميل. فقوله بتاء الاختيار[3] يدل على يسيرِ ميلٍ مقصودٍ، لقتال، وهو كما بعده، **أو متحيزا إلى فئة**، أي[4] مضافا إليها. **فقد باء**، عاد، **بغضب من الله**، باء يَبُوء بَوْءًا،[5] في جمع الماضي باءوا. **ومأوٰه جهنم وبئس المصير**.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧﴾

ثم أوضح وبيَّن ما قلنا من أن الملائكة إنما قاتلوا بأيدي المؤمنين: **فلم تقتلوهم**، عبر بلفظ المستقبل إشارة إلى أنكم متى قمتم بالشرط لم تقتلوا أنتم، **ولٰكن الله قتلهم**، بأيديكم. ثم قال بلفظ الماضي فجعله كالدليل المصحِّح للدعوى التي تقدمت مؤكِّدا لصحتها فقال: **وما رميت إذ رميت ولٰكن**. اعلم أن "لكن" كلمة واحدة تتضمن ثلاثةَ معانٍ. منها "لا" نفيٍ، والكاف مخاطبة، والنون بمنزلة إنّ الخفيفة والثقيلة، فلا تنفي[6] خبرا متقدما وإن تُثبت خبرا متأخرا. ولذلك لا يجيء إلا بعد نفي وجحدٍ كما ههنا. وحُذفت الهمزة من "لكن" استثقالا. ومما يدل على أن النون في "لكن" بمنزلة نُونَيِ الثقيلةِ

---

[1] ك: أن نتقي؛ ن: نبتغي.

[2] ن: والمشي.

[3] جميع النسخ: بناء الافتعال، والمثبت من م. | انحرف وتحرّف واحترف عن كذا: أي مال وعدل وانصرف عنه. انظر: المفردات للراغب الإصفهاني، «حرف»؛ والمعجم الوسيط، «حرف».

[4] ن: إلى.

[5] ن: بوء.

[6] ش: فلا ينفي.

أو إنْ الخفيفةِ أنك إذا ثقّلت النون نَصبتَ بها، فإذا خففتها رفعت بها. فلمّا تقدم في هذه الآية نفيٌ وجحدٌ جاءت، ولٰكنّ الله رمىٰ، بيدك. وهذا تصريح مؤكد لقوله تعالى باطنا: لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ.[١] وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا، لا شيءَ أحسنَ من بلوى مؤمن اشترى بها من الله الجنةَ. وقوله: بلاء، ليس المراد به المصدر، إذ لو أراد المصدر لقال: إبلاءً. وإنما أراد بها الاسم وهي منصوبة على فقدان الخافض. وتقدير القول: وليبلي المؤمنين منه ببلاء حسن. فليس ذلك من الاختبار، ولهذا لم يقل: وليَبْتلي بل، وليُبْلِي، من البلاء والبلية. وقوله: منه، إعلاما أن هذا لم يقع من جهة الجزاء على فعلٍ تَقدمَ منهم، بل هو من الله ليعوّضهم عنه كما ستفهم في الكلام على قوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[٢] إن الله سميع عليم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾

/ذٰلكم، أي ذلك لكم أيها المؤمنون، كما خاطب الكفارَ بقوله: ذٰلكم، أيضا، [١٨٣ظ]
وأن الله موهن كيد الكٰفرين. والوهن ضعف الشيء واختلاله.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾

ثم خاطب الكافرين المشارَ إليهم في هذه القضية فقال: إن تستفتحوا، قتالا، أي مرة أخرى، فقد جاءكم الفتح، أي الذي كنتم تستفتحونه. ودليل ما قلناه قوله: وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.[٣] فالكفار[٤] استفتحوا المؤمنين بالقتال. وقوله: وإن تنتهوا، أي عن القتال من الأمن، فهو خير لكم، لأن المخذول لا شك أنّ ترك القتال خير له وإنما خُيّر لخصمه القتال، لهذا قال: لكم، والدليل من ههنا على أن الكفار بدءوا واستفتحوا قتال المؤمنين قولُه:[٥] وإن تعودوا نَعُدْ، أي إن تعودوا إلى قتالنا نعدْ إلى كسرِكم. ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت، عن المرة الأولى. وهذا الكلام فيه رحمةٌ من الله تعالى للكفار، وإذا كانت هذه رحمته لهم فكيف للمؤمنين. وأن الله مع المؤمنين.

---

[١] الآية ٨ من هذه السورة.

[٢] سورة الذاريات، ٥٦/٥١.

[٣] ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة التوبة، ١٣/٩).

[٤] ك ن: فالكافر.

[٥] ك ن: وقوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾

يٰأيها الذين ءامنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون، كلام الله لكم بلسانه عليه السلام.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾

ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا، أي بالأذن، وهم لا يسمعون، بقلوبهم بمعنى لا يقبلون، وهذه صفة اليهود.

﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾

فقال عنهم وعن أمثالهم: إن شر الدواب عند الله، كما تقول: إن الجائز عند أبي حنيفة كيت وكيت. الصم البكم، ليس المراد بالصمم والبَكَم إلا القلبَ، لأنه كقوله: وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ.[1] ولهذا قال ههنا بيانا: الذين لا يعقلون.

لمّا[2] قدم[3] وصفَهم أنهم لا يسمعون عرّفَنا أنهم صمّ بكمٌ لا يعقلون، وأن مَن هذا وصفُه فإنه مِن شرّ الدواب، فسلخهم عن وصف الإنسانية وسَلَكَهم في مسلك الدواب. وبحق كان ذلك، إذ من لا يعقل فإنه في[4] عِداد الدواب بل في عداد شر الدواب؛ لأن الدواب تُطلق على الناطق وغير الناطق، وشرُّها الصُّم والبكم. لأن الدواب غير الناطقة تَعقل الإشاراتِ فيعلم ما يراد منها بخلاف الأبكم الذي لا يعقل الإشارة. وذلك أن الإنسان الذي لا يسمع ينقسم وصفه إلى أقسام: إما أن يكون أُطْروشا وهو الذي لا يسمع إلا بعد التصويت القوي، وإما أن يكون لا يفيد فيه التصويت فهو لا يرجى خطابه. وهو على قسمين: إما أن تفيد فيه الإشارة فيحدَّث بالإشارة ويسمى الأصم الذي لا ينفعل عن قرع القارع؛ وإما أن لا يفيد[5] الإشارة معه وهو الأبكم وهو الذي لا يسمع العبارة ولا يفقه[6] الإشارة. ولهذا عُدّ من شر الدواب، لأن الدواب تفقه الإشارة وتسمع[7] العبارة التي تليق بها وتستعمل معها.

---

[1] ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٤٦).

[2] ك ن: ولما.

[3] ن: تقدم.

[4] ك ن - في.

[5] ك ن: أن لا يفيد.

[6] ن: ولا يتفقه.

[7] ك ن: ويسمع.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾

وقوله: ولو علم الله فيهم خيرا، أي لأنفسهم، لأسمعهم، سمْعَ الفهْم. ولو أسمعهم، ثانيا لتولوا وهم معرضون، فهو إشارة إلى أنهم عوقبوا على حالهم بحالهم، كقوله: وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ.[١] فكان الطغيان أولا كسبا ثم صار بعينه عقابا. ومعنى قوله: ولو أسمعهم، لا جائز أن يكون سمْعَ الأذن بل سمْعَ الفهْم، لأن الأول سمْع الفهم. وإنما يعطف الكلام على مثله فيكون المعنى: لو جعلهم الله يفهمون بعد أن عاقبهم، فجعلهم بعقابه لهم لا يفهمون. [ولو أسمعهم] لَتولوا، ثانيا كما تولوا أولا، وهو كقوله: وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ،[٢] أي دائما هذه صفتهم. وإنما أَشكل هذا الكلام لكونهم فهموا من قوله تعالى: ولو أسمعهم، أي أجبرهم على الطاعة؛ وهذا غلط، لأنه يلزم عنه بطلان حكمة التكليف، فعاقبهم بسلب الأفهام التي لا تكون الطاعة إلا بها. فلو ردهم إلى الهدى ثانيا لعادوا إلى العمى كما عادوا أولا، لأنه تعالى يهدي أولا[٣] كلَّ أحد من سائر المكلفين من كافر ومؤمن، كقوله تعالى: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ،[٤] فافهم هذا.[٥] ولا يُفهَم أنه تعالى من قبلُ لمّا عَلم أن ليس فيهم خيرٌ خلقهم كذلك، بل معناه ولو علم الله فيهم خيرا بعد أن أسمعهم / وتولوا لأسمعهم [١٨٤و]
ثانيا، ولو أسمعهم ثانيا لتولوا[٦] ثانيا وهلم جرا إلا إن أجبرهم دائما، فيبطل التكليفُ وهو محال. وهذه الآية قد كرّرْنا القولَ فيها مختصرا ليُفهَم.[٧] وبيانه ما معناه بمقدره المحذوف: ولو عَلِم الله[٨] أنه يكون فيهم خير[٩] لأنفسهم في المستقبل، أي بعد أن أفهمَهم فضلوا وعاقبهم بأن جعلهم مِن شر الدواب، لو عَلم فيهم بعد ذلك خيرا لأفهمَهم، ولو جعلهم يَفهمون بعد أن عاقبهم بأن لا يمكنهم الفهمُ لتولوا ثانيا كما تولوا أولا. فلا تفهم ولو عَلِم فيهم[١٠] أولا في الأزل كما قدمناه، فافقهْ ههنا هذا جيدا.

---

[١] سورة الأنعام، ٦/١١٠.

[٢] ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٢٨).

[٣] ك – أولا، صح هـ.

[٤] ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/١٧).

[٥] ن – فافهم هذا، صح هـ.

[٦] جميع النسخ: لتولى، والمثبت من م.

[٧] ن – ليفهم، صح هـ.

[٨] ش: ولو أن الله علم.

[٩] ش: خيرا.

[١٠] ن: فيه.

[معنى الفَتْن والإضلال من الله تعالى]

واعلم أن الطمس والإضلال[1] وما يكون من ذلك على وجه العقاب قد يعبّر عنه بلفظ الفتنة كقوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾،[2] وكذلك الامتحان، كقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾. لكنه عرّفنا سبحانه أنه لا يَفتِن فيفتتن إلا الظالمون المكذبون والكاذبون. ولهذا بعده: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.[3] فنبّهنا بهذا القول أنه تعالى لا يَفتِن عقابا إلا الكاذبين وإن كان قد فتن الجميع أولا فتنة الاختبار والامتحان، أي عرض عليهم الفتنة فلم يفتتن بها الصادق. الفتنة في أول الأمر ليست من باب العقاب ولا الإجبار[4] من الله تعالى. فلهذا يمكن أن يتوب العبدُ منها[5] فيتوب[6] الله عليه. فإن لم يتب وأصرّ[7] عاقبه الله بأن يَفتِنه عقابا لا اختبارا.[8] فقد يعاقبه بأن يُبقيه على حاله ويَسدّ عليه بابَ الهدى وهو الطبع والختم. وقد يعاقبه بغير تلك الفتنة ليتوب ويرجع. فإن لم يرجع طبع[9] على قلبه بكسبه. وقد عرّفَنا مثل ذلك بقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾،[10] وبقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.[11] لهذا كان مَنع هؤلاء من الإسماع عقابا لهم على تكذيبهم فهو جزاء متأخرٌ عن فعلهم لا قضاءٌ من الله متقدمٌ على فعلهم ولم يتقدم منهم[12] سببٌ موجبٌ. تعالى الله عن ذلك. ولهذا أتبع هذه الآية مخوّفا لهم لئلا يُصرّوا[13] على التكذيب فيعاقَبوا بأن يحال بينهم وبين قلوبهم فلا تطيعهم القلوب على الإيمان بعد ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

فقال: يٰأيها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، يشير إلى الجهاد،

---

[1] جميع النسخ: وإضلال، والمثبت من م.

[2] سورة القلم، ٦٨/٥-٦.

[3] سورة العنكبوت، ٢٩/٢-٣. | ن + ولهذا.

[4] ن – ولا الإجبار. ش: ولا الأجياد.

[5] جميع النسخ – منها، والمثبت من م.

[6] جميع النسخ: تاب، والمثبت من م.

[7] ن: أو أصر.

[8] ن: لا اختبار.

[9] ن – طبع.

[10] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦).

[11] ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٢٧).

[12] ش + منهم.

[13] جميع النسخ: لئلا يصرون، والمثبت من م.

لقوله: بَلۡ أَحۡيَآءٞ.[١] وقوله: واعلموا أن الله يحول، افهم قوله: يحول، كيف قد حذّرهم من التكذيب الموجب للحيلولة، بين المرء وقلبه، بفتنة توجب الضلالةَ كما يَفتِنه بسوء العقيدة، كقوله:[٢] وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ،[٣] وكقوله: وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ،[٤] وكقوله: فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ.[٥] وهذا كلُّه من باب. وأشدُّ العقاب مصيبةً أن يريد العبد أن يجذب قلبَه فلا يقدر أن يميله عن الهوى،[٦] فكان حائلا بينه وبين قلبه فلا يَصل إليه لسوء العوائد. ولما استمرت صارت مَلَكاتٍ ثم صارت طبعا له، فسمِّي ذلك بلفظ الطبع المخلوق من الله للإنسان، وهو معنى [قوله:] فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ.[٧] نعوذ بالله تعالى. وأنت تعلم أنه ليس المراد لحمةَ القلب؛ فقد تبين مما ذكرناه أن الله تعالى لا يعاقِب عبدا من عبيده إلا بجناية جناها، وأعظمُها التكذيب لآيات الله ورسوله، فلذلك[٨] عاقبه بهذا العقاب العظيم المُعْقب عذابَ الدنيا والآخرة. ولا ينجو من ذلك إلا من استجاب لله وللرسول. ولا يصح ذلك إلا لمن خلع الهوى والعوائد، وعلم أن الله يسأله، وأنه إليه تحشرون، أي فينتقم منكم على تكذيبكم بكتبه ورسله.[٩]

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾

ولمّا ذَكَر العقاب الأكبر في الدنيا وهو ما يحول بين المرء وقلبه به بيَّنه فقال: **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**. اعلم أن قوله: **لا تصيبن**، اختلف في تفسير ذلك كثيرٌ من السادات. ولقد وقفت على كلام رجل مُبَرَّزٍ في العلم / والعمل [١٨٤ظ] والعربية وفهمِ معانيها الدقيقة. وقد صنَّف قريبا من كُرَّاسة[١٠] في هذه الكلمة، وظن أن لامها لام تأكيد، أي إنها "لَتُصِيبَنّ"، وأثبت أن الألف زائدة وأنها وهمٌ من الكَتَبَة الأوائل

---

[١] ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٥٤/٢). وانظر أيضا: سورة آل عمران، ١٦٩/٣.

[٢] جميع النسخ: وكقوله.

[٣] ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، ٤٦/٢٢).

[٤] ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٠/٧). وانظر أيضا: سورة الزخرف، ٣٧/٤٣.

[٥] ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ (سورة التوبة، ٧٧/٩).

[٦] ك ن: عن الهدى.

[٧] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ (سورة المنافقون، ٣/٦٣).

[٨] ك ن: فذلك.

[٩] ك ن: ورسوله.

[١٠] ك: من كراسته.

قبل عثمان رضي الله عنه. وذكر في ذلك ما يطول شرحه بعد ذكر أمثلة كثيرة وأحرف قد جاء في الكتاب العزيز وأقرّ العلماء أنها وهمٌ من الكَتَبَة، كقوله: مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ[1] وغير ذلك. ومنهم من فسر هذه الكلمة بمعنى أنها لا تصيب الذين ظلموا فقط بل الذين ظلموا والذين ما ظلموا.[2] وذلك هو حقيقة الظلم نسبةً إلى من لا يظلم مثقال ذرة.[3] وقد بيّنا الحقَّ الذي وهبه الله لنا هبةً منه تعالى، ثم بعد ذلك أطلعَنا الله تعالى على بعض الكتب فكان فيه هذا المعنى بعينه. وهو أن معنى هذه الكلمة هو مثل معنى قوله تعالى في سورة النمل: لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ،[4] وهي هناك بمعنى لئلا يحطمنكم،[5] كما تقول: احذر الموجة لا تُغْرِقَنَّك.[6] فافهم هذه جيدا ولا تَرْتَبْ. وأما الأحرف الزائدة على القراءة في المصاحف مثل لَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ،[7] ومثل لَأَاْذْبَحَنَّهُۥ،[8] [ومثل] ولَأَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا،[9] فذلك أن صورة الفتحة في الخطوط قبل الخط العربي كانت ألفا، وصورة الضمة واوا، وصورةَ الكسرة ياء، فعلى هذا كُتب أوّلا. وكذلك في أُوْلَٰتِ حَمْلٍ،[10] وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ،[11] جعلوا مكان الكسر[12] ياءً لقرب عهدهم بالخط الأول قصدا لا سهوا ولا جهلا.

---

١ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٤٩).

٢ قراءة العامة: ﴿لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وقراءة علي وزيد بن ثابت وأبي جعفر محمد بن علي والربيع بن أنس وأبي العالية وابن جماز: "لَتُصِيبَنّ". قال أبو الفتح: معنيا هاتين القراءتين ضدان كما ترى؛ لأن أحداهما: ﴿لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، والأخرى: "لتصيبن هؤلاء بأعيانهم خاصة". وإذا تباعد معنيا قراءتين هذا التباعد وأمكن أن يُجمع بينهما كان ذلك جميلا وحسنا، ولا يجوز أن يراد زيادة "لا" من قِبل أنه كان يصير معناه: واتقوا فتنة تصيبن الذين ظلموا من خاصة، فليس هذا عندنا من مواضع دخول النون، ألا تراك لا تقول: ضربت رجلا يدخلن المسجد؟ هذا خطأ لا يقال، ولكن أقرب ما يصرف إليه الأمر في تلافي معنيى القراءتين أن يكون يراد "لا تصيبن"، ثم يحذف الألف من "لا" تخفيفا واكتفاء بالفتحة منها، فقد فعلت العرب هذا في أخت "لا" وهي "أمَا". انظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني، ١/٣٩٢-٣٩٣.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء، ٤/٤٠).

٤ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة النمل، ٢٧/١٨).

٥ جميع النسخ: لللايحطمنكم.

٦ جميع النسخ: إحْذَر الموجَه لا يَغرفنّك، والمثبت من م.

٧ ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٤٧).

٨ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٢١). أي بإملاء "لا أوضعوا" و"لا أذبحنه".

٩ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/١٤). | أي بإملاء: "لَا اَوْضَعُوا" و"لَا اَذْبَحَنَّه" و"لَا آتَوْهَا".

١٠ ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (سورة الطلاق، ٦٥/٦).

١١ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ (سورة النحل، ١٦/٩٠).

١٢ ش: الكسرة.

وأُبقي الأمر على حاله ليعلم صحة النقل في القراءة. وإنه تارة كالمكتوب مثل "لا تصيبن" ههنا، وتارة كغير المكتوب لئلا يَظن الظان أن الاعتماد كان على المرئي دون المسموع من النبي عليه السلام. فانظر ما أحسن هذا. ولما كان أشدُّ العقاب هو فتنةً يحول بين المرء وقلبه فلا يَقدر بعدها على الهدى قال: **واعلموا أن الله شديد العقاب.**

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

واذكروا، أي دائما، **إذ أنتم**، أي كنتم أنتم بأعيانكم. ففائدة العبارة بقوله: **أنتم**، لئلا يعود الكلام منسوبا إلى الجنس والجملة،[1] أي إذا كان المؤمنون ليس هذا مرادَ الكلام بل، **إذ أنتم**، بأعيانكم، **قليل**، جمعٌ قليل، ولهذا لم يقل: قليلون. ثم أتبعه بلفظ الجمع عائدا على لفظة الجمع المضمرة أو مثلها، فقال: **مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس**، ولم يقل: يَخْطَفَكم الناس لينبِّه على تكرار الخطف مرة بعد مرة. **فـٔاوىٰكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبٰت لعلكم تشكرون.** هذه الآية جميعها إنما بدأ فيها بقوله: **واذكروا**، ليكون برهانا لهم ولمن بعدهم، إذ كانوا قليلين مستضعَفين، وغيرهم كثير قوي، فنصرهم الله تعالى عليه. وهذا برهان واضح وجودي لا يسع العاقل ولا الجاهلَ دفعُه. وأقوى من ذلك برهانا ما يُفحم[1] العقلاء والعلماءَ ويُشهد أن هذا الكلام مأخوذ عن الغيب لا يعلمه إلا الله أو مَن علّمه الله إياه. هو تَواعُدُه[2] تعالى للكفار بالهلاك والبوار، ووَعْدُه للمسلمين بالعزة والانتصار، مثل قوله تعالى: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ[3] وأمثالِها، [و]قوله تعالى للمؤمنين: وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ،[4] وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا،[5] ومثل ذلك كثير. وقد شهد الوجود بصحته، وحسبنا الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم أخذ يحذِّر المؤمنين وينهاهم عن الخيانة، وعن الميل عن الإيمان، وعما عاهدوا الله عليه، إذ قالوا:[6] سمعنا وأطعنا.[7] فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا لا تخونوا الله**

---

[1] ك ن: ما يقحم.

[2] ك: هو تواعد.

[3] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٢).

[4] سورة الحج، ٢٢/٤٠.

[5] ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (سورة الصف، ٦١/١٣).

[6] ك ن + لا.

[7] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٨٥).

والرسول وتخونوا أمٰنٰتكم وأنتم تعلمون، أنكم عاهدتم الله ورسولَه، كقوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ.[1]

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

ثم أخذ يستميلهم عن حبّ الدنيا لأنها هي التي تُميلهم عن الإيمان، فقال عن أقرب الأشياء إلى الإنسان: واعلموا أنما أموٰلكم وأولٰدكم فتنة، أي فكيف ما عدا ذلك؛ وأن الله عنده أجر عظيم. ومن ههنا تَعلم أن الفتنة قد يريد بها الامتحان، ومن قوله قبلُ:[2] لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً،[3] يريد بها العقاب. فالفتنة ههنا اختبار وامتحان بشيء يمكن أن يضل به الإنسان، ويمكن بما مكّنه الله من القوة على نهي النفس عن الهوى أن لا يضل إذا كان قوي الإيمان. فهو يحذّر المؤمنين من الافتنان بالمال والولد، / كقوله: لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ.[4] وفي ذلك زوال اللائمة عن [١٨٥و]
الله تعالى ووقوع حجته على خلقه. وذكر المال والولد لأنه أعم وأكثر نفعا. ومن دقق النظرَ وجد أنه ممتحَن بكل ما لديه كقوله: ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ.[5] وقدّم ذكر الموت ليعطف الابتلاء على[6] الحياة إشارة إلى أنه الحي مختبر ممتحَن في هذه الحياة، وليعتبر الحي بموت من يموت فينظرَ الحيُّ ويعملَ لنفسه قبل أن يصيبه ما أصاب غيره. ولهذا قال: لِيَبْلُوَكُمْ، إذ لا عمل بعد الموت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

ولمّا قدم قوله: وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً،[7] وكان من ترك التقوى لهذه الفتنة يستحق بأن يكون[8] عقابُه الحيلولةَ بينه وبين قلبه أعقبه ههنا بضده، فافهمه جيدا. وهو قوله: يٰأيها الذين ءامنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا. هذه الصيغة يؤتَى بها للمبالغة. واشتقاق هذا الاسم من قولك: فَرَق يَفرُق فَرْقا. فإذا قصدت به المبالغة قلت فرقانا، كقولك: غفَر يغفِر

---

١ سورة الفتح، ٤٨/١٠.
٢ ك: قيل.
٣ الآية ٢٥ من هذه السورة.
٤ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (سورة المنافقون، ٦٣/٩).
٥ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الملك، ٦٧/٢).
٦ ن: وعلى.
٧ الآية ٢٥ من هذه السورة.
٨ ش: أن يكون.

غَفْرا وغُفرانا، وعشَم يعِثم عَثْما وعثمانا، والعثم الأذى والهلاك، وهو معدول عن عاثم وغافر وفارق طلبا للمبالغة. وهذا الفرقان أتى مطلقا ولم يعيّن لنا فيماذا يجعل لنا الفرق. والمفهوم منه أنه إشارة إلى علم الفرق بين الحق والباطل في كل حُكم وأمر من الأمور، وفي كل لفظ وعبارة وخصوصا في كلام الله تعالى. فعاد الفرقان بالتقوى في موضع الحيلولة بعدمها. والتقوى هي اجتناب المخالفة أمرا ونهيا. وللتقوى في كل شيء حدٌّ مخصوص بحَسَبه إذا بلغ المتقي ذلك الحدَّ وهبه الله ذلك الفرقان في ذلك الشيء. ويدخل في التقوى أن لا يُقدِم المتقي على ما نهي عنه ولا على آيات الله ويقضيَ فيها بغير علم. وجِماع الخير وأُسُّ التقوى أن لا يَكذِبَ. وقوله تعالى: **ويكفر عنكم سيئاتكم**، أي فيما سيأتي، **ويغفر لكم**، ما مضى. وهذا يعطي الثقة وحسْن الظن بالله في كل ما يتعلق بالماضي ويوجب الاحترازَ في الآتي لئلا يحتاج إلى تكفير.[1] **والله ذو الفضل العظيم**، لأن من عامل عباده بهذه المعاملة مع أنه الغني عنهم فهو ذو الفضل العظيم بلا شك.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

ثم ذكر بعد فضله على نبيه عليه السلام فقال: **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك**، إشارة إلى أذًى قويّ ينالونه به مِثْلَ ضربة أو جِراحة. وإنما قال: **يثبتوك**، ولم يقل:[2] يخرجوك،[3] أو مثلها ليكون اللفظ منبِّها على أذية توجب إثباتا[4] لشخص وعجزه عن الحركة، كما ورد في حديث عن عمرَ بنِ عبدِ وُدّ أنه قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجِراحة.[5] ولما كانت هذه الثلاث صفاتٍ هي التي يقصدها الأعداء منه عرّفَه الله إياها بقوله: **أو يقتلوك أو يخرجوك**. ثم قال: **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**. فعرّفَه أنه تعالى يدفع مكرهم وحِيَلَهم التي يقصدون بها أذاه بخيرِ مكرٍ ليَعلم نعم الله عليه ويتحقق أن الله معه. فكانوا يتحيلون بوجوه من المكر، والله تعالى يعاقبهم بأن يُلهمهم الوقوف على ذلك المكر ويَسُدَّ عليهم باب التوبة فلا يَشعرون بذلك العقاب.

---

[1] أي إلى تكفير سيآته وسترها.

[2] جميع النسخ – يقل، والمثبت من م.

[3] جميع النسخ – يخرجوك، والمثبت من م.

[4] جميع النسخ: إثبات.

[5] انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٢٥؛ والمستدرك للنيسابوري، ٣/٣٢.

فيكون الله تعالى كأنه قد مكر لهم لكنه خيرُ ماكرٍ، لأنه لم يأتِ بمكر على التحقيق. وإنما هم أتوا به فأقرّهم على ذلك فحق له أن يكون خيرَ الماكرين، إذ لم يأت سبحانه وتعالى بمكر من عنده غير ما أتَوْا هُمْ به. ولهذا قال أولا مخبرا عنهم: وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا، ثم قال بعده: وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ. ثم قال: فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ،[1] ولم يقل: مَكْرِنا، فافهم ذلك.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١﴾

وإذا تتلىٰ عليهم ءايٰتنا قالوا قد سمعنا، كثيرا مثل هذا. لو نشاء لقلنا، وحذف أولا، مثل هٰذا، لكونه أثبته أخيرا لئلا يتكرر. إن هٰذا إلا أسٰطير الأولين.

﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢﴾

وإذ قالوا اللّٰهمّ إن كان هٰذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، أي الآن. اعلم أنه قد أوضح في هذه الآية أن الخطاب إنما هو مع الكفار. والكفر[2] أعم من الشرك، فهي مقالة مَن يعترف بالله كالمشرك واليهودي والمنافق، لكنه كافر بهذا النبي / وهذا الكتاب فيدعو على نفسه. فإذا لم يقع دعاؤه [١٨٥ظ]
فكأنه دليل له على صدقه في دعواه[3] صحةَ ما هو عليه من كفره بالنبي وبما جاء به، إذ لم تَنزل عليه حجارةٌ ولم يَأتِه[4] عذاب أليم.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣﴾

فبين الله لنا سببَ تأخير العذاب عن المنافقين والمشركين فقال بلام الجحد: وما كان الله ليعذبهم، كما طلبوا وأنت فيهم، أي عذابَ استئصال. وذلك أنَ العذاب لا ينزل على أمة والنبي فيها. ألا ترى[5] قولَه للوطٍ عليه السلام: فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ،[6] وإلى قوله:

---

١ ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٥٠-٥١).

٢ ن – والكفر.

٣ أي في ادعائه.

٤ جميع النسخ: ولم يأتيه، والمثبت من م.

٥ ك ن: ألا يرى.

٦ ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ (سورة هود، ١١/٨١).

فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا،[١] وقوله: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ.[٢] وقوله: **وما كان الله معذِّبهم وهم يستغفرون**، أي وإن لم تكن[٣] فيهم، وهذا عذاب بالقتل والاستئصال. ودليل العذابَين قوله تعالى: وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦ، وهو الاستئصال،[٤] أَوْ بِأَيْدِينَا،[٥] وهو الأسر والقتل. فما دام فيهم الرسول لا يُعذَّبون. وذلك لطف من الله بعبيده الكفار، لأنهم لا يستحقون في نفس الأمر تعجيل العذاب إلا إذا فقدوا الرسولَ وهم مصرُّون على الكفر. وأما إذا كان فيهم فإنه يَعِظهم أحيانا فيوشِك أن يعودوا إلى الإيمان على التحقيق. ولمّا ذكر الذي من شأنه أنه يؤخِّر العذاب، وهو وجود الرسول، ذكر لنا سببا آخر أيضا من شأنه رفعُ العذاب وهو الاستغفار، فافهم. ولم يذكره، لأنه لا يكون إلا مع توبة وندمٍ، ولجواز أن يكون فيهم أيضا من شأنه أن يستغفر ويعود إلى الذنب ثم يعودَ إلى الاستغفار.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وما، نافية، **لهم ألا يعذبهم الله**، عذابَ القتال لا الاستئصال، لأن عذاب الاستئصال[٦] مرفوع عنهم بوجود النبي عليه السلام، ولا يمنع عنهم وجود النبي فيهم عذاب القتال. **وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه**، الذين هم أولى به، **إلا المتقون ولٰكن أكثرهم**، أكثر الكفار الصادّين، **لا يعلمون**.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية، اسمٌ مؤنث، تفسيره وتصريفه من صدّى يُصدّي تصدية، إذا استعمِل الصَّدَى[٧] تَعرض له، وهو صوت الجبل العالي أو البناء العالي إذا استقبله الإنسانُ على هيئة مخصوصة من التوجه ومسافة مخصوصة

---

١ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا اسْتَيْـَٔسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة يوسف، ١١٠/١٢).

٢ سورة يونس، ١٠٣/١٠.

٣ جميع النسخ: وإن لم يكن.

٤ ك – ودليل العذابين قوله تعالى ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده وهو الاستئصال، صح هـ.

٥ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ (سورة التوبة، ٥٢/٩).

٦ ش – لأن عذاب الاستئصال، صح هـ.

٧ ك ن: الصداد.

من البعد[1] وصاح نحوَه فإنه يجيبه بصوت مثل صوته ولفظه. وذلك يقال له: الصَّدَى. ولما كان هذا الصوت ليس فيه فائدةٌ لأنه صوت صدَرَ من غير ذي عقل فتُقصَدَ به فائدةٌ شبّه الله صلاتهم في تصويتهم فيها[2] بهم، لأنها لم تَصدر عن نية ليجتنُوا ثمرتَها، فعاد حكمها كحكم الصدى الذي لا فائدة فيه. وأما لفظة "مُكاء" قيل: هي من مَكا يَمْكُو مَكْوا ومُكَاء إذا صَفِر، وكأنه من جنس التصدية، لأنه صوت لا حقيقة له. ويجوز أن يكون إشارةً إلى أصوات النحاس من الآلات. وأما إذا ضُرب عليه بشيء صُلْبٍ كان له رَنين وطنينٌ. وقيل: شبههم بالطير الذي يَصفِر ويصدّي، أي يماثل الناسَ في كلامهم ولا يفهم هو ما يقوله، وهو كقوله: وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ،[3] وهذا جيد. وهؤلاء يستحقون العذاب، وهذا العذاب هو بأيدي المؤمنين يدلك ما يأتي، فافهمه. ولهذا قال أخيرا:[4] **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

إن الذين كفروا ينفقون أموٰلهم ليصدوا عن سبيل الله. هذه الآية فيها برهان واضح يَشهد بأن الكلام من الغيب، لأنها أعربت عن أمور تكون في المستقبل. فوقع الأمر كما نطقت بقوله: **فسينفقونها**، فإن السين دالة على الاستقبال. ويجب أن يُفهم من ذلك الخاصُّ في وقته، عامّ في كل وقت؛ فتواعدهم بقوله: **ثم تكون عليهم حسرة**
[١٨٦و] **ثم يغلبون**، أخيرا. وكذلك جرى عليهم ويجري إلى يوم القيامة. وأما / معنى قوله تعالى: **ثم**، التي تدل على عطف على شيء قد تقدم من جنس المعطوف به، وذلك أنهم إذا أنفقوا أموالهم فإنهم يَفقِدون الانتفاع بها، فهذه عقوبة لهم، ثم تكون عليهم حسرة، فهذه عقوبة أخرى، ثم يُغْلَبُون أخيرا، فهذه رَزِيّة[5] أخرى. فلهذا أتي بثُمّ مرة بعد أخرى دون الواو لتقدم ما ذكرنا. وقوله تعالى: **ثم تكون عليهم حسرة**، فهذه عقوبة ظاهرة، لأنهم إذا كان مآلُهم إلى أنهم يُغلَبون فإن جميع ما أنفقوه في الخيل والسلاح والعِدَد يصير إلى المؤمنين فيقاتلونهم[6] به فيكون عليهم لا لهم. وهذا -بلا شك- حسرة،

[1] ن + نحو.
[2] أي في البيت.
[3] ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ (سورة البقرة، ٢/١٧١).
[4] ن - أخيرا.
[5] جميع النسخ: رذية، والمثبت من م. | الرزية: الفجيعة (تاج العروس للزبيدي، «فجع»).
[6] جميع النسخ: فتقاتلونهم، والمثبت من م.

فهذه حكمةُ هذا اللفظ دون غيره. ثـم عرّفَنا عقابهم كعادته عند ذكرِ كلِّ مذنبٍ أذنب: **والذين كفروا إلى جهنم يُحشرون.**

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ولما كان الكلام في كفار المؤمنين، أعني المنافقين قال: **ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض.** وقوله: **فيركمه جميعا**، هو من قوله: تَراكَم الشيءُ يتراكم فهو متراكم إذا علا بعضُه على بعض كالغبار على الحائط إذا كان كثيفا متلازِزا.[١] والمتعدي منه ركَم يَركُم رَكْما، وذلك إشارة إلى ازدحامهم والتضيق عليهم في جهنم زيادةً في العذاب. **فيَجعلَه في جهنم أولٰئك هم الخٰسرون.**

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف، هذا لطف من الله تعالى بهم، أمر النبي عليه السلام أن يَعظَهم ويُبشّرهم إن انتهوا بالغفران. **وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين،** يعني سنته تعالى في عقاب من كَفر وإهلاكِه، كقوله: كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ،[٢] وتمامه.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

ثم عطف على قوله: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟،[٣] [قوله:] **وقٰتِلوهم،** أي إن لم ينتهوا. والمعنى إذا خشيتَ منهم أن يَفتنوا المؤمنين، لأنه لمّا كان الكلام في هذا الفريق من الكفار ممن يُخشَى منهم أن يُضلوا الناس ويَفتنونهم أمرَ بقتالهم، **حتىٰ،** كيلا، ويحتمل أن تكون[٤] بمعنى إلى أن، **لا تكونَ فتنة ويكون الدين كلُّه لله،** لأن دين المشرك بعضه لله وبعضه للشركاء. **فإن انتهوا،** قولا ودعوًى منهم أو اعتقادا وعملا، **فإن الله بما يعملون بصير.**

---

١ أي مجتمعا ومنضمّا بعضه على بعض.
٢ الآية ٥٤ من هذه السورة.
٣ من الآية السابقة.
٤ ن: أن يكون.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾

وإن تولوا، أي بعد ذلك الانتهاء، وهو أيضا مطلق، لكنه لمّا تقدم مثل هذا المعنى كان ذكرها هنا[1] أولى أن يكون بعد الانتهاء. فاعلموا أن الله مولٰكم، أي لا تخافوا مِن تولّيهم عنكم بعد أن كانوا يُظهرون موالاتكم فالله مولاكم. نعم المولىٰ ونعم النصير.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾

ثم أتبع اللهُ ذكْر قتال الكفار بذكر الغنيمة فقال: واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه، تأملْ جيدا وافهم ما يلزم لو قال: فأنّ خمسه لله وللمذكورين، فلو قال كذلك لكان المراد تبيينَ[2] الخمس، إذ الاهتمام بالشيء أبدا تُقدمه في الذكر. ولو قال: لله، وتلا جميع المذكورين ثم قال: خُمُسَه لكان يُفهم منه المساواة. وكذلك يفهم مما قبله لكن ما قبله يُفهم منه المساواة[3] في المقسوم. والثاني يفهم منه المساواة في المقسوم عليهم من جهة استحقاقهم وأن كلَّ واحد منهم بمنزلة الآخر، فتأمله. وأما ما قال تعالى فإنه يفهم منه تقديم ما هو لله وترتيبُ ما بعده؛ ولا يلزم المساواة في القسمة ولا مساواةُ المقسوم عليهم، بل ذلك عائد إلى نظر ربِّ الأمر الذي هو إما الرسول أو من يَخلُفه وينوب عنه، لأن له أن ينفّل، فكيف لا يكون له أن يقسِّم. ولهذا قال أولا: قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ.[4] وقال: وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ.[5] وهذا الخطاب هو لمن سماهم الله من الأقسام الأربعة بعد قوله: لله خمسه وللرسول، فافهم جيدا، لأن الأربعة أخماس لها أرباب. وفضيلة هذه العبارة، أعني قولَه: فَأَنَّ لله خمسه، أن يُفهَم منها أن لله خمسه كله وللرسول خمسه كلَّه، ولذى القربىٰ، كذلك، وكذلك في الجميع. وبيَّن كل آية في مثلها، فالآية التي ههنا بيّنها في قوله: وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وتمامِه. والأمر في ذلك للرسول فلا يجب عليه المساواة في القسمة. فانظر هذه الجملة، وتَنبهْ لهذه الحكمة.

---

[1] ش: ذكر ههنا.

[2] ك ن: تبين.

[3] ش – وكذلك يفهم مما قبله لكن ما قبله يفهم منه المساواة، صح، هـ.

[4] الآية ١ من هذه السورة.

[5] ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (سورة الحشر، ٥٩/٧).

وقوله: لله، هي النفقة في سبيل الله كالجهاد وسدّ الثغور، وما يَعود نفعه على الكل فتقدم. وقوله: وللرسول، أي له أن يتناول حاجتَه حال كونه موجودا، وكذلك / من [١٨٦ظ] يقوم مقامه، أعني الإمام. وقوله: ولذى القربىٰ، ليس قرائبَ الرسول إذا كانوا محتاجين، بل المراد فقير ذو أقارِب كما بينا في الفيء،[١] فيجب أن يعطي كله أو بعضه. واليتٰمىٰ والمسٰكينِ وابن السبيل، كذلك. فليس مدلول الآية أن الخمس يُقسَّم على المذكورين بالسوية، إذ لو أراد الله ذلك لبَيّنه وفصّله وعيَّن نصيب كل واحد من المذكورين، أو قال: فهم شركاء، كما قال في الفرائض.[٢] وإنما المعنى هو أن هذا[٣] الخمس صالحٌ لِأنْ يُصرَف على ما ذكرناه الأَولى فالأولى. فعند وجود الرسول فالحكم له، فهو أحق وأدرى سرَّ مَن ذكره اللهُ سبحانه. وبعد الرسول فالحكم لرب الأمر في التصرف بما[٤] بيّنه الله؛ والفريضة على سائر المؤمنين الغانمين ليطيعوا الإمامَ ولا يَغُلَّ أحدٌ شيئا. فإن الخمس إنما يُخرجه الإمامُ من الجملة. وهذا القول إنما ذكرناه. لأنه مفهوم من الآية، أعني الأَولى مما يُفهَم من لفظها. والله أعلم.

فيجب أن يعطي الأولى فالأولى بحسب ترتيب الآية، إذ ذلك لازم من الترتيب. فمن لم يجده المعطي من الفِرَق المذكورة أو وجده غنيا عن ذلك فليُعط مَن بعدَه. وأيضا إنه لو قال مكان الواو: "أو" لاحتمل أنه إذا وُجد جملة الفِرق المذكورة لا يجوز له أن يعطي إلا فرقةً واحدة منهم لا أكثر، إذ لفظة "أو" ههنا يحتمل ذلك عند من يعلم. ومن حيث إنه قال ما قاله بواو العطف ولم يقل: "شركاء"، أو ما يخصص به قوما على قوم لزم من ذلك ما قلناه أولا، وإنه يعطي الأَولى بعضا أو كلّا لفريق أو أكثر بقدر ما يرى. فهو مثلُ[٥] قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾،[٦] وتمام الآية. فتلك الآية لا تدل على أنه مهما أنفقه الإنسان من خير يُقسِّمه على المذكورين جميعِهم بالسويّة مثلا، أعني على عِدّة الفِرَق، بل مَن وُجد منهم كما ذكرنا. فهذه الآية كهذه ههنا..فافهم ذلك مضافا إلى ما بيناه من حكمةِ ترتيب الكلام وما يلزم عنه.

---

[١] ش: في الغني.

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ (سورة النساء، ١٢/٤).

[٣] ن - هذا.

[٤] ش: مما.

[٥] جميع النسخ + ما.

[٦] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (سورة البقرة، ٢١٥/٢).

إن كنتم ءامنتم بالله وما أنزلنا علىٰ عبدنا يوم الفرقان، ولم يقل: من الفرقان ليكون اليوم منسوبا إلى من نزل فيه، إذ ذلك صفة اليوم، إذ عرّفه فقال: يوم التقى الجمعان، فعاد الفرقان ههنا اسما لذلك اليوم، فرّق الله به بين الحق والباطل وتَميّز به المؤمنون من المشركين والمنافقين مضافا إلى أنه سمّي بذلك لما أنزل به كقوله: أَنِّي مُمِدُّكُم.[1] ومثلُ هذا لك ما أخبرهم به الرسول عليه السلام عن الله تعالى يوم التقى الجمعان من نصر المؤمنين وكسر الكافرين فقال: إن كنتم ءامنتم بالله، وبما أنزل على رسوله من قوله لكم: إن الله هو الذي ينصركم ويُمدّكم بالملائكة،[2] وإنكم لَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ.[3] فعلامة إيمانكم إخراج الخمس من الغنيمة. وهو أمرٌ عام لأولئك ولنا. وقوله: والله علىٰ كل شيء قدير، أي وذلك حين رأيتم في ذلك اليوم إن الله هو القدير.

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرًا كَانَ مَفۡعُولًا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٤٢﴾

إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوىٰ. قوله ههنا: إذ أنتم، أي إذ كنتم أنتم بأعيانكم، يشير بهذا الخطاب إلى أشخاص معَيَّنين. ولو قال: إذ كنتم، لاحتمل أن يكون الخطابُ مُنبِئا عن قوم من المسلمين. وقوله: والركب أسفل منكم، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعٰد ولٰكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا، أي ليقضي بهذا الترتيب الذي لو تواعدتم عليه لاختلفتم. وأما التكرار فيما سيأتي[4] فمعناه ليقضي بالرؤية ذلك الأمر بعينه كما نبين.[5] والعدوة، بالضم والكسر شفةُ الوادي وهو المكان المرتفع. ولهذا قال: والركب أسفل منكم، ومن نصب لام "أسفلَ" جعلها ظرفا، ومن رفعها جعل لفظة "أسفل" بمعنى أفعل التعظيم، أي أشدُّ اسْتِفَالا. وقوله: والركب، يدل على أصحاب الإبل في السِّفْل[6] وهم عشرة فما فوقها في وسط الوادي، والمؤمنون في جانب الوادي الأعلى وهو الأدنى إلى المدينة، وذلك قوله: بالعدوة الدنيا. وأما "القصوىٰ" فهي من القاصي، أي البعيد من المدينة.

---

[1] الآية ٩ من هذه السورة.

[2] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ (سورة آل عمران، ١٢٤/٣).

[3] الآية ١٧ من هذه السورة.

[4] أي في الآية التالية.

[5] ش ك: كما تبين.

[6] ش: في السفر.

وقوله: **ولو تواعدتم**، أي لو كنتم أنتم[1] وهم والركب قد تواعدتم على أنكم تكونون بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوىٰ والركب أسفل منكم **لاختلفتم**،[2] أي لجاء بعضكم قبل بعض ووقف العدو حيث شاء ووقفتم بغير ترتيب يكون لكم فيه الصلاح، / إذ [١٨٧و] الأصلح للمؤمنين هو أن يكونوا بالعدوة الدنيا إلى المدينة. وقوله: **ليقضى الله أمرا كان مفعولا**. أي إن الله جعلكم كذلك ليقضي أمرا انفعل في هذه الواقعة من نصر المؤمنين وكسرِ الكافرين فكان مفعولا بالقضاء ولا بد. وإنما قضى ذلك، **لِيَهْلِك من هلك عن بينة**، يشير إلى من يكون بعد هذه الواقعة فإنه يَهلك، **ويَحيىٰ مَن حيّ**، يريد الحياة الأبدية الأخروية. فعبر عن الهدى بالحياة، كقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3] وعبّر عن الضلال بالهلاك في مواضعَ كثيرةٍ هذا منها. وقوله: **عن بينة**، أي عن علامة وآيةٍ بينة رآها الهالكُ والناجي معا، كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾.[4] لأن عسكر المسلمين لمّا كان قليلا وعسكرَ الكفار بالنسبة إليه كثيرا كبيرا عظيما، ونصرَ الله المسلمين على الكافرين كان هلاكُ الكفار عن بينة بانت فظهرت لهؤلاء بالانتصار ولهؤلاء بالانكسار. فعلم الجميع أن الله تعالى هو الذي نصر المؤمنين بإيمانهم لا بالكثرة، وكسَرَ الكافرين بكفرهم لا عن قلة. ولذلك قال: **ويَحْيىٰ مَن حيّ عن بينة**، أيضا. ولهذا كان آخرُ الآية بعد الهلاك والحياة، **وإن الله لسميع**، أي لِما يقولون بعد هذه الآية البينة، **عليم**، بما يسترون في بواطنهم من الكفر والإيمان الموجب[5] للانكسار، أو الانتصار.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

ثم ذكر ما هو من باب الإعانة[6] من الله للمؤمنين بعد وجود الإيمان منهم الموجبِ لنصرهم فقال: **إذ يريكهم الله فى منامك قليلا، ولو أرىٰكهم**، في النوم لا في اليقظة، **كثيرا لفشلتم**، وهذا يدل على أنهم كانوا كثيرا، وإنما أراه[7] الله في النوم ما سيريد أن يريَه في اليقظة. ولم يقل: لفشلتَ، لأنه لم يكن لِيفشلَ، ولكن فائدة المنام أنه يُخبرهم

---

[1] ك ن - أنتم.

[2] ك ن: لا اختلفتم.

[3] الآية ٢٤ من هذه السورة.

[4] ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ (سورة آل عمران، ١٣/٣).

[5] ك ن: الواجب.

[6] ن: الإغاثة.

[7] ن: وإنما أراد.

فتَقْوَى قلوبُهم بقلة العدوّ. فإذا رأوه في اليقظة كذلك قوي إيمانهم، ولهذا قال: ولو أرٰنكهم كثيرا لفشلتم، لأنه كان يَحصُل لهم الفَشَلُ حين القولِ أولا وحين الرؤيا ثانيا. والفشل هو الضعف، وقد بيناه. وسيأتي الدليل على رؤيا اليقظة بعد ذلك. ولهذا قال ههنا: ولو أرٰنكهم، ماضيا، ثم قال: إذ يريكموهم، مستقبلا، ولو كانت الرؤيا الأولى في اليقظة لكان ذلك تكرارا. ثم أتبع الفشلَ بما يلزم عنه فقال: ولتنٰزعتم فى الأمر، الذي يأمركم به الرسول. فالفشل يوجب التنازع والتنازع يوجب الفشل، كقوله: وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ.[1] ولٰكن الله سلّم إنه عليم بذات الصدور.

﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤﴾

وقوله: وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم، لا في حقيقة الأمر، قليلا ويقللكم فى أعينهم. ولما لم يقل: ويُرِيهُمُوكُمْ دل على أن المؤمنين كانوا قليلا في حقيقة الأمر، ثم قللهم أيضا في أعين الكفار. وهذا شاهد لقوله: يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ.[2] واعلم أن قوله: إِذۡ يُرِيكَهُمُ،[3] وقولَه: إذ يريكموهم، الكلمتان معطوفتان على قوله: إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ، وتمامه الذي زبدته ومعناه وغايته هو قوله: لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا.[4] ثم كرره لِما بَعُدَ وأضاف إليه غيره من الرؤيا. فلمّا قال أولا: لِيَقۡضِيَ، قال أخيرا ما معناه: أن[5] ترتيبكم بالعدوة والرؤيا من الرسول نوما ومن منكم يقظةً الجميع، ليقضى الله أمرا كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور، لا إلى الكثرة والقلة ولا إلى الملائكة، يشير إلى أمر النصر وضده وهو مطلق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾

ولما كان هذا الكلام قد يُفهَم منه ما يؤدي إلى مذهب الجبرية بيّنه بعده بقوله: يٰأيها الذين ءامنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا، أي النصرُ منا هو جزاء الثبات منكم. ولمّا ذكر الفعل أولا أعقبه بذكر القول ثانيا فقال: واذكروا الله كثيرا، لا تنس قولَه: كثيرا لعلكم تفلحون.

---

١ الآية ٤٦ من هذه السورة.

٢ ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ (سورة آل عمران، ١٣/٣).

٣ من الآية السابقة.

٤ الآية ٤٢ من هذه السورة.

٥ ن – أن.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾

وأطيعوا الله ورسوله ولا تنٰزعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، يريد: خِفَّتكم ونشاطكم. ولهذا قال قبله: **فتفشلوا**،[1] فعرّفنا ذهاب الريح، ما هو؟[2] بذكر[3] الفشل، فإذا[4] وُجد الفشل ذهبت الريح. ويقال: هبّت رياح بَني فلان إذا قامت دولتُهم. واعلم أن أكبر أسباب النصر أن يكون الريح في ظهر المقاتل فتكون في وجه عدوه. فمن قام بنصر الله نصره الله بالريح، وهذا[5] وجه حسن. **واصبروا إن الله مع الصٰبرين**.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ / ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧﴾ [١٨٧ظ]

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩﴾

وإذ زين لهم الشيطٰن أعمٰلهم وقال لا غٰلب لكم اليوم من الناس، أي من جميع الناس، **وإني جارٌ لكم. فلما تراءت الفئتان نكص علىٰ عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرىٰ ما لا ترون**، يحتمل رؤية القلب، ويحتمل رؤية العين ويريد به رؤية الملائكة، فإن الشيطان يراهم دون الكفار والمؤمنين، لقوله: وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا.[6] **إني أخاف الله والله شديد العقاب**، بيّن لنا في هذه الآية أن استيلاء الشيطان على الكفار إنما كان بأن زيَّن[7] لهم عملهم وهو القتال. وأيضا إن القول الذي قال لهم الشيطان وهو قوله: **لا غالب لكم اليوم من الناس**، هو من جملة التزيين، إذ لمّا زيّن كأنه قال ظاهرا، لأن كل واحد منهم ظن ذلك وإن لم يكن بدا إليهم قول ظاهر من صورة ظاهرة هي صورة الشيطان،[8]

---

[1] ش – وتذهب ريحكم يريد خفتكم ونشاطكم ولهذا قال قبله فتفشلوا، صح هـ.

[2] ش ك: ما ذاهبوا؛ ن ر: ذهبوا، والمثبت من م.

[3] جميع النسخ: لذلك، والمثبت من م.

[4] ن: إذا.

[5] ش: هذا.

[6] ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (سورة التوبة، ٢٦/٩).

[7] ن: بأن زيد.

[8] ك ن: الشياطين.

إذ المقصود من الصورة هو المعنى. فالذي قال:[١] إن الشيطان[٢] ههنا يريد به سُراقة،[٣] أو غيرَ ذلك، فإن سراقة ومن يقوم مقامه ممن يأتي بمثل هذه الكلمات هو في نفس الأمر شيطان، لأنه قام بوصف الشيطان. وليس المحدود[٤] سوى الأوصاف لا غير. فلا تظنَّ أن الشيطان يحتاج إلى أن يخلق [الله] له جسدا طويلا وغير ذلك فيتكلم فيه، إنما هو يجري منكم مجرى الدم في العروق،[٥] فقد يكلمك صاحبك أو أخوك أو زوجتك[٦] ويكون الشيطان هو المتكلم. وقد يكون ذلك بطريق وسوسة في الصدور فيكون نفسك شيطانك. وكم من إنسان هو إنسان في لفظ وشيطان أو ملكٌ في لفظ آخر، واللفظان متتابعان. وربما كان اللفظ واحدا ولكن بحسب السامع له.

فإن قلت: إن هذا الكلام ينقض ما قررتَه من حديث الشيطان وبيّنته من ذات متصفة بصفات.[٧] قلنا: لا نمنع أن يكون الشيطان مخلوقا وله ذات وصفات؛ لكن أنت لا تنظر الشيطان إلا كما قد بينت لك ههنا لتحذر صفته، فحيث كانت الصفة فهي هو. وفي قُبالة هذا قوله تعالى: «كنت سمعه وبصرَه»[٨] وتمامُ الحديث. والله هو العلي العظيم.

وقوله: **وإنى جارٌ لكم**، يريد الجِيرة والمساعدة كما يجب للجار[٩] على الجار[١٠] من الإعانة ومنعِ الجور عليه. **ونَكَصَ**، ارتد، **علىٰ عقبيه**. وهذه الحكاية هي صورة ما وقع في أنفس الكفار وصورةُ حالهم بعد ما زُيّن في أنفسهم قتال المسلمين. وقوله: **تراءت الفئتان**، أي رأت كل فئة الأخرى. وذلك، **إذ يقول المنٰفقون والذين فى قلوبهم مرض**، اليهود ومن يجري مجراهم: **غرّ هٰؤلاء**، المسلمين، **دينُهم**، تقديره: وليس كذلك بل نصرهم الله بدينهم. **ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم**.

---

١ أي من المفسرين.

٢ جميع النسخ + قال، والمثبت من م.

٣ لعله سراقة بن مالك. انظر: تفسير القرآن لعبد الرزاق، ٢٦٠/١.

٤ ك ن: المحذور.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءًا» (صحيح البخاري، بدء الخلق ١١؛ وصحيح مسلم، السلام ٢٣-٢٥).

٦ ك ن: أو زوجك.

٧ جميع النسخ + فإن، والمثبت من م.

٨ لعل المؤلف يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمْعَه الذي يَسمع به وبصره الذي يُبصر به ويدَه التي يَبطش بها ورِجْلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموتَ وأنا أكره مَساءته» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٥٦/٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

٩ ن: والجار.

١٠ ن – على الجار.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾

ولو ترىٰ إذ يتوفى الذين كفروا الملٰئكة يضربون وجوههم وأدبٰرهم. هذا كلام عام للذين كفروا، ويريد به ههنا هؤلاء الكفار من المقاتِلَة المتقدمِ ذكرُهم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ.[1] وضربُ الملائكة لهم على وجوههم وأدبارهم عند الموت هو ضربٌ بأيدي المؤمنين عند قتلهم الكفارَ في ذلك اليوم، كقوله تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ.[2] فكما قتل الله الكفار بأيدي المؤمنين كذلك ضربت الملائكة الكفار بأيدي المؤمنين. فهذا الكلام ههنا هو عن المذكورين مع احتمال الإطلاق عن كل كافر عند التوفي في غير القتال، واحتمالِ ضرب الملائكة لهم بغير أيدي البشر. وتقدير الكلام: ويقال لهم بعد التوفي: ذوقوا، فأضمر المقدر في الواو فقال: **وذوقوا عذاب الحريق.**

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

كدأب ءال فرعون والذين من قبلهم، يريد أن هؤلاء الكفار لمّا جرى عليهم العقاب بذنوبهم وتكذيبهم عند التوفي بأيدي المؤمنين وبعد التوفي بالعذاب والحريق مثل دأب آل فرعون والذين من قبلهم من أول الزمن، وكذلك إلى يوم القيامة. **كفروا بٔايٰت الله فأخذهم الله بذنوبهم. إن الله قوى شديد العقاب.**

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

ثم قال الله تعالى معرِّفا لنا بعدله، وأنه لا يعاقب بغير حق أو لغير مستحِقّ فقال:
[١٨٨و] / **ذٰلك**، العقاب، **بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها علىٰ قوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع**، لِما يقولون، **عليم**، بما في أنفسهم. والجاهل بما في أنفس الناس لا يعلم بماذا عاقبهم الله فغيّر عليهم نعمتَه. عرّفنا أنه تعالى يغيرها ولا يغيرها أبدا حتى يغيروا هم أولا فيعاقبهم.

[1] الآية ٤٢ من هذه السورة.

[2] الآية ١٧ من هذه السورة.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

ثم عطف على ذلك وقال: **كدأب ءال فرعون والذين من قبلهم كذبوا بـٔايٰت ربهم فأهلكنٰهم بذنوبهم وأغرقنا ءال فرعون**، وليس هذا تكرارا، بل الأول معناه أن المكذبين لهم بعد الموت إلى يوم القيامة كما لآل فرعون من عذاب الحريق، فهم[1] مثل هؤلاء الكفار الذين توفتهم الملائكة بآل فرعون. والثاني مَثَل سائر الناس الذين يغيرون ما بأنفسهم فيغيّر الله بهم كما غيّر بآل فرعون؛ إذ غيروا ما بأنفسهم، لقوله تعالى: وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ [ظُلْمًا وَعُلُوًّا].[2] فلمّا غيروا ما بأنفسهم من اليقين غيّر النعمة التي كان[3] قد أنعم بها عليهم، ولهذا قال في هذه الآية: **وكل كانوا ظٰلمين**.

[أنواع ضروب الأمثال في القرآن]

واعلم أن المتكلم الخبير إذا أراد أن يضرب للسامع مثلا لا يخلو إما أن يضرب له ذلك المثلَ بما قد يفرضه الإنسان في نفسه وإن لم يكن يقع في الوجود، كما تقول: افْرُضْ أن سفينة تجري في الهواء أليست[4] تَسبِق التي تجري في الماء؛ وإما أن يضرب المثل بما قد وقع في الوجود، والثاني أولى بالمتكلم العاقل. ثم إذا ضرب ذلك المثل بما قد وقع في الوجود لا يخلو إما أن يضربه بشيء شائع ذائع معروفٍ بين أكثر الناس من الوقائع المشهورة والأمور المذكورة المسطورة، أو بما لا يعرفه إلا القليل من الناس في بعض البلاد. والأول أولى بالمتكلم الخبير. فإن احتاج المتكلم إلى أنه يَضرب مثلا آخر بقضية أخرى مثلها يُشبه المثل الأولَ، فلا يخلو إما أن يقول مثلا غير الأول، وهو مثله أو أنه بعينه، والثاني أفضل عند من يعرف الكلام، لأنه قد عرف أولا ولا حاجة إلى تكليف السامع إلى غير ذلك مع أن ذلك فيه غِنىً. ولما كانت قضايا الأنبياء وقِصصهم قضايا مشهورة صحيحة قد وقعت في الوجود، واشتهرت في المنقول، واتفق على صحتها أولو العقول، وكان المتكلم تعالى يريد أن يضرب الأمثال ويفصِّل الأقوال كان الأولى أن يتكلم ويضرب المثل في كلامه بما جرى للأنبياء[5] ويصفَ أحوالهم فيضربَ الأمثال بهم وبقومهم المؤمنين للمؤمنين والكفارِ للكفار.

---

١ جميع النسخ: فهو.
٢ سورة النمل، ١٤/٢٧.
٣ ن: كانت.
٤ ن: ليست
٥ ك ن: الأنبياء.

فإن جاء في الكلام ما يقتضي أن يضرب له مثلا يشبه المثل الأول أعاد الأول بعينه، لأن ذلك أولى من أن يأتي بغيره وهو الأولى. فكأنه وإن كرره لم يكرّره إلا لزيادةِ معنىً. وإذا تأملت المكرَّر في الكتاب العزيز وجدت أكثره من هذا القبيل، وبعضه قد بينا حكمَه. فافهم ذلك وانظر بعين الإيمان أولًا إلى أن يصل إلى اليقين معرفةً.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥﴾

إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون. الدّابّة ما من شأنه أن يَدِبّ، لكنه في العرف والعادة يراد به الحيوان غير الناطق. فجاء هذا في مَعْرِض الذم للذين كفروا، كأنهم في التمثيل من ذلك القبيل، كما مثّلهم بالأنعام؛[1] وكقوله: كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ.[2] وإنما حقيقته كل ما دبّ من إنسان وغيره.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾

فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم، شُرّدت الفرسُ إذا جُعلت هاربة.[3] **لعلهم،** أي لعل مَن خلفهم، **يذكرون،** فيَزدَعُهم ما جرى على مَن قبلهم من المكذبين الذين ينقضون عهدهم.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨﴾

وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم علىٰ سواء، نبذ الشيء إذا ألقاه. وقوله: علىٰ سواء، أي[4] فانبذ عهْدَهم إليهم كما نبذوا على سواء، مثل نبذهم لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه. وهذا من أفصح الكلام وأوجزه وأعجزه عند من يَعلم. كأنه قال ما[5] تقديره: وإن خِفْتَ أن يخونك قومٌ معاهِدون إذا رأيتهم قد نبذوا من عهدك شيئا دلّك منهم[6] ذلك النبذ على الخيانة فانبذ أنت من عهدك إليهم مثل ما نبذوا على مقداره سواءً.

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٧٩/٧).

[2] ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ (سورة الجمعة، ٥/٦٢).

[3] ك: هاربه.

[4] ن - أي.

[5] ن - ما.

[6] ك - دلك منهم، صح هـ.

[١٨٨ظ] / لأنك إن زدت[١] على ذلك فقد خُنْتَهم في العهد، وإلا فهم خانوا أنفسهم بخيانتهم لك. إن الله لا يحب الخائنين.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾

ثم عرّفه الله[٢] سبحانه أنهم إن نبذوا شيئا من عهده فنبذوا[٣] بذلك[٤] فإن الله تعالى يكافئهم على فعلهم ولا يفيدهم سَبْقُهم بنبذ العهد وخيانة المؤمنين فقال: **ولا يحسبن،** بالياء[٥] أولى، وتقديره: ولا يحسبن الذين كفروا أنهم سبقوا بنبذ العهد لفرصة نالوها من المؤمنين بذلك النبذ أو توقعوا[٦] نيلَها. ودليله وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.[٧] ولمّا حذف "إنهم" أولا أثبتها أخيرا، فقال: **إنهم لا يعجزون،** الله سبحانه عن مكافأتهم على ذلك. وهو كقوله: أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ،[٨] والذين قبله كقوله: أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا.[٩] والحُسبان ظن يَقوى فيه أحد النقيضين، وأصله الحِساب، ولهذا قال بعده ما تقديره: فَٱنۢبِذْ إليهم أنت والمؤمنون كما نبذوا.[١٠]

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، يريد بـ"ما" مهما استطعتم من كل ممكن لكم من عَدد وعُدد وسائرِ ما يُقوّيكم الله به على عدوكم عند القتال وقبله. ولهذا قال: **ومن رباط الخيل،** وهو ما يُربَط للجهاد. **تُرهبون به عدو الله وعدوكم،** وهذا من أبلغ الحجج على إبطال القول بالجبر. والخوف بعد الواقعة، والرَّهْب قبلها كما جاء ههنا. **وآخرين،**

---

١ ش: إذا زدت.

٢ ش – الله.

٣ ش: فبذوا.

٤ أي إن نبذ المعاهدون شيئا من عهد النبي عليه السلام والمؤمنين ونبذ المؤمنون عهد الكفار بذلك.

٥ قرأ ابن عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر بياء الغيب مع فتح السين، وشعبة بتاء الخطاب مع فتح السين، والباقون بتاء الخطاب مع كسر السين (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٣٢).

٦ ن: وتوقعوا.

٧ ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة التوبة، ١٣/٩).

٨ سورة هود، ٢٠/١١.

٩ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٤/٢٩).

١٠ فيه إشارة إلى الآية السابقة.

منصوب بقوله: ترهبون، مِن دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم، وهم المنافقون وإن احتمل غيرهم من الأعداء الأباعد. وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون.

﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾

أي وإن مال المعاهدون الذين نبذوا، إن مالوا بعد النبذ إلى السَّلْم، وهو المسالمة، فمِلْ أيضا إليها.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

وإن يريدوا، أي بذلك الميل، أن يخدعوك، فلا تخف، فإن حسبك، أي كافيا لك، الله هو الذى أيدك، قوّاك، والأيْد القوة، بنصره وبالمؤمنين.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يٰأيها النبى، والمعنى في إعادة قوله: حسبك الله، أن قوله أولا: وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ[١] الذي ينجّيك من خِداعهم فهو عائد على الخداع خاصة بالنبي. وأما ههنا فمعناه عامٌّ في كل ما يُحتاج فيه إلى وقاية وكفاية من الله له وللمؤمنين أيضا، فما لم يكن فيه قتال فالله تعالى يكفيهم فيه. وأما القتال فالله تعالى يكفيهم فيه أيضا ولكن بواسطة الصبر منهم، فذلك شرط، لهذا قال: ومن اتبعك من المؤمنين. ولهذا أمره أن يُحرِّض المؤمنين على القتال بعد ذلك القول الذي قَوِيت به قلوبهم، وهو أن الله يكفيهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

فقال: يٰأيها النبى حرض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صٰبرون يغلبوا مائتين. السر في تعيين عِدّة معلومة أنه بدون هذه العدة لا يجب على المؤمنين لقاءُ عدة من الأعداء كما قد عيّن. وقوله: وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا،

[١] الآية ٦٢ من هذه السورة.

هذا إخبار لنا بما يدل على ما زاد على العشرين وهَلُمَّ جَرًا إلى المائة إلى الألف والألوف لئلا يتعين العدةُ الأُولى فحَسْبُ. وهذا إعلام لنا من الله لا فرضٌ حتى يقال: نسخه ما بعده. ولهذا علله من جهة الذين كفروا فقال: **بأنهم قوم لا يفقهون**، أي لا يفقهون ما به يكون النصرُ وهو الصبر الذي يَرغب فيه من يؤمن بالأجر بخلاف الكفار.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ثم قال: **الئٰن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا. فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله**، وهذا بشرط العدة أيضا لا أقلَّ من المائة مع شرط الصبر. **والله مع الصٰبرين**. والتحريض ترغيب في الفعل بما يبعث على المبادرة إليه مع الصبر عليه وعلى المشتق منه حتى يقارب الهلاكَ. ومنه قوله تعالى: حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ،[1] أي تذوبَ غمًا. فافهم ذلك ولا تَغْفُلْ عما أراد بالعِدّة من مقابلة الجمع بالجمع[2] فتظنَّ أن الواحد يجب عليه أن يَلقَى الاثنين ولا يجوز أن يَفِرَّ منهم؛ وليس كذلك فإن الواحد ليس له مَن يحمي ظهره، فلو كانا اثنين مثلا لظَاهَرَ كل واحد منهما صاحبه. فعيَّن العشرين ليعرِّفَنا أن ما دون ذلك لا يطيقون الثباتَ / قُدّامَ المائتين،[3] وعيَّن المائة في الثاني كما عين العشرين في الأول، وعين الألف لتبيين الزيادة، لأنه ابتدأ بالمائة في الآية الثانية لئلا نعتقد أنه يجب على الخمسين منا الآن لقاءُ المائة من الكفار، وليس كذلك بل من المائة فصاعدا بشرط الصبر. فلا يُشكلْ عليك إذا انكسر المسلمون وهم أكثر من هذه العدة، فإن صفة الإسلام التي هي ههنا الصبر إذا قام بها غيرُهم فإن الله مع الصابرين. ولا يُشكلْ عليك ذلك فتقولَ: كيف يكون الله مع الكفار؟ فإنما كان ههنا معهم لا من أجلهم بل على المؤمنين لينتقم من المؤمنين [ويمتحنهم] بهم كما يسلِّط الكَفَرَة على الفَجَرَة. ففي الآية الأولى[4] أعلمهم بما في قوتهم، والثانية فرض عليهم. فظن مَن لم يعلم ما قلناه أن الآية الأولى فرض فالتزم بالنسخ. وكونُ الناسخ مقارنا للمنسوخ [١٨٩و]

---

[1] ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾ (سورة يوسف، ٨٥/١٢).

[2] ن – بالجمع.

[3] ك: المائين.

[4] ك ن: الأول.

غير جائز في الوجود [ف]وجب أن يكون غير جائز في الذكر. فمن حيث جاء مقارنا في الذكر وجب أن يُتناول لا أن يُنسَخ،[١] فهذه صورةٌ إخبارية لا صورة أمرٍ. ولا يدل على أن هذا وقع أو لا بد من وقوعه، بل أخبر الله بذلك تقويةً لقلوب المؤمنين وإعلاما لهم أن في قوتهم هذا القدرَ مع شرط الصبر. ثم خفف بعد الإعلام فهو بصورةٍ مِن تحرُض المَقْدِرة[٢] والرجال بما معناه: حرض قومك فإن أحدهم يقاتل عشرة، ومع هذا لم نكلفهم[٣] ذلك فليقاتل الآن واحدُهم اثنين. ولهذا قال أولا: إن [يَكُن مِّنكُمْ]،[٤] وثانيا: فإن يكن منكم.

واعلم أن الحكم الأول باقٍ مع شرط، فإن العشرين إن صبروا على مقاتلة المائتين كان النصرُ معهم، وإن ضعفوا زال الحكم. ولو لم يصبروا جملة لزال الحكم الثاني بلا شك، لأنه تعالى لا يكون إلا مع الصابرين. ومتى علمت أن الأول إخبار لا فرضٌ بطل الإشكال. فهذا شرح هاتين الآيتين، وهما أشكل ما جاء في الكتاب العزيز مما قيل فيه بالنسخ. وقد بينا ذلك بحمد الله حقَّ بيانه. ومن دقّق النظر وفكّر في لفظ الآيتين وحكمه[٥] ما بيّنته فيهما تحقق صحة ذلك،[٦] وتحقق[٧] أن لا نسخَ في الكتاب العزيز [فيما] يوجب التناقض أو الاختلاف؛ كما زعم بعض الناس فظن أن الآية الأولى أنزلها فرضا مؤيَّدا شاملا لكل مسلم في كل زمن. ثم بعد ذلك نسخ ما كان أَمَره به وبدله بدونه. وهو غير جائز عقلا خصوصا. والآيتان معا في التلاوة والنزول، فافهم ما قلته. وإن عارضك معارض منك[٨] فعليك بالتوبة من الذنوب والتضرع[٩] إلى الله، والابتهالِ في أن يَكشف عن بصيرتك حُجُبَ الهوى ويرفع أستار الهوى والتقليد، وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ.[١٠] وأما ما احتوت عليه الآيتان المذكورتان من الحِكَم فلم أذكر منه إلا قليلا خوفَ التطويل. ومن فكر وتدبر أبصر[١١] وبَصُر، وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ.[١٢]

---

١ ن: أن يتناول إلا أن ينسخ.

٢ ش – مع شرط الصبر ثم خفف بعد الإعلام فهو بصورة من تحرض المقدر، صح هـ. | جميع النسخ: المقدر.

٣ ن: لم تكلفهم.

٤ من الآية السابقة.

٥ جميع النسخ: وحكمته، والمثبت من م.

٦ ك – تحقق صحة ذلك، صح هـ.

٧ ش – صحة ذلك وتحقق، صح هـ.

٨ أي من نفسك ووهمك.

٩ ن: التضرع.

١٠ سورة النور، ٤٠/٢٤.

١١ ن: بصر.

١٢ سورة البقرة، ٢١٣/٢؛ وسورة النور، ٤٦/٢٤.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ما كان لنبي أن يكون له أسرىٰ حتىٰ يثخن في الأرض، الإثخان شدة القتل وكثرته، ومنه قوله تعالى: إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ،[١] أي وثاق الأسرى، لهذا[٢] لم يقل: فشدوا وثاقهم. تريدون عرض الدنيا، والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم.

﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

لولا كتٰب من الله سبق لمسكم، دل على ما ذكره الجُبّائي من أنها كانت معصية، والمعصية ههنا من المؤمنين دون النبي عليه السلام. عرَّفهم الله أنهم اختاروا[٣] من النبي عليه السلام ما كره النبيُّ عليه السلام.[٤] فكأنه تعالى قال لنبيه عليه السلام: قل لهم ما كان لنبي غيري[٥] أن يكون[٦] له أسرى حتى يُثخن في الأرض، فلا يكون لي ذلك. ثم جاء الإنكار عليهم لا عليه بقوله: تريدون، ولم يقل: تريد، وقال: لمسكم، ولم يقل: لمسك. والكتاب الذي سبق عليه قوله تعالى: كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ،[٧] والعذاب أنهم كانوا كُسروا وقتِلوا. ولهذا قال: لمسكم، ولم يقل: لمسك،[٨] فيما أخذتم، من الأسارى حين القتال أو حين[٩] أخذهم، عذاب عظيم.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

فكلوا مما غنمتم حلٰلا طيبا، تقديره ولا تأسروا قبل الإثخان، وهو لازم من قوله: واتقوا الله، أي فيما أمركم به، فإذا تبتم عن مثل ذلك، إن الله غفور رحيم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

---

١ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ (سورة محمد، ٤٧/٤).

٢ جميع النسخ: بهذا، والمثبت من م.

٣ جميع النسخ: اختدوا، والمثبت من م.

٤ ش – عرفهم الله أنهم اختاروا من النبي صلى الله عليه السلام ما كرهه النبي عليه السلام، صح هـ.

٥ ن: غيره.

٦ ر ك: أن تكون.

٧ سورة المجادلة، ٥٨/٢١.

٨ ك ن – ولم يقل لمسك.

٩ ك: وحين.

يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرىٰ إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم، الخير الذي في قلوبهم يريد[١] به الإسلام، / لهذا قال: ويغفر لكم، فالمغفرة [١٨٩ظ]
لا تكون إلا بعد الإسلام لا مع وجود الكفر. والله غفور رحيم. ولهذا بعده: وإن يريدوا خيانتك، أي بإظهار الإسلام، فقد خانوا الله من قبل فأمكن، المسلمين، منهم. والله عليم، بما في نفوسهم، حكيم، في أفعاله معهم وحاكم بما يشاء عليهم مما يستحقونه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢﴾

إن الذين ءامنوا وهاجروا وجٰهدوا بأمولهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين ءاووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض. والذين ءامنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولٰيتهم من شىء حتىٰ يهاجروا. يريد بهؤلاء قوما ذكرهم[٢] في أول سورة التوبة،[٣] فاعرفهم جيدا. ومنهم الأسارى الذين آمنوا ولم تَشهد الهجرةُ بصدق إيمانهم بعد ذلك. هذا مع عموم القول لبقية مَن آمن ولم يهاجر من أولئك المخصوصين في ذلك الزمن وغيرهم. ولهذا قال: وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر، أي في إقامة الدين بقتال معهم، إلا علىٰ قوم بينكم وبينهم ميثٰق والله بما تعملون بصير. والأسارى الذين آمنوا ولم يهاجروا لا يقاتلون ويستنصرون بنا. وإنما أمثالهم مِن كل مَن أظهر الإيمان. فهذا مهما لم يهاجر فحكمه حكم الكفار.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝٧٣﴾

ولهذا بعده: والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، أي في النصر وغيره. إلا تفعلوه، أي تفعلوا[٤] ما أُمرتم به مِن ترك موالاة مَن[٥] آمن ولم يهاجر ويأوي[٦] وينصر كما تقدم.

---

[١] ن: يزيد.

[٢] ك ن: ذكروهم.

[٣] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة التوبة، ٩/٢٠-٢٢). وانظر أيضا: الآية ١١ من نفس السورة، كما سيأتي قريبا.

[٤] جميع النسخ - تفعلوا، والمثبت من م.

[٥] جميع النسخ - ترك موالاة من، والمثبت من م.

[٦] جميع النسخ: ويؤوي، والمثبت من م.

ومعنى [قوله:] إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض، أي التي لا يُفعل بها ذلك، وفساد كبير. والفتنة ههنا يريد بها الإضلال والقتل، كما يلزم عن وجود[1] المنافقين بين المؤمنين. والهجرة لغةً أن تَهجر شيئا تَقدر عليه فتركَه[2] لوجه الله تعالى من وطن[3] أو وَطَر،[4] كلٌّ بحسبه. وإلى هؤلاء المنافقين يشير في سورة التوبة بقوله: فَإِن تَابُواْ،[5] لأنهم في عديد الكفار. وكان قد تقدم لهم عهدٌ إذ أظهروا الإيمان ولكن لم يظهر عنهم المهاجرةُ بل ظهر عنهم موالاة الكفار؛ وهم المذكورون[6] في سورة النساء لقوله: فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ،[7] ثم فصَل الفئتين. فافهم واعرفْهما من هناك لتعرف المشار إليهم في سورة التوبة، فهؤلاء وإن أظهروا الإيمان فليسوا بمؤمنين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

وقوله: هم المؤمنون حقا، أي إن الذين آمنوا ولم يهاجروا هم المؤمنون بدعواهم، والذين هاجروا هم المؤمنون حقا عند الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله: والذين ءامنوا من بعد، أي[8] بعد أولئك دائما، وهاجروا وجٰهدوا معكم، أي مع المسلمين دائما، فأولٰئك منكم. وقوله: وأولوا الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض فى كتٰب الله، كرر هذا لكونه قال: فأولٰئك منكم، ليعرِّفَنا أن النسب وإن صح فإن الكفر يقطعه[9] فلا يكون الكافر أبا للمؤمنين في ميراث.[10] ويحتمل أن يُفهَم من هذا الكلام

---

١ ن: من وجود.

٢ ن: فتركه.

٣ ك: عن وطن.

٤ الوطر: كل حاجة كان لصاحبها فيها همة فهي وطره (لسان العرب، «وطر»).

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة، ١١/٩).

٦ ك ن: المذكورين.

٧ ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ (سورة النساء، ٨٨/٤).

٨ ن: أو.

٩ ن: بقطعه.

١٠ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يرث المؤمن الكافر ولا الكافر المسلم» (صحيح البخاري، الفرائض ٢٦؛ وصحيح مسلم، الفرائض ١).

ما معناه: أولو الأرحام من هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا ومن[١] المؤمنين المهاجرين، كلُّ فريق منهم لا يرث الآخر، بل بعضهم أولى ببعض، فيكون هذا نهيا لنا عن أن نرثهم. وقد بينا مثل ذلك في سورة النساء[٢] وفي سورة الأحزاب،[٣] فافهمه. والمعنى أنه تعالى لما ذكر لنا عن المؤمنين الذين لم يهاجروا ما ذكره بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾،[٤] كان[٥] يحتمل أن يكون المفهوم من ذلك أنه لو مات أحد المهاجرين من المؤمنين يجوز أن يرثه أحد المؤمنين الذين لم يهاجروا لكون اسم الإيمان قد جمع بينهما. فبين الله بهذا الكلام أن بعضهم أَولى ببعض في الميراث كما في كتاب الله مهما لم يهاجروا بل آمنوا فقط. وهذا عن قوم نهى الله عن موالاتهم حتى يهاجروا. وذلك لأن من لا يجوز لنا موالاته فما هو منا ولا نحن منه، فالرحم مقطوعة. وكتب الله، تعالى ههنا هو القرآن. ويحتمل أنه من قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾، الله، ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾،[٦] أي كتاب الله هذا أزلا، وهذا أولى. لكنه يجب أن يُفهَم أن هؤلاء المؤمنين الغيرَ المهاجرين إذا مات أحدٌ منهم فإنما يرثه ذو رَحِمٍ منهم لا من المهاجرين ولا من الكفار وإن / كان قد يكون لهم أولو رحم في هؤلاء، لكن الرحم [١٩٠و] انقطعت فانفصلوا عن الكفار ولم يتصلوا بالمهاجرين. ويَعْضُد ما قلناه[٧] قولُه تعالى في أمثالهم: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.[٨] فإن لم يكن لهم[٩] أولو رحم منهم[١٠] فاتصالهم هو بمن ظَهرت منهم الموالاة. فافهم هذا جيدا. مع أن هؤلاء قوم مخصوصون ذكرهم الله تعالى في وقتهم، ويستنبط حكم العموم من الخصوص في بعض الأمر لا في كله. والله أعلم. **إن الله بكل شيء عليم**، أي من أمر الميراث وغيره فيأمره به على الصورة التي هي أَولى وأحسن وأعمّ نفعا وأكثر. هذه القصة قيل: إنها في أهل بدر، وقيل:

---

١ ن: من.

٢ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ إلى آخر الآية (سورة النساء، ١١/٤).

٣ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَٰجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب، ٦/٣٣).

٤ الآية ٧٢ من هذه السورة.

٥ ن: لكان.

٦ ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ (سورة الحديد، ٢٢/٥٧).

٧ ن + في.

٨ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة المجادلة، ١٤/٥٨).

٩ ن – فإن لم يكن لهم.

١٠ ن – منهم.

كانت في صُبيحة السابعَ عشرَ مِن رمضان على رأس ثمانيةَ عشرَ شهرا من الهجرة. ومن كان شهد هذه[1] الوقعة فله الفضل.

فرحم الله الأوائل من أجداد المسلمين، إذ بإسلامهم منّ الله على ذريتهم فكانوا هم السببَ الأول، وهم وسائط الرحمة بين الله وبين عباده من أولادهم[2] وتُبّاعِهم.

[1] جميع النسخ: ذلك، والمثبت من م.

[2] ن: من أولائهم.

سورة التوبة

يحتمل أنها سمّيت سورة التوبة لِما أنزل فيها من التخويف الموجب.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١﴾

وهم ههنا المنافقون. وهذا كما تقول: كتاب من فلان إلى فلان، وهو إعلام لهم لعلهم أن يتوبوا. وجاءت هذه السورة بغير بسملة، لأنها تتمة لِما قبلها من حديث نبذِ العهود. فالكلام ههنا عمن أشار إليهم قبلُ بقوله: ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ، أي من الكفار، ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ.[1] وسمّي الإسلام عهدا لقوله: وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ.[2] وعهده سبحانه في التوراة اتباع محمد عليه السلام. وهؤلاء هم المذكورون أخيرا في الأنفال بقوله: مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟.[3] وهم[4] المشار إليهم بصريح النص مفصلا في سورة النساء بقوله: وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟، وأباح قتالَهم وفصّلهم، إلى قوله: وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا.[5] ولمّا كان منهم مَن أظهر الإسلام ثم ارتدّ ظاهرا ومنهم من بقي على حاله وارتد باطنا فهو منافق لكنه معاهد بالإسلام أمر الله تعالى المؤمنين بنبذ عهدِ هذا مع بقية المشركين المعاهِدين. وقيد ذلك بالأشهر الحرم وغيره كما سيأتي.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢﴾

وقوله: فسيحوا فى الأرض، أي آمنين من القتال، أربعة أشهر، خطاب للمشركين الذين جاءتهم البراءة من الله ورسوله، وهم غير المشركين الذين عاهدوا إلى مدة فنبذوا العهدَ أو ظاهروا[6] وغيرُ الذين لم ينبذوا. بل هؤلاء هم الذين لم يهاجروا،

---

[1] سورة الأنفال، ٨/٥٦.

[2] ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ (سورة البقرة، ٢/٤٠).

[3] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ (سورة الأنفال، ٨/٧٢).

[4] ن: وهو.

[5] انظر: سورة النساء، ٤/٨٩-٩١.

[6] ن: أو ظاهرا.

فهم الموصوفون بآية واحدة في سورة النساء[1] وفي سورة الأنفال[2] المأمور بترك موالاتهم. فأجّل لهم أجلا ههنا وأمر بقتالهم مع المشركين. ويدلك على ذلك الاستثناء فيما بعد بقوله: إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ.[3] فقِفْ وافهم ذلك ولا تَتَّكِلْ على أن تفهم من كلامي فقط جميع المقصود ههنا بل اتخذْ كلامي مُنبِّها دليلا. فإن الكلام الأول الذي هو بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ،[4] يدلك على أن البراءة لم تكن من الله لمعاهد إلا إذا خان العهدَ، لكنها خيانة باطنةٌ عُلِمَت بترك الهجرة. وأما من أتمَّ العهد من المشركين فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ.[5] والأربعة أشهر هي الحُرُم ولم يُعيّنْها في النص لاشتهارها. ويقال: ساح الماء إذا تبدّد حيث يجد له مجرى واستفالا يندفق منه.[6] والمعنى أن المعاهدين الذين نكثوا تبرأ الله ورسولُه منهم بما نكثوا. وأمهلهم الله أربعةَ أشهرٍ حُرُم حرَّم فيه القتال، إلا إذا بدءوا هم بالقتال للمؤمنين، لقوله: يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ،[7] الآية. والذين نكثوا باطنا هم المذكورون في أول الكلام. ولهذا قال: إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ،[8] ولم يقل: فنكثوا. فافهم ذلك جيدا لكيلا تختلط عليك الآياتُ، فتظن أن بعضها ناقض بعضا فتضطر إلى
[١٩٠ظ] أن تَنسخ بعضا ببعض. ثم لمّا[9] أمهلهم الأربعةَ الحرم / قال لهم: **واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكفرين**، يريد المشركين، فذكر العام لكونه في نفسه كذلك وأراد به الخاص. والبراءة الأولى إعلام للمشركين ليتوبوا، والثانية[10] إعلام للمؤمنين بذلك.

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (سورة النساء، ٨٩/٤).

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ (سورة الأنفال، ٧٢/٨).

٣ الآية ٤ من هذه السورة.

٤ الآية السابقة.

٥ الآية ٤ من هذه السورة.

٦ ش: لا يندفق فيه.

٧ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (سورة البقرة، ٢١٧/٢).

٨ الآية ٤ من هذه السورة.

٩ ن – لما.

١٠ أي في الآية التالية.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾

وقوله: **وأذن**، أي وإعلامٌ بمناداة، **من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر**، وهو يوم النحر. ويدل على حج أصغرَ وهو العمرة وهو في بقية الأيام في جميع السنة. وتميز الأذان في ذلك اليوم ليسمع أكثرُ الخلق ما ذكره. ورَفعُ، **وأذن**، مثل رفعة، **براءةٌ**، وهو عطف جملة على جملة، كقوله: قام زيد وقعد عمرو، فهو كلام آخر. والأذان: **أن الله بريء من المشركين**، مطلقا، **ورسولُه**، بريئ منهم أيضا، أعني المشركين الذين نكثوا والمشركين الغيرَ معاهِدين والمنافقين. فالأول إخبار بوجود البراءة من المنافقين، والثاني إعلام بما ثبت. ولهذا قال: **فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله**. وقوله: **فإن تبتم**، ليدل على أنهم نكثوا العهد بترك الهجرة وبموالاة المشركين دون الارتداد إلى الشرك بل مع إظهار الإيمان. ولهذا لم يقل عنهم في هذه المواضع "فإن آمنتم" بل "فإن تبتم" وكرره ليستوعب جملة المشركين وإن كانت الإشارة إلى المنافقين. ولهذا قال مجملا: **وبشر الذين كفروا**، في الدنيا وهو بأيدي المؤمنين لقوله: يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ،[1] **بعذاب أليم**.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤﴾

ثم استثنى من المشركين من لم ينكث العهد فقال: **إلا الذين عٰهدتم من المشركين**، عهدَ هُدْنَةٍ[2] لا عهد إسلام، لأن الأول مطلق وهذا إلى مدة. **ثم لم ينقصوكم شيئا**، من الشروط. **ولم يظٰهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلىٰ مدتهم**. وجعل الوفاء بالعهد للمشركين من جملة التقوى فقال: **إن الله يحب المتقين**.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾

---

[1] الآية ١٤ من هذه السورة.

[2] الهُدْنَة: المصالحة بعد الحرب. وأصل الهدنة: السكون بعد الهَيْج، ويقال للصلح بعد القتال والموادعة بين المسلمين والكفار وبين كل متحاربين (لسان العرب، «هدن»).

فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد. والمشركون أربعة أصناف: منافقون، ومشركون عاهدوا ونكثوا،[1] ومشركون عاهدوا ولم ينكثوا، ومشركون لم يعاهدوا؛ فأباح قتْلَ الجميع بعد الأشهر الحُرُم وبعد انقضاء مدة مَن لم يَنْكُثْ. فلهذا كانت البراءة أولا إلى المعاهدين المنافقين الذين نكثوا باطنا بترك الهجرة وبموالاة[2] المشركين. والأذان بالبراءة ثانيا[3] هو براءة من جملة المشركين، فمنهم المنافقون المذكورون، ومنهم أيضا المعاهدون الناكثون. ولهذا قال عن الفريقين: فَإِن تُبْتُمْ،[4] ومنهم من لم ينكث، ولهذا استثناهم لكن إلى مدة. ومنهم الغيرُ معاهدين. فإن تاب المعاهدون عن النكث قبل انقضاء الأشهر الحرم فعلينا أن نُتَمِّم إليهم عهْدَهم إلى مدتهم من بعد الأشهر الحرم،[5] وحكمهم حكم من لم ينكث. ثم نقاتل الباقين إلى أن يُسلموا، فافهم جيدا. ولهذا قال: **فإن تابوا**، أي قبل ما أخذتموهم وحصرتموهم، **وأقاموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة**، أو قبل انقضاء الأشهر الحرم، **فخلوا سبيلهم**، لأنهم مسلمون. ويريد بالتوبة أنهم أتوا بشروط الإسلام قبل مدة يجوز فيها القتال وفي مدة القتال.[6] **إن الله غفور رحيم**، لِما مضى منهم. فالبراءة أولا هي من المنافقين والمعاهدين الذين نكثوا، فأمهلهم إلى انقضاء الأشهر الحرم، ثم أمر بقتال المذكورين مع غيرهم من المشركين.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

ثم قال: **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره**. ثم علل ذلك بقوله: **حتىٰ يسمع كلٰم الله**. فليس المراد أنه استجارك حتى يسمع، ولو كان كذلك لقدّم قولَه: **حتىٰ يسمع**، وجعلها تالية لقوله: **استجارك**. والجِيرَة لا تكون[7] إلا في الحرب وعند القدرة. فإذا قال المشرك: أَجِرْني يا محمد، أي طلب منه الأمانَ من القتل والأسر قال الله تعالى: **فأجره**. وقوله[8] بمعنى لأجل أن يسمع كلام الله، أي اجعل إجارتك له من أجل ذلك

---

[1] جميع النسخ – ومشركون عاهدوا ونكثوا، والمثبت من هامش م.

[2] ش ن: وموالاة.

[3] وهي بالآية الثالثة.

[4] الآية ٣ من هذه السورة.

[5] ك – فعلينا أن نتمم إليهم عهدهم إلى مدتهم من بعد الأشهر الحرم، صح هـ.

[6] ك – وفي مدة القتال، صح هـ.

[7] ك ن: لا يكون.

[8] أي: حتى يسمع كلام الله.

طمعا في إسلامه وإقامةِ الحجة عليه، لأن هذا ترك القتال في موطن القتال، ولَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ.[١] ولهذا بعده: ثم أَبْلِغْه مَأْمنه، المكان الذي يأمن فيه من بأس المؤمنين. وفائدة ذلك أن يُحمَى[٢] من بقية المؤمنين إلى أن يصل إلى قومه المشركين، أو المكانِ الذي يختاره لنفسه لأنه قد أُطلق، وهذا حين القتال / والإثخان لا غير. فقوله:[٣] حتىٰ يَسمعَ، [١٩١و] عائد على نيّة المجير[٤] لا شرطٌ في حكم المجار.[٥] فافهم جيدا. ثم ذكر السبب في الجِيرَة[٦] فقال: ذٰلك بأنهم قوم لا يعلمون، أي جهلُهم عذرهم. وهذا دليل على أن قوله: حتىٰ يسمع، ليس المراد به مجرد السمع بل الفهمَ المؤدي إلى الإسلام.

﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٧﴾

ثم لمّا أمر بفسخ[٧] عهد من أظهر الإيمان وأمر بأن نبدأه بالقتال أخذ يعلل ذلك وينبّه على ما مِن أجله أوجب ذلك علينا، إذ ذلك قد يُشكل في بعض الأذهان فيقول: هؤلاء معاهِدون وقد أظهروا[٨] الإيمان فقال: كيف يكون للمشركين، يريد المنافقين، عهد، يجب على المؤمنين القيام به، ولهذا قال: عند الله وعند رسوله، أي وقد نبذوا باطنا، فهذا الكلام عن الأوائل المذكورين. إلا الذين عٰهدتم عند المسجد الحرام. وهؤلاء أولى بأن يكونوا مَن قال في حقهم في سورة النساء: أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ،[٩] والمستجير في حكم هؤلاء أيضا، فافهم. لهذا قال: فما، أي فمهما، استقٰموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين.

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩﴾

---

١ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٦).

٢ ش ن: أن يحيى.

٣ ن: بقوله.

٤ ك ن: المجبر.

٥ ك: المجاز.

٦ جميع النسخ: والحيرة، والمثبت من م.

٧ ن: بنسخ.

٨ جميع النسخ: وقد أظهر، والمثبت من م.

٩ ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾ (سورة النساء، ٤/٨٩-٩٠).

وقوله: **كيف**، كرره لِما بَعُدَ وليعود الكلام على قوم بأعيانهم، أي كيف يكون لهم عهد عليكم، **وإن يظهروا عليكم**، بمعنى يستظهروا. فقوله: **كيف**، عائد على الأوائل المذكورين قبل الاستثناء وتكرار، إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ،[1] فالأولى حيث كان العهد ولم يُنقَض، والثانية عند المسجد خاصة. وإنما خصص الثانية وإن كانت معلومة من حكم الأُولى بسبب عموم الأُولى، لأن الأولى[2] استثناء من البراءة، والثاني من القتل. فاقرأ وتأملْ لتفهمَ. وقوله: **لا يَرْقُبوا فيكم إِلًّا ولا ذمةً**، الإلّ قيل: هي الرَّحِم. **يرضونكم بأفوٰههم**، حين المعاهدة على الإسلام. فافهمه جيدا. **وتأبى قلوبهم**، ما تقول لهم الأفواه. **وأكثرهم فٰسقون**، لأن منهم من أسلم ولم ينافق فصَدَق في المعاهدة. وعرّفَنا سببَ فسقِهم فقال ما معناه: سبب فسقهم إنهم، **اشتروا بـٔايٰت الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله. إنهم ساء ما كانوا يعملون**.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

ثم كرر القول فيهم بقوله: **لا يرقبون**، فالأول لا يرقبون[3] فيكم أيها المعاهدون لهم إذا ظهروا عليكم، بقوله: عَلَيْكُمْ،[4] والثاني وَصَفَهم أنهم، **لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة**، أي ما عاهدوا ومن لم يعاهد.[5] ولذلك قال بعده: **وأولٰئك هم المعتدون**.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

ثم قال عنهم: **فإن تابوا**، فهم المعاهدون الذين نكثوا عهد الإسلام باطنا أو ظاهرا ولهذا لم يفصِّلهم. وهذه التوبة يريد بها العودة إلى الإسلام. لهذا بعده: **وأقاموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة فإخوٰنكم**، أي فهم إخوانكم، **فى الدين**. ولمّا كانت هذه الآيات تحتاج[6] إلى فهم قال أخيرا: **ونفصل الآيٰت لقوم يعلمون**. وتكرار قوله: **فإن تابوا**، أما الأول[7] فهو حكم تخلية السبيل من جهتهم. والثاني حكم مِن جهتنا أنهم إخواننا إذا تابوا[8] قبل انسلاخ الحُرُم.

---

[1] من الآية السابقة.

[2] ش ك: لأن الأول.

[3] ن: فالأول يرقبون.

[4] ك – بقوله عليكم. | الآية ٨ من هذه السورة.

[5] أي لا يرقبون فيما عاهدوا من الأمور وفيمن لم يعاهدهم.

[6] ك: يحتاج.

[7] أي في الآية ٥ من هذه السورة.

[8] ن: إذ تابوا.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾

وأما بعدها فقد بيّنه: **وإن نكثوا أيمٰنهم**، يُفهم منه إن استمروا على النَّكْث بعد الحرم كما كانوا في الحُرُم، وإن آمنوا ثم نكثوا، **من بعد عهدهم**، الذي عاهدوا عليه الإيمان، ويفهم منه أيَّ عهدٍ كان أعني أولا أو ثانيا. فهذا البيان مطلق، لكنه يشير به إلى مرة ثانية بعد الأُولى. **وطعنوا فى دينكم فقٰتلوا أئمة الكفر**، سماهم[١] أئمة لأن نسلهم يقتدون بهم. **إنهم لا أيمٰن لهم**، الأَولى قراءتها بالفتح،[٢] لأنه لمّا عيّن أنهم أئمة الكفر فلا حاجة إلى[٣] نفي الإيمان، ويكون المعنى لا أيمان لهم عليكم. ثم عرّفنا سبحانه كيف يكون قتالنا لهم فقال: **لعلهم ينتهون**، لنفهم أنهم إن انتهوا وأقاموا[٤] الصلاة وآتوا الزكاة بعد المرتين قُبل منهم، وإن لم ينتهوا فهم كحكم مَن قيل في حقهم: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾.[٥] فتأنَّ لتفهم. وإنما بيّن هذا ههنا في المشركين بعد أن بيّنه في الكفار لئلا نعتقد أنه في الكفار خاصة، أعني من أهل الكتابين وممن سوى المشركين.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾

[١٩١ظ] ثم أخذ سبحانه يحرّض المؤمنين على قتال[٦] الكاذبين / من المعاهدين فقال: **ألا تقٰتلون قوما نكثوا أيمٰنهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم**، بالقتال، **أول مرة**، أي حتى إذا ظهرتم عليهم أرضَوكم بأفواههم حيلةً على السلامة منكم، ولِمَا كان منهم مَن نكث ومنهم من لم يَنكُث، ثم الذي نكث قد يبدأ بالقتال وقد لا يبدأ. فإن نكث ولم يبدأ بالقتال[٧] فلا يجوز لنا أن نقاتله إلا بعد الأشهر الحُرُم. وقوله: **أول مرة**، أي قبل المعاهدة، ثم نكثوا. **أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين**.

١ ك ن: سماه.

٢ قرأ ابن عامر بكسر الهمزة وبعدها ياء ساكنة مدّية [إيمان]، والباقون بفتح الهمزة وبعدها ياء ساكنة غير مدية [أيمان] (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٣٤).

٣ ن – إلى.

٤ ش: أو أقاموا.

٥ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٩٠).

٦ ش: على القتال

٧ ك – وقد لا يبدأ فإن نكث ولم يبدأ بالقتال، صح هـ.

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قُتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، هذا دليل على ما قلناه من أن الملائكة قاتلت بأيدي المؤمنين. ويُخزِهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله علىٰ من يشاء، من المشركين، أي بسبب القتال الذي يُلجئهم إلى الإيمان. والله عليم، بما في صدورهم،[1] حكيم، في أفعاله وأحكامه لكم وعليهم. وعرّفنا على من يشاء أن يتوب وعلامتِه بقوله قبلُ: فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ [فِى ٱلدِّينِ].[2] وقد علمت من أول السورة أن قوله: بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ[3] أن تقديره فنقضوا العهد باطنا بالنفاق الذي ظهر بترك الهجرة وموالاة المشركين وغير ذلك، أو ظاهرا بالارتداد، لأن المعاهدة كانت إسلاما فإذا نكثوا عادت شركا، فإن تابوا عادوا إلى الإسلام. ثم أتى في ضمن ذلك معاهدة المشركين الباقين على شركهم، أعني معاهدة الهُدْنَة[4] والصلح. فأمرَنا الله سبحانه بالبراءة من الجميع والمناداة في أحد الأشهر الحرم ليستعد المؤمنون لقتالهم عند انسلاخ الحُرُم، ولعلهم ينتهون قبل ذلك.

وإذا قرأت الآيات بان أنها ظاهرة مفهومة لك ولغيرك، فلما نظرتَ متأملا أَشكَلَتْ. فلما تأملت متدبرا انحلّت خصوصا بعد نظرك فيما قلناه واتخاذِك له دليلا مضافا إلى ما آتاك الله من جَوْدة ذهنك ورفضِ التقليد لي ولكل قائل. وأرجو أن يكون مَهْدِيًا إلى مراد الله هاديا إليه إن شاء الله تعالى. فمن جملة المراد أن تعبد[5] الله بالاجتهاد المتعلق بالقلب، أعني التفكر والاستنباط الذي هو كسب القلب، لئلا يعود القلب ميتا بل حيا متحركا ليكون إيمانه عن يقين شافٍ. فإنك ممتحَن بذلك كما أنت ممتحَن[6] ظاهرا.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

أم حسبتم أن تتركوا، بغير امتحان. هذا خطاب للمؤمنين، أطلق القول فيه لمن

---

١ ك ن: عليم في صدرهم.

٢ الآية ١١ من هذه السورة.

٣ الآية ١ من هذه السورة.

٤ الهدنة: المصالحة بعد الحرب. وأصل الهدنة: السكون بعد الهَيْج، ويقال للصلح بعد القتال والموادعة بين المسلمين والكفار وبين كل متحاربين (لسان العرب، «هدن»).

٥ ن: أن نعبد.

٦ ش - بذلك كما أنت ممتحن.

ادعى[١] الإيمان ولمن لم يَظهر عنه بالفعل ما يدل على صدق القول. وقوله: **ولمّا**، هي مُؤكِّدة "لَمْ". والمعنى أم حسبتم أن تتركوا على ما أنتم عليه من دعوى الإيمان بالأفواه. **ولما يعلم الله** -تقدم شرحه-[٢] **الذين جٰهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين**، أولياء، **وليجة**، دَخِيلَة. ولو لم يذكر الوليجة أخيرا لدل على وليجة واحدة. ولما أثبتها أخيرا نبأت عما عبر عنه بواو العطف كأنه قال: ولم يتخذوا من دون الله وليجة ولا من دون رسوله وليجة، ولا من دون المؤمنين وليجة. ويريد بذلك مَن يتخذ من دون المؤمنين أولياء من المشركين والكفار سرّا. والوليجة بوزن الخبيئة[٣] من قولك: ولَج يلِج.[٤] ثم قال: **والله خبير بما تعملون**، أي لكنه يريد بالامتحان أن يظهر منكم ما يستحقون عليه الجزاءَ في علمكم لتكون مجازاته لكم عندكم بحق لكونه أقدرَكم على فعل الواجب وضده ففعلتم ضده. فلا يظهر منكم إلا ما عَلِمه منكم قبل الفعل وقبلَ الْقَبْل فيما لم يزل. لكن ليس على الله بما سيكون سببا لكون ما يكون على ما يكون، بل سببه سوء اختياركم وقد علمه الله، فالعلم يتّبع[٥] المعلوم ولا يغيّره. فعائد العلم على العالِم لا[٦] على العامل، كما أن عائد العمل على العامل[٧] لا على العالِم. فافهم ذلك لتَخلُص من بحر غَرِق فيه ما شاء الله تعالى.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ١٧﴾

ما كان للمشركين أن يعمروا مسٰجد الله، يريد ما عَمَره المنافقون المذكورون. فافهم كيف سماهم مشركين، فالمشركون لا يَعمُرون مسجدا بل المنافقون منهم عادوا بعمارتهم، **شٰهدين علىٰ أنفسهم بالكفر. أولٰئك حبطت أعمٰلهم**، في الدارَيْن. ودل على الآخرة / بقوله: **وفى النار هم خٰلدون**. [١٩٢و]

١ ن: لمن دعى.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، ١٤٢/٣).

٣ ش: الجنينة؛ ك: الخبية.

٤ الوليجة بِطانة الرجل وخَاصَّتُه ودِخْلَتُه، وهي مأخوذة من وَلَج يلِج وُلُوجا وَلِجَةً إذا دخل (لسان العرب، «ولج»).

٥ جميع النسخ: تتبع.

٦ ش ك: إلا.

٧ ش - كما أن عائد العمل على العامل، صح هـ.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى
ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨ ۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ
ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ
وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠
يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ
وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ
وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي
ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾

قل إن كان ءاباؤكم وأبناؤكم وإخوٰنكم وأزوٰجكم وعشيرتكم وأموٰل اقترفتموها، اقتطعتموها، وهذا اللفظ يقال على مُقترِف الإثم؛ وتجْرةٌ تخشون كسادها ومسٰكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتىٰ يأتى الله بأمره. والله لا يهدى القوم الفٰسقين.

﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ
فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥﴾

لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت، أي بقدر ما رحبت ونفسَها.[1] **ثم وليتم مدبرين.**

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا
وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦﴾

---

١ أي ومع نفسها.

ثم أنزل الله سكينته علىٰ رسوله وعلى المؤمنين؛ وقوله: وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا، في يوم حُنَيْنٍ دليل[1] على أنهم لم يروا الملائكة بلا شك. وعرّفنا هناك أن نزول الملائكة إنما كان للمؤمنين بُشْرَى، وههنا كذلك. وفيه إشعارٌ أنه ليعذب به الكفار. وذٰلك جزاء الكٰفرين، في ذلك الوقت.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾

يٰأيها الذين ءامنوا إنما المشركون نجس، يريد -بعد إشعارنا بأنهم لا يتطهرون من نَجَس كالجنابة وغيرها- أنهم هم في أنفسهم باطنا من جهة اتصافهم بالشرك في ذواتهم نَجِسٌ. فإن النجس بكسر الجيم متصِف بالنَّجَس، [و]بفتحها الذي هو اسم للنجاسة. فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هٰذا. وإن خفتم عَيْلَةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء. إن الله عليم حكيم.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾

قٰتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، سمّاهم بصفتهم وكذّبهم[2] في دعواهم بكونه سماهم بذلك، والله أصدق القائلين. ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، وهو الإسلام. ويحتمل ولا يحكمون بحكم الحق. ثم قال: من الذين أوتوا الكتٰب حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صٰغرون. سميت جزية مشتقة من الجزاء. كأن الله تعالى عاقبهم بأخذها جزاءً على كفرهم في الدنيا، وجَعَلها جزاء لنا منهم على كفِّ القاتل عنهم. واليدُ القهر، يقال: صاحب يدٍ، أي جاهٍ وقوة وقهر. ولما قال بعده: وهم صٰغرون، نفى أن يكون اليد لهم. ودل أنها أبدا أبدا عليهم للمؤمنين.

[1] ش ن: ودليل.

[2] جميع النسخ: كذبهم، والمثبت من م.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾

ولمّا ذمّ اليهود والنصارى وصفهم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وكان هذا الوصف لازما لهم من جهة تكذيبهم للنبي محمد عليه السلام ولِمَا جاء به لا لأنهم يدّعون ذلك [و]وَصَفَهم أيضا بما يلزم عن أفعالهم وعقائدهم من مشابهة أقوال المشركين. فذكر اليهود بمثل ما ذكر به النصارى من اتخاذ الابن، وذكر أن أقوالهم تشبه[1] أقوال مَن قبلهم من المشركين المذكورين في الآيات ههنا وغيرِهم ممن تقدم قبلُ. وقال أخيرا عن الجميع: وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ،[2] لأن اليهود في طاعة عزير كالنصارى في طاعة المسيح بزعمهم. وذلك لِما يئول إليه الحال من العبادة التي هي الطاعة. وكذلك الفريقان كالمشركين لِما يئول إليه الحال من عبادة غير الله. وقوله: بأفوٰههم، ليس المراد أن اليهود[3] يقولون ذلك بعينه بالأفواه وإن كان النصارى يقولونه[4] بالأفواه.[5] بل المراد أن اليهود والنصارى يقولون أقوالا من الكذب ليست في حقيقة الأمر كذلك بل كما يقال بالأفواه فقط. ولهذا بعده: يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ.[6] هذا وقد
[١٩٢ظ] / علمت أن نور الله لا يُطفَأ بالأفواه، ولكنهم لمّا كان غاية تكذيبهم لِما جاء به الرسول يلزم عنه ما هذا معناه عبّر عنه بهذه العبارة. وكذلك عبر عن اليهود مماثَلَةً بما عبر به عن النصارى حقيقةً، وعبر عن الطائفتين مُمَاثِلَةً بما عبّر به عن المشركين حقيقة. فعاد الكل من قَبيل واحدٍ للمشابهة في حالة واحدة، لا لأنهم بالحقيقة مشركون من كل الوجوه. ولهذا قال منبها على الغاية من اتخاذ الابن وهو العبادة: ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ؛ ثم عَيَّن أحد الطائفتين بقوله: وَٱلْمَسِيحَ،[7] ولم يقل: والعُزَيْر ليدل على أن قول[8] اليهود: عزير ابن الله، هو من قبيل الاتخاذ للأحبار،[9] إذ غاية ذلك هي العبادة، ولهذا خصص بالأفواه بعد ذكر النصارى. فإن أعيد على اليهود أيضا جاز ذلك، لكن بطريق التأويل وما يَنْتِج عن الغاية. فتأمل جيدا وافهم قوله:

---

١ ك ن – أن أقوالهم تشبه.
٢ الآية ٣٣ من هذه السورة.
٣ ن – لما يؤول إليه الحال من عبادة غير الله وقوله بأفواههم ليس المراد أن اليهود.
٤ ش – وإن كان النصارى يقولونه، صح هـ.
٥ ش – بالأفواه.
٦ الآية ٣٢ من هذه السورة.
٧ من الآية التالية.
٨ ش: أن قوله.
٩ ش ك: للأخبار.

وقالت اليهود عزير ابن الله، فهو بمعنى وادّعت ما هذا معناه وغايته وإن لم يكن ذلك صورةَ لفظهم بل معناه، كما تقول: هذه مقالة الرافضة، تريد ما يشتمل على عقيدتهم ويئول إليه مذهبهم. وقالت النصٰرى المسيح ابن الله. ثم قال عن النصارى فقط: ذٰلك قولهم بأفوٰههم يضٰهئون، يشابهون، قول الذين كفروا من قبل، أي اليهود. فهم الذين كفروا قبل النصارى، إذ قالوا: عزير ابن الله، لأن اليهود في الذكر ههنا قبل النصارى، وفي[1] الزمان كذلك.[2] ولهذا لم يقل: يضاهئون قول الذين أشركوا، وإن جاز أن يكون المراد بقوله: من قبل، أي قبل اليهود والنصارى من المشركين، لكن ما قلناه أولى باللفظ. فقد علمت أن الإشارة بقول اليهود ليس بالأفواه بل بدَتْ منهم أفعالٌ هي أفصح من الأقوال وأدلّ. وإنما خصَّص عزيرا،[3] لأنه عظيم عندهم، واسمه عَزْرَة الكاتب، وهو الذي كَتب لهم التوراة بعد ما كانت دَرَستْ، فأخذها من أوراق متفرقة ومن أفواه العُمْيان، وجمع منها ما جمعه بعد ما ذهب[4] منها ما ذهب. وكان التبديل فيها من ذلك اليوم والاختلاف منه ومن بعده. وذلك عقيب ما جلاهم بُخْتَنَصَّر.[5] فلمّا كان عزير بمنزلة مَن أنشأ لهم الدينَ وأطاعوه كطاعتهم لله كان عندهم في حقيقة الأمر معبودا، إذ العبادة هي الطاعة. فسماهم الله بما ظهر من أوصافهم وأحوالهم معه كما سمى النصارى والمشركين. قٰتلهم الله أنىٰ يُؤْفَكُونَ، ومن قاتله الله قتله الله.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

وفسر جميع ما تقدم بقوله بعده: اتخذوا أحبارهم، فهذا دليل ما شرحناه وبيناه. بل المراد من اللفظ: وسائرُ اليهود هم الآن كذلك، لا أن القول: طائفةٌ من اليهود كانت وانقرضت، كما يزعمون أو كما يجحدون. بل اليهود جميعهم والماضون والآتون ما منهم من أحد إلا وهو قائلُ ذلك لا بِفِيه بل بما هو أفصحُ من المقال بفيه،

[1] ش ك: النصارى في
[2] ك ن + كذلك.
[3] جميع النسخ: عزير.
[4] ن: ما ذهبت.
[5] بخْتَنَصَّر: الاسم الذي أطلقه مؤرخو العرب على الملك نابو شانزار الثاني ملك بابل. خلف بختصر أباه نابوبولازر عام ٦٠٥ ق. م. وتابع خِطّة التوسع الإقليمي واشتهر خاصة بحروب الابادة التي شنّها على اليهود، فاستولى على أروشليم/بيت المقدس عام ٥٩٧ ق. م. (القاموس الإسلامي لأحمد عطية الله، «بختنصر»).

إذ لسان الحال أفصح من لسان المقال. ولا شك أن "الاتخاذ" أبلغ من "القول"، فعبر عن الأكثر وهو الأخذ بالأقل وهو القول.[1] ثم بيّنه بقوله: **اتخذوا أحبارهم ورهبٰنهم أربابا من دون الله**. ثم قال: **والمسيح ابن مريم**، فهو اختصاص النصارى. وبين بقوله: **وما أُمروا إلا ليعبدوا إلٰها وٰحدا لا إلٰه إلا هو سبحٰنه عما يشركون**، أنهم بهذه الصورة مشركون وإن لم يكونوا مشركين. ولهذا قال بعد قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾،[2] أي من أهل الكتاب، ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾،[3] إشارة إلى من سوى المؤمنين. فافهمه في موضعه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وبيّن ما شرحناه: **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفوٰهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكٰفرون**. وهذا[4] من أدل دليل لمن فَقِه من اليهود والنصارى على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. وقوله: **بأفوٰههم**، أي بما يقولونه من الكذب من أن هذا القرآن مفترًى، فهذا هو المراد به للإطفاء. ونور الله هو القرآن.

ولهذا بعده: **هو الذى أرسل رسوله بالهدٰى ودين الحق**، أي وبدين الحق الذي هو الإسلام. وقوله: **ليظهره**، كقوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾،[5] أي غالبين، / وهو من الاستظهار [١٩٣و]
والاستعلاء. والهاء في [قوله:] **ليظهره**، ضميرُ، **دين الحق**. وقوله: **على الدين كلّه**، لفظة جنسٍ تَعمُّ الأديان. ولهذا قال: **كله**، وتقديره ليُظهر دين الحق على كل دين. **ولو كره المشركون**، إشارة إلى أن الجميع من أهل كل دين هم مشركون، لأن عاقبة الكل إلى النار.

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾﴾

ولهذا كرّر ذكر الأحبار والرهبان ووصفهم بقوله معرّفا للمؤمنين: **يٰأيها الذين ءامنوا**

---

١ أي في الآية السابقة: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾.

٢ من الآية التالية.

٣ ن – ولهذا قال بعد قوله ولو كره الكفرون أي من أهل الكتاب ولو كره المشركون. | الآية ٣٣ من هذه السورة.

٤ ك ن: ولهذا.

٥ ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ (سورة الصف، ٦١/١٤).

إن كثيرا من الأحبار والرهبان، الذين اتُّخِذوا أربابا وغيرهم ممن ليس بقدوة. **ليأكلون أمٰوٰل الناس بالبٰطل ويصدون عن سبيل الله**، أي من يريد الإيمان بما يُضلونه به من أكاذيبهم كما صدّ غيرُهم بالقتال. ولمّا ذكر هؤلاء الذين يأكلون الرُّشا من اليهود والنصارى، ويأكلون أموال الناس بالباطل من العقائد والكلام والمعاملات بالمكر وغير ذلك وصفهم ووصف معهم مَن يُشبههم من سائر الناس فقال: **والذين يكنزون الذهب والفضة**، أراد كنوزا لا كنزا،[1] لهذا لم يقل: ولا ينفقونهما. [بل] قال: **ولا ينفقونها**. وقوله: **فى سبيل الله**، لأنهم قد يُنفقونها في غير سبيل الله. وهذا يعم كلَّ كنّاز[2] لا ينفق ما كَنَزَه في سبيل الله. **فبشرهم**، أي الآن، **بعذاب أليم**، يُعذَّبون به.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يومَ، في يوم، **يحمىٰ عليها**، بالنار الحامية، **فى نار جهنم فتكوىٰ بها**، أي بالكنوز. وقوله من قبل: وَلَا يُنفِقُونَهَا،[3] هو تنبيه لمن لو ملك كنوزا أن الغاية هو أن يُنفقها في سبيل الله لا أن يَكنِزها. وقوله: **جباههم**، لأنها أول ما يَلقَون بها السائلَ، **وجنوبهم**، لأنهم يميلون عنه جانبا، **وظهورهم**، لأنهم بعد ذلك يُولُّون مدبِرين عن سائلهم. ولهذا بعده: **هٰذا ما كنزتم لأنفسكم**، ولو كنزوه لله لأثابهم عليه، **فذوقوا**، جزاءَ، **ما كنتم تكنزون**.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ثم أتبع ذلك بذكر بعض أوصاف الكفار والمشركين تنبيها للمؤمنين وتحقيقا لِما قدّمه في أن المشركين نَجَس، ولِمَا أخره من ذكر وجوب القتال لهم على المؤمنين كما سيأتي فقال ما معناه: إن جملة مَخازيهم[4] وكفرهم وضلالِهم هذا هو: **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتٰب الله**، يريد بالكتاب العلم الذي لم يزل في الأزل.[5]

---

[1] ن: لا كنز.

[2] الكَنّاز هو المبالغ في كنز الذهب والفضة وادّخارهما وتركِ إنفاقهما في أبواب البرّ (لسان العرب، «كنز»).

[3] من الآية السابقة.

[4] ن: مخاربهم.

[5] ك ن: في الأول.

وعبر بالكتاب تمثيلا ومناسَبة ليَفهمَ أولوا[1] الألباب بما ألفوه وبما اعتادوه[2] في التخاطب بينهم، وهو كقوله: إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَا.[3] وهذا الوجود هو على ما في الكتاب وهو[4] الكتاب المبين لنا، فاعرفه. ولهذا قال: يوم خلق السمٰوٰت والأرض، يريد من حيث الخِلقةُ أوّلا جعل الأمر في العدة كذلك بما في السماوات من الشمس والقمر، إذ الشمس تُقسِّم الأيام والسنين،[5] والقمر يُقسِّم الليالي والشهور. وفي هذه[6] آية بينة [في] أن العِدَّة عند الذي خلق إنما هي اثنا[7] عشر شهرا. وقوله: منها أربعة حرم ذٰلك الدين القيم، أي لا ما[8] يفترونه الكفار والمشركون. وأشار بالحُرُم إلى أشهر مشهورات، ولاشتهارها عندهم استغنى عن تعيينها كما استغنى عن تعيين أسماء بقية الشهور إلا البعض، كقوله: شَهۡرُ رَمَضَانَ[9] لِما خُصَّ به من نزول القرآن. وقوله: فلا تظلموا فيهن أنفسكم، أي بقتال لِما علمه سبحانه من المصلحة في الكفّ عن القتال في هذه الأشهر، إذ سَوْرة الغضب والحمية تنكسر بطول المدة إلى هذا الأجل. وربما وقع صلحٌ أو استبان رُشدٌ أو مات مُفْتِن وغير ذلك. وقوله: وقٰتلوا المشركين كافة، أي في الأشهر الحُرُم، وهذا الأمر بالقتال في الحُرُم إنما هو إذا بدءونا كما بينا في سورة البقرة.[10] ونفس هذا الأمر يلزم منه ومن قوله قبله: فلا تظلموا فيهن أنفسكم، أن لا نقاتل من لم يقاتلنا لما تقدم في بقية الآيات ما دل على ما قلناه. وقوله: كافةً، أي كافة المشركين مَن عاهد ومن لم يعاهد إن بدأ بالقتال، ودليل ذلك قوله: كما يقٰتلونكم كافة، أي بكافّتهم. فلفظة "كافة" في الموضعين عائدة عليهم. ولهذا زالت المناقضة بين هذه الآية وبين قوله: وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً.[11] وبين ههنا بقوله: كما يقٰتلونكم، أنهم هم الذين بدءوا بقتالنا، وأننا لا يجوز لنا أن نقاتلهم إلا بعد ما وقع ما يقع عليه كاف التشبيه / منهم، [١٩٣ظ] فافهم. واعلموا أن الله مع المتقين.

١ ك ن: أولي.

٢ ك ن: وبما اعتدوه.

٣ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ (سورة الحديد، ٢٢/٥٧).

٤ ك – الكتاب وهو، صح هـ.

٥ ك ن – والسنين.

٦ جميع النسخ: هذا، والمثبت من م.

٧ ش ن: اثني.

٨ ن – ما.

٩ ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ (سورة البقرة، ١٨٥/٢).

١٠ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: سورة البقرة، ١٩٠/٢-١٩٤.

١١ الآية ١٢٢ من هذه السورة.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾

إنما النسيء، تقديره: الذي يفعلونه، وهو التأخير والترك وهو كقوله: مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا؛[1] ونسأت الإبل عن الحوض أخرتها. وكانت[2] العرب تؤخر شهرا من الأشهر الحُرُم فتُحِلّ القتالَ فيه فتجعل عِوضَه غيره، لأن عِيشتهم كانت من الغارات؛ فيجعلون المحرَّم مكان صَفَرَ؛ فيحلوا ما حرم الله في المحرم. ففي بعض الأعوام يفعلون ذلك وفي بعضها يستمرون على ما هو كالتحريم المشروع. فهذا معنى [قوله:] يُحلّونه عاما ويحرمونه عاما. وليس مراد الآية أنهم مستمرّون على حالة واحدة في التحريم والتحليل، بل تارة يُحلون القتال في عامين وأكثر وأقلّ، فنهى الله المؤمنين عن ذلك.

[عادة النسيء في اليهود والعرب]

ولما كان هذا من فعل الكفار -ولفظة الكفر تُستعمَل على كل كافر- دخل في ذلك ما يفعل اليهود الآن. فإن لهم في كل ثلاثِ سنين زيادةً بحيث إن السَّنة قد تأتي عندهم اثني عشر شهرا، وقد تأتي ثلاثةَ عشرَ شهرا ليستقيم لهم حسابٌ وضعه لهم علماؤهم، لئلا يتغير عليهم فصولُ سنتهم. ولم يأت في التوراة لذلك أصلٌ، بل ضلوا في تسمية شهر من الأشهر سماه الله لهم في التوراة بلغة القبط؛[3] إذ كانوا بين القبط في مصر واسم الشهر "أَبِيب"، فقال عند خروجهم من مصر: اليوم أنتم خارجون في شهر "أَبِيب"،[4] فضلّ سائر مفسري التوراة في هذا الاسم وفسروه شهر الفَرِيك.[5] فألجأهم ذلك التفسيرُ إلى أن خرجوا عن الأهلة. فلمّا وجدوا أيام السنة القمرية ثلاثمائةٍ وستين وأربعةً وخمسين يوما، وأيامَ السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستين يوما،

---

[1] ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ (سورة البقرة، ١٠٦/٢).

[2] ن: وكان.

[3] القبط جمعه الأقباط. الأقباط: أبناء مصر المتحدّرون من أصول تَرقَى إلى ما قبل الفتح الإسلامي. وهم نصارى تابعون للكنيسة القبطية. والأقباط يشكّلون اليوم نحوا من سبعة في المائة من مجموع المصريين (المورد لمنير البعلبكي، «الأقباط»).

[4] التوراة، الخُرُوج ٤/١٣. وانظر أيضا: الخُرُوج ١٥/٢٣، ١٨/٣٤، والتَّثْنِيَة ١/١٧.

[5] يعني نيسان.

وبينهما أحدَ عشرَ يوما كَبَسوا[1] في كل ثلاث سنين شهرا وجعلوا شهور سنتهم تلك ثلاثة عشر شهرا. ويحتمل أن العرب تَشبَّهَتْ باليهود في مثل ذلك. ولقد كان اليهود بأسرهم في زمن موسى عليه السلام ينظرون إلى الأهلة ثم تركوا ذلك، وجعلوا لهم شيئا كالتقويم يقال له بلسانهم: عبّور.[2] وكل ما فرضه الله عليهم من الأعياد ومواسم الذكر والعبادات في شهر معلوم في التوراة اختلّ لزيادة ما زادوه في بعض السنين فصار الموسم يأتي في شهر يكون ذلك الشهر قد تقدم أو تأخر عما أراد الله في التوراة بسبب تلك الزيادة، فبطلت أعيادهم وأصوامهم الموضوعة لهم نصا. وأحلّوا ما حرم الله عليهم من المعايش في مواسمهم وأعيادهم بسوء اعتقادهم وخروجهم بتلك الزيادة عن أعيادهم، ويحسبون أنهم مهتدون عاملون بما جاء في التوراة. فهذا زبدة ما قصدناه بالتطويل في هذا الكلام، فما أَوْلاهم بهذه الآية وإن كانت في حق غيرهم.

فأما العرب فكان يقع شتاؤهم في جُمادَي الأولى والآخرة وصيفُهم في رمضان وشوال، وسمي رمضان لشدة الحر فيه. والدليل على أنهم اتبعوا اليهود قوله[3] مطلقا: **إنما النسىء زيادة فى الكفر**. ثم قال: **يُضَلّ به الذين كفروا**، وشَرَح حال اليهود بعده كما تراه بنفس المماثلة من فعلهم وإن كان المراد ما جاء به المشركون. والمعنى فلا تكونوا أيها المؤمنون مثلهم إذا اتبعتم، إذ المشركون من العرب، **يُحلّونه عاما ويحرمونه عاما**، أي في عام، والمعنى يحلون النسئ. وإنما فعلوا ذلك، **ليواطئوا**، لام العاقبة، والمواطأة الموافقة، أي ليوافق بعضهم بعضا على الكَذِب كموافقة اليهود للمشركين، **عِدّةَ ما حرم الله**، هذا وصف اليهود من كونهم يُحلّون في أشهرهم حُراما كما أحل العرب من القتال في شهر حرامٍ، **فيحلوا ما حرم الله**. كما قيل: إنهم كانوا يجعلون المحرّم صفرا، وصفرا موضع المحرم. والغرض من القول عائد على قوله تعالى: **إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا**،[4] وهذا يدل على فعل اليهود من زيادة العِدّة، ومثله فعل المشركين، لأنه متى صار المحرم من السنة الآتية سِلْخَ أشهر السنة الماضية وجعلوا صفرا هو المحرمَ فقد أحلّوا ما حرم الله فيما قبله.

---

[1] كَبَس السَّنةَ بيوم: زاده فيها يوما. السنة الكبيسة من السنين الشمسية التي يراد فيها يوم على شهر شباط فيصير ٢٩ يوما، وذلك في كل أربع سنوات (المنجد لِلُوِيس المَعْلُوف، «كبس»).

[2] انظر مثلا: التوراة، يَشُوع ١٧/٣، ١/٤، ٧، ١١.

[3] ن: وقوله.

[4] الآية السابقة.

وقد جعلوا ما جعله الله من الأشهر محرما غير محرم، فأحلوا ما حرم الله / بلا شك. [١٩٤و]
زُيّن لهم سوء أعمٰلهم والله لا يهدى القوم الكٰفرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾

يٰأيها الذين ءامنوا ما لكم، قوله: إذا قيل، يريد كل قائل، لكم انفروا فى سبيل الله، وقوله: اثاقلتم إلى الأرض، يريد الأرض التي أنتم بها مقيمون بغير قتال. أرضيتم بالحيوٰة الدنيا، بدلا، من الآخرة. فما متٰع، مدة يُتمتَّع بها ولذة، الحيوٰة الدنيا، بالنسبة إلى اللذة التي، فى الآخرة، ومدتِها، إلا قليل.

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾

إلا، إن لا، تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا، من ضرر، وهو أدنى في ما يقع عليه التسمية. والله علىٰ كل شىء قدير، قَابَلَ[١] غاية العجز منهم بغاية القدرة منه سبحانه. والهاء في قوله: تضروه، عائدة على الرسول عليه السلام، لأن العرب تُضمر المسمى إذا كانت على ثقة مِن فهم السامع لِما أضمرته.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾

ودليل ما قلناه قوله تعالى بعده: إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصٰحبه لا تحزن إن الله معنا. إذا أراد المنعِم أن يمدح نعمته على المنعَم عليه ذكر له حاله قبل النعمة، ثم ذكر حاله بعدها. فذكر الله ما يدل على غاية الضعف والقهر، ثم أتبعه بما يدل على غاية القوة والنصر.[٢]

---

١ ك ن: قائل.

٢ ن: القوة النصر.

إذ لا أضعفَ ممن كذبه قومه وأخرجوه وأرادوا إعدامَه، فلم يَخرج معه منهم كلِّهم سوى واحد، فهربا ودخلا في غار. **فأنزل الله سكينته عليه**، حتى كأنه في مأمنه ساكنَ الرُّوعِ. ولهذا قال لصاحبه: **لا تحزن**، ولم يقل له: لا تخف، فلو خاف لما تبعه. ولا يلزم من نهيه عن الحزن أن أبا بكر كان قد حَزِن، بل كقوله تعالى: فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ.[1] **وأيده بجنود لم تروها**، يوم حُنَيْنٍ ومثله في ذلك اليوم. **وجعل كلمة الذين كفروا السفلىٰ، وكلمة الله هي العليا**، أي أبدًا، ولهذا جاءت مرفوعة لأنها ليست مجعولة.[2]

وأما قول مَن قال: إن قوله تعالى: **إذ يقول لصٰحبه**، لا يدل ذلك على مدح في غير هذا الموضع، وإنما كان المقصود ههنا ذكر الرسول عليه السلام، وإنه ابتدأ من ضعف وصار إلى قوة، ولم يكن معه سوى واحد، وأيده الله بملائكته ثم بالمؤمنين من خلقه. [الجواب:] جاء ذكر ذلك الواحد مع الممدوح من أبلغ المدح. وناهيك[3] برجل هجر الورى وكان مع الله ورسوله، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إن الله معنا**؛ وتقدير الكلام: لا تحزن من هذه الواقعة لكونك لم تجد الآن ناصرا لدين الله، **إن الله معنا**،[4] معي ومعك، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ.[5] فسيرجع[6] الأمر إليّ ثم إليك، ويؤمن ما شاء الله ويَظهر دين الله. وكذلك جرى، إذ عاد الأمر إلى رسول الله عليه السلام ثم إلى أبي بكر بعده، وإلى الله ترجع الأمور،[7] بأيدي رسله وأوليائه. وقوله أيضا: **إن الله معنا**، يدل على تقوى أبي بكر وإحسانه، لقوله تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ.[8]

وأما من قال: إن قوله:[9] **إن الله معنا**، على وجه التهديد فظاهر البطلان. وليست هذه العبارة دالة على ذلك، لأن ذلك تُناقض قوله قبلُ: **لا تحزن**، فإن ذلك موجب للحزن إذا كان تهديدا. ويكفيك مدحا لأبي بكر أن غيره من الصحابة رضي الله عنهم لم يأت ذكرُه صريحا في القرآن كما جاء ذكر هذا الصدّيق الذي ذكره الله سبحانه ووصفه بالمفهوم من الواقعة بما يدل على صفات وأيِّ صفات من الخير:[10] من صحبة

---

١ سورة القلم، ٦٨/٨.

٢ ش – مجعولة، صح هـ.

٣ ناهيك: كافيك (لسان العرب، «نهي»).

٤ ن – معنا.

٥ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (سورة هود، ١١/١٢٣).

٦ ك ن: فيسترجع.

٧ هذه العبارة وردت في آيات عديدة، منها ما ذُكر في سورة البقرة، ٢/٢١٠؛ وسورة آل عمران، ٣/١٠٩؛ وسورة الأنفال، ٨/٤٤.

٨ سورة النحل، ١٦/١٢٨.

٩ ن – إن قوله.

١٠ ن: من الخبر.

وتصديق، وموالاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واتباعٍ وإيمان به، وإيثار له بنفسه وماله، فهذا ما يحقق قوة إيمانه. **والله عزيز حكيم.**

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤١﴾

انفروا خفافا وثقالا، تقول: ويثقل علي السفرُ في هذه المرة مع فلان. ولمّا قال: ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ،[1] دل أن الثقيل غير المتثاقل. وإذا أمر الثقيل أن يَنفر فكيف لا يأمر المتثاقل خصوصا وقد أمر الخفيف. ويريد بالخفيف ههنا مَن خفت عليه الحركة في الجهاد، وكذلك من ثقلت ولو بأي سبب من الأسباب. وأما من لا يمكنه الحركة فليس الإشارة بالقول إليه. **وجٰهدوا بأموٰلكم وأنفسكم فى سبيل الله. ذٰلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**، صحةَ الجزاء.

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢﴾

لو كان، المدعوّ إليه بالنفير **عرضا**، من أعراض / الدنيا كالغنائم وغيرها، **قريبا** [١٩٤ظ]
وسفرا قاصدا، من قوله: وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ.[2] والاقتصاد الوقوف مع ما يقنع من الشيء وهو أقله، **لاتبعوك ولٰكن بعدت عليهم الشقة**، هي قطعة من الأرض يَشُق[3] سلوكُها فكأنها قطعة شُقّت من الشيء. **وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم**، بالأيمان الكاذبة. **والله يعلم إنهم لكٰذبون.**

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٤٣﴾
﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤٤﴾

لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجٰهدوا بأموٰلهم وأنفسهم. والله عليم بالمتقين. المعنى أنه لا يستأذنك هؤلاء في أنهم يجاهدون، أي لا يقولون: عن إذنك

[1] الآية ٣٨ من هذه السورة.
[2] سورة لقمان، ١٩/٣١.
[3] ن: بشق.

نخرج[1] إلى الجهاد ولنا[2] عذر وهو كيت وكيت، مما تثاقلوا[3] به عن الخروج كَذِبا، لأنهم إنما[4] سألوا إذنا بالخروج نفاقا، وذكروا عذرا كاذبا ليأذن لهم في القعود فيعودَ قعودهم بإذن لئلا يبقى عليهم حرجٌ أو جناح. والمعنى أنه لا يجوز لهم هذا السؤال والاستئذان بل يخرجون بغير سؤال. وإذا كان الاستئذان في الخروج مذموما فكيف في القعود. وليس المقصود بقوله: **أن يجُهدوا**، أن لا يجاهدوا كما قيل، لأن القسمة ههنا تعطي أربعة من المستأذنين. أحدهم استأذنوا في الخروج ولم يُعِدّوا عُدّة مع القدرة. وقسم استأذن في القعود مع القدرة. وقسمان بالعكس، أعني مع العجز. فلزم أن يكون الأوائل قسما من هذه الأربعة بخلاف من بقي.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

ولهذا بعده: **إنما يستئذنك**، أي في الخروج، **الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون**. فالتردد ههنا يدل على أنهم إنما استأذنوا في الخروج، ولكن استئذانَ مَن لم يكن[5] في نفسه جهاد.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ولهذا قال بعده: **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة**، دل على أنهم أظهروا إرادة الخروج لا إرادةَ القعود، فافهم. ولكنهم لما لم يُعِدّوا له عُدّة مع القدرة كان[6] هذا من جملة ما اعتذروا به، فتثاقلوا وقالوا ما دل على أن أفعالهم[7] بضد الأقوال. فقال تعالى مخبرا عنهم، إنه قال فيهم على ذلك بقوله: **ولٰكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القُعدين**، عن عذر صادق، وهذا قول غضبٍ وحَرْدٍ عليهم. فاعلم أن هؤلاء استأذنوا في الخروج وأظهروا إرادته نفاقا منهم. فكذبهم الله بقوله: **ولو أرادوا الخروج**، أي كما يزعمون، **لأعدّوا له عدة**، وهذا كقوله في أمثالهم: وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ

---

١ ن: تخرج.
٢ ن: إلى الجهاد دون.
٣ ن: مما تاقلوا.
٤ ك ن – إنما.
٥ ن: لم يكف.
٦ جميع النسخ: وكان.
٧ ن: أن فعالهم.

لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ، فكذبهم الله فيما أظهروه وبيّن ما أبطنوه بقوله:[١] قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ،[٢] كما بيناه.

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

وإنما ثبّط الله هؤلاء لعلمه منهم أنهم، **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا**، اضطرابا، **ولأوضعوا خلٰلكم**، مشتق من أوضع يوضع إيضاعا وهو من تعدية قولك: وضع البعيرُ وضعا إذا أسرع. وخلال الشيء فُرجةٌ فيه. والمعنى أنهم، **لو خرجوا فيكم ما زادوكم**، خيرا ولا نصرا، **إلا خبالا**، اضطرابا، ولأدخلوا ركائبهم في خلال[٣] الصنوف[٤] يتحدثون في كل موضع بحديث يُخيف السامعين له ويُوهِنُهم ويُضعف قلوبهم عن لقاء العدوّ. ولهذا قال: **يبغونكم**، أي فعلوا ذلك يطلبون لكم، **الفتنة**، بذلك الكلام. ولهذا بعده: **وفيكم سمّٰعون لهم. والله عليم بالظّٰلمين**، من القائلين والسامعين.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ثم قال ما معناه: ولا تحسب أن هذا وصفهم عند الخروج بل،[٥] **لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور**، أي جعلوا الحق باطلا والصدقَ كذبا والكذب منهم صدقا، **حتىٰ جاء الحق وظهر أمر الله**، بالنصر للمؤمنين، **وهم كٰرهون**. الكلام عامّ للكفار والمراد به المنافقون الذين استأذنوا في الخروج[٦] ليؤذن لهم في القعود بسبب ما قلّبوا من كلامهم واعتذروا بالكذب.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

ومنهم من يقول ائذن لى، في القعود،[٧] **ولا تفتنّى**، أي ولا تقل لي: اقعد[٨] فتنة لي وعقابا،

---

[١] ن - بقوله.
[٢] سورة النور، ٢٤/٥٣.
[٣] ك ن: في خلاف.
[٤] ك: الصعوف.
[٥] ش ك - بل.
[٦] جميع النسخ: الخروج، والمثبت من م.
[٧] ن - في القعود.
[٨] جميع النسخ: ذلك، والمثبت من م.

فتفتني[1] بقولك لي: اقعد. ثم أخبر الله تعالى بقوله: **ألا في الفتنة سقطوا**، أي بهذا القول بعينه سقطوا في الدنيا في الفتنة. **وإن جهنم لمحيطة بالكفرين**، في الأخرى.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾

إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة، ولم يقل: سيئة، لأنها عندهم سيئة[2]
[١٩٥و] / وليست بسيئة في نفس الأمر كما سيأتي بيانه. **يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل**، أي ما أصلح[3] أمرنا[4] وشأننا، إذ لم نخرج[5] مع الرسول إلى الجهاد. **ويتولوا وهم فرحون**، بما جرى على المؤمنين مما ظنوا أنه سيئة ومصيبة رديئة.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

فبين الله تعالى لرسوله عليه السلام بقوله: **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**، ما يتعلق بالمذكورين وبأمثالهم ممن يظن ذلك إلى يوم القيامة. فافقه كيف لم يقل: علينا، فهذا يدل على خير لا شر، إذ الخير للمؤمن والشر على الكافر، كقوله: لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ.[6] **هو مولىٰنا وعلى الله فليتوكل المؤمنون**.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

وبيّن ذلك بقوله: **قل هل تربصون**، تَتَوَقَّعون أن يَحُلَّ، **بنا إلا إحدى الحسنيين**، إما دنيا بالنصر وإما أخرى[7] بالجنة. **ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا**، أضاف المنافقين في الخطاب إلى بقية الكفار. **فتربصوا إنا معكم متربصون**.

---

[1] جميع النسخ: أي، والمثبت من م.
[2] م - لي.
[3] ش - لأنها عندهم سيئة.
[4] جميع النسخ: صلح، والمثبت من م.
[5] ك ن: إذ لم تخرج.
[6] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٨٦).
[7] ش: وإما آخرة.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٥٣﴾

قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فٰسقين، هذا الخطاب للمنافقين الذين يُنفقون بعد تخلُّفِهم.[١]

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ۝٥٤﴾

وما منعهم أن تقبل منهم نفقٰتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله، بعد إظهار الإسلام فنافقوا. ولا يأتون الصلوٰة إلا وهم كسالىٰ، حيث كان الكسل في الإتيانٰ إلى الصلاة فهناك صفة من صفات المنافقين. ومن أحب المخدوم أحب الخدمة. ولا ينفقون إلا وهم كٰرهون.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۝٥٥﴾

فلا تعجبك أموٰلهم ولا أولٰدهم إنما يريد الله ليعذبهم بها، بجمع الأموال وتربية الأولاد، فى الحيوٰة الدنيا وتزهق، تضمحلّ،[٢] أنفسهم وهم، على حالهم، كٰفرون، فلا ينفعهم مالٌ ولا ولد، لأن المرء في شدائده ينتفع بماله وولده. ولا شدة أشد من دخول النار، فهذا الذي ينفع لا ينفعهم [يومئذ].

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾

ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولٰكنهم قوم يفرقون، من الفَرَق وهو الخوف.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾

لو يجدون ملجأ أو مغٰرٰت، يغور فيها[٣] المستخفي، أو مدخلا لولّوا إليه وهم يجمحون، يُسرعون، وأصله مُضيّ المرء على وجهه. والفرس الجموح هو الذي إذا حُمل لم يردّه اللجامُ.

---

[١] ك: بعد بخلفهم.
[٢] ك – تضمحل، صح هـ.
[٣] ش ك: يغور بها.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾

ومنهم من يلمزك فى الصدقٰت فإن أعطوا منها، ما أرادوا، رضوا وإن لم يُعْطَوا منها إذا هم يسخطون، عليك وعلى الله تعالى، ويلمزونك ويكفرون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾

ولو أنهم رضوا ما ءاتىٰهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله، حينا آخر كما يعلم الله سبحانه. إنا إلى الله رٰغبون، أي إلى ما يرضاه لنا لا إلى ما نرضاه منه. وحذف الجواب الذي معناه: لكان خيرا لهم، وهذا كعادة العرب إذا استعظموا أمرا.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾

ثم بين كونه لِمَ يعطيهم[١] فقال: إنما الصدقٰت للفقراء والمسٰكين والعٰملين عليها والمؤلفة قلوبهم. ثم غيّر النظم فقال: وفى، لأنه أراد بعد ذكر الأولى فالأولى ذِكْرَ[٢] ما يُصرَف في مساعدة هؤلاء وإن لم يكفهم، فكأنه قال: لهذا، وفي هذا بقوله: وفى الرقاب، أي في تحريرها، والغٰرمين وفى سبيل الله وابن السبيل. فقوله: وفى سبيل الله، معطوف على [قوله:] وفى الرقاب، وقولِه: والغٰرمين. وقولُه: وابنِ السبيل، معطوف على قوله: للفقراء، وقد مرّ وأُخِّر ليُعرف الأَولى، وقال: وفى، ليُشعر بالمساعدة. فريضةً، أي الصدقات إنما هي للمذكورين فرضناها على المعتذرين فريضة، وهي بغير المعتذرين نافلة. ومن جملة الصدقات الزكاة، وهذه الفريضة، من الله. والمعنى كيف يطلب المنافقون من الرسول عند قسمة الصدقات ما لا يستحقونه بل قد فرضه الله لغيرهم. والله عليم حكيم.

---

١ ن: كونه لهم يعطيهم.

٢ ك ن – ذكر.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن، يقال: رجل أذن،[١] إذا كان يسمع مِن كل قائل؛ ومنه أَذِنَتْ لِرَبِّهَا،[٢] سمعت. **قل أُذُنُ خيرٍ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين**، أي يصدِّقهم، ومنه وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ،[٣] أي لا تصدقوا. ولهذا زادت اللامُ فلم يقل: ويؤمن المؤمنين؛ ومثله ءَامَنتُمْ لَهُۥ.[٤] ولو قال: ولا تؤمنوا الامنَ بالأمان، ولا معنى له ههنا. **ورحمةٌ للذين ءامنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم / عذاب أليم.** [١٩٥ظ]

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

يحلفون بالله لكم، أنهم منكم، **ليرضوكم. والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين.**

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله، أي يتجاوز[٥] حدوده متعديا على أمره؛ كأنه لمّا جعل الله سبحانه [لكل شيء] حدا جعل هذا لنفسه حدا غيره، **فأن له نارَ جهنمَ خٰلدا فيها، ذٰلك الخزى العظيم.**

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ثم بين أن جميع[٦] ما تقدم هو في المنافقين بقوله: **يحذر المنٰفقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم**، من النفاق. هذا الحَذَر استهزاءٌ لقولهم: لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ.[٧]

---

١ ك – أذن، صح هـ.

٢ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (سورة الانشقاق، ٨٤/١-٢).

٣ سورة آل عمران، ٧٣/٣.

٤ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ (سورة طه، ٢٠/٧١؛ وسورة الشعراء، ٢٦/٤٩).

٥ ش: أو يتجاوز.

٦ ش: أي جميع.

٧ ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ (سورة المجادلة، ٥٨/٨).

ولهذا بعده: قل استهزءوا إن الله مخرج، من قلوبكم، ما تحذرون، أي فيُظهر ما تكتمونه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾

ولئن سألتهم، عما يقولون استهزاء، ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب. قل أبالله وءايٰته ورسوله كنتم تستهزءون. الفرق بين قولك: أبِزَيْدٍ تستهزئ وبين قولك: أتستهزئ[1] بزيد، أن الأول يقتضي الإنكار على إيقاع الاستهزاء بزيد، والثاني يقتضي الإنكار على عمل الاستهزاء.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٦٦ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾

لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمٰنكم، إن نعف عن طائفة، تابت، منكم نعذب طائفة، لم تتب، بأنهم،[2] بسبب أنهم،[3] كانوا مجرمين، لموالاتهم الكفار فهم منهم؛ بدليل قوله بعده: المنٰفقون والمنٰفقٰت بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم، عن النفقة في سبيل الله وعن الصدقات. نسوا الله فنسيهم. إن المنٰفقين هم الفٰسقون.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨﴾

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٩﴾

---

[1] جميع النسخ: أستهزئ، والمثبت من م. وهو الصواب.

[2] جميع النسخ + العذاب. وهو ليس بموجود في م،

[3] ك – بسبب أنهم، صح هـ.

كالذين من قبلكم، أي كما لعن الذين من قبلكم. ثم ذكر حالهم وسبب اللعن والعذاب فقال: كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموٰلا وأولٰدا فاستمتعوا بخلٰقهم، نصيبهم من الدنيا فعاقبناهم واستخلفناكم من بعدهم لنبلوكم. فاستمتعتم بخلٰقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلٰقهم وخضتم كالذى خاضوا، أي في مثل الذين خاضوا فيه. أولٰئك حبطت أعمٰلهم فى الدنيا والآخرة وأولٰئك هم الخٰسرون.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ثم عنّف الماضين لكي يتعظ الباقون السامعون والآتون، وليعلموا أن من عمل مثل عملِهم ولم يتب فمآله إلى مآلهم، فقال عن أولٰئك: ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قومِ نوح وعاد وثمود وقوم إبرٰهيم وأصحٰب مدينَ والمؤتفكٰت، المنقلبات، قُرَى قومِ لوط. أتتهم رسلهم بالبينٰت، فكذبوا فعُوقِبوا بذنوبهم. فما كان الله ليظلمهم، إذ أهلكهم، ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

وبيّن المراد بقوله عن المنافقين: بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ،[1] بقوله عن المؤمنين: والمؤمنون والمؤمنٰت بعضهم أولياء بعض. ومحكم هذه الآية قوله تعالى: وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ.[2] يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، النهي لأنفسهم قبل غيرهم، فافهم. ويقيمون الصلوٰة ويؤتون الزكوٰة ويطيعون الله ورسوله. أولٰئك سيرحمهم الله. إن الله عزيز حكيم.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

وعد الله المؤمنين والمؤمنٰت جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها ومسٰكن طيبة

---

[1] الآية ٦٧ من هذه السورة.

[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ (سورة المائدة، ٥/٥١).

في جنّٰت عدن ورضوٰن من الله أكبر، ليس المراد أن الرضوان أكبر من الجنات وما فيها، إذ الرضوان هو مما فيها، وإنما معناه ورضوان كبير. فلمّا أراد المبالغة في وصفه عبّر عنه بلفظة أفعل أخّره، وقد مر قوله: من الله، وتقديره: ورضوان أكبر هو من عند الله. فلما وصف أولا بعض العطايا وهي المساكن التي[1] ينالونها من حيثهم بالمكاسب ذكر الرضوان الذي به يكون سائر العطايا من حيثه بالمواهب. وقوله: ذٰلك هو الفوز العظيم، يعم ما تقدم من الرضوان وغيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

هذا الأمر بالجهاد لا يخرج عن الشروط الواجبة من أنه لا يكون في الأشهر الحُرُم ولا عند المسجد الحرام إلا أن بدأ العدوُّ بالقتال وغير ذلك. ويريد بالجهاد ههنا قولا وفعلا، لقوله: واغلظ عليهم، فأمره أن يفعل كُلًّا في موضعه.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

[١٩٦و] / وذكر بعض ذنوب المنافقين فقال: يحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلٰمهم، هؤلاء ممن نزل في حقهم براءةٌ وأمثالِهم أيضا فاعرفهم، لأنهم آمنوا بالقول. وبدأ منهم بالهَمَّة[2] ما قال الله تعالى عنهم: وهموا بما لم ينالوا. وما نقموا، أي من المؤمنين، يعني وما قالوا ما قالوه في المؤمنين على صورة النقمة انتقموا به منهم كالإنكار والعيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدقات وغيرها، إلا أن، أي بسبب أن، أغنٰهم الله ورسوله من فضله، أعني المنافقين. وهو معنى [قوله:] إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ،[3] أي رأى نفسه استغنى.[4] وهؤلاء المنافقون هم مؤمنون في الظاهر. ويدلك أن قوله "أغنى" هو عن المنافقين دون الكفار ما سيأتي من أنهم عاهدوا الله،

[1] ش: الذي.
[2] ن: بآلهته.
[3] سورة العلق، ٩٦/٦-٧.
[4] ن - أي رأى نفسه استغنى.

لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ،[١] فهم بخلوا بالعطاء من فضله لما آتاهم ما عاهدوه على بعضه. فإن يتوبوا، عن قولهم كلمة الكفر والاستهزاءَ الذي هو كفر ههنا، يك خيرا لهم. وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا، بأن يبقيهم على حالهم الذي يوجب على المؤمنين الجهاد[٢] لهم عليه، والآخرةِ، بالنار. وما لهم فى الأرض من ولىّ ولا نصير.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾

وقوله: ومنهم من عٰهد الله، ولم يقل: وهم، لأنه وصفُ بعض المنافقين. وقوله: لئن ءاتٰنا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصٰلحين، دليل ما قلناه آنفا. فلما ءاتٰهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، بمعنى معرضين،[٣] وغيّر لأجل الوِزان.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

فعاقبهم بقوله: فأعقبهم، أي ذلك التولي والإعراض، نفاقا فى قلوبهم، أي ملء[٤] قلوبهم، إلىٰ يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون، بالله ورسوله. انظر كيف لمّا[٥] كانت هذه المعاملة بالقلوب عاد العقاب عليها في الدنيا.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجوٰهم، ضد السر، وهو من النجوة التي هي الموضع المرتفع من الأرض. وأن الله علّٰم الغيوب.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

ثم وصف المنافقين أيضا بقوله: الذين يلمزون، يَعيبون، المطوعين من المؤمنين فى الصدقٰت، يعيبونهم في صدقاتهم. والذين، يعيبون الذين[٦] لا يجدون إلا جهدَهم.

[١] من الآية التالية.
[٢] ن: بالجهاد.
[٣] أي وحال كونهم معرضين.
[٤] ش: أي ملئ.
[٥] ن – لما.
[٦] ن – يعيبون الذين؛ ش ك – يعيبون الذين، صح هـ.

وهؤلاء أنفقوا القليل لفاقتهم فعابوهم، والذين قبلهم أنفقوا الكثير فعابوهم بالإسراف وقلة العقل ومثل ذلك. فيسخرون منهم، سخر الله منهم، دعاء عليهم في الدنيا. ولهم عذاب أليم، في الدنيا والآخرة.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، فلن ينفعهم استغفارك لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة، يريد المبالغة في التكثير لا المقدار والتحديد. فلن يغفر الله لهم، هذا إخبار، ولهذا أتى بالفاء ولم يقل: لن، بل، فلن. وحكمة ذلك أنه لو قال: "لن" كان ذلك جواب الشرط عن عِدّة لو زاد الاستغفارُ لغفر[1] لهم أو لجاز[2] أن يغفر. فلم يأت اللفظ كذلك بل كأنه قال ما تقديره: إن تستغفر لهم سبعين مرة لا يغفر لهم ولا ينفعهم[3] استغفارك لهم أبدا، فلن يغفر الله لهم أبدا، ودليله قوله عنهم: إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ.[4] ذٰلك بأنهم كفروا بالله ورسوله، والله لا يهدى القوم الفٰسقين.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

ثم أعقب القول في المذكورين بالقول في أمثالهم فقال: فرح المخلفون. هؤلاء وإن كانوا هم تخلفوا[5] لكنه أشار إلى أنهم هم الذين أذن لهم الرسول عليه السلام بالتخلف فهم مخلَّفون متخلِّفون. وعنهم قال الله لرسوله: عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ.[6] فهم فرحوا، بمقعدهم، الذي قعدوا به، خلٰف رسول الله، أي فيما خالفوا[7] الرسول في أمر الجهاد.[8] وكرهوا أن يجٰهدوا بأمولهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر. قل نار جهنم أشد حرا، لو كانوا يفقهون.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

١ ن – لغفر.
٢ جميع النسخ: ولجاز.
٣ ش: ولا ينفعك.
٤ الآية ٧٧ من هذه السورة.
٥ ك: تحلفوا.
٦ الآية ٤٣ من هذه السورة.
٧ جميع النسخ: خالف.
٨ م + فهم قعدوا في خلافه.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ۝٨٣ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨٤﴾

فإن رجعك، ردك، الله إلىٰ طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا. لا تَنْسَ قولَه: مَعِيَ، فسيأتيك لها موضع يَحُلّ به إشكالا. ولن تقْتلوا معى عدوا، إنكم رضيتم بالقعود أولَ مَرَّةٍ فاقعدوا مع الخٰلفين. لا تحسب أن هؤلاء هم الأوائل الذين لا يُغفر لهم بوجه، ولهذا لم يقل: فإن رجعك الله إلى أحد منهم أو إليهم. وسيأتيك / ما تحقق به ذلك. فأما إن ماتوا على كفرهم فقد أمر الرسول بقوله: ولا [١٩٦ظ] تصل علىٰ أحد منهم مات أبدا، إذا مات على ما هو عليه كما سيأتي بيانه. ولا تقم علىٰ قبره، يدل على انتفاع[١] الأموات بدعاء الأحياء. إنهم كفروا بالله ورسوله. وقوله: وماتوا وهم فٰسقون، دليل على إمكان إسلامهم قبل الموت. ولا، معطوفة على المتقدمة لنعلم أنهم ماتوا على الكفر. فهم فإن كانوا من جملة المنافقين لكنْ طائفةٌ منهم، لأن المقطوع بأنهم من أهل النار هم الذين قال في حقهم: فَأَعْقَبَهُمْ [نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ]؛[٢] ثم ذكر طائفة من المنافقين فقال: فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ؛[٣] ثم ذكر طائفة من هؤلاء فقال: فإن رجعك الله إلى طائفة منهم، وهؤلاء هم الذين يُدْعَوْن إلى قوم أولي بأس شديد.[٤] فإن ماتوا على كفرهم فحكمهم حكم المقطوع لهم بالنار.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾

يقول: ولا تعجبك أموٰلهم وأولٰدهم، وحذف "لا" لتقدمها.[٥] إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كٰفرون. فالأُولى لا يُعجبْك قبل موتهم، والثانية بعد موتهم، ولهذا زاد لفظة "الْحَيٰوة" في الأولى، وقال قبل[٦] الثانية: وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا،[٧]

---

١ ن: على انقطاع.

٢ الآية ٧٧ من هذه السورة.

٣ الآية ٨١ من هذه السورة.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ (سورة الفتح، ٤٨/١٦).

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٥٥ من هذه السورة.

٦ ك: قيل.

٧ من الآية السابقة.

وأتبعه بالآية المذكورة. وكل آية في قوم فيلزم ما قاله عن كل منهما. ففي أحدهما لازم على كل حال، لأنهم المقطوع لهم بالنار. وفي الطائفة المذكورة إن ماتوا على كفرهم، لأن منهم من يُمكن أن يُسلم وهم الذين نزل في حقهم: سَتُدْعَوْنَ[1] كما قلنا. فافهم ذلك جيدا. ولما كان المنافقون ينقسمون إلى قسمين: قسم يموت على كفره وقسم يُسلم جاء حكم الأحياء منهم ما داموا على النفاق أولا. ثم جاء حكمهم إذا ماتوا عليه ثانيا. فوصفهم في الآيتين بوصف واحد وحذف من الآية الثانية بعض الكَلِم[2] استغناءً بإثباته في الأولى.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ٨٦﴾

ولما قد مرّ ذكر من استأذن للخروج وذمُّه ولكنه لم يُعِدّ عِدّة مع القدرة ذَكَر من استأذن في القعود كذلك فقال: وإذا أنزلت سورة أن ءامنوا بالله وجْهدوا مع رسوله استئذنك أولوا الطول، أصحابُ الغنى، منهم وقالوا ذرنا نكن مع القْعدين.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ٨٧﴾

رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، جمع خالفة وهن[3] النساء، وسُمُّوا بذلك لتخلفهم عن الرجال، ومنه خَلُوف فم الصائم.[4] ولا تفهم أنه النَّتْن بل ما يَخلُف في الفم بعد الوضوء والسواك، ومثله مما يُنظف الفمَ فلم يمكن إزالته، فافهم. وطبع علىٰ قلوبهم، بذنوبهم عقابا لهم. فهم لا يفقهون، ما فاتهم ولا ما يَحل بهم.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٨٩﴾

---

[1] ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ (سورة الفتح، ١٦/٤٨).

[2] ن: الكلمة.

[3] جميع النسخ: ومن، والمثبت من م.

[4] لعل المؤلف رحمه يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل يقول: إن الصوم لي وأنا أجزي به. إن للصائم فرحتين: إذا أفطر فرح وإذا لقي الله فرح. والذي نفس محمد بيده لَخلُوفُ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» (صحيح مسلم، الصيام ١٦٥). وانظر أيضا: صحيح البخاري، الصوم ٩.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

وجاء المعذرون من الأعراب، أي أصحاب العذر في القعود بسبب عذرهم، فهم بضدّ المتعذرين، لأن المتعذر[1] يجوز أن لا يكون له عذر، فهو مفتعل للعذر، والمعذِّرون أصحاب العذر يقينا. **ليؤذن لهم**، فالمعذرون صالحون، ولهذا بعده: **وقعد الذين كذبوا الله ورسوله**، قعدوا بغير عذر سواء كان قعودهم بإذن أو بغير إذن. **سيصيب الذين كفروا منهم**، وهم قوم سيذكرهم من الذين قعدوا، **عذاب أليم**.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

هؤلاء من الذين قعدوا ولم يأتوا مستأذنين، لأن الضعفاء والمرضى لا يقدرون على المجيء، والفقراءَ يقدرون على المجيء، ولكن منهم من لم يأت، ومنهم قوم جاءوا وهم المعذِّرون وأمثالُهم ممن له عذر مانع، فذكر الباقين مع المرضى. وعرّفنا أنه ما عليهم حرج ولا سبيل لومٍ إذا نصحوا وكانوا محسنين في الأقوال والأفعال والنيات.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ولما كان من المؤمنين من قد يجد ما ينفق عليه ولكنه لا يجد ما يحمل[2] عليه ذكر المعدم مع المرضى، وذكر الذي يأتي وهو لا يجد ما يحمل[3] عليه[4] خاصة فقال: **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه. تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون**، في المَحْمَلِ خاصةُ الجمع يقال له: **نفقة في سبيل الله**. فالأوائل لا يقدرون على نفقة أنفسهم أو عُدَدهم وحاجتهم. والثواني لا يقدرون على مركوب وإن قدروا على غير.

---

[1] ك - المعتذر، صح هـ.
[2] ك ن: ما يتحمل.
[3] ك ن: ما يتحمل.
[4] ش - ذكر المعدم مع المرضى وذكر الذي يأتي وهو لا يجد ما يحمل عليه، صح هـ.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٩٣﴾

[١٩٧و] ثم بين ذلك بقوله: / إنما السبيل على الذين يستئذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله علىٰ قلوبهم فهم لا يعلمون، ما فاتهم من الثواب، أو نالهم من العقاب الذي هو الطبع.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٤﴾

يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن، نصدِّق، لكم قد نبّأنا الله من أخباركم، ما لا يُقبَل معه عذرٌ. وسيرى الله عملكم ورسولُه، أي إن تبتم يدعوكم، ثم تردون إلىٰ عٰلم الغيب والشهٰدة فينبئكم بما كنتم تعملون.

﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٩٥﴾

سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم، إعراضَ صَفْح وتجاوزٍ عن اللوم لهم. فأعرضوا عنهم، إعراضَ إهمالٍ لهم وهوانٍ بهم كمن لا يسمع العذر[١] ولا اليمين عليه. إنهم رجس ومأوٰهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾

ثم بين بعد يمينِ الإعراض عنهم يمينَ الرضا فقال: يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضىٰ عن القوم الفٰسقين.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٩٧﴾

الأعراب أشد كفرا ونفاقا، من غيرهم ويريد بالأعراب سكّانَ البر، ومن سكن البلاد منهم يقال له: عربي. وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله. والله عليم حكيم.

---

١ ن: لعذر.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨﴾

ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر، يقال: دار الزمان لهم ودار عليهم. وسميت "دوائر" لإحاطتها بمن دارت عليه كما تحيط الدائرة بما فيها. **عليهم دائرة السَّوْء. والله سميع عليم.**

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾

ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربٰت عند الله وصلوٰت، أي ويتخذ صلوات، **الرسول،** وهي أدعيته يتخذها قرباتٍ أيضا. **ألا إنها قربة لهم،** كما في نياتهم. **سيدخلهم الله فى رحمته، إن الله غفور رحيم.**

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾

والسٰبقون الأولون من المهٰجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسٰن رضى الله عنهم ورضوا عنه. وأعد لهم جنّٰت تجرى تحتها الأنهٰر، هذه وحدها في سائر القرآن بإسقاط "مِنْ"، وفي مصحف أهل مكة "من تحتها"[١] في الكل. وذلك أن "من" هي لابتداء الغاية، فالأنهار تجري من تحت أشجار الأنبياء وتصل إلى تحت أشجار الأولياء وهي هذه. **خٰلدين فيها أبدا. ذٰلك الفوز العظيم.**

﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾

ومن حولكم، أي من جملة من هو حولكم، **من الأعراب منٰفقون،** والمعنى حول مدينتكم. **ومن أهل المدينة،** أيضا قوم، **مردوا على النفاق،** أي تجرّدوا، لأن أصل المريد

[١] قرأ المكي بزيادة "مِنْ" قبل "تحتها" مع جر التاء، والباقون بحذف "من" وفتح تاء "تحتها" (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٣٩).

المتجرّد، فهو قد نسبهم إلى الشيطان المارد. **لا تعلمهم، نحن نعلمهم. سنعذبهم مرتين**، وهو عذاب فراق المال والولد وعذابُ خروج الروح. فالأول لقوله: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا،[1] وتمام تلك الآية يدل على القسم الثاني، لقوله تعالى: يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ،[2] يعني الملائكة عند التوفي. ويحتمل أنه كقوله: [وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ] بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا.[3] ولا ينقض ما قلناه بل هذا أعم، لأن العذاب الذي من عند الله لا يريد به إلا في الدنيا، ولهذا قدمه في الذكر. **ثم يُرَدُّون إلى عذاب عظيم**، في جهنم، لكنه بعد[4] عذابين في الدنيا.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٠٢ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤﴾

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلىٰ عٰلم الغيب والشهٰدة فينبئكم بما كنتم تعملون. ههنا أمرهم بالعمل بقوله: **وقل اعملوا**، وفي الأول[5] إخبار بما يصدق دعواهم إن كانوا صادقين أو يكذّبها إن كانوا كاذبين. لهذا قال: **فسيرى الله عملكم**، ولم يذكر المؤمنين هناك، فأولئك ذنبهم التخلف وهؤلاء، **خلطوا عملا صٰلحا وءاخر سيئا**، فأمرهم بالعمل، لأن الحسنات يذهبن السيئات.[6]

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠٦﴾

وءاخرون مرجون لأمر الله. الإرجاء التأخير إلى أجل، وأمرُ الله هو قوله تعالى:

---

[1] الآية ٥٥ من هذه السورة.

[2] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٥٠). وانظر أيضا: سورة محمد، ٤٧/٢٧.

[3] الآية ٥٢ من هذه السورة.

[4] جميع النسخ: بعده، والمثبت من م.

[5] أي في الآية السابقة برقم ٩٤.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (سورة هود، ١١/١١٤).

قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ[١] فهؤلاء، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، إن قاموا بالأمر الذي يأتي إليهم. والله عليم حكيم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾

والذين اتخذوا، من الأعراب، مسجدا ضرارا، محاولةَ ما يَضُرّ، كقوله: شِقَاق،[٢] محاولةَ ما يَشُقّ، وهذه منسوقة في المعنى بقوله: مَا كَانَ / لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ،[٣] يريد المنافقين. وكُفرًا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا، الإرصاد الارتقاب، وهو من الرَّصَد، أي وأرصدوه إرصادا، لمن حارب الله ورسوله من قبل، فهم إذا أرادوا الاجتماع بعضهم ببعض يجتمعون فيه، ولَيحلفُنّ إن أردنا إلا الحسنىٰ، والله يشهد إنهم لكٰذبون. [١٩٧ظ]

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾

لا تقم فيه أبدا. لمسجد أسس على التقوى من أول يوم، أسس، أحق أن تقوم فيه، وهو بيت الله الحرام. فيه رجال يحبون أن يتطهروا. والله يحب المطهرين، ويحتمل الإطلاق، أعني كل بيت لله أسس على التقوى.

﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾

أفمن أسس بنيٰنه علىٰ تقوى من الله ورضوٰن خير. خير وشر تأتي[٤] كلُّ واحدة بمعنى أفعل التعظيم بغير ألف، وتأتي بمعنى الاسم فقط مثل نَفْع وأنفع، دليله: قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ.[٥] أم من أسس بنيٰنه علىٰ شَفا، الشفا حرف الشيء كالشفة.

[١] ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ (سورة الفتح، ١٦/٤٨).

[٢] انظر مثلا قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ (سورة النساء، ٣٥/٤).

[٣] الآية ١٧ من هذه السورة.

[٤] ن: يأتي.

[٥] ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (سورة المائدة، ٦٠/٥).

وقوله: جُرُف، هو جانب الحفرة أو الوادي المنحفر، أصله بالماء وهو من الجَرْف هو الاقتلاع للشيء من أصله، ومنه المِجْرفة.[1] وقوله: هارٍ، من انْهِراء اللحم لشدة النضج فلا يمسك بعضه بعضا. وقوله: فَانْهَارَ به فى نار جهنم، أي انصدع بالتهدّم، لكنه غُيّر في التصريف لتغير في المعنى، فكان الثاني من إنْهارَ الذي هو انْهَرَّ،[2] والأول مِن إنْهَرَى ينهري.[3] والله لا يهدى القوم الظّٰلمين.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١١٠﴾

لا يزال بنيٰنهم الذى بنوا ريبة، شكا مَبْنِيّا، فى قلوبهم، أي لا يحصل لهم يقين صالح بل عُوقِبوا على المذكور، بل لا يزال الشك في قلوبهم، فهو كقوله: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ.[4] إلا أن تقطّع قلوبهم، وهو تقطّع[5] معنوي أسفا على ما فاتهم في الدنيا من الإيمان وهو في نار جهنم، إذ في ذلك اليوم يزول الشك ويتحققون كيف الحال. والله عليم حكيم. وإذا تأملت جملة الآيات المذكورة ههنا في المنافقين وجدتها قد جَمعت سائرَ الأقسام. فإذا رأيتها متفرقة في القرآن عرفت كُلًّا بوصفه المذكور عنه ههنا، فيذهب التناقض إن شاء الله تعالى.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١١﴾

إن الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأمو‌ٰلهم بأن لهم الجنة. قيل: كل ثمرة يأكلها المؤمن في الجنة يلتذ[6] بها، وكذلك كل ما يناله فيها كما يحدث بين الزوجين،

---

[1] جَرَف الشيءَ: ذهب به كله أو جُلّه. الجُرُف: شِقّ الوادي إذا حفر الماء في أسفله. والمجرفة: أداة الجَرْف (المعجم الوسيط، «جرف»).

[2] جميع النسخ: انهار، والمثبت من م.

[3] يقال: هار البناء وتهوّر: إذا سقط، نحو انهار. قال تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾. وقرئ: هائر. يقال: بئر هائر، وهارٌ، هارٍ ومهار (المفردات للراغب الإصفهاني، «هار»).

[4] الآية ٧٧ من هذه السورة.

[5] ك ن: بقطع.

[6] ك ن: تلتذ.

لأن كمال الموجودات هو أن يصل بها الإنسان إلى كماله. وكل خير في الدنيا هو للطائع جنة مُؤجَّلة، وللعاصي نار معجلة وهذه السرور في الدنيا بها، ثم السرور للمؤمنين في الأخرى إذ بضدها تتبين الأشياء. فإذا رجع إلى الجنة عرف العز بالذل والغنى بالفقر، والراحة بالتعب والحياة بالموت. فالناس كلهم من الآن في الجنة أو النار. فالمؤمن علم أن هذا الموت في الجهاد حياة، فرغب فباع العزيز بالأعز. **يقْتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا فى التورىٰة والإنجيل والقرءان. ومن أوفى بعهده من الله**، أي ومن يكون أوفى بالعهد من الله سبحانه، أي وإذا كان كذلك وقد بعتم، **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به. وذٰلك هو الفوز العظيم**، وتقديره فاستبشروا أيها المؤمنون.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾

التٰئبون، بدأ بذكر التوبة لأنها رأس العقل، ومن علاماتها ما ذكره بعد ذكرها فقال: **العٰبدون**؛ وهذه كلمة عظيمة، لأنه تعالى لمّا قال: وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ،[١] عاد كل مخلوق مطالَبا بالعبادة في الدنيا والآخرة. فإذا سألهم يوم القيامة: أين ما خلقتكم من أجله، كانوا محجوجين بكتبه ورسله. وفي ترتيب هذه الألقاب حِكَم يعلمها أصحاب العمل[٢] بها. **الحٰمدون**، رأوا اليسر في العسر فحمدوا دائما. **السٰئحون**، قيل: هم الذين يتحرون مقتضى قوله تعالى: أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ[٣] وأمثال ذلك. وسِياحة الفكر في الملكوت كسياحة الجسم في المُلْك، إذ المقصود من سياحة الجسم سِياحة الفكر، فلمّا ساح خضع؛ لهذا بعده: **الرٰكعون السٰجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر**. لما قال الله تعالى: قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا،[٤] وجب أن يكون الأمر والنهي لها[٥] أولا؛ ولهذا بعده: **والحٰفظون لحدود / الله** [١٩٨و]

[١] سورة الذاريات، ٥١/٥٦.

[٢] ك ن: العلم.

[٣] ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٤٦).

[٤] سورة الشمس، ٩١/٩-١٠.

[٥] أي للنفس.

وبشر المؤمنين. ويحتمل أن قوله: التئبون، صفةٌ للمؤمنين[1] هو وما بعده، وإنما رَفْعُه كقوله: وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ.[2] وكذلك ههنا نُسق بغير الواو وهذا جيد. وأما قوله: الآمرون بالمعروف، ثم قال بعدها بالواو: والناهون عن المنكر، لأن الأمر بالمعروف يجب أن يكون معه النهي عن المنكر. وقوله: والحفظون لحدود الله، جاء أيضا بالواو دون ما تقدم، لأن من يأتي بالأقوال إذا لم يأت بالأفعال وهي حفظ الحدود لم يأت بشيء.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

ولما نهى رسولَه عليه السلام عن القيام في مسجد المنافقين،[3] ومن قبلُ نهى عن صحبتهم حتى في الجهاد ونهى عن الاستغفار لهم[4] أيضا أتى ههنا بالنهي له وللمؤمنين عن الاستغفار[5] للمشركين مطلقا، والمراد المنافقون فقال: ما كان للنبى والذين ءامنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربىٰ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحٰب الجحيم. اعلم أن الاستغفار للأبوَيْن المشركَيْن أو الكافرَيْن لا يجوز بعد وفاتهما، ولا يجوز في حياتهما إلا عن موعدة أو ترجيح ظن بإسلامهما. ولهذا قال ههنا: من بعد ما تبين، فمهما لم يتبين فجائز. ونقول: إن الرَّحِم انقطعت بالإسلام، فليس المسلم من الكافر ولا الكافر من المسلم. ومتى صح عن أحد من خلق الله أنه عدو لله وجب التبري منه دنيا وأخرى. فلا يجوز لمسلم[6] أن يستغفر له، ولا يترحم عليه ولا يوَدُّه[7] ولا يصل الرحم إلى الميت مع كفره، لأن الرحمة لا تكون[8] في النار، والدعاء بما تعلم[9] أن الله تعالى لا يجيب إليه معصيةٌ. وقيل: إن شفاعة المؤمن تخفف العذاب عن الكافر بما روى مسلم في صحيحه: قيل: يا رسول الله! هل نفعتَ أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ فقال عليه السلام: «إنه كان في غمرات من النار،

---

[1] أي ما كان في ابتداء الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾.

[2] ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (سورة المزمل، ٧٣/٨-٩).

[3] انظر: الآية ١٠٨ من هذه السورة.

[4] انظر: الآيتين ٨٠ و٨١ من هذه السورة.

[5] ش - لهم أيضا أتى ههنا بالنهي له وللمؤمنين عن الاستغفار، صح هـ.

[6] ك - من الكافر ولا الكافر من المسلم ومتى صح عن أحد من خلق الله أنه عدو لله وجب التبري منه دنيا وأخرى فلا يجوز لمسلم، صح هـ.

[7] ن: ولا يرده.

[8] ك ن: لا يكون.

[9] جميع النسخ: بما تعمل.

وإنه جُعل بشفاعتي [في] ضَحْضَاحٍ[1] من النار».[2] وأما عمل الكافر فلا ينفعه، لقوله تعالى: وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا.[3] ويجوز في حياة الوالدين الكافرَيْن الدعاء بما يمكن حصوله. ولا يجوز للمسلم أن يُشافِه أحدا من الكفار باللعنة لجواز أنه يسلم، بل يجوز أن يلعن الجنس الذي يموت كافرا.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

الأواه هو الذي يُكثر من قوله: أوه وآه خشيةً من عذاب الله. ومما يُحذِّر في الدنيا من أن يؤدي إلى التأوّه في الآخرة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هدىٰهم حتىٰ يبين لهم ما يتقون. إن الله بكل شيء عليم، افهم هذه الآية فهْما جيدا ولا تَنْسَها ينحلّ لك بها كثيرٌ من المشكلات في بابها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

لقد تاب الله على النبى والمهٰجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، لهول ما شاهدوه. **ثم تاب عليهم، إنه بهم رءوف رحيم.** كرر لفظة "تاب" لمَا بَعُد الأولُ، فكذلك في الآية التي بعدها كما سنبين. وفي التكرار فائدة جليلة أيضا، وهي[4] أنه لو لم يكررها لجاز أن يُفهَم من هذه الآية ومما بعدها

[1] الضحضاح في الأصل ما رَقّ من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين واستعاره للنار (لسان العرب، «ضحح»).

[2] عن العباس بن عبد المطّلب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أغنيتَ عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرَك الأسفل من النار» (صحيح البخاري، مناقب الأنصار ٤٠؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٣٥٧-٣٥٨). | حاطَه يَحوطه: حَفِظَه وتعَهَّده (لسان العرب، «حوط»).

[3] سورة الفرقان، ٢٣/٢٥.

[4] ش: وهو.

أنه تعالى تاب أولا فتابوا، أعني أن توبته تعالى أولا عليهم أوجبت توبتهم فعادوا كالمجبَرين، إذ لو لم يتب عليهم لما أمكن أن يتوبوا. وهذا بخلاف بقية القرآن، لأنهم مأمورون بقوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا،[1] وقولِه تعالى: وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا،[2] ومثل ذلك. وأبلغُ من ذلك في المناقضة قوله تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ.[3] ولو كانوا مُجبَرين على التوبة لم يؤمَروا،[4] بها. ولكن الوجه في ذلك أن قوله تعالى: ثم تاب عليهم، بيان لحين التوبة، وأنها لم تكن قبل الابتلاء بل بعده. فكان اللفظ الأول إخبارا والثاني المكرَّر بيانا لحين وقوع ما أَخْبَرَنا به. وهذا كقوله تعالى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ، فأعاد وقال: إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ.[5] وسيأتيك تمام ما قلناه في الآية / الآتية. وأما قوله: من بعد ما كاد يزيغ، هو على صورة تعظيم ما لَقُوه لا على صورة الذم. ولهذا ذكر العسرة قبله. تقول: كاد زيد يموت، أي قرب من الموت لمصيبة وقعت به، وكاد يموت زيد إذا قرب الموت منه. ففرقٌ بين[6] أن تقدمه إلى الموت أو تُقدم الموت إليه. فالمذكورون جرى عليهم هذا الأمر العظيم أولا، ثم تاب عليهم، لأن اللفظ الأول يحتمل أنه تاب أولا قبل ما جرى. ولو تاب قبل ما جرى[7] لم يجز. وقد قال تعالى: مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ.[8] [١٩٨ظ]

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

وعلى الثلٰثة الذين خلفوا. قيل: هم كعب بن مالك،[9] وهلال بن أمية[10]

---

[1] سورة التحريم، ٦٦/٨.

[2] ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة النور، ٢٤/٣١).

[3] سورة الرعد، ١٣/١١.

[4] ن: لم تؤمروا.

[5] سورة النحل، ١٦/١١٠.

[6] ن – بين.

[7] ش – ولو تاب قبل ما جرى، صح هـ.

[8] ﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ (سورة النساء، ٤/١٤٧).

[9] هو أبو عبد الله كعب بن مالك بن عمرو السَّلَمي الخزرجي الأنصاري، صحابي، من أكابر الشعراء، من أهل المدينة. اشتهر في الجاهلية، وكان في الإسلام من شعراء النبي صلى الله عليه وآله وشهد أكثر الوقائع. ثم كان من أصحاب عثمان. وعمي في آخر عمره. توفي سنة ٥٠هـ/٦٧٠م (الأعلام للزركلي، ٥/٢٢٨).

[10] هو هلال بن أمية بن عامر الأنصاري الواقفي شهد بدرا وما بعدها (الإصابة لابن حجر، ٦/٢٨٩).

ومُرارة بن الربيع.[١] حتىٰ إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم، أي بعد ما جرى عليهم ذلك بسبب تخلفهم. وقوله: ليتوبوا، بيان لفائدة الابتلاء، أي بلوناهم بذلك لكي يتوبوا عن التخلف بعد هذه الواقعة. وقوله: الذين خُلِّفوا، ليس المراد به[٢] أنهم أمروا بالتخلف، ولو تخلفوا بالأمر لكان طاعة ولم تَضِقْ به أنفسهم ولكان الضيق معصية، كما تقول: أين خلّفت القوم، تخاطب من قَدِم عليك منهم. وقوله: خُلِّفوا، أي بقوا خلف المجاهدين. ثم عرّفَنا الله سبحانه أنه تاب عليهم لما جرى عليهم ما جرى. وذلك بخلاف الذين فرحوا ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.[٣] فكان ما جرى عليهم كفارة لِما بدا منهم. ولا تكون التوبة مكررة لا في هذه الآية ولا فيما قبلها بل كما تقول: السلطان أطلق الذي خلّفه في السجن حتى إذا جرى عليه كيت وكيت، وهلك بالجوع والقلة ثم أطلقه؛. وبعد هذا قلت: ليتوب، أي بما جرى عليه، وليس أنك تريد أطلقه ليتوب، فالإطلاق لا يوجب التوبة بل عذبه ليتوب.

إن قيل: لِم أخّر قوله: ليتوبوا؟ قلنا: التوبة تكون عما مضى وتكون عما سيأتي من مثل ما مضى. ولو قدم ذكرها لدلّ[٤] على أن القصد بما جرى عليهم أن يتوبوا عن الماضي بما قد بدا[٥] منهم وكان من التفريط، فأخّرها لتدل على المراد أن يتوبوا عن الماضي وعن مثله في المستقبل، وجعل ما جرى عليهم رادعا لهم عن الوقوع في مثل ما بدا[٦] منهم ليتوبوا في المستقبل عنه، ثم إن هذا الترتيب في اللفظ أليق، وهو ذكر التوبة منه،[٧] ثم ختم الآية بما يناسب ذلك فقال: إن الله هو التواب الرحيم. فأخبر أولا عن فعله، وأخيرا عن وصفه، ووسطا عن مراده، وجعل ذلك كلّه رحمة منه لعباده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

---

[١] هو مُرارة بن الربيع الأنصاري الأوسي من بني عمرو بن عوف ويقال: إن أصله من قضاعة حالف بني عمرو بن عوف، صحابي مشهور شهد بدرا على الصحيح (الإصابة لابن حجر، ٦/٧٦).

[٢] ن – به.

[٣] الآية ٨١ من هذه السورة.

[٤] جميع النسخ: الدال.

[٥] ك ن: بما قد بدأ.

[٦] جميع النسخ: ما بدأ.

[٧] ن: منهم.

ثم قال مما يدل على ما بيناه: يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصٰدقين، يريد بذلك قوله: مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ،[1] أي في الجهاد ونصرِ الرسول. ولهذا بعده: ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، أي يرغبوا في الحياة عما يجري على نفسه في الجهاد. ذٰلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صٰلح. إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢١﴾

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾

وما كان المؤمنون لينفروا كافة، أي لا بد أن يكون فيهم الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون فلا ينفرون كافة. فلولا، فهلا، نفر من كل فرقة منهم طائفةٌ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويريد بذلك مَن ذكرهم من أهل المدينة ومن الأعراب، ليتفقهوا، بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، أي رجع النافرون إلى القاعدين، لعلهم يحذرون، ما يجب أن يُحذَر في الدين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٢٣﴾

لأهل الرياضات في هذه الآية تأويلٌ وأقاويلُ هي بهم لائقةٌ وعلى كل أحد واجبة.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤﴾

وإذا ما أنزلت سورة، أي تنبئهم بما في صدورهم كهذه السورة، فمنهم من يقول أيكم زادته هٰذه إيمٰنا. فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيمٰنا وهم يستبشرون.

---

[1] ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٢٣).

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾

وأما الذين فى قلوبهم مرض، إنما كان الشك[1] في دينهم / مرضا، لأنه فساد يحتاج [١٩٩و]
إلى علاج. ومرض القلب أعضل،[2] ودواؤه أعزّ، وأطبّاؤه أقلّ. فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كفرون.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾

أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين، أي يُمتحنون بالفتنة ويريد بها ههنا القتال، وهو خاص بأولئك وتنبيه لأمثالهم. ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون، بعذاب الدنيا عذابَ الآخرة.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ١٢٧﴾

وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض: هل يرىٰكم من أحد، ثم انصرفوا. صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون، وقد[3] جعلنا لهم قلوبا يفقهون بها.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾

ثم قال ما ينبغي أن نفقه،[4] إذ فيه جميع الخيرات: لقد جاءكم رسول من أنفسكم، ولم يقل: من إخوتكم كما قال لبني إسرائيل عن النبي عليه السلام.[5] عزيز عليه، أي صَعْبٌ عليه، كما تقول: عزّ عليّ ما جرى على فلان، أي صَعُبَ، ما عنتم، أي ما شَقّ عليكم وهو من المشقة، ومنه وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ.[6] حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم.

---

[1] جميع النسخ – كان، والمثبت من م.

[2] يقال: أَعْضَلَ بي الأمرُ إذا ضاقت عليك فيه الحِيَل (لسان العرب، «عضل»).

[3] ك ن: ولقد.

[4] جميع النسخ: أن يفقه.

[5] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به» (التثنية ١٨/١٧-١٨).

[6] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٢٠).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾

قيل: إن هذه آخر آية نزلت من القرآن. والعظيم، صفة للعرش. وإنما ذكر العرش لأنه منتهى ما في الأفهام. ثم ختم بالعظمة واصفا له إشارة إلى ما فوق الأفهام منه.

[نماذج من الصفات التنزيهية]

والله هو[1] ربُّ ما انتهت إليه الأفهام ورب ما فوق ذلك. فهو سبحانه من حيث ذاته وتجردُه عن سائر التعلقات لا يقتضي أمرا، ولا يناسبه شيء، ولا يتقيد بحُكم ولا اعتبارٍ، ولا تتعلق[2] به معرفة، ولا ينضبط بوجه. بل له الإطلاق عن التقييد[3] بالإطلاق أو بقيدٍ مّا. وكل ما سُمّي أو تُعُقّل بواسطةِ اعتبارٍ واسم أو غيرهما فقد تَقيّد من وجه، وانحصر من اعتبار، وانضبط بحُكم. والحق تعالى من حيث إطلاقه وتجردُه وغناه الذاتي لا يجوز عليه شيء مما ذكرناه، ولا يصح عليه حكمٌ سلبي أو إيجابي، أو جَمْعٌ بينهما أو تنزّهٌ عنهما، بل لا لسان لهذا المقام ولا حُكم عليه؛ لأنه قد بان وصح في العقول السليمة أن[4] حقائق الأشياء من حيث بَساطتُها وأحديتها دون صفة لا تُعلَم. ولا خلاف في أحدية الحق وتجرده من حيث ذاته وعدم تعلقه بشيء تجردًا يعلو على كل تجرد وبساطة. فإذا عجزنا عن إدراك حقائق الأشياء في مقام تجردها -والمناسبة ثابتة بيننا من عِدّة وجوه مع عدم خلوها من القيود[5]- فَلَأَنْ نَعجزَ عن إدراك حقيقة الحق أولى، لأن المقيد بعدة قيود واعتبارات لا يطابق المطلقَ التامَّ الإطلاقِ العاري عن كل حكم واعتبار ونعت وصفة وغير ذلك. فإذا ما يرِدُ منه علينا ويصل إلينا[6] هو لنا لا له سبحانه، فهو تعالى لا يصح إدراكنا له بحَسَبه بل بحسبنا سرمدا. فلهذا ختم بذكر العرش، ثم أتبعه بذكر العظيم تمثيلا بحَسَبنا تحقيقا بحسبه.

---

١ ش ك – هو.

٢ ك ن: ولا يتعلق.

٣ ن: من التقييد.

٤ ن + خيار.

٥ جميع النسخ: والقيود.

٦ أي من الصفة والقيد.

وأقول: لا شك أن الفقر ملحوظ من هذا الحال ولكن به افتخر سيد الرجال فقال: «الفقر فخري».[١] وقال الله تعالى مطلقا: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ.[٢] وإنما بهذا الفقر عظُم القدرُ وتم الأمر، لأنه يقتضي الترقي المُؤبَّدَ والتلقي المُسَرْمَدَ. وكل مفصول منقطعٌ وكل موصول مرتفع. ولا غَلْق لذلك الباب، ولا حصر لذلك الجناب، ولا منع ولا حجاب. وهذا أعجب العُجاب. والحمد لله الوهاب. والصلاة على سيدنا محمد وآله السادة الأنجاب. والله أعلم بالصواب.

[١] «الفقر فخري وبه أفتخر». قال الحافظ ابن حجر: باطل موضوع. انظر: الجَدُّ الْحَثِيث لعبد الكريم الغزي، ص ١٥٥؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٢/٨٧.

[٢] سورة فاطر، ٣٥/١٥.

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾

الٓر، الأحرف المفردة بسائط تبسط على سائر الممكنات تركيبَها[1] ما يفهم وما لا يُفهَم. فكأنه قال: هذه الحروف وأخواتها بسائط تتركب فتعود[2] مُفْهَمةً في كلامكم معجِزةً في كلامنا. فلمّا قدّم قوله: الٓر، أخبر عنها بقوله: تلك ءايٰت الكتٰب الحكيم، المحكم، و"تلك" مثل "ذلك الكتاب"، وقد تقدم.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ②﴾

أكان للناس عجبا أن أوحينا إلىٰ رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين ءامنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم. قوله: قدم صدق، كناية عن الحالة والرتبة التي يُتقدم فيها وليس فيها تأخير. وسميت بذلك كما سميت العطية يدا، لأنها تُعطَى باليد. وكذلك إنما يُتقدم بالقَدَم، فسمي المسبب باسم السبب. قال الكٰفرون إن هٰذا لسٰحر مبين.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③﴾

إن ربكم الله الذى خلق السمٰوٰت والأرض فى ستة أيام ثم استوىٰ على العرش، وهو كناية عن القدرة. وفسره بقوله: / يدبر الأمر. وفائدة ذكر الخلق في ستة أيام جليلة في [١٩٩ظ]
تحقيق الحدوث ونفي القدم للمخلوقات ممن يقول للشيء: كُن فَيَكُونُ[3] وإن احتوت على غير ذلك من الحِكَم. فإن صدور الأفعال شيئا بعد شيء أدلّ على الحدوث من فاعل قديم مختار مما يخلق دفعة واحدة. ما من شفيع إلا من بعد إذنه. ذٰلكم الله ربكم فاعبدوه. أفلا تذكرون.

---

[1] ك ن: لركبتها.

[2] ك ن: فيعود.

[3] ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة البقرة، ١١٧/٢). وانظر أيضا: سورة آل عمران، ٤٧/٣، ٥٩؛ وسورة الأنعام، ٧٣/٦.

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤﴾

إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا. إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزى الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت بالقسط، وله[1] بعد ذلك الفضل ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾.[2] **والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.**

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾

هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا، منها، **وقدّره**، في،[3] **منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذٰلك إلا بالحق**، أي ليس ذلك كما يظن الفلاسفة بأنه فَاضَ[4] عن الحق كالنور عن السراج لازم وملزوم، فيكون الحق مخبرا عن[5] الخلق؛ بل له أن يخلق وله أن لا يخلق، إذ هذه صفة الغني المختار، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.[6] **يفصّل الآيٰت لقوم يعلمون.**

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾

ثم قال بما فصّله من الآيات بالفعل، أعني العلامات الدالات على خلق[7] الدنيا خلقه سبحانه في زمن ومدة لحكمة: **إن فى**، خلق السماوات والأرض، وذلك ما يشاهَد بالبصر من ساكن في متحرك على الدوام، و **اختلٰف اليل والنهار**، من الزيادة والنقصان، **وما خلق الله فى السمٰوٰت**، من الكواكب والحركات والطيور الطائرات، **والأرض**، من المعدنيات والحَيَوان والنبات على اختلاف المتعيّنات من سائر الممكنات، **لآيٰت**،

---

[1] أي للمؤمن.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ (سورة قٓ، ٣٥/٥٠).

[3] ن – في.

[4] ك: بأنه قاض.

[5] ك ن: على.

[6] ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ (سورة النحل، ٦٠/١٦).

[7] جميع النسخ: الخلق.

دالات على فاعلٍ مختار، لقوم يتقون. جعل التقوى منهم سببا للدلالة منه، فافقه. ولهذا حذّرهم وخوّف، لأنه تعالى جعل الأمر إليهم والاعتماد فيما يصل منه عليهم فقال: إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحيوٰة الدنيا واطمأنوا بها، والذين هم عن ءايٰتنا، أقوالا وأفعالا، غٰفلون.

أولٰئك مأوٰهم النار، وبيّن أن السبب في ذلك ليس[١] منه[٢] لِما خلقه فيهم لهم[٣] ومكّنهم من التصرف به على اختيارهم فقال: بما كانوا يكسبون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾

ثم بين أن الأمر أتى بضد ما أتوا به، كذلك[٤] جزاؤه بضد جزائهم، فقال: إن الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت يهديهم ربهم. والهدى أصل جامع لسائر الخيرات الباطنات والظاهرات الفانيات والباقيات. ولما جعل الهدى إليه جعل سببه إليهم فعاد فعلُه به بهم جزاءً لهم أو عليهم. فلهذا ألحق السبب بالإيمان تعريفا لكل إنسان فقال: بإيمٰنهم. وإن في هذا التعريف الجامع بين التأمين والتخويف الدّالِّ على أن الكل منه بطريق الخلق والثواب والكلَّ منهم بطريق الاختيار والاكتساب ما يُخرج[٥] العقول السليمة من ظلمة الارتياب ويُرِيها أعجبَ العُجاب. وذلك أنه عرّفهم به[٦] بعض صفات ربهم، فجعل وجودهم دالّا علىٰ وجوده، واختيارَهم دالا على اختياره، وظهورَ المشيئة من أحدهم في أنه يكسب من الشيء وضده ما شاء فقال لهم: ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ،[٧] وقال عن نفسه: يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ.[٨] فسبحان[٩] من تعرف بالإنسان إليه وبكل ما خلقه وبين يديه، وجعل عائد أعماله عليه، وجعل العقل إليه رسولا والرسول للعقل دليلا؛ فهؤلاء بعدلٍ في عذاب أليم وهؤلاء بفضل، تجرى من تحتهم الأنهٰر فى جنّٰت النعيم.

---

١ ك - ليس، صح هـ.
٢ جميع النسخ: منهم.
٣ أي خلق الله السبب في المكلفين لتصرفهم فيه.
٤ ش ك + أعني.
٥ هذا القسم اسم مؤخر لـ"إنّ".
٦ جميع النسخ: وذلك أن عرفهم بهم
٧ سورة فصلت، ٤٠/٤١.
٨ ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (سورة المائدة، ١٧/٥). وانظر أيضا: سورة آل عمران، ٤٧/٣؛ وسورة القصص، ٦٨/٢٨؛ وسورة الشورى، ٤٩/٤٢.
٩ ك ن: فسبحانه.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

دعوٰهم، أي طلبهم لِما يطلبونه، **فيها**، أن يقولوا: **سبحٰنك اللّٰهم**، فقط، فيُرْزَقون ما يطلبونه قبل التلفظ به؛ **وتحيتهم فيها**، من الملائكة، **سلٰم**. مشتق من السلامة، ولهذا بدأ الناس به في المخاطبة بِشارة وتأمينا من كل محذور. **وءاخر دعوٰهم أن الحمد لله رب العٰلمين**، إشارةً إلى بلوغ ما طلبوا فحمدوا، كأنهم لمّا خطرت[1] بهم مشيئة لمطلوب قالوا: سبحانك اللهم، فسلّمت عليهم الملائكة عند مجيئهم إليهم بما طلبوه. فكان التسبيح أول الدعوى والحمدُ آخرَها، وبَيْنَ ذلك في النَّفَس الواحد سلّمت الملائكةُ بالمطلوب المصحوبِ من علاّم الغيوب.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

[٢٠٠و] ولما ذكر هذا التعجيل في الجنة لمن شملته النعمةُ ذكر ترك التعجيل / في الدنيا لمن استحق النقمة فقال: **ولو يعجل الله للناس الشرَّ**، أي الذي يستحقونه، وهذا فعل منه والثاني منهم، وهو قوله: **استعجالَهم بالخير**، الذي يطلبونه،[2] لهذا بعده: **لقضى إليهم أجلهم**، وهذا كقوله تعالى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ.[3] ودليل ما قلناه أنه ذكر الناس أي جميعهم. وأما من ظن أن المراد بقوله: **ولو يعجل الله للناس الشر**، هو بمعنى الشر الذي يدعون به على أنفسهم، فذلك آحاد من الناس فلا يسوغ. بل الكلام مبني على ما تقدم وهو قوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا.[4] ولهذا جعل آخر القصة: **فنذر الذين لا يرجون لقاءنا**، لِنعلمْ أن الكلام عنهم. والمعنى أنهم استعجلوا الخيراتِ الفانيةَ وتركوا التقوى التي يوجِب لهم الخيرات الباقية. وذلك لأنهم لا يرجون لقاءنا فرضوا واطمأنوا بالحياة الدنيا. فلو عجّلنا لهم بالشر الذي يستحقونه كاستعجالهم[5] بالخير الذي يطلبونه لماتوا. وتقديره: لكننا نُمهلهم في الدنيا ليتوبوا. وجاء ذكر تعجيل ما يستحقه الكافرُ في الدنيا من العذاب مقارنا لتعجيل ما استحقه المؤمن في الجنة من الثواب

---

١ ن: لما حظرت.

٢ جميع النسخ: يطلبوا.

٣ سورة النحل، ٦١/١٦.

٤ الآية ٧ من هذه السورة.

٥ جميع النسخ: كما استعجالهم.

إعلاما بالقدرة هناك والرحمةِ هنا. فاعرف ربك واعلم أن الدنيا هي الشهوة، وبقدر[١] ما تميت[٢] من شهوتك يُحيي الله من قلبك. فافهم، افهم ولا تثق إليها أبدا بل احذرها ما دامت مع الجسم. ولو ماتت فيه فإن لها مَكامِنَ يخفي فيها[٣] إبليس الشهوةَ، كما تَخفَى النار عن البصر عند كمونها في الحجر. فكم قد أقامت الأركان والقرآنَ شهوة[٤] وعادة لا طاعة[٥] وعبادةً، وظهرت في العلوم والمعارف والكشف وهي تعبد الله على حرف.[٦] فكل ما في الكون جندها،[٧] فهي تُهزَم ما به تُهزَم، لأن العبد لا يقابل مولى إلا بالجوع[٨] فأضْمِرْه[٩] لها أبدا تَغلبْ، والسلام. **فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيٰنهم يعمهون**، أي إذا كنا لا نعجّل الشر الذي يستحقونه وهو ما يوجب الموت وعجّلنا لهم الخير الذي يطلبونه فقد تركناهم في طغيانهم. والمعنى بل نُبقيهم ونَبتليهم لكي يتضرعوا.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾

ولهذا بعده: **وإذا مس الإنسٰن الضر دعانا لجنبه**، أي حال كونه ملقيا جنْبَه إلى الأرض، **أو قاعدا أو قائما**، أي متى مسه الضرُّ دعانا لقلة صبره وكثرة عجزه فلا يصبر إن كان قائما حتى يقعد أو متكئا حتى يجلسَ. وهذا مبني على قوله: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾،[١٠] وتمامِه. **فلما كشفنا عنه ضره مَرّ**، على طريقته الأولى، **كأن لم يدعنا إلىٰ ضر مسه. كذٰلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون.**

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾

ولقد أهلكنا القرون، الذين كانوا، **من قبلكم لما ظلموا**، أنفسهم بتكذيب الرسل، **وجاءتهم رسلهم بالبينٰت**، بعد ما ظلموا أنفسهم. **وما كانوا ليؤمنوا**. هذا الإخبار كله متصل،

---

١ ن: ويقدر.

٢ ك: ما يميت.

٣ جميع النسخ: يخفي فيه.

٤ ن: شهودة.

٥ ش: وعادة للطاعة.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ (سورة الحج، ١١/٢٢).

٧ أي جند الشهوة.

٨ جميع النسخ: الجوع.

٩ الإضمار: الإخفاء.

١٠ من الآية السابقة.

فليس هو ههنا كما في الأعراف، ولهذا جاء فيها بالفاء. ومعناه ههنا: فما كانوا ممن يمكن أن يؤمن لأننا عاقبناهم بذلك جزاءً لهم على تكذيبهم وظلمهم، لأنه لا يصح الظلم منهم إلا بعد نذير لهم. فلما ظلموا جاء الثاني فعُوقِبوا بالتكذيب، كاليهود ظلموا أنفسهم بعد موسى فعُوقِبوا بتكذيب عيسى وطبع على قلوبهم بذنوبهم[1] فدأْبُهم التكذيب. فمن القرون من أهلكه الله بذنبه، ومنهم من طبع على قلبه بكسبه، وقد بين هذا في الأعراف وهو قوله: فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ. ففي الأعراف بيّن حال من طبع على قلبه، وهنا بيّن من أهلكه بذنبه. وجاء هناك بالفاء وهنا بالواو. وبعده في الأعراف كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ،[2] وبعده هنا، كذٰلك نجزى القوم المجرمين، منكم يا أيها الناس.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

لهذا بعده: ثم جعلنٰكم خلٰئف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون. ففي الأعراف جعل العقاب طبعا على قلوب الأحياء الكافرين وليس فيها به.[3] وفي آخر هذه السورة جَعَلَ العقاب طبعا على قلوب الأحياء المعتدين، وذكر في قصتهم "به" وقد بينا معنى ذلك في موضعه. وههنا جعل العقاب إهلاكا بموت المجرمين وعن الأموات أخبر بالواو في قوله: وما، وعن الأحياء أخبر في قوله: فَمَا، وذلك في الأعراف وفي آخر هذه السورة.[4] فتأمل / متأنيا جميع ما سطرتُه وطالعه في مواضعه [٢٠٠ظ]
تَفُز بالحق إن شاء الله. وقوله ههنا: وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ،[5] أي أهلكناهم وحالهم هذا.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

ثم تمم الكلام ههنا فقال: وإذا تتلىٰ عليهم ءايٰتنا بينٰت قال الذين لا يرجون لقاءنا، وهم الذين تقدم الكلام عنهم،[6] فهو خاص بهم وعام في أمثالهم إلى يوم القيامة،

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة النساء، ١٥٥/٤).

٢ ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٠١/٧).

٣ أي الذنب.

٤ لعل المؤلف يشير إلى الآية ١٥ من هذه السورة.

٥ من الآية السابقة.

٦ انظر: الآية ٧ من هذه السورة.

لهذا سماهم باسم واحد. ائت بقرءان غير هٰذا، من ربك، أو بدّله، من تلقاء نفسك. قل ما يكون لى أن أبدله من تلقائ نفسى. إن أتبع إلا ما يوحىٰ إلىّ. إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم، هذه الآية من جملة البراهين على أن الحديث لا ينسخ الكتابَ.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قل لو شاء الله، أن يُنزل غيره، أو أن أبدله، أو أن لا أتلوَه، ما تلوته عليكم ولا أدرٰكم به، من الدراية وهي العلم. فقد لبثت فيكم عمرا من قبله، بغير تلاوة له أو لمثله. أفلا تعقلون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

فمن، يكون، أظلم ممن افترىٰ على الله كذبا، إن افتريتُ، أو، من يكون أظلم ممن، كذّب بـٔايٰته، إن كذبتم. إنه لا يفلح المجرمون، المفتري والمكذّب.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

ثم عطف واصفا لمن أخبر عنهم بقوله: لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا[١] فقال: ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم، فيعبدونه رَهَبا، ولا ينفعهم، فيعبدونه رَغَبا. ويقولون هٰؤلاء شفعٰؤنا عند الله. قل أتنبئون الله، أي أتُخبرونه، بما، بشيء، لا يعلم فى السمٰوٰت ولا فى الأرض، أي كيف يكون عندكم ما لا يعلمه سبحانه، لأنهم ادعوا أن هؤلاء شفعاءَ، فلزم أن يكون الله خلقهم شفعاء، ولزم أنه[٢] يعلمهم، لقوله: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ.[٣] فلو كان هؤلاء آلهة أو شفعاءَ لعلم الله ذلك، فنفى العلم لانتفاء المعلوم، إذ العلم محيط بكل شيء. وهذا ينبئ عنه قولُهم يوم القيامة، بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا.[٤] سبحٰنه وتعٰلىٰ عما يشركون.

١ الآية ١٥ من هذه السورة.

٢ جميع النسخ: أنهم.

٣ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك، ١٤/٦٧).

٤ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٧٣-٧٤).

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

ثم قال ما يدل على أنهم هم أشركوا من تلقاء أنفسهم وهو قوله: **وما كان الناس**، قبل إرسال الرسل، **إلا أمة وٰحدة**، يريد بذلك الإسلام الفطري، لقوله: فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا إلى قوله ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ.[1] **فاختلفوا**، من عند أنفسهم. **ولولا كلمة سبقت من ربك**، كقوله: وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى،[2] **لقضى بينهم فيما فيه يختلفون**، أي لقضي الآن في الدنيا بالحق الذي يوجب هلاك المبطل ونجاةَ المؤمن.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ويقولون لولا أنزل عليه ءاية من ربه، كناقة صالحٍ مثلا. **فقل إنما الغيب لله**، أي ربما ينزل عليّ لكم آيةٌ كما طلبتم، وليس علم[3] ذلك إليّ. ويحتمل أنهم أرادوا بالآية ههنا إخبارهم بالغيب، وهذا أنسب إلى الجواب، ودليله: وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ.[4] **فانتظروا**، الآية، **إنى معكم من المنتظرين**، ما تواعدكم الله به من الخذلان، ووعدني من النصر على من كذبني.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، أي فالتجأوا إلى التوبة والتضرع. وقوله: **أذقنا**، المراد اليسير من الرحمة كما يذاق الطعام. والضراء ما يضر من حديث وخوف وغيره. **إذا لهم مكر فى ءايٰتنا**، الآيات ههنا هي العلامات ويريد بها وقوع ما وقع من نِعَم الله بتلك الرحمة. ويحتمل أن الآيات آيات الكتاب، فهم يتناولون[5] الآيات

---

[1] ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٠).

[2] سورة النحل، ٦١/١٦؛ وسورة فاطر، ٤٥/٣٥.

[3] جميع النسخ: علي، والمثبت من م.

[4] ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٨/٧).

[5] جميع النسخ: تناولون.

بالمكر والحيلة والغِناء[١] ليفسخوا[٢] تلك العهود التي وقعت منهم عند الضراء والتضرع. وأما المكر فهو الاحتيال. فهم موضعَ الشكر على الرحمة بعد النقمة جعلوا[٣] المكر -وهو[٤] ههنا من الاحتيال- بالتأويل وفسخ العهد ونقض التوبة بوجه الحيلة.[٥] **قل الله أسرع مكرا**، تقديره من مكركم، فَامْكروا، **إن رسلنا يكتبون ما تمكرون.**

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾

ثم أخذ يضرب لهم مثلا بالضراء ثم بالسراء وكونِهم جَعلوا موضع[٦] الشكرِ المكرَ فقال: **هو الذى يسيركم فى البر والبحر، حتىٰ إذا كنتم فى الفلك**، السفن، وأصلها من الدَّوَران. ومن ذلك فَلْكَة المِغزَل[٧] والفُلْكُ الدوّار بالنجوم. وقوله تقديره: أيها الناس، فهو يخاطب الجنس. **وجرين بهم**، بالركاب، **بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف.** فعرَّفَنا أولا أنهم جاءتهم ريحٌ طيبة، وأنه ما ابتلاهم أولا بالريح العاصفة بل بالطيبة ليشكروا، ثم جاءتها العاصفة. / **وجاءهم الموج**، الذي حرّكه العاصف، **من كل مكان** [٢٠١و]
وظنوا أنهم أحيط بهم، أي أنهم هالكون بما أحاط بهم من الأمواج المُغرِقة لهم، **دَعَوُا اللَّهَ مخلصين له الدين**، ودعاؤهم: **لئن أنجيتنا من هٰذه لنكونن من الشٰكرين.**

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾

فلما أنجٰهم إذا هم يبغون، من البغي والعدوان، **فى الأرض.** والشاكر باللسان إذا لم تُصدِّق[٨] أفعالُه أقواله فليس بشاكر، فذكر بعد قولهم الحسنِ في الضراء: لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ، فِعْلَهم القبيح في السراء وطلبَهم النجاة بالبغي، **بغير الحق.** فقال تعالى

[١] ك: والفناي.
[٢] ش ك: وليفسخوا.
[٣] جميع النسخ: جعل، والمثبت من م.
[٤] ن: هو.
[٥] ش + بالتأويل وفسخ العهد ونقض التوبة بوجه الحيلة.
[٦] ش ك: الموضع.
[٧] ك: المعزل. | الفلكة: قطعة من الأرض تستدير وترتفع عما حولها. وفلكة المِغْزَل: القطعة المستديرة من الخشب ونحوه تجعل في أعلاه وتثبت الصِّنَارَة من فوقها وعُود المغزل من تحتها (المعجم الوسيط، «فلك»).
[٨] ش: لم يصدق.

مخبرا لهم أجمعين: يأيها الناس، ودل على أن قوله: [إذَا] كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ،[1] حذف فيها "يا أيها الناس"، إنما بغيكم، الذي هو في حقيقة الأمر، علىٰ أنفسكم، كل هذا مبتدأ، خبره: متٰع الحيوٰة الدنيا، أي تمتّع ولذة فانية فقط. ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ولما ذكر الدنيا وصفها مُزَهِّدًا فيها بقوله: إنما مثل الحيوٰة الدنيا، التي تبغون على أنفسكم لأجل التمتع بها، كماء أنزلنٰه من السماء فاختلط به، [الباء] باء التعدية أو السبب، نباتُ الأرض، فالنبات هو[2] المختلط بعضه ببعض بسبب هؤلاء، مما يأكل الناس والأنعٰم. حتىٰ إذا أخذت الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنت وظن أهلها أنهم قٰدرون عليها، أبدا فلا يتغير، إذ القادر على الشيء لا يُنزَع الشيء منه قهرا وهو قادر. أتٰها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلنٰها حصيدا كأن لم تغن بالأمس. ثم قال: كذٰلك، افهم هذه وأمثالها، فإنها تحقيق وإثبات لما قبله من الخبر، كما أن "كَلّا" ردٌّ وإبطال لما قبلها.[3] والكاف فيهما كاف التشبيه و"لا" نفي وتنزيهٌ كما أن "كذلك" إثبات وتحقيق؛ وكَلّا شُدِّدَ لامُها طلبا للتعريف. نفصل الآيٰت لقوم يتفكرون.

والمَثَل هو نبات الأرض. وإنما ذُكِر الموجب له أن يكون مختلطا من صِنْوان وغير صنوان[4] ومتشابه وغير متشابه.[5] ولهذا قال تعالى كلاما جامعا مما يدل[6] على اختلاط المتمايزين، وذلك قوله: مما يأكل الناس والأنعٰم. وليس المراد خلط الشيء في الشيء

[1] من الآية السابقة.

[2] جميع النسخ: هي.

[3] ش: لما قبله.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الرعد، ٤/١٣).

[5] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ (سورة الأنعام، ١٤١/٦).

[6] ن: ما يدل.

بل كما يختلط الناس بالناس. وكلٌّ بمفرده. والزخرف حُسْن الألوان والأصباغ، ويقال للمُزَوَّق:[١] مزخرَف كالزهور الملوَّنة. وقوله: وازَّيَّنَتْ، أصلها وتَزَيَّنت[٢] وحذفت التاء استثقالا. وقوله: وظن أهلها أنهم قٰدرون عليها، على استصحاب تلك الحالة منها دائما. والمحصود[٣] وهو الذي قُطع من أصله. وقوله: كأن لم تَغْنَ، أي ذهب ما كانت به كالغنيّ المتزين. والآيٰت، هي العلامات الدالات على قدرة الصانع وهي أقوال وأفعال.[٤]

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾

والتفكر في الصنعة من أجل الصانع غير التفكر فيها من أجلها. ولهذا عرّفَنا بعد ذلك أن جميع ألسن داعياتٌ بأمر الله إلى الآخرة وإن كانت الفانيات [أيضا] تدعو إليها، ولكن الله يدعو إليه[٥] بها، إذ هو المراد من دار السلام فقال: والله يدعوا، أي عباده بجميع ما يرونه من الآيات في الدار الفانية، إلىٰ دار السلٰم، السلامةِ من الآفات كلها من كل وجه. ثم عرّف المحسنين بعضَ ما لهم في تلك الدار، وجعل هذا التعريف بعد قوله: ويهدى من يشاء إلىٰ صرٰط مستقيم.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾

فأخبر عمن يشاء له سبحانه بالهداية فقال: للذين أحسنوا الحسنىٰ وزيادة. وقيل: الحسنىٰ، هي الجنة، لأنها مأوى كل حُسن وحَسن، وحملُ الكلام على ظاهره أولى. وأما الزيادة فهي زيادة مطلقة لم يقيد بها بعدة ولا مدة. وقيل: الزيادة النظر إلى الله تعالى، ولهذا بعده: ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة، لأنها وجوه ناظرة.[٦] والرَّهَق إلحاق الأمر، ومنه راهق الغلام إذ لحق حالَ الرجال. والقَتَر الغبار. وقيل: هو مشتق من القُتَار وهو دخان ما يحترق من اللحم. أولٰئك أصحٰب الجنة هم فيها خٰلدون.

---

١ المُزَوَّق: المزيَّن (لسان العرب، «زوق»).

٢ ن: وانزينت.

٣ أي الحصيد، وهو فعيل بمعنى مفعول.

٤ ش ك: أفعال وأقوال.

٥ أي إلى ذاته عز وجل.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ (سورة القيامة، ٧٥/٢٢-٢٣).

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾

والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله، أي من عذابه، **من عاصم. كأنما أغشيت وجوهُهم قِطَعا من اليل مظلما**، القِطَع مذكر قطعة، وهو ما قُطع من الليل. ولو قال: قِطَعا مظلما ثم من الليل لجاز أن يُفهَم أن القِطَع هو من شيء آخر، ولكن ظلمته من أجل / الليل. وأصله من قَطع يَقطع قَطعا، والاسم قِطَع مثل حَمل يَحمل حَملا والاسم حِمل. **أولٰئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون.** [٢٠١ظ]

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾

ويوم نحشرهم جميعا، أصحاب النار وأصحابَ الجنة. **ثم نقول للذين أشركوا**: ادخلوا،[١] **مكانَكم أنتم وشركاؤكم**، أي من النار.[٢] **فزيلنا**، ففرّقنا، وأصلها من زال يزول وهو لازم، وزيّل كالمتعدي مثل أزال في المعنى، **بينهم**، وبين أهل الجنة. **وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون.**

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾

فكفىٰ بالله شهيدا بيننا وبينكم، ولم يقل: علينا وعليكم، لأن المراد لنا وعلينا ولكم وعليكم. **إن كنا عن عبادتكم**، لنا، **لغٰفلين.**

﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾

هنالك تبلوا كل نفس، أي تُخبر، **ما أسلفت**، أي تكون[٣] خَبِرَة بما هي الآن جاهلة به، وهو معنى قوله: بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ.[٤] **وردوا إلى الله مولٰهم الحقِّ وضل عنهم ما كانوا يفترون**، من أمر الشركاء وانتصارهم بهم وغير ذلك.

---

١ ن – ادخلوا.

٢ ش + وأصحاب الجنة ثم نقول للذين.

٣ ش: أي تكن.

٤ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ (سورة النمل، ٦٦/٢٧).

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصر ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر، كلّه في السماوات والأرض والظاهر والباطن؟ **فسيقولون الله. فقل أفلا تتقون.**

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ثم خاطب الله رسوله بقوله: **كذلك،** المعنى كما حقت[1] كلمة العذاب على هؤلاء فصُرِفوا عن الهدى فمثلَ ذلك، **حقت كلمت ربك على الذين فسقوا،** أي خرجوا عن الإيمان فعاقبناهم فجعلناهم،[2] **أنهم لا يؤمنون،** هذه هي الكلمة: **أنهم لا يؤمنون،** أي أبدا. ويُحتمل أنها كلمة العذاب بسبب، **أنهم لا يؤمنون،** والأول أولى.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق. أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدىٰ، هَدّى بتشديد الدال مضاعفة هدى. والمراد أن الله تعالى يهدي، فيهدي من يهديه في مرة واحدة. والعبد إذا هداه الله فأراد أن يَهديَ غيره فهداه مرة بعد مرة ما شاء الله حتى اهتدى المهتدي بهداية المُهَدِّي بتشديد الدال. وهذا المُهَدِّي لا يكون مهديا إلا بأن يَهديه الحق أولا. فمن يهدي لا من هاد[3] وهو الرب تبارك وتعالى، كمن لا يَهِدّي في مرات إلا أن يُهَدّى وهو العبد. فهذا يظهر من هذا اللفظ والله أعلم. **فما لكم كيف تحكمون.**

---

[1] جميع النسخ: حققت.

[2] جميع النسخ: لجعلناهم؛ م: بأن نجعلهم على ما هم عليه.

[3] ش ك: لا عن هاد.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا، أي لا يغني[1] الظن في شيء من الحق عنه. ويحتمل أن يكون المراد بالحق هو الله، لقوله أولا: فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ،[2] فيكون المعنى كقوله تعالى: وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ،[3] أي لا أدفع عنكم في شيء يريده الله بكم من السوء. فالظن المتَّبع للشركاء هو إلٰههم.[4] ولا شك أن[5] إلٰههم لا يغني عن الله في دفع ما يَرِدُ عقابا من الله، بل الله يدفع؛ فهو يغني سبحانه إذا[6] استجار[7] به عبده في دفع ما يَرِدُ منه عليه عقابا، والله أعلم. ولهذا بعده: **إن الله عليم بما يفعلون**، أي فكيف يغنيهم في دفع الجزاء عنهم غيره وغيره ظنٌّ لا إلٰه.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾

وما كان هٰذا القرءان أن، أي يُمكن أن، **يفترىٰ من دون الله**، أي من سوى الله سبحانه، أي من كل مفترٍ.[8] لأن الله تعالى لو مكَّن المفتريَ من افتراء بنسخ الشرائع المتقدمة لَمَا جاز ذلك في حكمته ولَسقطت اللائمة عن عباده. وقوله: **ولٰكن تصديقَ**، أي جاء تصديق، **الذى بين يديه وتفصيلَ الكتٰب**، اسم الجنس، **لا ريب فيه من رب العٰلمين**.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾

أم يقولون افترٰه. قل فأتوا بسورة مثله، مثل هذا المفترَى بزعمكم. **وادعوا من استطعتم**، أن تدعوا بما تفترونه كما قد دعوتُ به. وقوله: **من دون الله**، أي من سوى الله تعالى من كل مخلوق من الناس، **إن كنتم صٰدقين**. وحذف ههنا ما بيّنه في مثله بقوله:

[1] ن: لا يغن.
[2] الآية ٣٢ من هذه السورة.
[3] ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (سورة يوسف، ٦٧/١٢).
[4] ن: هو الهمم.
[5] ن – أن.
[6] جميع النسخ: إذ.
[7] ن: إذ استجاد.
[8] جميع النسخ: مفتري.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾،[١] الآية. وهذا هو من جملة ما يُفرِّق به بين السحر والمعجزة، إن السحر لا يجاب الداعي به،[٢] والمعجزة يجاب الداعي بها.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم قال ما معناه: ليس كما تزعمون، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، فيستحيل أن يأتوا بمثل ما لم يعلموا. ولهذا بعده: ولما، / مُؤكِّدةُ "لَمْ"، يأتهم تأويله، ما يئول الأمر [٢٠٢و]
إليه مما تَواعدهم الكتاب به. والمراد وعيد المكذبين به، وهو كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾،[٣] الآية. وتلخيص ذلك أنهم لم يعلموا الكتاب ولم يأتهم العذاب الذي يجب على من كذّب به، فهو تأويل الكتاب. ولو نظروا إلى عاقبة مَن ظلم نفسه بتكذيب الرسل من قبل لَمَا كذّبوا. ولهذا بعده: كذٰلك كذب الذين من قبلهم، فانظر كيف كان عٰقبة الظّٰلمين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

ومنهم من يؤمن به، أي في المستقبل، فافهمها.[٤] ومنهم من لا يؤمن به، إلى يوم القيامة. وربك أعلم بالمفسدين، وهذه صفة من لا يؤمن فاعرفها. وهؤلاء عاقبهم فسدّ عليهم الباب وأخبر[٥] عنهم بما علم منهم قبل العقاب.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ومنهم من يستمعون إليك، أي قوم يستمعون إليك وهم المنافقون. أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون، أي قد خُلِقوا كذلك.

---

١ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٥٠).

٢ ش – به.

٣ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٥٣).

٤ ش: فافهما.

٥ ن: أخبر.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ۝٤٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾

ومنهم من ينظر إليك، بعين رأسه وهو أعمى القلب عما جئت به. **أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون**، أي لو كانوا قد عُوقِبوا بأن يُجبَروا على أنهم لا يبصرون هل لك سبيل إلى هدايتهم، إذ لا يُمكن أن يبصروا أبدا. فإن قيل: إذا كانوا لا يُمكن منهم الإبصار فقد زالت عنهم اللائمة؟ قلنا: هذا عقاب لهم بما قدّمت لهم أنفسهم. ولهذا بعده: **إن الله لا يظلم الناس شيئا**. "ظالمٌ" من صفات الذم كما أن "عادلا" من صفات المدح. فمن زعم أن الله تعالى يفعل الظلم ولا يكون به ظالما فقد لزمه أن يفعل العدل ولا يكون عادلا، فيلزم أن يكون ما وُجد عنه إنما وُجد على جهة الفيض. ولو كان كذلك لَمَا لزم الحمد، إذ لا يُحمد ولا يذمّ غيرُ الفاعل بالاختيار. ومن المحال أن يكون تعالى قد خلق ذا الاختيار ولا يقدر على ما يقدر عليه مخلوقه، فبان أنه تعالى لا يظلم الناس شيئا، **ولٰكن الناس أنفسهم يظلمون**.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝٤٥﴾

ويوم يحشرهم، الكلام بعده صفة لذلك اليوم إلى قوله: **قد خسر**. **كأن لم يلبثوا**، قبله في الدنيا، **إلا ساعة من النهار**. وهذا كلام يجده العاقل في وقته هذا إذا فكّر في الماضي من عمره وإن طال. وقوله: **يتعارفون بينهم**، يعرف الكافر الكافر، والمؤمن المؤمن، والمؤمنُ الكافرَ وبالعكس. ثم فصّلهم بقوله: **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله**، وهذا الخسران هو معنى قوله من قبل: وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ.[1] ومثال الجملة كما تقول متواعدا لزيد: كذّبت بما لم تحط به علما من كلامي، ولكن في يومِ كَيْت وكيت يَظهر تأويله ويَخسر المكذّب به. وقوله: **وما كانوا مهتدين**، أي بعد ذلك، لأنهم إن تابوا فما خسروا.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾

ليست "ثم" ههنا بمعنى الواو، لأن المعنى[2] مستقيم بها وهي[3] على حالها، وتقديره:

---

[1] الآية ٣٩ من هذه السورة.

[2] جميع النسخ: ولأن المعنى؛ م: واللفظ.

[3] جميع النسخ – وهي، والمثبت من م.

فإلينا مرجعهم، ثم إن الله الآن في الدنيا شاهد على أفعالهم، ولهذا حذف كانوا،[١] فافهم. ولو لم يقل: "ثم" لجاز أن يُفهَم أن الله هو الشاهد في الآخرة بعد الرجوع على أعمالهم. وليس بعد الرجوع عملٌ ويحقق ما قلناه حذف كان.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم، يوم الرجوع إلى الله تعالى، **قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون**. ولهذا جاءت "فإذا" بالفاء مع الرسول، لأن الكلام في الآخرة؛ وجاءت بغير فاء مع الأجل، لأنه في الدنيا وأُلحقت الفاء بعدها، بقوله: فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ،[٢] والتقديم والتأخير من عوارض الدنيا. ولهذا قال في أمر الآخرة في الجواب: قُضِيَ. وهذا مثل قوله: وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم، أي بين الأمم بِٱلْحَقِّ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ،[٣] أي في ذلك اليوم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله أنْ أَمْلِكَه، فكيف أَمْلِكُ لغيري. والمراد أنهم سألوه متى هذا الوعد؟ فذكر أنه لا يعلم الغيب، وذكر ذلك بالمفهوم من النتيجة عن علم الغيب، لأنه قال في موضع آخر: وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ / ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ [٢٠٢ظ] ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ.[٤] وهذا هو معنى [قوله:] **لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا**، إذ لو علم الغيب لَمَلِكَ ذلك فاستجلب النفع ودفع الضَّرّ. ولما كان الإنسان وإن لم يعلم الغيب يملك بعض الأمر استثنى بقوله: **إلا ما شاء الله**.

[الجبر والكسب]

ويجب أن يُعلم أن العبد يملك ما شاء الله له أن يملكه، وأنه يكون تارة مجبَرا على فعل الخير وتارة على فعل الشر. فأما فعل الشر فقد يكون الله تعالى أجبره على فعله

---

[١] أي لم يقل الله تعالى: ثم الله شهيد على ما كانوا يفعلون في الدين.

[٢] الآية ٤٩ من هذه السورة.

[٣] سورة الزمر، ٦٩/٣٩.

[٤] ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٨/٧).

عقابا له على كسبٍ تقدم، كما قال: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟.[١] وقد يكون غير جزاء، بل الأمر استعمله الله تعالى فيه لا عن اختيار العبد، كعابد[٢] الصنم قهرا فهو غير مؤاخذ. وأما الخير[٣] فقد يكون جزاء وقد يكون نعمة.[٤] فهذا باب من الجبر.

وأما الكسب فالعبد لا يُمكنه أن يكون قادرا على الإطلاق في كل شيء فيكون إلٰها، وهذا شرك. وهو القَدَر،[٥] بل العبد قادر على أشياءَ أقدره الله عليها ومكّنه أن يملكها ويختار منها. وهي[٦] ينقسم إلى خير وشر. فكسبه هو فيما خلقه الله كسبا له وخيّره ومكّنه فيه ومنه، وأقدره عليه وعلى تركه. وهذه هي السنة وهي معنى قوله ههنا: إلا ما شاء الله، فافهمها. فمن زعم أن العبد مجبَر على كل حال فهو جبري. ومن زعم أنه قادر في كل وقت على كل شيء فهو قَدَري. والوجود يكذّبه لأنه يَعجز عن أدنى شيء في بعض أحواله. والسُنّي هو الذي لا ينفي الجبر مطلقا ولا يُثبت الكسب والقدرة مطلقا بل يعتقد أن الله يجبر من يشاء كما يشاء فلا يعاقبه على ما أجبره عليه، ويجبر عقابا كما فصّلنا؛ وأن للعبد كسبا بقدرة منه مُحقَّقةٍ له، فهي مُلْك له مَلّكه الله إياها بمشيئته سبحانه يتصرف بها تصرف الملاك، ولكن لا في كل شيء بل فيما شاء الله أن يكون العبد مالكا للتصرف فيه من[٧] شيء وضده، ولهذا أمر ونهى. ولولا أن المؤمن يملك نفسه وماله لَمَا قال الله تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم [بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ]،[٨] لأنه تعالى لا يشتري من غير مالك، ولا يصح البيع ممن لا يملك، ولا يشتري هو سبحانه، فمِن نَفْسِه ما هو مُلكُه. ولكنه تعالى ملّكه شيئا ثم اشتراه منهم واقترض[٩] تارة. والبيع والقرض وما شاكل ذلك كله لفظ حقيقي لا مجاز، إذ لو كان البيع مجازا لكان الثمن عنه، وهو الجنة، مجازا لا حقيقة، وهذا خُلف. فافهم هذه الجملة جيدا ينحلّ لك بها كثيرٌ مما اختُلف فيه.

وأما قوله: **لكل أمة أجل**، فالمعنى في الدنيا. **إذا جاء أجلهم فلا يستَئْخرون ساعة ولا يستقدمون.**

١ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ (سورة التوبة، ٧٧/٩).

٢ ن: كعاد.

٣ ك: وأما الخبر.

٤ ن: نقمة.

٥ أي والكسب يرجع إلى قدر الإنسان.

٦ أي القدرة.

٧ ن + غير.

٨ سورة التوبة، ١١١/٩.

٩ ن: وافترض.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾

قل أرءيتم إن أتىٰكم عذابه بيٰتا أو نهارا، تقديره فهل يستطيعون صرفَه عن أنفسكم. ثم قال: ماذا يستعجل منه، أي من الله، ولهذا لم يقل: به، المجرمون، أي هل [يستعجل] إلا العذاب، لأن المجرم إذا استعجل ما يستحقه فقد استعجل العذاب.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾

أثُمّ إذا، اعلم أن "إذا" موضوعة للمستقبل، و"إذ" للماضي إلا أن يكون معناها "حين"، فإنها يجوز في المستقبل. فقوله: إذا ما وقع، تقديره: يقال: ءامنتم به ءالآن وقد كنتم به تستعجلون إذ لم تكونوا مؤمنين. واعلم أنه دخلت ألف الاستفهام على "ثم" لتدل على أن الجملة الثانية بعد الأولى ودخولها [عليها] كما دخلت على الواو والفاء في قوله: أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ، أَوَأَمِنَ.[١] فقوله: أثُمّ، بمعنى الاستفهام ودخلت الألف عليها بدلا مما بعدها، كما تقول لصاحبك: تصوم[٢] اليومَ ثم أتُفطر[٣] غدا؟ فلو قلت: أتصوم اليوم ثم تفطر غدا لكنت قد جعلت الألف التي كانت في[٤] أتفطر استفهاما في "ثم"، فقلت: أثم تفطر، ولم تقل:[٥] أثم أتفطر، فافهمه. وقوله: ءالئٰن، أصلها "آن"، ودخلت عليه الألف واللام، وهي أيضا استفهام في موضع توبيخ. وقوله: ءامنتم، استفهام[٦] أيضا، وبيْن الجمع مقدر محذوف، وتقديره: أثم تؤمنون بالله إذا وقع العذاب؟ ولا فرق بين قولك: ثم تؤمنون[٧] بالله إذا ما[٨] وقع، وبين قولك: أثم تؤمنون كما تقدم، لكن قوله: أثُمّ، أولى، إذ كانت لفظة "تؤمنون" محذوفة فأثْبت الألف الاستفهامية التي كانت واجبة لها في "ثم". فصار الكلام بمقدره المحذوف: أثم تؤمنون بالله إذا ما / وقع ويقال لكم: أآمنتم بالله؟ فيقولوا: آمنا. فيقال: آلآن في هذا الوقت تؤمنون حيث [٢٠٣و] لا ينفع الإيمان وقد كنتم في الدنيا بالعذاب الذي وقع بكم، والآن تستعجلون، وذلك حيث كان ينفع منكم وقوعُ الإيمان؟ فانظر في كلامي متأنيا، ثم افهم مراد الآيات

---

١ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٩٧-٩٨).

٢ ش ك: أتصوم.

٣ ن: لم تفطر.

٤ ش – في.

٥ جميع النسخ: ولم يقل، والمثبت من م.

٦ جميع النسخ: واستفهام، والمثبت من م.

٧ جميع النسخ: تؤمنون، والمثبت من م.

٨ جميع النسخ – ما، والمثبت من م.

من كلام الله لا من كلامي بل بكلامي. ثم تَمَّم القول مخبِرا فقال: **ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون**، هذا، **إلا بما كنتم تكسبون.**

﴿۞ وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾

ويستنبئونك، من النبأ، أي ويستخبرونك، **أحق هو**، ما تقوله من أوصاف العذاب في الآخرة، لأنهم لم يكونوا ممن يعرف الآخرة ولا العذاب بها. **قل إِى وربى إنه**، أي العذاب الذي تواعدكم به ربي، **لحق وما أنتم بمعجزين**، ربي أن يعذبكم بذنوبكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾

ولو أن لكل نفس ظلمت، أي بمفردها، **ما فى الأرض لافتدت به**، إياها فهلا افتدت الآنَ بالبعض مما آتاها؟ **وأسروا الندامة لما رأوا العذاب**، فهم في عذاب باطن بالندامة وعذابٍ ظاهر بالنار. وإنما أسرّوا الندامة لأن إظهارها لا يفيدهم، مع ما فيها من شماتة بعضهم ببعض. **وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون.**

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾

ولما ذكر الفِداء بكل ما في الأرض ذكر غناه سبحانه، والغني لا يأخذ الفداء ويترك الجزاء فقال: **ألا إن لله ما فى السمٰوٰت والأرض**، وتقديره: ألا يا[1] أيها الناس. **ألا إن وعد الله حق ولٰكن أكثرهم لا يعلمون. هو يحىِ ويميت وإليه ترجعون.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾

ولما أضمر عند قوله: **ألا**، أظهر ذلك فقال: **يٰأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور**. اقرأ هذه الآيات متأنيا متدبرا كأنك تسمعها من قائلها تَشْفُ إن شاء الله. فيها[2] اختصاص وإن كان المراد جميع القرآن، لكن في هذه وما بعدها بركة. **وهدًى ورحمةٌ للمؤمنين.**

[1] ن – يا.

[2] ن: فبها.

﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾

قل بفضل الله وبرحمته، جاء الشفاء والهدى والرحمة. فبذٰلك، أي لا بغيره، فليفرحوا، أي المؤمنون. هو خير مما يجمعون، الناس بأسرهم. فذكر الناس في أول[1] الآية المتقدمة والمؤمنين[2] في آخرها. فقوله: فليفرحوا، إشارة إلى المؤمنين، وقوله: يجمعون، إشارة إلى الناس، ومنهم المؤمنون. ولما قال: بفضل الله وبرحمته، لو قال: فليفرحوا، لتمّ الكلام. فقوله: فبذٰلك، ذلك يحمل ما قبله قلّ أم كثر، ذكرا كان أم أنثى. فافهمه في مواضعه، وتأمّل تكرار لفظة[3] "ذٰلك" فيها.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ۝٥٩﴾

قل أرءيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلٰلا، يريد به ما هو كقوله: مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ،[4] الآية، ومثل ذلك، قل ءآلله أذن لكم أم على الله تفترون.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٦٠﴾

وما ظن الذين يفترون على الله الكذب، أي شيء هو ظنهم في الدنيا إذا حضروا، يوم القيٰمة، أنهم لا يجازَون. ثم قال: إن الله لذو فضل[5] على الناس، فلولا ذلك لعاجلهم الإهلاك.[6] ولٰكن أكثرهم لا يشكرون. ولما قال: وما ظن الذين يفترون على الله، وكان المفهوم من ذكر القيامة الجزاء لزم ذلك أن العامل بالسوء في الدنيا يظن أن الله لا يعلم ما يعمله هذا العبدُ، وهو كقوله: وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ.[7]

---

١ ش – أول.

٢ ن: والمؤمنون؛ جميع النسخ + ثم.

٣ ك ن: لفظ.

٤ ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ (سورة المائدة، ٥/١٠٣).

٥ ولمعنى "فضل" هذا انظر: تفسير الآية التالية.

٦ ن: الهلاك.

٧ ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/٢٢).

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

فجاء بعد هذه الآية ما ينبئ عن إحاطة علم البارئ بحال المفتري وغيره فقال: **وما تكون فى شأن**، أي في حال من الأحوال، **وما تتلو منه من قرءان**. "منه" عائد على فضل الله المقدم ذكرُه، وهو القرآن. وفائدة "منه" التعريف أن كله قرآن وبعضَه أيضا قرآن؛ ولولا "منه" لكان يدل على قرآن غير هذا أيضا، فأيَّهم تلا كان الله يَشهدهم. وليس المراد ههنا إلا الجزاء المقرَّر من هذا لا من غيره. **ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه**، الإفاضة الدخول في الشيء على جهة الانصباب. **وما يعزب**، يغيب، **عن ربك من**، للتبعيض **مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغرَ من**
[٢٠٣ظ] **ذٰلك ولا أكبر إلا فى كتٰب / مبين**، ضرب مثلا لعلمه الأزلي.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

ولما كان هذا الإعلام لنا بعلمه بنا[١] في[٢] سائر الأحوال مما يوجب الخوف مما يكون والحزنَ على ما كان قال بعده: **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**، أي في الآخرة، لقوله: ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ،[٣] وقولِه: لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ.[٤] **الذين ءامنوا وكانوا يتقون. لهم البشرىٰ فى الحيوٰة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمٰت الله**، أي لما[٥] تكلم به من هذا الوعد ههنا وهو عام أيضا. **ذٰلك هو الفوز العظيم**.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

ثم قال: **ولا يحزنك قولهم**، أي من الافتراء على الله وعلى أنفسهم في اعتزازهم[٦] بالشركاء. وبيّن هذا المقدر المضمر بالمظهَر فقال: **إن العزة لله جميعا هو السميع العليم**.

---

١ ن: بناء.

٢ ش: بعلمه ينافي.

٣ ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٣٤).

٤ ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/١٠٣).

٥ جميع النسخ: المراد لما، والمثبت من م.

٦ ش: في اغترارهم؛ ن: في اعتذارهم.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

ثم ذكر دليل العزة فقال: **ألا إن لله من فى السمٰوٰت ومن فى الأرض**، فله العزة بلا شك. **وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء**، يحتمل أن يكون "ما" بمعنى الذي، أي والذي يتبعه الذين يدعون شركاء من دون الله ليسوا شركاء بل عبيد، لأن الكل له سبحانه، وليس يتبعون إلا الظن. والأولى أن "ما" ههنا نافية، وليس[١] يتبع الذي يدعون من دون الله شركاء. وإذا لم يكونوا شركاء لزم أن يقول: **إن يتبعون إلا الظن**. ولهذا قال [في] يوم القيامة: لَمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا.[٢] وقال ههنا: **وإن هم إلا يخرصون**.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

هو الذى جعل لكم اليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذٰلك لآيٰت لقوم يسمعون، أي ولو كانوا عميانا، لأن السمع يكون للأعمى والبصير.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

ثم بين المراد بقوله: وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ،[٣] بقوله ههنا بغير واو:[٤] **قالوا اتخذ الله ولدا**، فافهم مثل هذا، فهو تقديم الخبر قبل المخبَر عنه. ثم جاء بعده به ليعطف عليه ما هو أليق بالعطف عليه. ولما قدم قوله مع الكلام الأول: لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ،[٥] جامع الكلام الثاني المبين لقوله:[٦] **سبحٰنه هو الغنى له ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض إن عندكم من سلطٰن بهٰذا**، والسلطان ههنا ما يتسلط به المحقّ على المبطل من الحجة. ولمّا كان أبلغ الحجج ما جاء عن الله وقد نفى السلطان من جهتهم قال: **أتقولون على الله ما لا تعلمون**.

---

١ ن: ليس.

٢ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٧٣-٧٤).

٣ الآية ٦٥ من هذه السورة.

٤ لعل المؤلف رحمه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١١٦).

٥ الآية ٦٦ من هذه السورة.

٦ ش: لقولهم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾

قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون، لهم، متْع، قليل، فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾

واتل عليهم نبأ نوح، إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر، ثقل، عليكم مقامى، بينكم، وتذكيرى، لكم، بئايٰت الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم، أي شأنكم لما تأمرون به فِيَّ وشركاءكم. تقول: فلان أجمع على[1] كيت وكيت، إذا أجمع رأيه. ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، غُمّ الهلال إذا أخفاه غيمٌ. ثم اقْضُوا، من القضاء، إلىّ ولا تُنظرونِ. وهذا كقول إبراهيم: وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ.[2] فهؤلاء[3] قالوا عن أنفسهم بإذن الله، ومحمد عليه السلام قال عنه الله تعالى: وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ.[4] والمراد ههنا اُقْضُوا بما شئتم من السوء فلا يصل إليّ، فلا يقدر أحد [أن] يضر أحدا إلا بإذن الله. وقد بينا ذلك وأوضحنا في موضعه وعند قوله: مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ،[5] وأمثاله.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٧٢﴾

فإن توليتم، عن دعوتي، فما سألتكم من أجر، وهذا أكبر أسباب التولي، فاعرفه. إنْ أجرىَ إلا على الله، وأمرت أن أكون من المسلمين، أي ممن قبلي وممن بعدي. وقوله: وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ،[6] أي لمن تبعني.

---

١ ك – على، صح هـ.

٢ ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ (سورة الأنعام، ٨٠/٦).

٣ أي الأنبياء عليهم السلام.

٤ سورة المائدة، ٦٧/٥.

٥ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ (سورة الحديد، ٢٢/٥٧).

٦ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأنعام، ١٦٢/٦-١٦٣).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

فكذبوه فنجينٰه ومن معه فى الفلك وجعلنٰهم خلٰئف وأغرقنا الذين كذبوا بـٔايٰتنا، فانظر كيف كان عٰقبة المنذَرين، إذ كذّبوا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

ثم بعثنا من بعده رسلا إلىٰ قومهم فجاءوهم بالبينٰت فما كانوا، أمم الرسل، **ليؤمنوا بما،** الباء في "بما" باء الإلصاق، أي بالذي، **كذبوا به،** قوم نوح ولهذا قال: **من قبلُ،** أي إن الرسل من بعد نوح أرسلناهم إلى قومهم. فما كان قومهم[1] ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل، بل اتبع الأواخر الأوائلَ في الكفر، أي فاستحقوا الإغراق أيضا. فلم نغرقهم ولكن عاقبناهم بما هم فيه. ولهذا بعده: **كذٰلك نطبع علىٰ قلوب المعتدين.**
ومن ههنا يُفهَم أن قوله في أول السورة في مثل / هذه الآية: وَمَا[2] واو الحال كما قلنا. [٢٠٤و]
والباء في تلك باء السبب، ولهذا حذف به هناك، لأن هذه بالفاء، فلا يكون مكررا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

ثم بعثنا من بعدهم موسىٰ وهٰرون إلىٰ فرعون وملإيه بـٔايٰتنا فاستكبروا وكانوا، من قبل بَعْثِنا إليهم، **قوما مجرمين.**

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هٰذا لسحر مبين. قال موسىٰ أتقولون للحق لما جاءكم، تقديره: إن هٰذا لسحر مبين، لأنهم كذا قالوا في الآية المتقدمة، فحذف ذلك في الثانية. ثم قال: **أسحر هٰذا ولا يفلح السٰحرون،** أي وقد علمتم أنه لا يفلح الساحرون،

[1] ن: فما كانوا.

[2] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الآية ١٣ من هذه السورة.

لأن السحر لو كان عندهم طريق فلاح لَمَا ذَمّوا به موسى. وإنما أرادوا مقابلة ما ظنوه فاسدا وكَذِبا بمثله. وهذه الكلمات المقدرات[1] إنما أثبتُّها بيانا لك؛ وأيضا[2] وإن لم يلزم من مثبَت النص تقديرها جميعها[3] لكن يلزم البعض، ويسوق قصدُ البيان إلى زيادة التبيان.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ۝٧٨﴾

قالوا أجئتنا لتلفتنا، الْتفت لازم ولَفَت متعدٍّ؛ يقال: لفت عنقه إذا لوَاه، ففي "التفت" تاء الافتعال، ونسميها تاء الاختيار. عما وجدنا عليه ءاباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين. وهذه الأقوال وأمثالها قالوها في أزمنة.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ۝٧٩﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ۝٨٠﴾

والإلقاء إخراج الشيء عن اليد إلى الأرض أو غيرها، ويستعار[4] للأقوال، فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ.[5]

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٨١﴾

فلما ألقوا قال موسىٰ، للسحرة: ما جئتم به، أي الذي جئتم، السحر، الذي ادعيتم أنني جئتكم به قول منكرٍ مُسائِل، وتقديره: السحر ما جئتم به. فقدم الأُولى للاهتمام وليعطف عليه بقوله: إن الله سيبطله. إن الله لا يصلح عمل المفسدين.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨٢﴾

ويحق الله الحق، أي بإظهاره وتمكينه، وقوله: بكلمته، أي لا بكلمات السحرة والمجرمين، ولو كره المجرمون.

---

١ ش ك: والمقدرات.

٢ ك + جاء.

٣ ن: جميعا.

٤ ن: أو يستعار.

٥ ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ (سورة النحل، ٨٦/١٦).

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٍ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾

فما ءامن لموسىٰ إلا ذرية من قومه، قوم فرعون، لأن قوم موسى آمنوا. فاقرأ الآيات وحقِّقْ ما قلته يقينا وتأمل القصة من أولها إلى آخرها تجد الخطاب والإخبار عن فرعون ومَلَئِه خاصة. ولهذا قال: **علىٰ خوف من فرعون وملإيهم**، أي ملأ الذرية، ولم يقل: وَمَلَإِيْهِۦ[1] كما قال في أول القصة. وقوله: **أن يفتنهم**. هذه الفتنة ههنا يريد بها الإهلاك وما يشبهه، كقوله: إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ.[2] تقدير الكلام: فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون على خوف من فرعون وخوفٍ من ملئها[3] ولا المؤمنين بموسى من قوم فرعون. وإنما خافوا خشية أن يفتنهم فرعون. والمراد بذكر ملئهم ههنا الإعلام بأن الذرية لو لم يكن حين الإيمان إلا في ملأ قومهم وأقاربهم، ولم يكن ذلك الملأ من قوم فرعون الذين ليسوا ملأَ الذرية؛ لأن من أسلم وخرج عن دين سلطانه ودين أقرِبائه في حضرة أقربائه مع الخوف من فتنة السلطان والحياءِ من الأقارب فلا يكون هذا إلا[4] من شدة إيمانه وعِظَمِ انقياده إلى الله ورسوله. لا تفهم أن هؤلاء الذرية هم السحرة، أو من جملة السحرة بل ذريةُ ملأ فرعون، لأن موسى أُرسل إلى فرعون وملئه فآمن من ذرية الملأ الذين هم قوم فرعون جماعة على خوف. وأما السحرة فإنهم جميعَهم آمنوا وقالوا بغير خوف: فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ،[5] فافهم الفرق جيدا. **وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين**.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾

وقال موسىٰ يٰقوم إن كنتم ءامنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. وهذا الخطاب من موسى هو لذرية قوم فرعون، أعني الذين آمنوا خاصة وإن جاز أن يُحمَل على جميع

---

[1] الآية ٧٥ من هذه السورة.

[2] ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ (سورة النساء، ١٠١/٤).

[3] ن: من ملئهم.

[4] ن: إلى.

[5] ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ (سورة طه، ٧٢/٢٠).

قوم موسى، لكنه أولى بهؤلاء المؤمنين الخائفين. يدل على ذلك قولُه لهم من قبلُ: إن كنتم ءامنتم... توكلوا، ومن بعدُ قولُهم له: فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظّٰلمين، فرعونَ والملأ، أي لا تمتحنهم بنا. فالفتنة ههنا هي من الامتحان، كقوله: وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.[1]

[حكمة الفتنة والامتحان]

[٢٠٤ظ] واعلم أن الله / تعالى إذا جعل عبدا من عبيده المؤمنين فتنة لعبد[2] كافر فالمؤمن يكون بهذا الجَعْل من الله إما مُثابا بزيادة الحسنات أو بتكفير السيئات، والكافر يكون مفتونا من الله بالمؤمن. والكافر ممكن مِن أن يقع في الفتنة ومِن أن ينصرف عنها. فإن وقع فيها كان مفتونا من نفسه فعلا معاقَبا من الله على ذلك. وإن لم يقع كان ذلك من الله عَرْضا عليه لا إجبارا له إلا أن كان معاقَبا في الدنيا بذلك. فافهم هذا التقسيم جيدا.

فإن قلت: كيف يكون المؤمن مجعولا فتنة للكافر وله من الله على ذلك إما تكفير سيئة أو زيادة حسنة، ويجوز له أن يطلب من الله أن لا يجعله فتنة بل يجب أن يكون الأمر بالضد؟ فالجواب أن الله تعالى قد جعل الاستغفار من المؤمن قُبالة الامتحان المضاعف للحسنات. وإذا فهمت فقد ظهرت فضيلة الدعاء والعبادات والاستغفار. ولهذا علّمَنا الله ذلك في كتابه وبلسان رسوله عليه السلام. ولو فرضنا أن عبدا مؤمنا يقوم بما يجب عليه من الطاعات لم يكن محتاجا إلى تكفير السيئات، لأن هذا لم تبق له سيئة حتى تُكفَّر، مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ.[3] فإن قام بما يُمكنه من التنفّلات لم يكن محتاجا إلى ابتلاء يضاعِف له الحسناتِ. بل هذا هو الذي جاء في الحديث «فبي يَسمع وبي يُبصر».[4] فهل فوق هذا من مقام يحتاج العبد في نيله إلى ابتلاء من لبّه. وإنما الابتلاء للمقصّرين[5] عن جَهدهم، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.[6]

---

١ ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت، ١/٢٩-٣).

٢ ش ك: يعبد.

٣ سورة النساء، ١٤٧/٤.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه. فإذا أحببته كنت سَمْعَه الذي يَسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطِش بها، ورِجْلَه التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَسَاءته» (مسند أحمد بن حنبل، ٢٥٦/٦؛ وصحيح البخاري، الرقاق ٣٨).

٥ ن: للمقرين.

٦ سورة الأنعام، ١٥٢/٦.

فإن قلت: قد ابتلى الله الأنبياء والرسل وهم أعلى الناس رتبةً عند الله؟ فالجواب أن الابتلاء للرسل جاء تعليما للعباد بأفعال الرسل وأقوالهم ليَسلك قومُهم مَسلكَهم ويَقفُو التابعُ أثر المتبوع، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ؛[١] وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ.[٢] فهذا كله تعليم للعباد لئلا يُزكِّيَ أحدٌ نفسَه فيسوءَ ظنه بربه إذا فتنه، بل يعلم[٣] أن ذلك بذنبه بعد العفو من ربه عن الكثير.

وبعدَ هذا فيجب أن يَعلم أن قوله تعالى: لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ[٤] كلام عام لسائر بني آدم. وكلٌّ له رتبة من كسبه ومؤاخَذ بذنبه أو مغفور له من ربه، لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ.[٥] وقوله عليه السلام: «إنه لَيُران على قلبي»،[٦] ولا يكون الرَّين إلا عن كسب، بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ.[٧] وذلك لأن الواصل إلى الله سمعه وبَصَرُه لا يمكنه أن يستمر على تلك الحالة طولَ أيام حياته. ومتى غاب عنها فهو محتاج إلى الاستغفار والدعاء وسائر ما أمر به. ولهذا كانت الشريعة واجبة على النبي المعصوم كما يجب على واحد من أمته، إذ الكل عباد الله، وكلٌّ[٨] محتاج إلى طاعة الله. وحسبنا الله ونعم الوكيل. فلزم أن يقول المؤمنون بأسرهم: **ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظّٰلمين، ونجنا برحمتك من القوم الكٰفرين**، ليدفع الله عنهم بأقوالهم ما يستحقونه من أن يجعلهم فتنة بسبب أفعالهم. فسبحان اللطيف القويّ بالقويّ والضعيف الذي جعل الأقوال تُكفِّر الأفعالَ. وهذا من أبلغ الرحمة وأتمّ اليُسر، [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ] ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ، في الماضي والآتي، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.[٩]

وإذا[١٠] جعلتَ ما قد ذكرته لك ههنا أصلا لم يُشكل عليك ما يتفرع من هذه المسألة، وتَعلم أيضا قدر الدعاء وفضيلة العبادة إن شاء الله تعالى، لأن ذلك منك ابتلاء مُكفِّر للذنب. ومن لم[١١] يَبتلِ نفسَه طوعا ابتلاه الله كرها. ومما يزيدك بيانا ويقينا

---

١ سورة الأحزاب، ٣٣/٢١.

٢ ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ (سورة الأنعام، ٦/٣٤).

٣ ش: بل تعليم.

٤ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٥٨).

٥ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (سورة الفتح، ٤٨/١-٢).

٦ «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» (صحيح مسلم، الذكر ٤١).

٧ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين، ٨٣/١٣-١٤).

٨ ن: كل.

٩ سورة الأحزاب، ٣٣/٧٠-٧١.

١٠ ك ن: إذا.

١١ ك ن - لم.

أن هذه الذرية من قوم فرعون، إنك إذا قرأت القصة من أولها إلى قوله تعالى: قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا[1] لم تجد[2] فيها ذكْرَ بني إسرائيل وتجد[3] الإرسال إلى فرعون والملأ. فالإجابة من القوم الذين أُرسل إليهم بلا شك.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

ولما ذكر الله بني إسرائيل في هذه القصة جعل ذكْرَهم بعد ذكر الذرية من قوم
[٢٠٥و] فرعون / ونسبهم إلى موسى وهارون فقال: وأوحينا إلىٰ موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم، كانت أخبية،[4] كأخبية[5] العرب، قبلة، أي في جهة القبلة. وأقيموا الصلوٰة وبشر المؤمنين، من ذرية فرعون وهو[6] عام.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

وقال موسىٰ ربنا إنك ءاتيت فرعون وملأه زينة وأموٰلا فى الحيوٰة الدنيا، فتنة لهم وعقابا فألهاهم ذلك عن الإيمان. وقوله: ربنا ليضلوا عن سبيلك، اللام في "ليضلوا" لام العاقبة والصيرورة. ولو قيل: بل[7] هي لام كي لجاز ذلك، لقوله تعالى: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ،[8] وكقوله: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا.[9] ومعنى تكرار قوله: ربنا، أنه جاء على صورة السؤال، أي ألهذا أعطيتَهم، إشارةً إلى أنك لم تعطهم ذلك ليَضلوا بل ليهتدوا بالنعمة إلى المنعِم، فضلوا بها عنه. فلهذا كرر لفظة "ربنا". ولهذا دعا عليهم بأشد الدعاء وهو سلب النعمة وبقاء الفتنة، وذلك قوله: ربنا اطمس علىٰ أموٰلهم، دعاء عليهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة.

---

[1] الآية ٨٩ من هذه السورة.
[2] ش: لم نجد.
[3] ش: ونجد.
[4] ش ك: أخبيته.
[5] ك ن: كأخبة.
[6] ش: هو.
[7] ن - بل.
[8] سورة المؤمنون، ٢٣/٥٥-٥٦.
[9] ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٨٥/٩).

واشدد علىٰ قلوبهم، فلا يَخرجِ الكفر منها. فلا يؤمنوا حتىٰ، بمعنى إلى أن، يروا العذاب الأليم. في جهنم. ولا تعتقد أن قوله: فلا يؤمنوا، على صورة الإخبار من موسى، ولو كان كذلك لجاز بزيادة النون مرفوعا.[١]

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾

قال، الله تعالى لموسى وهارون: قد أجيبت دعوتكما، ولم يقل: دعاؤكما. والمعنى قد أُجِبْتم بإيمان الذرية والسحرة إلى ما دعوتم إليه؛ وموسى وهارون كان لهما دعوة واحدة إلى الله تعالىٰ. فلا تفهمْ أن الكلام عائد على قوم موسى بمفرده رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ،[٢] بل لمّا قال موسى ذلك قال له سبحانه ولأخيه: قد أجيبت دعوتكما، وقضيتما ما أمرتُكما به، فاستقيما، أي على الطاعة. وهذا من باب عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ،[٣] وتمامِه. ولا تتبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون، وفيه ردعٌ خفيٌّ لموسى عن مثل ذلك. فإنه خلاف قول نبينا عليه السلام: «اللّٰهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».[٤] ولا تقول: إن موسى عليه السلام [ما] دعا على فرعون إلا بعد تحققه أنه لا يؤمن وأنه وملأه يستحقون ذلك بكفرهم، فيكون غضبه من غضب الله. فلم يَنْهَه سبحانه عن قوله الذي يتعلق بالكفار، بل أمره بفعله الذي يتعلق به وأخيه.

﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠﴾

وجُوزنا ببنى إسرٰءيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا، أتبع: بتخفيف التاء ينصب مفعولين، فرعون وجنودُه فاعل، والبغي والعدْو مفعول، وبني إسرائيل المفعول الآخر. وإنما أشكل ذلك لأن الذي يسبق إلى الذهن أن البغي والعدْوَ حال، فإذا فهمته مفعولا زال الإشكال. ولهذا جاءت التاء مخففة إعلاما بالمفعول. ولو كان البغي

[١] أي فلا يؤمنون.

[٢] من الآية السابقة.

[٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ (سورة المائدة، ١٠٥/٥).

[٤] عن عبد الله قال: كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربَه قومُه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (صحيح مسلم، الجهاد ١٠٥؛ وسنن ابن ماجه، الفتن ٢٣).

والعدْوُ حالا أَغْنَى فيه "فاتّبع" بتشديد التاء، وتقدير الكلام: فأَتْبَعَ فرعون وجنوده بغيا وعدوا بني إسرائيل. ولما كانت الهاء والميم كافية عن ذكر بني إسرائيل وجاءت أولا ملحقة في قوله: فأتبع، جاء ذكر البغي والعدْوِ أخيرا، ففرعون مُتْبِعٌ، والبغي والعدو مُتْبَع، وبنو إسرائيل متبوع. وهذا[1] كقوله: وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً[2] في قصة فرعون في سورة القصص؛ فالله مُتْبِع واللعنةُ متْبَع وفرعون وقومه متبوع. وتقدم ذكرُ فرعون وقومِه مضمَرا بالهاء والميم،[3] فتأخر ذكر اللعنة مظهَرا، كما تقدم ذكر بني إسرائيل بالهاء والميم مضمرا،[4] فتأخر البغي والعدو مُظْهَرا. فكان الإتباع من الله جزاء كما كان الإتباع من فرعون ابتداء، وجاء اللفظ كاللفظ[5] قصاصا[6] واحتذاء. وفائدة هذه العبارة أنه لو قال: فاتّبعهم بتشديد التاء لكان البغي والعَدْوُ صفةً لفرعون والجنود في الزمان فقط. فجاءت التاء مخففة إعلاما أن هذا كان وصْفَهم من قبل ثم أتبعوهم به من بعدُ. **حتىٰ إذا أدركه الغرق قال ءامنت أنه لا إلٰه إلا الذى ءامنت به بنو إسرٰءيل وأنا من المسلمين.**

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

[٢٠٥ظ] قال الله تعالى: **ءالئٰن**، هذا استفهام معطوف عليه ما بعده من تقدير / الاستفهام. وقوله: **لتكون لمن خلفك ءاية**، هو من تمام الكلام، ومعناه: اليومَ نفعل معك هذا الذي إنما نفعله لكيت وكيت، وهي جملة واحدة. ولهذا قال بالفاء: **فاليوم**، ولو كان إثباتا لحذفها. فافهم الجملة من قوله: **ءالئٰن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين**، وهذا يَعضده قوله: وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ.[7] فافهم ذلك.

وعطف على الأول مستفهما استفهام توبيخٍ بقوله: **فاليومَ نُنَجِّيك ببدنك**، ولو قال: ننجيك ولم يقل: ببدنك، لدل على نجاة مطلقة في الدنيا والآخرة من طريق احتمال المطلق. ولو قال: ننجي بدنَك لدل على نجاة البدن دون النفس، فلا يبقى جسمه في الماء كما يبقى الغريق. وقوله: **ننجيك ببدنك**،[8] أي ننحيك حيًا بالبدن.

١ ش – وهذا، صح هـ.
٢ سورة القصص، ٤٢/٢٨.
٣ أي في الآية الآخيرة هذه.
٤ أي في الآية التي نحن بصدد تفسيرها.
٥ ك – كاللفظ، صح هـ.
٦ أي اتّباعا.
٧ سورة النساء، ١٨/٤.
٨ ن – ننجيك ببدنك.

وقوله: لتكون لمن خلفك ءاية، أي علامة تُطمع[1] التائبين في العفو، ونحن لا نعفو عنك ولا عن المسرفين مثلك. ويلزم عن ذلك ما معناه: بل نُغرقك لتكون لمن خلفك ممن[2] يعمل عملَك آية تدل على أنه يصير إلى ما صرت إليه فيضطرّ إلى تعجيل التوبة. فلمّا كان إغراق فرعون وكونُه لم تُقبل له توبة ولا إيمانٌ ولا إسلام قد عاد آية تُنبِّه على التعجيل للتوبة[3] قال بعده: وإن كثيرا من الناس عن ءايٰتنا لغٰفلون.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ولقد بوأنا بنى إسرٰءيل مبوأ صدق، أي أنزلناهم منزلَ صدق، ويريد به البيت المقدس وما حوله من الأرض المقدسة، لأنها مسكن الصدق والصادقين وهم الأنبياء. والصدق هو ما نزل على الأنبياء. ورزقنٰهم من الطيبٰت. فما اختلفوا حتىٰ جاءهم العلم، أعلمَنا الله أن الاختلاف لم يكن فيهم إلا بعد مجيء العلم وهو الإنجيل والقرآن، فافهم ذلك. إن ربك يقضى بينهم يوم القيٰمة فيما كانوا فيه يختلفون، والاختلاف على الإيمان بالرسل والكتب. ولقد بينه الله سبحانه في البقرة بقوله: فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ.[4]

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾

فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك، هذا خطاب للعام بلسان الخاص، والمراد بقوله: فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك، أي مما هو في التوراة، وقد أنزلناه إليك. والإشارة إلى ما تقدم ههنا من قصة فرعون وموسى وغير ذلك. فهو إذا سأل أهل الكتاب عنه أخبروه بصحته لأنه في التوراة. وليس المراد: فإن كنت في شك من جميع ما أنزلنا إليك، بل من هذه الوقائع ليكون السؤال للذين يقرءون التوراة نافعا للسائل[5] والسامع.

---

١ ك: نطمع.

٢ جميع النسخ: فمن.

٣ ك ن: التوبة.

٤ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ (سورة البقرة، ٢٥٣/٢).

٥ ك ن: السائل.

وقوله: فاسئل الذين يقرءون الكتٰب، يريد من أسلم، ولهذا لم يقل: فاسأل أهل الكتاب، من قبلك. تقديره فسيقولون: لقد جاءك الحق من ربك. ثم قال: لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، فحذف قولهم وأثبت قوله ونبّه على ما حذف بما أثبت. وهذا المعنى كقوله: أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ.[1] وذلك أن العلماء أسلموا فهم يعلمون يقينا أن القرآن حق بلا شك، وذلك العلم من التوراة. والإشارة إلى ما جاء في القرآن مثله منها، فهو آية لبقية من آمن من غير بني إسرائيل [و]يلزم عنها أن كل القرآن حق في نفسه. ففي هذا الموضع يريد بقوله: فسئل الذين يقرءون الكتٰب من قبلك، أي العلماء الذين أسلموا لا أنه يسأل اليهود المكذبين وإن كانوا يقرءون، فافهم ذلك. فإن أولئك في حقيقة الأمر ما قرءوا، وإن قرءوا[2] فمَثَلهم: كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا.[3] ولهذا لما قال: فسئل الذين يقرءون، وهم ينقسمون إلى قسمين: قسم آمن وقسم كذب، قال بعده: ولا تكونن من الذين كذبوا بـٔايٰت الله فتكون من الخٰسرين. فهذه[4] الآية وإن كان الخطاب بها للنبي عليه السلام فهو لجميع أمته ممن لو كان في شك من صحة القرآن وسأل العلماء من اليهود الذين أسلموا لزال الشك يقينا. فافقه جيدا أنه كان السؤال ههنا إنما هو ممن عنده شك، [ف]وجب أن يكون لمن آمن من علماء أهل الكتاب، إذ السؤال لمن كذّب لا يزيل الشكَّ في

[٢٠٦و] التصديق بل في التكذيب، فلا يَشكّ في أن / القرآن غير صادق بعد ذلك السؤال. فمتى سأل المكذبين فهو منهم، لأنه ههنا إنما سألهم ليزيل ما عنده من الشك بقولهم فجعلهم هم[5] سبب الترجيح لِما عنده من أمر مشكوك فيه. فمتى اعتمد على المكذبين فهو منهم. ولهذا كان في قوة هذه الآية النهيُ عن السؤال للمكذبين. وذلك بطريق المفهوم من لازم كلامها إذا تأملته. وتمام الكلام بعدها: إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون، أي حقت بالعذاب فاستحقّوها كفرعون وملئه.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

وذلك يوم لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا.[6]

---

[1] سورة الشعراء، ١٩٧/٢٦.

[2] ن – وإن قرءوا، صح هـ.

[3] ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (سورة الجمعة، ٥/٦٢).

[4] ش: وهذه.

[5] ن: هو.

[6] ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ (سورة الأنعام، ١٥٨/٦).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

فلولا كانت قرية ءامنت، أي هلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها بتكذيبها هلا آمنت. **فنفعها إيمٰنها**، قبل أن يَحِقّ عليها القول. ولما كان المراد بتقديم قصة فرعون ههنا أن يجعله آية تدل الناس على أن من أخّر التوبة إلى أن جاءها العذاب لم يقبل توبته ضَرَبَ لهم مثلا بضد ذلك، فجعله آية[1] تدل الناس[2] على أن من قدم التوبة قبل مجيء العذاب قُبِلت منه، فقال: **إلا قومَ يونس، لما ءامنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوٰة الدنيا ومتعنٰهم إلىٰ حين**، متاعا حسنا إلى أجل مسمى.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا، كرها. **أفأنت تكره الناس حتىٰ يكونوا مؤمنين**، أي تُجبرهم على الإيمان، ليس لك ذلك بل لله، وَلَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ،[3] لا منك ولا من الله.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

وهنا ما يجب أن تفهمه وهو قوله: **وما كان لنفس**، كافرة معاقَبة بالضلال، **أن تؤمن إلا بإذن الله**، أي بعلمه وإطلاقه، وهذا لكل[4] نفس مطلقا ومخصَّصا بالكافرة[5] المعاقَبة بالكفر بعد الإيمان. وهذا صحيح عقلا، لأن كل نفس ليس لها من تلقاء نفسها إيمان إلا بإذن، فكيف يقدر أحد أن يُكره الناسَ على إيمان والأمر كذلك. ويبين لك بقيةَ المسألة بقيةُ الآية، وهو قوله: **ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون**، عقابا لهم على تركهم ما خلقه لهم من العقل الذي به يُبصرون الحق من الباطل. ومن أعطاه السلطان نورا يستضيئ في ظلمة فأطفأه وستره ولم[6] ينتفع به كمن غمض عينيه ومشى فوقع في بئر، فهو يستحق اللوم والموت مضافا إلى ما وجده من الوقع. وهذا وأمثاله

---

[1] ش ك: أنه.

[2] ك ن – الناس.

[3] ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ (سورة البقرة، ٢٥٦/٢).

[4] ن: الكل.

[5] ش ك: بالكافرة ومخصصا.

[6] ن: وستره لم.

لا يأذن الله لهم أن يؤمنوا، لأن آلة[1] الإيمان معهم فلم يستعملوها. ويلزم أن من عَقَل الآيات لا يجعل الله عليه الرجس بل يأذن[2] له في الإيمان، فعاد سببُ الإيمان، وإن كان من عند الله وبإذنه، لكنه راجع إلى الإنسان الذي يقدر أن[3] يعقل الآيات ويقدر أن يَستحِبَّ العمى على الهدى[4] بإذن الله، لأنه تعالى لا يكون بشيء إلا بإذنه لئلا يكون مقهورا من خلقه.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾

ولهذا بعده: قل انظروا ماذا، أي كلَّ ما خلق الله، فى السمٰوٰت والأرض، إذ الكل علامات الصانع. ثم مع هذا، وما، نافية، تغنى الآيٰت والنذر عن قوم لا يؤمنون، وهذا كقوله: إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا.[5] أي فإنك لا تقدر [أن] تُكرهه على ذلك ونحن نقدر، ولا نفعل أيضا لفائدة التكليف الذي هو حكمة الإيجاد. والمعنى ههنا أنه تعالى لمّا قال: أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ،[6] بين أنه سبحانه إذا جعل الرجس على الذين لا يعقلون عقابا لهم لا تفيدهم الآيات ولو جُمع لهم مَن في السماوات والأرض، فكيف تكرههم أنت فتطمع في إيمانهم. وهذا كقوله: وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ،[7] الآية.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾

وإذا كان كذلك، فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، أي فرعون وقومِه ومَن قبلهم مِن المكذبين المهلَكين بسبب التكذيب الذي سببه تركُ العقول التي هي آلة النظر إلى الآيات. قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين. ولهذا بعده: ثم ننجى رسلنا والذين ءامنوا، ننجيهم حين وقوع العذاب في الدنيا، أي كما أنجينا موسى وقومه.

---

[1] جميع النسخ: الآلة.

[2] ش ن: بل بأذن.

[3] جميع النسخ: أي.

[4] فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (سورة فصلت، ١٧/٤١).

[5] سورة النمل، ٨١/٢٧؛ وسورة الروم، ٥٣/٣٠.

[6] الآية ٩٩ من هذه السورة.

[7] ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (سورة الأنعام، ١١١/٦).

كذٰلك حقا علينا ننج المؤمنين، من هذه الأمة المحمدية، إذ لا أمة بعدها إلى يوم القيامة وقد مضى ما قبلها.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

قل يٰأيها الناس إن كنتم / فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولٰكن أعبد الله الذى يتوفٰكم وأمرت أن أكون من المؤمنين. ومن الأمر المعطوف على [قوله:] وأمرت، [قوله:] وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين. [٢٠٦ظ]

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك. لمّا كان الإنسان يطلب النفع أكثر مما يخاف الضُّرَّ قدم ههنا ذكر النفع مع النفي لما قرنه بغير الله، وعطف عليه ذكر الضر كذلك لينفي القدرة عن كل مدعوّ غيرِ الله تعالى. وفي الآية التالية[١] لمّا كانت القدرة في كشف الضر أبلغ وأظهر للعقول قدّم الضر مع الكشف ليثبت القدرة لله وحده، مع نفيها عن سواه وأتبعه بذكر الخير. فلهذا قال ههنا: ولا يضرك، وتقديره: ولا ينفعك إن دعوته ولا يضرك إن تركته. فلما قال: ولا تدع، قرن به النفع. وهذا الخطاب للنبي عليه السلام ويريد به سائر الناس. فإن فعلت، والمراد قلت، فعبر بالأعم، فإنك إذا من الظٰلمين.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

عطف بواو الحال فقال: وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، إذ قد تقدم أن كل مدعو سواه لا ينفع ولا يضر من سائر الآلهة المدعوّين. وإن يردك بخير فلا راد لفضله، يصيب به من يشاء من عباده، وإن لم يستحقَّه بل كَرَمًا[٢] منه. وهذا فتح لباب الرجاء لئلا يَقنَط عاصٍ بل يَطمع فيتوبَ. ولهذا نبّه على ذلك بقوله: وهو الغفور الرحيم. وجاء هذا الكلام الثاني بعد الأول الذي جاء مثله في الأنعام لمعنى آخر،

[١] جميع النسخ: الثالثة، والمثبت من م.

[٢] ن: بل كرها.

وهو أن ذكر الثاني ههنا يدل على التخصيص في النهي عن دعاء الآلهة والإطلاقِ عما سوى الله تعالى لكونه لا يكشف الضر إلا هو. وفي الآية الأولى أيضا وصفه بالقدرة على النفع والضر لقوله: فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،[1] فكل ما يصح أن يكون مقدورا عليه فالله على ذلك قدير. وفي هذه نفيُ أنْ يغالبه مُغالب، فالفاعل أوَّلًا يوصف بقدرته على الضدين. وليس كل من كان كذلك يَمتنع أن يَقهره قاهر، فذكر الأولَ أولا و الثاني ثانيا. وتقدم على كل كلام ما يضارعه، إذا تأمله المتأني وجده. ثم قال:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

وقوله في آخر السورة: واتبع ما يوحىٰ إليك واصبر حتىٰ يحكم الله، أي بنصرة الحق وخذلان الباطل وأهله. وهو خير الحٰكمين، سبحانه وتعالى.

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٧).

سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾

الٓر، تأمَّلْ كيف [كان] أكثرُ أول سورة يونس كأكثر[1] أول[2] سورة هود. فاعتبر: الٓر، ومثلَها، وقولَه: الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ،[3] وقوله: كتٰب أحكمت ءايٰته، وقوله: أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ،[4] وقولَه ههنا: إننى لكم منه نذير وبشير، وغيرَ ذلك مما تراه. ومعنى قوله: ثم فصلت من لدن حكيم خبير، تقديره: أُحكمت آياته من حكيم خبير، ثم فصلت، أي كلُّ فصلٍ أتى[5] في زمن، وهو محكم لا يحتاج إلى غيره وإن شهد له غيره. وليست ههنا "ثم" للتراخي بل لمجرد العطف، ومثله بعد: وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه. ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم، عما مضى، ثم توبوا إليه، فيما يأتي، والأمر عام أيضا. يمتِّعْكم متٰعا حسنا إلىٰ أجل مسمى، يريد به طولَ العمر. والتأخير ههنا هو من الأجل الأول إلى الثاني المسمى كما بيّنّا في أول الأنعام.[6] وقوله: ويؤت كل ذى فضل، أي من الناس على الناس، فضله، سبحانه. وإن تولوا، تتولوا، فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير. إلى الله مرجعكم وهو علىٰ كل شىء قدير.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا، بزَعمهم، منه، سبحانه، والتي بالصدور عن القلوب. وسمي الصدر صدرا باسم المصدر من صَدَر لِما يَصْدُر عنه، وإن كان ما يصدر

---

[1] جميع النسخ: كاثر، والمثبت من م.

[2] ك ن – أول.

[3] سورة يونس، ١/١٠.

[4] ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ (سورة يونس، ٢/١٠).

[5] جميع النسخ: أي، والمثبت من م.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٢/٦).

إنما هو صادر عما في الصدر ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.[1] وثَنَى الشيءَ إذا ردّه، تقول: ثنيت عزم فلان عن السفر، أي رددته.[2] فقال: ألا،[3] أيها الناس! إن هؤلاء يردون قلوبهم، لأنهم إذا ثَنَوا صدورهم فقد أثنيتُ معها القلوب / التي فيها حسًا. ثم [٢٠٧و] قال بصورة الإخبار عنهم: ليستخفوا منه. ويحتمل أنه بصورةِ مستهزئٍ في الاستخفاء كقوله: ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾،[4] أي والله مبديه لك. ثم قال: **ألا حين يستغشون ثيابهم**، المراد أنهم كقوم نوح في بقية الوصف.[5] **يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات**، يريد بها صاحبه، وهي النفس ههنا. ويشار بالنفس إلى نفس الشيء وحقيقته. فقولهم: ذات البارئ كقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.[6] وهذه الألفاظ خُوطِبْنا بها[7] ليصلَ بها المقصودُ إلى أفهامنا بالأمثال المستعمَلة[8] لنا. فإذا أردنا أن نُمشي الأمثال من سائر الوجوه ونفهمها[9] على ظاهرها فيما يعود على الخالق كما يعود على المخلوق أخطأنا الطريقَ وفارقنا القصدَ. ومتى علمنا أن الاستعارات جائزة وقَصَدْنا بها الأغراض، لا أنها هي الأغراض[10] فقد أصبنا. والمراد ههنا علم البارئ بما تخفيه[11] صاحبة الصدور.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

ثم ذكر بعد العلم بما في الصدور ما هو أعظم في باب العلم فقال: **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتٰب مبين**، أي كما يعلم الناظر في كتاب مبين، فهو تمثيل موصِّل. والمستقر الأصلاب، والمستودع الأرحام. وهذا فيه إشارة إلى تدبيرها وتصويرها هناك وهو عظيم.

---

[1] ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، ٤٦/٢٢).

[2] ش: رديته؛ ن: أي ردينه.

[3] ك + يا.

[4] سورة آل عمران، ١٥٤/٣.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ (سورة نوح، ٧/٧١).

[6] سورة آل عمران، ٢٨/٣.

[7] ش ك: خوطبنا به.

[8] ن – المستعملة.

[9] ك ن: ونفعهما؛ ر ش: ونفعها، والمثبت من م.

[10] ك – لا أنها هي الأغراض، صح هـ.

[11] جميع النسخ: يخفيه، والمثبت من م.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾

ولما ذكر [هناك] العظيم من العلم عقّبه بذكر العظيم من القدرة، والله أكبر، فقال:[1] **وهو الذى خلق السمٰوٰت والأرض فى ستة أيام**. قد علمت قوله: إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ.[2] فهذا الكلام يدل على أيام معروفة عندنا الآن لا من أيام الله الذي ضرب بها المثل في قوله: خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ،[3] وهذا بيّن في التوراة.[4] وكونُه ذكر أنه خلق ذلك في هذه المدة بعد القدرة على أن يخلقهما في لمح البصر أو أقرب دليل على أن الله تعالى يُمهل عباده مع القدرة عليهم ليقطع حجتهم أو ليحسن إليهم. ومن ذلك أنه سبحانه يُعلّمهم أن الأشياء المفعولة لهم يجب أن تكون[5] بالأناءة والتدريج. ومن ذلك أن الخلقة في هذه المدة أدلُّ على الحدث وغير[6] ذلك. وقوله: **وكان عرشه على الماء**، إخبار دال على عظم القدرة بأمثال نتيجتها ما يستقر في الأفهام من تعظيم رب عرش الماء، والماء على غير قرار. وقد بيّنّا المراد بالاستواء والعرش في موضع آخر،[7] فافهمه. وقوله: **ليبلوكم أيكم أحسن عملا**، أي خلَق ذلك ليختبركم، لكنه اعترض بينهما إخبارٌ وهو قوله: **وكان عرشه على الماء**. وفائدة هذا المعترِض ههنا أنه لم يكن محتاجا إلى السماوات والأرض يستقر عرشه عليهما. فذكر لهم أنهى ما في عقولهم من المحدَثات التي يستقر عليها عرش في العرف والعادات، ويتحقق في أفهامهم أنه عنصر بسيطٌ أوّلَ فيما تركب من الحيوان والنبات. وذكَر أن الغرض بخلقه ذلك، ليبلوكم، فترك الناس ما من أجله كان الخلقُ.

---

[1] ن – فقال.

[2] سورة يس، ٨٢/٣٦.

[3] ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (سورة المعارج، ٤/٧٠).

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع» (الخُرُوج ١١/٢٠). وانظر أيضا: الخُرُوج ١٧/٣١.

[5] ك ن: أن يكون.

[6] ن: وغيره.

[7] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف. وانظر أيضا: تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (سورة السجدة، ٤/٣٢).

ثم عادوا يتعلقون بشيء من الخلق أو يتعرضون إلى ما لا علم لهم ما به دعاهم إلى الأحسن ما يجب أن يجتنبوه من الأقبح.

ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولَنّ الذين كفروا إن هٰذا إلا سحر مبين. ليس المراد هذا الكلامَ فقط بل جملة القرآن الذي هذا بعضه. وإنما ذكر هذا لأنه أصل عليه تُبنَى قواعدُ العقائد، إذ الإيمان به يلزم عنه القول بالصانع وأن له إطلاق القدرة وكمالَ الحكمة. وبهذا البعث تظهر فائدة التكليف وتتحقق[1] الحسية. ولو أخذ البليغ يتكلم فيما يحتمله الإيمان بالبعث من الحِكَم ويبسط ذلك لِيدخل في الأفهام بالأمثال لضاق الزمان وكَلَّ اللسانُ وتَحِيرَ الجَنان. ولهذا كرر ذكره سبحانه في عدة مواضع وتواعد لمن كفر به، كقوله: **ولئن أخرنا عنهم العذاب إلىٰ أمة معدودة**، كقوله: وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ،[2] أي إن أخّرنا العذاب الذي يستحقونه بإنكار البعث الذي أوجب قولهم: إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٌ،[3] **ليقولن**، مستهزئين، **ما يحبسه**. **ألا يوم يأتيهم ليس**
[٢٠٧ظ] **مصروفا عنهم**، بعده أبدا، **وحاق**، حاط، **بهم** / **ما كانوا به يستهزئون**، من العذاب الذي كذبوا به فاستهزءوا.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾

ولئن أذقنا الإنسٰن منا، من لدنا ابتداء لا جزاءً، **رحمة**، ولو كانت رحمةَ جزاءٍ لم يقل: **ثم نزعنٰها منه**. وقوله "منه"، أي من أجل ما قدمت يداه، وهذا فائدة "منه" وإلا كان قوله: **ثم نزعنٰها**، كافيا. ودليل ما قلناه قوله تعالى: ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ.[4] **إنه ليئوس كفور**.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠﴾

ولئن أذقنٰه نعماء، إما اختيارا أو جزاء، **بعد ضراء مسته**، بما قدمت يداه، **ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور**.

---

١ ك: ويتحقق.

٢ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٤٥).

٣ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ (سورة يونس، ١٠/٧٦).

٤ سورة الأنفال، ٨/٥٣.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

إلا الذين صبروا، على الضراء، وعملوا الصّٰلحٰت، في السراء والضراء. أولٰئك لهم مغفرة وأجر كبير.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

فلعلك تارك بعض ما يوحىٰ إليك، و"ضائق" و"ضيّق" بمعنى، وقوله: وضائق به صدرك، بعد قوله: تاركٌ، أمثل، أن يقولوا، أي حذرا أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير. والله علىٰ كل شيء وكيل.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

أي ادعوا من شئتم سوى الله تعالى، أي من كل مخلوق ليؤمنوا بما جئتم به.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾

ثم بنى على هذه الآية ما بنى بعدها من الآيات، فهو منسوق عليها كأنها دعوى -وهي قوله: "من كان"[١]- وما بعدها كالبرهان لها فقال: من كان يريد الحيوٰة الدنيا وزينتها، والمعنى أنه يريدها دون الآخرة كالذين[٢] اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.[٣] والإرادة لا تظهر ولا تصح إلا بالعمل، لهذا قال: نُوَفِّ إليهم أعمٰلهم فيها، وذلك العطاء في الدنيا، ولهذا كرر لفظة "فيها" بقوله: وهم فيها لا يُبْخَسون، في المجازاة في الدنيا.

[١] جميع النسخ: ما كان، والمثبت من م.
[٢] جميع النسخ: كالذي، والمثبت من م.

[٣] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٨٦).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾

ثم قال: **أولٰئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار، وحَبِطَ ما صنعوا فيها**، في الدنيا، **وبٰطلٌ ما كانوا يعملون**. فهذه دعوى، وبرهانها: **أفمن كان**، في إيمانه بربه، **علىٰ بينة من ربه**، أي مستيقنا صحةَ ما هو عليه. وهذا كقوله: أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي، أي على يقين في إيمان به، وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ [فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ]،[1] يشير إلى الوحي فهو غير البينة [عندهم]، وكذلك ههنا، وهو قوله: **ويتلوه**، تلا فلان فلانا إذا جاء تِلْوَه، ومنه التلاوة، لأنها تأتي متتابعةً بعضٌ وراءَ بعض. فقال: **ويتلوه شاهد منه**، أي من ربه، والشاهد القرآن؛ وإنما سماه شاهدا لصدق ما أخبر به من الغيب وتصديق الرسل وغير ذلك. **ومن قبله**، قبل الشاهد منه الذي هو القرآن شاهد آخر صدّق رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه بألوف من السنين، وهو، **كتٰبُ موسىٰ**، جاء، **إماما ورحمة**. والمراد ههنا رسول الله عليه السلام ومن تَبِعه من أقوام هم في أنفسهم على بينة من ربهم، ولهم شاهدان مزكِّيان لما قامت به البينة في أنفسهم، وهما القرآن والتوراة. ولا شك أن هذين يريدان إيمانهم. ولهذا قال: **أولٰئك يؤمنون به**، بالقرآن. وههنا محذوف، تقديره: أفمن كان على بينة من ربه كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها[2] وهو على[3] غير بينة من ربه. فتكون[4] الجملة بمعنى أفمن كان مؤمنا كمن كان كافرا. واستغنى عن ذكر المحذوف بما دل عليه من التقسيم من ذكر المؤمنين وبقوله: **ومن يكفر به**، لأنه تقدم فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ،[5] فالضمير في الجميع إليه وهو قوله: **شاهد منه ومن قبله، وبه**. ودليله قوله أخيرا: **إنه الحق من ربك**. فقال: **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده**، موضع الوعيد، فصار معنى الجملة بما ههنا تقديره: أيستويان كلاما تاما، فاقرأه من قوله: **أفمن كان**، لتفهمه جملةً بعد ما فهمته مفصَّلا. ولهذا بعده: **فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولٰكن أكثر الناس لا يؤمنون**.

---

١ الآية ٢٨ من هذه السورة.

٢ يشير المؤلف إلى الآية ١٥ من هذه السورة.

٣ ن – على.

٤ ك ن: فيكون.

٥ الآية ١٣ من هذه السورة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

ولما كان هذا الكلام مبنيا على قوله: أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ،[1] كما تقدم قال بعد هذه الآية: **ومن أظلم ممن افترىٰ على الله كذبا. أولٰئك يعرضون علىٰ ربهم ويقول الأشهٰد**، جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب: **هٰؤلاء الذين كذبوا علىٰ ربهم ألا لعنة الله على الظٰلمين.**

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها، ويطلبون / السبيل، **عوجا**، بعوج.[2] **وهم** [٢٠٨و]
بالآخرة هم، من تلقاء أنفسهم، وهي للتخصيص فإنه فرقٌ بين قولك: زيد كريم وبين قولك: زيد هو الكريم، وهؤلاء، **هم كٰفرون.**

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أولٰئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء. يضٰعف لهم العذاب، لأنهم في الدنيا، **ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون**، الآيات. فعاقبهم الله في الدنيا بالطبع على القلوب وفي الآخرة بالنار. وسبب ذلك كله الافتراء كما تقدم بقوله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ.[3]

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾

وقال ههنا: **أولٰئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون**، من الآلهة، كقولهم: ضَلُّوا۟ عَنَّا.[4]

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

لا جرم، أي لا بد، والجزم القطع، أي لا قاطع ولا مانع، **أنهم فى الآخرة هم الأخسرون**،

---

١ الآية ١٣ من هذه السورة.

٢ ك ن: يعوج.

٣ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام، ١٤٤/٦).

٤ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٧/٧).

لا الخاسرون، لأنهم مع خسارة الأنفس،[1] ضلت عنهم الآلهةُ التي كانوا يزعمون أنها تُنجيهم عند المصيبة وضل عنهم النصيرُ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾

إن الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت وأخبتوا، الإخبات[2] الخشوع المستمر على استواء، فهو سكون الجوارح لأجل الخضوع. والخَبْت الأرض المستوية الواسعة. وقوله: **إلىٰ ربهم**، أي في سَيْرهم وسلوكهم إلى طاعة ربهم. ويُستعمَل "إلى" بمعنى اللام وبالعكس، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾.[3] **أولٰئك أصحٰب الجنة هم فيها خٰلدون.**

﴿۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾

ثم قال مبينا لما قسّمه وبعد ذلك فصّله بذكر فريق في النار وفريقٍ في الجنة.[4] فضرب ههنا بعد تمام الكلام مثلا أخيرا ختم به القصة[5] فقال: **مثل الفريقين كالأعمىٰ والأصم والبصير والسميع**، المعنى كالأعمى والبصير[6] والأصم والسميع،[7] فذكر الوصفين من الاثنين معا. وسبب ذلك أنه[8] أرادهما في شخص واحد وفي اثنين أيضا. ولو حذف الفاء فقال: كالأعمى الأصم لم يحتمل أن يكون كل صفة لواحد.[9] ولو قال كالأعمى والبصير لم يحتمل أن يكون الصفتان، أعني العَمَى والصَّمَم في شخص واحد، فلهذا ذكر هذه الصورة، والله أعلم، وقال: **هل يستويان مثلا أفلا تذكرون.**

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾

---

[1] ك ن: والأنفس.

[2] ش: والإخبات.

[3] ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾ (سورة يونس، ٣٥/١٠).

[4] يشير المؤلف إلى الآيتين السابقتين.

[5] ن: ختم بالقصة.

[6] ك – والبصير.

[7] ن + والبصير.

[8] جميع النسخ: لأنه.

[9] جميع النسخ: الواحد، والمثبت من م.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نرٰنك إلا بشرا مثلنا وما نرٰنك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى، أي ببادي الرأي منهم من غير تفكر، فلو تفكروا لرجعوا عنك. ولو كان المعنى "ببادي الرأي منا" لقدم[1] فقال: وما نراك باديَ الرأي. وما نرىٰ لكم علينا من فضل بل نظنكم كٰذبين. والفضل ههنا يريد به الفضيلة لا التفضيل والإحسان.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قال يٰقوم أرءيتم إن كنت علىٰ بينة من ربى وءاتٰنى رحمة من عنده، الرحمة تعم كلَّ خير، فعميت، فخَفِيَت، عليكم، ومنه المُعَمَّى وهو اللُّغز. أنلزمكموها وأنتم لها كٰرهون. الضمير عائد على البينة، والأولى[2] أنه [عائد] على[3] الرحمة. فإن البينة هي التحقق[4] بصحة المُولَى من المُولِي، والمُولَى[5] هو الرحمة لقوله عن القرآن: هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.[6]

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ويٰقوم لا أسئلكم عليه، على نصحي لكم، مالا إن أجرىَ إلا على الله وما أنا بطارد الذين ءامنوا، لكونهم عندكم أراذلكم،[7] إنهم ملٰقوا ربهم، أي فيجزيهم بأعمالهم. ولٰكنى أرٰنكم قوما تجهلون، الجزاء واللقاء.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ويٰقوم من ينصرنى من الله، أي من عقابه، إن طردتهم أفلا تذكرون، الجزاء.

---

[1] جميع النسخ: تقدم، والمثبت من م.
[2] ن + على.
[3] ك: على أنه.
[4] ن: هي التحقيق.
[5] ك: المؤلي من المؤلي والمؤلي.
[6] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس، ١٠/٥٧).
[7] جميع النسخ: أراذيلكم، والمثبت من م.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

ثم نسق على [قوله:] لَآ أَسْـَٔلُكُمْ،[1] [قوله:] **ولا أقول لكم عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إنى ملك. ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا. الله أعلم بما فى أنفسهم**، ولي ما ظهر. **إنى إذا لمن الظّلمين.**

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾

قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين، الله سبحانه. ثم نبّه بهذه الآية على حلّ أكثر المشكلات التي هي من جنس المشكل في قوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ،[2] الآية.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

فقال ههنا:[3] **ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم**، أي عقابا، وهذا هو معنى قوله: فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن / يُضِلُّ.[4] فأما إذا لم يُرِد [٢٠٨ظ]
الله أن يغويهم عقابا لهم فإنّ نصح النبي ينفعهم، فافهم هذا جيدا. **هو ربكم وإليه ترجعون**، وهو من باب التحذير مما بعد الرجوع. وهذا آخر كلام نوح لقومه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله بعده: **أم يقولون افترنه**، هو خطاب للنبي عليه السلام. **قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون**، وهذا من تمام الكلام الذي جاء في الافتراء أولا من قوله: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ.[5] فجملة الكلام في الافتراء وهذه الآية منه.

---

١ من الآية السابقة.

٢ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (سورة القصص، ٥٦/٢٨).

٣ ن: فههنا قال.

٤ ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ (سورة النحل، ٣٧/١٦).

٥ الآية ١٨ من هذه السورة.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ولما كان كلامُ نوح مثلَ كلام النبي عليه السلام، وقضيتُه مع قومه كقضيته مع قومه أيضا في كثير من الأمور وصف الله تعالى لنا من كلام نوح ما يَحسن أن يكون من كلام النبي عليه السلام للمكذبين من أمته وإن كان ذلك حكايةً من نوح. ثم خاطب محمدا عليه السلام بالألفاظ التي هي تتمة الكلام الأول له. ثم عاد إلى الإخبار عن قضية[1] نوح عليه السلام فقال: **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد ءامن فلا تبتئس**، من البأساء، **بما كانوا يفعلون**، أي أسفا عليهم وحزنا، كقوله: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ.[2]

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

واصنع الفلك بأعيننا، أي بأعيننا التي هي حافظة لك، كما تقول لولدك: عَيْنُ الله عليك، أي حِراسته، **وَوَحْيِنا**، ما نوحيه إليك في عمل السفينة من الطول والعرض وغير ذلك. **ولا تخطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون.**

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ويصنع الفلك وكلما مر عليه. في التوراة أن السفينة طولها ثَلاثَمِائَةِ ذراعٍ، وسَعَتُها خمسون ذراعا، وارتفاعها ثلاثون؛ وعن ذراع من فوقانيّها ضوؤها، وهي طبقاتٌ ثوانٍ[3] وثوالثَ.[4] ودام المطر أربعين يوما. ولم يبق على وجه الأرض ذو روح. وعلا الماءُ على[5] أعلى الجبال خمسةَ عشرَ ذراعا. ودام الماء كذلك مائةً وخمسين

---

[1] ش: عن قضيته.

[2] ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٨).

[3] جميع النسخ: ثواني.

[4] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وهكذا تصنعه: ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك، وخمسين ذراعا عرضه، وثلاثين ذراعا ارتفاعه. وتصنع كوًا للفلك، وتكمله إلى حد ذراع من فوق. وتضع باب الفلك في جانبه. مساكنَ سفلية ومتوسطة وعلويةً تجعله» (التكوين ١٥/٦-١٦).

[5] جميع النسخ: أعلى، والمثبت من م.

يوما[1] ثم نقص. وفي سبعةَ عشرَ يوما[2] من الشهر السابع وقفت السفينة. وفي أول العاشر انكشفت رءوس الجبال. وبعد أربعين يوما فتح نوحٌ بابَ السفينة.[3] وكان عمر نوح ستَّمائةِ سنةٍ.[4] ولما خرج قَرّب قربانا من البهائم والطير. وقال الله: لا أعود ألعنُ الأرضَ بسبب الإنسان، لأن خاطر قلب الإنسان رديّ من صغره.[5] وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة.[6] ولقي من قومه مِحَنا. **وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون**، لِما أنتم عليه ولكونكم تسخرون.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾

فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، في الدنيا، **ويحل عليه عذاب مقيم**، أبدَ الآبدين في الآخرة.

---

١ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وكان الطوفان أربعين يوما على الأرض. وتكاثرت المياه ورُفعت الفلك، فارتفع عن الأرض. وتعاظمت المياه وتكاثرت جدا على الأرض، فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض، فتغطّت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء. خمس عشرة ذراعا في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال. فمات كل ذي جسد كان يَدِبّ على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزّحافات التي كانت تَزْحَف على الأرض، وجميع الناس. كلُّ ما في أنفه نسمةُ روحِ حياة من كل ما في اليابسة مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض: الناس، والبهائم، والدَّبّابات، وطيور السماء. فانمحت من الأرض. وبقي نوح والذين معه في الفلك فقط. وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوما» (التّكوين ٧/١٧-٢٤).

٢ جميع النسخ: يوم.

٣ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «ورجعت المياه عن الأرض رجوعا متواليا. وبعد مائة وخمسين يوما نقصت المياه واستقر الفلك في الشهر السابع، في اليوم السابعَ عشرَ من الشهر، على جبال أراراط. وكانت المياه تنقص نقصا متواليا إلى الشهر العاشر. وفي العاشر في أول الشهر، ظهرت رءوس الجبال، وحدث من بعد أربعين يوما أن نوحا فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها» (التّكوين ٨/٣-٦).

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض» (التّكوين ٧/٦). وانظر أيضا: التّكوين ١١/٦.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وبنى نوح مذبحا للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة، وأصعد محرقات على المذبح، فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه: «لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان، لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت. مدة كل أيام الأرض: زرع وحصاد، وبَرْد وحرّ، وصيف وشتاء، ونهار وليل، لا تزال» (التّكوين ٨/٢٠-٢٢).

٦ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة» (التّكوين ٩/٢٨).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠﴾

ثم قال: حتىٰ إذا جاء أمرنا، أي ما زال قومه يَسخرون إلى أن جاء أمرُنا. وفار التنور، يحتمل أن قوله: حتىٰ، يتعلق بما بعدُ وهو قوله: قلنا، وهو الأولى. والتنور، هو تنور الخابزة. والمعنى أن موضع النار الذي هو ضد الماء يفور ماءً فكيف غيّر ذلك؟ فإنه لا يُعْهَد أبدا أن تنورا نبع ماء، فكيف إذا فار كما تفور القِدر ثم تبدّد. وقوله: قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين؛ كلُّ واحد من الزوج والزوجة يقال له: زوج، ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ.[1] ولو قال: من كلِ زوجٍ اثنين لزم أن يَحمل أربعة من كل جنس. وأَهْلَكَ إلا من سبق عليه القول، عَطَفَ بقوله: وأهلك، ثم استثنى بعده لنعلم أن الاستثناء من أهل نوح، والذي دل عليه النص زوجته وولده. وفي هذه الآية لم يقل: "منهم"، فالاستثناء من الأهل. وفي سورة المؤمنين قال: مِنۡهُمۡ؛ إشارة إلى الأهل وبقية الكفار، ولهذا بعده هناك: وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ،[2] وتمامُه. وههنا لما لم يذكر "منهم" قال عطفا على ما قبل: ومن ءامن. وهذا العطف حجة على من يقول بالعطف على الأقرب وهو يجد الأولى أن يكون على الأبعد. وما ءامن معه إلا قليل.

﴿۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١﴾

وقال اركبوا فيها. تقديره وقولوا: بسم الله مجرٰيها ومرسٰها، أي في مجراها ومرساها. والسفينة لا تنفكّ عن أحد هاتين الحالتين. وهذا الأمر لهم يلزم عنه ذكرُ الله دائما مدة ركوبهم فيها، وحَقٌّ / لهم أن يكونوا كذلك لِما هم فيه من النجاة من هول [٢٠٩و]
لا تعبّر عنه العبارات. إن ربي لغفور رحيم.

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾

وهي تجري بهم في موج كالجبال. ذهب به مذهب العرب في التعظيم. ومن مذاهبهم[3]

---

[1] ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٥).

[2] ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٢٧).

[3] ش + التعظيم.

الإفراط في الصفات والتشبيه ومجاوزة القَدْر، كقوله: وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ،[١] وكانوا أقل من أن يزول بمكرهم ذُبابٌ في الحقيقة، لكنه إفراط في تعظيم ما عندهم من المكر؛ وكقوله: وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ،[٢] والقلوب لا تبلغ الحناجر،[٣] وإنما أراد ما يشبه الموت، كقوله: بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ؛[٤] فأراد بالقلوب ربّات القلوب، أعني الأنفس.[٥]

ونادىٰ نوح ابنه وكان فى مَعۡزِل، المعزل ما ينعزل به الإنسان عما تختار الانعزال عنه، فكان في معزل عن أبيه، فلم يكن معه باطنا في الإيمان ولا ظاهرا في السفينة. **يٰبُنَىَّ اركَب معنا ولا تكن مع الكٰفرين.**

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قال سئاوى إلىٰ جبل يعصمنى من الماء. قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، أي لا أحدَ عاصمٌ فلزم أنه لا أحد معصوم إلا من رحم الله. **وحال بينهما الموج**، وهما في الخطاب وكل واحد منهما يرى صاحبه. **فكان من المغرقين.**

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

وقيل يٰأرض ابلعى ماءك ويٰسماء أقلعى. لما كانت الأرض قد أُمِرت بأن تفور حتى التَّنُّورِ وأمرها الله عز وجل أن تَبلع ماءَها، أعني أن تَشربه بسرعة بخلاف العادة، وهو أدل على القدرة وأشد في العبرة. والإقلاع ترك الإنسان ما هو عليه من حاله وانتقاله عنها، أو انتقالُها[٦] عنه جملة. يقال: تاب وأقلع، [و]يقال: أقلعت الحُمّى عنه. فأمر الله السماء أن تُقلِعَ عن دفق الماء، تقديره: فأقلعَتْ. **وغيض الماءُ**، وهو مما لم يُسمَّ فاعله. وأصله من غاض يغيض، وضده مثله وهو زاد يزيد، وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ.[٧]

---

١ ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ (سورة إبراهيم، ٤٦/١٤).

٢ ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ (سورة الأحزاب، ١٠/٣٣).

٣ ن – والقلوب لا تبلغ الحناجر.

٤ ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ۝ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ (سورة الواقعة، ٨٣/٥٦-٨٤).

٥ جميع النسخ: للنفس، والمثبت من م.

٦ ش: وانتقالها.

٧ ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾ (سورة الرعد، ٨/١٣).

ويقال: غاض الماء إذا يبس أو نقص أيضا، لأن النقص يكون قليلا، فإذا دام يبس. **وقُضِي الأمر**، الذي أردناه أولا من إهلاك الظالمين وأخيرا ما[١] أمرنا به. **واستوت على الجوديّ**، وهو في المعنى من الجواد، أعني منسوب إليه، لأن الله جاد به على أهل السفينة وأقرها عليه.[٢] **وقيل بُعْدًا للقوم الظّلمين.**

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ولما ذكر صورة القضية من أولها إلى أن استقرت السفينة قال مخبرا عن نوح: **ونادىٰ نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحٰكمين.** هذا يُفهَم منه أنه عليه السلام أراد أن يكون ولده من الناجين في الآخرة من عذاب النار، لأن السؤال لم يكن من نوح إلا بعد قوله تعالى: فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ،[٣] بالفاء. فسأل نوح ربّه أن لا يكون ابنه من الجماعة المغرَقين في الآخرة كما كان منهم في الدنيا. ولو كان نوح قد سأل ربه أن لا يكون ابنه من المغرقين في الدنيا فإنما قَصْدُه من السؤال ما قلناه. وهذا سؤال الأنبياء، فإن سألوا الله ما يُنجيهم من بلاء الدنيا فمقصودهم به تلك النجاة لا غير، وهذا فائدة تأخير هذا الكلام، فجاء بعد قوله: وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ.[٤]

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

فأخبر الله نوحا عليه السلام بقوله: **قال يٰنوح إنه ليس من أهلك**، وذكر السبب الذي برّأه به من أهل نوح: إنه عَمِل غيرَ صالح، وهذه القراءة أعني بالفعل الماضي من قولك: "عمل" هي الأولى. وأما من قرأ "عَمَلٌ" بفتح العين والميم ورفع اللام وتنوينها[٥] فعليه معارضات في المعنى. وأما من ظن أنه كان من صلب غير نوح فليس كذلك، بل كان من صلبه وأهله في النسب الجسماني، ولكنه يومَ الجزاء

---

[١] ن + به.

[٢] جميع النسخ – عليه، والمثبت من م.

[٣] الآية ٤٣ من هذه السورة.

[٤] من الآية السابقة.

[٥] قرأ الكسائي ويعقوب بكسر الميم وفتح اللام فعلا ماضيا، والباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة (الحجة لابن خالويه، ص ١٨٧؛ وإتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٢١).

الذي عجّل الله للكافرين في الدنيا بعضه ناله معنى قوله تعالى: يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ.[1] ثم إن[2] زبدة هذه الأخبار [لا] تَذهب إلا بما قلناه، إذ المراد الموعظة والتخويف. ولهذا قال الله تعالى لنوح: إني أعظك، ولولا أنه ابن نوح لكان أغنى عن ذلك كله أن يقول: إنه ابن فلان الكافر، ولهذا لم يقل: إنه ليس منك. وإذا كان من
[٢٠٩ظ] نوح وليس من زوجته فيكون من غير زوجة لنوح، / وهذا لا يصح لأنه[3] يُلحق نوحا عليه السلام بما لا يصح على الأنبياء. ولو كانت أَمَةٌ زنت به كما قيل لم يكن ذلك ذنبا له بل لها. ولما كان الإخبار عنه بقوله: إنه ليس من أهلك، بمعنى[4] لا منك، ولو كان من غير نوح وغير زوجته لم يكن في الإخبار عنه فائدةٌ، إذ هو من بقية الناس المغرقين. ولما كان الإخبار من الله جاء على هذه الصورة، أعني قوله تعالى: وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ،[5] بل: ونادى نوح من كان يظنه ابنه، أو مثل ذلك. وقد علمت أن أهل نوح لا يريد [الله] به زوجتَه فقط.

وإذا[6] قلنا: إنه عَمَلٌ بفتح الميم تعود اللائمة على من عمله لا عليه، ولهذا بعضهم نسب ذلك إلى سؤال نوح، أي سؤاله لربه عملٌ غير صٰلح، لكان أقرب إلى الأفهام. ومع هذا فلا يجوز أن نترك الابوين وهو أن من لم يَنْجُ من الغرق فهو من الكافرين،[7] كقوله تعالى: وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ.[8] فمن المستحيل أن الله تعالى أغرق من آمن، والكافر لا يكون عمله صالحا ولا منجيا، فمن حيث أخبر الله أن ابن نوح من المغرقين لزم أن عمله [كان] غير صالح بلا شك. وليس ما قيل من تلك القراءة مُبيِّنا لمراد الآية كما بينت هذه القراءة. وقد علمت أن المؤمنين بعضهم من بعض والكافرين بعضهم من بعض، وأن الرحم ينقطع بالكفر عن الإسلام حتى في الميراث. وإنما أراد الله تعالى أن يعرّفنا تعليل الإغراق بقوله: إنه عمل غير صٰلح، وأنه تعالى غير ظالم له بل ذلك بعمله،[9] وأن الأعمال هي التي تُجزَى المرء بها، وأنها لو كان أبوه مثل نوح الذي هو صاحب الوقت والرسالة لَمَا نفعه في الدنيا ولا قبل الله فيه شفاعة[10] في أمر الأخرى،

١ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ (سورة الممتحنة، ٣/٦٠).
٢ ن + ربك.
٣ ن: أنه.
٤ جميع النسخ: ولكن.
٥ الآية ٤٢ من هذه السورة.
٦ ن: وإذ.
٧ ك ن: من الكافر.
٨ الآية ٣٧ من هذه السورة. وانظر أيضا: سورة المؤمنون، ٢٧/٢٣.
٩ ك ن: بعلمه.
١٠ ك ن + الله.

وإن[1] شفع فيه قيل له ما قيل لنوح: **فلا تسئلن ما ليس لك به علم إني أعظك، فاحذر، أن تكون من الجٰهلين.** فاسمع يا هذا هذا وإن كان تكراره على سمعك قد كثر. فليس المراد نفسَ الإخبار بما جرى بل اجتناب مثلِه. فكن مستحضرا صورةَ ما جرى متفكرا فيه تفكُّرَ مَن اتعظ به ووعى، فأجب نداء أبيك، واركب سفينة قبل أن يحول الموج ويقال: إنه عمل غير صالح فيتبرأ منك أبوك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾

قيل يٰنوح اهبط بسلٰم منا وبركٰت عليك وعلىٰ أمم ممن معك. الأمم معلومة من قوله تعالى: وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم.[2] وهذا[3] ظاهر الآية وبعض مفهومها. والمراد أمم يَخْلُفها[4] ممن معك ويريد به من يعقل. ولهذا لم يقل: وأمم معك، بل، **ممن معك**، إلى يوم القيامة. ولهذا قسم الأمم بقوله: **معك**، الذي يُفهَم منه معك، في السفينة بصريحه ومن[5] معك في الإيمان بلا آفة من كل من يُخلَق. ثم قال: **وأمم سنمتعهم**، في الدنيا، **ثم يمسهم منا**، في الأخرى، **عذاب أليم.** فالأمم التي يمسها العذاب هي من نسل من كان معه، لا من كان معه، لأنه لم يحمل كافرا واحدا ولو كان ابنه. ولهذا قال: **وأمم**، بالرفع[6] لئلا يُظن أن منهم من كفر بعد الإيمان.

﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾

تلك، الأنباء، **من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هٰذا. فاصبر إن العٰقبة للمتقين.**

---

[1] ش: إن.
[2] سورة الأنعام، ٣٨/٦.
[3] ن: هذا.
[4] ك: يخلقها.
[5] ك – من.
[6] ن – بالرفع.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠﴾

ثم عطف على قوله: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ[1] [قوله:] وإلى عاد أخاهم هودا قال يٰقوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره إن أنتم إلا مفترون، باتخاذ غيره إلٰها.

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾

يٰقوم لا أسئلكم عليه، الضمير يرجع إلى ما يذكره بعدُ بقوله: مَآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ،[2] فحذفه قبلُ لبيانه بعدُ. وقوله: أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى، يُفهَم من هذا أن كل واعظ أو صالح من المشايخ [الذي] أخذ أجرا على ما يهدي به الناس، أو طلب بلسانه أو بالحال فقد خرج عن[3] طريقة الأنبياء / عليهم السلام. أفلا تعقلون. [٢١٠و]

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾

ويٰقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فيما بقي، يرسل السماء عليكم مدرارا، كما في سورة نوح،[4] ويزدكم، بالاستغفار والتوبة، قوة إلى قوتكم، الظاهرة، ولم يقل: "على" لأن المراد: "مضافةً إلى قوتكم". وهذا يدل على أن المؤمن له قوة غير القوة الظاهرة، ويجب أن تكون قوته الباطنة بحسب[5] إيمانه. ولا تتولوا، ونَصْبُ، مجرمين، على الحال، وهو إخبار عن صفتهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾

إن نقول إلا اعتراك بعض ءالهتنا بسوء، أي ما نقول قولا إلا هذه المقالة. وهذا القول منهم إخبار عن جرمهم باعتقادهم، فلم يقولوا: إن نظن. قال إنى أشهد الله

---

[1] الآية ٢٥ من هذه السورة.

[2] الآية ٥٧ من هذه السورة.

[3] ن: خرج على.

[4] ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ (سورة نوح، ٧١/١٠-١١).

[5] ك: يحسب.

واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه، فكيدوني جميعا، أي أنتم وآلهتكم. ثم لا تُنظرونِ، انظر كيف جعل أمنه[١] برهانه ليتحقق عندهم إيمانه.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

إني توكلت على الله ربي وربكم، أي فكيف أخاف. ثم ذكر ذلك فقال: ما من دابة إلا هو ءاخذ بناصيتها، والإنسان من جملة ما يَدُبّ، وإذا توكل على من بيده نواصي مخلوقاته فهو لا يخاف. وقوله: إن ربي علىٰ صرٰط مستقيم، أي[٢] من العدل فلا يعذب البَرِيئ ويترك السقيم.[٣]

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

فإن تولوا، تتولوا، فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي علىٰ كل شيء حفيظ.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾

ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين ءامنوا معه برحمة منا، من عذاب الدنيا. ونجينٰهم، في الآخرة، من عذاب غليظ. وقوله: برحمة منا، أي لم تَكُ أفعالهم تفيء بذلك بل لمّا آمنوا رحمناهم فبالرحمة منا نجوا[٤] بشرط الإيمان منهم.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

وأتبعوا فى هٰذه الدنيا لعنة ويوم القيٰمة. ألا إن عادا كفروا ربهم، بربهم. ألا بعدا لعاد قوم هود.

١ ن: أمته.
٢ ن: إن.
٣ ش: المستقيم.
٤ ن: منا نجو.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

وإلىٰ ثمود أخاهم صٰلحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، أي جعل لكم عُمرًا ولم يُرِد به العمارةَ، بل كقوله: أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ.[1] ولهذا لم يقل: واستعمركم لها.[2] فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريب مجيب.

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

قالوا يا صٰلح قد كنت فينا مرجوا قبل هٰذا، الكلامِ. وليس من قوله تعالى: أَرْجِهْ[3] إلى[4] آخره، بل يريد به قد كنت مرجوًا أن تعود في ملتنا. وأما بعد هذا الكلام فما نرجو ذلك فلا تكون[5] منا مرجوا، ولهذا لم يقل: مُرْجًى، كما قال: مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ.[6] أتنهٰنا أن نعبد ما يعبد ءاباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب، والواو في، وإننا، واو الحال، أي أتنهانا عما نحن عليه ونحن في شك مما أنت عليه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾

ويٰقوم هٰذه ناقة الله لكم ءاية، أي جعلناها[7] آية، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

---

١ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٣٧).

٢ ش – فيها أي جعل لكم عمرا ولم يرد به العمارة بل كقوله... ولهذا لم يقل واستعمركم لها، صح هـ.

٣ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١١١). | الإرجاء: التأخير (لسان العرب، «رجأ»).

٤ ش ك: أي.

٥ ن: فلا نكون.

٦ ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة التوبة، ٩/١٠٦).

٧ ش ك: أي جعلنا.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾

فلما جاء أمرنا، بهلاك قومه، نجينا صٰلحا والذين ءامنوا معه برحمة منا، من قومه ومما جرى عليهم في الدنيا، لقوله: وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ، أي يوم الوقت الذي جرى فيه إهلاكهم، لأنهم كانوا يريدون إهلاكه فنجّاه الله منهم بإهلاكهم ونجاه مما جرى عليهم. إن ربك هو القوى العزيز.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾

وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى دِيٰرهم، كلٌّ في مسكنه، والمراد كثرة بلادهم. ولهذا بعده: جٰثمين، كأن لم يغنوا فيها. والمعنى هو المسكن سكن فيه. وقوله: فى ديٰرهم، إشارة إلى كل بلد أو مدينة، والله أعلم. ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾

ولقد جاءت رسلنا إبرٰهيم بالبشرىٰ، بإسحاقَ. وهذه البشرى له دون امرأته كما سنبين. قالوا سلٰما، قال سلٰم، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ، من الحَنْذ وهو شدة الحر، وقيل: هو المشويّ بالحجارة المُحْمَاة.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾

فلما رءا أيديهم / لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، الوَجْس الخوف المضمر، [٢١٠ظ]
والمعنى وأضمر. قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلىٰ قوم لوط. وحذف هنا لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ،[١] وتمامُه لأن المراد ههنا بيان قصة سَارَةَ. وفي التوراة أن الملائكة قالت لإبراهيم: بشّر سارة يكون من ظهرها أمم ويكون لك منها ابن.[٢] فهذه كانت بشرى الملائكة لإبراهيم.

---

[١] ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٣٣).

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وقال الله لإبراهيم: "ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي، بل اسمها سارة، وأُباركها وأعطيك أيضا منها ابنا. أباركها فتكون أمما، وملوك شعوب منها يكونون"» (التكوين ١٩/١٥-١٦).

وفي التوراة أيضا وهو مقلوب النص: ولما سمعتْ سارة كلام الملائكة لإبراهيم ضحكت في نفسها، فقال المَلَك: أيخفى عن الله شيء لم ضحكت سارةُ! فقالت من خوفها: ما ضحكت، أي ظاهرا، فقال: بل ضحكت[1] وسأعود في السنة الثانية ولكِ ابن.[2] فهذه هي البِشارة لها وهو قوله ههنا: فَبَشَّرْنَٰهَا.[3] وكانت قد سمعت البشرى من الملائكة لإبراهيم قبل ذلك، فضحكت فبشرناها بعد الضحك بما بشرنا به إبراهيم قبلها. ولا يلزم أن نُبيِّن في كل مكان مثلَ هذا البيان، فافهم هذا جيدا. فلم أرَ مَن فهمه وأزال التناقض من بين التوراة والقرآن.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾

ويدلك قوله ههنا أولا: وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ،[4] ثم نسق عليه [قوله:] وامرأته قائمة فضحكت فبشرنٰها بإسحٰق. "إسحاق" لفظة عبرانية، ولهذا كُتب بغير ألف وهي في التوراة "يصحق" بهذه الحروف. وتفسيرها "يضحك". وعلّله في التوراة بما هذا نصه: وسَمَّتْه سارة يضحك قائلة: كلُّ سامع يضحك لي.[5] هذا مقلوب نص العبري إلى العربي. و"سارة" في التوراة بهذه الحروف بغير ألف، وتفسيرها رئيسة، و"سر" عندهم رئيس. ويحتمل أن معناها في العربية سارَّة من السرور، وخففت الراء لما استُثقِلت الشدّة. وقوله: ومن وراء إسحٰق يعقوبَ، هذا تمام البشرى بحياة الولد وأنه سيولَد له أيضا ولد. وإنما ذَكَر يعقوب ههنا بعد إسحاق لحكمة، وكذلك في الأنبياء بقوله: وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ،[6] أي منا. فهذا يحقق أن الذبيح إسماعيل، لأنه لا يَحْسُن

---

[1] ك – أي ظاهرا فقال بل ضحكت، صح هـ.

[2] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء. فضحكت سارة في باطنها قائلةً: أبَعْدَ فنائي يكون لي تنعم، وسيدي قد شاخ؟ فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة قائلة: أفبالحقيقة أَلِدُ وأنا قد شِخْت؟ هل يستحيل على الرب شيء؟ في الميعاد أرجعُ إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن. فأنكرت سارة قائلة: لم أضحك، لأنها خافت. فقال: لا! بل ضحكت» (التكوين ١٨/١١-١٥).

[3] من الآية التالية.

[4] الآية ٦٩ من هذه السورة.

[5] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وافتقد الرب سارة كما قال، وفعل الرب لسارة كما تكلم. فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابنا في شيخوخته، في الوقت الذي تكلم الله عنه. ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود له الذي ولدته له سارة إسحاق. وختن إبراهيم إسحاق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله. وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين وُلد له إسحاق ابنه. وقالت سارة: قد صنع إليّ الله ضَحِكا، كل من يسمع يضحك لي» (التكوين ٢١/١-٦).

[6] سورة الأنبياء، ٧٢/٢١.

بل لا يصح أن يبشّره أن الولد سيلد ولدا، ثم إنه يبتليه بذبحه، إذ ذلك مناقض في العقل، فكيف يتحقق من قبل أن يَخلق إسحاق أنه لا بد أن يعيش حتى يلد ولدا، وهذه حجة بالغة تامة. وأيضا إن هذا الابتلاء كان يكون لسارة ولم تذكر بوجه [من الوجوه].

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾

قالت يٰويلتىٰ ءألد وأنا عجوز وهٰذا بعلى، تقديره قد بقي، شيخا، إشارة إلى عدم قدرته على إتيانها. وكان عمره يؤمئذ مائةَ سنةٍ وعمر سارة تسعين حين البُشْرَى، كذا في التوراة.[١] وفيها أن عُمْر إبراهيم كان عند وِلادة إسماعيل سِتًّا وثمانين سنة،[٢] و[كان] عمره عند ما اختتن تسعة وتسعين.[٣] وبعد الاختتان حملت سارة، فكان عمر إسماعيل أربعة عشر سنة كاملة.[٤] والابتلاء إنما يكون من قبلُ لمّا بلغ معه السعي،[٥] فافهم. وقول سارة: إن هٰذا لشيء عجيب، دليل الإيمان بما بُشِرت به والتصديقِ بوقوعه لا التكذيب، فإن الإنسان إنما يتعجب مما[٦] يترجح عنده أنه كذلك. فأما إن ترجح أنه ليس كذلك[٧] فإنه لا يتعجب منه بل يجحده. فافهم ذلك في هذه وفي زكريا ومريم والذي أماته الله مائة عام.[٨]

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾

قالوا أتعجبين، ألف تنبيه في صورة الاستفهام، من أمر الله، أي كُن فَيَكُونُ.[٩]

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «فسقط إبراهيم على وجهه وضحك، وقال في قلبه: ’هل يُولَد لابن مائة سنة، وهل تَلِد سارة وهي بنت تسعين سنة؟‘» (التّكوين ١٧/١٧).

٢ «كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام» (التّكوين ١٦/١٦).

٣ «وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غُرْلته» (التّكوين ٢٤/١٧).

٤ «وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غُرْلته» (التّكوين ٢٥/١٧).

٥ يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقال بعدها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ (سورة الصافات، ١٠٢/٣٧، ١٠٧).

٦ ش: بما.

٧ ش - فأما إن ترجح أنه ليس كذلك.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ (سورة البقرة، ٢٥٩/٢)؛ وإلى قوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (سورة آل عمران، ٣٩/٣-٤٠)؛ وإلى قوله: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (سورة مريم، ٢٠/١٩-٢١).

٩ ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة البقرة، ١١٧/٢). وانظر أيضا: سورة آل عمران، ٤٧/٣؛ وسورة النحل، ٤٠/١٦؛ وسورة مريم، ٣٥/١٩.

ثم قال بطريق الأُنس والتلطف، رحمتُ الله وبركُته عليكم أهلَ البيت، نداء يشيرون به إليها خاصة، ويتضمن أهل البيت[١] النبوة من سائر الأنبياء. إنه حميد مجيد.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

فلما ذهب عن إبرٰهيم الروع، ما يُروّع ويُرعب وهو الخوف، وجاءته البشرىٰ، مرة ثانية بكلام الملائكة لسارة أيضا،[٢] فافهم. وهذا[٣] التكرار أعني، وجاءته البشرىٰ، ليتحقق لك ما ذكرناه من حديث الضَّحِك.[٤] وههنا ما تقديره: أضحى، يجٰدلنا فى قوم لوط، والجدل ههنا يريد به ما دل عليه قولُه بعده: إن إبرٰهيم لحليم أوّٰه منيب، ليُعلَم أن الجدل ههنا كان سؤالا في قوم لوط ليَحْلُم[٥] الله عنهم وتأوُّهًا لهم وإنابةً إلى الله في أن
[٢١١و] يُمهلهم. / وفي التوراة إن إبراهيم قال: يا إلٰهي إن كان فيها خمسون صدّيقا أتهلكها؟ قال الله تعالى: لا أُهلكها. ولم يزل ينقص خمسةً خمسةً إلى عشرة، فقال الله تعالى: لا أهلك القرية إن كان فيها عشرةٌ من الصالحين بل أغفر للجميع بسببهم.[٦]

وحذف ههنا ما تقديره: قالت الملائكة له: يٰإبرٰهيم أعرض عن هٰذا، الجدال. إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود.

---

١ ش: أهل بيت.

٢ ن + ذلك.

٣ ش: هذا.

٤ يشير المؤلف إلى الآية ٧١ من هذه السورة.

٥ ش: ليحكم.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «فتقدم إبراهيم وقال: أفتهلك البارّ مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارّا في المدينة. أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارّا الذين فيه؟ حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر: أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم. حاشا لك! أَدَيَّانُ كلِّ الأرض لا يصنع عدلا؟ فقال الرب: إن وجدت في سدُوم خمسين بارا في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم. فأجاب إبراهيم وقال: إني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد، ربما نقص الخمسون بارًّا خمسةً، أتهلك كل المدينة بالخمسة؟ فقال: لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين. فعاد يكلمه أيضا وقال: عسى أن يوجد هناك أربعون. فقال: لا أفعل من أجل الأربعين. فقال: لا يسخط المولى فأتكلم، عسى أن يوجد هناك ثلاثون. فقال: لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين. فقال: إني قد شرعت أكلم المولى، عسى أن يوجد هناك عشرون. فقال: لا أهلك من أجل العشرين. فقال: لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط، عسى أن يوجد هناك عشرة. فقال: لا أهلك من أجل العشرة. وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم، ورجع إبراهيم إلى مكانه» (التكوين ١٨/٢٣-٣٣).

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾

ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم، ساءه مجيئُهم إشفاقا عليهم من قومه، وحصل له سوء من قومه بسببهم،[١] ولهذا لم يقل: "منهم" فهي باء السبب. وضاق بهم ذرعا، وُسْعا. وقال هٰذا يوم عصيب، شديد، ومنه قولهم: عَصَبه إذا شده بالعصبات.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾

وجاءه قومه يهرعون إليه، من بعضهم لبعض، وهو ما لم يُسمَّ[٢] فاعله، مِن أهرع الرجل إذا أرعد من فزعٍ أو حمًّى أو غضبٍ. والمهروع المجنون بالصَّرْع. ورجل هريع سريع[٣] البكاء، وسريع المشي إذا كان الشيء مع رَعْدة وانفعالٍ باطن كانفعال قوم لوط بطلب[٤] السيئة. ومن قبل كانوا يعملون السيئات، منها إتيان الذكور.[٥] قال يٰقوم هٰؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد، ينهى الباقين. وقوله: هٰؤلاء بناتى، أراد أن يقي أضيافَه بذلك الكلام، كما تقول لمن[٦] تشفَّع فيه: خذ ولدي عوض هذا، مبالغةً في الدفاع عن المشفوع فيه؛ لا أنه أراد أن يزوّجهن بهم كما قيل. ولهذا بعده: قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق، يحتمل أن يكون "ما" نافية، والأولى أنها بمعنى الذي، أي لقد علمت أننا أحق ببناتك من غيرنا لو اخترنا ذلك، لأن أهل القرية أحق ببناتها من الغريب، لٰكنا لا نريد ذلك، وإنك لتعلم ما نريد؛ ولأن الكلام للجمع ولم يكن لمن هم في عِدّة بناته، فإذا زوّجهن بهم لا يرتدع الباقون. ولكن هذا كما تقول لمن تنهاه عن ضرب مظلوم: هذا رأسي فاضربْه عوض رأسه مع أنه لا يفعل، وإنما يريد بذلك ضده.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾

قال لو أن لى بكم قوة أو ءاوى إلىٰ ركن شديد، تقديره لمنعتُكم وقهرتُكم. والركن

---

[١] ش – وحصل له سوء من قومه بسببهم.

[٢] ش ك: ما لم يسمى.

[٣] ك: وسريع.

[٤] ك ن: يطلب.

[٥] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ (سورة الأعراف، ٨١/٧).

[٦] ك ن: فيمن.

هو ما يَركن إليه الإنسان ويَشدّ به، كقوله تعالى عن فرعون: فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ،[1] أي بالأشِدّاء من قومه وجنده الذي يركن إليهم في دفع الشدائد وقهرِ الأعادي. وهذا الكلام من لوط عليه السلام بصورة الخصام بعد الملاطفة. فهو كما تقول[2] لخصمك إذا عجزت عنه وأردت أن تُعرّفه أنه ظالم لك وأنه إنما تَقَوّى عليك وتجرّى على ظلمك بقوته وجماعته لا بالحق، فتقول له: لو أن لي قوةً أو ركنا من جماعة كما لك لَقدرتُ أن أفعل معك مما أنت[3] فاعله معي بظلمك، أو لقدرتُ على منعك. فهذا معناه، والله أعلم.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾

فلما سمعت الملائكة، قالوا يٰلوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، أي بسوء، فأسر بأهلك بقطع، أي[4] في قِطْع، تذكير قِطْعة، من اليل ولا يلتفت منكم أحد. انظر[5] كيف نبّه بلفظ الالتفات على أن الرجل إذا خرج عن شيء لو التفت إليه لَفْتَةً واحدة رجع إليه. وقوله: إلا امْرَأتَكَ، أي ستلتفت، فهو إخبار لا أمر لها بالالتفات. ولهذا بعده: إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. جاء هذا الكلام من الملائكة تقويةً لقلب لوط وإعلاما له أنه عن قريب يَمسّ قومَه العذابُ، فكأنه جواب منهم لقوله لقومه: لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً.[6] ولهذا قالوا: لن يصلوا إليك، فهذا مفهوم اللفظ ههنا. والله أعلم بكلامه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾

فلما جاء أمرنا جعلنا عٰليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. قيل:[7] هي[8] الطين طُبخ عليه بالنار، قد نَضده الله عليهم ليعرّفَنا أنه لم يكن بيْنه خللٌ عند نزوله عليهم

---

١ ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٣٩).
٢ ش ك: كما يقول.
٣ ش: أفعل ما معك مما؛ ن: أفعل معك ما أنت.
٤ ك ن - أي.
٥ ش: افهم.
٦ الآية ٨٠ من هذه السورة.
٧ ن + قيل.
٨ أي حجارة من سجيل.

لجواز أن يصيب بعضهم دون بعض. وقد شرح الله لفظة "سجيل" لقوله في موضع آخر: حِجَارَةً مِّن طِينٍ.[١] وإنما أراد بهذا اللفظ ههنا أن الطين لم يكن رطبا بل المطبوخ بالنار لشدة قوته وما يحصل من إيلامه لهم. ولهذا قال: حجارة... مسومة عند ربك، أي من عنده سبحانه. وما هى من الظّلمين ببعيد، لأنفسهم بما ظلم به قومُ لوطٍ أنفسَهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

وإلىٰ مدين أخاهم شعيبا قال يٰقوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره / ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أرىٰكم بخير، أغناكم عن هذا الفعل. وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط، بالكافرين فلا يُفلِتُ منهم أحدا. [٢١١ظ]

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

بقيت الله خير لكم، أي ما بقي بعد إيفاء[٢] الكيل والميزان بالقسط خير لكم مما تأخذونه بالبخس والتطفيف، إن كنتم مؤمنين، لأنهم إنما يعرفون صحة ما يقوله بالإيمان وإلا فهم عندهم أن البخس والتطفيف خير لهم، لأنه زيادة عاجلة حاضرة في أموالهم. وما أنا عليكم بحفيظ، ولم يقل: لكم، بل هو من قوله: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ،[٣] الآية.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

قالوا يٰشعيب أصلوٰتك تأمرك أن نترك ما يعبد اباؤنا. قولهم: أصلوٰتك، لأن الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ.[٤] ونهيه لهم عن عبادة ما عبده الآباء منكر عندهم، فكيف تأمره صلاته[٥]

١ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٣٣).
٢ ن: بعد إبقاء.
٣ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الانفطار، ٨٢/١٠-١٢).
٤ سورة العنكبوت، ٢٩/٤٥.
٥ ك: صلواته.

بالمنكر عندهم، بل يجب أن تنهاه عن نهيهم بزعمهم، فلهذا عبر بلفظ الصلاة. واعلم أن المقدر المحذوف هو بخلاف الأصل، فلا نميل[1] إلا عند الضرورة. فقوله: أو أن نفعل، تقديره أو أن نترك أن نفعل، فى أموٰلنا ما نشاء، لأنه قدمها أولا فعاد الكلام: أصلوٰتك تأمرك، أن نترك ما يعبد، أو نترك أن نفعل. ثم قالوا تقريعا[2] واستهزاء: إنك لأنت الحليم الرشيد.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾

قال يٰقوم أرءيتم إن كنت علىٰ بينة من ربي، تقديره أأعبد ما يعبدونه بغير بيّنة وأترك البينة. وقوله: ورزقني منه، أي بفضله، رزقا حسنا، تقديره: أأفعل ما تفعلونه من البخس والتطفيف. وقوله: وما أريد أن أخالفكم، تقديره: فأرجعَ، إلىٰ ما أنهٰكم عنه.[3] يقال: "خالفني فلان إلى كذا" إذا قصده وأنت مولّ عنه[4] و"خالفني عنه" وأنت قاصده. ومثل هذا في سورة النور: فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ،[5] فافهمه جيدا. فيكون[6] المعنى: وما أريد أن أذهب إلى ما أنهاكم[7] عنه. إن أريد إلا الإصلٰح ما استطعت، لنفسي ولكم. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩﴾

ويٰقوم لا يجرمنكم شقاق، أي لا يوجبْ لكم مُشَاقَقَتُكم لي، أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صٰلح، وما قوم لوط منكم ببعيد.

---

[1] ش: فلا تميل؛ ن: فلا يميل.

[2] ن: تقريبا.

[3] خالفه إلى الشيء: عصاه إليه أو قصده بعد ما نهاه عنه، وهو من ذلك. وفي التنزيل: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ (لسان العرب، «خلف»).

[4] جميع النسخ: عنهم.

[5] ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة النور، ٦٣/٢٤).

[6] ش: ويكون.

[7] ش: إلى ما أرضيكم.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾

وقوله بالواو: واستغفروا، معطوف على قوله لهم: أَوۡفُواْ،[1] واستغفروا ربكم، عما مضى، ثم توبوا إليه، في المستقبل. إن ربي رحيم ودود.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾

قالوا يٰشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنرىٰك فينا ضعيفا. ولولا رهطك لرجمنٰك وما أنت علينا بعزيز، أي مع وجود رهطك الذي لولا هم لرجمناك ما يصعب[2] علينا ذلك. ولهذا لم يقل: وما أنت عندنا، تقول: عز عليَّ الأمرُ، إذا صعب وامتنع.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾

قال يٰقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه، أي وها أنتم قد اتخذتموه، وراءكم ظهريا، أي بمخالفتكم لأمره. إن ربى بما تعملون محيط.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾

ويٰقوم اعملوا علىٰ مكانتكم، المكانة مأخوذة من التمكن من العمل، لقوله: اعملوا، فافهمها، أي على قدر تمكنكم من رجمي، إنى عٰمل، على مكانتي من نُصحكم ما أريده من الإصلاح. ولما قطع كلامهم بقوله: إنى عٰمل، لم يعطف بالفاء بل قال مهدِّدا مبتدئا: سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كٰذب وارتقبوا، ما يَحِلّ بالمكذِّب منكم أو الكاذب مني، ولهذا لم يقل: إني رقيب بل، إنى معكم رقيب، أي مرتقب، وغيّر للوِزان.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾

[1] الآية ٨٥ من هذه السورة.

[2] جميع النسخ: ما يصيب، والمثبت من م.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾
﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾

إلىٰ فرعون وملإيه فاتبعوا، ملؤه، أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد، أي بمرشد لمن يتبعه بل بمضل له.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾
﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

وأتبعوا فى هٰذه لعنة ويوم القيٰمة، لعنةً. بئس الرفد المرفود، وحذف "به" للوزان، أي بئس الرفد الذي رُفِدوا به وهو العطاء، ويريد بالعطاء، أي مَنًّا. ويحتمل أن يكون / من [٢١٢و] صفة فرعون لقومه، لأنه أوردهم النارَ ورفدهم بئس الرفدُ، وهذا أولى.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾

ذٰلك من أنباء القرىٰ نقصه عليك، منها قائمٌ، ما بقيت حِيطانُه فقط قائمةً كالقائم من الزرع، وحصيدٌ، محصود، تمثيلاً[١] بما حُصد من الزرع، فهو غير قائم كالأبنية المُهدَّمة[٢] المطروحة. وذلك لسان ينطق للمعبِّر بأشد الموعظة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

وما ظلمنٰهم ولٰكن ظلموا أنفسهم. فما أغنت عنهم ءالهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب، إهلاك، من قوله: تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ،[٣] وهو من التَّباب، ومعناه الهلاك. يقال: تَبَّهُ أي تَبَّبَهُ بمعنى أهلكه، وتَبًّا له، أي تَبا وتَبابا، أي هَلاكا له، وتنصبه على المصدر فتدعو به على عدوك.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾
﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

١ ك ن: تمثيل.
٢ ش: المهدية.
٣ سورة المسد، ١/١١١.

إن فى ذٰلك، المتلوّ والمشاهَد من الآثار في الدنيا، لآية لمن خاف عذاب الآخرة. ذٰلك يوم مجموع له الناس وذٰلك يوم مشهود.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

يوم يأت، ذلك[1] العذاب المقدَّم ذكرُه، لا تكلم نفس إلا بإذنه، أي لا تتكلم بشفاعة. وإذا امتنع الكلام امتنعت الشفاعة، فلهذا عَبّر بالأعم.[2] فمنهم شقى وسعيد.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق، الزفير والشهيق صوت يَظهر عند إخراج النَّفَس وإدخاله، ويُسمَع من الباكي بقوة وهو المراد ههنا.

خٰلدين فيها ما دامت السمٰوٰت والأرض إلا ما شاء ربك، تقدم القول في ذلك،[3] ومعناه خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض سوى ما شاء ربك. فافهم هذا ولا تتعب. وقوله: ما دامت السمٰوٰت والأرض، لو لم يكن قد أراد بذلك المبالغةَ بما نعرفه من دوام السماوات والأرض لكان في ذكر السماوات والأرض كنايةٌ. لكنه ضرب المثل للتأبيد[4] المقصود بالأمر المشهود مما يعلم الكفار طول مدته، ومنهم من يعتقد أنه لا يزول. ثم زاد عليه بما معناه في اللغة "سوى" أو "غير"،[5] تقول: لأُعطينّك كلَّ ما تريد سوى ما أعطيك عندي، ومثله بلفظ "إلا" لأعطينّك ألفَ درهمٍ إلا ما أعطيك من عندي، أي سوى ما هو من عندي زيادة. وقد علمتَ أن لفظة "ما شاء الله" في التخاطب والاستعمال توضع على ما لا انقضاء له، أو على ما تريد الإعياء[6] في طول مدته. تقول في[7] بناء ثابت: هذا يبقى ما شاء الله تعالى. فقال تعالى: خٰلدين فيها ما دامت السمٰوٰت والأرض، أي هذا فيما تفهمونه وتعلمون طولَ مدته سوى ما شاء الله تعالى بعد ذلك.

---

[1] ن - ذلك.

[2] ن: الأعم.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ١٢٨ من سورة الأنعام. وانظر أيضا: تفسير الآية ١٦٢ من سورة البقرة.

[4] ك: للتأبيد.

[5] جميع النسخ - غير، والمثبت من م.

[6] ك: الإغياء.

[7] ن - في.

وإنما عبّر بما شاء الله لمعنيين. أحدهما أن ما شاء الله لا يُحَدُّ إلا إن حدّه الله ولم يَحُدّه بل قال: غير محدود. والثاني يُشعر أن الخلود ما دامت السماوات والأرض هو بصورة الجزاء المستحَقّ المشروط للعامل من الفريقين ترغيبا وترهيبا لهما. وما شاء بعده لأمر رتّبه بعد الاستحقاق يَتْبَع الاستحقاقَ، كالشرط من المالك الذي يرغب بالثواب ويرهّب بالعقاب. فيقول:[1] إن فعلت كذا لأعطينَّك كذا، ما شئت أنا من زيادة لا تنقطع.[2] ومن كونه جَعَله شرطا وبيّنه لم يكن في ذلك ظلم لأهل النار بل هو غاية الزجر الذي هو باب النعمة لهم وغاية النعمة لأهل الجنة. ومتى لم يُفهَم ذلك كذلك تناقضتِ النصوصُ ولزم الجبرُ لعودة الجميع إلى المشيئة، فيَبطل التكليفُ ويزول أثر التخويف ويعود الأمر إلي المشيئة التي هي سببٌ لا يُعلَم، وهذا عين الاختلال. ولهذا أتبعه بقوله: إن ربك فعال لما يريد، أي فلا يُعجزه خلودهم بلا انقضاء فيها.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

وأما الذين سعدوا ففى الجنة خٰلدين فيها ما دامت السمٰوٰت والأرض إلا ما شاء ربك. ولمّا كان هذا القول يحتمل أنه تعالى قد يشاء خروجَهم منها قال بعده: **عطاءً غيرَ مجذوذ**، مقطوع، فافهم ذلك. وهذا يُبطل قول من يَزعم أن آخر الوجود والجميع في الآخرة إلى العدم، وأن الله يُعدم الجنةَ والنار ومن فيهما ويعود الأمر / كما كان قبلَ كلِّ كائنٍ مكوَّن،[3] فليس كذلك قول الله تعالى، فهذا [هو] الرد نصا. وأما من العقل فهذا عين العبث، ويستحيل ذلك على الله تعالى عقلا ونصا. واعلم أنه فرقٌ بين أن يكون الاستثناء بإلا[4] مِن جملةٍ[5] فيها ما استثنيته مما أوجبته[6] وبين أن يكون ما لِاستثنائه بإلّا خارجا عن الجملة. فالاستثناء ههنا خارج بإلّا عن جملة الدوام المنسوب إلى مدة[7] السماوات والأرض. فهو غير جزء من جملة المدة لكنه لما كان مشاركا لها في ذكر الخلود قرن بها كلَّ عملِ النحاة في الاستثناء المنقطع، أعني الذي هو[8] من غير الجنس، [٢١٢ظ]

---

١ ش: فنقول.
٢ ك ن: لا ينقطع.
٣ ش ن: يكون.
٤ جميع النسخ: بأن، والمثبت من م.
٥ ش: من حمله.
٦ ن: مما أجبته.
٧ ش – مدة، صح هـ.
٨ ن – هو.

كقوله: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا،[١] فهو مسموع وليس من اللغو، فذكَر معه "إلا"، فافهم ذلك.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ١٠٩﴾

فلا تك فى مرية، شك، مما يعبد هٰؤلاء، أي لا تَشُكَّ في أنه باطل، أي لا تظنه كما يقولون: لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ.[٢] ثم أوضح ذلك بقوله: ما يعبدون إلا كما يعبد ءاباؤهم من قبلُ. ومن تأمل وجد الأصنام ملءَ الوجود، وعُبّادُها عاكفون عليها؛ فصنم من مال، وصنم من حال، وصنم من مقال، وصنم من فِعال، وأصنام من نساء ورجال، وأهواء وآمال. وكلٌّ في ضلال كما يعبد آباؤهم من قبل. وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ١١٠﴾

ثم قال تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم: ولقد ءاتينا موسى الكتٰب فاختلف فيه. ولولا كلمة سبقت من ربك، أي بتأخير العذاب والجزاء، لقضى بينهم، بين الذين ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم، ويعم اليهود وأمثالهم. وإنهم لفى شك منه مريبٍ، أي من كتاب موسى كما هؤلاء في شك من كتابك.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١﴾

وإن كلا لما، لَلَّذي، ليوفّينهم ربك أعمٰلهم، واللام في "ليوفّين" لام تأكيد، ولا تكون[٣] "ما" نافية. إنه بما يعملون خبير. و"لَمّا" ههنا هي مثل لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ[٤] في [سورة] يسٓ.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾

فاستقم كما أمرت، في القرآن، ومن تاب معك ولا تطغوا، بعد ذلك. إنه بما تعملون بصير.

---

١ سورة مريم، ٦٢/١٩.

٢ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (سورة الزمر، ٣/٣٩).

٣ ش: ولا يكون.

٤ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (سورة يسٓ، ٣٢/٣٦).

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

وأقم الصلوٰة طرفى النهار، يحتمل أنه أراد الصبح والمغرب بقوله: **أقم**، فهو يدل على فريضة تقام في طرفي النهار. **وزلفا**، أي وفي زلف؛ الزلفة الطائفة **من اليل**، يريد عِشاء الآخرة. وقال: زلفا، لأن الوقتين الأولين معلومان، وعشاء الآخرة في أي زلفة[1] من الليل أقمتها جاز. وقوله بعد ذكر الصلاة: **إن الحسنٰت يذهبن السيئات**، يدل على أن الصلاة كفّارة لِما بينها وبين الصلاة المتقدمة عليها. **ذٰلك**، الذي أوصيناك به وتلوٰناه عليك، **ذكرىٰ للذّٰكرين**.

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

واصبر، عامّ وهو خاص بالصلاة، كقوله: وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا.[2] **فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية، من الخير والصلاح، **ينهون عن الفساد فى الأرض**. ثم استثنى تُبّاعَ الأنبياء بقوله: **إلا قليلا ممن أنجينا منهم**، كقوله:[3] ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟،[4] فأشار ههنا إليهم. ثم قال: **واتّبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين**. الواو في "واتبع" واو الحال، أي هلا نَهَوا حين اتّبع الظالمون لذّاتِهم، أي فأهلكهم الله بظلمهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

وما كان ربك ليهلك القرىٰ بظلم، منه، **وأهلها مصلحون**. قوله: ليهلك، هذه لام الجحود، وفائدتها أنها تنبئ عن الماضي والحال والاستقبال، كأنه قال: إن ربك بينه

---

١ ش ك: وزلفة.

٢ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (سورة طه، ٢٠/ ١٣٢).

٣ ن: لقوله.

٤ سورة يونس، ١٠/١٠٣.

وبين الظلم منافاة فلا يفعله بوجه. وأما قوله في القصص: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ، فمعناه أنهم وإن ظلموا فإنه لا يهلكهم حتى يُنذرهم، لهذا بعده: وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ،[١] أي جاء الإهلاك إشارة إلى أنهم إن كانوا ظلموا وتابوا فلا يهلكهم. وفي هذه الآية ما يَحُلّ الإشكالَ وينفي الجبرَ ويعرِّف المؤمن كيف ينجو هو ومن معه في بلد قد أراد الله هلاك أهله بسيف أو غيره عقابا لهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

وقوله: ولو شاء ربك لجعل الناس أمة وٰحدة، وهذه من المتشابه. ومحكم هذه الآية هو قوله تعالى في المائدة في تتمة الآية التي تُشبه أولَ هذه، وهي: وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً / وَٰحِدَةً، ثم بينه فقال: وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ.[٢] وقوله [٢١٣و] ههنا: وٰحدةً، أي مسلمة، لأن ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ.[٣] وهذا إنباء عن قدرته سبحانه، تقديره: ولكنه لم يفعل ذلك ليختبرهم. ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وقد عرّفنا لمن يرحم وهم تُبّاع كتبه وأنبيائه، كل في وقته وزمنه، لقوله عن التوراة: إِمَامًا وَرَحْمَةً،[٤] وعن القرآن: هُدًى وَرَحْمَةً،[٥] فتابع[٦] الرحمة مرحوم. وقوله: ولذٰلك خلقهم، لا تفهم[٧] أن تقديره ولذلك خلقهم مختلفين، ليس كذلك لأنه تعالى يخلقهم مختلفين[٨] لقوله: وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟،[٩] [و]في سورة البقرة كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً،[١٠] وتمام الآية. فقد بان لك من الآيتين أنه تعالى لم يخلقهم

١ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٥٩).

٢ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة المائدة، ٥/٤٨).

٣ سورة آل عمران، ٣/١٩.

٤ الآية ١٧ من هذه السورة.

٥ هذه العبارة ذكرت في آيات كثيرة، منها ما ورد في سورة الأنعام، ٦/١٥٧؛ وسورة الأعراف، ٧/٥٢، ٢٠٣؛ وسورة يونس، ١٠/٥٧؛ وسورة النمل، ٢٧/٧٧.

٦ جميع النسخ: فبائع، والمثبت من م.

٧ ك: ولا تفهم.

٨ ك – ليس كذلك لأنه تعالى يخلقهم مختلفين، صح هـ.

٩ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة يونس، ١٠/١٩).

١٠ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢١٣).

مختلفين بل هم اختلفوا. والضمير في قوله: **ولذلك**، عائد إلى قوله أولا: **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة وحدة**. وتقديره: وليكونوا أمة واحدة مسلمة خلقهم. وهذا هو معنى [قوله:] وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[1] وإذا لم يُفهَم هذا كما شرحناه عاد مناقضا. فلمّا ذكر الناسَ ههنا نَسَق وصفهم وهو الاختلاف تِلْوَ ذكرهم. ولمّا ذكر الربَّ نسق وصفه وهو الخلق تلوَ ذكره، وقال: **ولذلك**، أشارة إلى أول الآية لِما بَعُد الكلام من أجل ما اعترض. فجاء بعد ذلك قوله: **وتمت كلمة ربك**، منطبقا على ما تقدم.

وقوله: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ،[2] يحقق أنه قد مكّنهم من الظلم والإصلاح ونهاهم عن الظلم.[3] فنزه نفسه أن يفعل معهم مثل ما نهاهم عن فعله. ولا يكون ذلك إلا مع تمكنٍ وقدرة. ولو خلقهم على هدى تام ولا يُمكنهم الذهابُ عنه فبأي صورة كانوا يستحقون الرحمة والثواب؟ ولو خلقهم على ضلال تام ولا يُمكنهم الذهاب عنه[4] إلى الهدى للزم مثل ذلك. فلا تعتقد[5] أن المعنى في قوله: **إلا من رحم**، أي في الأزل بغير عمل، لأن الرحمة في الأزل وإن سبقت قبل العمل فإنما يرجع المفهوم منها إلى العلم منه تعالى بما يكون من عمل زَيْدٍ فيستحق بعمله ما كان معلوما لله في الأزل. وبهذا تثبت الحجة على العباد من بارئهم، فخلقهم وهداهم، وأمرهم ونهاهم، ومكّنهم فيما آتاهم. فاختلفوا هم من تلقاء أنفسهم. وأخبر الله تعالى أنهم: **لا يزالون مختلفين إلا من رحم**. وقد علمنا من يرحم مع إمكان أنه يرحم من يشاء[6] وإن لم يصدر منه أفعال المرحومين. فلما هداهم الله إلى ما به يرحمهم أطاع بعضهم وعصى بعض، فأخذ هذا بذنبه وأهلكه بظلمه، ورحم هذا باتباعه ونجّاه بإيمانه، كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.[7] ولهذا بعده: **وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**، بعدل من الله وقضاء وقدر عن علم، لا عن عبث أو هوى أو ظلم، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

---

[1] سورة الذاريات، ٥١/٥٦.
[2] الآية ١١٧ من هذه السورة.
[3] ك – والإصلاح ونهاهم عن الظلم، صح هـ.
[4] ش – فبأي صورة كانوا يستحقون الرحمة والثواب ولو خلقهم على ضلال تام ولا يمكنهم الذهاب عنه.
[5] ك ن: فلا يعتقد.
[6] جميع النسخ: من نشاء.
[7] ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس، ١٠/١٠٣).

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

وكلا، أي وفي كلٍّ من القِصص، نَقُصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك فى هٰذه، القصة، الحق، أي الذي لا ينكره بنو إسرائيل إذا أخبرتهم بنبإ نوح وبما جاء[1] في التوراة، وموعظةٌ وذكرىٰ للمؤمنين. وإذا علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جلالة قدره وعظمِ شأنه وقوة إيمانه ثبّت الله قلبه بما قص عليه من أنباء الرسل فبالأولى أن تكون[2] الأمة كذلك، فاتْلُ وافقَهْ واعملْ.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

وقل للذين لا يؤمنون اعملوا علىٰ مكانتكم، أي تمكنكم وجهدِ قدرتكم في عداوتنا وإهلاكنا. فهو كما تقدم في كلام شعيبٍ[3] وغيره،[4] إنا عٰملون. وانتظروا إنا منتظرون.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

ولله غيب السمٰوٰت والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، قال عليه السلام: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله».[5] وما ربك بغٰفل عما تعملون.[6]

---

[1] جميع النسخ: وما جاءه، والمثبت من م.

[2] ك ن: أن يكون.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٩٣ من هذه السورة.

[4] انظر مثلا: سورة الأنعام، ١٣٥/٦؛ وسورة الزمر، ٣٩/٣٩.

[5] المنتخب من مسند عبد بن حُميد، ص ٢٢٦؛ والمستدرك للنيسابوري، ٢٧٠/٤؛ ومسند الشهاب لمحمد سلامة القضاعي، ٢٣٤/١).

[6] ك – لا ينكره بنو إسرائيل إذا أخبرتهم بنبإ نوح وما جاءه في التوراة... قال عليه السلام من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله وما ربك بغٰفل عما تعملون، صح هـ.

سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ① إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ②﴾

الر تلك ءايٰت الكتٰب المبين. إنا أنزلنٰه قرءٰنا عربيا لعلكم تعقلون، معانيه بمبانيه.

﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ③﴾

ولما جاء في آخر هود: وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ،[1] جاء في أول هذه: **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هٰذا القرءان**. يحتمل أن يكون الباء في قوله: **بما**، باء التعدية، أي بالذي، وقوله: **هٰذا**. ويُحتمل أن يكون الباء بمعنى الظرف ملحقة بـ"هذا"؛ فيكون تقدير الكلام: بهذا القرآن الذي أوحينا. والأولى أن يكون المعنى بنفس الوحي، أي[2] نقص عليك / بوحينا إليك هذا ليكون القصصُ هو القرآنَ الموحَى. **وإن كنت من قبله لمن الغٰفلين**، عن علم ما نقُصُّه؛ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ.[3] والعرب أدخلوا اللام في خبر "إن" الخفيفة لتفرّق بينها للخبر وبين ما يأتي مثلها للجحد، تقول: إن كنتَ من الغافلين، أي لم تكن أبدا؛ فجعلوا اللام للفرق بين الجحد والخبر. فافهم، والغفلة ههنا. [٢١٣ظ]

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ④﴾

إذ قال يوسف لأبيه، [وموضع "إذ" هنا] كقوله: وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ،[4] **يٰأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر**. وقوله ثانيا: **رأيتهم لى سٰجدين**، كرر [رأيت]

---

[1] ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ (سورة هود، ١١/١٢٠).

[2] ن: أن.

[3] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٥٢).

[4] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٤٤). | و"إذ" هنا ظرف للزمان الماضي.

لئلا يعود السجود منسوبا إلى الشمس والقمر دون الكواكب، وليفيدنا معنى آخر بالتكرار، وهو أنه لو لم يكرر لاحتمل أن يكون السجود من الكوكب في وقت ومن النيّريْن في وقت. فلما قال: رأيتهم لى سٰجدين، أي جملةً دل على ما دلت عليه آخر السورة بقوله: هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ.[1]

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

قال يٰبنى لا تقصص رءياك علىٰ إخوتك فيكيدوا لك كيدا، أمره بكتمان أمره لأنهم كانوا يعلمون تفسير هذه الرؤيا. وعرّفنا الله سِرَّ الكتمان وأن الحسد يكون حتى في قلوب الإخوة ولو كانوا أبناءَ نبيٍّ. ولهذا قال عن مطلق الإنسان: إن الشيطٰن للإنسٰن عدو مبين، ليس هذا تفسير المنام، بل لمّا قال[2] له أبوه: لا تقصص رءياك، كان المعنى: ومثل ذلك إذا قبلتَ وصيتي التي اجتبيتك لها.[3]

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

وكذٰلك يجتبيك ربك، والاجتباء افتعال من جبيت الشيء إذا جمعتُه إليك، ومن جمعه الله إليه لم يفترق. وفي هذا الكلام أربعةُ أشياء من يعقوب ليوسف عليهما السلام: بشره أولا بالنبوة بقوله: يجتبيك؛ وثانيا بالعلم بقوله: ويعلمك من تأويل الأحاديث؛ ثم بطول العمر؛ ثم بالملك بقوله: ويُتمُّ نعمته عليك وعلى ءال يعقوب، أي بك، كما أتمها علىٰ أبويك من قبل إبرٰهيم وإسحٰق. إن ربك عليم حكيم، يحكم بمقتضى علمه منك.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

لقد كان فى يوسف وإخوته ءايات للسائلين، ليس المراد للسائلين لك يا محمد من بني إسرائيل خاصة مطلقا، آياتٌ تدلهم على صدقك لكونك أخبرتَ عن يوسف وإخوته. ولهذا لم يقل: إن في قصة يوسف وإخوته، بل، لقد كان، أي فيما جرى له ولإخوته في وقته.[4]

---

[1] الآية ١٠٠ من هذه السورة.

[2] ش: قاله.

[3] انظر: الآية التالية.

[4] ن: في قوته.

وإنما[1] هذا جاء في أول القصة مجملا، ثم فصله، ثم جاء بعينه[2] في آخر القصة محكما لا تشابه فيه، فختم به السورة وهو[3] قوله عن يوسف: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ،[4] فافهمه جيدا. فإنه[5] لمّا ذكر العلم والحكمة ههنا[6] ذكر ما هو دليل وعلامة[7] على ذلك، وهو ما جرى ليوسف وإخوته، إعلاما أن ذلك كلّه على مقتضى العلم والحكمة غيرُ خارج عنهما، بل هو علامات دالّات على حكيم عليم. ولمّا كان الناس بأسرهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام. أحدهم المقرَّبون، وهم الأنبياء الذين يعلِّمهم الله، كقوله: وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ،[8] وهؤلاء لا يَسألون لاستغنائهم بالله. والقسم الثاني أصحاب اليمين، وإليهم الإشارة بقوله ههنا: للسائلين، فالآيات بهذا القسم خاصة. والقسم الثالث أصحاب الشمال وهم المكذِّبون. جاءت هذه الآية للقسم الأوسط بصورة الإجمال.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾

ثم تلاها بالتفصيل الدال على آيات للسائلين من الماضين والآتين فقال: إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، أي جميعا، ونحن عصبة. إن أبانا لفى ضلل مبين. هذا القول منهم[9] كاللازم عن قولهم الأول ليوسف وأخيه،[10] فلزم عنه: إن أبانا لفي ضلال مبين، لا لأنهم قالوه بالأفواه، فحكى الله ذلك عنهم بصورة القول، كما تقول:[11] هذا قول الشافعي، أي دعواه. وأقول: إنهم قالوا بالأفواه والظنون كما قالوا مثله: إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ.[12] لكن الضلال في هذه المواضع ليس المراد به الكفر بل الضلال عن وجه الصواب في تلك القضية خاصة.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

---

١ ن: إنما.

٢ ك – بعينه، صح هـ.

٣ ش ن: هو.

٤ الآية ١١١ من هذه السورة.

٥ ش – فإنه، صح هـ.

٦ لعل المؤلف يشير إلى آخر الآية السابقة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٧ ش: دليل علامة.

٨ من الآية السابقة.

٩ أي ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١٠ ش ن: وأخوه؛ ك: وإخوة.

١١ ن: كما نقول.

١٢ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٩٤-٩٥).

اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا، في أرض، يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده، بعد يوسف، قوما صٰلحين، عند أبيكم، لأنهم لم يكونوا من الصلاح عند أبيهم في رتبة يوسف. وليس المراد اقتلوا يوسف وتوبوا كما قيل.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾

قال قائل منهم، في التوراة: إنه يهودا وكان كبيرهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيٰبت الجب، موضع يغيب فيه عن العين، يلتقطه / بعض السيارة إن كنتم فٰعلين، به القتل. [٢١٤و]

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١﴾

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾

أرسله معنا غدا يرتع ويلعب، رتعتِ الماشية إذا أكلتْ ما شاءت حيث شاءت. والرَّتْع في اللغة هو العدْوُ في اللعب، لهذا قال: إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ،[1] ولم يقل: "نَتَسَابَقُ" لأن "تَسَابَقَا" ليبين أيهما أسبقُ، واسْتَبَقَا لغرض[2] لا لنفس المسابقة، ومنه وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ.[3] وإنا له لحٰفظون.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾

قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به، فتعلموا منه الحيلة بقوله لهم: وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غٰفلون، فاحذر مثل ذلك.

﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾

فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيٰبت الجب، تقديره اصطفيناه[4] للنبوة، وأوحينا إليه، في ذلك الوقت، لتنبئنهم بأمرهم هٰذا وهم لا يشعرون، حين ينبئهم. وذلك قوله لهم:

---

[1] الآية ١٧ من هذه السورة.
[2] ن: لفرض.
[3] الآية ٢٥ من هذه السورة.
[4] جميع النسخ – اصطفينا، والمثبت من م.

هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ، ولو لم يقل: أَنَا يُوسُفُ،[١] لَمَا علموا. وهذا الوعد من الله هو الذي كان ينتظره يوسف لأنه مؤمن بالوحي. ولهذا مع قربِ البلاد لم يرسل إلى أبيه ولا إلى من يعرّف أباه به. فافهم ذلك ليزول الإشكال عن يوسف. وهذه الكلمات مختصرُ قصةٍ طويلة. وإنما ذَكَر من ذلك ما يُعلَم به آيات الله في يوسف وإخوته. ففي ذلك علاماتُ تحقيق صحة الجزاء على الأعمال، كما تجد في هذه القصة.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦﴾

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾

قالوا يٰأبانا إنا ذهبنا نستبق، ليس عن مواعدة كما تُفهم من نَتسابَق، أي بالخيل[٢] وغيرهم، بل هو من قولهم: وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ،[٣] ولهذا قيل: أرادوا الاستباق إلى الماء. ولمّا لم يبيّن النص ذلك عُلم أن المراد إنما هو نستبق إلى غرض قد يَسْبِق الغير إليه كالماء أو المرعى وغيره مما قد يَسبِق الغير إليه، فليس ذلك من باب اللعب، فافهمه. وتركنا يوسف عند متٰعنا فأكله الذئب. وما أنت بمؤمن، بمصدق، لنا، في هذه القضية لعظم المصاب وحبّك ليوسف، ولو كنا صٰدقين، أي مَن لا يجوز عليه الكذبُ كالأنبياء. وهو كما تقول مستعظما[٤] لأمر تحكيه[٥] لصاحبك: جرى لي أمرٌ لا يصدقّني فيه أحدٌ ولو كنت ممن لا يَكْذِب أبدا، أي لو كنت أبدا عنده صادقا. والأسباط نسل أولاد يعقوب والأنبياء من الأسباط.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾

وجاءو علىٰ قميصه بدم كذب. قال: ليس كذلك، بل سولت لكم أنفسكم أمرا، فصبر جميل، ليس معه عتاب. والله المستعان علىٰ ما تصفون. انظر إلى كونه لم يَستقرَّهم بضرب أو غيره، أو بلفظ بسوء أو بدعاء عليهم، وكونِه قال: فصبر، ثم قال: جميل.

---

[١] ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ (سورة يوسف، ١٢/٨٩-٩٠).

[٢] ن: الخيل.

[٣] الآية ٢٥ من هذه السورة.

[٤] ن: استعظاما.

[٥] ك: يحكيه.

والصبر الجميل ما ليس معه شكوى إلا إلى الله، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.[١] وأما الصبر على ما يُمكن دفعه فهو ظلم مّا للنفس.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾

وجاءت سيارة، موسومون بالسير لأنه صنعة[٢] لهم،[٣] به تكسُّبهم. وفي التوراة: إنه قافلةُ عربٍ بتجارة.[٤] فأرسلوا واردهم، الذي يَرِدُ[٥] إلى الماء، فأدلىٰ دلوه، قال: يٰبشرىٰ هٰذا غلٰم، على صورة المدح والتعظيم، كقوله: ﴿هَٰذَا هُدٗى﴾،[٦] أي لا غيره أو لامثلُه. وأَسَرُّوه، من السِّرّ، أي أخفوه في الطرقات لئلا يَظهر أمرُه فيؤخَذَ، وقد يكون[٧] بمعنى جعلوه، بِضٰعة، سرا بينهم وبين أنفسهم. والله عليم بما يعملون.

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾

وشروه، باعوه، ولمّا قال: بثمن بخس درٰهمَ معدودةٍ، عرَفنا أن المشترَى بالعدد يقع فيه البخس. وفي التوراة: إن البائعين إخوته،[٨] وهنا أضمر ذكْرهم بل أسقطه جملة.[٩] وقوله: وكانوا فيه من الزّٰهدين، الزاهد يبيع سِلْعته بالثمن البخس وهو الناقص، والزاهدون فيه هم الذين أسرُّوه. وأما إخوته فقد صرح النص عنهم بأعظم من ذلك وهو إرادة القتل له.[١٠] ولما كان المراد ههنا ذكْر ما يتعلق به لا بإخوته لم يذكر[١١] بيع إخوته له بل بيع الذين أسرّوه. والذي دل عليه ظاهر النص أن الذين أسروه باعوه بثمن بخس، لأن المسروق يَزهَد فيه بائعُه ويحب تعجيلَ خروجه عنه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾

١ الآية ٨٦ من هذه السورة.
٢ ش: لأنه صفة.
٣ جميع النسخ + هم.
٤ انظر لمعرفة المزيد: التوراة، التّكْوين ٣٧/١٨-٢٨.
٥ جميع النسخ: يريد، والمثبت من م.
٦ سورة الجاثية، ٤٥/١١.
٧ ك - وقد يكون، صح هـ.
٨ انظر لمعرفة المزيد: التوراة، التّكْوين ٣٧/١٨-٢٨.
٩ ك ن: حملة.
١٠ لعل المؤلف يشير إلى الآية ٩ من هذه السورة.
١١ ك: ولم يذكر.

ويعضد هذا كونه قال بعده: **وقال الذى اشترىٰه من مصر لامرأته أكرمى مثوىٰه.** والإكرام من قوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾.[1] وقوله: **عسىٰ أن ينفعنا**، يدل على صغر سنّه، وتقديره: إذا كَبُر. **أو نتخذه ولدا**، لم يكن لهما ولد. وفي التوراة أن المشتري له فُوطِيفَار الخادم رئيس الطباخين،[2] وكان عزيزا في الدولة. وقيل: سمي بذلك كما / يسمى الخدامُ عزيزَ الدولة وإن جاز أن يلقَّب به غيره كما لقِّب به يوسف.[3] **وكذٰلك مكنا ليوسف فى الأرض**، أي كما قال أبوه له وبشره به، **ولنعلّمه من تأويل الأحاديث.**[4] وهذا التمكين مطلق، أعني في دار الذي اشتراه وهو إخبار عما سيكون ولم يكن سيده اشتراه من أجل امرأته. ولو كان كذلك لقال: وقال الذي اشتراه لامرأته. **والله غالب علىٰ أمره ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون.** [٢١٤ظ]

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

ولما بلغ أشده ءاتينٰه حكما وعلما، من لَدنّا جزاءً بما أحسن لنفسه وسيده، ودل على ذلك بقوله: **وكذٰلك نجزى المحسنين.**

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وأخذ يصف بعض ما كان منه من الإحسان الذي به استحق الجزاءَ من الله تعالى، فقال: **ورٰودته التى هو فى بيتها عن نفسه**، ولم يقل: سيدتُه. وأصل المراودة من راد يرود مثل قام يقوم، وراود مثل قاوم. وأصله رأد فقلبت الألف واوا، منه قوله عليه السلام: «إذا بال أحدكم فَلْيَرْتَدْ لبوله مكانا لينا أو منخفضا».[5] ويعود في الأصل إلى الإرادة لكن بميل وهوى. **وغلّقت الأبوٰب**، مشددة اللام يدل على المضاعفة الغَلْقَ لكثير من الأبواب. **وقالت هيت لك**، يقال: هَيَّت به إذا صاح به بلفظة هيْت ومثلُه هوّت. **قال معاذَ اللهِ**، أي ابتغى معاذا به سبحانه واحتراسا به، كما تقول: حرْز الله.

---

١ ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٥٧-٥٨).

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفارَ خَصِيِّ فرعون، رئيس الشُرط» (التَكوِين ٣٧/٣٦).

٣ يشير المؤلف إلى الآية ٧٨ من هذه السورة.

٤ انظر: الآية ٦ من هذه السورة.

٥ لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. نحوه: «إذا أراد أحدكم أن يبول فلْيَرْتَدْ لبوله موضعا» (سنن أبي داود، الطهارة ٢). أي يطلب مكانا ليّنا لئلا يرجع عليه رشاش بوله. انظر: النهاية لابن الأثير «رود».

وقد بيّنّا مثل ذلك لغةً في موضعه. وأراد بقوله: إنه ربي، إشارة إلى الله سبحانه وتعالى، ولهذا لم يقل: إن ربي، وتكون رؤيته لنِعَم الله عليه هي البرهان، فكيف يعصيه بنعمة. ولهذا غير العبارة، فقال: أحسن مثواي، ولم يقل: أكرم، مثل قول سيده: أَكْرِمِى مَثْوٰنهُ.[1] ولهذا بعده: إنه لا يفلح الظّٰلمون.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ولقد همت به وهم بها، وهذا منسوق كذلك في بقية الآية، والكلام معترض بين قوله: وهم بها، وبين قوله: كذٰلك. وأخر "كذلك" لئلا يُفهَم ثبوت الاهتمام منه عليه السلام الذي إنما أراد به الإعلامَ بأن يوسف كان يَقدر على إتيان النساء وأن يَهُمّ بالفعل الذي هو من طبع البشر، ولكنه نهى نفسه. وذلك أبلغ في المدح. وقوله: همت به، أي أرادته بكل همّها. وأتبع الاهتمام منه بقوله: لولا أن رءا، رؤيةَ القلب، برهٰن ربه، والبرهان هو ما قاله عن ربه سبحانه: مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ، فكيف أقابل الإحسان منه بالإساءة مني فأكونَ ظالما، إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ،[2] لأن من أحسن إليه فأساء فانتقم منه على إساءته كان الإحسان إليه برهانا يدل على عدل المنتقِم الذي كان قد أحسن. فافهم ذلك. وعلى هذا الشرح لا يكون كل واحد منهما همّ بالفاحشة، لأنه ذكر الاهتمام منها أولا ثم منه كذلك قال: لولا. فكان المفهوم من هذه العبارة أنه لم يَهُمّ وبقي الاهتمام منها فقط. فافهمه جيدا، فهو عجيب في حُسنه. ولهذا قال بعد قوله: كذٰلك، الذي وجب تأخيرها لأجل ما قدمناه، لنصرف عنه السوء والفحشاء، أي إنما صرف نفسه لنصرف عنه. وهذا لازم من قوله: مَعَاذَ ٱللَّهِ، ومما بعده. ولو نظر يوسف بشهوة، أو هَمّ لم يقل الله تعالى عنه: إنه من عبادنا المخلصين. فقد علمت أنه لا يحتمل أن يقال: إنه هَمّ بها كما همت به، وإن كان الميل الذي[3] هو من طبع البشر وحديث النفس كان موجودا. فذلك كله لا يلزم عنه أن يهمّ، ولكن يلزم لولا أن رأى. وهذا المنع مع التمكن[4] والطاقة أبلغ في وصف ذي التقوى، لأن المدح إنما هو بنهي النفس عن الهوى خصوصا مع قوة الداعي ظاهرا منها وباطنا منه، كقوله تعالى: كذٰلك. ولو لم يكن دَعتْه نفسه فنهاها لَمَا استحق أعلى المدح من ربه بالعبودية

---

[1] الآية ٢١ من هذه السورة.

[2] من الآية السابقة.

[3] ك ن – الذي.

[4] ن: مع التمكين.

والإخلاص الذي يدل[1] منه على[2] القدرة على نفسه لا على العصمة من ربه.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قال هى رٰودتنى عن نفسى، انظر إلى اختصار كلام كافٍ دفع فيه عن نفسه سوءَ بحق. وشهد شاهد من أهلها: إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكٰذبين، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصٰدقين.

/ ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ [٢١٥و]
يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾﴾

وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز ترٰود فتىٰها عن نفسه قد شغفها حبا، كما تقول: دَمَغَه ورأسَه إذا أصاب رأسه ودماغه. والمعنى دخل حبّه شَغافَ قلبها، وهو غلاف القلب، أي دخل بين القلب وجلدة القلب إشارةً إلى الإحاطة بالقلب كما يحيط الشغاف. وقوله: حُبّا، أي من فرط المحبة. إنا لنرىٰها فى ضلٰل مبين.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾﴾

فلما سمعت بمكرهن، دل على أن القول منهن كان مَكرًا ليرَين[3] يوسف، أرسلت إليهن، من يُحضرهن. وأعۡتَدَتۡ، من قولك "عتيد" وهو الحاضر المهيأ، ومنه: رَقِيبٌ عَتِيدٌ.[4]

[1] ك: تدل.
[2] ك – على، صح هـ.
[3] جميع النسخ: ليروا.
[4] ﴿مَا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ (سورة ق، ١٨/٥٠).

لهن متكئا، ما يتكئن[1] عليه وأرادت بذلك سكونهن. وءاتت كل وٰحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن. فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن حٰش لله ما هٰذا بشرا، لِما شاهدنه من عفته لا من حسنه فقط، ولهذا بعده: إن هٰذا إلا ملك كريم، لعصمته. ومعنى "وقطعن" بالتشديد يريد[2] قطعا بعد قَطْع، وليس المراد أن كل واحدة منهن قطعتْ يد نفسها ولا أنه كان بأيديهن مثل الأُتْرُجّ[3] وغيره،[4] وأنهن لمّا بُهِتْنَ من حسن يوسف سهَوْن عند تقشيره[5] فجرحت[6] كل واحدة منهن يدها. كل ذلك ليس بشيء، إذ مَن شغله حسنٌ فائق أو أمرٌ رائق لا يقدر أن يعمل عملا بيده. ولو كان ذلك التقطيع سهوا منهن لقال: فقطّعت كل واحدة منهن يدها كما قال: وءاتت كلَّ وٰحدة منهن سكينا. والأَولى أنه كان لم يقل: فقطّعن، بل وجرحن، ولأن تقشير الأترج أو مثله ليس بضروري. ولو أردن لمّا رأين يوسف أن يتركن ما بأيديهن لَتركنه ولا حرج[7] عليهن.[8] وكذلك جرت عادة من شغل بصرَه بالنظر إلى شيء أو إنسان أن يَبطل ما بيده من عمل كائنا من كان خصوصا إذا كان بيده سكين،[9] لأن حركات الجوارح إنما تكون بالقلب، مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ.[10]

وظاهر الكلام لمن تأمله يُعطي أن امرأة العزيز أرادت أَنْ تعَرِّف النسوة أن لا واحدة منهن أَصْبَرَ منها وتُظهرَ عجزَهن عن الصبر عند رؤية يوسف. فلمّا آتتْ كلّ واحدة منهن سكينا وأَقَرَّتْهُن على متكأ، وأمرتْ يوسف بالخروج عليهن بغتةً طَفِقت كلُّ واحدة منهن إليه تضمّه إلى صدرها، فقطع بعضهن أيديَ بعض، لأن كل[11] واحدة تجذبه من ناحية بيدها والأخرى تضرب[12] بها في يدها ضربة بعد ضربة على سبيل الانبساط واللعب من النسوة بين يدي امرأة العزيز، مع أن في أنفس النسوة ما فيها. والتقطيع على سبيل النحر[13] في اللعب الذي يجري بين اثنين في يد كل واحد منهما سكين. ثم أفضى ذلك إلى قطع الجلد في مواضع. ومثل هذا شاهدناه يجري بين الرجال

---

[1] جميع النسخ: يتكئون.
[2] ن – يريد.
[3] الأترج: شجرة يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبي اللون، ذكي الراحة حامض الماء (القاموس الوافي لشهاب الدين أبي عمرو، «ترج»).
[4] ك: وغير.
[5] ش ن ر: عن تقشيره؛ ك: عن تفسيره، والمثبت من م.
[6] جميع النسخ: فخرجت، والمثبت من م.
[7] ن: ولا خرج.
[8] ك + وكذلك جرت عليهن.
[9] ن: سكينا.
[10] سورة الأحزاب، ٤/٣٣.
[11] ن – كل.
[12] ك: يضرب.
[13] ش ك: النخر.

في لعب ومداعبة.[١] ويفضي القطع إلى ألمٍ بل خطرٍ كبير. والله أعلم بكلامه. وهذا كان قصد امرأة العزيز، وبهذا يتم النص والعقل.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ولهذا، قالت فذٰلكن الذى لمتننى فيه. فأقرت قُدّامَهُنّ لمَا رأت منهن مثل ما بدا منها[٢] معه من المراودة فقالت: ولقد رٰودته عن نفسه، أي كما راودتُنّه الآن، فاستعصم. ولئن لم يفعل ما ءامُرُه ليُسجَنَنّ وليكونًا من الصٰغرين؛ ولو لم يُراودنه ويفعلن كفعلها بل أشدَّ لَمَا أقرت على نفسها ولَمَا[٣] قام عذرها عندهن ولكان[٤] اللوم عليها متوجها منهن،[٥] لأنهن لو كنّ رأينه ولم يراودنه، لكُنّ أصبر منها ولما قالت لهن: فذٰلكنّ الذى لُمْتُنَّنِي؛ بل لمَا رأت منهن ما قام به عذرها، وأزال لومهن عنها، وأوجب اعترافهن منها قالت ذلك. والدليل على أنهن راودنه عن نفسه قوله فيما سيأتي: قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ.[٦]

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

والدليل على أنهن[٧] دعونه إلى ما دعته امرأة العزيز إليه قوله: قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه، أي جملة النسوة، ولم يقل: "مما دعتني إليه" عن سيدته فقط. وكذلك قوله: وإلا تصرف عنى كيدهن أصب، أمِلْ، إليهن وأكن من الجٰهلين. فالجميع يدل على جمع من النسوة وسيأتيك / ما لا ريب فيه مما يحقق صحة ذلك. [٢١٥ظ]

[عِبَر من قصة يوسف]

وإن في هذه القصة لذي نظر اعتبارا. وذلك أن الله تعالى عرّفنا بها من أحوال النساء ما إذا فُهم وعمل به عظم نفعُه، وإنما عرّفنا ذلك لنعمل به. فمن ذلك قول العزيز:

١ ك: ومدابعة.
٢ ك: ما يدامنها.
٣ ش – ولما، صح هـ.
٤ ش: لكان.
٥ ن – منهن.
٦ الآية ٥١ من هذه السورة.
٧ ك ن: على أنه.

يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ[1] بعد أن وجدهما في بيت والأبواب مغلّقة، فلم يَظنّ بهما أنهما فعلا فاحشة ولا عاقبهما، كما يفعل أحدنا اليومَ لو رأى بعض ذلك أو سمع به عن زوجته فيُهلك نفسه بعد أن يهلك غيره. وانظر كيف أمره بالإعراض وأمرها بالاستغفار. ومنها أنه عرّفَنا أنه لا يجوز للرجل أن يُدخل إلى بيته رجلا ولو كان نبيا وقد ربّاه واتخذه ولدا، فإنه إن لم يَخَفْ منه على زوجته يجب أن يخاف عليه من زوجته كما جرى. ومنها أن الإنسان إذا وقعت له واقعةٌ لا يَعْجَل بل يسمع من العقلاء كما شهد شاهد من أهلها. ومنها قوله: إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ.[2] ومنها ما في ذلك من اشتهار ما[3] يتكلم به الناس. ومنها أن الكلام في هذه الأمور إنما ينشأ بين الناس من النسوة كما قال: نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ. ومنها أنه عرّفَنا[4] مكْرَ النساء حتى يَرَيْنَ[5] يوسف بالحيلة بقولهن: إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ.[6] ومنها أن يعرّفَنا أن واحدة من النساء لا يخفى أمرُها عن الأخرى بل ولا عن جماعة منهن، ولا[7] تكتم ما عندها من قبيح بل تُظهره. ومنها أن النساء إذا رأين من الرجال من لهن فيه هوى تُقاتِلْنَ عليه بالسكاكين. ومنها أنهن[8] يتفقن بالفاحشة ولا تنهى واحدة[9] واحدة. ومنها أنهن يَدْعين الرجل ولو استعصم ويخوِّفنه ويتواعَدْنه كما قالت: وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ.[10] ومنها أن الرجل ولو كان نبيا فإنه يُخاف عليه من كيدهن ولا يصرف[11] عنه إلا الله تعالى، وغير ذلك كثير لم نطوّل به. ومن تدبر ووعى[12] فَهِم كثيرا. فافهم واعمل تُصِبْ إن شاء الله تعالى.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾

فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن، وكان سر إجابة الدعاء وعلامة الصدق قولَه: ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ،[13] فاسمع وادْعُ الله ليصرف[14] عنك كيد مَن لم تزل تدعوك ليلا ونهارا. إنه هو السميع العليم.

[1] الآية ٢٩ من هذه السورة.
[2] الآية ٢٨ من هذه السورة.
[3] ك ن – ما.
[4] ن: أنه يعرفنا.
[5] جميع النسخ: يروا.
[6] الآية ٣٠ من هذه السورة.
[7] ك ن: بل.
[8] ش – أنهن، صح هـ.
[9] ك ن: واحد.
[10] من الآية السابقة.
[11] ك: ولا يصرفنه.
[12] ن: ودعى.
[13] من الآية السابقة.
[14] ش: يصرف.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيٰت ليسجننه حتىٰ حين، قيل: كان الحين بروزَ لحيته.[١] وإنما بدا لهم بعد رؤية العلامات الدالة على صدقه رؤيةُ المصلحة في سجنه، لأنهم خافوا على نسائهم لِمَا رأوا ما جرى لهن معه، إذ مثل ذلك لا يخفى.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾

ودخل معه السجن فتيان. قال أحدهما، يسمى الشيء باسم ما يئول إليه، كقوله: **إني أرىٰني أعصر خمرا، وقال الآخر إني أرىٰني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه، نبئنا بتأويله إنا نرىٰك من المحسنين،** من رؤية القلب، أي نعتقد فيك ونزعم. تقول: ما أراك إلا صالحا.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾

قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله، تأويلَ المنام، **قبل أن يأتيكما،** ذلك الطعام. ولهذا لم يقل: إلا ونبأتكما بالواو التي تدل على الماضي، ولم يقل أيضا "به" موضع "تأويله". والتأويل إنما يكون للمنام دون الطعام، فافهم ذلك. واعلم أنه لمّا كان قد تقدم قوله: نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ،[٢] وأراد أن يعظهم، ووعدهم قبل الوعظ أنه ينبئهم بتأويل[٣] ما رأوا في منامهم الذي طلبوا منه تأويلَه قبل مجيء طعام يليهما؛ كما لو أردت أن تجاوب خصمك بجواب عن سؤاله ولك قصد في إن تُكلّمه كلاما آخر قلت له: "سأجيب سؤالك قبل أن يأتيك ما تأكل[٤] فاسمع الآن"، وذكرت له ما أردته أنت من كلامٍ آخرَ ثم بعد ذلك جاوبته عن سؤاله. وإنما فعل يوسف ذلك لأنهما كانا لا يُصغيان إلى الموعظة. فلمّا سألاه انتهز الفرصة في موعظتهما عند إصغائهما إلى جواب ما سألاه من يوسف عليه السلام. هذا مفهوم اللفظ، والله أعلم بكلامه.

١ ن: لحينه.
٢ من الآية السابقة.
٣ ن: بتأويله.
٤ ش: أن يأتيك مأكل؛ ك: أن يأتيك ما كمل.

ومن قال: إنه جعل الإخبار بالغيب معجزة[1] له، إذ دعاهما إلى الإيمان، فذلك محتمَل بعيد، لأنه كان يُمكن أن يدعوهما عند إتيان كل طعام وعند غير ذلك، وما قلناه أولى باللفظ. فقال: ذٰلكما، أي التأويل، مما علّمني ربي، كما تقول: أنا أعلم وهذا العلم من خبير به، لأن أباه وعده بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾،[2] فصَدَق / الله وعْدَ أبيه له. [٢١٦و]
ثم دعاهما إلى التوحيد بأحسن صورة، وهي أنه جعل السبب الذي من أجله علّمه الله التأويل قولَه: إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله، وهذا مما يُطمعهما في الإيمان. ومن نبّه وتَفكّر فيما قاله فَهِم منه أشياء يجب على العارف استعمالُها وإن جهلها الجاهلون. وهم بالآخرة هم كٰفرون.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

واتبعت ملة ءابائى إبرٰهيم وإسحٰق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء. ذٰلك، التّرك والاتّباع، من فضل الله، الذي أوجبه وفرضه، علينا وعلى الناس ولٰكن أكثر الناس لا يشكرون، أي لا يشكرونه على ما رزقهم من العقل والهدى بل يَضِلّون بأموالهم، فلا يشكرون بل يكفرون.[3] وفي هذه الإخبار معنى آخَرُ وهو أنه عليه السلام جعل ما هو فيه من الإيمان فضلا من الله، فنسبه إليه. والدليل على أن فضل الله على الناس يريد به العقل قولُه بعد ذلك من الاحتجاج ما يرجع إلى العقول الصحيحة، وهو قوله: يٰصٰحبى السجن، كما[4] تقول: يا صاحبي السفر، ويا صاحب البحر تريد به الذي صَحِبْتَه في البحر، لا مالكَ البحر، ءأرباب متفرقون خير، لأنه يلزم أن يَقهر بعضهم بعضا، ولهذا بعده: أم الله الوٰحد القهار.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

---

[1] ش: محبرة.
[2] الآية ٦ من هذه السورة.
[3] ك ن - بل يكفرون.
[4] ن: السجن ما.

ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطٰن. ثم قال: **إن الحكم إلا لله**، القهار على كل مقهور.[١] **أمر ألا تعبدوا إلا إياه. ذٰلك الدين القيم ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون.** وقد علمت أن هذا[٢] ومثلَه هو بعض ما قاله يوسف. ولو ذَكر في كل قصةٍ جملةَ ما جرى لنبي ذلك الزمن لكانت قصة أحد الأنبياء بقدر القرآن في الحجم مراتٍ كثيرةً. ولكنه تعالى ذكر نُبْذة[٣] لطيفةً أخبر بها عن زُبَد وقائعهم. وإن بقية الأمور التي جرت لهم هي من جنس ذلك. وإن لكل واحد قصة، غير أن قصة يوسف أحسن القِصص.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

ثم لما ذكر يوسف من الموعظة والدعاء إلى الله ما شاء وذكر[٤] لهما[٥] في تمام كلامه تأويل المنام فقال: **يٰصٰحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه. قضى الأمر الذى فيه تستفتيان**، أي لا يكون إلا كذلك. وفيه إشارة إلى نزول الوحي إليه[٦] بما قال. وهذا يقع مثلُه لأرباب الذوق وهو أن يدعُوَ إلى الله ويتكلم بالتوحيد فيفتحَ الله على قلبه بذلك علما، ومن عمل علم. ولهذا قال أخيرا: **قضى الأمر**، لإشراق[٧] باطن، وهو في الظاهر كما تقول: قد قضيت حاجتك وأجبت سؤالك الذي وعدتك به قبلُ.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

وقال للذى ظن أنه ناج منهما، ليس الظن عائدا إلى يوسف، وقد قال: **ذٰلكما مما علمنى ربى.** وإنما أحدهما ظن أنه ناج وأما الآخر فكذّب ما أوّله يوسف. وفي التوراة أنه[٨] كان مُختلِقًا[٩] لما رأى، فأدّب الله به من يَكذِب على ربه، لأن الرؤيا

١ جميع النسخ + دونه؛ م: القهار لما سواه.
٢ ك: أن لهذا.
٣ جميع النسخ: نبذا.
٤ ن: ذكر.
٥ ن: لها.
٦ ك ن: عليه.
٧ ش ك: لاشتراف؛ ن: لاشتراق.
٨ وفي هامش م: أي الثاني.
٩ جميع النسخ: مختلفا، والمثبت من م.

جزء من النبوة.[١] فقال يوسف للذي قد ظن: اذكرني عند ربك، أي فرعونَ. فأنسٰه الشيطٰن، أنسى الساقيَ ذكر ربه، تعالى،[٢] لأن يوسف دعاه إلى الله فأنساه الشيطان. وليس الضمير في قوله: فأنسٰه، عائدا[٣] إلى يوسف عليه السلام من ذلك وكيف يَنسى يوسف وهو المذكِّر وكيف يُنسيه الشيطان وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ.[٤] ولكن ذلك عائد إلى الرجل الذي ظن أنه ناج منهما، فهو الذي أنساه الشيطان ذكْرَ ربه سبحانه. وليس المراد بالرب ههنا إلا الله عز وجل. وذلك أن يوسف عليه السلام لمّا دعاه إلى الله تعالى وجب عليه أن يجتهد في ذكر الله بالتوبة ويجيب داعيَ الله وهو يوسف، فأنسى الشيطان الساقي ذكْرَ ربه سبحانه. فلبث، الناسي، في السجن بضع سنين، لكونه نسي ذكْرَ الله، وهذا يعضده قولُه تعالى: فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ.[٥] وفي هذا التعريف من الله لعباده نفعٌ وأي نفع بهذا التأويل بخلاف غيره. وقيل: إن البِضع هو ما بين الثلاث إلى التسع من الأفراد، يقال لكلٍّ بضع. ودلت التوراة على أنه ثلاث سنين. وعبَّر بالبضع لأنه[٦] قطع سنين فلا / يلزم أن تكون كاملة. ولا يعارض ما قلناه [٢١٦ظ] في لبث الناسي في السجن بيوسف، لأن يوسف عليه السلام كان ممتحَنا من الله على قدر رتبته، وغيرَه معاقَب ليتوب ويُسلم. فتأمل ذلك وفكِّرْ فيه فهو أصل يَنحلّ فيه الإشكال، لأن النِّقَم في حق الأنبياء هي عين النِّعَم. وفي التوراة أن رئيس السقاة لم يذكر يوسف ونسيه، وهذا لا يناقض قوله: فأنسٰه الشيطٰن، لأن قوله: فأنسٰه، يرجع إلى الناسي في السجن. وقوله في التوراة: نسي يوسفَ، أي الساقي خارجَ السجن، فالساقي أنساه الشيطان ذكر ربه تعالى داخل السجن، وهذا هو ما جاء في القرآن؛ والساقي نسي يوسف وهو خارجَ السجن وهو ما جاء في التوراة.[٧] وقال في التوراة: ومن بعد سنين رأى فرعونُ المنام،[٨] ودل على أن البضع ههنا أراد به السنة الثالثة.

[١] عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا اقترب الزمان لم تَكَدْ رؤيا المسلم تَكْذِب، وأصدقكم رؤيا أصدقُكم حديثا. ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة. والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه...» (صحيح مسلم، الرؤيا ٦؛ وسنن الترمذي، الرؤيا ١). وانظر أيضا: كشف الخفاء للعجلوني، ١/٤٣٠؛ والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، «النبوة».

[٢] انظر إلى آخر تفسير هذه الآية.

[٣] ش: عائد.

[٤] الآية ٢١ من هذه السورة.

[٥] سورة الصافات، ٣٧/١٤٣-١٤٤.

[٦] ن: بالبضع لا.

[٧] انظر لذلك: التّكوين ٤٠/١-٢٣.

[٨] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوارة: «وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلما» (التكوين ٤١/١).

والله تعالى يَرُوض أنبياءَه وأولياءه، ويبتليهم ويحفظهم في الابتلاء إلى أن ينصرهم ويقيم بهم دينَه في الوقت الذي يشاء سبحانه وعلى ما تقتضيه[١] الحكمة. وفي التوراة أن عُمْر يوسف لما مُلِّك كان ثلاثين سنة.[٢] ولا تظنَّ في يوسف أنه اعتمد على غير الله، أعني المَلِك، بل اعلم أنه علم أن خلاصه من السجن لا يكون إلا على يد ذلك الناجي وفي زمن ذلك المَلِك الذي هو رب الناجي، وأن الناجي سينسى فقال له: اذكرنى. وإذا رأيت الكلام يحتمل معنيين، فانظر أيهما أولى بالنبي ولِوَليِّ فرعون.[٣] وفي نسبة النسيان إلى يوسف شناعة خصوصا، والعبارة[٤] تمنع لكونه لم يقل: وأنساه. وأقول: إن من أمعن النظر نسب النسيان إلى الساقي، والنسيان من الساقي في السجن إنما كان لله تعالى. وإنما قال: **ذكْرَ ربه**، على جهة التقابل في اللفظ، أعني لَمّا قال: **اذكرنى عند ربك**، إذا خرجت قال عنه: **فأنساه الشيطان ذكر ربه** تعالى الذي هو موجب لِلَّبْث **فلبث في السجن**، أي ثم خرج بعد **البضع**.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٞ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۝٤٣﴾

وقال الملك، بعد ذلك بمدة: **إنى أرى سبع بقرٰت سمان يأ كلهن**، لَيأْكُلْنَ مخفَّفة[٥] النون، مؤنث[٦] "ليأكلَنَّ" بتشديد النون مذكر يأكلهن، **سبعٌ عِجاف**، هنّ[٧] ضد السِّمان. والعَجَف[٨] بتحريك الجيم الهُزال. وكونه رأى، **سبع بقرٰت**، **وسبع سنبلٰت خضر وأخر يابسٰت**، ذلك لِيَعلم مَن علّمه الله تعالى تأويل الرؤيا أن السنين السبع التي هي البقرات سيوجد فيهن السنبل أخضرَ، والسنين التي[٩] هي[١٠] عقيبَهن لا يوجد فيهن سنبلة إلا يابسةً. فأراه الله مثالَين تبيينا بمعنى واحد. **يٰأيها الملأ أفتونى فى رُءيٰى إن كنتم للرءيا تعبرون**.

١ ك ن: ما يقتضيه.
٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوارة: «وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر. فخرج يوسف من لدن فرعون واجتاز في كل أرض مصر» (تكوين ٤١/٤٦).
٣ م: أو بولي فرعون.
٤ جميع النسخ: والعياذة، والمثبت من م.
٥ ش ك: فخخفت؛ ن: مخفف.
٦ ش - مؤنث.
٧ ك ن: هي.
٨ العَجَف ذهابُ السِّمَنِ والهُزالُ (لسان العرب، «عجف»).
٩ ك ن - التي.
١٠ ش ك: هن.

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾

قالوا أضغٰث أحلٰم. الضِغْث قبضةُ حشيش مختلطة بالرطب واليابس،[1] وضغث الحديث خلطه. فهذه أحلام مختلطة لا يصح تأويلها لاختلاطها بزَعْمهم من جهلهم. ثم أقرّوا بالجهل فقالوا: وما نحن بتأويل الأحلٰم بعٰلمين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾

قوله: وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة، الأمة الجمع الكثير. فإذا نسب إلى شيء كان ذلك الجمع من جنسه مثل جمع سنين وشهور وأيام وساعات. وتقديره: وقال الذي نجا منهما بعد أمة. والنجاة والإدِّكار[2] كان بعد أُمّة. وليس أنه نجا عقيبَ ما فَسّر له يوسف،[3] وإنما نجا بعد لبثه في السجن بضعَ سنين[4] فهى[5] الأمة. ولهذا لم يقل: وقال الذي نجا ثم ادّكر، بل نجا وادّكر[6] بعد أمة، أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾

يوسف أيها الصديق، لأنه صَدَق في تأويل منامِ السائل، أفتنا فى سبع بقرٰت سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلٰتٍ خضر وأخر يابسٰت لعلى أرجع إلى الناس، بعلمٍ منك، لعلهم يعلمون، بما قد دلهم الله عليه بهذا المنام. وكونه[7] كرر حكاية لفظ المنام، فإن الأول كلام الملك والثاني كلام[8] الناسي. وقوله: لعلى أرجع إلى الناس، أي إلى الذين أقروا أنهم لا يعلمون، لعلهم يعلمون. ويحتمل، لعلهم يعلمون، منزلتك فيُخرجوك، والأول أولى.

﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾

قال تزرعون سبع سنين دأبا، أي على دَأب وهو العادة. فلما أعلمهم بتأويل المنام علّمهم في تأويله ما يجب أن يُعمَل بقوله: فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون،

[1] جميع النسخ: ويابس.
[2] ش: والاذكار.
[3] ش - يوسف.
[4] ن - بضع سنين، صح هـ.
[5] ن: فنهى.
[6] ش: واذكر.
[7] ن - كونه.
[8] ك ن - كلام.

ولم يقل: إلا ما تأكلون ليُعلمهم أنه يجب أن يكون قليلا لعلمه أنه سيكون الأمر كذلك. وقد علّمنا أفضل الوجوه لخَزْن الغِلال.[١] ولهذا خلق الله على / كل بَزْرة[٢] ما [٢١٧و]
يقيها من قشر هو يحفظها قبل الحصاد وبعده.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨﴾

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾

ثم يأتي من بعد ذٰلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، ما يُعْصَر كالزيتون والعنب، وذلك يدل على قحط في بقية الثمرات في سِنِي الغَلاء. ويحتمل أن قوله: **يغاث**، أي من الغيث. وقوله: **يَعْصِرون**، من قوله: وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً،[٣] وهذا جيد.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾

وقال الملك ائتوني به. فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسئله، تقديره أن يسأل، **ما بال النسوة الّتي قطعن أيديهن**، أي لِم فعلن ذلك، ثم عرّفهم أن يسألوا سيدهم عن ذلك فهو يعرف النسوة ويعرف قضية يوسف. فقال: **إن ربي بكيدهن عليم**. يشير بقوله: **إن ربي**، إلى سيده لقوله: مِن كَيْدِكُنَّ،[٤] ولقوله: ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ.[٥] ويا هذا انظر إلى صبر يوسف عليه السلام أوّلَ مرة حين جاءه الذي نجا وسأله التأويل ففسر له ولم يقل: أَخرِجْني لأفسر لك هذا المنام الذي عجز عن تفسيره علماؤكم. وفي المرة الثانية كيف ما شغله فرحُه بالخروج من السجن بعد إقامته فيه بضعَ سنين عن إيضاح الحق فقال: **ارجع إلى ربك**.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾

---

١ ك: لحزن الضلال. | الغلال جمع الغلة، والغَلّة الدَّخْل الذي يحصل من الزرع والثمر واللبن والإجارة والنِّتاج ونحو ذلك (لسان العرب، «غلل»).

٢ البزر: الحَبّ يُلقَى في الأرض للإنبات (المعجم الوسيط، «بزر»).

٣ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ (سورة النبأ، ١٤/٧٨).

٤ الآية ٢٨ من هذه السورة.

٥ الآية ٣٥ من هذه السورة.

قال، الملك لجميع[1] النسوة: **ما خطبكن إذ رٰودتن يوسف عن نفسه**. وهذا يدلك على أنهن راودنه[2] لا محالة ولكن لم يكن لهن سبيل إليه، ولا أمكنهن جحودُ المراودة لاشتهار ذلك؛ ولأن إقرارهن يَبَرّ في ساحتهن،[3] ولأن تقطيع الأيدي شهد عليهن. وتقدير القول: أَعَلِمْتُنّ عليه شيئا من سوء مع امرأة العزيز وغيرها حتى راوَدْتُنَّه؟ **قلن حٰش لله ما علمنا عليه من سوء**، بمعنى ما شهدنا، إذ لا يشهد الشاهد إلا بما يعلم. فلمّا سمعت امرأة العزيز ذلك وهي من جملة النسوة، **قالت امرأت العزيزِ الْئٰنَ حَصْحَصَ الحقُّ**، أي تَبَيَّن، وكأنه يرجع: إذا حصَص،[4] إذا أخذ حصته، وللحقِّ حصة[5] وللباطل حصة.[6] فلما شهدت النسوةُ له شهادةً تدل على براءته[7] قالت عن نفسها وعن نفسه ما يعود نفعُه عليها: **أنا رٰودته عن نفسه وإنه لمن الصٰدقين**.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾

ذٰلك، هو تمام كلامِ امرأة العزيز لا من كلام يوسف كما قيل. وتقديره إنما جرى ذلك، **ليعلم**، العزيز، **أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين**.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾

وتمام كلامها أيضا: **وما أبرّئ نفسى**، لأنها أولا كانت قد ادعت ما يدل على براءتها وسَقِمَ يوسف عند قولها: مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا.[8] فقالت ههنا ما يدل على براءته ويحقق براءتها عند سيدها من الفعل لا من الاتّهام،[9] أي لستُ أدّعي أن العصمة كانت من جهتي فأبرّئ نفسي، **إن النفس لأمارة بالسوء**، مطلقا، وهذا يدل على كل نفس. فاجتهد أن تأتي يوم القيامة بسيف ملطَّخ[10] بدم النفس ولا تساهلْها في حين، فإنها مقاتِلة لك في كل حين. **إلا ما**، بمعنى الذي، **رحم ربى**. والإشارة إلى تلك القضية المعينة. ولهذا لم يقل:[11] إلا من، ويفهم منه الإطلاق لكن الغرض ههنا تخصيص الواقعة.

---

١ جميع النسخ: بجميع، والمثبت من م.
٢ ك: راودته.
٣ ش ك: يبرئ ساحتهن.
٤ ش: إذا خصص.
٥ ش: حصه.
٦ ش: حصه.
٧ جميع النسخ: براءتها.
٨ الآية ٢٥ من هذه السورة.
٩ جميع النسخ: الاهتمام.
١٠ جميع النسخ: يلطخ، والمثبت من م.
١١ ك ن: لم تقل.

وإن الله هو الذي رحم[١] بعدما أمرت النفس بالسوء. ولما كانت النفس أمرت والرب[٢] رحم سبحانه فمَنَع السوء بامتناع أحد الخصمين قالت بعده: إن ربي غفور رحيم، أي لا يؤاخذ بما وسوسَتْه النفس ولم يَبْدُ ذلك بالفعل. وهذا آخر كلام امرأة العزيز. وهي والعزيز والنسوة قُدّامَ الملك، لأن يوسف إلى الآن عبدٌ للعزيز -لا للملك- وفي حبس العزيز، ولم يزل في السجن والعبودية إلى أن جرى هذا جميعه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

وقال الملك، بعد هذا كله: ائتونى به أستخلصه لنفسى، فوقعت الحرية وخرج من السجن حرا من العبودية، بريئا من التُّهَم. فلما كلّمه، أول الكلام، وهذا يدل على فرط ذكاء الملك وحسنِ فِراسته، قال إنك اليوم لدينا مكين أمين، ذو مكانة وتمكنٍ من دولتنا، أمين، على الأموال والأرواح، إذ قد تحققت براءتُه وأمانته ومكانته[٣] من العلم. فلما قال الملك ذلك من تلقاء نفسه.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

قال اجعلنى علىٰ خزائن الأرض، يريد أرض مصر. وفيه إشارة إلى أنه لو جُعل أمينا على خزائن الأرض جميعا لكان كُفْئًا لذلك. وإنما قال يوسف ذلك طاعةً لله وعبادة لما رأى أنه قد تعين عليه مصلحةُ الخلق بالعلم / الذي آتاه الحق. ولأنه قادر [٢١٧ظ] على ذلك دون غيره[٤] من الناس؛ ولم يَقُلْه رغبة في الدنيا وما يتعلق بها، بل وجب عليه إظهار ما عنده من فضل الله، فقال: إنى حفيظ عليم.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

وكذٰلك، أي كما قال[٥] يعقوب بقوله: وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ،[٦] أي بالمُلْك الظاهر والباطن. ويحتمل وهو الأظهر أن يكون المعنى في قوله: وكذٰلك مكنا ليوسف فى الأرض،

---

[١] ش + والإشارة إلى تلك القضية المعينة ولهذا لم يقل إلا من.
[٢] جميع النسخ: الرب، والمثبت من م.
[٣] ن - ومكانته.
[٤] ن: دون غير.
[٥] ش ك - قال.
[٦] الآية ٦ من هذه السورة.

أي كما سأل بقوله: ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ.[1] يتبوأ منها حيث يشاء. نصيب برحمتنا من نشاء، في الدنيا، ولا نضيع أجر المحسنين، فيها.

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾

ولأجر الآخرة خير، من ملك مصر والتمكن في الأرض، للذين ءامنوا وكانوا يتقون.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩﴾

ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم. قيل: إنما قال لهم ذلك[2] لأنهم كانوا قد طلبوا منه كيلا لهم. فقال: ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ[3] لأعلم به صدقكم، ولهذا قالوا لأبيهم: وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ[4] ولهذا قال لهم يوسف: ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين. كان قد أنزلهم منزلا حسنا وأعدّ لهم فيه ما يحتاجون إليه وكان دأبه هذا مع غيرهم أيضا.

﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠﴾

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١﴾

قالوا سنرٰود عنه أباه وإنا لفٰعلون، ما أمرتَ.

﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾

وقال لفتيٰنه اجعلوا بضٰعتهم فى رحالهم، كانت ما خفّ محمله كالفضة والذهب، والله أعلم، لأنها وُضعت في رحالهم وهم لا يعلمون. والذي يظهر من النص أنها ثمن الكيل أي المكيل، ولهذا قال: أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ،[5] أي أعطيكم حقه وافيا. وفي التوراة أنها كانت فضتَهم. ولما ردهم أبوهم ردهم بهدية وبفضة مع تلك الفضة.[6]

---

١ من الآية السابقة.

٢ ن: بذلك.

٣ الآية ٥٠ من هذه السورة.

٤ الآية ٦٥ من هذه السورة.

٥ الآية ٥٩ من هذه السورة.

٦ انظر لمعرفة المزيد: التوراة، التكوين ٤٣/١١-٢٨.

وقوله: لعلهم يعرفونها، دل على أنها مما تشبه الدراهم وأنه قد يُعرَف، إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون، لأنهم إذا عرفوها لا يمكن أن يستحلوا أخْذَها وأخذ المكيل عن غير إذن ولا بحق،[١] يرجعون لأجل إعادتها، وذلك لأماناتهم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يٰأبانا منع منا الكيل، من أجل أخينا، فأرسل معنا أخانا نكتلْ بالجزم، أي وإن لم ترسله[٢] لم نكتل، وإنا له لحٰفظون.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

قال هل ءامنكم عليه إلا كما أمنتكم علىٰ أخيه من قبل فالله خير حٰفظا، من حفظكم،. وهو أرحم الرٰحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

ولما فتحوا متٰعهم وجدوا بضٰعتهم ردت إليهم. قالوا يٰأبانا ما نبغي، من البغي، وهو أن نأخذ ما ليس لنا. ولهذا بعده: هٰذه بضٰعتنا ردت إلينا، فلا بد من ردها إلى صاحبها. ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير، دليل على أن يوسف لم يطلق لأحد أن يشتري أكثرَ من كيلِ بعير، ولولا ذلك لتاجر[٣] الناس واشتروا جملة ما في مصر في مدة يسيرة، ذٰلك كيل يسير.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

---

[١] ن: ولا يحق.

[٢] ك: وإن لم يرسله.

[٣] جميع النسخ: لتجار، والمثبت من م.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

وقال يٰبنىّ لا تدخلوا من باب وٰحد وادخلوا من أبوٰب متفرقة، يحتمل أن يكون أمرَهم بذلك خوفا من العين. وكان عليه السلام يعلم فضيلة الكتمان ونفعه، كقوله ليوسف: لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ.[1] ثم قال لهم: وما أغنى عنكم من الله من شىء، إن أراد بكم سوءً بما تستحقونه،[2] إن الحكم إلا لله. عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾

ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم، أبوهم ولا دخولُهم كذلك، من الله من شىء إلا حاجةً، استثناءٌ منقطع، فى نفس يعقوبَ قضٰها. يحتمل أن تكون[3] الحاجة فعلَ ما يتعلق به من الاحتراز تعبدًا لله، وذلك لا يغني عنهم ولا يتعلق بأنهم بل به. ولهذا قال: وإنه لذو علم لِما علّمنٰه ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون، دل على أن البعض يَعلم وأن الحاجة مرجعها إلى علم. ولهذا قيل: من العلم أن يبذل[4] الإنسان مجهوده طلبا للأصلح ثم يتوكل. وهذا من العلم اللّدُنّيّ أقرت به الفِطَرُ وجاءت به الشرائع.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾

ولما دخلوا علىٰ يوسف ءاوىٰ إليه أخاه، بهذا القول: قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس، من البأساء، بما كانوا يعملون، بك إخوتُك. ولهذا قال لهم: هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ.[5] وإنما عرفه أنه أخوه لئلا يُزعجه عند فَقْد الصُّواع. وقوله: فلا تبتئس، إعلام له أن عائد أفعالهم به عليهم. فإذا علم أن جميع ما جرى عليه من إخوته إما أن تُرفَع له به درجةٌ أو تُحَطَّ / عنه خطيئةٌ زالت البأساء. وهذه كانت عقيدة يوسف، ولولا ذلك [٢١٨و]
لم يقدر أن يقول: لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ،[6] وتمامَه.

---

١ الآية ٥ من هذه السورة.
٢ ك: يستحقونه.
٣ ك: أن يكون؛ ن - تكون.
٤ ك ن: أن يبذله.
٥ الآية ٨٩ من هذه السورة.
٦ الآية ٩٢ من هذه السورة.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾

فلما جهزهم بجهازهم، جهّزه أعانه على المسير،[1] والجهاز ما يكون مع الإنسان من حاجة، **جعل السقاية فى رحل أخيه**، والسقاية ما يُسقى به. وقد فسر ذلك بقوله: صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ،[2] وهو كقوله: صَاعٌ، أي كَيْلٌ، وزيدت الواو لزيادة معنى فيه. **ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسٰرقون**، أشار في باطن الأمر إلى سرقتهم ليوسف، وفي الظاهر إلى الصواع. ولقد جعل لهم مَخْلَصا لو فطنوه، لأنه جعل بضاعتهم في رحالهم وهم لا يعلمون. وكذلك كان لهم أن يقولوا: جُعل الصواع في رحالنا ونحن لا نعلم. وهذا دليل قوله تعالى: كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ،[3] مضافا إلى غيره، لأنها قضية إلٰهية. فلمّا أخبرهم ووجدهم على ما كانوا عليه من البغض وسوء الظن بيوسف وأخيه، إذ قالوا: إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ... قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا.[4] والعير بالكسر مشتق من عار يعير في الأرض إذا ذهب، وهي النُّوق التي تحمل المِيرة. والإشارة بالقول إلى أرباب العير كما قال: وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ.[5]

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١﴾

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾

قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم، كفيل. والقائل المؤذن.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣﴾

والدليل على أنهم أعادوا ما وجدوا في رحالهم إلى يوسف قولُ الله تعالى مخبِرا عنهم: **قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض**، وإلا من أين كان لقوم يوسف أن يعلموا ذلك، إذ لو كانوا سُرّاقا لَما رَدّوا البضاعة. ولما كان يوسف يعلم منهم[6] ذلك قال: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.[7] فلمّا اتُّهِموا بالصواع احتجوا بما صح عند يوسف وقومِه من حالهم فقالوا: **وما كنا سٰرقين**، سُرّاقا أبدا.

---

[1] ش: على اليسير.

[2] الآية ٧٢ من هذه السورة.

[3] الآية ٧٦ من هذه السورة.

[4] الآية ٧٧ من هذه السورة.

[5] الآية ٨٢ من هذه السورة.

[6] ن: منه.

[7] الآية ٦٢ من هذه السورة.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾
﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾

قالوا جزؤه، جزاء الصواع مبتدأ وخبره: **من وجد فى رحله**، ثم قالوا: **فهو جزؤه**، أي يؤخذ عبدًا للمَلِك. **كذٰلك نجزى الظٰلمين**، أي الآن. فهم شرطوا على أنفسهم ذلك إلهاما من الله لهم وإعلاما أن من سرق الصواع استحق العبوديةَ بسَرِقَتِه فكيف من سرق صاحبَ الصواع، وإيجابا عليهم أنهم جميعَهم يستحقون ذلك الجزاءَ. فانظر كيف غفلوا عن حجة لهم وهو ما قدمناه. ثم نطقوا بحجة عليهم وهو قولهم: **كذٰلك نجزى الظٰلمين**. وأما إرعاب[1] يوسف لهم بقضية باطلة فقد اتضح بهذا أنه إنما فعل معهم ذلك تكفيرا لِما فعلوه مع أبيهم في أمر يوسف، وتفهيما لهم ما يستحقونه على ما قدموه ليتوبوا ويعتبروا فيُغفَرَ لهم. فلهذا قالوا: وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ.[2] فبهذه[3] الكلمة يتم القصدُ، لأن العفو عن المُقِرّ لا عن[4] المُصِرّ.[5]

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾

فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه. واعلم أن غلمان يوسف ردوا إخوته بحمولهم[6] إلى يوسف يدلك قوله: وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم،[7] ثم فُتِّشت الأوعية بين يدي يوسف بأمره، لأنه كان هو وضع الصواع ولم يُطلع أحدا على ذلك. لهذا قال الله تعالى: **ثم استخرجها من وعاء أخيه**. وقوله: **كذٰلك كدنا**، الكيد أن يأتي الكائدَ مَن يكيده مِن مأمنه. فآتاهم الله بهذا الكيد جزاءً لِما قدّموه من الكيد لأبيهم في أخذ يوسف منه، فأخذ [يوسف] أخاهم منهم، فَأُتُوا بهذا الكيد من الله من حيث لم يظنوا أنهم يُؤتَون منه في أخذ أخيهم منهم. وهذا الفعل من يوسف إنما وقع في حقهم بما ألهمه[8] الله من اختيار الجزاء. فلهذا لم يقل: كدنا يوسف، بل، **كدنا ليوسف**، إذ ليس هو المكيدَ بل المكيد هم إخوتُه له

[1] ك ن: إرغاب.
[2] الآية ٩١ من هذه السورة.
[3] جميع النسخ: فهذه.
[4] ش: المقر لأن عن.
[5] ن: لا عن المضر.
[6] جميع النسخ: لحمولهم، والمثبت من م.
[7] الآية ٧١ من هذه السورة.
[8] جميع النسخ: ألهمهم.

والله المُكائِد. ولهذا لم يقل: كاد يوسف بل، كدنا، له. وهذا يدلك على أن جميع ما فعله في هذه القضية كان بالوحي. فافهم لئلا يقال: كيف خوّف إخوته وأحزن ذلك الشيخ الكبير وغير ذلك.

ولهذا قال بعد الكيد: **ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك**، ثم قال: **إلا أن يشاء الله**. وذلك أنه لم يكن بجائز في دين مَلِك مصر أن يؤخَذ السارقُ جزاءَ السَّرِقة بل شاء الله ذلك. فأنطق به إخوةَ يوسف لمكيدهم له[١] ورفع درجته، **نرفع درجٰت من نشاء**. ولمّا ذكر رفع الدرجات ذكر العلم الذي به تُرفع الدرجات للعلماء،[٢] كقوله: يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ.[٣] ثم قال سبحانه: **إن علمه فوق كل ذي علم إشارةً** إلى أن علم يوسف وحيلته لم يكن بنافع له في أخذ أخيه لولا[٤] أن يشاء الله أن يكيد له إخوتَه بأن يُلهمهم ما شرطوا على أنفسهم. فكان علم الله فوق علمه، **وفوق كل ذى علم عليم**،[٥] سبحانه.

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل. يُفهَم / من هذا أن الأَولى بالرجل أن لا [٢١٨ظ] يتزوج بامرأتين خوفا مما يقع بين الأولاد ولو كانوا أنبياء. وقيل: الإشارة بالسَّرِقة إنما كانت إلى أم يوسف. وإنما استقبحوا ذكرها فنسبوا ذلك إلى يوسف. وذلك أن في التوراة مكتوبا أنها سرقت تمثالَ أبيها لَابَان الأَرَامِيّ، وكان خبيرا بعلم الفلك والتمثال هو تمثال الفلك بمعنى الأَسْطُرْلَاب. وكان يعقوب يريد السير خفيةً منه فأمرها بذلك لئلا يطلع لَابَان بالتمثال على جهة سافروا إليها فيردهم.[٦] ومن قال: يجوز أنهم قالوا ذلك عن أمر كان بينهم كما قيل: سرق[٧] خبزا وتصدق به.[٨] فجميع ما قدمناه[٩] لا يُفهَم من النص، بل هذه دعوى منهم تدل على بغض كامن في النفوس.

---

[١] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية السابقة.

[٢] ش: بالعلماء به.

[٣] سورة المجادلة، ١١/٥٨.

[٤] ن: أخيه ولا.

[٥] ش – إشارة إلى أن علم يوسف وحيلته لم يكن بنافع له في أخذ أخيه لولا أن يشاء الله أن يكيد له إخوته بأن يلهمهم ما شرطوا على أنفسهم فكان علم الله فوق علمه وفوق كل ذي علم عليم، صح هـ.

[٦] التوراة، التَّكْوِين ٣١/١٧-٢٥.

[٧] جميع النسخ – سرق، والمثبت من م.

[٨] ش: ويصدق به.

[٩] ش: ما قدمنا.

فأَسَرَّها يوسف في نفسه ولم يُبْدِها لهم، أي بعد ذلك حِلما[1] منه وشَفَقة عليهم. ثم حكى ما أسرّ في نفسه، قال، أي في نفسه: أنتم شر مكانا،[2] لأنهم سرقوا يوسف وكذبوا بقولهم: ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.[3] وقوله: والله أعلم بما تصفون، يدل على ما نسبوه إليه من السرقة ليس بحق، فبطل جميع ما قيل في تأويل السرقة بل كذبوا وهم شرٌّ مما نسبوه إليه، لأن من يَسرق ويَكذب شر ممن[4] سرق فقط.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

قالوا يٰأيها العزيز، لقِّب بذلك لعزته في الدولة كما لقِّب بذلك سيدُه من قبل. إن له أبا شيخا كبيرا، وانظر إلى قولهم: فخذ أحدنا مكانه، طاعة لأبيهم وحفظا لموثق الله تعالى.[5] إنا نرٰنك من المحسنين، من رؤية القلب والاعتقاد.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متٰعنا عنده، أي كما وقع الشرط وإن خرجنا عنه، إنا إذا لظٰلمون.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

فلما استيئسوا منه، بوزن استفعلوا، من اليأس وهو لازم، خلصوا نجيا، لفظه لفظ المفرد، والمراد به الجمع كعدوّ وصَديق يوصف بذلك. والمعنى انفردوا للمناجاة، وهو كلام مرتفع. قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل، أيضا. ألم تعلموا "ما" بمعنى الذي، فرطتم في يوسف. فلن أبرح الأرض، في هذه الأرض،

---

[1] ن: علما.

[2] ش – ولم يبدها لهم أي بعد ذلك حلما منه وشفقة عليهم ثم حكى ما أسر في نفسه قال أي في نفسه أنتم شر مكانا.

[3] الآية ١٤ من هذه السورة.

[4] ن: شر من.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (الآية ٦٦ من هذه السورة).

حتىٰ يأذن لى أبى أو يحكم الله لى، أي يأخذ أخي، فإن هذا الحكم ليس بصحيح عند الله، أعني أن يُؤخَذَ السارقُ بِسَرِقَته. ولهذا قال: وهو خير الحٰكمين.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يٰأبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حٰفظين، أي عند ما أعطيناك الموثق.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

وسئل القرية التى كنا فيها، أي حين أُخِذ أخونا منا ولا يريد بها مصر، لأن الله تعالى سماها مدينة،[1] ولأن أخاهم أخذ منهم في قرية. والعير التى أقبلنا فيها، أي أصحاب العير حين أقبلوا عليهم وقالوا: ماذا تفقدون؟ وإنا لصٰدقون. وتقديره فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ذلك.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا، إنما قال لهم ذلك، لأن من عُرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه، فقال لهم ثانيا كما قال لهم أولا. ثم قال: فصبر جميل، تقديره: أولى من حزن وجزع. عسى الله أن يأتينى بهم جميعا، يوسف وأخوه والذي قال: لَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ.[2] إنه هو العليم الحكيم. قال ذلك إيمانا بأن جميع ما يفعله سبحانه بمقتضى العلم والحكمة فيجب الصبر الجميل عليه. ولهذا قال لهم أولا: وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ،[3] أي من الكذب لأنه استشعر بكَذِبهم أولا، وقال ههنا: إنه هو العليم الحكيم استشعارا بأن قولهم ربما كان صحيحا وأن الله أعلم بذلك، وهو يحكم بما يشاء.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

وتولىٰ عنهم وقال يٰأسفىٰ. تقديره يا أسفًا، علىٰ يوسف، وهذا يدل على عظم التعلق بيوسف،

---

[1] يشير المؤلف إلى الآية ٣٠ من هذه السورة.

[2] الآية ٨٠ من هذه السورة.

[3] الآية ١٨ من هذه السورة.

إذ لم تُنسِه[1] مصيبتُه الثانية مصيبتَه الأولى بل أذكرَتْه وزادته. وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم، بمعنى مكظوم البصر، أي لم يذهب بصرُه بل صار على عينيه كالبياض من فرط الحزن فكُظم البصر. ويقال: كَظَم غيظَه[2] فهو كاظم والغيظ مكظوم، وكظم البعيرُ إذا لم يجترّ ما في بطنه.[3]

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾

قالوا تالله تفتؤا، تزول، تقول: ما فَتِئَ بمعنى ما زال وما بَرِح. والمعنى، والله أعلم، كما يقال: ذهب في سَهوه ومضى في لَهوه وسار في حُزنه وسلك في حقه أو باطله. وهذه الألفاظ تُستعمَل[4] نظائر في بعض المواضع؛ تقول: ذهب في الشيء إذا فعله، وذهب عن الشيء إذا تركه. وزال وذهب بمعنى. وتقديره: تذهب ذاكرا ليوسف، فجاء بلفظ المستقبل ليكون شاملا للحال والاستقبال. فقال: تذكر يوسف حتىٰ تكون حرضا، وهو فساد / الجسم وذَوَبانُه من العِشق، أو تكون من الهٰلكين، بالموت. [٢١٩و]

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾

قال إنما أشكوا بثى، وهو ما يشكُوه المرء من حاله إلى غيره ليَرِقَّ له، وحزنى إلى الله وأعلم من الله، أي من لطفه وإحسانه في كل ما يقضي به، ما لا تعلمون؛ لأنه مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ.[5] فالكل بقضائه وقدره وعلمه الذي هو الإذن، والقضاء والقدر على وفق العلم، لأنه لا يقضي إلا بما علم ولا يقدّر إلا ما قضى. والعلم محيط بكسب العباد، فالبلاء عدل والابتلاء فضل. ومن علم[6] هذا علم من الله ما لا يعلم كثيرٌ من العباد. فاعلم.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾

يٰبنىّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تايئسوا من روح الله، بفتح الراء وهو الاستراحة. إنه لا يايئس من روح الله إلا القوم الكٰفرون.

---

[1] ن: إذ لم ينسه.
[2] ك ن: غيضه.
[3] ك: ما في بطنة.
[4] ش: يستعمل.
[5] سورة التغابن، ٦٤/١١.
[6] ن + من.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾

فلما دخلوا عليه، في المرة الثالثة[١] متجسسين[٢] شيئا من أخبار يوسف وأخيه، قالوا يٰأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا، أي وقد جئنا قبل هذه المرة، ببضٰعة مزجٰة. قيل: مُسَاقَةٍ كالماشية فهي ليست كالأولى التي يوضع في الرحال، لأن يوسف عليه السلام كان يعطي الكيل بأي عوض كان: من ذهب إلى ماشية إلى غير ذلك تيسيرا للعباد.[٣] وكان كل آت ببضاعة إنما يريد أن يَتَعَوَّض عنها من مصر قمحا. فكان يوسف يأخذ ذلك منه ويوفي له الكيل. فيحتمل أن البضاعة الأولى كانت[٤] عينا من ذهب أو فضة، لكنها مما يُرَدّ في معاملة أهل ذلك الزمن كما يردّ بعض النقود فيباع بنقد آخر، فوضعت في الرحال ولم يعلموا بها وتكون البضاعة[٥] الثانية كذلك. فالمزجاة بمعنى المردودة في النقد. ويُحتمَل أن الثانية ماشية مساقة، لقوله: رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ،[٦] وكقوله: أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا،[٧] أي يسوقه.

وقد اختلف المفسرون في هذه الكلمة وكذلك أرباب اللغة. فمن ذلك ما يوافق ما قلناه وهو قولهم: زجّى يزجي مشدَّدَة[٨] الجيم. تقول:[٩] زجّيتُ الشيء تزجية إذا دفعتَه برفق، وزَجَيْته إذا دفعته بعنف. ومنه الزُّجاج لأنه يُزجّ في النار. ويقال: كيف تُزْجي الأيامَ، أي تدافعها. وأما ما اختلف فيه المفسرون ونقلوا أو قالوا: إن البضاعة كانت صنفا من مأكول أو مشروب أو جُلود. فجميع ذلك لا يُفهَم من قوله: مزجٰة عن الثانية، ولا يفهم مثله عن البضاعة الأولى لقوله: ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ.[١٠] ونحن لا نقف إلا مع ما يظهر لنا من مفهوم النص لا غير.

[القرآن يفسر بعضه بعضا]

والواجب على من أراد أن ينظر[١١] في كتاب الله تعالى نظرَ متفهّم أن يقتدي بالكتاب

---

١ ن: الثانية.

٢ ك - متجسسين.

٣ جميع النسخ: تيسير العباد.

٤ ن: كان.

٥ ن + المزجاة.

٦ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٦٦).

٧ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ (سورة النور، ٢٤/٤٣).

٨ جميع النسخ: مشدد.

٩ جميع النسخ: يقول، والمثبت من م.

١٠ الآية ٦٢ من هذه السورة.

١١ جميع النسخ: أن يظهر، والمثبت من م.

فيتوصّلَ بفهم بعضه المفهوم منه إلى فهم مثله الذي هو خفي عنه. فإذا وَجَد كلمة مثل هذه قد قيل فيها عدة أقاويلَ بعضها يتم به معنى كلام في الكتاب يتضمن مثل تلك الكلمة بعينها والكلمتان في كتاب الله تعالى فلا ينبغي أن يعدل إلى معنى آخر مما قيل في تلك الكلمة وهو يجد معناها تاما أولا إذا فهمه بمثلها من كتاب الله تعالى، فإن كتاب الله يشرح بعضه بعضا، وليس فيه اختلاف. وإذا شهد العقلُ ووافق النصُّ وصدّق أرباب اللغة وتم المعنى المقصود بتفسير لفظة فلا حاجة لنا إلى أن نعدل بتفسيرها إلى معنى آخر وإن كان قد نُقل عن العرب أيضا، إذ النقل الأول الموافق للكتاب أولى من غير الموافق، وهذا ظاهر. وقد علمت أن إخوة يوسف قَدِموا عليه أولا ببضاعة ولم يقل عنها: "مزجاة". ثم قدموا عليه ثانيا بأخيه، فأخذه منهم وكانت منهم البضاعةُ التي وجدوها في رحالهم وهي المزجاة، أعني المردودة، لأنها رُدّت مرتين من يوسف إليهم ومنهم إلى يوسف. وهذا هو الأصح كما قالوا لأبيهم: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾،[1] ولم يقولوا: علينا، أي فلا بد من ردها فأعادوها مع حضور أخيهم فأخذها يوسف. ودل على ذلك بالمفهوم من قولهم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾،[2] إذ بمثل ذلك تتحقق[3] الأمانة. ثم عادوا إلى أبيهم بغير كيل ليعرّفوه[4] ما جرى إلا كبيرُهم لم يَعُدْ معهم. ثم قَدِموا ثالثة متجسسين وذكروا البضاعة المزجاة فعلمنا حينئذ أنها مما يوضَع في الرحال. ولما لم يقل عن الأولى: مزجاة ترجَّح أنها هي. ولمّا كانوا / قد [٢١٩ظ] جاءوا ببضاعة قالوا: **فأَوْفِ لنا الكيل**، أي كما وعدْتَنا بقولك: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾.[5] وقولهم: **وتَصَدَّقْ علينا**، يحتمل أن يكون فيه إضمار، أي وتصدق علينا بأخينا، وإلا لا معنى للصدقة بعد قولهم: **فأوف لنا الكيل**. ولو لم يكن كذلك لقالوا: فتصدق علينا، أي بشيء من الكيل. ولهذا لمّا قالوا: **إن الله يجزى المتصدقين**.

﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝٨٩﴾

قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه، ضمّه إليه في الخطاب لهم لأنهم أدخلوا الغمّ والحزن عليه لفراق يوسف من قبل، وفسره بقوله: **إذ أنتم جٰهلون**، كلام متلطف أقام العذر في حال العتاب يشير إلى زمن الصبا. ولهذا قال: إذ، ولم يقل: وأنتم جاهلون.

---

١ الآية ٦٥ من هذه السورة.
٢ الآية ٧٣ من هذه السورة.
٣ جميع النسخ: يتحقق.
٤ ك ن: ليفرقوه.
٥ الآية ٥٩ من هذه السورة.

فإن قيل: كيف جاز ليوسف أن يأخذ أخاه بفعلِ قضيّةٍ كلُّها زور؟ قلنا: قد تقدم أن في ذلك حِكَمًا، منها أنه أراد الانتقام من قلوب إخوته في الدنيا ليُذهب عنهم الانتقام في الآخرة، وأراد تعظيم الفرح عند السرور بوجود الشيء بعد اليأس منه، لأن ذاك أبلغ. وأما الشيخ فأن أجره بالصبر الجميل، وأن لا ييأس من روح الله عظيم عند الله.[١] ولما كان ليوسف في قلب يعقوب منزلة وغار[٢] الله على قلبه[٣] وعَلِم يوسف بذلك لم ير أن يعارض الحق سبحانه فيما بدأ به في امتحان يعقوب إلى أن أذن الله ليوسف. وكان الإذن له في ذلك عند تمام[٤] الوعد بقوله له في الجُبّ: لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا.[٥] ولأن في هذه القصة تعليما للصبر وغيره، إذ هي من العجائب. ولأن يوسف لو أعلمهم بحاله وهو صبي في السجن لم يكن في إعلامه لهم سوى زيادة الحزن. ولا قدرة لهم على إخراجه من السجن. ولو أعلمهم بحاله وقد تملَّك لكان ذلك مما يوجب لإخوته الشّتات[٦] والهرب، لأن من سرق إنسانا من أبيه وفرّق بينه وبين أخيه لا شك أنه إذا سمع بتمكن المسروق من القدرة عليه هرب لخوفه مما فعل. فلم يكن ليوسف أن يفعل إلا ما فعله. وأما كونه جوّز فعل قضية الصواع ومثل ذلك فليس المراد نفسَ ذلك الفعل. وإنما جاز له ذلك لَمَا انطوى عليه[٧] باطنه من الخير لهم جميعا. وأما ما يظهر في جملة هذه القضية من الصبر وكتمان السر والاتكال على الله من يوسف فعظيم، ومثله يجب أن يحكَى للأمم لِتَتَعلّمه كل أمة وتعمل به اتباعا ليوسف عليه السلام. وبعد ذلك كله نقول: إنه لم يفعل شيئا من ذلك إلا[٨] بوحي أو تأييد إلٰهي على مقتضى العلم، كما قال الله تعالى: وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ.[٩]

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾

فعلم بالعلم الذي من جملته أنه لم يُعرّفهم بنفسه إلى أن، قالوا أءنك لأنت يوسف، الجملة استفهامية بدليل ما بعده. قال أنا يوسف وهٰذا أخي، قد منّ الله علينا،

---

[١] يشير المؤلف رحمه الله إلى الآيتين من هذه السورة: ١٨ و١٩.
[٢] ش: وقار.
[٣] أي دخل وتجلى.
[٤] ش: في ذلك ثم لما تم؛ ك: في ذلك ثم تام.
[٥] الآية ١٥ من هذه السورة.
[٦] ن: الشنآت.
[٧] ن – عليه.
[٨] ن – إلا.
[٩] الآية ٦٨ من هذه السورة.

إنه من يتق ويصبر، أي يَجزي بعمله، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. علّم إخوته التقوى والصبر بما أشهدهم[1] من حاله قبل أن يُسمعهم ذلك بمقاله.[2] فمن التقوى أنه لم يُقرّ[3] على إخوته بما فعلوه لئلا يحصل لهم الأذى إذا علم أبوهم، فكتم أمره طولَ هذه المدة شفقة عليهم وخوفا من مخالفة الله، لأنه كان ينتظر ما أُوحي إليه بقوله: لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا.[4] وأما الصبر فصبره على ما جرى عليه وصبره عن أبيه وأخيه. ولهذا، قالوا تالله لقد ءاثرك الله علينا وإن كنا لخطئين. المجتهد إذا لم يُصِبْ يقال له: مخطئ ولا يقال له: خاطئ، لأن الخاطئ هو الذي أتى بالخطيئة. والمخطئ هو الذي قصد الصواب فأخطأه ولم يقصد غيره.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

فلمّا وقع الاعتراف من إخوة يوسف، قال لا تثريب عليكم اليوم. الثَّرْب شحم دقيق يُغطِّي الكرِشَ والأَمْعاء. والتثريب مشتق من الثَّرْب وهو كالشَّغف من الشَّغاف، ومعناه من التعييب والتعيير الذي يتيسر الإنسان من أجله. وأصل التثريب تعليق الضُّرّ بإنسان من أجل جرمٍ كان منه. والمعنى لا تجدون[5] ما يوجع لكم ثربا.[6] يقال: فلان أكل كبدَه التوبيخُ[7] وأوجع قلبه، على طريق الاستعارة. ومنه فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ.[8] ثم قال: يغفر الله لكم، يُستعمَل في الحال والاستقبال، فللحال دعاء وللاستقبال إخبار، فعلى الإخبار يكون المعنى: عند ما يَستغفر لكم أبوكم، يغفر الله لكم وهو أرحم الرحمين.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

[٢٢٠و] اذهبوا بقميصى هٰذا فألقوه علىٰ وجه أبى يأت بصيرا. في هذا / الكلام إظهار المعجز بردّ البصر وإخبارٌ بالغيب عن[9] صورة الواقع. وذلك إعلام لهم بالمُلْك الباطن

---

١ ن: بما شهدهم.

٢ جميع النسخ: بمقالة.

٣ ك: لم يفر.

٤ الآية ١٥ من هذه السورة.

٥ ن: لا يجدون.

٦ ك: ثريا.

٧ ش: والتوبيخ.

٨ ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (سورة محمد، ١٥/٤٧).

٩ ن: على.

بعد الملك الظاهر. وهذا الإعجاز والإخبار من يوسف عليه السلام يحقق[١] أن أفعاله كلها كانت بوحي، لأن الله شهد بذلك من حين أَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ.[٢] فلو اجتمع يوسف بأبيه قبل أن يوحى إليه بذلك لَمَا حصل لأبيه به لذةُ الإبصار ولحصل له بأبيه تألُّمُ العمى. وغير بعيد أن يكون القميص الذي قُدّ من دبر هو المشارَ إليه بقوله: قميصى هٰذا. ولهذا لم يقل: بهذا القميص، أو بقميصي بل نسبه إليه كما قال الله تعالى: وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ،[٣] ثم خصصه بقوله: هٰذا. فقميصه وهو عبدٌ شهد ببراءته، وقميصه وهو مَلِكٌ شهد بمعجزته. وبقميصه[٤] الأول صار أبوه ضريرا، وبقميصه الثاني[٥] عاد أبوه بصيرا. فقال لإخوته: وأتونى بأهلكم أجمعين.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

ولما فصلت العير، من عند يوسف، **قال أبوهم**، لمن عنده، ولهذا لم يقل: قال لهم: **إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون**، التفنيد تضعيف الرأي.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

قالوا تالله إنك لفى ضلٰلك القديم، إشارة إلى قضية يوسف لتقادمها. والضلال هٰهنا، وفي قوله: إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ،[٦] وإِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ،[٧] الكلّ في محبة يوسف. وهذه الكلمة تستعملها الشعراء عند إفراط الهوى، لأن متّبع الهوى ضال، والهوى هٰهنا هو العِشق.

[تكرر حرف الضاد والظاء في القرآن والاشتباه بينهما]

وكل ما في القرآن من الظآت ثلاثون. من ذلك واحدة مكررة والباقي[٨] بالضاد، لكن منهما ما يشتبه في اللفظ. وهو الحظ والحظر وظَلُّوا والنظر وفظ فهذه بالظاء وتشتبه.[٩] وأما عِضِين وغِيض فبالضاد ويشتبه، فالحظ[١٠] بالظاء. وقد جاء في الحاقة بالضاد[١١]

[١] جميع النسخ: ويحقق.
[٢] الآية ١٥ من هذه السورة.
[٣] الآية ٢٧ من هذه السورة.
[٤] ش ن: وقميصه.
[٥] ش: الآخر.
[٦] الآية ٨ من هذه السورة.
[٧] الآية ٣٠ من هذه السورة.
[٨] ك ن: وبالباقي.
[٩] جميع النسخ: وتشبيه، والمثبت من م.
[١٠] هذه الكلمة ذكرت في آيات عديدة، منها ما ورد في سورة آل عمران، ١٧٦/٣؛ وسورة النساء، ١١/٤، ١٧٦؛ وسورة القصص، ٧٩/٢٨؛ وسورة فصلت، ٣٥/٤١.
[١١] ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (سورة الحاقة، ٣٤/٦٩).

ومثله في الفجر،[1] ومثله في سورة الماعون.[2] والحظر بالظاء في اقتربت،[3] وفي الإسراء مَحْظُورًا،[4] ٱنظُرْ[5] بالظاء. و شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ،[6] في اقتربت ضَلَٰلٍ[7] بالضاد. وقد ورد تسعة بالظاء في سورة الحِجْر فَظَلُّواْ،[8] والنحل ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا،[9] والزخرف[10] مثله. وفي طه ظَلْتَ.[11] وفي الروم لَّظَلُّواْ.[12] وفي الشعراء فَظَلَّتْ[13] فَنَظَلُّ.[14] وفي حم عسق فَيَظْلَلْنَ.[15] وفي الواقعة فَظَلْتُمْ.[16] فهذه تسعة. وأما في آلم السجدة فجاء ضَلَلْنَا[17] بالضاد. وأما النظر فهو بالظاء[18] في جميع القرآن إلا في ثلاث مواضع: في القيامة وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ،[19] و نَضْرَةً[20] في هل أتى، و نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ[21] في سورة المطففين، و عِضِينَ[22] في الحجر بالضاد، ومثلها بِضَنِينٍ؛[23] و ٱلْغَيْظِ[24] بالظاء. وجاء بالضاد في الرعد تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ.[25] وفي هود وَغِيضَ ٱلْمَآءُ،[26]

---

١ ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (سورة الفجر، ١٨/٨٩).

٢ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (سورة الماعون، ٣/١٠٧).

٣ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ (سورة القمر، ٣١/٥٤).

٤ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (سورة الإسراء، ٢٠/١٧).

٥ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (سورة الإسراء، ٢١/١٧). وانظر أيضا: سورة الإسراء، ٤٨/١٧.

٦ ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ (سورة القمر، ٢٨/٥٤).

٧ ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ (سورة القمر، ٢٤/٥٤). وانظر أيضا: سورة القمر، ٤٧/٥٤.

٨ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (سورة الحجر، ١٤/١٥). وانظر أيضا: سورة الروم، ٥١/٣٠.

٩ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (سورة النحل، ٥٨/١٦).

١٠ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (سورة الزخرف، ١٧/٤٣).

١١ ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ (سورة طه، ٩٧/٢٠).

١٢ ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ (سورة الروم، ٥١/٣٠).

١٣ ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ (سورة الشعراء، ٤/٢٦).

١٤ ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ (سورة الشعراء، ٧١/٢٦).

١٥ ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ (سورة الشورى، ٣٣/٤٢).

١٦ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (سورة الواقعة، ٦٥/٥٦).

١٧ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة السجدة، ١٠/٣٢).

١٨ ك: بالضاء.

١٩ سورة القيامة، ٢٢/٧٥.

٢٠ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (سورة الإنسان، ١١/٧٦).

٢١ ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ (سورة المطففين، ٢٤/٨٣).

٢٢ ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ (سورة الحجر، ٩١/١٥).

٢٣ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (سورة التكوير، ٢٤/٨١).

٢٤ هذه الكلمة وردت في آيات عديدة، منها ما ذكر في سورة آل عمران، ١١٩/٣، ١٣٤؛ وسورة الملك، ٨/٦٧.

٢٥ ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ (سورة الرعد، ٨/١٣).

٢٦ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ (سورة هود، ٤٤/١١).

فَظًّا بالظاء وحده في آل عمران وبعدها لَٱنفَضُّواْ[1] بالضاد؛ وٱلظَّنّ[2] بالظاء.[3] وأما قوله تعالى: بِضَنِينٍ[4] ففيه خلاف، وهي بالظاء قراءة[5] ابن العلاء،[6] وغيره قرأها بالضاد،[7] وهي في رسم المصحف بالضاد. وفي طه هَضْمًا[8] بالضاد، وفي الشعراء هَضِيم.[9] ونظَم بعضهم ثلاثة أبيات جَمعَ فيها الثلاثين التي جاءت في جميع القرآن وهي من أرجوزة قال:

احفظ عظيم الوعظ من لفظِ ظَهَرْ ... واغْلُظْ لِفَظِّ العَظْمِ واظْفر بالنظر،
واكْظِم الغيظ ظَلَّ ظهره ... ظَعَن فلما حظر ظهير ظَفِر،
شُوَاظُ ظلمٍ ظَلْمه انظر لظى ... ظن انتظر حظا ظهيرا أيقظا.[10]

فهذا جميع ما جاء في القرآن بالظاء وما عداه فبالضاد وقد تقدم.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

فلما أن جاء البشير ألقىٰه علىٰ وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون،[11] من لطفه بعباده ورحمته. وفي التوراة أن يوسف لما أرسل إخوته لإحضار أبيهم أعطاهم خِلَعا وأعطى أخاه بنْيامِين إذ أرسله معهم ثلاثمائةِ درهمٍ وخمسَ خلع، وأرسل لأبيه عشرين بهيمةً من الحُمُر مُحْملَةً من خيرات مصر وغَلَّتها.[12] وبقي يعقوب في مصر سبع عشرَة سنةً.[13] وعمر يوسف مائة وعشرون سنة.[14]

---

١ ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (سورة آل عمران، ١٥٩/٣).

٢ هذه اللفظة ذكرت في آيات كثيرة، منها ما ورد في سورة النساء، ١٥٧/٤؛ وسورة الأنعام، ١١٦/٦، ١٤٨؛ وسورة يونس، ٣٦/١٠؛ وسورة النجم، ٢٨/٥٣.

٣ ن: الظاء.

٤ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (سورة التكوير، ٢٤/٨١).

٥ ك: قرأه.

٦ وهو أبو عمرو ابن العلاء، أحد القراء السبعة، سبقت ترجمته.

٧ قرأ المكي والبصري ورُوَيْس والكسائي بالظاء، والباقون بالضاد (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٣٣٨).

٨ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (سورة طه، ١١٢/٢٠).

٩ ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (سورة الشعراء، ١٤٦/٢٦-١٤٨).

١٠ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

١١ ن + أي.

١٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «ففعل بنو إسرائيل هكذا. وأعطاهم يوسف عجلات بحسب أمر فرعون، وأعطاهم زادا للطريق. وأعطى كل واحد منهم حلل ثياب، وأما بنيامين فأعطاه ثلاثمائة من الفضة وخمس حلل ثياب. وأرسل لأبيه هكذا: عشرة حمير حاملة من خيرات مصر، وعشر أتن حاملة حنطة، وخبزا وطعاما لأبيه لأجل الطريق. ثم صرف إخوته فانطلقوا، وقال لهم: لا تتغاضبوا في الطريق» (التكوين ٢١/٤٥-٢٤).

١٣ التكوين ٢٨/٤٧.

١٤ التكوين ٢٢/٥٠.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧﴾

قالوا يٰأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خٰطئين، من ههنا يُعلَم أن المُقِرّ تائب[1] وأن الله يغفر له، لأن ذنب هؤلاء إلى أبيهم وأخيهم قولا وفعلا كان عظيما.

﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾

قال سوف أستغفر لكم ربي. يحتمل أنه أخر[2] الاستغفار إلى بعدِ لقاءِ يوسفَ

[٢٢٠ظ] ليحصل له بعد الإيمان / طمأنينةُ العِيان. فإذا ذهب تقسيم فكره وانجمع عليه همُّه دعا ربه بإخلاص واستغفر الله سبحانه لبنيه، إنه هو الغفور الرحيم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾

فلما دخلوا علىٰ يوسف، بأهلهم أجمعين، ءاوىٰ إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله ءامنين. يدل على أنه خرج لملاقاتهم وقعد منتظرا إلى أن دخلوا عليه. وقيل: لَامَ يوسف أباه على قلة صبره وكثرة بكائه فقال: يا أبتِ لو لم ترني في الدنيا أليس المصير إلى الأخرى؟ فأجابه: يا بُنَيّ إنما فارقتَني طفلا وخشيت أن أذهب في سبيل فتذهب في غيره فتكون فُرقة الدنيا سببا لفرقتنا في الأخرى. فقال: يحق[3] لك يا أبتاه.[4]

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾

ورفع أبويه على العرش، الذي كان قاعدا عليه. ولم يقل: وأجلس أبويه إعلاما لنا أنه أجلسهم فوقا منه. وخروا له سجدا، أي مع إخوته، لهذا قال بلفظ الجمع: وخروا له. وقال يٰأبت هٰذا تأويل رُءْيٰيَ من قبل، قد جعلها ربى حقا، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن، منسوق بقوله: لما يشاء، وكذلك، وجاء بكم من البدو،

[1] ن: نائب.

[2] ن: أنه آخر.

[3] ن: بحق.

[4] في هذا القول نظر، لأن يعقوب عليه السلام قال ليوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (الآية ٦ من هذه السورة).

لما يشاء من مصالحَ يتعلق بكم وبمن يشاء. ولم يقل: إذ أخرجني من الجُبّ، لأن ذلك يوم فرح، فلمّا تقدم قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾[1] لم يَرَ أن يَذكُر لإخوته ما يكدِّر الفرح. وفيه أيضا أنه أخرجه من الجُبّ عبدا ومن السجن مَلِكا، ولهذا قال: وقد أحسن بى، ولم يقل أحسن إخراجي، بل حين أخرجني. وفي ذلك ما يدل على سوء عَيشةِ[2] أهل السجن. من بعد أن نزغ الشيطٰن بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما، للذي، يشاء، أي ذلك كله لما يشاء من مقتضى حكمته سبحانه. ولهذا لم يقل: لمن. والمعنى أنه تعالى لم يفعل ذلك ومثلَه لاستحقاق العباد ذلك عليه أو يميل إلى أحدهم دون الآخر، بل المشيئة بمقتضى الحكمة والعلم. إنه هو العليم الحكيم. وأخر ذلك ليأتي ذكرُ المشيئة بين اللطف وبين العلم والحكمة، لأنها وإن كانت مشيئة ولكنها بمقتضى ذلك، فافهم ما أحسن هذا.

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾

رب قد ءاتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث. يا، فاطر السمٰوٰت والأرض أنت وليّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصٰلحين.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢﴾

ذٰلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم، لدى إخوة يوسف، إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾

وما أكثر الناس، أي ولو سمعوا منك هذه الآياتِ الدلات على صحة ما أوحيناه إليك من الغيب، ولو حرصت، على إيمانهم، بمؤمنين.

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

وما تسئلهم عليه، على ذلك الذي هو من أنباء الغيب، من أجر، إن هو إلا ذكر للعٰلمين.

---

[1] الآية ٩٢ من هذه السورة.
[2] ش ن: عيشته.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾

وكأين، ومِثْلَ أيِّ، وهي بمعنى وكم، من ءاية فى السمٰوٰت والأرض، تدلهم على الصانع دلالةَ الأفعال بعد دلالة الأقوال بألسنة الرسل التي تمر عليهم، يمرون عليها وهم عنها معرضون.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾

أشار إلى أن المذكورين وهم أكثر الناس إنما يؤمنون بغير الله ويكفرون بالله دائما. ففي بعض الأحيان يشركون الله مع ذلك الإلٰهَ الذي هم مؤمنون به. فلا يؤمن أكثرهم بالله إلا حال كونه مشركا. فيكون الإيمان عَرَضا وتَبَعا مع الإيمان بغيره الذي هو الأصل المستمر، فافهم جيدا.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٠٧﴾

أفأمنوا أن تأتيهم غٰشية، تُغَشّيهم، من عذاب الله، في الدنيا، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾

قل هٰذه سبيلى أدعوا إلى الله علىٰ بصيرة أنا ومن اتبعنى، يدعو أيضا على بصيرة، وهو وإن لم يَدْعُ بل اتبع على بصيرة، وهذا أبلغ ما يكون في ذم التقليد إذا فكرت. وسبحٰن، أي وقل: سبحان الله عما يشركون، وما أنا، وقل: ما أنا، من المشركين.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٠٩﴾

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى، أي لم يكونوا ملائكة.

[٢٢١و] أفلم يسيروا، يسير / المكذِّبون، فى الأرض فينظروا كيف كان عٰقبة الذين من قبلهم،

من المكذبين. فإنهم يعلمون ذلك من مشاهدة الآثار؛ كمدينة قوم لوط والقُرَى المهلَكة، وكيف ماتوا وأُغرقوا وخلّفوا النُّزَه والممالك وغير ذلك. ولدار الآخرة خير للذين اتقوا، مما متَّعْنا به الكفارَ في الدنيا. أفلا تعقلون. وتقديره ولم نُهلكهم إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل إليهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾

حتىٰ إذا استيئس الرسل، مثل قوله: ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ،[١] فهو من باب "استقام" لا من باب "استعمل" المتعدي.[٢] والمعنى يئسوا من إيمان المكذبين من أممهم. وظنوا، أي غلب على ظنهم، أنهم قد كُذِبوا، في رسالتهم، وفي الإخبار بالنصر لهم ولمتبعيهم، وفي إهلاك مَن كذّبهم. وروى حجاج[٣] عن ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها بفتح الكاف وفتح الذال المخففة، وصرف المعنى في "ظنوا" إلى المرسَل إليهم. وروى حجاج عن ابن عباس بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها،[٤] وهو مما[٥] نقله ابن قتيبة[٦] في مشكل القرآن[٧] الذي جمعه، وهو مصروف أيضا إلى المرسَل إليهم. وقالت عائشة: لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون مَن معهم من المؤمنين قد كذبوهم.[٨] وهذا يدل على أنهم عند ذلك يُخلصون في الالتجاء إلى الله مستنصرين.[٩] فإذا أخلصوا،[١٠] جاءهم نصرنا، بإهلاك المكذبين. وقوله: فنُجِّيَ من نشاء، هذا منبه على عظم القدر. ولمّا كان قد يُفهَم منه أن النجاة بالمشيئة فقط لا من جهة الاستحقاق وكذلك الإهلاك قال بعده: ولا يُرَدّ بأسُنا عن القوم المجرمين، أي مَنْ الذي يحميهم من بأسنا؟

---

١ الآية ٨٠ من هذه السورة.

٢ أي كلمة "استيأس" فعلٌ لازم مثل "يئس" ليس فعلا متعديا مثل "استعمل".

٣ لعله حجاج بن أرطاة، سبقت ترجمته.

٤ خفف الذال الكوفيون وأبو جعفر، وشددها الباقون (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٦٨).

٥ ش: وهو ما.

٦ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَرِي، من أئمة الأدب، ومن المصنفين المكثرين. ولد ببغداد وسكن الكوفة. ثم ولي قضاء الدينور مدة، فنسب إليها. من كتبه: تأويل مختلف الحديث، وأدب الكاتب، والمعارف، وكتاب المعاني، وعيون الاخبار، والشعر والشعراء، ومشكل القرآن، وتفسير غريب القرآن. توفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م (الأعلام للزركلي، ١٣٧/٤).

٧ تأويل مشكل القرآن، ص ٤١١.

٨ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص ٤١١.

٩ ن: متنصرين.

١٠ ن: فإذا خلصوا.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

ولمّا[1] قدم في أول السورة:[2] لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ،[3] كما بيّنّا قال أخيرا: لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألبٰب. الاعتبار عبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول. ما كان حديثا يفترىٰ ولٰكن تصديق الذى بين يديه، التوراة إذ فيها هذه القصة مبيّنة، وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

---

[1] ك ن + كان.

[2] ش + لقد كان في أول السورة.

[3] الآية ٧ من هذه السورة.

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢﴾

الله الذى رفع السمٰوٰت بغير عمد، وقوله: **ترونها**، عائد على السماوات لا على العمد وإلا يدل على أنها بعمد[1] غير مرئية[2] وليس كذلك. **ثم استوىٰ على العرش وسخر الشمس والقمر. كل يجرى لأجل مسمى**، له؛ عَيَّنَ أنه مسمى لِيفصله عن آجال البشر، إذ ليس للسماوات وما فيهن أجلان بل أجل واحد هو المسمى. **يدبر الأمر يفصل الآيٰت لعلكم بلقائ ربكم توقنون.**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣﴾

وهو الذى مد الأرض وجعل فيها روٰسى وأنهٰرا، ومن كل الثمرٰت جعل فيها، في الأرض، **زوجين اثنين**، لفظ الزوج يدل على فردين، وقد بيّنا ذلك عند قوله: وهو ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ.[3] وقوله: اثنين، لئلا يُفهَم من قوله: زوجين، أربعةُ أفراد. وفي هذا الكلام ما يشهد بالعِيان من أن الإثنينية التي[4] يوجب[5] أحدُهما الآخرَ موجودة في كل ما خلق الله، وأنه تعالى تفرد بالوحدانية، ونحن نجد حتى في كل ورقة من ورق النبٰات زوجته،[6] كل شِقّ هو زوج، وتلك قدرة واسعة. والمراد بالزوجين من سائر الثمرات شيء غير الذكورية والأنوثية، بل كالحامض والحُلو والشيء وضده.

---

[1] ن: يعمد.

[2] ك: غير مرانة؛ ن: غير مرية.

[3] ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (سورة يٰس، ٣٦/٣٦).

[4] جميع النسخ: الذي، والمثبت من م.

[5] جميع النسخ: يشبه؛ م: ىـىـىـه. (لم نستطع قراءتها).

[6] ن: زوجيه.

ولهذا أتبعه بقوله: يغشى اليل النهار، بالنهار، والنهارَ بالليل. إن فى ذٰلك لآيٰت، علامات تدل[1] بالصنعة على الصانع، لقوم يتفكرون. فتفكر فيما أنت في بعضه.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

وفى الأرض قطع متجٰوِرٰت، هذه جارة هذه، وجنّٰت من أعنٰب وزرعٌ ونخيل. ثم فسر الزوجين بقوله: صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ، الصنو كالأخ، والعم صنو الأب، والفرعانِ من النخلة أو الشجرة يقال لهما: صِنْوانِ بكسر النون والجمع بضمها وتنوينها. يسقىٰ بماء وٰحد. ونفضل بعضها علىٰ بعض فى الأُكل إن فى ذٰلك لآيٰت لقوم يعقلون.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾

وقوله:[2] وإن تعجب، إذا تفكرت في المخلوقات وعقلتَ الآياتِ، فعجبٌ قولُهم، جاء على مذهب العرب[3] في الشعر عند خروجهم من التغزل إلى المدح. فقدم ذكر ما يكون به الامتداح من دلائل القدرة والعلم، وجعله من باب العَجَب منه، وخرج إلى ما
يقابل / ذلك من العجيب منهم في باب العجز والجهل بقولهم: أءذا كنا ترٰبا أءنا لفى [٢٢١ظ]
خلق جديد، أي إنهم يرون سائر هذه الآيات ويَشهدون الخلق الجديد في قِطَع الأرض والنبات ولا يفقهون الدلالات على قدرة الخالق على البعث والخلق الجديد. لهذا قال بعده: أولٰئك الذين كفروا بربهم، وأولٰئك الأغلٰل فى أعناقهم، تَمنعهم من الالتفات إلى عجائب مصنوعات الله والآيات الدالّات عليه، فهذه الأغلال هي في الدنيا. وأولٰئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

ويستعجلونك بالسيئة، منهم، أي بجزائها، وقد بيّنا مثل ذلك؛ قبل الحسنة، منا.

---

١ ك: يدل.
٢ ن – وقوله.
٣ ن – العرب.

وقد خلت من قبلهم المَثُلَتُ، جمع مُثْلَة وهي أفظع العقاب. يقال: مَثل به إذا شوّه خلقه فجعله مِثْله كأنه مَثَلٌ يُمَثَّل[١] به مَن عَصَى. والمقصود من ذكر "المثلات" أهل المثلات، أي إن هؤلاء يستعجلونك بالعذاب، وقد استعجل غيرهم[٢] كذلك فحلّ بهم ما سيحِلّ بهؤلاء مثلُه كقوم هود وصالح ولوط. وإن ربك لذو مغفرة للناس علىٰ ظلمهم، أي وإلا لعجّل لهم ما يستحقونه فاستأصلهم. والمعنى وهم مقيمون على ظلمهم إمهالا[٣] منه لهم ليتوبوا، فكيف لو استغفروا. وإن ربك لشديد العقاب.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨﴾

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه ءاية من ربه. إنما أنت منذر، فقط. ولكل قوم هاد، وهو الله، لأنه أعلم بالمهتدين فهو يهدي من يشاء على وفق العلم لا على ميل إلى هوى أو عبث، تعالى عن ذلك. ولهذا [جاء] بعده ما نبّه على من يستحق الهدى في علمه سبحانه من قبل أن يُظهره إلى الوجود فقال: الله يعلم ما تحمل كل أنثىٰ وما تغيض الأرحام وما تزداد. الزيادة كقولهم: أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ، أي في الأرحام، ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا،[٤] من ذوات الأرحام. فهي التي غاضت رحمها، والتي زادت هي التي صار فيها مخلوق أو أكثر. وأما ما قيل من مدة الحمل ومقدار[٥] جثة المولود ومدةِ الحيض، كلُّ ذلك داخل فيما، تغيض الأرحام وما تزداد. وكل شيء عنده بمقدار.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾

١ ك ن: يتمثل.

٢ ن - غيرهم؛ جميع النسخ + غيرك.

٣ ش - إمهالا.

٤ ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٤٩-٥٠).

٥ ن: مقدار.

ولمّا تفرد بهذه الصفات بين أنه عالم بما في الأنفس والذوات، كما هو عالم بغيب الأرض والسماوات، وأن عباده بأسرهم إن أسرّوا أو أجهروا بالأقوال، واستخفَوْا، أو ظهروا بالأفعال هم سواء في علمه وفي الجزاء لهم ما بدءوا به في ضمائرهم وغيّروه في أنفسهم وسرائرهم فقال: **سواء منكم**، عند الله، **من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار**، سَرَبتُ الماشية إذا أرسلتُها[1] للمرعى.

له، أي للإنسان، **معقبْت**، أي جماعاتٌ من غلمان قُوَّمٍ على الأعقاب يختصون به، **من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**، بزعمه. ويحتمل أنها بمعنى أَلَهُ معقبات، أي ليس له حافظ. واعلم أن هذه الآية[2] لعزة[3] فَهْمِها كررنا فيها القول وزدنا البيان. ومعناها: **سواء منكم**، أي لا فرق بين **من أسر**[4] **القول** -ويريد قول كل قائل- وبَين **من جهر به**. والمراد كل صاحب سر أو جهر من الخلق. ثم زاد ذلك بأن قال: **ومن هو مستخفٍ**، أي[5] لضعفه[6] وعجزه وخوفه من عدوه. وقوله: **بالليل**، إشارة إلى أنه مع كونه في الليل الذي يُخفي هو أيضا مستخف. ثم قال ضده وهو قوله: **وسارب بالنهار**، وهو كثير الرَّواح. ثم ذكر السارب، بأن، **له معقبات**، وهي جمع معقِّبة، ومعقبة يريد بها جميعَ معقِّب، كقوله في آخر هذه السورة: لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ،[7] ففسر هذا ههنا في المعنى بذلك. والمعقب هو القائم على عقبه. ومنه: وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ،[8] أنْ لم يقف على عَقِبِه. وبيانه في قوله: ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ.[9] وقال ههنا: **معقبْتٌ**، للتكثير، لأنه يريد جماعات لا جماعة واحدة. وعنى بذلك الملوك الذين نرى[10] بين يديهم وخلفهم جماعاتٍ من الحَرَس والحافظ والجَلاوِزَة،[11] يحفظونهم بزعمهم من أمر الله. فقال الله معلما لنا ولهم وأنه لا فرق، بل سواءٌ منكم أجمعين من أسرّ أو جهر أو استخفى أو ظهر ومعه الحَرَسُ، أي كل هؤلاء لا يدفع عن القويّ حَرَسَه ولا يَحرس المستخفيَ استخفاؤه،

[1] ش: إذا أرسلها.

[2] أي الآية السابقة وما بعدها.

[3] العزّة الشدة والقوة (لسان العرب، «عزز»).

[4] ش ن: من سر.

[5] ك: بأي.

[6] ك ن: بضعفه.

[7] الآية ٤١ من هذه السورة.

[8] ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ (سورة النمل، ٢٧/١٠).

[9] ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٤٤).

[10] ن: ترى.

[11] الجلاوزة، جمع جِلْوَز، وهو الشُّرطي. الجلوز أيضا: الضخمُ الشجاعُ من الرجال (تهذيب اللغة للأزهري، «جلز»؛ وتاج العروس للزبيدي، «جلز»).

بل ذلك كله راجع إلى ما في الأنفس من الاستحقاق بالطاعات والمعاصي. ولهذا كان جواب الجملة: **إن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم.** وفي مثل هذه الآية عيّن النعمة[1] وهنا لم يعين فهو للنعمة والنقمة، ولهذا / أطلقه ههنا. ثم قال [٢٢٢و] بعده: **وإذا أراد الله بقوم سوءًا**، أي عقابا لهم بذنوبهم، **فلا مرد له**،[2] للسوء، أي لا ينفعهم الجماعات والحَفَظَة إذا غيّروا، فهم يحفظون من لم يغير ما بنفسه ومن غيّر غيّر الله به، بل كما كانت المعقِّبات له تعود عليه. ولهذا بعده: **وما لهم من دونه من والٍ.** فقد بان أن فعل الله موقوف على فعل العبد فيما جعله فعلا له، ومكّنه منه، وأقدره عليه، وملّكه الاختيار فيه بإذنه ومشيئته سبحانه، لأن الله أراد ذلك وكلّمنا به وتعرّف به إلينا. والقدرةُ ممن يَهَب القدرةَ لغيره أبلغ ممن ينفرد بها لنفسه، لأن المنفرد بها لا يوصَف بالقدرة إلا على عاجز، والواهبَ لها قادر على قادر، وهذا هو الله. فاعرفه بقدرتك واعرف قدرته بعجزك.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾

هو الذي يريكم البرق خوفا، من الصواعق،[3] **وطمعا**، في إنزال الغيث. وإذا قرأت بعده فهمت ذلك من إنشاء السحاب الثقال بالماء وإرسالِ الصواعق وهو قوله: **وينشئ السحاب الثقال.**

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

ويسبح الرعد بحمده والملٰئكة من خيفته، ويرسل الصوٰعق فيصيب بها من يشاء، أي ممن يستحق، أي فلا يحتمي عنه بجَلاوِزَته ولا يختفي[4] في ظلمته. **وهم يجٰدلون فى الله وهو شديد المحال**، بكسر الميم من الإحالة[5] والتغيير، ومنه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾.[6] والمعنى أنهم يجادلون في الله بعد ظهور آياته، وهو[7] يعاقبهم بأن يحول

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الأنفال، ٥٣/٨).

[2] ش + وإذا أراد الله بقوم سوءا أي عقابا لهم بذنوبهم فلا مرد له للسوء.

[3] ش – من الصواعق، صح هـ.

[4] ن: ولا يخفى.

[5] ش ك: من الإخالة.

[6] سورة الأنفال، ٢٤/٨.

[7] ن: وهم.

بين قلبهم وبين معرفته أشد الإحالة. ونُقل عن الأعرج[1] أنه قرأ بفتح الميم.[2] وقيل: تسبيح الرعد هو أن يستدعي بما فيه من الآيات تسبيحُ[3] ابن آدم. وكذلك قوله: وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ،[4] لأن وجود كل شيء على ما هو من الإحكام يقتضي تسبيحا وحمدا للموجِد. فالحمد والتسبيح واحد، لكنه إذا أضيف إلى شيء دون شيء كان التسبيح التالي كأنه غير المقدم. فتسبيح الإنسان عند مشاهدة البحر هو تسبيح البحر، لكن من وجه أو وجوه مّا، لأنه شاهد بعضا من كل، فهو لا يفقه تسبيحه. فسبحان من سبّحت[5] له مبدَعاتُه في كل آن.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

له دعوة الحق، يشير إلى الدعوة التي يدعو بها النبي ومن تبعه بها إلى الله وهي لله سبحانه. فإن النبي هو الداعي، كقوله: ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ.[6] فعرّفنا أن دعوة الحق لله ودعوةَ الباطل للشركاء، لأن المدعوَّ الذي لا يجيب فدعاءُ الداعي له باطل. وقيل: هذا يُعلَم من قوله تعالى: وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا.[7] فإذا قلت: يا كريم يا عليم كان ما قلته حقا، وليس كذلك دعاء الكافرين لآلهتهم؛ وهذا هو الأولى والأول لازم له. وينطبق على الأول قولُه بعده: **والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كبٰسط كفيه إلى الماء ليبلغ، الماء، فاه وما هو ببٰلغه**، أي وما الباسط ببالغ الماء. **وما دعاء الكٰفرين إلا فى ضلٰل**. الضال عن الطريق لا يستثمر من طريقه إلا المشقةَ، ولا يفوز بنيل المقصود من سعيه مهما أنه ضال؛ ودعاء الكافرين كذلك، أي وما دعاء الكافرين إلا كمن يسعى في ضلال.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

---

[1] أبو داود عبد الرحمن بن هرمز، من موالي بني هشام، عرف بالأعرج، حافظ، قارئ، من أهل المدنية. وهو أول من برز في القرآن والسنن. وكان وافر العلم، ثقة. رابط بثغر الإسكندرية مدة، ومات سنة ١١٧هـ/٧٣٥م بها (الأعلام للزركلي، ٣/٣٤٠).

[2] معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، ٣/٤٨٥.

[3] ن: بتسبيح.

[4] ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٤٤).

[5] ش: من سبحته.

[6] ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٢٥).

[7] سورة الأعراف، ٧/١٨٠.

وقوله:[١] ولله يسجد من فى السموٰت والأرض طوعا وكرها وظلٰلهم بالغدو والآصال، جمع أُصُل، وأُصُل جمع أصيل، وهو ما بين العصر إلى المغرب. والمعنى ينقاد خاضعا شاء أم أبى. وسجود المؤمن طوعا وكَرها وسجود الكافر كرها. ويحتمل أن يقال في الكافر:[٢] إن سجوده طَوْعي باعتبار أن الكَره ما أُكرهت عليه النفوسُ. وكلُّ ما هو بالتكليف فهو إكراه، وما هو بالطبع والوجود فليس فيه إكراه. فأما إن قلنا:[٣] إن الكَره عبارة عن فاعل غير مختار والطوعَ من الطاعة، فالأمر كما قدمنا ههنا. وقد بيّنا في قوله تعالى: وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا[٤] كلاما كما قلنا[٥] ههنا. ولمّا كان الاحتمال جائزا لما يأت اللفظ منفصلا والله أعلم. والأَولى أن المؤمن هو الساجد طوعا، لأنه [لا] إكراه في الدين، وكذلك إسلامه، والكافرَ كرها بالمعنى الذي قلنا ههنا، ويكون ما ذكرناه في آل عمران كذلك. فيكون / معنى الطوع ما كان باختيار العبد، [٢٢٢ظ] ومعنى الكره ما لم يكن عن اختيار، والثواب إنما يكون على ما يقع من اختيار العبد، فأما ما لا يكون باختيار فليس عليه ثواب ولا عقاب أيضا، لقوله: إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ،[٦] فيكون الكافر مسلما ساجدا، ولا ثواب له، فلو اختار ذلك لعاد مثابا.

[السجود: معناه الحقيقي]

والسجود المشار إليه ههنا ليس هو سجودَ الصلاة، بل عبارة عن نفس وجودهم على وفق الحكمة الإلٰهية. وسجود الصلاة عبارة عن أفعال بعض العباد. ومثال السجود المشار إليه ههنا ما يتعلق من جزئيات الإنسان، وذلك كجريان في جسده بواسطة العروق عن الغذاء من اختلاف صوره.[٧] فتُدبّرُهُ القُوَى بإذن الله تعالى حتى ينقلب دما. ثم يزيد في الشَّعر شعرا وفي اللحم لحما وفي العظم عَظْما. والإنسان[٨] غافل ليس يعقل[٩] ذلك مَن فَعَله في بدنه ولا يَشعر به. فهل من خالق قادر مدبر لمّا شاء

١ ن – وقوله.

٢ ن: في الكفر.

٣ ن: إن قلت.

٤ ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ (سورة آل عمران، ٣/٨٣).

٥ ش – كما قلنا.

٦ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٠٦).

٧ ك ن: صورة.

٨ ش + وذلك كجريان في جسده بواسطة العروق عن الغذاء من اختلاف صوره فتدبره القوى بإذن الله تعالى حتى ينقلب دما ثم يزيد في الشعر شعرا وفي اللحم لحما وفي العظم عظما والإنسان.

٩ ن: بعقل.

أطاعه خلقُه غيرُ الله؟ فهذا سجود جزئي. ولو[1] عَلِمَ الإنسان لوجد أنه في أفعاله مستمر[2] في السجود لله، وهو لا يعلم فهو في شغل إرادة[3] الله به،[4] والإنسان يظن أنه يسعى في مَأْرَب نفسه فقط. فقد جعل الله سبحانه لكل متحرك سببا وحظا يظن المتحرك أن حركته لأجل حظه ونيل مقصوده لا غير، [و]ليس كذلك، بل الغرض من الإنسان معذوق[5] بغرض الإنسان، فهو ما يفعله[6] لأجل نفسه بزعمه. والذي أراده الله منه ينفعل[7] بفعله من حيث لا يعلم،[8] ولهذا لا يعود عليه منه ثواب ولا عقاب. وهذا من أبلغ السجود. وذلك في جميع ما يبدو من المؤمن والكافر فيما يقع منهما عن اختيارهما وهو الطوع، أو عن غير اختيارهما وهو الكَره. وإيضاح ذلك بمثَل آخر، وهو أن الله تعالى ركَّب في الحيوان شهوة النكاح فهوَ لأجل شهوته يجتهد ويحرص على الأنثى، ولا يعلم أن المقصود ما يحصل من ذلك الإقامةِ المثلُ وما يصدر عنه من المنافع الجَمّةِ من جلود الحيوانات وأصوافها وأوبارها وأشعارها وغير ذلك. وسائر الأمور فيمن يعقل كذلك لمن رأى بعين المعرفة. فهل من سجود أبلغُ من هذا السجود المستمر[9] من المؤمن والكافر في حالتي الطوع والكَره، إذ لا بد لهم في أفعالهم من إحدى الصورتين، ولهذا ورد اللفظ [في الآية] بالطوع والكره معا. وإنما أشكل ذلك على من فَهِم أن الطوع والكره حالُهم في السجود، وليس كذلك بل هم يسجدون في حال كَرههم ما يَكرهونه في[10] حال طوعهم. فنُصب الطوع والكرهُ على الظرف،[11] فهم يسجدون في طوع وفي كره دائما. وكذلك بعينه هم مسلمون. فعاد السجود والإسلام المشار إليهما من فعل الرب لا من كسب العبد. ولهذا لا ثواب عليهما، إذ لا اختيار[12] للعبد في فعلهما ولا يُمكنه تركهما. وهذا لا يناقض أن العبد مكتسِب وأن كسبه عائد عليه والأمر في ذلك إليه. فافهم ذلك ههنا وفي آل عمران[13] بما ههنا.

---

[1] جميع النسخ: لولا، والمثبت من م.

[2] جميع النسخ: مستمرا، والمثبت من م.

[3] ك: أراده.

[4] ن – به.

[5] عَذَق فلانا إلى كذا: نسبه؛ يقال: عذقه بشرّ أو قبيح: وَسَمه حتى عُرف به (المعجم الوسيط، «عذق»).

[6] ش: ما تفعله؛ ك: ما نفعله.

[7] ك ن: منه تنفعل.

[8] ش: لا يعلمه.

[9] ش ن: والمستمر.

[10] جميع النسخ: وفي.

[11] أي فنصب الكلمتان "طوعا وكرها" في الآية على قاعدة الحال من كلمة "مَنْ".

[12] جميع النسخ: إذ الاختيار.

[13] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٨٣).

وقوله: وظِلٰلُهم، دليل على ما قلناه ومبيِّن وشارح لِما قلنا. وذلك أنه لمّا قال: ولله يسجد من فى السمٰوٰت، وهي تَقَع[1] لمن يعقل من الذوات، أتبعها بذكر الظلال، وهي الأعراض التي لا تعقل السجود تفسيرا لكيفية سجود من يعقل. فأشار إلى أنه سبحانه خلق كل شيء على هيئةٍ ساجدة لله. وقد علمت أن الظل بالغدو وهو أول النهار، والآصال وهو آخر النهار، تُميله الشمس ويؤثر[2] فيه الطول والقِصَر وتَظهر الطاعة منه لله، لأنه يعلم ذلك / ويختاره، كما شاء الله سبحانه، فهو يتصف بمشيئته في الامتداد والتقلص. ومشيئة [٢٢٣و] الله ههنا معذوقة بحركة الشمس، فسجوده بما فيه من التغير الدال على مغيِّر، فجاء ذكر الظلال مع ذكر أصحابه إعلاما أنهم هم وظلالهم يسجدون بمعنًى واحدٍ كما تَسجد ظلالُهم. فشبههم في سجودهم بظلالها في سجودها إظهارا لعظيم القدرة منه سبحانه.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

ولهذا قال بعده: قل من رب السمٰوٰت والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، أي ومن لا يملك لنفسه كيف يملك لغيره. ثم قال مخبرا عن حالهم في الاتخاذ: قل هل يستوى الأعمىٰ والبصير، مثال للضالّ والمهتدي، أم هل تستوى الظلمٰت والنور، الكفر والإيمان، فمثل ذلك[3] بالمُبْصَرِ وبما يكون به الإبصار. ولمّا قدم وصْفَ الشركاء بأنهم لا يملكون قال ذامًّا للمتخذين لهم: أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشبه الخلق عليهم، أي فهم يعلمون أنهم لا يخلقون فليسوا شركاء[4] من يخلق. قل الله خٰلق كل شيء. وقوله: خٰلق، يدل على الحال ويلزم عنه الماضي والاستقبال لقوله: كل شيء. وهو الوٰحد القهّٰر.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

---

١ ك ن + على.

٢ جميع النسخ: وتؤثر، والمثبت من م.

٣ ك ن – ذلك.

٤ ش – خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم أي فهم يعلمون أنهم لا يخلقون فليسوا شركاء، صح هـ.

ثم ضرب مثلا هو في ظاهره برهان لقوله: قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ،[1] بما دل عليه في الظاهر، وفي باطن الأمر يدل من طريق الاحتمال على خلقٍ آخَرَ غيرِ الظاهر. وجاز ذلك لقوله: كل شيء،[2] أي فيما بطن وظهر. فقال: **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها، فاحتمل السيل زبدا رابيا. ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متٰع زبد مثله. كذٰلك يضرب الله الحق والبٰطل**، تقديره كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل. فلما حيل بينهما بقوله: **فأما الزبد**، كرر، **كذٰلك**، لتأتي في آخر الآية **الأمثالُ**. **فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض. كذٰلك يضرب الله**، ثم كرر ذلك، وأخّر للوِزان قوله: **الأمثال**. فتأمل كيف ذكر برهانا ظاهرا يدل على أنه خالق كل شيء وجعله مثلا كما سنبين. ثم أضاف إليه ذكْرَ مثَلٍ آخر.[3] ثم قال: **كذٰلك يضرب الله الحق والبٰطل**، أي مَثَلَ الحق وأهلِه ومَثَلَ الباطل وأهله إشارةً إلى أن الباطل -وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه- فإن الله سيَمْحقه ويُبطله ويُذهبه كما يَذْهب الزبد وإن كان غالبا على الماء حينا مّا، ويكون العاقبة للحق وأهله. وأما قوله: **بقدرها**، أي سال كلُّ واد بقدره[4] فلم يفصِل السيلَ فيَنقُرَ[5] بقيةَ الأرض، بل قدّره[6] الله سبحانه بقدرها ليكون نافعا لا ضارا. والمراد ما هو مستمر من حال الأودية بعد نزول الماء لا ما[7] يحدث من المد والفيض أولا في بعض الأحيان. ولهذا قال: **فسالت أودية**، أي دائما. والجُفاء ما يجفوه السيلُ، يقال: جفأ الوادي إذا رَمَى بالقَذَى. وفي الحديث «فأجفئوا قدورهم»،[8] أي جعلوا ما فيها جفاءً؛ واجتفأت الشيء، أي اقتلعته ورميت[9] به، والمعنى واحد. فخلق الله بالماء الذي أنزل من السماء ما أنبته في فضل المطر، وخلق بما مكث في الأرض ما لم يكن بالمطر، وذلك يبقى في الآبار والأودية والعيون بعد ذلك.

فظاهر المثل الأول تام صحيح في الوجود دال على قدرة قادر عليم[10] يَخلق كلَّ شيء مثل ما خلق النبات بما أنزله من الماء وبما مكث في الأرض بقدر معلوم.

---

١ من الآية السابقة.

٢ ش – بما دل عليه في الظاهر وفي باطن الأمر يدل من طريق الاحتمال على خلق آخر غير الظاهر وجاز ذلك لقوله كل شيء.

٣ ن: ذكر ما أخر.

٤ ك: بقدرة.

٥ ك ن: فينضر.

٦ ش: بل قدرة.

٧ ش: ولا ما.

٨ لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. نحوه: «إنه حرّم الحُمُر الأهلية فجفأوا القدور»، أي فرّغوها وقلّبوها (النهاية لابن الأثير «جفأ»). وانظر أيضا: صحيح مسلم، الصيد ٢٩؛ وسنن ابن ماجه، الذبائح ١٣؛ وسنن النسائي، الصيد ٣١.

٩ ن: ورميته.

١٠ ن: عليق.

وظاهر المثل الثاني الدال على قدرة الخالق القدير المتفرد[1] هو ما تراه الأعينُ من أنواع المعادن جامدا لا يابسا. فأظهر الله تعالى جسما لطيفا نيّرا من حركة تَحرَّك بها الإنسانُ فكان ما لم يَظهر لنا من قبل وهو النار، فأذاب هذه الأجسام الصلبة حتى عادت كالماء وربا عليها زَبَدٌ كما على الماء. ثم عَمِل الإنسان من ذلك الماء حِلْيَةً وما يكون له به تمتعٌ ونفع زائد على ما يُضْطَرُّ إليه. ومن عمل هذا فهو قادر على أن يَخلق ما يشاء ولا شريك له، يخلق كخلقه حتى يتشابه به الخلق على العباد. فظاهر المَثَلَيْن / قد عُلم وفُهم منه ما فُهم. وبعد ذلك جَعل المثلين المذكورين برهانا على [٢٢٣ظ] القدرة ظاهرا أشار بهما إلى ما يُفهَم منهما مما يدل على قدرته سبحانه. لكن تلك دلالة بالأبصار[2] وهذه دلالة بالبصائر.

فأما قوله: **أنزل من السماء ماء**، فالإشارة إلى القرآن وإلى كل منزَّل في وقته. ولما كان آخرُ ما أنزل القرآنَ فالإشارة إليه الآن، لأنه مثل الماء الذي أحيا[3] الله به الأرض بعد موتها. والأودية التي سالت بقدرها قلوبُ العلماء جرت لِما وسعت من علم الكتاب العزيز. فلما انقطع إنزال الماء وهو مدةُ وجود الرسول عليه السلام ونزولِ الوحي عليه بقي في صدور العلماء من ذلك الذي وسِعَتْه وأخذته ينفع الناسَ بعد الرسول. والزَّبَد الذي احتمله السيل هو احتمالات ما هو كتاب الله محتمِل له عند من زاغ عن الحق وأوّلَ القرآن تأويلا يَعضُد به اتباع بدعته والميلَ إلى هواه، وجعل القرآن دليلا له على ما اجترم[4] وما مال إليه من الظنون، فهو كالزبد الذي احتمله الماء لكنه يذهب جُفاءً. وكذلك هذا الاحتمال المعنوي الباطل فيما أنزل الله من السماء وهو القرآن، فذلك يذهب جفاء. ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[5] أي من التأويلات الكاذبة في أنفس[6] الزائغين كما بيناه في موضعه.

ثم إذا فكّرتَ في المَثَل الثاني وهو قوله: **ومما يوقِدون عليه فى النار**، وجدته مثلَ الأول بعينه، فيه ما يَذهب جُفاء وفيه ما ينفع الناسَ فيمكث في الأرض ما شاء الله لينتفع به الناس. وإنما مثّل بهذين الشيئين لأنهما قُصارَى ما في هذه الدنيا مما ينتفع به الناسُ

---

[1] ش: المفرد.

[2] ن: الأبصار.

[3] ن: أحياء.

[4] ن: على ما احتمر.

[5] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (سورة الحج، ٥٢/٢٢).

[6] ن: في نفس.

كلُّهم وإن شمل ذلك النفعُ للحيوان، فنفعُ الحيوان أيضا يعود على الإنسان. والمثل الثاني هو مع ما فيه من مماثلة المثل الأول. فإنه يحتمل ما سمعناه أنه يريد به أمرا آخر يعرفه من يعرف علْمَ الصنعة ويحققه. ولما كان المثل الثاني مِثْلَ الأول فَهِمْنا بالأول من الثاني عجبا. فإن من يعلم يعرف الماء الذي أنزله الله من العلو المشار إليه بالسماء والأوديةَ التي[1] سالت بقدرها من ذلك الماء. وإنما احتمله الماء من الزبد، وإن ذلك الماء بعينه يوقَد عليه في النار ابتغاءَ حلية أو متاع؛ فزبده يذهب جفاء وما يمكث ينفع الناس كلَّهم. ومِن أبلغ ما سمعته مما نُظم في ذلك من باب التعريف والإيضاح للطُّلَيْطِلِي،[2] شعر:

إن الصِّناعة مُبْتَدأُ تدبيرِها ... ماءان[3] منعقد[4] وآخَرُ سائلُ،
ذكرٌ وأنثى بعضها من بعضها ... بالنار يَعْقِدها الحكيم الفاضلُ.[5]

والكلام في هذا ليس من غرض الكتاب. فاعمل على المآب، فكل عمل له أصحاب، ومن تعرض بغير ما أُهِلّ له خسر وخاب.

وقوله: وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، لأيام، إنه يمكث أبدا، فافهم هذا في المثل الثاني الذي يحتمل أن يكون تضمن ما قلناه من الإشارة إلى علم الصنعة، فإن صنعة المخلوقين لا تكون كصنعة الخالق ثابتةً أبدا، بل صنعةً تَحَوَّلُ[6] بعد سنين نحو الخمسين، على ما سمعناه ممن يوثَق بقوله. ولهذا رفضه أهل الحق وفرضوا ستْرَه عن غيرهم، وبقيت فائدة علمه تركا عن قدرة. فافهم، والله أعلم.

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨ ۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾

ولما قال أولا: لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ،[7] وضرب المثل بالحق للحق وبالباطل للباطل جاء

---

[1] ك ن: بالسماء وإلا التي.

[2] لعله أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد، الأندلسي التغلبي: مؤرخ، بحاث. أصله من قرطبة، ومولده في المرية. ولي القضاء في طليطلة إلى أن توفي. من كتبه: جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم، وصوان الحكم، ومقالات أهل الملل والنحل، وتاريخ الأندلس. توفي سنة ٤٦٢ هـ/١٠٧٠م (الأعلام للزركلي، ٣/١٨٦).

[3] ش: ماءن؛ ك ن: ماء.

[4] ك: منقعدة.

[5] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

[6] ك: يحول.

[7] الآية ١٤ من هذه السورة.

بعد ذكر الدعوة: **للذين استجابوا لربهم الحسنىٰ. والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به.** انظر كيف أتت هذه الآية بعد ما قلناه: إنه يحتمل الإشارة إلى ذلك العلم الذي يساوي ما في الأرض لينبّه على أن المراد ليس إلا الاستجابة لله في سائر الأمور، وأن ذلك لا ينفع من لم يستجب / بل، **أولٰئك لهم** [٢٢٤و]
سوء الحساب ومأوٰهم جهنم وبئس المهاد. وعرفنا أنه ضرب المثل للقرآن بذلك وبما بعده أيضا من قوله: **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمىٰ. إنما يتذكر أولوا الألبٰب.**

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾

العهد ما عاهدوا عليه الله من تلقاء أنفسهم. **والميثاق** الذي واثقهم به، وهو ما فرضه في كتابه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾

والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، من كل شيء، ويشير إلى حبل النبوة، فلا يقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض.[1] **ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب.**

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾

والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، أي ابتغاء النظر، من قوله:[2] إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ.[3] وفي ظاهر الكلام، كما يقال: افعل هذا لوجه الله، وأصله يعود إلى الأول. **وأقاموا الصلوٰة وأنفقوا مما رزقنٰهم سرا وعلانية ويدرءون**، يدفعون، **بالحسنة السيئة**، إذا عملوا سيئة عملوا من أجلها حسنة تُذهبها، لقوله: إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ.[4] **أولٰئك لهم عقبى الدار.**

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (سورة النساء، ٤/١٥٠).

[2] جميع النسخ: من قولهم، والمثبت من م.

[3] ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ (سورة القيامة، ٧٥/٢٢-٢٣).

[4] سورة هود، ١١/١١٤.

جنّٰت عدن يدخلونها ومن صلح من ءابائهم وأزوٰجهم وذريّٰتهم. هذا المعنى قد ذُكر أيضا في سورة حمٓ المؤمن، وهو إعلام لمن هو متصف بهذه الأوصاف المتقدمة أنه يَدخل الجنة وأنه يَدخل معه من صلح من أقاربه المذكورين وإن لم يكن أعمالُهم مثلَ عمله، بل من صلح فقط، وهو بِشارة للمؤمن ولأقاربه.[1] وقد بينا ذلك في سورة المؤمن،[2] فطالعه إن أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى المذكور. والملٰئكة يدخلون عليهم من كل باب، يقولون لهم: سلٰم عليكم بما صبرتم، دليله: وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ.[3] فنعم عقبى الدار.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾

والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثٰقه، أي ميثاق الله، فالهاء ضمير الاسم لا للعهد.[4] ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولٰئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار، في الآخرة.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾

الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، من التقدير لا القدرة. وإنما ذكر بسط الرزق ههنا لأنه علامة في الدنيا يستدلون بها على قدرته على ما وعدهم في الآخرة فيتركون[5] الفاني لأجل الباقي. ولهذا بعده: وفرحوا بالحيوٰة الدنيا، القربى. وما الحيوٰة الدنيا فى الآخرة إلا متٰع، أي كما يذهب ما يُتمتع به سريعا. ومن قوله: أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ[6] إلى ههنا يُفهَم منه ما يتعلق بالمثل الثاني وإن لم يكن ذلك هو المراد.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾

---

١ ش: وأقاربه.

٢ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (سورة المؤمن، ٨/٤٠).

٣ سورة فصلت، ٣٥/٤١.

٤ ش ك: لا العهد.

٥ ش ك: فيتركوا.

٦ الآية ١٧ من هذه السورة.

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه ءاية من ربه، أي فنؤمن بها ولا نَضلَّ. **قل إن الله يضل من يشاء**، بكفره وتكذيبه إن شاء أن لا يسامحه، ودليله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.[١] ولهذا بعده: **ويهدى إليه من أناب**. واعلم أن العقاب في الدنيا لا يكون إلا بالضلال. وأما سائر الخيرات والشرور فإنها فتن واختبار[٢] للتكفير والتوقير.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

وعطف على، مَنْ أَنَابَ،[٣] فقال:[٤] **الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا**، إعلاما للخلق وتنبيها على عظم، **بذكر الله تطمئن القلوب**، لا ينافي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾،[٥] فهذا في الرجاء وذلك في الخوف، أعني في الوعد والوعيد.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت طوبىٰ لهم،[٦] وهي على وزن فُعْلَى من الطِّيب، تأنيث الأطيب، قلبوا الياءَ واوا[٧] للضمة التي قبلها. وأصل الطيّب من الطِّيب، وهو من طاب يطيب، **وحسنُ مـَٔاب**.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

ولما قدم قوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾،[٨] أتبعه بقوله: **كذٰلك**، أي كذلك اجتبيناك للرسالة فقال: **كذٰلك أرسلنٰك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن. قل هو ربى لا إلٰه إلا هو عليه توكلت وإليه مَتَابِ**، أي مرجعي.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

---

[١] سورة محمد، ١/٤٧.
[٢] ن: واختيار.
[٣] من الآية السابقة.
[٤] ن + فقال.
[٥] سورة الأنفال، ٢/٨؛ وسورة الحج، ٣٥/٢٢.
[٦] ش + يعني.
[٧] جميع النسخ: الواو ياء.
[٨] سورة الشورى، ١٣/٤٢.

[٢٢٤ظ] ولو أن قرءانا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتىٰ، / تقديره: لَمَا آمنوا به، إذا عاقبناهم بالضلال فليس عليك هداهم وأمرهم، بل لله الأمر جميعا. تقديره: وإذا كان كذلك، أفلم يايْـٔس الذين ءامنوا، من هداهم ويعلموا، أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا، أي إجبارا. ولمّا قيد الأمر بالمشيئة وقد كان يُشكل هذا على بعض الأفهام شرحه بقوله: ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة، ما يقرع من العذاب في الدنيا. أو تَحُلُّ قريبا من دارهم، إنذارا لعلهم يرجعون إذا اعتبروا، فهم دائما إما أن تصيبهم أو تحل قريبا من دارهم، حتىٰ يأتي وعد الله، بنصرك عليهم في الدنيا. إن الله لا يخلف الميعاد.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

ولقد استهزئ برسل من قبلك، كما استهزئ بك. فأمليت، فأمهلت، للذين كفروا ثم أخذتهم، بالعذاب. فكيف كان عقابِ، أي كذلك أفعل بهؤلاء.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

أفمن هو قائم علىٰ كل نفس بما كسبت؟ تقديره: هل غير الله؟ وجعلوا لله شركاء. قل سمّوهم، أي بوصفهم كما سمى الله نفسه بوصفه، لأن لله الأسماء الحسنى،[١] وهي أسماء الصفات ولا تكون لهم بوجه. أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض، أي أتجدون من له اسم[٢] كاسم الله، كما تقول: الخالق البارئ المصور العالم،[٣] أم تخبرون الله بشيء لا يعلم في الأرض، لأن شركاءهم لا يعلمون. ولهذا لم يقل: بما لا يعلمه، فيكونَ العائد من الكلام على الله، بل آلهتُهم دون الله لا تعلم شيئا في الأرض، كيف في السماء أو غيرها.

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ (سورة الأعراف، ١٨٠/٧).

٢ ن + له.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (سورة الحشر، ٢٤/٥٩)

والله عالم بكل شيء، فكيف يكون في الأرض من يشاركه في صفاته سبحانه وهو لا يعلم وأنتم تعلمون ذلك؟ أم بظهر من القول، ثم حذف ما معناه: ليس كذلك. بل زُيّن للذين كفروا مكرهم وصُدّوا عن السبيل، ومن يضلل الله فما له من هاد.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

لهم عذاب فى الحيوٰة الدنيا. ولعذاب الآخرة أشق، من المشقة. وما لهم من الله، أي من عذاب الله، من واق، يقيهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

والذين ءاتينٰهم الكتٰب، علماءُ اليهود الذين أسلموا خاصة، فهم الذين آتاهم الله فَهْمَ التوراةِ على حقيقتها، وكانوا ينتظرون ما أنزل الله[1] على الرسول. يفرحون بما أنزل إليك، ومن الأحزاب من ينكر بعضه، لمخالفته هواه أو لسوء فهمه. قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مئاب.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

وكذٰلك أنزلنٰه حكما عربيا، أي بيّنًا. ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا واق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزوٰجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بئاية إلا بإذن الله. وقوله: لكل أجل كتٰب، عائد على قوله: ولقد أرسلنا رسلا، لأن الرسول

[1] ش ك – الله.

لا بد له من كتاب. والآية ههنا يريد بها آية من آيات الكتاب المنزَّل على الرسول المرسَل. وإذا لم يكن للرسول أن يأتي بآية من الكتاب فكيف له أن يأتي بكتاب إلا بإذن الله، فحسن بعد ذلك أن يقول: لكل أجل كتٰب.

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾

وانطبق على ذلك قوله: يمحوا الله ما يشاء، من الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل، ويثبت، ما يشاء كالقرآن. والمعنى يمحو حُكم الكتاب المتقدم أو ما يشاء من حكم الكتاب المتقدم، ويثبت المتأخر، وهذا هو النسخ بحسب المصلحة لأبناء الزمان. وعنده أم الكتٰب، اسم الجنس تمثيلا وتشبيها بالأم التي تحتوي على الأولاد. والمحو والإثبات عند الخلق. وأما الخالق سبحانه فعنده أم الكتاب يكتب على خلقه ما شاء من الأم بحسب المصلحة لهم لا له. ثم يمحوه[1] إذا جاء أجلُ الكتاب الماحي ويكتب غير ما محاه بحسب الأصلح. ثم كذلك على ما يراه من صلاح عباده. وعنده أم الكتٰب، الذي لا يتغير ولم يزل في الأزل.[2]

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤١﴾

وإن ما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلٰغ وعلينا الحساب، أي الجزاءُ الذي لأجله يكون الحساب، / لأنه لازم عن الحساب. ولهذا ضرب لهم [٢٢٥و] مثلا بجزاء[3] في الدنيا يدلهم على صحة الجزاء الذي وُعدوا به في الأخرى فقال: **أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها،** بيّنّا ذلك في سورة الأنبياء.[4] **والله يحكم لا مُعَقِّب لحكمه،** أي لا يُثبت أحد على عَقِبه بين يدي حكمه عليه بما يستحقه. **وهو سريع الحساب.**

[1] ن: ثم يمحو.

[2] ن: في الأول.

[3] ش ك: لجزاء.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٤٤/٢١).

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٤٢﴾

وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا، أي له المكر الأشد بالجميع من أولئك ومِن هؤلاء ومِن كل ماكر. وهذا المكر منه جزاء مكرهم، لأنه، **يعلم ما تكسب كل نفس**، فجزاؤها مكتوب عليها في علمه. **وسيعلم الكفّر لمن عقبى الدار**، في الدنيا، أي إنها تكون[1] للمؤمنين لا للكفار.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ۝٤٣﴾

ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفىٰ بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتٰب، يشهد. والمراد من أسلم من اليهود من العلماء المشار إليهم بقوله: وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ،[2] فأشهد بعضهم على بعض، وإلا الذي عنده علم القرآن. فاليهود يكذبونه ولا يكون عليهم شهيدا ولا حجة. وإنما استَشْهد عليهم بقوم كانوا منهم، وعندهم علم التوراة وما جاء[3] من الأمر[4] فيها باتباع هذا النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه حجة بالغة بلا شك تُحقق صدق الرسول بكلام المرسِل، أعني كلام الله في التوراة. فعادت شهادة العلماء منهم عليهم صحيحة عندهم، لأن الشهداء قالوا وفعلوا فقامت حجة الله برسول الله وقامت بهم حجةُ رسول الله عليه السلام.

---

١ ك ن: يكون.

٢ الآية ٣٦ من هذه السورة.

٣ ش: التوراة ما جاء.

٤ ش – الأمر، صح هـ.

سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾

الٓر كتٰب أنزلنٰه إليك لتخرج الناس من الظلمٰت إلى النور بإذن ربهم، أي فيهتدوا بالنور، إلىٰ صرٰط العزيز الحميد.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾

الله الذى له ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض، أي الله هو هذا المالك لا غيره. وقوله: وويل للكٰفرين، لمّا قال: لتخرج الناس من الظلمٰت إلى النور، قال: والويل لمن كفر منهم، من عذاب شديد.

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾

الذين يستحبون الحيوٰة الدنيا، فيؤثرونها، على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولٰئك فى ضلٰل بعيد.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾

وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، هذا مُوضح لما قلناه في قوله تعالى: وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ،[1] وأمثاله. وليس ما قيل بصحيح من أن المعنى لتُبيّن تفصيل المجملات مثل عدد ركعات الصلوات.[2] بل لما كان[3] إلى الحَسن مخاطبة[4] العربي بالعجمي قال الله تعالى ما معناه: إنما[5] أنزلنا إليك الذكر

[1] سورة النحل، ٤٤/١٦.

[2] ن: الصلاة.

[3] أي آل ورجع.

[4] ن: فخاطبه.

[5] ن: إنا.

دون غيرك لتكون[1] مبينا بلسانك العربي للعرب ما أُنزل[2] إليهم. والمراد لتُبيّنَ القرآنَ لا تفسير القرآن. ولهذا قال: لِلنَّاسِ، ولم يقل: لتفسّر ما أشكل. ولو لم يكن كذلك للزم أن يكون القرآن غير بيّنٍ، ويعارضه [قوله:] وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ[3] وأمثال ذلك.[4] ولهذا قال: بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ.[5] وهذه الآية ههنا تشتمل على كل رسول. وهذا محمد عليه السلام منهم، وبيانه كبيانهم، كلٌّ بلسانه. **فيضل الله من يشاء**، ممن استحق ذلك عقابا له[6] بكفره، إذ له أن يعفوَ عمن يشاء. واللام في قوله: **فيضل**، مرفوعة[7] على الاستئناف والاقتطاع من الأول. ولو عطفه على [قوله:] لِتُبَيِّنَ، لأعطى ظاهرُه أن الإضلال مراد كما أن التبين مراد، وهو خلاف المراد ههنا بإرسال الرسول. ومعنى الإضلال ههنا الطبعُ والختم. وقوله: **ويهدى من يشاء**، أي بعد ما طبع على قلبه بكفره وسدَّ عليه[8] باب الهدى. وهذا يجب أن يفهَم في جميع أمثاله من القرآن. وهذا من أبلغ دليل على عظم القدرة والرحمة، لأنه من أبلغ ما فتح باب الرجاء لعُصاة هذه الأمة، لأنه لا يغفر الشرك.[9] **وهو العزيز الحكيم.**

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾

ولقد أرسلنا موسىٰ بـٔايٰتنا، أي بلسان قومه وأمرناه: **أن أخرج قومك من الظلمٰت إلى النور**، أي كما أرسلناك لتخرج الناس إلى يوم القيامة من الظلمات إلى النور.[10] **وذكرهم بأيّٰم الله**، يريد ههنا أيام النِّعَم عليهم بالنجاة وغيرها كما سيأتي، فافهمه. ولهذا لم يقل: وأنذرهم بل، **وذكّرهم**. ولهذا يقول فيما سيأتي: ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ،[11] وتقدم على قوله: **وذكرهم**،[12] **أَخْرِج قومك من الظلمٰت**، وعطف عليه: **وذكرهم**، ولهذا بعده:

---

[1] جميع النسخ: ليكون.

[2] ك: ما نزل.

[3] سورة النور، ٢٤/٣٤.

[4] ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة النور، ٢٤/٤٦).

[5] ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/١٩٣-١٩٥).

[6] ك ن - له.

[7] ش - مرفوعة.

[8] ك ن: على.

[9] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (سورة النساء، ٤/٤٨، ١١٦).

[10] لعل المؤلف يشير إلى الآية الأولى من هذه السورة.

[11] من الآية التالية.

[12] ش - ولهذا يقول فيما سيأتي اذكروا نعمة الله وتقدم على قوله وذكرهم.

إن في ذٰلك لآيٰت لكل صبار شكور، أي من سائر الخلق ليتعلم الصبر / من بني إسرائيل [٢٢٥ظ]
على ما ابتلاهم الله به ويتحققَ صدقُ الوعد بالنجاة كما أنجاهم فيشكرَ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

ثم عطف في المعنى على مثله، لأن مثله واو الابتداء لا العطف، وهي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا،[١] فقال: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجٰكم من ءال فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم. وفي ذٰلكم بلاء من ربكم عظيم، إعلام أن جميع الواقع بيد العباد هو ابتلاء وبلاء من الرب سبحانه، ولو كان بيد فرعون. وقد تقدم في البقرة[٢] الفرقُ بين أنجاكم ونجّاكم. وقوله: ويذبحون، ههنا بزيادة الواو لأنه ههنا ذكر النجاة مجملا كما ذكر اسم الجنس، وهناك ذكرها بصورة الإعلام بالتفصيل فجاءت مشددة، ولهذا عطف ههنا ما لا بد من ذكره، فقال بالواو: ويذبحون.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

ثم عطف على قوله ههنا: وإذ، وإذ، تأذن، أعلم وأخبر خبرا بعد خبر، وأذن وتأذن مثل أوعد وتوعّد، ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

أي لغني عن العباد إن تكفروا، حميد، محمود وإن لم تشكروا.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينٰت فردوا، الأمم، أيديهم، بأيديهم، في أفوٰهم، أفواه الرسل.

---

[١] من الآية السابقة.

[٢] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٤٩).

والمعنى أن هؤلاء الأمم جاءتهم رسلهم بالبينات[١] فرد الأمم بأيديهم ما جاءت به الرسل في أفواه الرسل. وذلك أنهم إنما ردوا باليد والقهر وبالأذى، ولهذا قالت الرسل: وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا؛ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ.[٢] وأما قوله: في أفوٰههم، فهو كما يقال: أتردّ في فمِ مَن هو أكبر منك، أي أترد كلامه من فمه في فمه بمعنى المنع والتكذيب. وإن أخذت لفظة بأيديهم على ظاهرها فهي كما تُحدث خصمك بلسانك وبيدك معا، فتُحرك يدَك عند محادثتك له بحركات من جنس كلامٍ تقوله زيادةً في البيان. فاليد تزيد [على] اللسان تأكيدا. شعر:

أُناجيه بالأفكار حتى كأنني أناجيه جهرا باللسان وباليد.[٣]

وهذا[٤] يدل على مشافهة من الأمم ردوا بأيديهم وألسنتهم ما قالته الرسل في أفواه الرسل. وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب، من الرِّيبة وهي التهمة، أي في شك يوجب التهمةَ فهو مريب لنا.

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السمٰوٰت والأرض يدعوكم، إلى الإيمان به، ليغفر لكم من ذنوبكم، بيّنا "من"[٥] في موضع آخر.[٦] ولولا قوله "مِنْ" للزم أن يغفر ما تقدم وما تأخر. ويؤخركم إلىٰ أجل مسمى، يدل على زيادة عمر المؤمن بكسبه إلى أجَلِ ربه. قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد ءاباؤنا فأتونا بسلطٰن مبين، أي بمعجزة تتسلطون بها علينا إذ يَظهر بها صدقُكم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

---

١ ن: من البينات.
٢ الآيتان التاليتان برقم ١٢ و١٣ من هذه السورة.
٣ لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.
٤ ش: ولهذا.
٥ ك ن – من.
٦ انظر لذلك: سورة الأحقاف، ٣١/٤٦؛ وسورة نوح، ٤/٧١.

قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولٰكن الله يمن علىٰ من يشاء من عباده، فيفضّله بالوحي، كقوله: إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ.[١] وما كان لنا أن نأتيكم بسلطٰن إلا بإذن الله. وعلىٰ الله فليتوكل المؤمنون.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾

وما لنا، تقديره: وأي عذر لنا يوجب، ألا نتوكل على الله وقد هدىٰنا سبلنا، أي إن العقول تقضي[٢] على سالك السبيل أن يتوكل على الدليل. ولنصبرن علىٰ ما ءاذيتمونا. وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣﴾

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾

ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذٰلك لمن خاف مقامي،[٣] أي مقامه بين يديه. ونسبه إلى نفسه مبالغة في التخويف، وخاف وعيدِ.

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾

واستفتحوا، أي الرسل دعوا الله أن يفتح بينهم بالحق،[٤] فكان الحقُّ الذي يستحقه الكفارُ العذابَ والخيبة. وتقديره: واستفتحوا الله حكمه عليهم ولهم ففتح على الأنبياء وأتباعهم بالنصر والإيمان والنجاة والفوز في الدنيا والآخرة. وخاب كل جبار عنيد، في الدنيا.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾

وأما في الآخرة: من ورائه جهنم، ليس المراد مِن أمامه، ولكنه لمّا أعرض عن الآخرة فلم يتوجه إليها بل إلى الدنيا عادت الآخرة وراءه، وفيها له جهنم.

[١] ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ (سورة الكهف، ١١٠/١٨).

[٢] ك: يقضي.

[٣] ك + أي.

[٤] يقول الله تعالى بلسان شعيب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٨٩/٧).

ويسقىٰ من ماء صديد، صديد الجُرْح ماؤه المختلط بدم رقيق فاسد قبل أن تَغْلُظ المِدّة.[1] وأصله من الصد وهو المنع، / فهو فعيل بمعنى فاعل تارة ومفعول تارةً، أي يَصُد شاربَه الصاديَ[2] عن شربه ويصدّه شاربُه لِنَتْنِه وكراهته. [٢٢٦و]

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

يقال: ساغ الشراب يسوغ سَوْغا، أي سهلا مَدخلُه في الحلق، وسُغتُه أنا أَسُوغه وأَسِيغه، يتعدى ولا يتعدى، وساغ له ما فعل، أي جاز له بمعنى الاستعارة من الأول. وقوله: **ويأتيه الموت من كل مكان**، ليس كما قيل: إنه كَرْب الموت أو غير ذلك؛ بل يأتيه الموت نفسُه، ولكن من عادة[3] الموت أن يأتي من مكان واحد فهو موت واحد، ثم يقضي الإنسانُ حتفَه. ومتى فهمت قوله: **وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ**، فهمت أن هذا المعَذَّب[4] يأتيه الموت من الجهات الست، لأن المكان لا يكون إلا في جهة فهو يأتي من بين يديه وما هو بميت، ومن خلفه وما هو بميت، وكذلك في الجميع أبدا. هذا حاله فيذوق الموت ويُكابِده لا من مكان واحد بل من كل مكان، **وما هو بميت**، بموت يأتيه فيتخلّص مما بعده، بل هو كقوله: لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا.[5] ولا يناقض ذلك لهذا لقوله ههنا: **وما هو بميت**. ثم من بعد ذلك كلِّه، **ومن ورائه عذاب**، أي من وراء الموت الذي يأتيه[6] من كل مكان، **عذاب غليظ**، من كل مكان أيضا. ولو وسعت العبارة "أكثرَ" لقال أكثر، فبالله المستعان. وبيان ما قلناه ههنا في قوله: ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ،[7] لأن قوله: لَا يَمُوتُ، يدل على أنه يحيا وبالعكس. فأراد أنه يموت دائما ويحيا دائما ليذوق عذابَ الموت دائما.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

---

١ المِدّة ما يجتمع في الجُرْح من القيح (لسان العرب، «مدد»).

٢ أي العَطْشان الشديد.

٣ ك ن: من عادت.

٤ ك – المعذب.

٥ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٣٦).

٦ ن: يأتيهم.

٧ ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (سورة الأعلى، ٨٧/١٢-١٣).

مثل الذين كفروا بربهم أعمٰلهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، أي عاصفِ الريح، وحذَفه لأنه قدّم ذكْرَه، وأضاف العاصف إلى اليوم[١] لتعود صفة اليوم في كله لا في بعضه. **لا يقدرون مما كسبوا علىٰ شىء.** أي من سوء ما كسبوا في الدنيا أصبحوا في الأخرى فقراءَ لا يقدرون على شيء. ولهذا قدم ههنا: **مما كسبوا**، على قوله: **علىٰ شىء.** وأما في الموضع الآخر الذي أخرها[٢] فالمعنى لا يقدرون في الآخرة على شيء مما كسبوه في الدنيا من الخير، وذلك لأنهم إنما كسبوا ما يفنىَ. وقوله: **ذٰلك هو الضلٰل البعيد**، أي بعيد عن الهدى، وأشار بقوله: **ذٰلك**، أي ذلك الكفر بربهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

ألم تر أن الله خلق السمٰوٰت والأرض بالحق. إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذٰلك على الله بعزيز، بممتنع. وذلك، لأن من رأى هذا الإيقان والآياتِ في الأرض والسماء علم أن خالقهما لم يخلقهما عبثا. ويلزم إذا لم يكن عبثا أن لا تكون مخلوقةً لأجْل باطل، فهي لأجلِ حق، وما خَلق بحق لا يكون خلق بباطل بل بحق. ثم عرّفَنا أن الذي خلق هذه إن يشأ يذهبكم ويأت بغيركم وما يَعِزّ عليه ذلك، لأن ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾.[٣]

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

وبرزوا لله جميعا، أي الضعفاء والمستكبرون الذين كفروا، والذين آمنوا وهم الذين ضرب لهم المَثَل. **فقال الضعفٰؤا للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء؟ قالوا لو هدىٰنا الله لهدينٰكم**، تقديره ولكن أضلَّنا، أي بزعمهم، لأنهم لمّا كانت هذه المقالة في الدنيا هي مقالتَهم في الآخرة

---

١ قرأ النخعي وابن يَعْمر والجَحْدَري ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ بغير تنوين اليوم (زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٣٥٥/٤).

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ (سورة البقرة، ٢٦٤/٢). | ك: آخرها.

٣ سورة المؤمن، ٥٧/٤٠.

أبقاهم الله عليها إلى أن وصلوا إلى جهنم. ولهذا أكذبهم الله بلسانٍ من أضلهم وهو الشيطان كما في الآية الثانية، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص، أي محيد وهو أدنى الانتقال عن بعض الحال.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

وقال الشيطٰن لما قضى الأمر، أي أُمر بأهل النار إلى النار: **إن الله وعدكم وعدَ الحق ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لى عليكم من سلطٰن إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى. فلا تلومونى ولوموا أنفسكم**. وهذا صريح بأن سلطان الشيطان على الإنسان ليس إلا[1] أن يدعوه فقط، فإن استجاب حق عليه العقاب، ولهذا لم يقل: فأجبتم. ولهذا لزم[2] أن يقول: **ولوموا أنفسكم، ما أنا بمُصْرِخِكم وما أنتم بمصرخِىّ**، المصرخ المغيث بالصُّراخ، والمستصرخ الذي يستغيث بمن يَصرُخ معه. / والصريخ الصارخ المغيث،[3] [٢٢٦ظ] والصارخ المستغيث أيضا، وهو من الأضداد. **إنى كفرت بما أشركتمونِ من قبلُ**، أي بما أشركتموني به من قبل أن تكفروا به أنتم وهو الله تعالى، لأن الشيطان كفر بالله من قبل كفرهم به سبحانه وهو قوله: أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ.[4] فقال لهم: لا يُغيثكم صُراخي ولا يغيثني صراخكم. ثم قال تعالى مستعظما: **إن الظّٰلمين لهم عذاب أليم**. فبين لهم ما معناه: لا تأثير لي في كفركم بدليل أني[5] كفرت بالذي كفرتم به من قبل أن وقعتم في الكفر، وما كان كفري بسبب غيري وإلا لزم التسلسل. وهذا مطابق لقوله: **ولوموا أنفسكم**.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

---

١ ن – إلا.
٢ ن: ألزم.
٣ ن – الصارخ المغيث.
٤ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٤).
٥ ن: أن.

وأدخل الذين ءامنوا وعملوا الصّلحٰت جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلٰم، من الملائكة، لقوله: وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم [بِمَا صَبَرْتُمْ].[١]

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾

ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت، أي في أرض طيبة،[٢] وفرعها فى السماء.

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يريد كلمة التوحيد، ولهذا قيل: لا إلٰه إلا الله. وعبر بهذه العبارة ليُفهَم منها كلُّ كلمة تقال[٣] وهي بخير، أي لو كانت كلمةٌ تطيب لسامعها وإن لم يحصل منها نفعٌ سوى ذلك فقط فإن مثل أجرها كشجرة.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

لهذا بعده: ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من، لابتداء الغاية، فوق الأرض. والجثة جملة البدن. فقوله: اجتثت، أي قُطعت من حد الأرض فهي صورة بغير مادة، فحسُن بعد ذلك قولُه: ما لها من قرار.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت، أي الذين آمنوا بالقول الثابت، وهو القرآن لا مبدّل له:[٤] يثبتهم الله على إيمانهم، فى الحيوٰة الدنيا وفى الآخرة. ويضل الله الظّٰلمين، بظلمهم، ولزم أن يكون الضلال لهم في الدنيا وفي الآخرة. ثم أنبأ عن قدرته على ذلك فقال: ويفعل الله ما يشاء.

---

[١] سورة الرعد، ١٣/٢٣-٢٤.

[٢] ن: أي في الأرض الطيبة.

[٣] ن: يقال.

[٤] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ (سورة الكهف، ١٨/٢٧). وانظر أيضا: سورة الأنعام، ٦/٣٤، ١١٥.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾

ثم أعقب ذلك بما يحقق المَثَل وهو الكلمة الخبيثة فقال: **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دارَ البوارِ: جهنمَ يصلونها وبئس القرار.** يشير إلى اليهود وأمثالهم، فإنهم أنعم الله عليهم بالنبي عليه السلام والقرآنِ ليتبعوه فبدلوا تلك النعمة بالكفر، وأحلّوا قومهم الذين تبعوهم في دار الهلاك، لأنهم لو أسلموا لكان مَن بعدهم مِن ذرياتهم وسائر قومهم في الجنة. والبُور الأرض التي لم تزرع فهي هالكة في تلك السنة. وبَارَ المتاعُ، أي كَسَد أي قارب الهلاك أو هلك. والرجل البُور هو الخَليّ من كل علم وفضيلة حتى قد أهلكه جهلُه وأفسده. وبارت البنتُ إذا بقيت في بيت أبيها إلى حد لو تزوجت بعده لم تحمل. وجهنم دار البوار، وهذا لكل من بدّل نعمة الله كعلماء البدع.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله، اللام في "ليضلوا"، لام العاقبة مع فتح الياء.[1] والند بالكسر المثل والنظير. **قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار**، خطاب لجميع العابد والمعبود لقوله: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ.[2]

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

ولما فرغ من وصف الكفار وردّهم إلى النار [قال:] **قل لعبادى الذين ءامنوا يقيموا الصلوٰة وينفقوا مما رزقنٰهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلٰل**، أي لا ينفع فيه مالٌ ولا خلال، وهو مصدر خاللت خلالا.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

الله، أي هو وحده لا الأنداد بل هو، **الذى خلق السمٰوٰت والأرض. وأنزل من السماء ماء**

---

[1] فَتَحَ الياء المكي والبصري ورُوَيس، وضمها سواهم (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٧٣).

[2] سورة الأنبياء، ٢١/٩٨.

فأخرج به من الثمرٰت، أي من أنواع الثمرات وهي لتبيين[١] الجنس، رزقا لكم. وسخر لكم الفلك، أصله الدُّور لأنه يدور على الماء، وهو جمع وفُرَاد،[٢] لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهٰر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، مُجِدَّيْن على عادة، ودأب في السير المعلوم والإضاءة وغير ذلك. وسخر لكم اليل والنهار.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

وءاتىٰكم من كل ما سألتموه، وتقديره: وما لم تسألوه، ولهذا بعده: وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها. ثم قال: إن الإنسٰن لظلوم كفار، بنعمة ربه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾

وعطف على قوله: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ،[٣] قولَه: وإذ قال إبرٰهيم رب اجعل هٰذا البلد ءامنا واجنبنى وبَنِيّ أن نعبد الأصنٰم، جَنَب يَجنُب، [و]جنيب[٤] هو الفرس / تقوده إلى جنبك. [٢٢٧و]
والاجتناب يرجع إلى هذا الأصل وهو المراد ههنا. تقول: تجنب الأسد، وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ،[٥] أي احذروه واجعلوه جانبا، وأجْنَبَه إذا جعله مجانبا لشيء متباعدا[٦] له.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

رب إنهن أضللن كثيرا من الناس، شكوى بلسان الدعاء. فمن تبعنى فإنه منى، ومن عصانى فإنك غفور رحيم، أي فأنا أتوقع منك الرحمة والغفرانَ إن لم يصدر منه ما يجب[٧] من اتباعي في طاعتك وعبادتك.

---

١ ن: لتبين.
٢ الفُلْك بالضم: السفينة؛ تذكر وتؤنث، وتقع على الواحد والاثنين والجمع (لسان العرب، «فلك»).
٣ الآية ٦ من هذه السورة.
٤ ن – جنيبا؛ ش ك: جنيبا.
٥ سورة الحج، ٣٠/٢٢.
٦ ش ك: مباعدا.
٧ ك ن: ما يجنب.

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلوٰة، أي ههنا، لأن الأنبياء يعلمون شرف الأراضي. وفي الحديث: «إن الصلاة يضاعف أجرها هناك بألفٍ، وفي القدس بخمسَمِائَةٍ».[1] فجعل إيثارَه لسكنى ذريته في ذلك الوادي من أجل زرع الآخرة فوقَ إيثار الناس لسكنى وادٍ ذي زرع. **فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم**، أي تُسرع في انحدار لأنهم في وادٍ. **وارزقهم من الثمرٰت لعلهم يشكرون**، أي لتكون الثمرات قُبالةَ الزرع.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾

لمّا أعلن بطلب الثمرات جمع بقيةَ حوائجه دنياه وآخرته،[2] سواء صرح بها أو أخفى في الآية الثانية. ثم قال معلما: **الحمد لله الذى وهب لى**، ولم يقل: وهبني لئلا يكون إبراهيم موهوبا لإسماعيل، **على الكبر إسمٰعيل وإسحٰق. إن ربى لسميع الدعاء.**

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾

رب اجعلنى مقيم الصلوٰة، ذكر الصلاة أولا[3] إعلاما بما قصد، وطلبها ثانيا ليكون ممن عبد. وقوله: **ومن ذريتى**، ليس المراد التبعيض، بل كقوله: وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ،[4] وكقوله: وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ،[5] كقولك:[6] اتخذ من فلان صاحبا. ثم أعلَمنا سبحانه

---

[1] لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر بهذا اللفظ. والحديث ورد في مسند البزار بلفظ: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة، وفي مسجدي ألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة» (مسند البزار، ٢/١٨٨).

[2] ك ن: وآخرة.

[3] أي في الآية السابقة برقم ٣٧.

[4] ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٢٨).

[5] ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٠٤).

[6] ن: كقوله.

أنه يجب أن ندعو وأن نطلب قبولَ الدعاء، فافقه واعمل. ولهذا قال: ربنا وتقبل دعاءِ.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

ربنا اغفر لى ولوٰلدىّ، يخص المؤمنين من الوالدين من لدن آدم. فإن النسب الصحيح بالدين لا بالطين، ولهذا قال: وللمؤمنين، إلى يوم القيامة، يوم يقوم الحساب. فلما ذكر المؤمنين في المستقبل مخصِصا لهم بالذكر إلى يوم الحساب استغنى بذكرهم في المستقبل[١] عن ذكرهم في الماضي، وجمع الجميع بذكر الوالدين.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾

ثم عطف على قوله: قُل لِّعِبَادِىَ،[٢] ولا تحسبن الله غٰفلا عما يعمل الظّٰلمون، إنما يؤخرهم ليوم، أي لعذاب يومٍ، تشخص فيه الأبصٰر.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

مهطعين، من أهطع يُهطع فهو مُهطع إذا مدّ عنقَه وصوّب رأسه، وهَطَع[٣] إذا أقبل ببصره إلى الشيء لا يقلع عنه. مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم، سمي فؤادا لحرارته،[٤] وأَفْأَدْتُ: شويت، والمِفْأَد[٥] السَّفُّود[٦] يُشوَى به اللحم. فالأفئدة هواء يحتمل أنه لما كان الكسب بالقلوب وكانت النار تؤجَّج بالهواء جُعل القلوب تؤجِّج[٧] عليهم نارُ الذنوب، وأضمر ذلك النار ههنا لأنه أظهره أخيرا بقوله: وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ.[٨] وظاهر الكلام يعطي أنه مثّل القلوب بالهواء لرقته وشدة حركته لأنه لا يمكن أن يَثبت. ولغلبة الوصف أسقط الموصوف به وأقام الوصف مقامه كما يقال: فلان بحر أي في الجود، وأسد أي في الشجاعة. وقيل: إن الفؤاد وسط القلب. قال الشاعر:

---

١ ش – مخصصا لهم بالذكر إلى يوم الحساب استغنى بذكرهم في المستقبل.

٢ الآية ٣١ من هذه السورة.

٣ ن: هطع. | هطع يَهْطَع هَطْعا، وهُطوعا: أسرَع مُقْبِلا خائفا، لا يكون إلا مع خوف (تاج العروس، «هطع»).

٤ ش: لجرارته.

٥ المِفْأَد: ما يُختبز ويُشتوى به (لسان العرب، «فأد»).

٦ السفود: حديدة ذات شُعَب مُعَقَّفة معروف يُشوى به اللحم (لسان العرب، «سفد»).

٧ ش – بالهواء جعل القلوب تؤجج.

٨ الآية ٥٠ من هذه السورة.

اِطْـوِ السـرائر فـي فـؤادك لـم أقـل فـي القلب وانطِقْ في خلائـك مُخْفِتا.[1]

ولا ينقض[2] ما تقدم، إذ وسط القلب أشد حرارة.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

وأنذر الناس يوم، منصوب لأنه مفعول "أنذر"، ولا يجوز أن يكون ظرفا لأن الإنذار لا يكون في ذلك اليوم، وكذلك أمثاله. **يأتيهم العذاب**، هو يوم التوفي بأيدي الملٰئكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ.[3] **فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل. أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال**، بمعنى أن إصرارهم على الكفر إصرارُ مَن لا يزول عما هو عليه. ويحتمل أن قوله: **أقسمتم من قبل**، أي[4] في دار الدنيا. ويريد بالقَسَم جحود ما جاءت به الأنبياء من الإيمان بالبعث الذي هو جِماع الخيرات ورأس الأمر، وذلك قوله تعالى: وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ.[5] فوبّخهم عند الموت بذلك. ثم قال لهم: **ما لكم من زوال**، عما قد استقبلتموه من الموت والعذاب المتصل.

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

ثم عطف على [قوله:] أَقْسَمْتُم:[6] **وسكنتم فى مسْكن الذين ظلموا أنفسهم. وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال**، بهم، أي أهلكناهم بتكذيبهم الرسلَ وأورثناكم أرضهم ومساكنَهم، / فجعلناهم لكم مثلا، ففعلتم[7] مثل أفعالهم. [٢٢٧ظ]

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

---

[1] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

[2] جميع النسخ: ينقص، والمثبت من م.

[3] ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ (سورة محمد، ٢٧/٤٧).

[4] ش – ما لكم من زوال بمعنى أن إصرارهم على الكفر إصرار من لا يزول عما هو عليه ويحتمل أن قوله أقسمتم من قبل أي، صح هـ.

[5] سورة النحل، ٣٨/١٦.

[6] من الآية السابقة.

[7] جميع النسخ: فعلتم، والمثبت من م.

وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم، أي معلوم مكتوب ليجزيهم به. **وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال**، بكسر اللام الأولة وقريبة[١] بالفتح، وكلاهما[٢] لاما تأكيد وبالفتح قرأ الكسائي[٣] وحده.[٤] وقيل: إن المعنى أنهم لم يبقوا مُمَكَّنا في المكر. وقيل: المراد إنهم في مكرهم بظنهم وزَعْمهم بهذه المثابة وإن لم يكونوا كذلك. والظاهر أنه أراد ما معناه لو أن مكرهم لأجْل أن تزول منه الجبالُ فهو عندنا، لأن أحدا لا يطمع أن يمكر مكرا ليزيل بمكرهم جبلا، فقال: **وعند الله مكرهم وإن كان**، بمثل هذا الأمر العظيم فلا يعجزنا عن مجازاتهم بعظيم مثله. وأما المفهوم بلام التأكيد أنه مثّل معناه تضمحلّ الجبال زوالا لعظم مكرهم لا لأنهم يزيلونها بالمكر، بل كأنها تزيل أنفسها من مكرهم إشارة إلى أن ثبات مكرهم أشد من ثبات الجبال. وإنما خُصّت الجبال بالذكر لأنها أعظم موجود في الأرض، لقوله: وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا،[٥] ومثله: وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ.[٦] فهي تُثبت الأرض فكانت أولى بالذكر مع الزوال قُبالةَ ما يراد من الإعلام بثباته وعظمه من مكرهم. ولهذا بعده[٧] بالفاء:[٨] **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، إن الله عزيز ذو انتقام.**

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمٰوٰت، تبدل أيضا. **وبرزوا**، أي صاروا[٩] بالبراز من الأرض، وهو ما ظهر وبرز. والتبديل للذات والصفات. وبعده[١٠] يكون البروز، **لله الوٰحد**، لجزائه وعذابه، ولهذا قال: **القهار.**

﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩﴾

وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد، يُقَرَّنون بقُرَنائهم من الشياطين[١١] في الدنيا،

---

[١] ش - وقريب؛ ك ن: وقريب.

[٢] أي كلتا القراتين: بكسر لام "لتزول" وبفتحها.

[٣] أبو الحسن الكسائي علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، إمام في اللغة والنحو والقراءة. من أهل الكوفة. ولد في إحدى قراها وتعلم بها، وقرأ النحو بعد الكبر، وتنقل في البادية، وسكن بغداد. له تصانيف، منها: معاني القرآن، والمصادر، والحروف، والقراءات، ونوادر، والمتشابه في القرآن. توفي سنة ١٨٩هـ/٨٠٥م بالري (الأعلام للزركلي، ٢٨٣/٤).

[٤] البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ١٧٤.

[٥] ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ (سورة الإسراء، ٣٧/١٧).

[٦] سورة الأنبياء، ٣١/٢١.

[٧] ش ك: بعد.

[٨] جميع النسخ: الفاء.

[٩] ن: أي صار.

[١٠] ن: بعده.

[١١] ن: من الشيطان.

كقوله: نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ؛[1] ومثله: وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ،[2] وهو من الزوج ضد الفرد لا من الزوجة. ولا يعارضه قوله: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ،[3] لأن ذلك فرادى من الشركاء لا من القرناء بدليل ما بعده هناك.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾

سرابيلهم من قطران، أي ثيابهم، وكونها من قطران، لأن النار تلتهب من القطران. فإذا كانت ثيابهم دائما منه لزم أنها تشتعل بهم ويَصعد اللهب إلى وجوههم خصوصا وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ،[4] يؤَجِّجها. ولهذا بعده:[5] **وتغشىٰ وجوههم النار. ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب.**

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾

هٰذا بلٰغ للناس، بلغني كيت وكيت، أي وصلني علمُه وصولا بالغا في حده، **ولينذروا به وليعلموا أنما هو إلٰه وٰحد وليذكر أولوا الألبٰب.**

---

[1] ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/٣٦).

[2] سورة التكوير، ٨١/٧.

[3] ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٩٤).

[4] الآية ٤٣ من هذه السورة.

[5] ن – يؤججها ولهذا بعده.

سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾

الٓر، تلك ءايٰت الكتٰب وقرءان مبين، وفي النمل قدم القرآن فقال: تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ.[1] وذلك لأنه يُقرأ ويُكتب بهذه الحروف وأخواتها، أي هذه الحروف وأخواتها علامات القرآن وعلامات كل كتاب مبين، ولهذا جعل القرآن معروفا دون قوله: وَكِتَابٖ، وأما ههنا علامات الكتاب هذا. وعلامات كل قرآن سمي ما يُنْزَل من السور في كل زمن قرآنا، أي الجميع بهذه العلامات ما نزل وما سينزل. فوجب تقديمُ هذه في الترتيب. فالآية مفسرة للحروف والقرآن المنزل بها.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾

ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، إخبار بما يَحُلّ بهم من العذاب الذي يودون من أجله أن لو كانوا أسلموا. وعبَّر بربما مخاطَبَةً لهم بما هو داخل تحت الإمكان في العقول، فلا يجوز لعاقل إهماله. ولهذا تواعدهم بقوله: **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون**، وتقديره: إذا أهلكناهم[2] كما أهلكنا مَن قبلهم بكفرهم.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾

وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم، أي بكتاب منا إليهم على لسان رسولهم ليكون الإهلاك بحق وعدل. ولهذا بعده: **ما تسبق من أمة أجلها وما يستـٔخرون**. بيّنا ذلك في قوله: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞ.[3] فليس المراد أجل[4] الموت بالإهلاك بل المراد كلُّ أمة لها كتاب معلوم عندنا في الأزل، يجب علهيم اتباعُه إلى أن يأتي الكتاب الثاني ينسخ الأول.

---

[1] سورة النمل، ١/٢٧.

[2] ش ك: إذا هلكناهم.

[3] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٤/٧).

[4] ن: أجمل.

فلا يجوز للأمة الأولى أن تتأخر فتبقى على حكم الكتاب الأول بعد مجيء الثاني ولا أن تتقدم الثانية مع بقاء حكم الأولى، لأن ذلك ليس بإرادة الأمم بل بمقتضى الحكمة
[٢٢٨و] والعلم بمصالح الأمم بما هو معلوم / عنده[١] في الأزل. ولما ذكر في تلك الآية: لَا يَسْتَأْخِرُونَ، أولا ثم قال: وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ، قدّم السبق ههنا، ولم يقل: وما يستأخر ليعم[٢] سائر الأمم بكل وصف وضده. ففي تلك الآية فهمُ أحد الوصفين لأحد الأمتين والآخر للأخرى. وفي هذه عمّ بكل وصف منهما كل أمة[٣] من الأمم. وفي تلك الآية ذكر ما يتعلق بالأمم من الأجَل سواء كانوا مؤمنين أو كفارا بنبي وقتهم. وفي هذه ذكر ما يتعلق بالكفار من كل أمة. لهذا احتج عليهم بالكتاب وقدم التواعد[٤] بقوله: ذَرْهُمْ.[٥]

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾

وأخر بعد ذكر الكتاب وصفهم مع الرسل فقال: **وقالوا يٰأيها الذى نزل عليه الذكر**، يشير إلى كل أمة مهلَكة قالوا لرسولهم: **إنك لمجنون؛ لو ما**، بمعنى هلّا. وقولهم: **يٰأيها**، تقديره: المدَّعي أنه نُزّل عليه الذكر، وذلك بصورة الاستهزاء. ويقال: لولا، و **لوما تأتينا بالملٰئكة إن كنت من الصٰدقين**، فهذه مقالة المهلَكين من قبل.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾

وإنما قص علينا سبحانه من كلامهم ما يقول قومُ محمد عليه السلام مثله فقال الله تعالى: **ما ننزل الملٰئكة إلا بالحق**، أي بالقضاء الحق الذي يقضي الله عليهم به على أيدي الملائكة، ولو نُزّلت الملائكة لقضي الأمر،[٦] **وما كانوا إذًا منظرين**.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

ثم قال: **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحٰفظون**، إذا ضيّعه[٧] المُنزَّل إليهم بترك الإيمان به.

---

١ جميع النسخ: عندنا.
٢ جميع النسخ: وليعم.
٣ ن: كل آية.
٤ ن: القواعد.
٥ الآية ٣ من هذه السورة.
٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٨/٦).
٧ ك: إذا ضيقه.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾

الشيعة الفرقة من الناس على منهاج واحد.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢﴾

كذٰلك نسلكه فى قلوب المجرمين، سلكتُ الخيطَ في الإبرة وأسلكته بمعنى واحد. والإشارة إلى الذِّكر، أي لمّا أجرموا وكذبوا جعلناه في قلوبهم على هيئة لا يمكنهم الإيمان به عقابا لهم، كما قال: وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى،[١] وكما قال: خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ.[٢]

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾

فهم، **لا يؤمنون به**، ثم عرّفنا الله تعالى أنه سيصيب لهؤلاء ما أصاب غيرَهم، فقال: **وقد خلت سنة الأولين**، تقديره: أمَا[٣] يتعظ هؤلاء بهم؟

﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾

وقوله: **ولو فتحنا عليهم بابا من**، أبواب، **السماء فظلوا فيه يعرجون**؛ إنما سُمّي الصعود عروجا لأن الصاعد في المراقي يُشبه مشيُه مشيَ الأعرج. والمعنى أنه تعالى يعاقبهم بأن يجعلهم لا يؤمنون عقابا لهم على ما أجرموا. فاقرأ وتأمل لِتَفهم[٤] أنه لو عاقبهم ثم فعل هو معهم ذلك بعد العذاب، **لقالوا إنما سُكِّرت أبصٰرنا**، وليس هذا بحق، **بل نحن قوم مسحورون**. وقوله: **سكرت**، من سكَر البابَ يَسكُره بالسُّكَّرَة.[٥] وهذه استعارة للأبصار كاستعارة الأقفال للقلوب.[٦] وسكر الماءَ عن الجَرْية أصله من هذه الآية، لأنه قطع الماءَ ومنعه من[٧] الجريان في موضعه.

١ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ (سورة فصلت، ٤١/٤٤).

٢ سورة البقرة، ٢/٧.

٣ ن: إنما.

٤ جميع النسخ: ليفهم، والمثبت من م.

٥ السُّكَّرَة عند العامة آلة من خشب يُوصد بها الباب بمفتاح من خشب (المنجد للُويس المَعْلُوف، «سكر»).

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ (سورة محمد، ٤٧/٢٤).

٧ ن: الماء ومنه.

فإذا امتنع نور الأبصار أن يجري في موضعه وينفذَ فلا يرى الأشياء على حقائقها. فعرّفَنا الله أن هؤلاء الذين طلبوا نزول الملائكة إذا عاقبناهم عادوا بمنزلة من لو صعدوا بأنفسهم إلى الملائكة لَمَا آمنوا.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال الله تعالى ما هو آية لمن رأى ولمن لكلامٍ له نظر واعتبار، وهو معطوف على مثله في اللفظ لأنه قدم: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا،[1] فقال: **ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيّنّٰها للنّٰظرين**. وجعل قوله: **وحفظنٰها من كل شيطٰن رجيم**، مثلا لِما قدمه من قوله: وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ.[2] فكرِّر الآيات. وافهم معنى الجملة. وذلك أنه تعالى إذا عاقبهم بالضلال يَحفظ[3] الذكرَ كما حفظ السماءَ، ويطردهم[4] عن الإيمان كما طرد الشياطينَ عن استراق السمع. ولا شك أن القادر على حفظ السماء قادرٌ على حفظ الذكر المنزَّل من السماء، والقادرَ على طرد الشياطين عن الاستماع قادرٌ على منع المجرمين من الإيمان. فافهم وقِف، وكرر الآيات.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

ولما ذكر أن السماء محفوظة استثنى لا من الحفظ بل استثناءً منقطعا فقال: **إلا من استرق السمع**، بمعنى افتعل، أي طلب أن يَسرِق بالسمع، **فأتبعه شهاب مبين**؛ الشهاب شعلة من نار، ومنه أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ،[5] كما سنبينه[6] في موضعه. والشهاب ههنا إنما يريد به ما يضيء، هو الشعلة من النار، وهو مأخوذ من الشُّهْبة وهو البياض خالطه غيرُه. وقوله: **فأتبعه**، / ينصب مفعولين، ولا يريد: فاتّبعه بتشديد التاء بل ذلك الشهاب [٢٢٨ظ]
أَتبع المُسْتَرِقَ مسترقا قبله استرق بسمعه فأتبعه الشهاب، صاحبه الذي رَجم قبله مِثْلَه. وكذلك الذي قبله أتبعه الشهابُ مَن قبلَه مِن المستمعين المرجومين. والمُبين البيّن. هذا مفهوم هذه العبارة.

[1] الآية ١٠ من هذه السورة.

[2] الآية ٩ من هذه السورة.

[3] ن: بحفظ.

[4] ن: وبطردهم.

[5] ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (سورة النمل، ٢٧/٧).

[6] ك ن: كما نبينه.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ١٩﴾

الموزون وصف للشيء، وهذا كقوله: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ،[١] أي لا يزيد عما أردناه ولا ينقص، وما لا يزيد ولا ينقص فهو موزون وموازن لما قصده به. فالوزن، والحق، والعدل، والقَدْر كلٌّ له معنًى قريبٌ من معنى الآخر. وخصص البعض بالذكر في بعض المواضع بحسب ما يقتضيه سياق الكلام. وقدم هذه الكلمات مقرونة بلفظ الخلق لكونه له: مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ.[٢]

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ٢١﴾

وقوله: وجعلنا لكم فيها معْيش، أي ما يعيشون به. ومعْيش، وزنها[٣] من الفعل مَفْعَلة ومفاعل، مثل مسألة ومسائل ومثلها مدينة. وأما قبيلة وأمثالها فهي فعيلة وفعائل، مثلَ رذيلة ورذائل، وسفينة وعقيدة وقصيدة؛ لأن أصل معيشة عاش، فالميم غير أصلية[٤] بها، وأصل عقيدة ليس كذلك. ومَن، أي لكم ولمن، لستم له برْزقين، أي ليس رزقُه عليكم، فجعلنا له أيضا ما يعيش به، ويريد سائر الناس والحيوان في سائر الأزمان من كل مَن رِزقُه على الله. ولهذا بعده: **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه**. وفي قوله: **وما ننزله إلا بقدر معلوم**، شاهد لقوله: مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ؛[٥] وكذلك قوله: **عندنا خزائنه**، مبيّن لقوله: مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ.[٦]

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾

قوله: لوْقح، أي تَلقَح السحابَ، يقال: لَقِح الفحلُ الناقةَ والريحُ السحابَ. والأصل ملقِحة، ولكنها لا تلقح إلا وهي في نفسها لاقح؛ كأن الرياح لَقِحت بخير، فإذا أنشأت السحابَ وفيها خيرٌ وصل ذلك إليه. ولذلك قال: **فأنزلنا**، كما تقول: غرست فأثمر، وتَعِبت على هذا البيت فاسترحتُ به الآن. واللقاح بالكسر الإبل بأعيانها والملاقح الإناث منها، وهي التي حملت ففي بطونها أولادها، فهي محامل ملاقح، وحوامل لواقح.

---

[١] سورة القمر، ٥٤/٤٩.

[٢] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الدخان، ٤٤/٣٨-٣٩).

[٣] ن: رزقها.

[٤] ن: غير أصيلة.

[٥] الآية ٨ من هذه السورة.

[٦] الآية ١٩ من هذه السورة.

والريح حوامل السحاب. ولم يقل: "وما أنتم له خازنون" لئلا يشتبه "ما" بالذي، و"ما" ههنا نافية، أي الماء الذي أنزلناه من السماء وهو في مقدورنا لا أنكم أنتم خُزّانه. فهذا برهان ما قبله من قوله: وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ.[1]

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

المستقدم هو المتقدم على الأحياء وهو الذي مات، وعكسه المستأخر، وهو الذي لم يُخلَق. فلزم أنه تعالى يعلم ما بين ذلك وهو مدة بقائهم في الدنيا. والمراد عَلِمَهم من سائر الوجوه.[2] ولو قال: علمنا أعمالهم، أو ضمائرهم، أو غير ذلك لم يكن حاضرا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

ولمّا قال: عَلِمۡنَا،[3] لزم الجزاء لعلمه بأعمالهم فقال: **إن ربك هو يحشرهم، إنه حكيم عليم**، فذكر الحشر وأنه يكون للجمع.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾﴾

ثم ذَكر ما يدل على علمه بالمستقدمين والمستأخرين فقال: **ولقد خلقنا الإنسٰن من صلصٰل من حمإٍ مسنون**. وهذا برهان على العلم بدليلِ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ.[4] وقوله: **الإنسٰن**، يريد كل إنسان. ولمّا ذَكر المستقدمين والمستأخرين وأنه يحشرهم ويَعْلمهم ذكر الأصل الذي خلق الإنسان منه وهو آدم. ثم تلا بقيةَ القصة ههنا ليعرّفَنا أن كل إنسان فيه ما يفاديه منه، لأن الفرع تابع للأصل، فقال: **الإنسٰن**، كما نقول:[5] الثمرة من الطين، وإنما الثمرة من الشجرة من الطين. فنذكر ما يتعلق بالشجرة والمراد ما يتعلق بكل ثمرة من ثمرها. ولمّا كان هذا من أبلغ العظات والزواجر ثم [هو] موجب للتحذير من المخالفة كرره مرات ليُعلَم أنه ليس المقصود تلاوةَ ما جرى بل النهي عما هو جارٍ من مثله دائما في كل إنسان وإبليسه؛ إذ العداوة باقية، والشيطان موَسوِس،

---

[1] من الآية السابقة.

[2] ش ك: الوجود.

[3] من الآية السابقة.

[4] ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (سورة الملك، ٦٧/١٤).

[5] ش ك: كما تقول.

والنفس مطيعة له، والعقل ميّال إليها، والمنهي عنه شجرة، وهما[١] يتناولان من ثمراتها شيئا بعد شيء، وباب التوبة مفتوح، والعفو / عن المُقِرّ آدمَ واللعن[٢] على المصرّ إبليسَ. وبالله المستعان.[٣] ولا تَفهم من كلامي هذا أن قصة آدم لم تقع وأنها مَثَل فقط، بل وقع ذلك كلُّه كما أخبر الله. ثم ضرب الله مثلا ليُعلَم بذلك ما ذكرتُه لك ههنا وما لم أذكره[٤] وما لم أعلمه، فاعلم.[٥] والصلصال طين أملس كطين الفَخّار. ويقال: الشحم صلَّ إذا أنتن.[٦] فالمعنى ههنا هو من هذا، لأن طين الفخار يُجبَل ويُخمَّر مدةً، فهو يَصِلّ في أكثر الأمر. ويعضد ما قلناه قولُه: **من حمإ**، أي وذلك الصلصال الذي هو الطين هو، **من حَمَإ**. والحَمَأ والحَمْأَة أيضا بتسكين الميم طين أسود يستقر في قعر البئر، أو البِرْكَةِ[٧] من الماء له رائحةٌ قبيحة في أكثر الأمر. تقول: منه حَمِأْتُ البئر[٨] حَمْأً بالتسكين إذا نزعتَ حَمَأتَها؛[٩] حَمِئت البئر حَمَأً بالتحريك إذا كثرت حَمأتُها. والمسنون من سَنَنْتُ الحديدة على المِسَنّ فتغيرت بالتحديد فهو ههنا المتغير، لأن الحمأة قد تكون[١٠] غير متغير الرائحة. [٢٢٩و]

﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾

والجان خلقنْه من قبل، أي قبل آدم، ليُعلم أن هذا المشار إليه بإبليس ليس هو مثلا فقط، ولا أنه أشار به إلى أمشاج بدن الإنسان ولا غير ذلك مما قيل بألسنة الظانّين. وإن وقعت مناسبة في الكلام من أجل بعض المقاصد كما قدمنا نحن ههنا فليس ذلك بمغيّر للأصل المعتقَد إذا كان مقصودُ النفع لا يَرُدّه شرع ولا عقل، فذلك جائز. وقوله: **من نار السموم**، السموم[١١] الريح الحارّة، يقال منه: سُمَّ يومنا فهو يوم مسموم، والجمع سمائم. قال أبو عبيدة: السموم بالنهار وقد يكون بالليل، والحرورُ بالليل وقد يكون بالنهار.[١٢] ويُحتمل أنها سميت بذلك لأنها تُؤثر ما يُؤثّره السُّمُّ في الأبدان من الفساد

١ وهما: أي آدم وحواء، أو الذكر والأنثى.

٢ ن: واللهن.

٣ ن – وبالله المستعان.

٤ ك: وما لم أذاكره.

٥ ن – فاعلم.

٦ صلّ اللحم يصِلّ بالكسر صُلولا وأَصَلّ: أنتن مطبوخا كان أو نيئا (لسان العرب، «صلل»).

٧ البِرْكَةُ مستنقع الماء، والبِرْكَةُ شبه حوض يُحفر في الأرض لا يجعل له أعضاد فوق صعيد الأرض والجمع البِرَك. (لسان العرب، «برك»).

٨ ش ن: لبئر.

٩ ن: حمقاتها.

١٠ ك ن: قد يكون.

١١ ن – السموم.

١٢ جامع البيان للطبري، ١٩/٣٥٦-٣٥٧.

لشدة حرّها. فخلق الله في العالم العلوي أولا الملائكة، ثم ما بين العلوي والسفلي الجانَّ من نار ينقدح البرق باحتكاك[1] الريح بإذن الله. ثم خلق الإنسان في العالم السفلي من طين رَطْبٍ قد صَلّ وتضاعف صليلُه فهو صلصال، أصله من حمإ ذي رائحة متغيرة مستقرة في قعر جَوْده[2] أو نقيعه. ثم نَشَفَ أكثر الماء فبقي الطين وقد صَلَّ. فالإنسان قبل النفخ أصله من هذا. وقد رأيتَ ما يتعفن من الطين المستقِرّ في الآجام[3] والنقائع[4] والبِرَك وحوافي الأنهار. ويتكيف مع طول الزمان ويَخلق الله منه أنواعَ الحيوانات والضفادع والدُّود وغير ذلك تُشاهده[5] بعينك الباصرة. والله تعالى يَخلقه من طين من[6] حمإ مسنون، ثم يجعلِه حيّا متحركا ذا سمعٍ وبصرٍ وغير ذلك من الأعضاء الرئيسة والمرءوسة. فالذي بقدرته أنشأ ما تراه ولا تُنكره هو الذي خلق آدم من طين. ولما كانت النشأة الأولى في زمن ومدة ليُعلَم أن هذا من فعلِ قديرٍ مختار إذ لم يوجد دفعةً فهو أدل على الحَدث وأبعد عن القِدم والفيض[7] الذي يعتقده بعض الناس. جعل الله النشأة الثانية بنفخة ليُعلَم ما خَفي عن العباد من قدرته سبحانه ولا يُعجَبَ من خلقة آدم من طين. فإنّ خلق ذريته من ماء أعجب، لأن الإنسان يَقدر أن يصوِّر من الطين فرساً وطيرا وغير ذلك ولا يقدر أن يصور من الماء لاستحالةِ تماسك أجزائه. فخلقه الله خلقا من بعد خلق، فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ.[8]

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

وإذ قال ربك للملٰئكة إنى خٰلق بشرا من صلصٰل من حمإ مسنون، والبشر الخلق.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

فإذا سويته ونفخت فيه من روحى، روح منسوبة إلى الله كما تقول: مُلكي. ولهذا

١ ك: باحتكال.
٢ أي في مكانه الواسع.
٣ الأَجَمُ الحِصْن والجمع آجامٌ، والأُجُمُ بسكون الجيم كل بيت مُرَبَّع مُسطَّح (لسان العرب، «أجم»).
٤ النَّقائِعُ خَبارَى في بِلادِ تميم والخَبارَى جمع خَبْراء وهي قاعٌ مُسْتَدِيرٌ يَجْتَمِعُ فيه الماءُ (لسان العرب، «نقع»).
٥ ك: نشاهده.
٦ ن – من.
٧ أي نظرية الفيض والصدور التي يدعيها الفلاسفة في خلقة العالم.
٨ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ١٢/٢٣-١٤).

قال في موضع السؤال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[١] ولم يقل: من روح ربي ولا من ربي لئلا يشتبه موضع البيان وهو الأمر المحكَم الذي يُرَدُّ إليه المتشابهُ من جنسه وفي بابه. والروح مشتقة من الريح، ولهذا قال: **ونفخت فيه من روحى**، والنافخ غير المنفوخ فيه ثم بهما قيل[٢] "إنسان". **فقعوا له سجدين**، إشارة إلى شدة المبادرة بالسجود، فهو كالوقع وهو أفضل السجود.

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾

فسجد الملٰئكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع السٰجدين، ولم يقل: من، لأنه كان من الجن مع الملائكة.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾

قال يٰإبليس ما لك ألا تكون مع السٰجدين، وهذا يعطي أن الأمر إذا كان للأفضل[٣] يعم مَن دونه وأن المعارض بعقله لمن له الأمر إبليس.

﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾

قال لم أكن، بلام الجحد في، **لأسجد لبشر خلقته من صلصٰل من حمإ مسنون**. ولما قال في موضع / آخر: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[٤] غلطَ في القياس [٢٢٩ظ]
وعارض به كلامَ الله. فنبّه على أن من عارض النصَّ بالقياس غَلطَ، فإن لم يتب لُعِن.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾

قال فاخرج منها فإنك رجيم، أي مرجوم.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾

---

١ ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (سورة الإسراء، ٨٥/١٧).

٢ ك: قبل.

٣ ك ن + أن.

٤ سورة ص، ٧٦/٣٨.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قال رب بما أغويتنى، أي عاقبْتَني بالإغواء من أجل آدم لأغوين ذريتَه إلى يوم القيامة. فمعنى "أغويتنى" جعلتَني غاويا إجبارا لي على ذلك. وهذا الأمر كذلك لكنه إجبارُ عقابٍ مستحَقٍ، لأن إبليس اعترف أولا وأقر على نفسه أن ذلك مِن كسبه وفعله بقوله: أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ،[١] لكنه لا بمعنى[٢] الإجبار، إلا أنه لو شاء أن يرجع لم يقدر. وهذا الحال لا يكون إلا بأنه قد سلب المعرفة بذنبه فظن أنه على الحق فأصرّ[٣] عليه وإلا لو عرف الحق لرجع إليه، لأن إبليس كان بعد القول له من الله: "ما منعك"؟ مثل ما كان قبله. فلم ير أن يسجد لغير الله فهو جهل أن امتثال الأمر بالسجود لغير الله بأمر الله هو سجود لله فيما يَعلمه الله وهو أبلغ من السجود لله الذي ضل فيه إبليس.

[إبليس: عدم سجوده وإغواؤه]

وفي هذا الكلام[٤] أبلغ بيّنة على امتثال الأمر ولو كان منافيا لصريح العقل، لأنّ أظهر ما يظهر للعقل ما ظهر لإبليس، وهو أنّ[٥] السجود للخالق أفضل من السجود للمخلوق، ولكن العقل غلط باستبداده وتكبره، وهذه هي الغَلْطة الكبرى. فإبليس من قبلُ قد غوى بذلك أي جهل، فعوقب على ذنبه بأن يبقى على ذنبه جاهلا به، فهو مُصرّ إلى يوم القيامة معاقَب بالإغواء في الدنيا. فافهم هذه الكلمة بهذا الشرح في جميع مواضعها. فأراد إبليس أن يوقع أولادَ آدم فيما وقع فيه بسبب آدم، ولا يكون هذا إلا إذا خالفوا الأمر كما خالف. فإذا أُجبِروا عقابا على خُلفهم أصرّوا كما أصر، فكانوا أولا تبَاعه وآخِرا من حزبه. فلهذا قال الله: فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ،[٦] وقال: لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ [وَمِمَّن تَبِعَكَ] مِنۡهُمۡ [أَجۡمَعِينَ].[٧] وفي هذه القصة عبرة وتنبيهات يُمكن أن يَستنبط منها اللبيبُ مجلَّداتٍ، ولهذا كررها الله بعده صورا[٨] من زيادة ونقصان ولو بحرف. فمن جملة التنبيهات ما قد نرى بعض الناس يتعمده[٩] من البغض والضرر لولد من كانَ قد تأذى هذا المؤذَى بوالده،

١ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ (سورة الأعراف، ١٢/٧؛ وسورة ص، ٧٦/٣٨).

٢ جميع النسخ: لا معنى.

٣ جميع النسخ: فيصر.

٤ ش + من السجود لله الذي ضل فيه إبليس.

٥ ن – أن.

٦ ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ (سورة الإسراء، ٦٣/١٧).

٧ سورة ص، ٨٥/٣٨.

٨ جميع النسخ: صور.

٩ جميع النسخ: يعتمده.

وهذا مما لا يجوز فعله مع الولد. ولو نظر المؤذي للولد لعلم أنه إنما وصل إليه الأذى بذنبه كما وصل إلى إبليس بذنبه. فجعل من جهله بحاله وعماه عن كسبه يقول عن أولاد آدم: لأُزَيِّنَنّ لهم فى الأرض، أعمالهم وعقائدهم وما تَنزع إليه أنفسهم ويَلُوح ترجيحه في عقولهم مما يخالف أمر الله. ولَأُغوينّهم أجمعين. قال: بعض[1] من يجوِّز أن يُحمل كلام الله تعالى ههنا على ما تأوّله فأثبتناه لينتفع به من يحتاج إليه وإن كانت حقيقةُ كلام الله غير ذلك، ولكن لا بأس به.

[وجوب سجود الإنسان لإنسانيته]

اعلم أن كل إنسان مدعوّ من الله إلى السجود لإنسانيته بالمعنى، أعني بالسجود الطاعةَ البالغة بحيث لا يعصي إنسانيته بوجه بل يطيعها حسب إمكانه. فإذا سجد لها فهو ساجد لله، لأنه لا يرى في هذا العالم غيرها. فمتى لم يُطِعْها فهو إبليس الذي لم يَسجد لآدم، لا فرق. وأعني بالطاعة ههنا أن يطيعها في الأمر الإلٰهي [لا غير]، وهو ما جاء في القرآن، لا أن يطيعها من حيثها بل من حيث الأمرُ فقط. فإن أشكل عليك معرفةُ الإنسانية لكونها[2] هي المطيعةَ لإياها، إذ هي المؤتمرة بالأمر الإلٰهي وهي الآمرة لها به، فافهمه من قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ،[3] فهو المزكي والمزكَّى بأمر الله. فإن لم تفقه إلا بالمثال فاجعل النفس بمنزلة إبليس والعقلَ آدمَ، وأَلْزِمْها بطاعة العقل في الأمر خاصة. ولما كان الجسم آلة للنفس تارة وللعقل تارة، وأعني بالنفس الشهوانيةَ، وأعني بالعقل النفس العاقِلةَ، إذ ليس إلا النفسُ المتصفة بالشيء وضدِّه بحسب اختيارها فيما مكّنها الله منه وخاطبها بالأمر والنهي فيه خاصة لا غير. فلمّا كان الأمر كذلك جاءت الشرائع بالأعمال البدنية كالوضوء، والصلاة / والصوم؛ [٢٣٠و] وجاءت أيضا بالمعقولات كالتوحيد، وإصلاح العقائد، ومكارم الأخلاق، وانكشافِ العلم النافع. فهذه رتبة المؤمن وتلك رتبة المسلم دون الإيمان. وفوق رتبة الإيمان رتبةُ الإخلاص، إذ كل مرتبة درجةٌ إلى ما فوقها. فمتى صار ما نَدَبت إليه الشريعة من العبادات العقلية بعد البدنية مَلَكة للنفس بحيث لا يبقى لها مَنْ إيّاها مُنازعٌ فقد عادت مَلَكا ساجدا لإنسانيتها التي هي ههنا اتباع الكتاب لا غير. ويكون هذا السجود

[1] ك ن – بعض.
[2] ن: فكونها.
[3] سورة الأعلى، ١٤/٨٧.

الذي معناه طاعةُ ذاتِها لذاتها في الأمر خاصة هو بعينه سجودٌ لله وإن كان لها بأمر الله، وهذه هي المَخْلَصة التي قال فيها: **إلا عبادك منهم المخلصين.**

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

إن عبادى ليس لك عليهم سلطٰن إلا من اتبعك من الغاوين، لك عليهم سلطان.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

لها سبعة أبوٰب لكل باب منهم جزء مقسوم، أي جزء من التابعين والأتباع له على سَبْعِ صورٍ. قال بعضهم: يجب أن يجتنب الشيطان باجتناب ما نهى الله عنه. وذلك محصور في سبع صور. وهي خَمْسُ[1] حواسّ، واللسان، والقلب.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾

ولمّا ألْحَق هؤلاء بإبليس وصف من بقي من الناس وهم صنف واحد وهم الذين اتقوا ما كان عليه هؤلاء السبعة. فقال: **إن المتقين فى جنّٰت وعيون.**

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾

ونزعنا ما فى صدورهم من غل، الغل هو ما أُخفي في الصدور من غِشٍّ وحِقدٍ وضِغن ومثله. والغِلالة ما يلبس تحت الثياب، والاغتلال من ذلك أيضا. يقال: نِعْمَ غَلول الشيخ، أي الطعام الذي يُدخله جوفَه. وغَلّ من المغنم[2] غُلولا وأغل إذا أخفى خائنا فيما غله. وهذه الحالة أعني نزْعَ الغِلّ هي من كبائر النِّعَم، ومَن رُزقها في الدنيا فقد طابت حياته. **إخوٰنا علىٰ سرر متقٰبلين،** نصب "إخوانا" على الحال.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

لا يمسهم فيها نصب، تعب. **وما هم منها بمخرجين.**

---

[1] ك ن: الخمس.

[2] ش ك: من المغتم.

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾
﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ونبئهم عن ضيف إبرٰهيم، إذ دخلوا عليه فقالوا سلٰما، قال إنا منكم وجلون. لمّا ذُكر هذه القصة في موضع آخر حذف ههنا بعضَ الكلام وهو قوله: قَالَ سَلَٰمٌ.[1] والوَجَل الخوف. تقول منه:[2] وَجِلَ وَجَلًا، والموجِل اسم المكان كالموعد. وفي المستقبل منه أربع لغات: يَوْجَل ويَاجَل ويِيجَل[3] بكسر الياء، والأمر منه ايجَلْ. وتقول:[4] إني منه لأَوْجَلُ ولا يقال: للمؤنثة وَجِلا بل وَجِلَة.

﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾
﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

قال أبشرتموني علىٰ أن مسني الكبر فبم تبشرون، أي والحالة هذه، أي إذا كان الكبر قد مسني فمَن الذي يفرح بالولد.

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قالوا بشرنٰك بالحق فلا تكن من القٰنطين، مما بشرناك به لكبر سنك.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾
﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

قال فما خطبكم أيها المرسلون، الخطب سبب الأمر. تقول: ما خطبك، أي ما سبب ما أنت عليه من حركة أو سكنة. **قالوا إنا أرسلنا إلىٰ قوم مجرمين، إلا ءال لوط إنا لمنجوهم أجمعين، إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغٰبرين**، قدرنا من القَدَر المحتوم. والغابر الماضي، والغابر الباقي، وهو من ذوات الأضداد. وهذه اللفظة ههنا أولى بالماضي.

[1] ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ (سورة هود، ٦٩/١١-٧٠).

[2] ن – منه.

[3] ك: ويجيل.

[4] ك ن: ويقول.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢﴾

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣﴾

قالوا بل جئنٰك بما كانوا فيه يمترون، يشكّون ويختلفون، لأنه كان قد أنذرهم وهم يُمارونه.

﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ۝٦٤﴾

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥﴾

فأسر بأهلك بقطع من اليل، تذكير قطعة. **واتبع أدبٰرهم**، أواخر أهلك. **ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون**. وفي التوراة مكتوب أن امرأته التفتت لَفْتة إلى ورائها فصارت نُضبة مِلْح.[1] فانظر ماذا يُفهَم من قصة هؤلاء المأمورين بالخروج عن أوطانهم وإلى نهيهم عن الالتفات إلى ما خرجوا عنه من مَآلفهم وأقرانهم. وبعد هذا فَهُم لا يعلمون أين يذهبون بل حيث تؤمرون. فيا ساكن سَدُوم![2] كم تلتفت إليها وتُقيِّد باطنك بوطنك منها وبجيرانك السوء فيها وهي في كل[3] طرفة عين تَقْلِب بك من حال إلى حال، فمتى تمضي حيث تؤمر، **فأسر بأهلك بقطع من اليل، أن دابر هٰؤلاء مقطوع مصبحين**، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ.[4]

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾

[٢٣٠ظ] **وقضينا إليه ذٰلك الأمر أن دابر هٰؤلاء مقطوع مصبحين**،[5] / منصوب على الحال. وقوله: وقضينا، بمعنى أوحينا إليه بألسنة الرسل ما قضينا به من الأمر جزاء لقومه فحكى ما أُعلموه به[6] قبل وقوعه. ثم قال:

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ذكر في التوراة: «ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود مِلْح» (التكوين ١٩/٢٦).

[2] سدوم: قصبة قرى قوم لوط. وهي بين الحجاز والشام. كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياهًا وأشجارًا وحبوبًا وثمارًا، والآن عبرة للناظرين. وتسمى الأرض المقلوبة لا زرع بها ولا ضرع ولا حشيش، وبقيت بقعة سوداء فرشت فيها حجارة (آثار البلاد لزكريا القزويني، «سدوم»). وانظر أيضا: الروض المِعطار للحِميري، «سدوم».

[3] ك ن – كل.

[4] الآيتان ٧٥ و٧٦ من هذه السورة.

[5] ش – إن فى ذٰلك لآيٰت للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم وقضينا إليه ذٰلك الأمر أن دابر هٰؤلاء مقطوع مصبحين، صح هـ.

[6] ك ن: ما أعلموه به.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨﴾
﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾

واتقوا الله ولا تخزونِ، قالوا أولم ننهك عن العٰلمين، هذا يُعلم من قولهم: إِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ،[1] أي عن التوبيخ لنا وعن نهينا وعما تقوله وتأمرنا به. وقولهم ههنا: **عن العٰلمين**، إشارة إليهم، لأنهم نهوه عن الوعظ والدعوة، أي لا تَدْعُ أحدا من الناس، فهم من جملة الناس. فلما قال: **واتقوا الله**، وما شاكل ذلك فقد عاد إلى ما نَهَوْه عنه من الدعوة، فافهم ذلك.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾

قال هٰؤلاء بناتى إن كنتم فٰعلين، يريد بقوله: **هٰؤلاء**، الملائكة. والمعنى كما تقول عمن تريد أن تشفع فيه وتمنعَه من خصم يريد به سوءًا فتقول: هذا ولدي، أي إن كنت ممن يفعل هذا بولدي فافعل به. وإنما قال لهم ذلك، لأنهم قالوا له من قبل: لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقٍّ.[2] ولما كان لوط عليه السلام قد قال لقومه أقوالا كثيرة ليَردَعهم بصُوَرٍ مختلفة من القول جاء الخطاب لهم في كل موضع محتملا لصورة غير الصورة الأخرى إنباءً[3] عن ذلك.

﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٢﴾

فلمّا قال هذا ومثله لقومه فأبوا قالت له الملائكة: **لعمرك**، أي وحياتِك، **إنهم لفى سكرتهم**، سكرة الجهل، **يعمهون**. ذكر الله ههنا أن هوى أنفسهم أعمى بصائرَهم. وذكر في التوراة[4] أن أبصارهم عميت عن[5] باب لوط فكانوا طولَ الليل يُجسّسون حيطانَ البيت وقد أخذتهم الشَّبْكَرَة.[6]

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ۝٧٣﴾

فأخذتهم الصيحة مشرقين، عند شروق الشمس عليهم.

---

١ ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ (سورة الشعراء، ١٦٧/٢٦).
٢ ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (سورة هود، ٧٩/١١).
٣ ن: أنبأ.
٤ انظر لمعرفة المزيد: التكوين ١٩/٤-١١.
٥ ك: عمن.
٦ ن: السكرة. | الشبكرة: هو العشا يكون في العين (تاج العروس للزبيدي، «شبكر»). وانظر أيضا: تهذيب اللغة للأزهري، «شبكر».

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

فجعلنا عٰليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، طين مطبوخ. **إن فى ذٰلك لآيٰت**، علامات ولم يقل: لآية، **للمتوسمين**، تدلهم على صحة الجزاء. والمتوسم هو المتفرس بنظره كأنه يَسِمُ لكل شيء يراه بعينه شيئا يراه بخاطره فيحكم بالشيء قبل وقوعه ويرى آخره بأوله.[1]

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

وإنها لبسبيل مقيم، وإن المدينة في طريق مقيم ليكون عبرةً للأمم. **إن فى ذٰلك**، السبيل والأول في ذلك جرى، **لآية للمؤمنين**.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

وإن كان، أي وإنه قد كان، **أصحٰب الأيكة لظٰلمين**، وهؤلاء أُرسل إليهم شعيبٌ أيضا فظلموا أنفسهم بتكذيبه.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

فانتقمنا منهم وإنهما، أي لوط وشعيب، ولهذا لم يقل: وإنهم، **لبإمام مبين**، والإمام التوراة، لقوله: وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً.[2] وقد ذكر لوط[3] وشعيب في التوراة.[4]

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾

ولقد كذب أصحٰب الحجر المرسلين، وهم ثمود، والحجر[5] واديهم، وقيل: هو بين المدينة والشام. ومن كذّب رسولا فقد كذب الرسل.

واعلم أن تكرار القِصص والمعاني وإن كان لا يكون إلا لزيادة فائدة. فمن فوائده

---

١ ن: بأدلة.

٢ سورة هود، ١١/١٧؛ وسورة الأحقاف، ٤٦/١٢

٣ ورد هذا الاسم في مواضع كثيرة في التوراة، منها ما ورد في التّكوين ١٢/٤-٥، ١٣/١، ٥، ٧-٨، ١٠-١٢، ١٤، ١٤/١٢.

٤ انظر لمعرفة المزيد: التوراة، الخُرُوج ٢/١٥-٢١.

٥ الحجر: ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، بها كانت منازل ثمود، وبها أيضا بئر ثمود التي كان شربها بين القوم وبين الناقة (آثار البلاد لزكريا القزويني، «الحجر»).

أن المخاطب إذا خاطب ذا الذهن البعيد وأراد أن يوصل إلى ذهنه وفهمه معنى من المعاني غيّر له العباراتِ وكثّر له الأمثال وكرّر عليه الألفاظ وفعل مثلَ[١] ذلك كثيرا إلى أن يصل إلى ذهنه، فإن المعنى الواحد إذا أتى من عِدّة طرُقٍ صحيحة في العقل كان ذلك أبلغَ في تثبيت الصدق وطمأنينة القلب.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ءامنين، ولم يقل: في الجبال بل أشار إلى حجارة هائلة في الكبر لبيوت يفعلون ذلك آمنين من الموت، كأنهم مخلَّدون في الدنيا. **فأخذتهم الصيحة مصبحين. فما أغنى**، في دفع العذاب، **عنهم ما كانوا يكسبون**.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾

وما خلقنا السمٰوٰت والأرض وما بينهما إلا بالحق، بيّنّا كيف ذلك في قوله: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[٢] ولهذا نبّه ههنا على ذلك بقوله: **وإن الساعة لآتية**، أي فتجزى كل نفس بما كسبت.[٣] **فاصفح الصفح الجميل**.

[السِّلْم والقتال في الإسلام]

ليست هذه منسوخة كما قيل. وإنما أمر الله رسوله بالصفح الجميل أبدا، وأمره أن يأمر المؤمنين بقوله: قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ،[٤] أي للغافر مغفرة وللمسيء سيئة. وكذلك قوله لرسوله: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ،[٥]

[١] ن – مثل.

[٢] سورة الذاريات، ٥٦/٥١.

[٣] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ (سورة المؤمن، ١٧/٤٠).

[٤] سورة الجاثية، ١٤/٤٥.

[٥] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ (سورة النساء، ٦٣/٤).

[٢٣١و] وقوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾[1] وأمثال ذلك.[2] وهذا جميعه لا يناقض آيةَ السيف[3] / ولا مثلَها.[4] فإنه عليه السلام أمره الله تعالى بالبلاغ.[5] فلما قاتل الكفارُ المؤمنين فرض الله عليهم القتال بعد ذلك، والصفحُ باقٍ على حاله وحكمه الأولِ يستعمله الرسول في موضعه. ولو لم يكن كذلك لكان الصفح حينئذ يلزم عنه إبطال ما جاء به كلام الله تعالى من الأمر والنهي وإقامة الحدود، لأن الصفح على دعوى الخصم يلزم عنه أن يصفح عن الزاني والقاتل وآكلِ[6] الربا. ولا فرق بين من قتل الكافر وقتل القاتل من المسلمين. فمَن فَهِم إطلاق الصفح عن كل واحد فهو يقول بالنسخ، ومن فهم أن الصفح لا يلزم عنه مخالفة الأمر فلا نسخَ يَلزمه.

فإن قال: إذا كان المأمور بالصفح عنه هو المأمورَ بقتله بعينه؟ قلنا: لا يلزم في كل مكان أن الله تعالى يبين لنا سائرَ ما يتعلق بالأحكام في ذلك المكان ولا أن يجاوب عن كل ما يَرِدُ من الإشكال، بل يبين في الموضع الأليق بالبيان كما يبين المتشابه بالمحكم. ومثل هذا قد بينه في المحكم بقوله: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾،[7] أي الأمر بالقتال. وهذا تخصيص زمنٍ لا نسخٌ. وإن سميته نسخا فجائز عندنا، لأنه لا يَنقض ما أصّلْنا. ثم إن هذا الحكم معناه واصفحوا عن القتال، وإن تناول الإطلاق. ولا يلزم أن يُستعمَل الصفح عما يجب فيه القتال لئلا يلزم عن الحدود أيضا كما قدمنا، بل يلزم في حالة السِّلْم وفي غير الحدود كما أمر الله رسوله عليه السلام، ولو سالمه سائرُ الخلق لسالمهم. وأما اليهود وأمثالهم فإنه تعالى أمر بقتالهم حتى يُعْطُوا الجزيةَ،[8] والصفح منه عليهم باق إذا أَعْطوا. ولا يجوز أن يكون عليه السلام مأمورا بالصفح

---

١ ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٩٩/٧).

٢ ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (سورة النساء، ٨١/٤)؛ و﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام، ١٠٦/٦)؛ و﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ (سورة السجدة، ٣٠/٣٢)؛ و﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ (سورة النجم، ٢٩/٥٣).

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ (سورة التوبة، ٥/٩).

٤ انظر: سورة التوبة، ١٢/٩، ٣٦، ١٢٣.

٥ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (سورة المائدة، ٦٧/٥).

٦ ن: وأكل.

٧ سورة البقرة، ١٠٩/٢.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٢٩/٩).

عنهم إذا قاتلوا ولا حين القتال. وكذلك المشركون أمر بقتالهم حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فذلك قُبالة الجزية من أهل الكتاب.[١] فمن قال ذلك رفع عنه القتال آمن بقلبه أو لم يؤمن.[٢] فلا يَغْفُلْ عن قوله: وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا.[٣] وكذلك ما قسمه الله تعالى بقوله: فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا.[٤]

واعلم أن الصفح إذا كان مطلقا ثم خرج قوم من حكمه[٥] فلا يكون[٦] الصفح نفسُه منسوخا بخروج مَن خرج من حكمه، بل بقي حكم الصفح جاريا على من لم يخرج، فافقه. هذا مثالُه لو قال: "اِصْفَحْ عن الكل وقاتل هؤلاء" لكان المراد اصفح[٧] عن سوى هؤلاء. ولا فرق بين أن يأتي هذا الكلام جملة أو في زمانين. فافهم هذا جيدا لتتحقق[٨] أنه لم يزل صلى الله عليه وسلم يعفو ويصفح ويغفر للبَر والفاجر والمؤمن والكافر إلا في حدودٍ وأوامرَ. فإنه كان الأولى بإقامتها والأمرِ بذلك كما علّمه خالقُه سبحانه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

إن ربك هو الخلّٰق العليم، أي فاصفح أنت، والذي خلق هو الذي يعلم فيجازي.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

ولقد ءاتينٰك سبعا من المثاني والقرءان العظيم، هذا يأتيك بيانه عند قوله: ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ.[٩] واعلم أن المراد بالمثاني هو من التثنية، كقوله: مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ.[١٠] والمثاني جمع مثنى وهي الأحرف المتقدمة أمام السور، لأنها أربعةَ عشرَ حرفا، فهي سبعٌ مثانٍ آخر. ولهذا قال: والقرءانَ، بواو العطف بعد ذكر "المثانى"، وذلك بيِّن في الكلام المجمل الذي قدمناه على الأحرف المفردة فطالعه.

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة، ٥/٩).

٢ ن ك: بقلبه ولم يؤمن.

٣ سورة الأنفال، ٦١/٨.

٤ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (سورة النساء، ٩٠/٤).

٥ جميع النسخ: حكمة الأيام، والمثبت من م.

٦ جميع النسخ: أن يكون، والمثبت م.

٧ ن: صفح.

٨ ن: لتححق.

٩ سورة الزمر، ٢٣/٣٩.

١٠ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (سورة النساء، ٣/٤). وانظر أيضا: سورة فاطر، ١/٣٥.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ٨٨﴾

ولما منّ عليه بما آتاه من الباقي أمره أن يعرض عن الفاني فقال: **لا تمدن عينيك إلىٰ ما متعنا به أزوٰجا منهم**، إذا وقع بصرُك على النساء لا تمدن عينيك ناظرا إليهن؛ وهو أيضا نهى عن الابتداء بالنظر، كما يقال:[1] لا تَمدَّ يديك إلى السَّرِقة، أي لا تَسْرِق ولا تمد يدك وإن لم تسرق، فقد نهى عن المد إلى الجهة قبل أن يصل إلى الأخذ. **ولا تحزن عليهم**، ولم يقل: عليهن، لأن المراد على الرجال بما فتنهم[2] به من النساء. وبيّن ذلك في قوله: زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ.[3] والمراد ههنا الكفار، فهو من بابِ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ،[4] وتمامِه، ولهذا بعده عن المؤمنين: **واخفض جناحك للمؤمنين**. لما كان الجناح هو الذي يكون به الرفع ذكره استعارة عند ذكر الخفض إشارة إلى خفض ما يكون به الرفع.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ٩٠﴾

[٢٣١ظ] /**وقل إنى أنا النذير المبين**، أي أنذرتكم أن ينزل الله عليكم، **كما أنزلنا على المقتسمين**، قيل: من القِسمة والتفريق، وقيل: من القَسَم، لأنهم كانوا يُقسِمون أن القرآن مفترًى، وكلاهما صحيح مما وقع. فلما قدم القول بما جرى على الأمم المهلَكة ممن ذكرهم في هذه السورة عاد الإنذار للمخاطَبين من زمن الوحي إلى يوم القيامة وجمع الخطاب بنون العظمة وهي في موضع جَمْع كقوله: فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا.[5] وسمى المذكورين في السورة ههنا مقتسمين.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٩٣﴾

ثم بيّن المراد بهذه اللفظة فقال: **الذين جعلوا القرءان عضين**، وهي مشتقة من العَضِيهَة[6]

---

١ ش: كما تقوله.

٢ ك: بما فتنهم.

٣ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (سورة طه، ١٣١/٢٠).

٤ ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٨٥/٩).

٥ ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٨٠-٨١).

٦ العَضَه والعِضَة والعضيهة: البَهِيتة وهي الإفك والبهتان والنميمة. قال الجوهريّ: جمع العِضَة عِضُون، وقال الفَرّاءُ: العِضُونَ في كلام العرب السِّحْر. وجعله من العَضَه، ونقصانُه الهاء وأصله عِضْهَة، فاستثقلوا الجمعَ بين هاءين فقالوا: عِضَةٌ. ويقال: واحدها عِضَةٌ، وأصلها عِضْوَةٌ مِنَ عضَّيْتُ الشيءَ إذا فرّقْته (لسان العرب، «عضه»؛ وتاج العروس للزبيدي، «عضه»).

وهي البهيتة[١] من البهتان والإفك. وقال الكسائي: العِضَه بالهاء الكذبُ والبهتان؛ وجمعها عضون مثل عِزَة وعِزُون، وغيرت اللفظ فنقلت من الواو إلى الياء للوِزان. ولا شك أن اليهود وغيرهم من الكفار كالمذكورين في هذه السورة[٢] جعلوا القرآن أكاذيب. فهم وإن كانوا مقتسمين في الأزمنة والآراء والأديان لكن كلهم اجتمعوا على هذا الجَعْل. فقال الله تعالى: **فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون**، القول يدخل في العمل.

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾

فاصدع، الأسماع والقلوبَ مُنذرا، **بما تؤمر**، وهو من الصدع الذي هو ضربٌ يَشُقّ المضروب. **وأعرض عن المشركين**، أي لا تخف منهم فهو إعراض إهمالٍ[٣] وترك مبالاةٍ بهم. لهذا بعده: **إنا كفينٰك المستهزئين، الذين يجعلون مع الله إلٰها ءاخر فسوف يعلمون**. وفي كل موضع يجب أن يُفهم من الإعراض بحسب المجاور له أحسنَ ما يُفهَم.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾

ولقد نعلم، بمعنى علمنا فيما مضى ونعلم في المستقبل، **أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك**، إذا[٤] قال الحمد لله فهو تسبيح بحمده.[٥] **وكن من السٰجدين**.

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾

واعبد ربك حتىٰ يأتيك اليقين، وهو ما وعدناك به من الانتصار وتواعدناهم به من الانكسار. وقيل: هو موتهم وإهلاكهم. وقيل: هو الموت مطلقا، لقوله: وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ،[٦] وذلك في سورة الحاقة، ومثله في سورة الواقعة: إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ.[٧] ولا يدل النص في السورتين على الموت بل المراد القرآن. وبين ما اشتبه في الواقعة بما في الحاقة، فافهمه، والمراد هو ما قلناه. والله أعلم.

---

١ ك: البهية.

٢ جميع النسخ: في هذه السور.

٣ ك - إهمال، صح هـ.

٤ جميع النسخ: إذ، والمثبت من م.

٥ ن: بحمد.

٦ سورة الحاقة، ٥١/٦٩.

٧ سورة الواقعة، ٩٥/٥٦.

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾

أتى أمر الله، أي كأنكم به وقد أتى، كما تقول:[١] كأنك بالعُمُرَ قد وَلَّى، فتحذف وتقول: وَلَّى العمر، ومثله راح الوقت. **فلا تستعجلوه، سبحٰنه وتعٰلىٰ عما يشركون.**

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

ينزل الملٰئكة بالروح من أمره، يقال: روحاني بالضم وجسماني. والروح ههنا قيل: القرآن. ولفظ الجمع إشارة إلى الملائكة النازلة مع القرآن ومع الكتب المنزَّلة قبله، وهذا كقوله: وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا.[٢] وذلك تعظيما[٣] لِما أنزله[٤] سبحانه من كلامه والروح. ولهذا قال بعضهم[٥] سماه روحا استعارةً للقرآن[٦] كما سماه نورا[٧] مبالغة في وصفه، كما تقول: فلان أسد. فلما كانت الأرواح لا قيام للأجساد إلا بها وكان كلام رب العالمين كذلك سماه الله تعالى روحا،[٨] إذ به ينتظم شَمْلُ العالمين وهو قوامهم في الدنيا والآخرة. فالمراد بالروح القرآن في جميع المواضع إلا ما بيّنه الله تعالى كقوله: نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ.[٩] ولهذا لم يقل ههنا: ينزل الملائكة والروح لئلا يُنسَب إلى جبريل، بل قال: **بالروح من أمره**، ثم قال: **علىٰ من يشاء من عباده**، المرسلين في كل زمن، **أن أنذروا أنه لا إلٰه إلا أنا فاتقون.**

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾

---

[١] ك: كما نقول.

[٢] سورة الشورى، ٥٢/٤٢.

[٣] جميع النسخ: تعظيم، والمثبت من م.

[٤] جميع النسخ: لما أنزلناه، والمثبت من م.

[٥] جميع النسخ – ولهذا قال بعضهم، والمثبت من م.

[٦] م – للقرآن.

[٧] مثلَ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ (سورة النساء، ١٧٤/٤).

[٨] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ (سورة الشورى، ٥٢/٤٢).

[٩] سورة الشعراء، ١٩٣/٢٦.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾

خلق الإنسٰن من نطفة فإذا هو خصيم مبين. الخصيم من الخصومة، أي مُبِين لِما في نفسه. والأولى أنه ههنا بمعنى خصيم لربه.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾

والأنعٰمَ خلقها لكم فيها دفء، ما يُستدفأ به، **ومنٰفع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون،** أي تريحون الأنعام في مراحها، **وحين تسرحون.**

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾

وتحمل أثقالكم إلىٰ بلد لم تكونوا بٰلغيه إلا بشق، من المشقة،[1] **الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم. والخيلَ والبغال والحمير لتركبوها،** هي أولى بالركوب فذكرها مع الأُولى، والأكل جائز [ذكرها] مع موضع آخر. ولمّا كانت الأنعام أولى بالوصفين: الأكل والركوب ذكرهما معا، **وزينةً، ويخلق ما لا تعلمون،** الأَولى بالمفسر ههنا السكوت.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩﴾

[٢٣٢و] **وعلى الله قصد السبيل،** القصد / العدل. ومنه قوله: وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ،[2] أي اعتدل فامش معتدلا لا مَرَحًا. فعرّفَنا سبحانه أنه عليه حق لخلقه، وذلك أن يهديهم إلى قصد السبيل وعليهم السلوكُ. وهذا كقوله: إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ.[3] وقوله: **ومنها جائر،** من قرأها غير مهموزة[4] أراد أن من السُّبُلِ ما هو مائل عن القصد، وهي سبيل الكفر والضلال. فهداهم إليها ليتركوها فيُؤْجَرُوا على ترك[5] سبيل الكفر، كما يؤجروا على سلوك سبيل الهدى. وهذا أبلغ في نعمة المنعِم أن يكتب الأجر بالشيء وضده. ويكون معنى: **ولو شاء لهدىٰكم أجمعين،** بهذه القراءة أنه لو شاء لأجبركم على قصد السبيل

---

[1] ش – من المشقة، صح هـ.

[2] سورة لقمان، ١٩/٣١.

[3] سورة الليل، ١٢/٩٢.

[4] الجَوْرُ: نقيضُ العدل. جار عليه يجور جورا في الحكم: أي ظلم. والجَوْرُ: ضدّ القَصْد أو الميلُ عنه أو تركُه في السير. وكل ما مال فقد جار (تاج العروس للزبيدي، «جور»).

[5] جميع النسخ: فيؤجروها على تركها.

فلم يقدر أحد على سلوك سبيل الضلال بوجه، ولهذا قال: **أجمعين**. فيكون مفهومُ[1] الآية الإعلامَ بقدرته تعالى على الإجبار، لكنه بخلاف مقتضى الحكمة التي من أجلها كان الكسبُ. فلذلك لمْ يفعله مع القدرة عليه وعلى ما شاء سبحانه. وأما من قرأه بالهمزة فمعناه من الجأر، والجأر[2] للأسد[3] صوته، أي ومن المخلوقات جَائِرٌ له جَأْرٌ. وذلك أنه لمّا قال: **ويخلق ما لا تعلمون**، وقد قدم ذكر الحيوانات المعلومة فعطف عليها بقوله: ومنها، في قراءة الهمزة، وفي غير الهمزة[4] تكون[5] الإشارة إلى السبل. وقوله في هذه القراءة بالهمز: **ولو شاء لهدٰىكم أجمعين**، بمعنى كما هداكم إلى سُبُلها وأجناسها ومنافعها مع أنها غير عاقلة[6] تعقل[7] كعقولكم فألهمها وهداها إلى ما لا بد لها منه. **ولو شاء لهدٰىكم**، وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ،[8] والأول أولى. واعلم[9] أن الله تعالى هدى الناس أجمعين بكلامه وبما وهبهم من العقول. وذلك هو معنى قوله: إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ.[10] وقوله ههنا: **ولو شاء لهدٰىكم أجمعين**، أي بعد الضلال المستَحَقّ بفعلكم، لأنه لمّا قال: **وعلى الله قصد السبيل**، جاز أن يسلك بعض الناس القصد وبعضهم غيره. فمن سلك غيره أضله الله وبقي السالك الأول مهديا. **ولو شاء لهدٰىكم أجمعين**، لكنه كان يُبطل غرضَ التكليف، فافهم ذلك.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾

ولمّا أنبأ عن قدرته على الهدى لهم أجمعين ذكر برهانَ القدرة فقال: **هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون**، السائمة.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾

ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعنٰب ومن كل الثمرٰت، "من" لتبيين الجنس. **إن فى ذٰلك**، الماء، **لآية**، ولهذا لم يقل: لآيات، **لقوم يتفكرون**.

---

[1] ن: فيكون منهم.
[2] ن - والجئر.
[3] ن ك: الأسد.
[4] ك ن: الهمز.
[5] ك: يكون.
[6] ش: قائلة.
[7] ك: يعقل.
[8] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (سورة المائدة، ٥/٤٨).
[9] ش: وعلم.
[10] سورة الليل، ٩٢/١٢.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾

وسخر لكم اليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرٰت بأمره، أي جعلها بأمره مسخراتٍ. بعد قوله: وسخر لكم، يُفْهَم الدوام الذي يُعطي كمال القدرة. ولهذا بعده في الأعراف: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾[1] فتلك الآية مبينة لقوله ههنا. ثم لمّا كان الكلام في مسخرٰت، قال بعده: إن فى ذٰلك، أي المقدم ذكره من المسخرات، لآيٰتٍ لقوم يعقلون.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾

وما ذرأ لكم فى الأرض، الحيوان يذرؤكم[2] فيه،[3] مختلفا ألوٰنه إن فى ذٰلك، الذي ذرأ، لآية لقوم يذكرون، بالنشأة الأولى النشأة الثانية.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾

وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك، السفن، مواخر، مخرت السفينة تَمْخُر وتمخَر[4] مَخْرا ومُخُورا إذا جرت تشق الماءَ بصوت، فيه، وفي سورة الملائكة ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾.[5] المعنى أن ههنا وَصَفَ الفلك وهناك وصف البحر، ولهذا قال هناك: ﴿لِتَبۡتَغُواْ﴾، ليعود الابتغاء على المواخر، وهنا يعود على قوله: فيه، فزاده واوا عطفا على قوله: لتأكلوا منه، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. ولما كان الابتغاء بالفُلْك ينقسم إلى قسمين، أحد القسمين ما هو في البر من البَحَائِر،[6] والآخر ما هو في البحر من الصيد ذكر الفلكَ في الصورتين.

---

[1] ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ (سورة الأعراف، ٥٤/٧).

[2] ش ك: يدرؤكم.

[3] فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾ (سورة الشورى، ١١/٤٢).

[4] ك ن: تمخر.

[5] ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (سورة فاطر، ١٢/٣٥).

[6] جميع النسخ: من التجائر. | البحائر جمع البَحِيْرة، وقال أبو إسحاق النحويُّ: أَثبتُ ما رُوينا عن أهل اللغة في البحيرة أنها الناقة كانت إذا نُتِجَتْ خمسةَ أبطنٍ فكان آخرهَا ذكَرا بَحَروا أُذنها، أي شقُّوهَا، وأعْفَوا ظَهْرَها من الركوبِ والحمْل، والذَّبح، ولا تُحَلأُ [أي ولا تطرد] عن ماء ترده، ولا تُمنَع من مَرْعًى (لسان العرب، «بحر»؛ وتاج العروس للزبيدي، «بحر»).

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

وألقىٰ فى الأرض روٰسى أن تميد بكم، تميل وتهتز، ومنه المائدة، ومن أصله الميدان وهو موضع المَيْد،[1] **وأنهٰرا وسبلا لعلكم تهتدون**، في البر. **وعلٰمٰتٍ وبالنجم هم يهتدون**، في البر والبحر.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، عددا فكيف تقومون بحقها شكرا. **إن الله لغفور رحيم**.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

والذين تدعون،[2] أي لحاجاتكم، ولم يقل: تعبدون، بل تدعون، **من دون**، سوى، **الله / لا يَخلقون شيئا**، بل هو الخالق وحده، **وهم يخلقون**. فهم، **أموٰت غير** [٢٣٢ظ]
أحياء، بذواتهم وإن كانوا أحياء بغيرهم، لأنه تعالى هو الحي بذاته، فلا يريد بذلك الأصنامَ، ولهذا قال بعده: **وما يَشعرون أيان يُبعثون**، فدل على بشر يُبعثون[3] ولزم منه الأصنام، لأن البشر خير من الصنم. فإذا كان هذا حالَ البشر فبالأولى أن يكون حالَ الصنم.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال للجميع الداعي والمدعو: **إلٰهكم إلٰه وٰحد. فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون**.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

---

[1] أي الحركة.

[2] الآية في تفسير المؤلف على قراءة غير عاصم ويعقوب وحمزة، وفي قراءتهم: والذين يدعون.

[3] ن – فدل على بشر يبعثون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أسٰطير الأولين، ليحملوا، لام العاقبة، **أوزارهم، كاملة يوم القيٰمة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم. ألا ساء ما يزرون**، يحملون. فقوله: **يضلونهم**، يشير إلى الداعين فهم يحملون أوزارَ أنفسهم كاملة ويحملون من أوزار التابعين لهم بقدر ما يستحقونه أيضا. ولا ينقص من أوزار التابعين شيءٌ، فهو كما يؤجر حامل الصدقة ولا ينقص من أجر صاحبها المخرِج لها شيء. والضالون لهم أوزار أُخَر[1] كسبوها. لهذا قال:[2] **بغير علم**، أي بغير علم يوجب للضالين اتّباع المضلين. ومحكم هذا[3] في قوله: بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ،[4] أي لم يتبعوا علما بل هوى.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيٰنهم، أي على بنيانهم، **من القوٰعد**، بالزلزال. **فخرّ عليهم السقفُ من فوقهم**. هذا الكلام مَثَلٌ بصورة في الأعيان لِما يتصور في الأذهان من أمر الماكرين. والمكر كان من قواعد بنيانهم في معاملاتهم لأنبيائهم[5] وفي إيمانهم. فلمّا بَنَوا أمرهم عليه سقط بنيانُهم عليهم.

فإن قيل: ما فائدة قوله:[6] **مِن فوقهم**، والسقف لا يكون من تحتهم وقد تقدم قوله: **عليهم**؟ فليس الجواب أنه لمّا ذكر أحد الطرفين وهو القواعد التي تحتهم ذَكَر الطرف الآخر وهو السقف الذي فوقهم. فهذا ليس بشيء، إذ يبقى الكلام مقصورا على المماثلة والموازاة لفظا دون الإعياء معنى، فيكون حكمه حكْمَ ميت لا روح فيه وإن حسنت صورة جسده، وليس كلام الله كذلك. بل المراد أنه لمّا كانت لفظة "مِن" تُستعمَل لابتداء الغاية أشار ههنا إلى عدة سقوف لغُرَف مبنية بعضها فوق بعض، كقوله تعالى عن أهل الجنة: لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ.[7] ففهمنا أنه خرّ عليهم السقف

١ ك: آخر.
٢ جميع النسخ + ومن قوله، والمثبت من م.
٣ ك ن + هو.
٤ سورة الروم، ٢٩/٣٠.
٥ ك: لأبنيائهم.
٦ ك ن – قوله.
٧ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (سورة الزمر، ٢٠/٣٩).

من فوقهم إلى منتهى البنيان، إذ ذلك لازم من ذكر القواعد. ويُفهَم من هذا المثل أن الماكرين لم يَبْنُوا على قواعد مكرهم بنايةً واحدة بل بنيانا عظيما بعضه فوق بعض. فلما كان أساسه المكرَ[1] سقط الجميع.[2] وفي العُرف والعادة أن من وقع عليه سقفٌ واحد فإنه قد يَسلم، فأما من وقعت[3] عليه عدةُ سقوف بعضها على بعض فإنه لا يُتوقع له السلامة.

وهذا مثل قصة شَمْسُون الناسك من بني إسرائيل. والناسك يُنذَر لله من بطن الأم. ومن جملة شروطه أنه لا يذوق شيئا مما يَخرج من خُفْت[4] الكَرْمِ ليَدْخل في ذلك الخمرِ، وأن لا يحلق رأسه ولا يقرب النساء، فيكونُ له قوة بالله يفعل بها ما شاء. وكان قد قتل في يوم واحد ألف رجل بعَظْم من فكّ حمار. فعطش فأنبع الله الماءَ من العظم. فاحتال الفَلَسْطانيون بامرأة كانت أحسن أهل زمانها دخلت في دينه بشرط أن تخدمه. فثقل في نومه يوما وهو في البريّة. وكان قومها قد جعلوا معها موسَى فحلقت به شعر رأسه وهو نائم فذهبت قوته. وأشارت إليهم من بعيد فحضروه فأمسكوه حيًا وقلعوا عينيه. ثم أحضروه بعد مدة من السجن ليسخروا به في يوم عيد لهم فقال لقائده: أسندني إلى العمودَين[5] المبنيّ عليهما دار المَلِك، وكان قد اجتمع فيها سائر ملوكهم وخواصُّهم. فلما أسنده وكان قد قطع شعر رأسه فعادت قوته إليه فقال: يا إلٰه[6] إسرائيل، رضيتُ أن تموت نفسي مع الفلسطانيين ودفع[7] العمودين، فخرّ السقف من فوق ملوكهم ومَن معهم. وسطقت الثوالث والروابع من الطبقات المبنية على دار الملك فوق الجميع. فلم يَسْلَم منهم أحدٌ، وظهر عليهم بنو إسرائيل فورثوا أرضهم وديارهم. **وأتاهم العذاب من حيث لا / يشعرون.** [٢٣٣و]

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

---

١ ش: المنكر.

٢ ش ك: الجمع.

٣ ن: من وقع.

٤ الخُفْت: السذاب، وهو نبات قوي الرائحة، أزهاره صغيرة قلما ترى. له بعض الفوائد الطبية لكن استعماله خطير للغاية (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «خفت»، «سذب»).

٥ ش: في العمودين.

٦ ن: يا أهل.

٧ ش: ووقع.

ثم يوم القيٰمة يخزيهم، أجمعين، والمراد يخزي[1] الداعين. ويقول أين شركائى الذين كنتم تشقُّون فيهم، أي تُشاقِقون المؤمنين في عبادتهم، تقديره: فلم ينطقوا. قال الذين أوتوا العلم، من كل أمة وهم تُبّاع الأنبياء: إن الخزى اليومَ والسوءَ على الكٰفرين، الذين تتوفٰهم الملٰئكة ظالمى أنفسهم، فألقوا السلم، المسالمة، أي ألقوا القول يطلبون السَّلَم مُقسِمين، ما كنا نعمل من سوء. قيل لهم: بلىٰ إن الله عليم بما كنتم تعملون.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾

﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾

وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا، ثم قال الله تعالى مُعرِّفا لنا بحالهم: للذين أحسنوا فى هٰذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾

ثم ذكر بعد ما ذكر الكفار وأدخلهم إلى النار وذكر المؤمنين وأدخلهم الجنة عاد إلى المخاطبة للحاضرين،[2] فقال ما معناه أيَّ شيءٍ ينتظر الكفار: هل ينظرون، ينتظرون، إلا أن تأتيهم الملٰئكة، تتوفاهم، أو يأتى أمر ربك، كما أتى قومَ لوط وهود وصالح والمكذبين. كذٰلك فعل الذين من قبلهم، كذّبوا فانتظروا فأهلكناهم. وما ظلمهم الله ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾

فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، أي أحاط بهم

[1] ك ن: نجزي.

[2] ك ن: الحاضرين.

جزاء ما كانوا يستهزءون به وهو العذاب كقولهم: لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ،[١] [وكقوله]: فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً.[٢] فأحاط بهم ما كانوا يستهزءون من أنواع العذاب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا ءاباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء. كذٰلك فعل الذين من قبلهم، بمعنى فِعْل القولِ، فعبّر بالعامّ عن الخاص توسعا في العبارة لئلا يتكرر. ثم ذكر الحجة عليهم بقوله: **فهل على الرسل إلا البلٰغ المبين**. وقد بيّنّا مثل هذه الآية من أن هؤلاء استلزموا ما لا يلزم[٣] من كونه سبحانه[٤] قادرا على منعهم من الشرك. ولم يمنع إجبارا أن يكون هو الذي أجبرهم عليه أولا، لكنه أجبرهم بعد ذلك عقابا كما يظهر ههنا بعد الآيتين عن مثل هؤلاء. وتكرار هذه الآية لمعنى نجده[٥] هناك غير ما هو ههنا، فافهم ذلك من قوله هناك: سَيَقُولُ، أي فيما سيأتي، وههنا:[٦] **وقال**، فيما مضى؛ وهناك: كَذَٰلِكَ كَذَّبَ،[٧] وهنا: **فعل**، فهنالك إخبار بما سيكون، وهنا عقاب عما جرى. وكان مع ما في ذلك من معان يفهمها المتأمل. فمن ذلك أن تلك هي المحكمة، ومنها يُفهَم معنى هذه. وتلك الآية مَنْعٌ فيها أنه أجبرهم، وفي هذه وما بعدها دلّ على أنه أجبرهم عقابا.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ثم تمم ذكر الحجة فقال: **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطٰغوت. فمنهم من هدى الله**، أي بإيمانه وتصديقه للرسل. فهذا الكلام ههنا هو هُدى

---

١ ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ (سورة المجادلة، ٨/٥٨).

٢ ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (سورة الأنفال، ٣٢/٨).

٣ ش ك + إذ لا يلزم.

٤ ك + سبحانه.

٥ ش: تجده.

٦ ش ك + وقال.

٧ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (سورة الأنعام، ١٤٨/٦).

ثواب وضلال وعقاب. فافقه ما جوزه بقوله: **ومنهم من حقت عليه الضلٰلة**، أي وجبت بتكذيبه للرسل. ولولا ذلك لبطل معنى قوله: **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا**. ولهذا قال ما يزيل الشبهة بقوله: **فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عٰقبة المكذبين**. فلمّا كذبوا حقت عليهم الضلالة.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾

ثم لمّا ذكر الأوائل من كل مكذب ذكر حال الحاضرين مَعْزِيًا للنبي عليه السلام فقال: **إن تحرص علىٰ هدىٰهم فإن الله لا يهدى من يضل**، أي من يضله الله عقابا له لا يُمكن أن يُهدىٰ ولو حرصتَ.[1] **وما لهم من نٰصرين**.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾

وأقسموا بالله جهد أيمٰنهم لا يبعث الله من يموت. بلىٰ وعدا عليه حقا ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون. ليبين، ولكي يبين، **لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كٰذبين**.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾

ولما ذكر البعث عرّفنا سهولة هذا الأمر عليه سبحانه فقال: **إنما قولنا لشىء إذا أردنٰه أن نقول له كن فيكون**، ليس هذا خطابا للموجود ولا للمعدوم، وإنما هو تمثيل لنفي المعاناة / وخطابٌ مع الخلق بما يعقلون. [٢٣٣ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٤١﴾

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾

الذين صبروا وعلىٰ ربهم يتوكلون. وإنما خصص هؤلاء في الذكر لأنهم هاجروا

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يوسف، ١٠٣/١٢).

من بعد ما ظُلموا وصبروا وتوكلوا، ليعرّفَنا بهذه الأوصاف التي وصفهم بها ما يجب على المؤمنين حتى يكونَ لهم في الدنيا حسنة وفي الآخرة أجر[١] أكبر مما يقال ويظن لكي يرغّب المؤمنين في مثل ذلك. ولهذا قال: لو كانوا يعلمون. فإن العرب تقول مثل ذلك وتُسقط الإخبار عنه لعِظَمه[٢] كما تقول: إني[٣] حصّلت لك هدية لو رأيتها، وتسكت تعظيما كأنك لا تجد النطق يفئ[٤] بحصر[٥] وصفها. ولهذا قال قبل ذلك: ولأجر الآخرة أكبر.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾

وما أرسلنا من قبلك، وإلى أول الزمان، إلا رجالا نوحى إليهم فاسئلوا، عن ذلك،[٦] أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، أي أهل التوراة الذين أسلموا، بالبينٰت والزبر. وأنزلنا إليك الذكر، أي كما أنزلنا إليهم ذكرهم، لتبين للناس ما نُزّل إليهم، أي إلى الرجال الموحَى إليهم، ولعلهم، [أي] لعل الناس، يتفكرون. وقوله: لتبين للناس، هو عام لكنه لم يقل: "تأويل ما أنزل إليك"، بل، إليهم، إشارةً إلى الرجال الموحَى إليهم [مِن] قبل[٧] كما تقدم الكلام. فأنزل الله إليه القرآن ليبين للناس بالقرآن ما نُزّل إلى الناس مع الرسل. فهو ههنا متشابه، ومحكمه في قوله بعد هذه بآيات في هذه السورة: تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ، ثم يقول عمن هو حاضر من ذريات الأمم التابعين للآباء: فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ، ثم قال: وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ.[٨] فهذا هو المحكم الذي يُرَدُّ إليه كل متشابه في هذا الباب. ولو لم يكن كذلك للزمه تفسير القرآن ولم يفسره، فهو عليه السلام عليه البلاغ. وأما البيان فهو بالقرآن للناس على صورة البلاغ. وأما بيان القرآن نفسه فقد تولاه الله بنفسه لقوله: وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ،[٩] وكقوله: ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ.[١٠] فالمراد ههنا ليس بيانَ تفسيره القرآنَ، بل بيان ما نزل من الكتب المتقدمة إلى الناس مع الرجال الموحى إليهم.

---

١ ن: أجرا.

٢ ش: لعظمته.

٣ ك ن: إلي.

٤ ن: بقي.

٥ ن: يحصر.

٦ ش – عن ذلك، صح هـ.

٧ ك ن: قيل.

٨ الآيتان ٦٣ و٦٤ من هذه السورة.

٩ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (سورة الأنعام، ١٠٥/٦).

١٠ ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ (سورة القيامة، ١٨/٧٥-١٩).

ثم اختلفوا فبين الله بالقرآن الاختلافَ لا غيرَ، كما اختلف اليهود والنصارى في عيسى وفي التوحيد وغير ذلك. ولما كان القرآن قد جاء بلسان الرسول نسب البيان إليه، فلا يدل هذا على تفسير للمؤمنين بل تبيين للكافرين.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦﴾

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أو، أَمِنوا أن، **يأخذهم**، الله بالعذاب وهم، **فى تقلبهم**. التقلب يكون في الظاهر وفي الباطن فافهمه مطلقا، أي إنه قادر على مجازاتهم في أي حالة كانوا عليها، **فما هم بمعجزين**.

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧﴾

ثم قال: **أو يأخذهم**، الله إليه، **على تخوف**، وهذا مدح لهم فهو غير الأول. إذ أَخْذُه لهم في تقلبهم وعيد لهم، ولهذا قال عنهم: فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ.[1] وهذا مدح في إخبار أراد به التعليم والتنبيه على هذا الوصف. ولهذا لم يقل: على خوف بل وهم، **على تخوف**، من مخالفة الأمر ومما قدموه من السيئات، وهذه صفة المؤمنين. ولهذا بعده بالفاء: **فإن ربكم لرءوف رحيم**.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨﴾

ثم تمم الكلام بعد التخويف لهم بما يدل على قدرته على كل ما خلق ليتحققوا إذا نظروا بعين العبرة أنه قادر على مجازاتهم بأعمالهم فقال: **أولم يروا**، ولم يقل: ما، وذلك يدل على التأمل والاعتبار بالبصيرة فيما يدركه البصر، فلهذا قال: **إلى ما خلق الله من**، لتبيين الجنس، **شيء يتفيؤا ظلٰله**. فاء بمعنى رجع فهو كما يرجع[2] ظِلّ الشجرة قصيرا بعد أن كان طويلا وبالعكس، **عن اليمين والشمائل**، إذا كانت الشمس في عكس الجهة. والشمائل جمع شمال للأشياء التي يتفيأ ظلالها. وقوله:[3] **سُجَّدا لله**،

---

[1] من الآية السابقة.
[2] ن – فهو كما يرجع.
[3] ش ك + سجدا.

يريد الأشجار والأشياء ذاتَ الظل لا الظلَّ، وهم دٰخرون، منقادون / طائعون لأمر [٢٣٤و]
الله. فهم ساجدون بحالهم، إذ رأس كل كائنات من شجر ونجم قد جعله الله مركوزًا في الأرض. فالشجرة كإنسان قُلِّب رأسه في الأرض، وشَعره عروق الشجرة، فاليدان والرجلان شُعَبها وغير ذلك كذلك. فالإنسان نبات علوي بما فيه من الغاية التي من أجلها خُلِق، فمدده من فوقٍ والنبات مدده من الأرض. فكل نبات تجده محتاجا خاضعا ساجدا في الأرض يستمد منها قوة، يُمدّه الله بها من خزائن الأرض التي أَودع فيها من خزائن السماء ما نزل به القطر. فكل ساجد مسبح، وهذا من المثال والاستعارة كنايةٌ عن الخضوع والطاعة. قال الشاعر:

يطاف على هاماتهم فكأنها   على الرغم طَوْعا سُجّدا للحوافر.[١]

وقد علمت أن المخلوقات لا تخلو عن التغيرات، فشهادتها على أنفسها بالتغير الدائم سجود للمغيّر سبحانه. فقد عاد سجودها نفسَ وجودها. [وهم دٰخرون]، والدُّخور الصَّغار والذُّل. ولا أذلَّ ممن خُلق رأسه في الأرض لا يزال من حيث خُلق إلى حيث ينعدم. ويحتمل أن يكون واو "وهم" واو الحال، فلا يزالون سجّدا لأنهم لا يزالون داخرين، وهذا حال من هو قائم بغيره. فافهم. ولهذا أوضحه بقوله في آخر الكلام: يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ،[٢] أي الملائكة، والكلام على الإعلاء يشمل[٣] الأدنى. وهذه فوقية العظمة ليُفهَم المراد باللفظ المعتاد.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

ولمّا ذكر النبات لظهوره للأعين ذكر كل مخلوق، فإنه ساجد بما هو مخلوق لله سبحانه فقال: ولله يسجد ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض من دابة، ذكر الدواب بعد النبات. ولمّا كان الإنسان من جملة الدواب قال بعد ذلك: والملٰئكة وهم لا يستكبرون.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾

وقال الله لا تتخذوا إلٰهين اثنين إنما هو إلٰه وٰحد فإيّٰىَ فارهبونِ، أي فارهبوا،

---

[١] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
[٢] الآية ٥٠ من هذه السورة.
[٣] ش: يشتمل.

وأُلحقت النون من أجل أواخر الآي بمعنى وارهبوني، فحذفت الياء دلالةً على الجزم. وقوله: إلٰهين اثنين، لمّا أراد أن يذكر الواحد بعد ذلك لزم أن ينفي الاثنين.[١] ولو قال: لا تتخذوا اثنين ولم يذكر "إلٰهين" لَمَا جاز، لأنه كان يكون النفي للعدد فقط. فلمّا لزم ذكر الإلٰهية لزم تقديمها. ولو قال: لا تتخذوا إلٰهين، أي فقط لَمَا حسُن ذكرُ الأحدية بعد قوله: إنما هو إلٰه. فلمّا أراد ذكرَ الإلٰهية والأحديةِ مع الإثبات لزم أن يذكر الإلٰهية والاثنينية مع النفي، والنفي متقدم على الإثبات لقوله: لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ.[٢] فذكر الله تعالى الأُولى من اللفظ مع الأَولى من الترتيب، لأن معناه لا تتخذوا اثنين إلٰهين فقدم الأهم فغَمَض.

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾

وله، واو الحال، أي لا تتخذوا إلٰهين اثنين وله، وحده، ما فى السمٰوٰت والأرض وله الدين واصبا، من وَصَب الشيءُ يَصِب وُصوبا إذا دام. والوَصَب التعب بدوام العمل. وجاء ههنا منصوبا على الحال، وقوله: وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ،[٣] أي دائم. ثم قال: ما هو في المعنى مبتدأً للآية الثانية وإن كان في اللفظ آخِرا للأولى،[٤] وذلك قوله: أفغيرَ الله تتقون.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وما، واو الحال، بكم من نعمة فمن الله. ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون، جار الرجل، أي[٥] تضرع إلى الله كما يجار الأسدُ فيصيح بأعلى صوته من صميم قلبه عند جوعه. وهذا مما يرجِّح أن قوله: وَمِنْهَا جَآئِرٌ[٦] في قراءة من قرأ بالهمزة أولى من قراءة من قرأ بغير الهمزة،[٧] وأعادها على السبل.[٨]

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ثم إذا كشف الضُّرَّ عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون، هذه الآية إخبار، ليكفروا، [اللام] لام العاقبة، بما ءاتينٰهم. فتمتعوا فسوف تعلمون.

---

١ ك ن: اثنين.

٢ وردت هذه العبارة في موضعين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (سورة الصافات، ٣٥/٣٧)؛ و﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (سورة محمد، ١٩/٤٧).

٣ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٨-٩).

٤ ن: آخر الأولى.

٥ ن: إذا.

٦ الآية ٩ من هذه السورة.

٧ لم أعثر على هذه القراءة فيما بين يدي من كتب القراءات المعتبرة.

٨ كلمة "السبيل" يُذكّر ويؤنث.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦﴾

ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقنٰهم. المراد بقوله: **لما لا يعلمون**، الشركاء، وذلك أنه نفى عنهم ما يكون به الخلق، لقوله: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ.[1] فلمّا ذكر أنواع القدرة عن نفسه سبحانه وطاعة[2] المخلوقات له: ما في السماوات والأرض ذم المشركين لكونهم يجعلون للشركاء الذين لا يعلمون نصيبا، ففي [نفي] العلم نفي للخلق. ومحكم هذه الآية قوله تعالى: أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ.[3] ويستحيل أن يخلق إلا من يعلم، فكأنه قال: / ويجعلون لما لا يعلم، ثم جمعهم فقال لما لا يعلمون. وأما الجعل [٢٣٤ظ] فهو قوله عنهم: هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا.[4] **تالله لتسئلن عما كنتم تفترون**.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾

ويجعلون لله البنٰت، أي بناتِهم في الوَأْد يزعمون أنهم[5] يتقربون بذلك إلى الله، والبنين للشركاء. وقوله: **سبحٰنه**، أي عما جعلوا له. وقوله: **ولهم**، أي للشركاء وهو من جملة النصيب. ثم قال عن الجاعلين: **ما يشتهون**، وهم البنون. وإنما قال: **ما يشتهون**، ليعرّفنا أنهم يشتهون البنين ولا يشتهون البنات. وصرح بذلك في قوله: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ.[6]

ومثله قوله: **وإذا بشر أحدهم بالأنثىٰ ظل وجهه مسودا وهو كظيم**، بمعنى ساكت يتجرع الغيظَ.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾

يتوٰرىٰ من القوم من سوء ما بشر به، وتقديره: متفكرا، **أيمسكه علىٰ هُون**، هَوان. والمعنى أنه تعالى أخبر عما يُوَسْوِس به قلب صاحب البنت من المشركين. وقوله: **أم يَدُسّه**، أي خُفْيةً،[7] **فى التراب**، وهو تحير[8] في نفسه حال كونه كظيما. **ألا ساء ما يحكمون**، على بناتهم.

---

[1] سورة الملك، ٦٧/١٤.

[2] جميع النسخ: وطاعته.

[3] الآية ١٧ من هذه السورة.

[4] ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٣٦)

[5] ن: أنفهم.

[6] الآية ٦٢ من هذه السورة.

[7] ك ن: أي خفية.

[8] ك: يجبر.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

ولمّا كانوا يزعمون أنهم يتقربون إلى الله تعالى بوَأْدِ البنات قال بعده: **للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السَّوء، ولله المثل الأعلىٰ**، بيّنّاه في الروم.[١] والمعنى أن كل ما لا يرضونه[٢] لأنفسهم[٣] بالأولى [ف]إن الله لا يرضاه. **وهو العزيز الحكيم.**

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

ولمّا كان هذا الحكم من أبلغ الظلم وهو ظلمهم للبنات بالوأد وظلمُهم في الحكم بأن يجعلوا لله ما لا يرضون أن يجعلوه لأنفسهم، قال بعده: **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة**، وعم بهذا الإخبار وهو قوله: **الناس**، ليتحقق الجزاء للظالم منهم بهذه الصورة، فلا يدخلَ في العفو. وقوله: **الناس**، كقوله: وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا.[٤] وعرّفنا الله أن الإشارة بهلاك الدواب إنما المقصود به[٥] الناس، لأن الإنسان من جملة ما يَدُبّ. وجازت الكناية عن غير مذكور بقوله: **عليها**، بقوة دلالة الدابة على الأرض.

ولمّا كان قد قدّم في أول السورة: وَالْأَنْعَامَ،[٦] وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ،[٧] ذكر[٨] ههنا ما يَدُبّ ليعم ذلك وغيره. ولمّا قال: إنه لو آخذهم[٩] لأهلك الأدنى مما هو مسخر لهم لزم أنه لو أهلك الأدنى أنه يكون قد أهلك الأعلى وهو السماوات والأرض وما فيهن، إذ الكل[١٠] مسخر للإنسان. وإذا هلك ما هو مسخر لغيره فالمسخَّر له هالك لا مَحالةَ. ولمّا بين ذلك بصريح الكلام ولازمه عرّفنا أنه تعالى قد أمهل الناس ليتوبوا ومكّنهم وسخر لهم لئلا يكون لهم عليه حجةٌ فقال: **ولٰكن يؤخرهم إلىٰ أجل مسمى. فإذا جاء أجلهم**، المسمى، **لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**، أي عن المسمى.

١ يشير المؤلف إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٢٧).

٢ ش: ما يرضونه.

٣ جميع النسخ: لأنفسكم.

٤ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٧٢).

٥ ن – به.

٦ الآية ٥ من هذه السورة.

٧ الآية ٨ من هذه السورة.

٨ ن + ما.

٩ جميع النسخ: إنه لو وأخذهم.

١٠ ن: إذ كل.

وهذا التأخير مشروط بالطاعة منهم. ومعنى قولنا: "مشروط"، أي إذا عملوا بالطاعة وَفَى لهم بالوعد. وإن لم يعملوا فله أن يأخذهم بالأجل[١] المنسوب إلى كسبهم قبل المسمى، وله أن يبقيهم ليزدادوا إثما عقابا في الدنيا قبل الآخرة وطبعا على القلوب بالذنوب.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ويجعلون لله ما يكرهون، أي البنات، **وتصف ألسنتهم الكذبَ**، إذ يقولون: **أن لهم الحسنىٰ**، عند الله، بوَأْد البنات بما يعملونه لله بزعمهم. **لا جرم أن لهم النارَ وأنهم مفرَطون**، قال الكسائي: متروكون منسيّون في النار.[٢] ولا جرَمَ، إيجاب يعمل فيما بعده بجملة ما قبله، فهو قد عمل في إيجاب النار لهم بالذنب الذي[٣] ذكر قبله. ومعنى: جرم، كَسَب، وفيه لغتان جَرُم وأجرم ويرجعان جميعا إلى الجُرْم وهو الذنب. ويقال: إن "لا" نفيٌ لشيء تقدم ولم يذكره، وما بعده مؤتنف، كقوله: فَلَآ أُقْسِمُ،[٤] [وكقوله]: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ.[٥]

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

تالله لقد أرسلنا إلىٰ أمم من قبلك فزين لهم الشيطٰن أعمٰلهم فهو وليهم اليوم، لأن الآباء كانوا كذلك، والأبناء اتبعوا بغير علم فهو إلى اليوم كذلك. **ولهم عذاب أليم** في الآخرة.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

وما أنزلنا عليك الكتٰب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمةً لقوم يؤمنون، به من الآن إلى يوم القيامة. وهذه الآية شرحت ما قلناه في مثلها، فافهمها

---

١ ك ن: في الأجل.

٢ جامع البيان للطبري، ١٤/٢٦٤.

٣ ن: لهم بالدنيا لذي.

٤ هذا التركيب ورد في آيات عديدة، منها ما ورد في سورة الواقعة، ٥٦/٧٥؛ وسورة الحاقة، ٦٩/٣٨؛ وسورة المعارج، ٧٠/٤٠.

٥ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (سورة النساء، ٤/٦٥).

في باقي المواضع. فقد نفى أن يكون أنزل[1] القرآن إلى الرسول إلا ليبين به الرسولُ
/ ما اختَلف فيه المختلفون في كل زمن، فافقه ذلك. ويلزم أن لا يكون مبيَّنا وفيه [٢٣٥و]
منسوخ به، لأن الذي يبين الاختلافَ لا يجوز أن يكون فيه اختلافٌ، وقد نفى[2] الله عنه الاختلاف بقوله: وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ،[3] الآية. فإذا ألزموا أنفسهم بالنسخ فيه فقد ألزموا أنفسهم بالاختلاف. وهم أيضا مختلفون في النسخ وفي بعضه. وقد صح أن القرآن بين لهم الذين اختلفوا فيه. فقد عاد الاختلاف في سائر الناس إما لكفرهم أو لتخلفهم[4] عن فهمه لا غير.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

ثم ضرب مثلا لمن أنكر إنزال القرآن وأنه رحمة فقال: **والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذٰلك لآية لقوم يسمعون،** يقبَلون. والمعنى أننا أنزلنا عليك الكتاب لتبين للمختلفين الذين هم كالأموات ما يعيدهم أحياءً، كما أنزلنا من السماء ماءً أحيينا به الأرض بعد موتها. ولهذا لم يقل: إن في ذلك لآية لقوم يبصرون بل، **يسمعون**، بمعنى يقبلون ما أمرناهم به، ويحتمل يسمعون القرآن.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

وإن لكم فى الأنعٰم لعبرة نسقيكم مما فى بطونه، ولم يقل: بطونها، إذ ليس كل الأنعام يُشْرَب مما في بطونها بل بعضُها وهو بعض الإناث. ولما كان من الأنعام ذكر وأنثى ومن الإناث صغير وكبير، ومن الكبير ما يَحمل وما لا يحمل عاد قولُه: "مما" بمعنى من الذي، فافهمها جيدا. وتقديره: ونسقيكم من الذي في بطونه منها لبنٌ، لبنا، فحذف أحد اللفظين لدلالة الآخر عليه. ولهذا فَصَل بين البطون والمشروب بقوله: **من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشٰربين.** ولما بينه ههنا قاله في سورة المؤمنين[5] مجملا، ولهذا لم يذكر اللبن هناك بل أشار إلى ما هنا.

---

[1] ن: أنزال.

[2] ن: قد نفى.

[3] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء، ٨٢/٤).

[4] ك ن: أو ليحلفهم.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢١/٢٣).

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾

ثم تلا ههنا هذه الآية بعبارة مثل عبارته في هذه فقال: **ومن ثمرٰت النخيل والأعنٰب تتخذون منه**، ولم يقل: "منها"، سكرا. بل قال: منه، لأنه حذف ما تقديره "ماء" لدلالة الكلام على الماء، أعني ماء الثمرات وماء الأعناب. فلو قال: "منها"، لما صح أن يكون منها بل من مائها. والسكر من سَكِر يَسكَر سَكْرا وسَكَرا مثل حَزِن يَحزَن حَزَنا وحَزْنا، وسَقِم يَسقَم سَقْما وسَقَما. فالسَّكَر ما يُسكر، كأنه قال: تتخذون منه ما يسكر. وقوله: **تتخذون**، حكاية عن فعلهم لا تشريعٌ فرضه عليهم. فالكلام ههنا هو للكفار، والمراد به تعريف الصانع لا تبيين ما شرع وإيضاح ما فرض. فليس المراد ههنا تحليلُ حرامٍ وتحريمُ حلال. ولهذا قدم في أول السورة[1] سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ،[2] ثم عرّفهم بقوله: خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ، خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ،[3] إلى قوله: فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ.[4] ثم قال: وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ،[5] وذكر ما صنع من الماء حتى رعتِ الأنعامُ وسقاهم لبنا. ثم ذكر مما خلق بالماء وذكر ما اتخذوهم لأنفسهم مما خلق فقال: **تتخذون منه سَكَرًا**. وفيه إشعار بأن السكر غير حسن، كأنه قال: شيئا وضده فقال: **سكرا ورزقا حسنا**. ويحتمل ما تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا، ويريد بالرزق الحسن بقيةَ ما يُرزَقون من ذلك. فهو سبحانه حدّثهم بما هم فيه ولم يقل: ليتخذوا ولا قال: فجعلنا منه سكرا. **إن فى ذٰلك لآية لقوم يعقلون.**

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨﴾

وأوحىٰ ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون، أي مما يعرشونه الناس للنحل، وهي الكوائر[6] التي تأوي إليها النحل، فهي لها عروش، واحدها عرش وهو سرير يَجلس عليه المَلِك، والعرش أيضا ما يُستَظَلُّ به.

---

[1] جميع النسخ: الآية.

[2] الآية ١ من هذه السورة.

[3] الآيتان ٣ و٤ من هذه السورة.

[4] الآية ٥٥ من هذه السورة.

[5] الآية ٦٥ من هذه السورة.

[6] الكُور بناء الزّنابير (موضِع الزّنابير)، والكُوَارات الخَلايا الأَهْلِيّة. عن أبي حنيفة قال: وهي الكَوائر أيضاً على مثال الكَواعِر (لسان العرب، «كور»).

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾

ثم كلي من كل الثمرٰت، على صورة الإباحة لها. فاسلُكى سبل ربك، أي التي هداكِ[1] إلى سلوكها، ذُلُلا. لولا أنها ذُلِّلت لَمَا استطاع أحد أن يأخذ من خِبائِها شيئا إلا بعد إهلاكها مع فرط الأذى بلَسْعتها. فكونها تتردد بين الناس إلى البيوت فتذهب إلى البرّ وتعود[2] بما معها عجيب، وكونُها من أي شجرة أكلت صار شرابا في بطونها عجيب، وكونها لا تَنْسىَ[3] في سلوكها ولا عن فئتها ومسكنها عجيب، وكونها تعمله من الشمع تدخر فيه / العسل على تلك الهيئة، وهي أن أرض كل بيت تجد تحتها حيطانَ ثلاثة بيوتٍ في الوجه الآخر لئلا ينخسف البيت فمن أعجب العجيب الدال على قدرة الصانع سبحانه. وإن في عسل وعكسه من حيوانٍ صغير جُمع في بدنه شفاء وسَمٌّ لا يختلطان لَعجبا. يخرج من بطونها شراب مختلف ألوٰنه فيه شفاء للناس. ولم يقل: هو شفاء لسائر الناس من سائر الأدواء بل المعنى من أدواء مخصوصة. ولهذا قال: شفاءٌ، منكَّرا ولم يُعَرِّفه. ومن ذلك الملسوع[4] بالنحل،[5] إذا لطخ المكان بالعسل، ثم شرب منه بالماء شُفِي على المكان. إن فى ذٰلك لآية لقوم يتفكرون. [٢٣٥ظ]

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ٧٠﴾

ولما ذكر هذا المخلوق العجيب وندب إلى التفكر فيه، وفيما ذكر عنه وفيما يروى منه ذكر ما هو أعجب وأكبرُ في الخلق وهو الإنسان؛ فذكر المسخِّر ثم ذكر المسخَّر له فقال: والله خلقكم ثم يتوفٰكم ومنكم من يرد إلىٰ أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئا. ولما كان ما ذكره دالا على قدم العلم وعظم القدرة ختم الآية بقوله: إن الله عليم قدير.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٧١﴾

---

١ ك: هلاك.

٢ ش: فتعود.

٣ جميع النسخ: لا تنسه.

٤ ك: المسلوع.

٥ ن – بالنحل.

والله فضل بعضكم علىٰ بعض فى الرزق فما، ليس، الذين فُضِّلوا برادِّى رزقِهم علىٰ ما ملكت أيمٰنهم فهم، الفاء بمعنى حتى، ومثله في الروم،[١] **فيه سواء**. والمعنى ليس الذين فُضِّلوا يختارون المساواة بما ملكت أيمانُهم في الرزق، فكيف يساوون الله بعباده، والخالقَ بمخلوقاته، فيشركون به لأن الشريك مساوٍ؟ وهذه الآية[٢] معناها متقدمٌ على ما سيبنى عليه بعدها، وهو قوله: وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ،[٣] أي إن الله هو الذي يفعل كيت وكيت لا غيرُه، ويعبدون غيره وهو مَن لا يفعل، **أفبنعمة الله يجحدون**، الله؟ وإنما ينبغي أن يُعرَف بنِعَمه.[٤] ولهذا لم يقل: أفنعمة الله،[٥] لأن المراد معرفة المنعِم.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

والله جعل لكم من أنفسكم أزوٰجا وجعل لكم من أزوٰجكم بنين وحفدة. الحفدة الأعوان والخَدَم. وأصله من الحَفْد وهو السرعة من الخادم طلبا لرضا المخدوم [و] رغبةً فيما عنده. ومنه قوله في الدعاء: «وإليك نسعى ونَحْفِد».[٦] وقوله تعالى في الآية: **بنين**، أي من ظهوركم، **وحفدةً**، من أولاد الأزواج من زوجٍ آخَر، فهم خُدّام قد جعلهم الله لنا من أزواجنا، فافهم ذلك. **ورزقكم من الطيبٰت. أفبالبٰطل يؤمنون**، يريد "بالباطل" أصنامهم، كقوله قبل: وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا [مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ].[٧] وهذا الكلام جميعه يريد به إثباتَ معرفة الله تعالى في صدورهم. لهذا كرر: **والله جعل لكم**، وَٱللَّهُ أَنزَلَ[٨] وغير ذلك. ثم قال: **أفبالبٰطل**، من إلٰههم، **يؤمنون**، بعد ذلك كله ويتركون الحق وهو الله سبحانه، فهو احتجاج بالعقل، أي كيف يؤمنون بالباطل الذي لا يَرزق ويَكفرون بنعمة من يرزق؟ وهذا نظير قوله: أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ.[٩] وقوله: **وبنعمت الله هم يكفرون**. قوله: هم، لئلا يعود الكلام إخبارا عنهم، يُفهَم منه أن الله خلقهم كفارا، بل، هم يكفرون.

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة الروم، ٢٨/٣٠).

٢ ش ك: وهذه الآيات.

٣ الآية ٧٣ من هذه السورة.

٤ ك ن: بنعمة.

٥ جميع النسخ: أفبنعمة الله، والمثبت من م.

٦ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣٠٣/١٤؛ والدر المنثور للسيوطي، ٨١٠/١٥- ٨١٢.

٧ الآية ٥٦ من هذه السورة.

٨ الآية ٦٥ من هذه السورة.

٩ الآية ٥٢ و٥٣ من هذه السورة.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا، أي مهما كان من رزق، من السمٰوٰت والأرض، كالغيث والنبات، وتقديره لا يستطيعون، شيئا، فأخر: ولا يستطيعون، لأجل الوِزان. وعاد الكلام بتقديم قوله: شيئا، يفهم منه أن الشركاء لا يملكون شيئا ولا يستطيعون شيئا فحذف الثاني لتقدم الأول إيجازا.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

ولمّا أراد أن يضرب لهم الأمثال بالأقوال من أجل تعريفهم بنفسه سبحانه نهاهم أن يضربوا له الأمثال بالفعل، أعني أن يجعلوا له مثلا وأندادا. فخاطبهم بلفظ الضرب على طريق المحاذاة في اللفظ. والمراد ما جعلوه مِثْلا لله عز وجل، فجمع بقوله: الأمثال، وذلك قوله: فلا تضربوا لله الأمثال، وهو كقوله في القرآن: ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ.[1] ولم يكونوا ضربوا له مِثْلا بالقول بل جعلوا له مِثْلا[2] من ساحر ومسحور، ولكنه لمّا كان المَثَل المضروب ليس شيئا سوى قولٍ لا حقيقة له فكذلك ما جعلوه لله لا حقيقة له في نفس الأمر سوى ما يحصل من دعواهم أقوالُهم الصادرة عن جهلهم فقال لهم: إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

[٢٣٦و] ضرب الله مثلا عبدا مملوكا، إذ قد يكون / عبدا غير مملوك كما قد يكون مملوكا[3] غير عبد، بل بمعنى ما يُملَك لغير الاستعباد. وقوله: لا يقدر علىٰ شيء، أي شيءٍ ينفقه، وليس المراد عدم القوة والاستطاعة. ولهذا بعده: ومَن رزقنٰه منا رزقا حسنا،

[1] ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ٤٨/١٧).

[2] ن: له مثل.

[3] ش: مملوك.

إفهم الرزق مطلقا، ولهذا قال: **فهو يُنفق منه سرا وجهرا، هل يستوون؟ الحمد لله، لا** للشركاء. **بل أكثرهم لا يعلمون**، الحقَّ في هذا المثل مع شدة ظهوره فيجعلون الحمد والعبادة لمن لا يَرزق. فهذا المثل ضربه الله لآلهتهم ولنفسه سبحانه، وكذلك المثل الذي بعده. فالأول لعبد وحُرٍّ فقير وغني، والثاني للحرين فقيرٍ أبْكَمَ وعاقل غني. وأشار بالرزق والحَسَن إلى ما رزقه الله من النِّعَم الباطنة والظاهرة. وقوله: **مملوكا**، لجواز[1] أن يكون عبدا لله فقال: مملوكا، تبيينا أنه مملوك[2] لغيره. وقال: **هل يستوون**، ولم يقل: هل يستويان لأن الإشارة إلى الشركاء وهم جماعة، فهل يستوون بالله وهذه صفتهم؟ وهذا بعض أوصافه سبحانه.

فالمثل الثاني كالأول، ولهذا ذكر في الثاني رجلين: **وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر علىٰ شيء وهو كَلٌّ علىٰ مولىٰه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو علىٰ صرٰط مستقيم**. وإذا كان العبد المملوك الفقير لا يستوي بالحُرِّ الغني، والحرُّ الفقير إذا كان أبكمَ -وهو الأخرس الذي لا يفقه- لا يستوي بالحر الغني العاقل الفصيح لأنه يأمر بالعدل، فكيف تَستوي الأصنامُ المملوكة[3] بمالك الملك مع تباين الصفات؟

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

ولله غيب السمٰوٰت والأرض، وذلك أبلغ العلم. **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر**، إلى المبصَر، **أو هو أقرب**، وهذا أبلغ القدرة. لهذا بعده: **إن الله علىٰ كل شيء قدير**. وأضاف الأمر إلى الساعة لأنه أمر تقوم به الساعة.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

ثم أخذ يؤكد اتصافه بالقدرة والعلم بما هو مشاهَد للمؤمن والكافر فقال: **والله أخرجكم من بطون أمهٰتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصٰر والأفئدة لعلكم تشكرون**، الله على هذه النِّعَم الظاهرة لكم فيكم.

---

[1] جميع النسخ: كالجواز، والمثبت من م.
[2] ن: أنه مملوكا.
[3] ك ن: للمملوكة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ألم يروا إلى الطير مسخرٰت فى جو السماء ما يمسكهن، أي وهُنَّ في جو السماء، إلا الله. قيل: مسخرات لِفراخها، والأَولى أنهن مسخرات لنا تَبِيض وتَفرَخ وتَتعَب وتتصيّد ببعضها والغرض نحن، لقوله تعالى: وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ،[1] فهي من الجملة. وكل سَامٍ سماءٌ، ولهذا قال: فى جو السماء. وقوله: ما يمسكهن إلا الله، كقوله: إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا.[2] ولهذا قال في موضع آخر: صَٰٓفَّٰتٍ،[3] أي حال كونهم صافات الأجنحة. إن فى ذٰلك لآيٰت لقوم يؤمنون.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

والله جعل لكم من بيوتكم سكنا، تَسكنون فيه. وجعل لكم من جلود الأنعٰم بيوتا تستخفّونها يومَ ظَعْنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثٰثا ومتٰعا إلىٰ حين. والأثاث حوائج البيت وآلاته الموجودة فيه، وهو من أَثَّ النبات إذا كثر وما لا يؤكل، فهو يَكثر في البيت فهو أثاث.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

والله جعل لكم مما خلق ظِلٰلا وجعل لكم من الجبال أكْنٰنا، تُكِنّ بمعنى تستر. وجعل لكم سرٰبيل، السِّربال القميص، أي ما يُلبَس على الجسد، تقيكم الحرَّ وسرٰبيلَ تقيكم بأسكم، في الحرب. بيان ذلك أن الله تعالى خلق العقل والأعضاء ومكّن العبد من إعمال الدرع والزَّرْد.[4] فكل ذلك لم يظهر إلا بواسطة الإنسان، وغاية القدرة أن يكون القادر خلَق قادرا لا عاجزا. كذٰلك يُتِمّ نعمته عليكم لعلكم تُسلمون.

---

[1] سورة الجاثية، ١٣/٤٥.

[2] سورة فاطر، ٤١/٣٥.

[3] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ (سورة الملك، ١٩/٦٧).

[4] الزَّرْد والزَّرَد: حِلَقُ المِغْفَر والدرع (لسان العرب، «زرد»).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

ويوم نبعث من كل أمة شهيدا، من اهتدى من تلك الأمة إلى الحق يشهد على الأمة. ثم لا يؤذن للذين كفروا، في شيء كان ما كان. ولا هم يُسْتَعْتَبون.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا
ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن
دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا
كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

ثم ابتدأ[1] فقال: الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، خبره، زدنٰهم عذابا فوق العذاب، / الذين يستحقونه بكفرهم وصدِّهم، وبينه بقوله: بما كانوا يفسدون، في الأرض كانت الزيادة، ولهم عذاب كعذاب الكفار. [٢٣٦ظ]

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا
عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا علىٰ هٰؤلاء، العرب لأنهم أمته.[2] وكل نبيّ شهيدٌ وما كل شهيد نبيا. ونزلنا، أي وقد نزلنا، عليك الكتٰب تبيٰنا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرىٰ للمسلمين.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

[1] جميع النسخ: ثم ابتدى.

[2] ك: أمنه.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾

ثم نسق على قوله: فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ،[1] قوله: **وأوفوا بعهد الله**، لأن بعد إثبات التوحيد يجب أن يمتثل الأمر، والعهدُ يكون مع الله ومع الناس، فهو عهد الله، ولهذا لم يقل: إذا عاهدتموه بل، **إذا عٰهدتم**، وإنما أضافه إلى الله تعظيما لئلا يُنكَث. والمقصود ههنا إذا عاهدتم أمة وإلا كان الأول كافيا. **ولا تنقضوا الأيمٰن بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا**، ضامنا لصدقكم، لأنه صدّق المؤمن، أعني لما حلَف به أو عاهد وُثق إليه لأجل[2] الله، فلولا الله لما صُدّق. فإذا عقّدتم[3] الأيمان لزمكم الصدقُ وإلا لزم الضامنَ الكذبُ في تصديقه لكم إن كذبتم. **إن الله يعلم ما تفعلون**، الفعل أعم من القول فهو يعلم الجميع سبحانه، ولهذا عبر بالأعم.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢﴾

ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها. ذَكَر النقض في اليمينِ والنكثَ في المَثَل توسعا في العبارة لئلا يكون تكرارا. والنكث هو النقض. وشبّههم في تحنيث العزم وضعفِ الهمة بالنساء وجعل أفعالهم كأفعالهن، **من بعد قوة أنكٰثا**. الأنْكَاث[4] ما نُقِض من أخلاف[5] بيوت الشَّعْر والوَبَر ليُغزَل ثانيا[6] ويُعادَ مع الجديد. والمراد نكث العهد واليمين، أي[7] نَسخها وحلّها. **تتخذون أيمٰنكم**، بمعنى تجعلون[8] في أيمانكم، **دَخَلًا**. الدخل بالتحريك هو الشيء يدخل في الشيء ليس منه، وهو من معنى المكر والخديعة والدَّغَل،[9] **بينكم**، وبين المعاهدين. **أن تكون**، أي بسبب أن تكون، **أمة هى أربىٰ**، أكثر عددا،

[1] الآية ٧٤ من هذه السورة.
[2] ك ن: لأحل.
[3] جميع النسخ: ادعيتم.
[4] النِكْث: ما نُقض من الأكسية والأخبية ليُغزَل ثانية، وجمعه "أنكاث" (المعجم الوسيط، «نكث»).
[5] قال اللحياني: الخالِفةُ العَمُودُ الذي يكون قُدّامَ البيت، وخلَفَ بيتَه يَخلُفُه خَلفاً جعل له خالِفةً. وقيل: الخالِفةُ عمود من أعْمِدة الخِباء، والخوالف العُمُد التي في مُؤَخَّر البيت (لسان العرب، «خلف»).
[6] ش ك: ثانية.
[7] ن – أي.
[8] ك ن: يجعلون.
[9] الدَّغَل الفساد مثل الدخَل، والدغل دَخَلٌ في الأمر مُفْسِدٌ (لسان العرب، «دغل»).

من أمة، عاهدتموها. وهذا أمر للمؤمنين إذا عاهدوا الكفار، كقوله: إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ.[١] فنهاهم أن يفسخوا عهدهم مع المعاهدين فيجاهدوهم لقتلهم وأن يتركوا غير المعاهدين لكثرتهم فقال: إنما يبلوكم الله به، أي بالعهد مع قوم قليل. وليبينن لكم يوم القيٰمة ما كنتم فيه تختلفون، أي أوفوا أنتم بالعهد ولا عليكم من اختلاف الأديان، فلا تنصروا[٢] المسلم على الكافر إذا عاهدتم الكافر.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ولهذا بعده: ولو شاء الله لجعلكم أمة وٰحدة، فأشار إلى مكارم الأخلاق والصدق مع كل أمة كافرة عاهدتموها. فجاءت أمة أكثر فأدخلتم في العهد والأيمان من اللفظ والتأويل ما لم يكن فيه من قبلُ بسبب كثرة الأمة الأخرى، بل الواجب هو أن تقوموا بعهدهم من غير دَخَل. وقوله: ولٰكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء، إنباء عن جزاء المكلفين بدليل قوله تعالى: ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ.[٣] ولهذا بعده ههنا: ولتسئلن عما كنتم تعملون.

[معنى الهداية والإضلال]

ويجب أن يُفهَم بقوة أن قوله: ولو شاء الله لجعلكم أمة وٰحدة، أي إجبارا. ولا يلزم أنه لمّا كان قادرا ولم يفعل أنه هو فَعَل الاختلاف، فإن هذه الآية من المتشابه فتُرَدُّ[٤] إلى المحكم، وهو قوله: وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً،[٥] ومثلها: كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً،[٦] الآية. وأما قوله: ولكن يضل من يشاء، فهو من المتشابه ومحكمه: وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ.[٧] ومعنى الإضلال ههنا هو سدّ باب الهدى بحيث لو راموا ذلك لَمَا أمكن، فأنبأ الله أنه إذا بيّن لقوم ما يتقون ولم يتقوا

---

١ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ...﴾ (سورة التوبة، ٣/٩-٤).

٢ ن: ولا تصروا.

٣ سورة محمد، ١/٤٧.

٤ ن: فرد.

٥ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة يونس، ١٩/١٠).

٦ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ (سورة البقرة، ٢١٣/٢).

٧ سورة التوبة، ١١٥/٩.

وجب عليهم العقابُ بالضلال. فللّه[1] تعالى أن يضل منهم من يشاء[2] فلا يمكن إيمانه بعد ذلك، وله أن لا يضله بل يبقيه على حاله وهو إمكانُ أن يتوب ويرجع إلى الهدى والتقوى. وقوله: **ويهدى من يشاء**، أي بعد أن أضله وختم على سمعه وقلبه، فله سبحانه أن يهديه بعد ذلك. وهذا إذا فُهِم جيدا ظهرت منه حِكَم تُطرب كلَّ عاقلٍ وتُغْرِب[3] / عن [٢٣٧و] تمام القدرة والرحمة فيَطمع[4] كلُّ آيِسٍ لعله أن يكون ممن يشاء الله. ومن لم يفهم هذا الكلام على ما قد بيناه عارضه تمامُ الآية، وهو قوله تعالى: **ولتسئلُنّ عما كنتم تعمَلون**.

وبعد ما سمعت[5] في شرح هذه الآية فاعلم[6] أن جميع ما أشكل في القرآن من أمثالها لكونه قرن بلفظ المشيئة كلَّ ذلك هو في قِسْم واحد. وذلك أن الكفار والعصاة ينقسمون إلى قسمين. أحدهما عَلِم الله منه أنه إذا هداه استمر على الهدى، وهذا هو الذي يشاء الله ويريد أن يهديه. وأما الآخر فلا، إذ لا فائدة في ذلك ولو عذبه بكل عذاب ولو أدخله النار، كما أخبر الله عنه بقوله: وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟،[7] ومثله في الدنيا: وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟،[8] والله سبحانه يتعالى عن العبث. فهذا التفصيل في حق طائفة واحدة كفارٍ. ومثل ذلك ذُكر في سورة النساء في حق طائفة واحدة من عُصَاة المؤمنين، وهو قوله تعالى بلفظ المشيئة: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ.[9] وبِفِهم هذا الأصل الأصيل تفهَمَ معنويةِ الاجتباء والاختصاص الذي هو من لدن البارئ، إذ يأخذ الكافر فيجعله مؤمنا تارة طوعا وتارة كَرها. ولا شك أن ذلك كله على وفق العلم فهو بحق، لأن إبليس أبى وآدم عصى؛ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ[10] ولم يَجتَبِ إبليس بل لعنه. وما ذلك إلا أنه علم أنه إذا اجتبى آدم عاد إلى الطاعة، ولو اجتبى إبليس لعاد إلى المعصية. فكان الاجتباء والاختصاص لأحد العاصِيَيْن[11] دون الآخر جاريا على وفق العلم بما سيكون منه. ومثله اجتباء الله الأنبياءَ؛ وبه ينشرح قوله تعالى: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ.[12] فافقَهْ هذا كلَّ الفقه، فإنه من العلم اللدُنّي.

١ ن: الضلال قلته الله.
٢ ش: من شاه.
٣ ن: وتعرب. | أي تُبعد.
٤ ك ن: فتطمع.
٥ ك: ما سمعته.
٦ ش: واعلم.
٧ ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٢٨/٦).
٨ ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنفال، ٢٣/٨).
٩ سورة النساء، ٤٨/٤.
١٠ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (سورة طه، ١٢١/٢٠-١٢٢).
١١ ش: العاصين.
١٢ ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (سورة البقرة، ١٠٥/٢).

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾

ولا تتخذوا أيمٰنكم، نُصب على إضمار "في"، ونصب، **دخلا**، لأنه مفعول، **بينكم**، وبين المسلمين. فافهم سبب التكرار،[1] لأنه لمّا ذكر مثل ذلك مع الكفار ذكره مع المسلمين، ولكن بصورة الإطلاق ليعم ولبيان حِكَم أخرى؛ وهي أن ذكر الاتخاذ أولا يُفهَم منه نهي وتعليل، والثاني يُفهَم منه تخويف وتبيين بصورة العقاب. لهذا قال ما معناه: ولا تكونوا أنكاثا تتخذون في أيمانكم دَخَلا فإنكم ممتحنون، ثم قال: **ولا تتخذوا أيمٰنكم دخلا بينكم**، فتُعاقَبوا. ولهذا بين صورة العقاب بقوله: **فتزِلّ قدمُ بعد ثبوتها وتذوقوا السوء**، في الدنيا، **بما صددتم عن سبيل الله، ولكم عذاب عظيم**، في الآخرة.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥﴾

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾

ما عندكم ينفد وما عند الله باق. ولنجزين الذين صبروا، عما ينفد، ولم يخصصه بالذكر لتبقى[2] له معنوية الإطلاق، **أجرَهم بأحسن ما كانوا يعملون**.

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾

من عمل صٰلحا من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمن، بهذا النبي، فهذا هو الشرط. **فلنحيينه حيوٰة طيبة**. هؤلاء هم ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ.[3] ويقال لهم: سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ،[4] فهو في الحياة والموت والقيامة بحال واحد. وأما تكرار قوله: **ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**، لأن الأول جزاء على الصبر[5] والثاني جزاء العمل. والأول مطلق، فيحتمل أن يُفهَم منه المؤمن والكافر، فقيده في الآية الثانية[6] بالإيمان وبذكر الذكور والإناث.

---

١ أي في الآية السابقة برقم ٩٢.

٢ ك ن: ليبقى.

٣ الآية ٣٢ من هذه السورة.

٤ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٧٣).

٥ يشير إلى الآية السابقة.

٦ ك: الثاني.

والأول يُشعر بالصبر عن الفاني وهو من باب النهي، ويرجع إلى قوله: وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ،[1] والثاني جزاء العمل على الباقي وهو من باب الأمر، ويرجع إلى قوله: وَأَوْفُواْ.[2] ولم يذكر الحياة الطيبة مع الصبر لأنه مناف. فجعل الجزاء عن الصبر في الآخرة، وجعل الجزاء عن العمل الصالح في الدنيا والآخرة. وإذا كان العمل الصالح يَعُمّ الصبر وغيرَه فقد عاد الجزاء الأخروي مستحَقًا بالصبر عن المنهي عنه وبالعمل المأمور به. وأما الحياة فهي في الدنيا عبارة عن اللذة والسرور إذا لم يُعْقب ذلك ضررا يُوفي عليه ولا لذة ولا سرورا لا يُعقبُ ضررا إلا إذا كان ذلك على وفق الشرع، وما كان على وفق الشرع فالعبد مأجور عليه أيضا وإن كان مُلْتَذًّا به. فأما الأفعال التي تَشُق مباشرتُها على الإنسان كالصوم وغيره، فإنه لمّا كان يُعقب من السرور / واللذة ما يُوفي على الألم [٢٣٧ظ] به درجاتٌ لا تتناهى، كقوله: إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ.[3] فقد عاد هذا ومثلُه من الكسب هو أطيب الحياة الطيبة،[4] لما بيناه من أن الحياة الطيبة هي اللذة والسرور إذا لم يُعقب ذلك ضررا يُوفي عليه. فقد بان أن أخص الخاص من الحياة الطيبة هو ما يكسب به الإنسان أطيبَ المكاسب[5] وأوفرها، لأنه إنما تَطيب الحياةُ مع الكسب. وكلما كان أوفر مقدارا وأعلى قدرا فطِيب الحياة[6] بحسب ذلك، والسرور به أشد. ولا أطيبَ من قوله تعالى: لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا، ولا أوفر من قوله تعالى: وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ.[7] فبان أن المراد بالحياة الطيبة هو أنه تعالى لِمن قام بالشرط يجعل حياته الفانية مع كونها طيبة في الدنيا طريقا للحياة الباقية الطيبة في الأخرى. ولا أحدَ أسعدُ ممن صارت[8] دنياه كلّها آخرة، لأنه فاز[9] بكلتيهما.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾

ولما كان هذا المطلوب لا يُنال إلا بالائتمار بالأمر والانتهاء عن النهي وذلك في القرآن أتبعه بقوله: فإذا قرأت القرءان فاستعذ بالله من الشيطٰن الرجيم. وقوله بالفاء: فإذا، يريد به الإكثار من الاستعاذة. فإذا قرأت القرءان فاستعذ بالله، فكيف في بقية

١ الآية ٩٤ من هذه السورة.
٢ الآية ٩١ من هذه السورة.
٣ سورة الزمر، ٣٩/١٠.
٤ ش – الطيبة.
٥ ك: الكاسب.
٦ ن – الحياة.
٧ سورة قٓ، ٥٠/٣٥.
٨ جميع النسخ: أصارت، والمثبت من م.
٩ جميع النسخ – فاز، والمثبت من م.

حركاتك وسكناتك التي أنت فيها غافل عن الذكر، فلهذا قال بالفاء، لأنه نهى عن عدة أشياء، كل واحدة منها للشيطان فيها تصرف ودعوة للإنسان، كنكث العهد، ونقض الأيمان وغير ذلك. وكل ذلك ينبغي أن يستعاذ بالله من الشيطان عند جميعه. ثم قال: **فإذا قرأت**، فافهم ذلك[1] واعمل به وتفهّمْ من هذا الأمر أن يكون المرء مستعيذا[2] بقلبه دائما حال كونه قارئا، فهو أمر يُفعَل حين القراءة فيحصل التدبر وينقطع الوسواس، فافهمه واعمل به.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠﴾

وعرّفنا بعد القول ما يجب مع الاستعاذة من الفعل، وهو الإيمان والتوكل فقال: **إنه ليس له سلطٰن على الذين ءامنوا وعلىٰ ربهم يتوكلون. إنما سلطٰنه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون**، وإذا لم يكن له[3] على المؤمنين سلطان فله أن يدعوَهم، فمتى أجابوه تسلط.

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٠١﴾

ثم ذكر وصف الذين هم به مشركون فقال: **وإذا بدلنا ءاية مكان ءاية**، ويشير بذلك إلى اليهود، أي إذا بدلنا آية من القرآن مكان آية من التوراة. وهذا الكلام منسوق بما تقدم من قبل، وهو قوله: تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ، ثم قال: فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ.[4] ولهذا ذكرهم ههنا بعد ذكر الشيطان. وذكر في الآيات الأُوَل، قوله تعالى: وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ.[5] ثم قال عنهم ههنا: **وإذا بدلنا**، وذكر المكان ليعلم أن المراد تبديل جملة الآية لفظا ومعنى، فافهم، لئلا يُفهَم أن المراد نسخ القرآن بالقرآن. **والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفترٍ**، إذا لم يأت بما عندهم. **بل أكثرهم لا يعلمون**، لأن العلماء منهم يعلمون صدق[6] القرآن

---

[1] ن – ذلك.
[2] ن: مستعبدا.
[3] جميع النسخ – له، والمثبت من م.
[4] الآية ٦٣ من هذه السورة.
[5] الآية ٦٤ من هذه السورة.
[6] ش + التوراة من.

ووجوبَ اتباع محمد عليه السلام وفَرض عليهم أن يسمعوا منه، وهذا مكتوب في التوراة إلى الآن.[1] وقوله:[2] **والله أعلم بما ينزل**، أي في كل زمن ولكل قوم هو أعلم سبحانه بالأصلح.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قل نزله روح القدس من ربك بالحق، مضاعف أَنزل نَزّل، أي في زمن طويل ومرّات[3] كثيرة،[4] **ليُثبِّت**، لكي يثبت، **الذين ءامنوا وهدى وبشرىٰ للمسلمين**، يبشرهم في كل مدة[5] بشيء حسن ويهديهم. وذكر المسلمين ههنا إعلاما أن النسخ والتبديل لم يكن عند المسلمين ولا عند المشركين، لأن المسلمين لا يقولون: إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ، والمشركين ليس لهم كتاب يبدل ويُنسَخ بل هم يعتقدون أن الجملة افتراء، فعاد لفظ التبديل مقصورا وراجعا إلى من له كتاب، وليس إلا اليهودَ والنصارى. وهذا يَعضُد ما قلناه من أن القرآن ينسخ ما قبله وأنْ ليس المراد أن ينسخ بعضه بعضا. ولهذا بعد هذه الآية ما إذا تأملته علمت أن الكلام عن اليهود.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

وهو قوله: **ولقد نعلم**، بمعنى ولقد علمنا فيما مضى وفي المستقبل نعلم أيضا كذلك، لأن الماضي والمستقبل عنده سبحانه بمنزلة واحدة، فلهذا وضع لفظ[6] الماضي على المستقبل. **أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر**، أي يهودي منهم. ولهذا يخبر بما في التوراة وهو لا يعرف القراءة. / فقال الله تعالى ردا على القائلين: **لسان الذى** [٢٣٨و]

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون. حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلا: لا أعود أسمع صوت الرب إلهي ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت. قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (التَّثنِيَة ١٨/١٥-١٩).

[2] ن – وقوله.

[3] ك: ومراة.

[4] ك ن: كثرة.

[5] ن: كل هذه.

[6] ن – لفظ.

يلحدون إليه أعجمى، ولم يقل: لسان الذين، ويريد بقوله: الذى، أي البشر الذي يقولون عنه: إنه يعلّم الرسول عليه السلام لسانه أعجمي. يقال: رجل أعجمي إذا كان في لسانه عُجْمَةٌ وإن كان من العرب، ورجل عجمي منسوب إلى العجم وإن كان فصيحا. وقوله: يُلحدون إليه، أي يشيرون إليه إشارة إلحاد وبهتان وكَذِبٍ منهم، فقال: لسان، لسان البشر، الذى يلحدون، هؤلاء بإشارتهم، إليه أعجمى وهٰذا لسان عربىّ مبين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾

﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾

إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بئايٰت الله وأولٰئك هم الكٰذبون. إن قيل: ما معنى وصفهم بالكذب أخيرا وقد تقدم أولاً؟ فالجواب أن الأول فعلٌ وصفهم به، لا يلزم اطراده دائما، والثاني نعتٌ نَعَتهم به، والنعت لازم أبدًا بَدًا[1] منهم الفعل أو لم يَبدُ، وذلك مهما لم يتوبوا. وأما الأول وهو الفعل إنما يوصف به حين ما يفعلونه فقط فهو وصف لا نعت. ولمّا تقدم قوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ، وهي ههنا القرآن، لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ،[2] علمنا أن هؤلاء كانوا قد آمنوا ثم ارتدّوا، فليس على الله أن يهديهم منه سبحانه، لأنه هداهم أولا كما وعد الحق بأسرهم بقوله: إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ.[3] فلمّا ارتدّوا لم يبق عليه أن يفعل إلا إن تابوا هم فيتوبَ عليهم كما فصّلنا مثل هذا في آل عمران.[4] فليس هؤلاء ممن طبع على قلوبهم. فاقرأ جميع الآيات ههنا تفهمْ.[5]

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾

ولهذا أوضحه ههنا بقوله: من كفر بالله من بعد إيمٰنه. فهذا هو الذي ليس على الله أن يهديه إلا إن تاب. فأما إن عاد بعد التوبة إلى الكفر، ثم إلى الإسلام، ثم إلى الكفر

---

[1] ش: أبدا بدأ.

[2] من الآية السابقة.

[3] سورة الليل، ١٢/٩٢.

[4] انظر: سورة آل عمران، ٣/٨٨-٨٩، ١٢٨.

[5] جميع النسخ: يفهم.

طبع على قلبه فلا يهديه الله أبدا، إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمٰن، ولٰكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم. الغضب في الدنيا والآخرة والعذاب في الآخرة محقق، وفي الدنيا لا يكون إلا لعلهم يرجعون. فمتى طبع على القلوب لا يعذبهم في الدنيا بل ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾[1] فافهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

ذٰلك بأنهم استحبوا الحيوٰة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكٰفرين. ولم يحتج إلى ذكر التردد بين الكفر والإيمان بعده[2] [لأنه] ذكرها في آل عمران[3] وفي النساء،[4] كما بيّنّا إنباءً[5] عن ذلك بقوله ههنا: أولٰئك الذين طبع الله علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصٰرهم وأولٰئك هم الغٰفلون.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

ولمّا كان قد يُفهَم من هذا الكلام أنه تعالى لما طبع على قلوبهم بعد الارتداد أول مرة عادوا إلى الكفر نَفَى عن نفسه سبحانه ذلك بقوله: ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جٰهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم، فقوله: من بعدها، أي بعد الهجرة. ويجب أن تَعلم أن "مِن" لابتداء الغاية في الموضعين، فالأُولى أراد بها أنهم لا يمكثون بعد الفتنة زمانا يُهاجِرون بل من بعدها. وكذلك قوله في "من" الثانية، لأنها على صورة الجزاء منه تعالى، فلا يمكث بالمغفرة والرحمة بل من بعد الهجرة. ولهذا قال: ثم، وهذا فائدة قوله: من بعدها، فافهمه.

---

[1] ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٥).

[2] ن ك: بعدة.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٩٠).

[4] انظر: سورة النساء، ٤/١٨، ١٣٧.

[5] ش: آنفا.

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

ذكر ما يخوّف به الكفار الغافلين في الدنيا عن التوبة وعن طلب المغفرة والرحمة فقال: **يوم تأتي كل نفس تجٰدل عن نفسها**، أي عن إياها. ولما قال: **وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون**؛ ضرب لذلك الجزاء الأخروي مَثَلا يُشبِهه من الجزاء الدنيوي، فعطف بالواو على "وضرب" المذكورة قبلُ[1] في ذلك المثل، وذكر هذا المثل لمشابهته لِما قبله من الآية المذكورة ههنا فقال: **وضرب الله مثلا**، أي في الدنيا يبين لكم به المجازاة. **قريةً**، نصب على المفعول بالضرب، لأن هذا مما وقع وجعله الله مثلا وليس كالمثل المضروب لفظا فقط. فليس تقديره: بقرية؛ **كانت ءامنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله**، إذ لم تقم بالشكر بجهدها،[2] **فأذٰقها الله لباس الجوع والخوف**، استعارَ اللباس إشارةً إلى اشتمال ذلك عليها كما يشتمل اللباس، **بما كانوا يصنعون**، فلم تقم بالشكر أقوالا ولا أفعالا، لأن فعل الشاكر[3] طاعة وفعْلَ الكافر / معصية. فضرب الله [٢٣٨ظ] القرية مثلا لبقية القرى التي في سائر الدنيا، فلو قيل: هي القدس لجاز. والمعنى أنه تعالى جزاها في الدنيا بما تستحقه،[4] فكيف لا يقدر أن يجازي في الآخرة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ثم عرّفَنا أن هذا الجزاء لم يقع منه في الدنيا إلا بعد الإنذار بالرسل فقال: **ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظٰلمون**.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

ثم خاطب الحاضرين والآتين بقوله بالفاء: **فكلوا مما رزقكم الله حلٰلا طيبا واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون. إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير**

---

[1] ن: قيل. | لعل المؤلف يشير إلى السابقة برقم ٧٦.

[2] ن: تجحدها.

[3] ن: الشكر.

[4] ك: بما يستحقه.

وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد، استغنى بالفاء عن قوله: فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ،[1] وذلك بقوله: فإن الله غفور رحيم، أي فكلوا.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾

ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب، أي من الكذب: هٰذا حلٰل وهٰذا حرام لتفتروا على الله الكذب. إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾

متٰع قليل، لهم في الدنيا وأسقط "لهم" أولا لقوله بعدها: ولهم، أي في الأخرى، عذاب أليم، ولم يذكر في الأخرى ليكون عاما.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾

وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل، وما ظلمنٰهم، أي بما حرمنا عليهم بعد نزول القرآن كما بيّنّاه من أنهم هم حرّموا ذلك بعد ما أحلّه القرآن. ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ١١٩﴾

وقوله: ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهٰلة. لمّا تقدم مثل هذه الآية[2] وذكر هذه بعد ذكر اليهود[3] تَوهّم من لم يتفقه أنه إنما كررها من أجلهم وليس كذلك. وإنما لمّا ذكر التحريم[4] أتبعه بما حرم على الذين هادوا، أي ولم يُحرّمه على المسلمين. فالآية الأولى في حق الكفار الذين ارتدّوا والمنافقين،[5] لهذا ذكر الهجرة بعد ما فُتِنوا بالردة. وهذه في حق المسلمين إذا استعمل أحدهم محرّما بجهالة كما تقدم قبل هذه الآية.[6]

[1] انظر: سورة البقرة، ١٧٣/٢.

[2] لعل المؤلف يشير إلى الآية ١١٠ من هذه السورة.

[3] يشير إلى الآية السابقة.

[4] أي في الآية ١١٦ من هذه السورة.

[5] ش ك: المنافقين.

[6] لعل المؤلف يشير إلى الآية ١١٥ من هذه السورة.

ولهذا قال ههنا: **ثم تابوا من بعد ذٰلك وأصلحوا**، ولم يقل: ثم أسلموا. **إن ربك من بعدها**، أي بعد التوبة، **لغفور رحيم**.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

ثم لمّا ذكر الذين هادوا مع ذكر المشركين قال ما يردّ به ويجعله حجة على الفريقين: **إن إبرٰهيم كان أمة قانتا لله**. وقوله: أمة، أي قائم به الناس. وأصل "أمة" من أمّ يَؤُمّ أمّة مثل كَبّ يَكُبّ كُبّة. **حنيفا ولم يك من المشركين**.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

شاكرا لأنعمه، أي فمن زعم أنه يقتدي به فليكن كذلك. **اجتبٰه وهدٰه إلى صرٰط مستقيم**، بما[١] عَلِمَه منه سبحانه، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.[٢] فكلّ عبد اجتباه واصطفاه إنما بدأه بذلك وكتبه له عملا بالعلم وبمقتضى الحكمة لا بالميل إلى بعض العباد دون بعض. وبهذا يَتِمّ في العقول الصحيحة تعظيمُ الأنبياء عليهم السلام، ويتحقق سبقُ العلم والغنى عن الخلق وتعظيمُ الحق في الأفهام. ولهذا قال ههنا: **وءاتينٰه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصٰلحين**.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبرٰهيم، الاتباع في الصفتين المذكورتين، **حنيفا**، نصب على الحال، أي اتبعه أنت أيضا حنيفا. وأضاف الملة إلى إبراهيم، وجعل الاتباع للملة ليكون النبي عليه السلام من ملة إبراهيم، والنبي متبوع فتكون[٣] أمتُه أيضا تابعةً للملة التابعة لإبراهيم في الصفتين، وهما أنه كان، **حينفا وما كان من المشركين**، أبدا، لأنه أتى رشدَه قبل البلوغ.[٤]

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

---

١ ن: مما.

٢ سورة الأنعام، ٥٣/٦.

٣ ك ن: فيكون.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، ٥١/٢١).

ولمّا كان اليهود في عديد المشركين وكلاهما[1] يُنسب إلى إبراهيم قال بعد ذكر المشركين: **إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه**، لأنهم فِرَق، وكلٌّ منهم يحرّم في السبت صورة، ويحل صورة يخالف بذلك غيرَه من الفِرَق الثلاث. **وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيٰمة فيما كانوا فيه يختلفون**. وقد تقدم: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2] ولم يكن إبراهيم يَعمل السبت، وهذه براءة من السبت.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

ثم قال الله تعالى لرسوله عليه السلام آمرا ومعلّما لكل داع إلى الله: **ادع إلىٰ سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**، يلزم أن يكون الداعي قد أُوتي حكمة وحسنَ خلقٍ لقوله: **وجٰدلهم بالتى هى أحسن**، إذ من لم يَملك نفسه لم يَقدر على ذلك. **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

[٢٣٩و] ولما كان قد يقع في الأقوال من الاعتداء كما يقع في الأفعال / جاء بعده: **وإن عاقبتم**، أي باغيا، فإن العقاب لا يكون إلا بعَقِب الذنب من المبتدئ به. فنهى الله أن يتبدئ مؤمنٌ بما يستحق به عقابا لا في قولٍ ولا في فعل. وقوله: **فعٰقبوا بمثل ما عوقبتم به**، أي من الله الذي إنما سلّط الباغي عليكم بذنوبكم. **ولئن صبرتم لهو خير للصٰبرين**، قد بينا المعنى في مثل هذا اللفظ.

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

واصبر، تقديره أيها الصابر، **وما صبرك إلا بالله**، المعنى بإعانته، ومنه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3] أي على ما تخاف[4] وفيما ترجو. ولمّا كان الصبر يتخلل كل حال من أحوال الإنسان لزم أن يقول ههنا عند ذكره: **وما صبرك إلا بالله**: إذ لا حول ولا قوة إلا بالله. والمعنى وما صبرك إلا بإعانة الله لك، وإلا فلا فائدة في الأمر إذا لم يكن ذلك إلى الصابر بوجه.

---

[1] ش: وكلاها.

[2] الآية السابقة.

[3] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (سورة الفاتحة، ٥/١).

[4] ك ن: على ما يخاف.

فإذا كان له اختيار أو طلبٌ[١] من الله وهو يمده حَسُنَ الأمر به، فالإنسان ليس له من تلقاء نفسه صبرٌ، ولا قول ولا فعل، ولا ذرةٌ إلا بالله. وإنما وهبه[٢] الله أن يتوجه ويدعوَ ويختار. فإذا أمدّه الله عز وجل بذلك الصبر أو غيره لا يكون مجبَرا بل يكون بالحقيقة هو الصابر ولكن بالله. فلا يكون أولا كالمستقل بنفسه الغني بذاته، ولا يكون أخيرا كالمجبَر على فعله.

فإن قلت: الاختيار والسؤال والتوجه والاستعداد وما شاكل ذلك كلُّه ليس إليه أيضا؟ قلت: هو كذلك إلا إذا جعله الله إليه، أعني إلى الإنسان، ومن حيث أنه أمره به فقد مكّنه منه. ولهذا كانت الحجة عليه وإلا كانت له. وما أحسنَ ما سمعتُه من علي بن أبي طالب أنه كان يقول في دعائه: "اللهم من أحسن فبفضلك فاز، ومن أساء فبخطيئته هلك؛ لا المحسنُ استغنى عن رَفْدك وتوفيقك ومعونتك، ولا المسيء عليك استبدّ بأمر خرج عن قدرتك. فيا مَن هو هكذا، ولا هكذا غيره صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وافعل بي ما أنت أهله فإنك أهل لكل جميل". وهذا الصبر ههنا إن كان خاصا بالنبي عليه السلام فهو عام للناس. وتقدير الكلام: ادع[٣] وجادلهم واصبر. **ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق**؛ بفتح الضاد: ما ضاق به الصدر، وبكسرها[٤] ضد السعة في الثوب وغيره، **مما يمكرون.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾

إن الله مع الذين اتقوا، المخالفة أمرا ونهيا. **والذين هم محسنون**، يُطلَق على ما تقدم، ويختص بالنوافل مع الله ومع الناس، نسأل الله ذلك.

١ ن: وطلبا.
٢ جميع النسخ: ذهبه، والمثبت من م.
٣ ن: أودع.
٤ قرأ ابن كثير بكسر الضاد وافقه ابن محيصن بخلفه والباقون بالفتح (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٥٤).

سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

سبحٰن الذى أسرىٰ بعبده، ليست "أسرى" متعديا بل كقوله: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ،[١] فَأَسْرِ بِعِبَادِى،[٢] **ليلا**، أي في ليلٍ. وإنما خُصّت بالذكر وإن كان الإسراء لا يكون إلا في ليل ليعرّفَنا أن الإسراء كان في بعض من الليل. ولهذا لم يقل: ليلة. ولفظة "سبحٰن" بيّنّاها لغة في هذه السورة عند قوله: وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ.[٣] وأما قوله: **من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا**، وهو الأبعد، يريد أبعد المساجد من البيت العتيق، إذ ليس هو كمسجد النبي عليه السلام بالمدينة في القرب. فهو أبعد بيت الله من البيت العتيق، إذ هذه المساجد الثلاث هي المشارُ إليها[٤] والمقصودةُ بالزيارة والمشهورة بالبركة، فهذا هو الأقصى وإن كان في أدنى الأرض إلى السماء. والعقل يقضي أن الصعود يجب أن يكون من مكان هو أقرب إلى المصعود إليه من غيره. وفي التوراة أن يعقوب عليه السلام نام في الأرض المقدسة فرأى في منامه سُلَّما منصوبا ورأسه يداني السماء، وملائكة الله صاعدين ونازلين به، فانتبه مرعوبا وعمل مَسْطَبَة[٥] وقرّب قربانا وقال: ليس هذا إلا بيت الله، وهذا باب السماء.[٦] وقوله: **الذى بٰركنا حوله**، وهو في أمر الدنيا

---

١ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ (سورة هود، ١١/٨١؛ وسورة الحجر، ١٥/٦٥).

٢ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ (سورة الدخان، ٤٤/٢٣).

٣ الآية ٤٤ من هذه السورة.

٤ ن: إليه.

٥ ش: مسطبة. | المَسْطَبَةُ والمِسطَبة والجمع: المساطب: المَجَرَّة، مكان ممهّد مرتفع قليلا يُقْعَد عليه. موضع يجتمع فيه الفقراء والسائلون (لسان العرب، «سطب»؛ والمنجد لِلُوِيس المَعْلُوف، «سطب»).

٦ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران. وصادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت، وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه، فاضطجع في ذلك المكان. ورأى حلما، وإذا سُلَّمٌ منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء، وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهوذا الرب واقف عليها، فقال: أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك. ويكون نسلك كتراب الأرض، وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا، ويتبارك فيك، وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب، وأردُّك إلى هذه الأرض، لأني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به. فاستيقظ يعقوب من نومه وقال: حقا إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم!. وخاف وقال: ما أَرْهب هذا المكان! ما هذا إلا بيت الله، وهذا باب السماء» (التَّكوِين ٢٨/١٠-١٧).

من جهة النبات والأشجار التي في جباله صيفا وشتاء بخلاف كثير البلاد كأرض الحجاز ومصرَ وأمثالها. ولا يلزم أن تكون[1] هذه البركة في الدنيا ليست إلا حوله فقط. وأما في أمر الآخرة وهو المقصود فهو بركة الأنبياء الذين بُعِثوا حوله دائما. **لنريه من ءايٰتنا**، ما أريناه، **إنه هو السميع البصير**.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾

وءاتينا موسى الكتٰب، من قبلُ، كما آتينا محمدا عليه السلام. **وجعلنٰه هدى لبنِي إسرٰءيل**، وأمرناهم، / **ألا تتخذوا من دونى وكيلا**. [٢٣٩ظ]

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

ذرية، منصوب على النداء، وذلك أنه لمّا قال عن بني إسرائيل حكاية: لَا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا،[2] قال لسائر الناس لأنهم كلُّهم ذرية فناداهم: يا، **ذرية من حملنا مع نوح**، لأنه خَصّ بالذكر بني إسرائيل بالكتاب وجعله لهم هدى، وبعد ذلك ذكر فيه أمرا آخر بالتوحيد. وكان الأمر يليق أن يكون مع الإخبار عن الماضين أمرا لسائر الناس أجمعين، فناداهم بهذا الاسم الجامع للخلق كلهم فصاحةً. فالنداء خاص ببني إسرائيل. وتخصيص بني إسرائيل بهذا الإسم ههنا دون غيره من الأسماء يُفهَم منه العموم لمن ينطلق عليه هذا الإسم. فإن الكتاب وإن كان إلى بني إسرائيل لكن فيه من التوحيد ما يجب على سائر الناس وإن لم يكن موسى مبعوثا إليهم. ولهذا جاء هذا[3] الخطاب بلسان المبعوث إلى سائر الناس أجمعين. ولمّا ذكر نوحا وصفه بقوله: **إنه كان عبدا شكورا**، تعليما لنا بأن اتباع الأنبياء إنما يكون بالاتصاف بصفاتهم.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

وقضينا، هذه الكلمة، أعني القضاء تأتي بصور من المعنى، كل معنى بموضعه أليق والأصل واحد. ومعناه ههنا وأوحينا، ولكنه جاء بلفظ القضاء راجعا إلى الحكم. وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ[4] بمعنى حكَمَ. ومنه القاضي، لأنه حاكم، والحاكم كالآمر،

---

[1] جميع النسخ: أن يكون، والمثبت من م.

[2] من الآية السابقة.

[3] ن: بهذا.

[4] الآية ٢٣ من هذه السورة.

والأمر لا يكون إلزاما بل قد يكون تارة ندبا وتارة حتما، فافهم ذلك جيدا. وقوله: إلى بنى إسرٰءيل فى الكتٰب، التوراة، لَتُفسِدُنَّ فى الأرض مرتين ولتعلُنّ علوا كبيرا.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥﴾

فإذا جاء وعد أولىٰهما، أي ما وعدهم من العذاب على الفساد بعد العلو في المرة الأولى، بعثنا عليكم عبادا لنا، أي مسلّطين عليكم، أولى بأس شديد فجاسوا، الجَوَسان بالتحريك الطّوفان[١] بالليل، والرجل يَجُوس الأخبار، أي يطلبها باستقصاء، خِلٰلَ، أي في خلال، الديار، وكان وعدا مفعولا.

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧﴾

ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددنٰكم بأموٰل وبنين وجعلنٰكم أكثر نفيرا، النفير سرعة الخروج إلى الصريخ، مِن نَفَرَ الوَحشُ، ويشار به إلى الجمع و[إلى] النافر.[٢] وتقديره وقلنا لهم في الثانية: إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها. فإذا جاء وعد، المرة، الآخرة،[٣] تقديره: بعثنا عليكم أيضا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار. فاكتفى بذكر البعثة الأولى عن التكرار، ودل عليها باللام فصاحةً وإيجازا فقال: ليسُـٔوا، من السوء، وجوهكم وليدخلوا المسجد، الأقصى، كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما علوا، أي مهما علوا عليكم، كقوله أولا: وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا،[٤] ويقال: تبَّره، أي كسره وأهلكه، تتبيرا.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾

عسىٰ ربكم أن يرحمكم، أي بما ابتلاكم به فيكفّر سيّآتكم لتتوبوا وترجعوا. وإن عدتم، أي بعد التوبة إلى الذنب، عدنا، إلى العقاب في الدنيا. وجعلنا جهنم

---

١ طاف بالقوم وعليهم طَوْفاً وطَوَفاناً ومَطافاً وأطافَ: استدار وجاء من نواحِيه، وأطاف فلان بالأمر إذا أحاط به (لسان العرب، «طوف»).

٢ ش ك: النافر. | أي ويشار بكلمة "النفير" إلى الجمع وإلى المفرد.

٣ ش: الآخرى. | أي المرة الآخرى.

٤ الآية ٤ من هذه السورة.

للكٰفرين حصيرا، بمعنى حاصر، والمراد مَحْبَسًا يُحبسون ويُحصرون بها. انظر كيف فصل ههنا بعد قوله: لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ،[1] وقال: وإن عدتم، أي ثالثة، وذكر "جهنم" بعدها، فهو كقوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا،[2] وهو الثالثة إلى ما فوقها، فافهم هذا جيدا.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾

إن هٰذا القرءان يهدى، يدل، كقولهم: هديته إلى الطريق، أي دَلَلْته، ومنه وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ،[3] أي لَتَدُلّ، فلا يناقض قوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ،[4] أي لا تجبره[5] كَرْها على الإيمان، فليس في قدرتك غيرُ الدلالة إلى السبيل. يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصٰلحٰت أن لهم أجرا كبيرا.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾

وقوله: ويدع الإنسٰن، أي ويطلب، والواو فيه واو الحال، والباء في قوله: بالشر، كما يقال: دعوت بماء فافهمها لئلا يُشكل عليك المرادُ، ومثلها في قوله: يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ [ءَامِنِينَ].[6] ولمّا قدم ذكر القرآن وأنه يهدي إلى السبيل الأقوم، وهو الموصِل إلى نعيم الآخرة ويبشر المؤمنين وينذر الكافرين قال ما معناه: قد أنزلنا إليهم ما هذا وصفه وبيّنّا به كل خير وشر. والإنسان مع هذا البيان يترك التأمل إلى ما جاء به القرآنُ من الهدي إلى[7] الآخرة التي هي خير الباقي. ويَدْعُ [الإنسٰن بالشر]، أي ويطلب الدنيا التي هي الشر الفاني، وذلك لعجلته. فافهم هذه الآية بما قبلها وما بعدها[8] متأنيا مكررا لفظَ الآيات. / وخذ ما قلته لك عند التكرار في ذهنك ينحلّ لك ما أَشكل منها [٢٤٠و]
عليك. ويتحقق أن المراد بالشر ههنا الدنيا الفانية، أي بما عاقبته شر، فالإنسان يدعو به،

---

[1] الآية ٤ من هذه السورة.

[2] ﴿... لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ (سورة النساء، ١٣٧/٤).

[3] سورة الشورى، ٥٢/٤٢.

[4] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (سورة القصص، ٥٦/٢٨).

[5] ك ن: لا يجبره.

[6] سورة الدخان، ٥٥/٤٤.

[7] جميع النسخ – إلى، والمثبت من م.

[8] جميع النسخ – وما بعدها، والمثبت من م.

دُعَاءَه بالخير، وكان الإنسٰن عجولا. العجلة طلب الشيء قبل وقته، والسرعة عمل الشيء في وقته. وإلى مثل هذه الآية يرجع معنى قوله: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ،[1] وإن جاز غيره هناك.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

وجعلنا اليل والنهار، أي وقد جعلنا[2] الليل والنهار ءايتين، بدليل قوله: فمحونا ءاية اليل، القمرَ، وجعلنا ءاية النهار، الشمسَ، مُبصِرة، تُبَصِّركم بالأبصار، لتبتغوا فضلا من ربكم، وبالبصائر، ولتعلموا عدد السنين والحساب. وكلّ شيء فصلنٰه تفصيلا.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾

وكلّ إنسٰن ألزمنٰه طٰئره فى عنقه، طائرُه ههنا عمله الذي قلّده، وسمّاه الطائر لكون العرب تَطَيَّر بالسانح والبارح،[3] أي ما يرجوه ويخافه. وقوله: فى عنقه، كما تقول هذا في عنقك، أي لازم لك. والمراد بالطائر ههنا عمل السوء، وقد بيّنّا في سورة يٰس.[4] ونخرج له يوم القيٰمة كتٰبا يلقٰه منشورا.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

ولمّا قدم ذكر طلاب الدنيا الذين يظنون أنها خير ووصفهم بالعجلة قال بعده ما معناه: كيف يجوز لهم استعجال الفاني وقد جعلنا الليل والنهار ليكتسبوا فيهما للباقي فنجزي كُلًّا بكسبه.[5] ولهذا أتبعه بقوله: من اهتدىٰ فإنما يهتدى لنفسه. ومن ضل فإنما يضل عليها. ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ. وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولا.

١ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ (سورة الرعد، ٦/١٣).

٢ ن – جعلنا.

٣ السانح ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح ما أتاك من ذلك عن يسارك. قال أبو مالك: السانح يُتَبرَّك به، والبارح يُتشاءم به (لسان العرب، «سنح»).

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (سورة يٰس، ١٨/٣٦-١٩).

٥ يشير المؤلف إلى الآية ١١ و١٢ من هذه السورة.

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾

وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، بالتوبة بعد بعث الرسول وعصيانهم له. **ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرنٰها تدميرا**. وإنما أمر المترفين لتمكُّنِهم وقدرتهم، والمُتْرَف وهو الذي أترفته النِّعَمُ، أي أطْغَتْه. وهؤلاء هم الذين بهم أي بسببهم تكون النعمةُ والنقمة لقدرتهم. والمعنى وإذا أردنا أن نُهلك قريةً قد عصَتْ[1] رسولَنا فاستحقتِ الإهلاكَ بعصيانها أمهلناها وأمرناها بالتوبة على ألسن العلماء والأولياء. ولهذا لم يقل: أرسلنا رسولا آخر، بل أمرنا ففسقوا فيها مترفوها، فلهذا حق عليها القول. وهذا معلوم من قوله: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا.[2] والعذاب ههنا يريد به عذاب الدنيا، كقوله: وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ،[3] وكقوله: لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ[4] وأمثاله.[5] فلا يكون العذاب والاستئصال في الدنيا إلا بعد بعثة الرسل. فإذا لم يُفِد فيهم العذابُ ولم يحصل به التوبة واستحقت[6] الإهلاك بظلمها أمر المترفين بألسنة العلماء والأولياء كما قدمنا، فإن أصرّت دمرناها.[7] ولهذا غير العبارات ولم يقل: وإذا[8] أردنا أن نُدمّر[9] قرية. فتأنَّ لتفهم من لفظ الآية لا من لفظي بل به.

وأما ما يُشكل في هذه الآية فهو موضعان. أحدهما قوله: **وإذا أردنا أن نهلك قرية**، فهو من المتشابه الذي يُرَدُّ إلى المحكم، ومحكمه[10] قوله تعالى في سورة القصص: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا، أي فإن تابوا فإنا لا نهلكهم، ولهذا بعده: وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ،[11] أي لا نفعل الإهلاكَ بهم أبدا بوجه إلا مع الإصرار والظلم. فقد بان هذا المتشابه من المحكم. وأما الموضع الآخر فهو قوله: **أَمَرْنا**، فهو أيضا من المتشابه، ومحكمه في قوله تعالى: قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ.[12]

---

[1] ك ن: قد عصيت.

[2] من الآية السابقة.

[3] سورة السجدة، ٢١/٣٢.

[4] ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٤٢/٦).

[5] ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٣٠/٧)؛ و﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٦٨/٧)؛ و﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (سورة الزخرف، ٤٨/٤٣).

[6] أي قرية هؤلاء المذكورين.

[7] ك: دمرنا.

[8] ن: إذا.

[9] جميع النسخ: ندبر، والمثبت من م.

[10] ن – ومحكمه.

[11] سورة القصص، ٥٩/٢٨.

[12] ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ (سورة الأعراف، ٢٨/٧).

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾

ولمّا[1] ذكر ههنا أننا لا نهلكهم إلا بظلمهم من بعد إرسال الرسول والأخذ بالعذاب ليتوبوا والأمر لهم بالتوبة والطاعة على ألسنة العلماء أخيرا قال بعده: **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح**، وإلى الآن، أي بعد ما سلكنا[2] بهم هذا المسلك[3] وفعلوا هذا الفعل الذي به حَقَّ عليهم القولُ. ولهذا بعده: **وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا**، مقدم ومؤخَّر لأجل أواخر الآي.[4]

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾

ثم بين ما قلناه أولا في قوله: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾[5] بقوله ههنا: **من كان يريد العاجلة**، وهي الدنيا، **عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد**، أي بحسب إرادتنا / لا بحسب إرادته. **ثم جعلنا له جهنم يصلىٰها**، يثواها،[6] **مذموما مدحورا**، الدَّحر[7] الطرد والبعد. [٢٤٠ظ]

﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾

﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾

[أفعال العباد]

اعلم أنه تعالى بين أن الإنسان هو ذو الإرادة والمُمِدُّ هو الله تعالى. ومن عرَف هذا جاز أن يقال عنه من وجه: إنه قد عرف نفسه وعرف ربه.[8] وبهذه الصورة جاز أن يقال: إن أفعال العباد أفعال الله فهي منسوبة إليه، لأنه المُمِدّ بالخير والشر. وجاز أن يقال: إنها أفعالهم، لأنه تعالى إنما أمدّهم بما اختاروه بعد تعريفهم بما يجب لهم أن يختاروه وتمكينهم من الاختيار له. ولهذا لم يؤاخذهم إلا بعد البلوغ، ورفَع القلم عن النائم

---

١ ن: ولا.

٢ ك: ما ملكنا.

٣ ن: هذا الملك.

٤ أي لأجل الوزان.

٥ الآية ١١ من هذه السورة.

٦ ثَوَى يَثوي ثَوَاءً وثويًا المكانَ وفيه وبه: أقام (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «ثوي»).

٧ ن: الذم.

٨ انظر لمعرفة المزيد: اللباب لابن عادل، ٤٩٨/٢، ٥٤٧/١٩.

وعن الصبي والمجنون.[1] وهنا نكتة وهي أنه يجوز أن يقال: إن سائر أفعالهم التي هي باختيار منهم أفعال[2] له. ولا يجوز أن يقال: إن سائر أفعاله أفعال لهم، لأنه تعالى يفعل بواسطة وبغير واسطة. ولأنه تعالى قد يُجبرهم على بعض الأفعال بالخير والشر فلا يعاقبهم ولا يثيبهم على ذلك، وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ.[3] ومع هذا كله جعل لهم[4] مخرجا بالتوبة والدعاءِ والعمل الصالح. ومن تحقق [عنده] أن سائر أفعال العباد -وهي[5] منهم- أفعال الله فكيف يغيب عنه الله؟ وهل بقي هذا يخشى إلا من إرادة نفسه واختياره لما لم تُجوِّز[6] الشريعةُ اختيارَه؟ ولهذا قيل: من راقب الله في خَطَرات قلبه عصمه في حركات جوارحه. وهذه هي عقيدة السنة المخالفة للبدعة. وهي الموافِقة للعقل الصحيح والكتاب والسلف الصالح رضي الله عنهم. وهذا كله يُعلَم من قوله تعالى: **كلا نمد هٰؤلاء وهٰؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا**، مُحرَّما على فاسق لفسقه.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

انظر كيف فضلنا بعضهم علىٰ بعض، في الدنيا بما يفنى، كذلك نُفضِّل من يستحق في الآخرة بما يبقى. **وللآخرة أكبر درجٰت وأكبر تفضيلا**، وهذ التفضيل في الدنيا هو بما سبق في العلم الأزلي من استحقاق العباد. وليس ذلك راجعا [إلى الله فقط] أي[7] كما يَظن الجَهَلَةُ بالله إذا سمعوا أن الكل راجع إلى المشيئة منه سبحانه. فافقه أن المشيئة على وفق الحكمة، وكلاهما على مقتضى العلم السابق بما يكون من أمر العباد.[8] وهذا أمر مطلق في كل مخلوق حتى الأنبياء. فإن الله لم يختصّ أحدا منهم بنبوة أو غيرها عن هوى بل عن علمٍ وحكمة. وقد بينا ذلك عند قوله: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ،[9] وكذلك في الكهف[10] وعند قوله: مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ،[11] فافهمه جيدا هناك.

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن القلم رُفع عن المجنون حتى يُفيق، وعن الصبي حتى يُدرك، وعن النائم حتى يستيقظ» (صحيح البخاري، الحدود ٢٢؛ وسنن أبي داود، الحدود ١٧؛ وسنن النسائي، الطلاق ٢١).

[2] ن – أفعال.

[3] ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٢٥).

[4] ن: لكم

[5] جميع النسخ: وهو.

[6] ك ن: لم يجوز.

[7] ك ن: إلى.

[8] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى أن جزاء أفعال العباد الاختيارية من خير وشر تتعلق به مشيئة الله ومشيئة العبد.

[9] سورة الذاريات، ٥١/٥٦.

[10] لعل المؤلف يشير إلى تفسير الآية ١٦ من سورة الكهف.

[11] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الدخان، ٤٤/٣٨-٣٩).

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال ههنا ما تقديره: وإذ قد علمت أن لك الإرادة ولنا الإمدادَ، لا تجعل مع الله إلٰها ءاخر فتقعد، في دار الدنيا، مذموما، عند الله ورسوله والمؤمنين،[١] مخذولا، لا ناصر لك.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

وقوله: وقضىٰ، معناه: لا تَجْعَلْ وقد قضى، ربك ألا تعبدوا إلا إياه. ومن ههنا تَعلم[٢] أن القضاء لا يريد به الحتم والإلزام[٣] من الله، أي لا يريد به ما لا بد من كونه إجبارا لعباده،[٤] لا حتم،[٥] كما يقال: قضى بمعنى حَكَم. ومنه القاضي الحاكم في الذي يقضي القضيةَ بالحق إعلاما بالواجب فيها لا إلزاما وإجبارا عليها، فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ.[٦] وقوله: وبالوٰلدين إحسٰنا، أي وقضى إحسانا[٧] بالوالدين. إما يَبْلُغَنَّ، ومن قرأ يبلغانِّ مشددة النون[٨] فليست نون التثنية بل هي النون التي يؤكَّد بها الشروط، كقوله: فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ.[٩] عندك الكِبَرَ أحدُهما أو كلاهما، إنما ذكر الكبر لِما يعتري الكبير[١٠] من ضعف الجسم، كقوله: ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً،[١١] وضعفِ العقل، كقوله: وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ.[١٢] والذي[١٣] يجهل على والده إنما يَصدّه قوة الوالد أو عقلُ الوالد، فأمر الولد بطاعة الوالد، إذ لا صادّ له منه بالأقوال ولا بالافعال بل هو على هذه الحال. ولهذا عظّم النهي بقوله: فلا تقل لهما أُفٍّ،[١٤] وهي كلمة تقال: استقذارَ[١٥] منشورٍ أو منظور؛[١٦] وأصلها نفخة كأن الإنسان لمَا شَمّ

---

١ جميع النسخ + بهم.

٢ ش ك: نعلم.

٣ جميع النسخ: ولا إلزام، والمثبت من م.

٤ ن: لعباد.

٥ ك: لا ختم.

٦ سورة فاطر، ٣٩/٣٥.

٧ ك - إحسانا، صح هـ.

٨ قرأ حمزة والكسائي وخلف بألف التثنية قبل نون التوكيد الشديدة المكسورة، والباقون بغير ألف وفتح النون (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٥٦-٣٥٧).

٩ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة الأنفال، ٥٧/٨).

١٠ ك ن: الكبر.

١١ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ (سورة الروم، ٥٤/٣٠).

١٢ سورة يٰس، ٦٨/٣٦.

١٣ أي والولد الذي.

١٤ أُفّ: كلمة تَضَجُّرٍ (لسان العرب، «أفف»).

١٥ ش: استعذار؛ ك: استغذاء.

١٦ ش: منشورا ومنظورا.

[٢٤١و] رائحةً كريهةً أَنِف[١] / أن يدخل ذلك النفس فردّه بنفخة. فأمر الله تعالى لكل ولد أن لا يقول لوالديه[٢] إذا رأى منهما ما يقتضي أن يقول "أف"، فكيف أكثرَ من ذلك. ولهذا[٣] بعده: **ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما**، صفة القول كقوله: وَمَقَامٍ كَرِيمٍ،[٤] بمعنى مُكَرَّم من التَّكْرِمة. فافهم كيف يجب أن يكون القول لهما.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

واخفض لهما جناح الذل. خَفَض الجناح: "ذَلّ، وخفض جناحَ الذُّل" مبالغة. **من**، فرط، **الرحمة**. **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا**. وهذا كلام يلزم لكل ولد وإن كان أبواه مشركَين، فإن هذا ومثله من جملة المعروف. ولكنه إنما يجب في حال الحياة لقوله عن الأبوين المشركين:[٥] وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا.[٦] وأما الذي نهى الله عنه فهو أن يستغفر[٧] لأبويه المشركَين في الدنيا إذا تبين عداوتُهما لله.[٨] وإنما ذكر[٩] ذلك عن الوالدين مع عظمِ حقهما تنبيها على التبري من كل مشرك غيرهما. وأما ما عدا المشركين كأهل الكتابين فللمسلم أن يقول[١٠] وأن يفعل معهما مهما شاء من الخير ما داموا في الدنيا، وهو طامع في إسلامهم ولم تتبين له العداوةُ لله. ولكنّ هذا كلّه بشرط أن لا يتخذهم أولياء.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

وقوله: **ربكم أعلم بما فى نفوسكم**، أي إذا فعلتم ما تفعلونه مع الوالدين المشركين وقلوبُكم مع الله أو بالعكس. فحذَّرنا أن نُبطن ضدَّ ما نُظهر من الخير مع المؤمنين وبالعكس مع الأبوين الكافرين. وبين ذلك بقوله لمن أخطأ ثم تاب: **إن تكونوا صٰلحين فإنه كان للأوّٰبين غفورا**.

---

١ أَنِف من الشيء يأنَف أَنَفا إذا كرهه (لسان العرب، «أنف»).

٢ جميع النسخ: لوالده.

٣ ن: لهذا.

٤ ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٥٧-٥٨). وانظر أيضا: سورة الدخان، ٤٤/٢٥-٢٦.

٥ ش - فإن هذا ومثله من جملة المعروف ولكنه إنما يجب في حال الحياة لقوله عن الأبوين المشركين.

٦ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (سورة لقمان، ٣١/١٥).

٧ جميع النسخ: أن تستغفر.

٨ ن - لله. | لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۞ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة، ٩/١١٣-١١٤).

٩ ش: إذا ذكر.

١٠ ك ن: أن نقول.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ٢٦﴾

وءات ذا القربىٰ حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا، أي ولو كان ذلك في الصدقة.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ٢٧﴾

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ٢٨﴾

وإما تعرضن عنهم، عن جملة المذكورين، **ابتغاء رحمة من ربك ترجوها**، هذا تصحيح ما قلناه من الإحسان إلى الوالدين ولو كانا كافرين. إنما ذلك الإعراض يكون لأجل أنك تبتغي به رحمة ترجوها من الله، كما يُعرض من أسلم عن أبيه وقرابته[1] وصاحبه وهو يبتغي بالإعراض رحمة لنفسه بميله عنه فيضطره بإعراضه عنه إلى الإسلام؛ أي فإن صدر مثل ذلك منك إليهم فعلا، **فقل لهم قولا ميسورا**. والميسور ضد المعسور، أي إن لم تُعطِهم فعلا فأَعْطِهم قولا. ويُفهَم من هذا أيضا إذا كان الإعراض عن الإعسار قابلهم بحُسْن الاعتذار. ولهذا قدم ذكر "ٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ" فجعل القول الميسور مع الإعراض فرضا كفرض الصدقة المتقدم بقوله: وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ،[2] ويؤكد ذلك قوله: وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ.[3]

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٩﴾

ولا تجعل يدك مغلولة إلىٰ عنقك، تمثيلا لفرط الإمساك كمن يده وعنقه في غِلٍّ واحد. **ولا تبسطها كل البسط فتقعدَ ملوما محسورا**، بمعنى مُحْسَر من الحسرة عند العسرة، وغيّر للوِزان. ويحتمل أن يكون من معنى قوله: وَهُوَ حَسِيرٌ،[4] بمعنى كالّ، من الكلال والانقطاع.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ٣٠﴾

إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء، أي إذا علمت أنه يبسط، فلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً،[5]

---

١ ش ك: أو قرابته.

٢ الآية ٢٦ من هذه السورة.

٣ سورة الضحى، ٩٣/١٠.

٤ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (سورة الملك، ٦٧/٤).

٥ من الآية السابقة.

فإن ذلك لا يغنيك، وإن الله قادر على أن يُغنيهم عنك، ولكنه امتحنك بهم. وقوله: ويقدر، أي يقدر كقوله: وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ.[1] إنه كان بعباده خبيرا بصيرا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

ولا تقتلوا أولٰدكم خشية إملٰق، ظنا منكم أنه قد يَحُلّ بهم في المستقبل. نحن نرزقهم وإياكم، أي في ذلك الوقت. وفي الموضع الآخر لم يَذكر الخشية بل قال: مِّنْ إِمْلَٰقٍ،[2] أي قد حلّ بكم، فالقتل هناك لأجل الآباء وهنا لأجل الأبناء. إن قتلهم كان خطئا كبيرا، الخِطْءُ الذنب، وهو من خَطِئ يَخْطَأُ خَطَأً وخطيئة. فالخاطئ مَن تعمَّد ما لا ينبغي، والمخطئ مَن أراد الصواب فصار إلى غيره، ومنه قوله تعالى: وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا.[3] تقول: أخطأتُ ولا تقول:[4] خَطِئتُ، فالخطأ خطيئة لم يَتعمدها الفاعل، فغيّر اللفظ لتغير المعنى.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

ولمّا قال: ولا تقتلوا النفس التى حرم الله، قَتْلَها، إلا بالحق، سقط غيرُه ولزم انتفاءُ تأويل مَن قال: فلا يُسْرِفْ / فى القتل، أي ولا يَقتل غيرَ قاتله، أو لا يَقتل اثنين بواحد، لأن الخطاب[5] بالنهي الأول كاف، فبطل ذلك التأويل. وهذا المعنى يُفهَم بقراءة مَن قرأ بفتح القاف في قوله: ومن قَتل، ثم يصح بضمها أيضا على تلك الصورة. وذلك [هو] الأصل المفهوم أولا بعينه. فالمعنى ومن قَتل منكم مظلوما بفتح قافِ[6] "قَتَلَ" فقد جعلنا لولي المظلوم تسلطا على القاتل، فافهم هذا أولا، إذ لو كان على غير القاتل لعاد الولي أيضا كالقاتل الأول. فإذا فهمت ذلك رجع قوله: فلا يُسْرِفْ، إلى القاتل الأول. ولمّا أَشكلت لفظةُ الإسراف ههنا اختلفوا في تفسير الآية، ففهموا منها [٢٤١ظ]

---

[1] ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (سورة الحجر، ٢١/١٥).

[2] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (سورة الأنعام، ١٥١/٦).

[3] ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ (سورة النساء، ٩٢/٤).

[4] ش ك: ولا تقل.

[5] ن: لأن الخطأ.

[6] لم أعثر على هذه القراءة فيما بين يدي من كتب القراءات المعتبرة.

معنى الإسراف في الأكل، أعني الزيادة، فقالوا: لا يقتلْ أكثر من قاتله. فليس المراد بلفظ الإسراف ههنا ذلك، بل هو من قوله تعالى: [قُلْ] يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ.[1] فهذا القاتل وهو[2] الظالم الأول قد أسرف على نفسه بمخالفة ربه، فنهاه الله أولا بقوله: ولا تقتلوا النفس. ثم حذّره أخيرا على نفسه في الدنيا، لأنه ربما يتعامى عن عذاب الآخرة فقال ما معناه كما تقدم وهو ما نُوضحه بإعادته: ولا تقتلوا إلا بالحق. ومن قَتل، بفتح القاف مظلوما فقد جعلنا لولي المقتول سلطانا في الدنيا على الظالم القاتل. فلا يُسرفِ القاتل على نفسه بأن يقتل أحدا إلا بالحق لئلا يقتله الولي في الدنيا ويبقى مسرفا على نفسه مع المسرفين في النار في الأخرى، إن الولي كان منصورا. فافهم هذه الجملة جيدا متأنيا. فإذا قرأتَ: ومن قُتل، بضم القاف بعد ما فهمته كان المعنى بعينه تاما، إذ الغرض فلا يسرف قاتل على نفسه بأن يقتل أحدا ظلما. وبيّن أن هذا الإسراف إنما هو[3] في القتل. فلو فرضنا أن هذا الولي يَقتل غيرَ القاتل ظلما منه لكان حكمُ الولي كحكم القاتل الأول بعينه، فلا بد من فهم ما ذكرناه على وجهه. فيكون السلطان للولي على الظالم لا على غيره. ويكون النهي عن الإسراف الذي هو القتل بغير الحق إنما هو للظالم خاصة، وهو القاتل الأول. فإن عاد الولي ظالما فالكلام لكل ظالمٍ قاتلٍ بغير حق، فإنه هو المسرف على نفسه بهذه الكبيرة وهو[4] قتل النفس بغير حق. ولهذا كانت القراءة بضم القاف أشمل. فافهم ذلك فهما لا يقع به اشتباهٌ، فإنه عجيب في بابه. فيصير جملة الكلام بمقدَّره المحذوف: ومن قُتل مظلوما من كل مقتول فقد جعلنا لوليه أي لولي المقتول سلطانا، على القاتل الظالم له، فلا يُسرفْ قاتل على نفسه فى القتل، أي بأن يتعرض إلى قتل بغير حق. إنه، إن الولي، كان منصورا، على القاتل الظالم.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتىٰ يبلغ أشده، وأوفوا بالعهد، يريد ههنا عهدَ الموصي ولم يخصصه بالذكر ليعود الأمر بذلك مطلقا. ولهذا كرّر لفظَ "العهد"

[1] سورة الزمر، ٥٣/٣٩.
[2] ن: هو.
[3] ك ن: إنما هي.
[4] ن: هو.

تنبيها بعد التخصيص على الإطلاق فقال: إن العهد كان مسئولا، أي مطلوبا، وهذا دليل ما قلناه في قوله تعالى: وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ،[1] أي طُلبت.

﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم. أصل القسطاس من القِسْط وهو العدل. وأصله غير مستعمَل وهو قَسْطَسَ مثل خَلْخَلَ، والاسم خِلْخَال؛[2] وقَسَّط مشددة[3] السين إذا كانت من القسط[4] وقسطس[5] مثل زَلّل وزَلْزَل من زَلّ، وشَمَّم من شَمْشَم،[6] والله أعلم. ذٰلك خير وأحسن تأويلا، ما يئول إليه الأمر في عاقبته.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

ولا تقف ما ليس لك به علم، هنا كلام هو ثمرة المعارف. وأصل المعرفة لكل[7] عارف، وهو أن تعلم أن كل علم ومعرفة وكشف وبابٍ من أبواب المطالب الظاهرة أو الباطنة[8] متى كانت ثمرته أن يَعْظُم الحق في أنفسنا فهو مطلوب. وليس المراد أن يَعْظُم الحق في نفسه، فهو عظيم في نفسه عظّمه[9] عباده أو جحدوه، بل المراد أن / يعظم في أنفسنا لا غيرُ. ومتى لم يكن الغرض هذا فلا جائز أن نتعرض إليه ولا أن نقف فيه بوجه. وهذا أصل تَبطل به علومٌ كثيرة وعقائدُ ضاعت فيها أعمارٌ. وهذا أصل في فهم ما يجب فهمه والكفِّ عما لا يجوز الخوض فيه مما هو مَضْيَعَة للعمر ومَشغلة للقلب سواء كان من المسموع أو المرئي أو المستنبَط. [٢٤٢و]

إن السمع والبصر والفؤاد كل أولٰئك كان عنه مسئولا، يُسأل الإنسانَ: فيما أضعتَ سَمْعك، إلى ماذا صرفت بصرك، بأي شيء شغلت قلبك.[10] وهذا أخص بالتفكر

---

[1] ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ (سورة التكوير، ٨١/٨-٩).

[2] جميع النسخ – خلخال، والمثبت من م.

[3] ن: مشدة.

[4] جميع النسخ: كلقسمط. والثمبت من م.

[5] جميع النسخ – وقسطس، والمثبت من م.

[6] ك – من شمشم، صح هـ.

[7] ش ك: كل.

[8] ن: والباطنة.

[9] ش ك: عظمة.

[10] في هذا البيان إشارة إلى حديث روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدمُ ابن آدم يومَ القيامة من عند ربه حتى يُسئل عن خمس: عن عمره فِيمَ أفناه، وعن شبابه فِيمَ أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفِيمَ أنفقه، وماذا عَمِل فيما عَلِم» (سنن الترمذي، صفة القيامة ١).

والعقائد والنيات. فلا يجوز للإنسان أن يستعمل جوارحه إلا في عمل صالح نافع[١] له عند الله سبحانه، فإن هذه الأعضاء خُلقت لأمر عظيم، والله يسأل عنها للمتصرف بها. وظاهر اللفظ يُعطي أنه لا تتعرضْ إلى ما لا يجوز لك التعرضُ إليه من أمور الناس وكشفِ أسرارهم طلبا لعلم ما لم يُعلَم.[٢] وباطن الكلام يُفهَم منه المنعُ عن التعرض إلى علمِ ما فوق طور العقل، مثلَ صفات البارئ وما شاكل ذلك -كما سيأتي بيانه- [والتوجه] إلى ما يعود عليك نفعُه بما يعظم به الحق في معتقَدك ويتنزه ويتعالى. فَلْيَكُ هذا مطلوبا لك بالسمع والبصر والفؤاد. ولهذا خصص هذه الأعضاء بالذكر دون غيرها. فذكر الأخص من الجوارح دل على الباقي بقوله: كل أولٰئك، فلهذا لم يقل: كل ذلك.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ٣٧﴾

ثم قال: ولا تمش فى الأرض مرحا، أي لا تتحرك باطنا ولا ظاهرا عبثا أو مَرَحا ولَعِبا بل على وفق الحكمة ومقتضى الأدب والشِّرْعَة، كقوله: وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ.[٣] إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا، يريد بذلك تعريف الإنسان عجزه وتعليمَه التواضعَ وما شاكل ذلك.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ٣٨﴾

وهذا يُبطل قول المجبرة: إنه أراد السيئة، لأنه من [باب] الإلجاء إلى[٤] أن يريد ما يكره.[٥] ولهذا قيل: إنه تعالى لا يريد لذاته لأنه لا يكره[٦] لذاته، فلو وُصف بإحداهما لزمت الأخرى. فإن قيل: لا بد من إرادةٍ أُولى لأن الإبداع فعلٌ من مختار؟ فقد بيّنّا ذلك عند قوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[٧] وبيّنّا كل مشكل يُراد[٨] في هذا الباب ومثلِه لنأخذه من أصله وإن لم يستوعب تفصيلَ المسائل والردَّ على كل سائل.

١ ك - نافع، صح هـ.
٢ ك ن: ما يعلم. وفي هامش ك: ما لا يعلم.
٣ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ (سورة لقمان، ٣١/١٨-١٩).
٤ ك ن - إلى.
٥ وفي نسخة م نص يحتمل قراءتين: الأولى: لأنه مَنْ ألجأه أن يريد ما يكره؟ والثانية: لأنه مِن الجاءِ أن يريد ما يكره. والقراءة الأولى أقرب إلى الصواب، والله أعلم.
٦ جميع النسخ: لا مكره، والمثبت من م.
٧ سورة الذاريات، ٥١/٥٦.
٨ جميع النسخ: يريد.

ويجب أن يُعلَم أنّ الشرائع هي خطاب بما هو في قوة العقول، وليس لنا أن نَعلم من غير الشرائع لأنها سبيل العقول من خالق العقول إلى مرضاته منا لها. فأما ما فوق طورها فهو دليل لها من جهة قصورها. وهذا الاعتراف هو سجود العقل لبارئه المتعالي بذاته عن أشرف مُبدَعاته، وذلك عين الشرع وهو الإيمان بالغيب.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

ذٰلك مما أوحىٰ إليك ربك من الحكمة، ما في كتاب الله تعالى فهي أحكام حكمةٍ بجملتها وفرائضُ حُكِم في بعضها ونُدبَ إلى الأولى في الباقي منها، **ولا تجعل مع الله إلٰها ءاخر فتلقىٰ فى جهنم ملوما مدحورا**. وتكرار قوله: لَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ،[1] في الدنيا؛ **ولا تجعل**، **فتلقى** في جهنم.

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

ولقد صرفنا، من التصرف والاحتيال في الأمر ليضعه على أحسن ما يكون من[2] مقاصده، **فى هٰذا القرءان ليذّكّروا وما يزيدهم إلا نفورا**.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾﴾

قل لو كان معه ءالهة كما يقولون إذًا لابتغوا إلىٰ ذى العرش سبيلا، أي لو كان معه آلهة كما يدّعون لطلبوا طريقا يتصلون به إلى صاحب العرش. ويحتمل أن المراد بالسبيل ههنا ما يعود إلى المقاهرة، كقوله: وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ،[3] ومنه قوله: إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ.[4] ولهذا بعده ههنا: **سبحٰنه وتعٰلىٰ عما يقولون علوا كبيرا**. ولفظة[5] "سبحان" هي كلمة لا يحتمل أن يكون إلّا مصدرا، لأنه اسم وليس بنعت.

---

[1] الآية ٢٢ من هذه السورة.

[2] ك ن – يكون من.

[3] ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ (سورة المؤمنون، ٩١/٢٣).

[4] ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٤٢).

[5] ك ن: ولفظ.

ولهذا أضيف إلى الله تعالى، ومعناه التنزيه لله، ومعنى / التنزيه التبعيد. وإذا قلت: نزهت[١] [٢٤٢ظ] الشيء عن الشيء، فالمعنى بَعّدتُه. ومنه قول الناس تنزهنا، أي تباعدنا في الأرض. وأصلها من سَبَح يَسبَح في الماء، ومعناه تباعد. ومنه سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ.[٢]

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

ثم لمّا كَثُرت هذه اللفظة على الألسنة وعُرفت اتسعوا في تصريفها وتغيير معانيها. ولهذا قال ههنا: تسبح له السمٰوٰت السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده. "شيء" من أعمّ العموم، لأنه ينطلق على كل جملة وتفصيل وكل كثير وقليل. ولمّا كان كل مشار[٣] إليه من الموجود قد أُخرج من العدم إلى الوجود عاد وجوده حامدا بالحال الذي لا يحكيه المقال ولا يُمكن حصرُه في البال. ولهذا قال: ولٰكن لا تفقهون تسبيحهم، إشارةً إلى أنه قد يدرَك بعض ذلك بالتفقه، وأما كله فلا. إنه كان حليما غفورا، منسوق بقوله: سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ،[٤] أي فلولا حلمه ومغفرته لاستأصلهم بما يقولون.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

وإذا قرأت القرءان جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا، إنما ذِكْر الحجاب حال القراءة حُسِبَ عقابا لهم وسدّا لباب الفهم بدليل ما بعده. وليس المراد أنهم لا يرون النبي عليه السلام، بل هو كقولهم: وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ.[٥] ولهذا بعده: وجعلنا علىٰ قلوبهم أكنة، ما يَكِنّ ويَستر كراهة، أن يفقهوه، عقابا لهم كما لم يؤمنوا، وفى ءاذانهم وقرا، ثِقَلا في الأذن، والوِقْر بكسر الواو الحِمْل. وإذا ذكرت ربك فى القرءان وحده، أي بغير ذكر آلهتهم، ولّوا على أدبٰرهم نفورا، بمعنى نافرين عن التوحيد.

---

١ ك: تنزهت.

٢ ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (سورة النساء، ٤/١٧١).

٣ ن: كل مشارا.

٤ الآية ٤٣ من هذه السورة.

٥ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/٥).

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

نحن أعلم بما يستمعون به، أي بقلوبهم بدليل يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ،[1] وتمام هذه الآية دليل أيضا، **إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوىٰ**، أي في نجوى مع بعضهم بعضا. والأَوْلى أن الباء في "به" باء السبب. والمعنى نحن أعلم بالذي يستمعون بسببه، أي بسبب استماعهم [وهو] طلب القدح فيك بالسحر.[2] ولهذا بعده: **إذ يقول الظٰلمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا**، أي سُحر فأزيل عن حد الاستواء، كقوله: إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ.[3]

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾

انظر كيف ضربوا لك الأمثال، بالمسحورينَ وتارة بالمجانينِ وغير ذلك، **فضلوا فلا يستطيعون سبيلا**، إلى الهدى.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾﴾

وقالوا أءذا كنا عظٰما ورفٰتا، حُطاما، التحطيم التكسير، **أءنا لمبعوثون خلقا جديدا. قل كونوا**، أي استشعِروا أنكم تكونون، **حجارة أو حديدا، أو خلقا مما يَكۡبُر فى صدوركم**، كالجبال أو السماء. **فسيقولون من يعيدنا؟ قل الذى فطركم أول مرة. فسينغضون إليك رءوسهم**، أنغض رأسَه، أي حرّكه كالمتعجّب، ونَغَض رأسُه تحرك رأسُه. **ويقولون متىٰ هو؟ قل عسىٰ أن يكون قريبا.**

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾

يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم، في الدنيا والقبر، **إلا قليلا.**

---

١ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ (سورة التوبة، ٧٨/٩).

٢ ن: بالشجر.

٣ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ (سورة القلم، ٥١/٦٨).

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾

وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطٰن ينزغ بينهم، نزغ الشيطان إذا أفسد وأغرى، ونزغه[1] مثل ندغه[2] ونسغه،[3] والنَّسْغ مثل النخس[4] والندغ[5] مثل الطعن. إن الشيطٰن كان للإنسٰن عدوا مبينا.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤﴾

ولا يُشكِلْ عليك كونه تعالى فَرض عليه القتال بعد قوله: وما أرسلنٰك عليهم وكيلا، وما أنت عليهم بحَفيظ[6] ومثل ذلك.[7] فنقول: وأي وكيل يكون أشدَّ من المقاتل بالسيف، وقد قال له من قبل:[8] إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ.[9] فاعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام بمكة ثلاثَ عشرة[10] سنةً لم يُؤمَر بقتال، وبعد ذلك سِنينَ بالمدينة، فيجب العلمُ بأن السيف ليس حجة. وإنما أنزل الله السيف جوابا لمن عاند الحق بعد / ظهور [٢٤٣و] الحجة. وجاء المعاند بالسيف والقوة، فأنزل الله عز وجل أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ،[11] أي أذن لمن يُمكنه القتال أن يقاتل بسبب أنه ظُلم كما بيّنّاه في موضعه. فقد كان القتال مُتَجَنَّبا[12] ثم صار مباحا، ثم صار فرضا للدفاع، والحجة ظاهرة والبينة قاهرة. مع أن الأمر بمقاتلة الناس إنصاف وعدلٌ بين أهل الحق وأهل الباطل،[13] بل فضل من الله تعالى على الفريقين. يُكفّر عن المؤمنين من خطِيآتهم ويُسلم من الكفار ما شاء الله ومن ذرياتهم. وقد بيّنّا مثل ذلك.

١ نزَغ بينهم نَزْغا: أفْسَد، وأغرى، وحمَل بعضَهم على بعض (تاج العروس للزبيدي، «نزغ»).

٢ ندغه: طعنه ونخسه بإصْبَعه (لسان العرب، «ندغ»).

٣ نسغه: نخسه (تاج العروس للزبيدي، «نسغ»).

٤ أصل النَّخْسِ الدفع والحركة (لسان العرب، «نخس»).

٥ ن: والنذغ.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ (سورة النساء، ٨٠/٤).

٧ ن + ومثل ذلك.

٨ ك - من قبل، صح هـ.

٩ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ (سورة الشورى، ٤٨/٤٢).

١٠ ك ن: عشر.

١١ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾ (سورة الحج، ٣٩/٢٢).

١٢ ك: متخبا.

١٣ ش: الباطن.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

وربك أعلم بمن في السمٰوٰت والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين علىٰ بعض. قدّم ذكر العلم منه على ذكر التفضيل[1] إعلاما أن التفضيل إنما كان على وفق العلم منه بما سيكون منهم من امتثال أمره، فهو بالعدل والحكمة لا بالهوى وبما قد يُفهَم من لفظ المشيئة. وهذا التفضيل ههنا وإن فُهِم منه الإطلاقُ فالمراد به ما آتاهم من الكتب وما آتى بعضهم دون بعض. ولهذا بعده: وءاتينا داوود زبورا، مما جاء في الزبور: أَنْذِر الصدّيقين أني غيور ويشّر[2] المذنبين بأني غفور. وقال: أنين المذنبين أحب إليّ من دعوة الصديقين.[3]

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

قل ادعوا الذين زعمتم من دونه، كائنا من كان سوى الله تعالى. وهذا يَعمُّ البشر والأصنام. ثم تكلم في الآية الثانية عمن يعقل، وذلك بعد قوله: **فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا**، له من وقت إلى وقت، فقال: **أولٰئك الذين يدعون يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة أيهم أقرب.** ولمّا جمع كل مدعوٍّ سوى الله تعالى قال[4] عمن يعقل ما معناه: أولئك المدعوون الذين يَدْعونهم الداعون، ثم يبتغون إلى رب الداعين الوسيلة، **ويرجون رحمته ويخافون عذابه.** وتقديره وإذا كان الأمر كذلك أيهم أقرب إلى إجابة الداعي: هل المدعو أم رب الكل الذي يتوسل إليه المدعو؟ ولمّا كان قد جعله في الآية عند الاحتجاج ربَّ مَن يعقل فهو أولى أن يكون رب من لا يعقل. وأخر ذكر العذاب لكونه يريد أن يذكره في الآية التي بعدها. وتمم الكلام بما معناه أنه لا ربَّ إلا الله، وهو الذي يُميت ويَملك الأرواح كلها، وأن الموت والعذاب، وهو[5] ما يحذر في الدنيا، إنما هو إلينا لا إلى ما يَدْعُون، وأن ذلك جميعَه معلوم عندنا، مسطور في كتاب بعدل وحقّ لا بظلم وباطل، فقال:[6] **إن عذاب ربك كان محذورا.**

---

١ ك: التفصيل.
٢ ك: وتبشر.
٣ لطائف الإشارات للقشيري، ٣/٥٠.
٤ جميع النسخ: فقال، والمثبت من م.
٥ ن: هو.
٦ ك – فقال، صح هـ.

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ۝٥٨﴾

وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيٰمة، بالموت، يقال: هلك فلان، أي مات، ومنه إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ.[١] فقد يكون الإهلاك الذي هو الموت بعذاب، كقوله: وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ،[٢] وقد يكون بغير عذاب كما ههنا. ولهذا فصله بقوله: **أو معذِّبوها عذابا شديدا**، جزاء شديدا[٣] بما كسبت. **كان ذٰلك**، الجزاء بالعذاب وإهلاك [القرية] الصالحة بالموت، **في الكتٰب مسطورا**، لأن أعمال العباد وما يستحقونه وغيرَ ذلك معلومٌ لله سبحانه، وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ.[٤] وتقديره العلم الأزلي فلِم لا يكون العذاب محذورا، وإن مِن قرية صالحة أو طالحة إلا إلينا أمرها.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩﴾

وما منعنا أن نرسل، هذا الرسول،[٥] **بالأٰيٰت**، التي اقترحها عليه هؤلاء كإنزال الملائكة وغير ذلك مثلَ ناقة صالح وعصا موسى، **إلا أن**، قد، **كذّب بها الأولون**، فاستحقوا الاستئصال. فمعناه: ذلك لئلا يكذبوا هؤلاء فيحل بهم مثلُ ذلك. **وءاتينا**، أي ولقد آتينا، **ثمود الناقة**، آية، **مُبْصِرة**، تُبصر وتَبين، **فظلموا**، أنفسهم، **بها**، أي بسببها، إذ كذبوا فاستحقوا العذاب. **وما نرسل**، رسولا، **بالأٰيٰت إلا تخويفا**، لقومه يخوّفهم[٦] الاستئصال[٧] إن لم يؤمنوا فلزم أنه إذا لم نرد الإهلاك[٨] لا نرسل بالآيات. وفرقٌ بين إيمان الخائف وبين إيمان غيره إلا من العاقل.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ۝٦٠﴾

---

١ ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾ (سورة النساء، ١٧٦/٤).

٢ ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ (سورة طه، ١٣٤/٢٠).

٣ ش + جزاء؛ ك ن – شديدا.

٤ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (سورة الرعد، ٤٣/١٣).

٥ ك ن: الرسل.

٦ م + من الهلاك.

٧ م – الاستئصال.

٨ جميع النسخ – إن لم يؤمنوا فلزم أنه إذا لم نرد الإهلاك، والمثبت من م.

[٢٤٣ظ] وتمم الكلام بقوله في مثل ذلك: / وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس، أي فلا يقدرون عليك، وذلك آية، وهو قوله: وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ.[١] وأما الرؤيا فهي فتنة، وهي قوله: وما جعلنا الرءيا التى أرينٰك، وهي دخول مكة، امتحن الله بها قلوب الناس ليَظهر إيمانهم مِن كفرهم، لأنه لم يدخلها في تلك السنة ولم يكن عَيّنَ السنةَ وهو معنى قوله: لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا.[٢] وقوله ههنا: إلا فتنةً للناس، أي اختبارا،[٣] والشجرةَ الملعونة فى القرءان، اختبار أيضا، وهي شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ[٤] وتمام آيتها، لنخوّف بذكرها. وقيل: هي الشجرة التي أكل منها آدم؛ أي ما ذكرناها في القرآن إلا تخويفا لهم من المخالفة. ونخوّفهم، بما نريهم من الآيات، فما يزيدهم، ذلك، إلا طغيٰنا كبيرا، فيستحقون الاستئصال حينئذ.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢﴾

ثم عطف على [قوله:] وَإِذۡ، الاولة[٥] لكونه عين أن ذلك فتنة للناس[٦] قضية آدم وإبليس إعلاما لنا أن إبليس أيضا فتنة للناس. وجعل ذكر هذه القصة[٧] ههنا كالمثل ضُرب بما[٨] نعلمه لنعلم أن إبليس[٩] يَبعثهم[١٠] على الشهوات والمُحرَّمات بما هذا منزلتُه، أي بكل وجه متى أطاعوه. وأكبَرُ ذلك الأكلُ لأنه أصل في الماء، ثم الجسمانية والاستكبارُ لأنه أصل في المآثم النفسانية. فلمّا كانت هذه القصة جامعةً لأصول[١١] الفِتَن ذكرها مُكرّرًا لها ههنا بصورة المَثَل كما قدمنا فقال: وإذ قلنا للملٰئكة اسجدوا لآدم

---

١ سورة المائدة، ٥/٦٧.

٢ ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (سورة الفتح، ٤٨/٢٧).

٣ ن: اختبار.

٤ ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٦٢-٦٣).

٥ م: الاولة. ويمكن قراءته: الأولى. | أي عطف الله تعالى الآية التالية التي تبحث عن قضية آدم وإبليس على الآية الأولى التي تخبر عن نفس القضية من سورة البقرة، ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٤).

٦ جميع النسخ – للناس، والمثبت من م.

٧ ن: هذه الفتنة.

٨ ن – بما.

٩ ش – أيضا فتنة للناس وجعل ذكر هذه القصة ههنا كالمثل ضرب بما تعلمه لنعلم أن إبليس.

١٠ أي يَحثّهم.

١١ ش: أصول.

فسجدوا إلا إبليس قال ءأسجد لمن خلقت طينا، وحذف بعض القصة، إذ ليس المراد بيانها ههنا، بل التمثيل بها، فقال ما قاله إبليس: **قال أرءيتك هٰذا الذى كرمت علىّ لئن أخّرتنِ إلىٰ يوم القيٰمة لأحتنكنّ ذريته إلا قليلا**. الحَنَك ما تحت الذِّقن من الإنسان وغيره. يقال: حنكْتُ الفرس مشددة النون إذا داويت حَنَكَهُ، ومخففة النون إذا وضعت المِقْوَد في حنكها تقودها به. وأَحْتَنِك: أَفْتَعِل بمعنى[1] أَقُودُهم إلى طاعتي باحتناكهم،[2] كما تقاد[3] الدابة المذلَّلة بما في حنكها، واحتنك الرجل إذا استحكم، فيحتمل أن يكون المعنى من ذلك.

﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣﴾

قال اذهب، معناه طَرْد وإبعاد، إذ ليس فيه مجيء ولا ذهاب. **فمن تبعك منهم**، في التكبر أو في الطاعة لك، **فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا**.

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾

واستفزز من استطعت منهم بصوتك، أَفْزِزْته، أي أَزْعجتُه وخوّفته. **وأجلبْ**، والجَلَب والجلبة الأصوات المجتمعة، **عليهم بخيلك ورَجِلك**، هذا على طريق المثل إشارة إلى بذل الجهد في إضلالهم، أي بكل راكب وماشٍ. **وشاركهم فى الأموٰل والأولٰد وعِدْهم وما يعدهم الشيطٰن إلا غرورا**. هذه الأوصاف المذكورة حَكَم اللهُ الشيطانَ[4] بها على من أجاب دعوة الشيطان من الناس. فإن الله كما ابتلى إبليس بآدم كذلك ابتلى آدم وبنيه بإبليس إلى يوم القيامة، وذلك عدل من الله. وفي تكرار هذه القصة حِكَمٌ، إذ في كل مكان يذكر صفةً يُفهَم منها أمر يَنحلّ به مشكل أو تَظهر به حكمة. فذكر كل صفة بموضع هو الأليق بذكرها فيه. فافهم[5] في كل موضع لِم ذكرها، فإنه يأتي بها وبالمكررات من أمثالها على المثل لما جاورها كما بيّنّا ههنا.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ٦٥﴾

إن عبادى ليس لك عليهم سلطٰن وكفىٰ بربك وكيلا، الوكيل هو الحافظ.

---

[1] ش: يعني.
[2] ك ن: بإحناكهم.
[3] ك ن: كما يقاد.
[4] ن: والشيطان.
[5] ن: فإنهم.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ۝٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾

فلما ذكر الرب الوكيل الكافي ذكر برهانا يدل على ذلك فقال: ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما، ولهذا قال بعد ذلك: وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه. فلما نجٰكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسٰن كفورا.

﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ۝٦٨﴾

أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا، راجما بالحصباء وهي الحصا. ثم لا تجدوا لكم وكيلا، حافظا موكَّلا بحِراستكم.[1]

﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ۝٦٩﴾

أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرىٰ فيرسل عليكم قاصفا، وهي التي تَقصِف الشجرَ، من الريح فيُغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا، التبيع هو التابع، أي لا تجدون لكم علينا بالإغراق تابعا يأخذ[2] بثأركم منا.

﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ۝٧٠﴾

ولقد كرمنا بنى ءادم وحملنٰهم فى البر والبحر ورزقنٰهم من الطيبٰت وفضلنٰهم علىٰ
[٢٤٤و] كثير ممن خلقنا تفضيلا، كثيرا، ولم يقل: على من / خَلَقْنا، لأنه كان[3] يكون ذما، إذ كان يُفهَم منه بصريحه أنهم أفضل من الجن، والمراد أنهم أفضل من الملائكة، لأنه لا تكون الأفضيلة على الأدنى مدحا بل على الأعلى.

[تفضيل البشر على الملائكة]

والملك أعلى ولكن الإنسان أفضل بوجوه. من ذلك أن الملك مطبوع على امتثال الأمر غيرُ مختار كالإنسان. فإذا صار الإنسان كالمطبوع على امتثال الأمر اختيارا

---

[1] ن: بحراستهم

[2] ك: بأخذ.

[3] ن ك: كأن.

حصلت فيه فضيلةُ المختار والمطبوع معا. فالمراد ههنا[١] أنه تعالى فضّلهم على الملائكة، لأن بديهة[٢] العقل تُعطي أن الملك أفضل. ولمّا كانت الأفضلية لا تكون على ما دون الفاضل مدحا -لأنه لا يقال: الإنسان أفضل من الحجر أو الخشب-[٣] بل يكون مدحا إذا تفضل الفاضل على الفاضل عادت[٤] الإشارة إلى ما يقع في بَدَائِه العقول أنه فاضل، وهم الملائكة، لأن ما فوق الإنسان[٥] إلا الملك. ولهذا بسط أولا بقوله: ولقد كرمنا، وتمامِه. ولم يماثل[٦] البشرَ في التكرمة إلا الملائكةَ بقوله: كِرَامًا كَٰتِبِينَ.[٧] فلا جائز أن يكون التفضيل على غيرهم، خصوصا وقد أسجدهم لآدم. وأدلُّ الدلائل قوله: أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ.[٨] وهذا يدخل تحته محل[٩] ما برأ[١٠] الله عز وجل. وليس في الملائكة من اسمه رءوف رحيم، ولا يملكون الترقي بالكسب.

وأقول بعد ذلك: لا يصح أن يقال قولا مطلقا: الإنسان أفضل من الملك، بل الإنسان الممتثِل لأمر الله تعالى، ولهذا غلط مَن جعل أحدهما أفضل من الآخر بغير تفضيل وشرط. فالتفضيل ما كان من قبل خلقا من جهة الرب، وما صار من بعدُ كسبا من جهة العبد. فالبارئ خلق الملك أفضل وخلق الإنسان متمكّنا من أن يجعل نفسه أفضل من الأفضل، وهداه بالرسل إلى هذه الأفضلية. فإذا امتثل صار خيرَ البرية. وبيان ذلك أنْ ليس في البرية مَن فِعْلُه بنفسه يَبلغه غايةً لم يبلغه إياها فِعلُ ربه به إلا الإنسانُ. وإيضاح ذلك أن فعل ربه به[١١] لا يمنح ثوابا ولا يمنع عقابا، لأن فعل ربه به التمكينُ، وفعلُه بنفسه التزكية والتفضيل. فإن عارض ناقصُ[١٢] الفهمِ بأن قال: كيف يكون فعلُ العبد لنفسه أفضلَ من فعل المعبود؟ فالجواب أن هذا الفعل الذي صدر من العبد هو في الأصل من فعل المعبود، لأنه تعالى هو أعطاه[١٣] أن يعطي نفسه تلك الغاية وهداه إليها. وهذا أبلغ في القدرة المنسوبة إلى المعبود وأقوم في العقل المنسوب إلى العابد.

---

١ ك - ههنا، صح هـ.

٢ ش: لأنه فضيلة.

٣ ن: والخشب.

٤ ن + وصارت. وما بين السطرين في نسخة ش: صارت.

٥ لأنه لا يوجد فوق الإنسان.

٦ ن: ولم يماثله.

٧ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ (سورة الانفطار، ٨٢/١٠-١١).

٨ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة، ٩٨/٧).

٩ ن ك: يحل.

١٠ ش ن: ما برء.

١١ ن - به.

١٢ ن: ناقص.

١٣ ش: من فعل المعبود هو أعطى.

وبفهمه يصح التكليف وتثبت حجةُ الله تعالى على خلقه برسله. وبهذا كان الإنسان خليفة الله على نفسه، لأنه يفعل فيها بإذنه سبحانه وتمكينه ما لا يقدر أن يفعله إلا الله من خير وشر، إذ بكسبه يعطي نفسه جنة أو نارا.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾

ولهذا لمّا ذكر التفضيل في الدنيا بما وهبهم من لدنه ذكر بعده التفضيلَ في الأخرى، وهو اللازم عن كسبهم كأنه قال: ولقد كرمناهم وحملناهم ورزقناهم وفضّلناهم بالكسب لأجل ذلك اليوم، **يوم ندعوا كل أناس بإمٰمهم**، الذي كانوا يتبعونه. **فمن أوتى كتٰبه بيمينه**، كأنه قال: ولقد فعلنا معهم في الدنيا كيت وكيت، **فمن أوتى كتٰبه بيمينه**، في يوم ندعو كل أناس بإمامهم. **فأولٰئك يقرءون كتٰبهم ولا يظلمون فتيلا.**

﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

ومن كان فى هٰذه أعمىٰ، بإمالة الميم، **فهو فى الآخرة أعمىٰ**، بفتح الميم،[1] ولهذا بعده ما دل على فعل التعظيم لقوله: **وأضلُّ سبيلا**، نعوذ بالله. لو لم يخوِّف اللهُ العبادَ إلا بهذه لكان قد أسمع.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

وإن كادوا، أي بزعمهم، **ليفتنونك**، أي يضلّونك بفتنتهم، **عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره**. ولو فعلت ذلك لآمنوا بك وعظّموك، **وإذًا لاتخذوك خليلا.**

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

ولولا أن ثبتنٰك، بما أوحينا إليك، **لقد كِدتَ تركن إليهم شيئا قليلا**، يشير إلى شدة فتنتهم حتى مثلُه كاد أن يَرْكَنَ. وهذا خطاب للعام بالخاص، والمراد به ليَخشَى

[1] أمال "أعمىٰ" معا أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف، وقرأ أبو عمرو ويعقوب بإمالة الأول محضة وفتحا الثاني (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٣٦٠).

ويحذّرَ بقية المؤمنين بما قاله بعد ذلك في حق سؤاله:[١] لو ركن[٢] في شيء قليل فكيف حال غيره في الكثير؟ وذلك قوله: إذًا لأذقْنك ضعف، عذاب، الحيوٰة وضعف، عذاب، الممات، والمراد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. وضعف[٣] الشيء إما يُزاد عليه مثلُه أو يكون مثليه سوى الأول. ثم لا تجد لك علينا نصيرا.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾

وإن كادوا / ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلْفك إلا قليلا، [٢٤٤ظ] الخِلاف لغة في الخَلْف. وقد قرئ بكل منهما في السبعة وفي الثلاثة بعدها، فابن عامر وحفص[٤] وحمزة والكسائي من السبعة وأبو جعفر[٥] ويعقوب[٦] من الثلاثة قرءوا خلافك، والباقون قرءوا خلفك، أي بعدك إلا زمانا قليلا أو لبثا قليلا.[٧]

﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾

سنةَ من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا، انتقالا، أي سنتنا أن الأمة إذا أخرجت نبيها عُوجِلت بالإهلاك، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ،[٨] بما عذب[٩] به غيرهم من الأمم المكَذِّبة لأنبيائهم. فهم كادوا أن يُخرجوه، فلو أخرجوه[١٠] لعُوجِلوا. ولا يعارض هذا قوله: إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ،[١١] فذلك ليس من الأرض بل من بينهم.

١ ش – في حق سؤاله.

٢ ن: لو تركن.

٣ ش + عذاب الممات والمراد عذاب.

٤ أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة الاسدي بالولاء، قارئ أهل الكوفة. نزل بغداد، وجاور بمكة. وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءته. توفي سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م (الأعلام للزركلي، ٢/٢٦٤).

٥ أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي بالولاء، المدني. أحد القراء العشرة من التابعين. وكان إمام أهل المدينة في القراءة وعرف بالقارئ. توفي سنة ١٣٢م/٧٥٠م (الأعلام للزركلي، ٨/١٨٦)

٦ أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي البصري. أحد القراء العشرة. مولده ووفاته بالبصرة. كان إمامها ومقرئها. توفي سنة ٢٠٥هـ/٨٢١م (الأعلام للزركلي، ٨/١٩٥).

٧ ش – إلا زمانا قليلا أو لبثا قليلا، صح هـ.

٨ سورة الأنفال، ٨/٣٣.

٩ ك ن: بما عدت.

١٠ ن – فلو أخرجوه.

١١ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ (سورة التوبة، ٩/٤٠).

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾

ولما كان قوله: وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ،[1] من أجل النِّعَم التي يجب عليها أكبرُ الشكر والحمد قال بعده: أقم الصلوٰة لدلوك الشمس، قيل: بروزِها، وقيل: أصل الدلوك من الدلك الذي يُزيل سوادَ الجسم المدلوك، فكأن الشمس بنورها عند بزوغها تَدْلُك طرق السماء من أفق المشرق فتزيل سواد الليل. وذلك الحين بعد ما يَظهر للرائي في أفق المشرق ضوءُ الفجر الثاني، وهو أول وقت من أوقات النهار التي يجب فيها إقامةُ الفريضة. وإقامة الصلاة تُطلَق في كتاب الله تعالى على الفرائض، أعني لفظ "الإقامة"، فطالع مواضعه. فذكر الإقامة ههنا من مبدأ، وهو قوله: لدلوك الشمس، ثم قال: إلىٰ غسق اليل، ولم يقل: إلى الليل ليعرِّفَنا أنه قد جمع بين هذين الوقتين جملة الفرائض من صلوات تقام. فغسق الليل العشاء الآخرة.[2] ولو أخذ رب الحق يبين لكل إنسان دليلا على الحق ليثبّته في فهمه لَمَا وَسِع كلامَه كتاب، إذ لكل إنسان ذهنٌ يَحتاج إلى صورة ومقدار من البيان ليقع في ذهنه ما أراده الخصمُ المحِقّ أن يقولَ صحيحا، ويستدل ويبرهنَ لقوم يعلمون. ثم يكون البيان على عالم الوقت المسئول عن البيان. وقوله: وقرءانَ الفجرِ، نصب بالمفعول معه، تقول: استوى الماء والخشبةَ، أي معا، لأن القرآن مع الصلاة. إن قرءانَ الفجر كان مشهودا، أي للملائكة.[3] والأولى أنه مشهود بالقلوب، أي تشاهده[4] في وقت الفجر أكثرَ مما تشاهده[5] في وقت آخر لصفاء النفس في هذا الوقت وقلة الاشتغال ظاهرا من الاشتغال وباطنا من الطعام. وعند الفراغ يحصل من التدبر ما لا يحصل مع الاشتغال ولو بأبلغ التفكر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾

ومن اليل فتهجد به، بالقرآن، وهذا التهجد غير الفرض. وقوله: نافلة لك، دليل على أن الإقامة المذكورة أولا بقوله: أَقِم،[6] لازمة له لا لأمته. والتهجد النوم والتهجد السهر،

---

[1] الآية ٧٤ من هذه السورة.

[2] ش – الآخرة.

[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر. ثم يَعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم –وهو أعلم بكم– فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون (صحيح البخاري، التوحيد ٢٣، ٣٣؛ وصحيح مسلم، المساجد ٢١٠).

[4] ش: أي نشاهده.

[5] ش: مما نشاهده.

[6] من الآية السابقة.

وهو من الأضداد. وقال ابن السِّكِّيت:[١] أَهْجَد البعيرُ إذا ألقى جِرانَه[٢] إلى الأرض.[٣] ويقال: هجد إذا نام. وتهجد إذا استيقظ فصلى وإلا ليس بتهجدٍ قامه. واعمل لتكون تابعا لنبيك فيما هو له نافلة. **عسىٰ أن يبعثك ربك مقاما محمودا.**

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾

وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق، فالمراد بفتح الميم كل مدخل ومخرج وهو اسم المكان، وبضمها[٤] هو اسم المتمكن، كقوله: لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ،[٥] [وكقوله]: وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ.[٦] **واجعل لى من لدنك سلطٰنا نصيرا.** والقراءة بضم الميم أولى؛ ونصب الكلمتين على الحال، ومعناهما أدخلني حيث أدخلتني وأخرجني من حيث أخرجتني، وأنا على حالة الصدق، فهذا أعم وأولى.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

وقل جاء الحق وزهق، اضمحلّ، وزهقت نفسُه، أي خرجت عجلة مسرِعة قبل وقت الخروج. فقال: **وزهق البٰطل**، أي مسرِعا حين جاء الحق. **إن البٰطل كان زهوقا**، في نفسه، فكيف إذا جاء الحق، والمراد بالباطل أهله.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾﴾

وإذا أنعمنا علىٰ الإنسٰن أعرض ونـٔا، أي بَعُدَ بَعْدَ الإعراض، **بجانبه**،[٧] عن الحمد والشكر للمُنعِم. **وإذا مسه الشر كان يئوسا.**

١ أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، ابن السكيت، إمام في اللغة والأدب. أصله من خوزستان (بين البصرة وفارس). تعلم ببغداد، واتصل بالمتوكل العباسي، فعهد إليه بتأديب أولاده، وجعله في عداد ندمائه، ثم قتله لسبب مجهول. توفي سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م (وفيات الأعيان لابن خلكان، ٣٩٥/٦؛ والأعلام للزركلي، ١٩٥/٨).

٢ ش: جرأته.

٣ تهذيب اللغة للأزهري، «هجد».

٤ قرأ أبو جعفر بفتح الميم فيهما والباقون بالضم (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٤٠، ٣٦٠).

٥ ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (سورة الشعراء، ١٦٧/٢٦).

٦ ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (سورة يسٓ، ٢٦/٣٦-٢٧).

٧ ن + أي.

﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾

قل كل يعمل علىٰ شاكلته، طريقته ووِجهته، والشَّكْلاء الحاجة. وقيل: على شكل جوهر نفسه، وهذا جيد. فربكم أعلم بمن هو أهدىٰ سبيلا.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾

[الروح]

اعلم أن الروح هي النفس باعتبار. فالروح[1] مشتقة من الريح، ولهذا قال تعالى: فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن / رُّوحِنَا[2] بلفظ النفخ ولم يقل: من نفسنا. ويقال في اللغة: أَحْيِ النارَ [٢٤٥و]
بروحك، أي بنفخك لها. ومثال ذلك أن الماء الذي يسري في أصل الشجرة إنما هو ماء. فإذا مازج جسمها صار حامضا أو حلوا مَثَلا. وكذلك نفخ الروح في الجنين. فإذا كَبُر واكتسب سمِّي بعينه نفسا، فهذا الاسم أولى بالمكتسَب. ولهذا قال الله تعالى: كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ،[3] ولم يقل: كل روح. ويعبر بالنفس عن جملة الإنسان. تقول: عندي ثلاثة أنفس ولا تقول: ثلاثة أرواح. وكذلك الكلام في العقل، لأنه حالة تَتَّصف بها النفسُ فتسمَّى النفس عقلا كما سمِّيت الروحُ نفسا. ويتضح لك ذلك بالفكر مع ما تقتضيه العبارةُ لغةً. ولهذا قال بعضهم: واشتق عقل من العقال، كذلك النفْس مشتقة من النفَس. فالوصف كالذات قد أقيم لذي الوصف مجازا كالقبْس والقبَس.

واعلم أنه[4] أول ما يقع[5] في نفس السائل ويتقدم في عقله هل الروح قديمة أو محدثة؟ وعلى هذا الأصل الأصيل يتنَى كثيرٌ من الأسئلة. والمسئول الخبير إذا اقتصر على جواب دل على أن ما اقتصر عليه كافٍ. فقوله تعالى: قل الروح من أمر ربي، هو جوابٌ كافٍ. وبيان ذلك أن سائر المحدَثات عن أمره لا عنه سبحانه. ومتى فهمت هذا الأسّ المتينَ كان الجواب مفصِحا عن كيفية المراد بالسؤال. فكأنه قال: الروح مخلوقة من جهة الأمر، كما أن سائر المخلوقات من الأمر. والأمر ههنا هو "كُنْ"، كقوله تعالى: خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ.[6] إن الأمر هو قوله "كُنْ"، وإن الروح مخلوقة من "كُن"

---

١ ن: فإن الروح.

٢ ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ (سورة التحريم، ١٢/٦٦).

٣ سورة المدثر، ٣٨/٧٤.

٤ ن: أن.

٥ ن – يقع.

٦ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة آل عمران، ٥٩/٣).

الذي هو الأمر، فالروح من الأمر. ثم قال: **وما أوتيتم من العلم**، الذي يُعلَم به ما تَضمنه السؤال، **إلا قليلا**، لأنه تضمن أشياء كمعرفة ماهيتها وغير ذلك. فعرّفهم ما لهم في معرفته فائدة وكفاية، وصرح لهم بالعجز عما عدا ذلك، وحقّق لهم الضروريُّ من أنها مخلوقة. وأكثر الخلق إنما تاهُوا لكونهم لم يعلموا أنه مخلوقة. ومتى علموا ذلك يقينا[١] استغنوا عن معرفة ما عداه. فيحقق لنا كيفية السؤال أنه كان معناه الروح من أي شيء؟ فقال في الجواب ما أفصح وبين به كيفية السؤال، لقوله: **من أمر ربي**.

واعلم أن الحياة صفة للروح كما أن الحياة صفة لخالق الروح. ولما كانت حقائق الأشياء لا تُعلَم وإنما تُعلَم صفاتُها لزم في العقل أن القادر المطلق سبحانه إنما علّمنا وحقق عندنا ما لنا فيه نفع. وإنما طوى عنا علْمَ ما لا نفعَ لنا. فبحثُنا عن علمِ ما طوى خروج عن الواجب، وعدوان وطلب للمعدوم الذي لا علم لنا به. وقد نهى عن ذلك بقوله: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ.[٢] ومثلنا في ذلك كمريضٍ ترك استعمالَ الدواء واشتغل بعلم ذات الدواء وخواصه، وهذا من لوازم الطبيب لا المريض. فهذا المريض لا يُشْفَى أبدا. وبعد هذا فاعلم أن الإبداع إيجاد شيء من لا شيء، والخلق إيجاد شيء من شيء. قال الله تعالى: بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ،[٣] وقال: خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ.[٤] والإبداع أعم من الخلق، ولهذا قال: بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ، وقال: خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ.[٥] فإذا فهمت ذلك فاعلم أن الوجود قسمان: روحاني وجُسماني. فالجُسماني أولى بأن يقال: هو مخلوق في زمن، والروحاني مبدَع بقول "كُن"، لأنه لا يدخل تحت الحواس. وقد قال الله تعالى: **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**، والقليل لا يحيط بهذا المبدَع، فكيف يحيط بالمبدِع سبحانه.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

ولهذا بعده: **ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا؛ إلا**، بمعنى لكن أوحينا إليك ذلك، **رحمة من ربك. إن فضله كان عليك كبيرا**.

---

١ ن: تعينا.

٢ الآية ٣٦ من هذه السورة.

٣ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة البقرة، ٢/١١٧). وانظر أيضا: سورة الأنعام، ٦/١٠١.

٤ سورة النحل، ١٦/٤.

٥ ش – والإبداع أعم من الخلق ولهذا قال بديع السمٰوٰت وقال خلق الإنسٰن.

الفضل هو القرآن لمن أُوتي عقلا يُدركه به. والعقل يجد أن الإنسان قادر على بعض المقدورات عاجز عن حلّها، كما أنه عالم لبعض المعلومات جاهل بحلها. فالقادر العالم المطلق هو الله، والقادر العالم المخصَّص الإنسان.[1] فلا حاجة لنا في معرفة ذات العبد أو ذات الحق جل وعلا، إذ لم نقم[2] بالصفات التي ندبنا[3] إليها وأُقدرنا عليها. وإذا قُمْنا بها فلا ضرر علينا بما لم يَصِل علمُه إلينا. والعلم لا يصل إلا من الله. وإذا لم يُؤْتِنا منه إلا القليلَ فلا علم لنا سوى ذلك. والعليم سبحانه إذا عَلم كان ما علمه كافيا في بابه لاقتصاره عليه. فإن ادعى مُدَّعٍ أن لهذا العلم بابا يدخل منه إليه وأنه الذوق والكشف، فالجواب أن لا مدخل إلى ذلك إلا بتقدم ما قدمناه أولا، وهو اتباع الأمر. / فوجب تصحيح ذلك لينتفي سوى مراده سبحانه. وهذا كله في القرآن. ولهذا قال: [٢٤٥ظ]

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

ولقد صرفنا للناس فى هٰذا القرءان من كل مثل، ليؤمنوا، فأبى أكثر الناس إلا كفورا.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

وقالوا لن نؤمن لك حتىٰ تفجر لنا من الأرض ينبوعا، كما عمل موسى، وجمعه ينابيع، وهو ما يَنبع منه الماء.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾

أو تسقط السماء، أي من السماء، كما زعمت، إذ قال تعالى: إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ،[4] علينا كسفا، أي قِطَعا، تُسكَن السين بقراءة ابن كثير[5]

---

[1] ن: والإنسان.

[2] ن: إذ لم تقم.

[3] جميع النسخ: تدنيا، والمثبت من م.

[4] سورة سبأ، ٩/٣٤.

[5] أبو معبد عبد الله بن كثير الداري المكي. أحد القراء السبعة. وهو فارسي الأصل. مولده ووفاته بمكة. توفي سنة ١٢٠هـ/٧٣٨م (الأعلام للزركلي، ١١٥/٤).

وأبي عمرو وحمزة والكسائي، وتُحرّك بقراءة الباقين. وكذلك الطاء. **أو تأتى بالله والملئكة قبيلا**. القبيل ههنا مذكر قبيلة وجمعه قُبُل. ومنه قوله تعالى: وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا،[1] أي قبيلا قبيلا. "والقبيلة[2] واحدةُ قِطَع الرأس وهي [القطع] المشعوب بعضها إلى بعض تَصِلُ بها الشئون وبها سميت قبائل العرب، واحدتها قبيلة"،[3] وقبائل مثل قتيلة وقتائل وحميلة وحمائل.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

أو يكون لك بيت من زخرف، الزخرف الذهب، ثم يشبَّه به كل مموّه[4] مزوَّر،[5] والمُزخرَف[6] المُزيَّن. **أو ترقىٰ فى السماء**، قُدّامَ أعيننا. **ولن نؤمن لرقيك حتىٰ تنزل علينا كتٰبا نقرؤه. قل سبحٰن ربى هل كنت إلا بشرا رسولا**.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

قل لو كان فى الأرض ملئكة يمشون مطمئنين، طامَنَ ظَهْرَه وطَمْأن: إذا سكنه منحنيا.[7] والمطمئن من الأرض المخفوض، والطُّمَأْنِينَة السكون، يقال على القلب وعلى الجسد. فمعنى "مطمئنين" ههنا أي ساكنين في الأرض. ويحتمل أن يكون بمعنى منخفضين، أي من السماء، **لنزلنا عليهم**، على أولئك الملائكةَ ليكون رسولهم من جنسهم، **من السماء ملكا رسولا**.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

---

١ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (سورة الأنعام، ١١١/٦).

٢ ن - والقبيلة.

٣ ما بين المعقوفين من العبارة موجود في لسان العرب، «قبل».

٤ موّه الشيءَ إذا طلاه بفضة أو ذهب. مموَّه: مُزخرَف (تاج العروس للزبيدي، «موه»).

٥ كلام مُزوَّر ومتزوَّر: مُمَوَّه بكذب، وقيل: مُحَسَّن (لسان العرب، «زور»).

٦ ك ن: والزخرف.

٧ انحنى الشيء انعطف (لسان العرب، «حنا»).

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾

ومن، أي وقل: **من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل**، الله من الناس، **فلن تجد لهم أولياء من دونه. ونحشرهم يوم القيٰمة على**، أي يمشون، **على وجوههم**. والمشي لا يكون على الوجه إلا سَحبا، كقوله: يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ.[1] وأما قوله: أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ،[2] أي مكبا رأسه إلى الأرض. وقوله: عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ، أي يمشي على جهة وجهه، أي كيف ما اتفق وجهُه مَشَى، وقد بيّنّا ذلك في موضعه. وأما ههنا فالمراد أنهم يُحشرون سَحْبًا على وجوههم كما كانوا متبعين الأهواءَ في الدنيا، كلُّ قوم بصورة ما كانوا عليه، **عُمْيًا وبكما وصما**. فعماهم في الآخرة عما يسرُّهم النظرُ إليه بالأعين أو القلوب، لهذا كان العمي هناك أشد. **مأوٰهم جهنم. كلما خبت**، طَفِئَت زادهم الله على النار الأولى لهبا. ولهذا قال: **زِدْنٰهم**، ولم يقل: رددناهم عليهم، ثم جعل الزيادة، **سعيرا**، فهو من اللهب والاشتعال.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ٩٨﴾

﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾

أولم يروا أن الله الذى خلق السمٰوٰت والأرض قٰدر على أن يخلق مثلهم،[3] لأن خلق السماوات أكبر من خلق الناس،[4] ولهذا قال عنهم لا عن السماوات، ومثله في آخر سورة يٰسٓ.[5] **وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظٰلمون إلا كفورا**.

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾

---

١ ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ (سورة القمر، ٤٨/٥٤).

٢ ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (سورة الملك، ٦٧/٢٢).

٣ جميع النسخ + هم.

٤ يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٥٧).

٥ ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ (سورة يٰسٓ، ٣٦/٨١).

قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذًا لأمسكتم، ثم عرّفنا أن ذلك الإمساك هو، خشيةَ الإنفاق، نسب الخشية إلى الإنفاق، كقوله: بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ.[1] وقد يَظن الظانُّ أن الأَولى أنه كان يجب أن[2] يقول:[3] خشية الإملاق أو الفقر، وليس كذلك، وإنما هو كما تقول: أخشى أن أفعل كيت وكيت لئلا يكون كذا وكذا فكذا وكذا، إنما كان سببه كيت وكيت. والخشية أولى بأن تُنسَب إلى السبب، إذ السبب يلزم عنه ما يلزم، فحذف اللازم فصاحةً ولأنه معلوم، وهذا حالنا إذا كنا نَملك خزائنَ الرحمة التي لا تَنفد.[4] ثم بين سبب الإمساك وأنه من حيثُنا فقال: وكان الإنسٰن قتورا، ولم يقل: وجَعَلْنا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

ولقد ءاتينا موسىٰ تسع ءايٰت بينٰت، وفي التوراة عَشر آيات، وهي: الدم، والضفادع والقُمَّل، والوحوش، والغلاء، والقروح، والبرد، والجراد، والظلام، وموت الأبكار من كل إنسان وحيوان في ليلة.[5] ويحتمل أن الآية / العاشرة لما لم تكن إلى فرعون ومَلَئِه [٢٤٦و] خاصة بل إليهم وإلى غيرهم لم تُعَدّ في القرآن. ويحتمل أن بعض الآيات لمشابهته لبعض عُدّ بآية واحدة. ويحتمل التبديل في التوراة والزيادة. وأما تفصيل التسع فمن ذلك ما ذكره في مواضعه.[6] ومن ذلك ما أحاله على قوله: فاسئل بنِى إسرٰءيل، أي من أسلم منهم[7] من العلماء. فإنهم يعلمون ذلك من التوراة. إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يٰموسىٰ مسحورا.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

١ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ (سورة سبأ، ٣٤/٣٣).

٢ جميع النسخ - كان يجب أن، والمثبت من م.

٣ جميع النسخ: قال، والمثبت من م.

٤ ك: لا تنفذ.

٥ انظر لذلك في التوراة: الخروج ٧/١٤-٢٥، ٨/١-٢٤، ٩/٢٩-٣٢، ٩/١٧-٣٥، ١٠/٣-٦، ١١-٢٠، يوئيل، ١/٤-٧، المَزامير، ١٠٧/٣٣-٣٥. وانظر أيضا: بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، ١/٥٦٤-٥٦٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٦٩-٢٧٢؛ والدر المنثور للسيوطي، ٦/ ٥٠٨-٥١٨.

٦ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٣٣).

٧ ك - منهم، صح هـ.

قال لقد علمت ما أنزل هٰؤلاء، الآيات، **إلا رب السمٰوٰت والأرض بصٰئر**، جمع بصيرة، إذ بها يكون الإبصار، لأنها نور. **وإني لأظنك يا فرعون مثبورا**، الثبور ههنا يريد بها الهلاكَ. وقوله: **لقد علمت**، معلوم من قوله تعالى: وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ.[1] ففرعون علم ذلك يقينا، ولكنه جحد مع علمه تكبرا وظلما وعلوا.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾

فأراد أن يستفزهم من الأرض، التي لَحِقهم لَحَقا بعد الخروج من مصر. ويحتمل -وهو الأولى- أن المعنى فأراد أن يُفزّعهم ويُزعجهم ليمنعهم من الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، وذلك بردهم أو بإهلاكهم. ولهذا كان جزاؤه، **فأغرقنٰه**. وهذا الفعل منه كان حين ما أتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدْوًا،[2] لا قبل ذلك، فإنه قبل ذلك كان يمسكهم، ولهذا عاقبه بقوله: **فأغرقنٰه ومن معه جميعا**.

﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾

ثم قال قبالة قوله: يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ:[3] **وقلنا من بعده لبنِى إسرٰءيل اسكنوا الأرض**، أي المقدسة، لأنهم لم يسكنوا غيرها. فلمّا كرر ذلك الأرض بصورة واحدة من التعريف بيّن بالثانية المسكونة لهم أنها هي الأولة التي أراد فرعون أن يستفزهم منها بمعنى أنه يَحرِمهم دخولَها. وإذا نبهتك على معنى فلا تتقيد بلفظي بل خذ[4] معناه وافهم المقصود بكلام الله، فإني لم أَتفرَّغ أن أُثبت لك من المقدَّر المحذوف في كل موضع ما لا يمكن أن يكون إلا ذلك اللفظُ بعينه، بل أذكر المعنى وأنبه باللفظ الحاصر عليه، ولك أن تعبّر بما شئت إذا عرفت المعنى والأَولى به من اللفظ. **فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا**، اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائلَ شتى. وأصله مِن لفِّ الشيءَ، أي جعل بعضَه على بعض. فاللفيف ههنا فعيل بمعنى مفعول. والمعنى جئنا بكم جمعا ملفوفا مختلطا من مؤمن وكافر وعاصٍ وطائع.

---

[1] ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ (سورة النمل، ١٤/٢٧).

[2] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ (سورة يونس، ٩٠/١٠).

[3] من الآية السابقة.

[4] جميع النسخ: خذها، والمثبت من م.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾

ولما قدم قوله من قبل: قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ،[1] وتمامَ الآية عطف عليه قوله: **وبالحق أنزلنٰه وبالحق نزل**، الحق الأول هو ما أوجب الإنزال، والثاني ما تضمنه المُنزَل. **وما أرسلنٰك إلا مبشرا ونذيرا.**

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾

وقرءانا، منصوب بالمفعول معه، وتقديره: وما أرسلناك وقرآنا إلا مبشرا ونذيرا. فأخّر ذكر القرآن ليعطف عليه قوله: **فرقنٰه**، وهو مخفف الراء مِن فرقْتُ الشيء إذا فصلته فجعلته مفروقا، أي لم نُنزّله عليك جملة واحدة، **لتقرأه على الناس علىٰ مكث**، المكث بضمّ الميم وفتحها اللُّبث. ولا يريد بذلك: لا تسرعْ عند قراءته وتلاوته، كقوله: لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ،[2] فذلك معنى قائم بنفسه. ودليل ما قلناه قوله تعالى ههنا: **فرقنٰه**، بتخفيف الراء بمعنى قَسَمْناه، أي جعلناه أقساما. **ونزلنٰه تنزيلا**، أي لتقرأه على الناس على مكث، فيَمكث ثم يقرأ بحسب ما يَنزل إليه.

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧﴾

قل ءامنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلمَ من قبله، يشير إلى بني إسرائيل الذين أسلموا، لقوله: أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ.[3] **إذا يتلىٰ عليهم يخرون للأذقان سجدا.**

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾

ويقولون سبحٰن ربنا إن كان وعد ربنا، في التوراة،[4] **لَمفعولا**. تقديره ويرفعون رءوسهم، **ويخرون**، مرة ثانية بعد ما رفعوا من الأولى. وقالوا: والمقصود من الثانية، أي ويخرون، بعد ذلك يشير إلى ملازمة الصلوات، **للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا**،

---

١ الآية ٨٨ من هذه السورة.

٢ ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ (سورة القيامة، ١٦/٧٥-١٨).

٣ سورة الشعراء، ١٩٧/٢٦. | ش – الذين أسلموا لقوله أولم يكن لهم ءاية أن يعلمه علمٰؤا بنى إسرٰءيل.

٤ ش – في التوراة، صح هـ.

فهذه صفتهم، لأن الأُولى منبئة عن الإيمان والثانيةَ عن العبادة دائما. ومعنى "خر" إذا سقط إلى الأرض[1] مسرعا، وخرير الماء حُدوره بصورة. وقوله: **للأذقان**، بمعنى حتى تصل الأذقانُ إلى الأرض.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

/ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّا**، اخترتم فادعوا. وقوله: **ما**، هي بمعنى الذي، **تدعوا**، هو[2] الله، **فله الأسماء الحسنىٰ**. والمراد أنكم إذا دعوتموه بسائر الأسماء الحسنى فهي أسماء له. ولمّا كانت الأسماء كثيرة حَصَر بقوله: **الحسنىٰ**، وهي ضد القُبْحَى. وذَكَر الرحمن مثالا للأسماء الحسنى. ولمّا ذكر الدعاء وكانت الصلاة دعاء أيضا عطف هذا الكلام على قوله: فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ،[3] لأن النافلة في الليل إن جهر بها كأنه يحصل رياء أو أذى لمن هو نائم. وعبادة السر أولى فإن خافت أدّاه إلى النوم أو السهر. فالأَولى سبيل بين ذلك كما قال ابن مسعود: من أسمع أذنيه لم يُخافِتْ.[4] ودليل ما قلناه قوله بعد هذه الآية ههنا: وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ،[5] وبعده قوله: فَتَهَجَّدْ، وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي، وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ.[6] فلما وصل إلى ههنا كرر اللفظ مبتدئا، **قل ادعوا الله**، وعطف صفة الصلاة على التهجد، وعطف [قوله:] وَقُل، التي بعد[7] قوله: وَقُل،[8] التي بعد التهجد ليدل عليه. فتأمل ذلك ما أَحْسَنَهُ، إذ قد أزال المعارضة بالجهر والمُخافَتَةِ لكون ذلك في التهجد فقال: **ولا تجهر بصلوٰتك ولا تخافت**، خَفَتَ نفسُه إذا سكن، وخافَتَ بمعنى فاعل من السكون، **بها**، في التهجد. **وابتغ بين ذٰلك سبيلا**. فوجب أن يكون الكلام عائدا على الرسول فقط ويكونَ تماما لقوله: وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ،[9] فهذا يدل على صلاة الليل، أعني النافلة. فتمم ذلك الكلام مخاطبا للرسول عن صلاة النافلة في الليل خاصة بقوله: **ولا تجهر بصلاتك**، وهذا وجه جيد. وفهمنا منه كيف يجب أن يكون كلُّ صلاة غير صلاة[10] الجهر المعروفة من السنة، والله أعلم. ولهذا بعده: وَقُل.[11]

[٢٤٦ظ]

١ ش: سقط عن الأرض.
٢ ن: سوى.
٣ الآية ٧٩ من هذه السورة.
٤ تفسير سفيان الثوري، ص ١٧٥.
٥ من الآية التالية.
٦ الآيات ٧٩-٨١ من هذه السورة.
٧ جميع النسخ: وبعد.
٨ الآية ٨٠ من هذه السورة.
٩ الآية ٧٩ من هذه السورة.
١٠ ك - غير صلاة، صح هـ.
١١ من الآية التالية.

ولمّا كان جملة الخطاب للرسول جاز أن يأمره الله بأمر ثم يخبره بما شاء عَقِيبَه، ثم يعود إلى تمام الأمر أو مثله بحسب الأليق والأولى من ذكر كل شيء في موضعه.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

وأخّر هذا الكلام ليختم السورة بالحمد والتكبير فقال: وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل، إذ لا يلحقه ذلٌّ فيحتاج إلى ولي. وكبره تكبيرًا، كثيرا عما يعبَّر عنه بالأقوال ويخطر في البال. الله أكبر.

٢

Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları
Yayın No. 766-1
İSAM Yayınları 227
Klasik Eserler Dizisi 37

KEŞFÜ'L-ESRÂR ve HETKÜ'L-ESTÂR
Yûsuf b. Hilâl es-Safedî
Cilt 2
Tahkik
Prof.Dr. Bahattin Dartma
İlmî kontrol Prof.Dr. Bekir Topaloğlu

Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.
İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz, Orhan Ençakar
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
Tashih (Arapça) Orhan Ençakar, Okan Kadir Yılmaz
(Türkçe) İsa Kayaalp, İsmail Özbilgin
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, Hasan Hüseyin Can (Kapak),
Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Sema Doğan

Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayımlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
21.12.2018 tarihli ve 2018/18 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: İstanbul - Beyrut, Mart 2019 m. / 1440 h.
Üçüncü Basım: Ankara, Ağustos 2023 m. / 1445 h.
ISBN 978-625-7672-69-6 (Tk.)
978-625-7672-71-9 (2. Cilt)

Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Yûsuf b. Hilâl es-Safedî
Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr [كشف الأسرار وهتك الأستار] / Yûsuf b. Hilâl es-Safedî ; tahkik Bahattin Dartma. 3. bs. – İstanbul ; Ankara : İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) ; Türkiye Diyanet Vakfı, 2023.
İkinci Cilt, 596 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 766-1. İSAM Yayınları ; 227. Klasik Eserler Dizisi ; 37)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7672-69-6 (Tk.) 978-625-7672-71-9 (2. Cilt)

İSAM
TÜRKİYE DİYANET VAKFI
İSLAM ARAŞTIRMALARI MERKEZİ
مركز البحوث الإسلامية

Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr

Yûsuf b. Hilâl es-Safedî
(ö. 696 h. / 1296 m.)

Tahkik
Prof.Dr. Bahattin Dartma

İlmî Kontrol
Prof.Dr. Bekir Topaloğlu

İkinci Cilt

TÜRKİYE DİYANET VAKFI YAYINLARI

İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi, Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamıştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahrâaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlûkler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usulünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkâdir-i Geylânî ve Kâdirîlik*, I-II, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; 2022
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekâ min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; 2022
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi: Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ - Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kâdî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı süreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kâsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Tahrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr* (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsir Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akâid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkîtî), 2020
Sığnâkî, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Alî Kuşçu, *Hâşiyetü Alî el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukûdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. M.T. Boyalık, A. Aytep, Z. el-Kaliş, M.İ. el-Nabulsî), I-IX, 2021
İslam İlim Geleneğinde Nevevî (ed. Nail Okuyucu), 2022
Necmeddin Yûsuf b. Ahmed el-Hâsî el-Hârizmî, *el-Fetâva's-sugrâ* (thk. Abdulhalik Uygur), I-II, 2022
Tenkitli Neşir Kılavuzu (Osmanlı Türkçesi Metinleri İçin) (haz. B. Açıl, S. Yazar, K. Turgut, Ö. Kavak), 2022
Hamza b. Turgut Aydınî, *el-Hevâdî fî şerhi'l-Mesâlik* (thk. Ali Bulut), 2022
Mustafa Ateş, *Bir Osmanlı Fakihi İbn Âbidîn*, 2022
İbrâhim b. Mustafa el-Halebî el-Medârî, *el-Lüm'a fi'l-hudûs ve'l-kıdem ve'l-kazâ ve'l-kader ve tahkîki't-teklîf* (thk. Münzir Şeyhhasan), 2022
Şemseddin İbn Tolun, *el-Gurefü'l-aliyye fî terâcimi müteahhirî'l-Hanefiyye* (thk. Ali es-Seyyid Abdüllatîf), I-III, 2023

Keşfü'l-esrâr
ve hetkü'l-estâr

ISBN 978-625-7672-71-9
9 786257 672719

ISBN 978-625-7672-69-6
9 786257 672696